

البداية والنهاية

للحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل

ابن عمر بن كثير القُرشىّ الدِّمَشْقىّ

٧٠١ - ٧٧٤ هـ

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

بالتعاون مع

مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية

بدار هجر

الجزء الأول

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العلَّامةُ أبو الفِداءِ عمادُ الدينِ إسماعيلُ بنُ كَثِيرٍ ، رحمَه اللهُ تعالى :

الحمدُ للهِ الأوَّلِ الآخِرِ ، الباطِنِ الظَّاهرِ ، الذى هو بكلِّ شىءٍ عليمٌ ، الأوَّلُ فليس قبلَه شىءٌ ، الآخِرُ فليس بعدَه شىءٌ ، الظاهرُ فليس فوقَه شىءٌ ، الباطِنُ فليس دُونَه شىءٌ ، الأزَلِىُّ القديمُ الذى لم يزلْ موجودًا موصوفًا[1] بصفاتِ الكَمالِ ، ولا يزالُ دائمًا مستمرًّا باقيًا سَرْمَديًّا بلا انْقِضاءٍ ولا انْفِصالٍ ولا زَوالٍ . يعلمُ دَبِيبَ النملةِ السوداءِ[1] ، على الصَّخْرةِ الصَّمَّاءِ[2] ، فى الليلةِ الظَّلماءِ ، وعددَ الرِّمالِ . وهو العلىُّ الكبيرُ المُتَعالِ ، العلىُّ العظيمُ الذى خلَق كلَّ شىءٍ فقدَّره تقديرًا ، ورفَع السمٰواتِ بغيرِ عَمَدٍ ، وزيَّنها بالكواكبِ الزَّاهِراتِ ، وجعَل فيها سِراجًا وقمرًا مُنيرًا ، وسوَّى فوقَهنَّ سَريرًا ، شَرْجَعًا[3] عاليًا مُنِيفًا مُتَّسِعًا مُقَبَّبًا مُستديرًا ، هو[4] العرشُ العظيمُ[5] ، له قوائمُ عِظامٌ ، تحمِلهُ الملائكةُ الكِرامُ ، وتحُفُّه[6] الكَرُوبِيُّون[7] - عليهم الصلاةُ والسلامُ - ولهم زَجَلٌ بالتَّقْديسِ والتَّعظيمِ ، وكذا أَرْجاءُ السمٰواتِ مَشْحونةٌ بالملائكةِ ،

---

(1) سقط من : الأصل ، ا .

(2) زيادة من : الأصل .

(3) الشرجع : العالى المنيف ، المشرف على غيره المتناهى فى طوله وعلوه .

(4) فى م : « وهو » .

(5) فى الأصل : « الكريم » .

(6) فى ا : « وتحته » .

(7) الكروبيون : هم سادة الملائكة المقربين .

ويَفِدُ منهم فى كلِّ يومٍ سبعونَ ألفًا إلى البيتِ المَعْمورِ بالسماءِ السابعةِ[1] ، لا يعودون إليه آخِرَ ما عليهم ، فى تَهْليلٍ وتحْميدٍ وتكبيرٍ وصلاةٍ وتسليمٍ . ووَضَعَ الأرضَ للأنامِ على تيَّارِ الماءِ ، وجعل فيها رَواسِىَ من فَوْقِها ، وبارَكَ فيها ، وقدَّر فيها أقْواتَها فى أربعةِ أيَّامٍ [2]سواءً للسَّائلينَ[2] قبلَ خَلْقِ السماءِ ، وأنْبتَ فيها مِن كلِّ زوجَيْن اثنَيْن ، دَلالةً للألبَّاءِ[3] ، مِن جميعِ ما يَحتاجُ العبادُ إليه فى شِتائِهم وصَيْفِهم ، ولكلِّ ما يحتاجُونَ إليه ويَمْلِكونَه مِن حيوانٍ بَهيمٍ .

وبدأ خَلْقَ الإنسانِ مِن طينٍ ، وجعل نَسْلَه مِن سُلَالةٍ مِن ماءٍ مَهِينٍ ، فى قَرارٍ مَكِينٍ ، فجعله سميعًا بصيرًا ، بعدَ أنْ لم يكنْ شيئًا مذكورًا ، وشرَّفه بالعلمِ والتّعليمِ ، خلق بيدِه الكريمةِ آدمَ أبا البَشَرِ ، [4]وصوَّر جُثَّته[4] ، ونفَخ فيه مِن رُوحِه ، وأسْجدَ له ملائكتَه ، وخلق منه زَوْجَه[5] حوَّاءَ أُمَّ البشَرِ ، فآنَس بها وحْدتَه ، وأسكنَهما جَنَّته ، وأسْبَغ عليهما نعمتَه ، ثم أهْبَطهما إلى الأرضِ ؛ لمَا سبَق فى ذلك مِن حِكْمةِ الحَكِيمِ ، وبَثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً ، وقَسَمهم بقَدَرِه العظيمِ مُلوكًا ورُعاةً[6] ، وفقراءَ وأغنياءَ ، وأحرارًا وعَبيدًا ، وحَرائرَ وإماءً ، وأسْكنَهم أرجاءَ[7] الأرضِ ، طُولَها والعَرْضَ ، وجعَلهم خلائِفَ فيها ، يَخْلُفُ البعضُ منهم[8] البعضَ إلى يومِ الحسابِ والعَرْضِ على العليمِ الحكيمِ ، وسخَّر

---

(1) فى م ، ص : « الرابعة » .

(2 - 2) زيادة من : الأصل .

(3) فى ص : « للأولياء » .

(4 - 4) فى ا : « وأسكنه جنته » .

(5) سقط من : الأصل .

(6) فى ح : « رعايا » .

(7) سقط من : ص .

(8) سقط من : ح .

لهمُ(١ الأنهارَ من سائرِ الأقطارِ ، تشقُّ١) الأقاليمَ إلى الأمصارِ ، ما بينَ صِغَارٍ وكبارٍ ، على مقدارِ الحاجاتِ والأوْطارِ ، وأنْبَعَ لهم العيونَ والآبارَ ، وأرسل عليهم السحابَ بالأمطارِ ، فأنْبَتَ لهم سائرَ صُنوفِ الزُّروعِ[٢] والثِّمارِ ، وآتاهُم مِن كلِّ ما سألوه بلسانِ حالِهم وقَالِهم : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ [٢/١ و] نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، فسبحانَ الكريمِ الغنيِّ العظيمِ الحليمِ . وكان مِن أعْظَمِ نِعَمِه عليهم وإحسانِه إليهم ، بعدَ أن خلقَهم ورزقَهم ويسَّر لهم السبيلَ وأنْطقَهم ، أنْ أرسلَ رُسُلَه إليهم ، وأنزلَ كُتُبَه عليهم ، مُبَيِّنةً حلالَه وحرامَه ، وأخبارَه[٣] وأحكامَه ، وتفصيلَ كلِّ شيءٍ فى المبدأ والْمَعادِ إلى[٤] يومِ القيامةِ . فالسعيدُ مَن قابلَ الأخبارَ بالتَّصديقِ والتَّسْليمِ ، والأوامرَ بالانْقِيادِ ، والنَّواهِيَ بالتَّعْظيمِ ؛ ففاز بالنعيمِ المُقيمِ ، وزُحْزِحَ عن (٥مقامِ المكذِّبين فى٥) الجحيمِ ، ذاتِ الزَّقُّومِ والحَمِيمِ ، والعذابِ الأليمِ .

أحْمَدُه حمدًا كثيرًا طيِّبًا مُبارَكًا فيه ، يملأُ أرْجاءَ السمٰواتِ والأَرَضِينَ ، دائمًا أبَدَ الآبِدينَ ، ودهرَ الدَّاهِرينَ ، إلى يومِ الدينِ ، فى كلِّ ساعةٍ (٦وأوانٍ٦) ، ووقتٍ وحِينٍ ، كما ينْبغِى لجلالِه العظيمِ ، وسلطانِه القديمِ ، ووجهِه الكريمِ . وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، ولا ولدَ له ، ولا والدَ له ، ولا صاحبةَ له ، ولا نَظِيرَ له ، ولا وزيرَ له ، ولا مُشِيرَ له ، ولا عَدِيدَ ولا نَدِيدَ ولا قَسِيمَ ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه ، وحبيبُه وخليلُه ، المصطَفَى مِن خُلاصةِ العربِ العَرْباءِ مِن

(١ – ١) فى ا : « الليل والنهار ، هذا لسكنهم وراحة الأبدان ، وهذا لمعاشهم فى سائر الأقطار ، شق » .

(٢) فى الأصل : « الزرع » .

(٣) فى ا : « شرعه » .

(٤) سقط من : ح ، ص .

(٥ – ٥) فى ا : « نار » .

(٦ – ٦) فى ح : « وآن » .

الصَّميمِ ، خاتَمُ الأنبياءِ ، وصاحبُ الحَوْضِ الأكبرِ الرَّوَاءِ[1] ، صاحبُ الشفاعةِ العظمى يومَ القيامةِ وحاملُ اللواءِ ، الذى يبعثُه اللهُ المقامَ المحمودَ الذى يرغبُ إليه فيه الخلْقُ كلُّهم ، حتى الخليلُ إبراهيمُ صلى اللهُ عليه وعلى سائرِ إخوانِه من النَّبيِّين والمُرسلين ، وسلَّم وشرَّف وكرَّم ، أزْكَى صلاةٍ وتسليمٍ ، وأعْلَى تشريفٍ وتكريمٍ ، ورَضِىَ اللهُ عن جميعِ أصحابِه الغُرِّ الكرامِ ، السادةِ النُّجباءِ الأعلامِ ، خُلاصةِ العالَمِ بعدَ الأنبياءِ ، ما اخْتلَط الظلامُ بالضِّياءِ ، وأعْلَنَ الدَّاعِى بالنِّداءِ ، وما نسَخ[2] النهارُ ظلامَ الليلِ البَهِيمِ .

أمَّا بعدُ ؛ فهذا كتابٌ أذكُرُ فيه - بعَوْنِ اللهِ وحُسْنِ توفيقِه - ما يسَّره اللهُ تعالى بحَوْلِه وقُوَّتِه ، مِن ذِكْرِ مَبْدأ المخلوقاتِ ؛ مِن خلقِ العَرْشِ ، والكُرْسِىِّ ، والسَّمٰواتِ ، والأَرَضِينَ ، وما فيهنَّ ، وما بينَهنَّ ، من الملائكةِ والجانِّ والشياطينِ ، وكيفيَّةِ خَلْقِ آدمَ ، عليه السلامُ ، وقَصَصِ النبيِّين ، وما جرَى مَجْرَى ذلك إلى أيَّامِ بنى إسرائيلَ ، وأيامِ الجاهليَّةِ ، حتى تنتهىَ النُّبُوَّةُ إلى أيامِ نبيِّنا محمدٍ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ، فنذكرُ سِيرتَه كما ينبغِى ، فنَشفِى الصدورَ والغليلَ ، ونُزيحُ الدَّاءَ عن العليلِ . ثم نذكرُ ما بعدَ ذلك إلى زمانِنا ، ونذكرُ الفِتَنَ والْمَلَاحِمَ ، وأشْراطَ السَّاعةِ ، ثم البعثَ والنُّشورَ وأهوالَ القيامةِ ، ثم صِفَةَ ذلك ، وما فى ذلك اليومِ ، وما يقعُ فيه مِن الأُمورِ الهائلةِ ، ثم صفةَ النارِ ، ثم صفةَ الجِنانِ ، وما فيها من الخَيْراتِ الحِسانِ ، وغيرَ ذلك ، وما يتعلَّقُ به ، وما ورَد فى ذلك من الكتابِ والسُّنَّةِ والآثارِ والأخبارِ المنقولةِ المقبولةِ [٢/١ ظ] عندَ العلماءِ ووَرثَةِ الأنبياءِ ، الآخِذينَ مِن مِشْكاةِ النُّبُوَّةِ المُصْطَفَوِيَّةِ المحمديَّةِ ، على مَن جاءَ بها أفضلُ الصلاةِ والسلامِ .

---

(١) الرواء : الماء العذب ، والكثير المروى .

(٢) فى ا : « سلخ » .

ولسْنا نذكُرُ مِن الإسْرائيليَّاتِ إلَّا ما أذِن الشارِعُ فى نَقْلِه ، مما لا يخالِفُ كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِه ﷺ ، وهو القِسمُ الذى لا يُصدَّقُ ولا يُكذَّب ، مِمَّا فيه بَسْطٌ لمُخْتَصرٍ عندَنا ، أو تسميةٌ لمُبْهَمٍ ورَد به شرعُنا ، ممَّا لا فائدةَ فى تعْيينِه لنا ، فنذكُرُه على سبيلِ التَّحلِّى به ، لا على سبيلِ الاحْتياجِ إليه والاعْتِمادِ عليه . وإنَّما الاعتِمادُ والاسْتِنادُ على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ما صحَّ نَقْلُه أو حَسُنَ ، وما كان فيه ضَعْفٌ نُبيِّنُه ، وباللهِ المُسْتعانُ ، وعليه التُّكْلانُ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ العزيزِ الحكيمِ ، العلىِّ العظيمِ ، فقد قال اللهُ تَعالى فى كتابِهِ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] . وقد قَصَّ اللهُ على نَبِيِّه ﷺ خبرَ ما مضَى مِن خَلْقِ المخلوقاتِ ، وذكْرِ الأُمَمِ الماضِينَ ، وكيف فعَل بأوليائِه ، وماذا أحَلَّ بأعدائِه ، وبيَّن ذلك رسولُ اللهِ ﷺ لأُمَّتِه بَيانًا شافِيًا ، كما[١] سنُوردُ عندَ كلِّ فصلٍ ما وصلَ إلينا عنه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه من ذلك تِلْوَ الآياتِ الوارِداتِ فى ذلك ، فأخبَرنا بما نحتاجُ إليه مِن ذلك ، وترَك ما لا فائدةَ فيه ممَّا قد يَتَزاحَمُ على عِلْمِه ويتَراجَمُ فى فَهْمِه طوائفُ مِن علماءِ أهلِ الكتابِ ، ممَّا لا فائدةَ فيه لكثيرٍ من الناسِ ، وقد يستوعبُ نقْلَه طائفةٌ من علمائِنا أيضًا[٢] ، ولسنا نَحْذُو حَذْوَهم ، ولا نَنْحُو نحوَهم ، ولا نذكرُ منها إلَّا القليلَ على سبيلِ الاختِصارِ ، ونُبيِّنُ ما فيهِ حَقٌّ منها[٣] يوافقُ ما عندَنا ، وما خالفَه يقعُ فيه الإنكارُ .

فأمَّا الحديثُ الذى رَواه البُخارِىُّ رحِمَه اللهُ فى « صَحيحِه » ، عن [٤]عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ[٤] ، رَضِىَ اللهُ عنه ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال :

---

(١) سقط من : ح ، م .

(٢) سقط من : م ، ص .

(٣) سقط من : م ، وفى الأصل : « فيها » .

(٤ - ٤) فى النسخ : « عمرو بن العاصِ » . والحديث عن عبد الله بن عمرو وليس عن أبيه عمرو . =

« بَلِّغُوا عَنِّى وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ، وَحَدِّثُوا عَنِّى وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . فهو محمولٌ على الإسْرائيليَّاتِ المَسْكوتِ عنها عندَنَا ، فليس عندَنا ما يُصدِّقُها ولا ما يُكذِّبُها ، فيجوزُ روايتُها للاعتبارِ ، وهذا هو الذى نستعملُه فى كتابِنا هذا ، (١فأمَّا ما شَهِدَ له شَرْعُنا بالصِّدْقِ فلا حاجةَ بنا إليه ، استغْناءً بما عندَنا١) ، وما شَهِدَ له شَرْعُنا منها بالبُطْلانِ ، فذاك مَرْدودٌ لا يجوزُ حكايتُه إلَّا على سبيلِ الإنْكارِ والإبْطالِ ، فإذا كان اللهُ سُبحانَه وله الحمدُ قد أغْنانَا برسولِه[٢] محمدٍ ﷺ عن سائرِ الشَّرائعِ ، وبكتابِه عن سائرِ الكُتُبِ ، فلسْنا نترامَى على ما بأيْديهِم [١/٣ و] ممَّا قد وقَع فيه خَبْطٌ وخَلْطٌ ، وكَذِبٌ ووَضْعٌ ، وتحريفٌ وتبديلٌ ، وبعدَ ذلك كلِّه نَسْخٌ وتغْييرٌ . فالمُحْتاجُ إليه قد بيَّنه لنا رسولُنا ، وشرَحَه وأوْضَحَه ، عَرَفَه مَن عَرَفَه ، وجَهِله مَن جَهِله ، كما قال عليُّ بنُ أبى طالبٍ : كتابُ اللهِ فيه خَبَرُ ما قبلَكم ، ونَبَأُ ما بعدَكم ، وحُكْمُ ما بينَكم ، وهو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ ، مَن ترَكَه مِن جبَّارٍ قَصَمَه اللهُ ، ومن ابْتَغَى الهُدَى فى غيرِه أضَلَّه[٣] اللهُ[٤] . وقال أبو ذَرٍّ رَضِىَ اللهُ عنه : لقد تُوُفِّىَ رسولُ اللهِ ﷺ وما طائرٌ يطيرُ بجَناحَيْه إلَّا أذْكَرَنا منه عِلْمًا[٥] . وقال البُخارِىُّ فى كتابِ بَدْءِ الخَلْقِ[٦] : ورَوَى عيسى[٧] بنُ موسى غُنْجَارُ ، عن رَقَبَةَ ، عن قيسِ بنِ

= انظر البخارى (٣٤٦١) . وقوله : « وحدثوا عنى ولا تكذبوا على » ليست فى البخارى بل هى فى المسند ٤٦/٣ ، من حديث أبى سعيد .

(١ - ١) سقط من : ح .

(٢) فى م ، ص : « برسولنا » .

(٣) فى ح : « أخبله » .

(٤) أخرجه مرفوعًا : الترمذى (٢٩٠٦) (ضعيف الترمذى ٥٥٤) . والإمام أحمد ٩١/١ (ضعيف) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ١٥٣/٥ ، ١٦٢ ، والطبرانى ، ورجال الطبرانى ثقات . المجمع ٢٦٣/٨ ، ٢٦٤ .

(٦) البخارى (٣١٩٢) معلقًا .

(٧) فى الأصل ، ح ، م : « عن عيسى » .

مسلمٍ ، عن طارقِ بنِ شهابٍ ، قال : سمعتُ عُمَرَ بنَ الخطابِ رضىَ اللهُ عنه يقولُ : قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ مَقامًا ، فأخبرنا عن بَدْءِ الخَلقِ حتى دخَل أهلُ الجنةِ منازلَهم ، وأهلُ النارِ منازلَهم ، حفِظَ ذلك مَن حفِظَه ، ونَسِيَه مَن نَسِيَه . قال أبو مسعودٍ الدِّمَشْقِيُّ فى « أطرافِه » : هكذا قال البخارىُّ ، وإنما رواه عيسى غُنْجارُ عن أبى حَمْزَةَ ، عن رَقَبَةَ . وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ ، رحمَه اللهُ ، فى « مُسْنَدِهِ »[1]: حدَّثنا أبو عاصمٍ ، حدَّثنا عَزْرَةُ بنُ ثابتٍ ، حدَّثنا عِلْباءُ بنُ أحْمَرَ اليَشْكُرِىُّ ، حدثنا أبو زيدٍ الأنصارِىُّ ، قال : صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصبحِ ثم صَعِدَ المِنْبَرَ ، فخطَبنا حتى حضَرتِ الظُّهْرُ ، ثم نزَل فصَلَّى الظهرَ ، ثم صَعِدَ المِنْبَرَ ، فخطَبنا حتى حَضرتِ العصرُ ، ثم نزَل فصلَّى العصرَ ، ثم صَعِدَ المِنْبَرَ فخطَبنا حتى غابتِ الشمسُ ، فحدَّثنا بما كان ، وبما هو كائِنٌ ، فأعلَمُنا أحْفَظُنا . انْفَرد بإخْراجِه مسلمٌ ، فرواه فى كتابِ الفِتَنِ من « صحيحِه »[2] ، عن يعقوبَ بنِ إبراهيمَ الدَّوْرَقِىِّ ، وحَجَّاجِ بنِ الشاعِرِ ، جميعًا عن أبى عاصمٍ الضَّحَّاكِ بنِ مَخْلَدٍ النَّبيلِ ، عن عَزْرَةَ ، عن عِلْبَاءَ ، عن أبى زيدٍ عمرِو بنِ أخْطَبَ بنِ رِفاعةَ الأنصارِىِّ ، رَضِىَ اللهُ عنه ، عن النَّبىِّ ﷺ بنَحْوِه .

[3]وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدَّثنا يزيدُ بنُ هارونَ وعفَّانُ ، قالا : حدَّثنا حمَّادُ بنُ سَلَمَةَ ، أخبرنا علىُّ بنُ زَيْدٍ ، [5]عن أبى نَضْرةَ[5] ، عن أبى سعيدٍ قال : خطَبَنا رسولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً بعدَ العصرِ إلى مُغَيْرِبانِ الشَّمسِ ،

---

(1) المسند ٥/٣٤١ .

(2) مسلم (٢٨٩٢) .

(3) من هنا إلى آخر الصفحة التالية ليس فى : م ، ص .

(4) المسند ٣/١٩ .

(5 - 5) سقط من : الأصل ، ح .

حَفِظَها مَنْ حَفِظَها ، ونَسِيَها من نَسِيَها – قال عفَّانُ : قال حمَّادٌ : وأكثرُ حِفْظِي أنه قال : بما هو كائنٌ إلى يومِ القِيامَةِ – فحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْه ثمَّ قال : « أمَّا بعدُ ، فإنَّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، أَلَا فاتَّقُوا الدُّنْيا واتَّقُوا النِّساءَ » . وذكَر تمامَ الخُطْبَةِ إلى أن قال : فلمَّا كان عِنْدَ مُغَيْرِبانِ الشَّمْسِ قال: « أَلَا إِنَّ مِثْلَ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيا فِيمَا مَضَى مِنْهَا مثلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى [٣/١ ظ] مِنْهُ » . ثُمَّ قال الإمامُ أحمدُ[1] : ثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، أخبرنا مَعْمَرٌ ، عن عَلِيِّ بنِ زَيدِ بنِ جُدْعانَ ، عن أبِي نَضْرَةَ ، عن أبِي سَعيدٍ ، قال : صَلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ العَصْرِ ذَاتَ يَوْمٍ نَهارًا ، ثُمَّ قامَ فخَطَبَنا إلى أنْ غَابَتِ الشَّمْسُ ، فلم يدَعْ شَيْئًا ممَّا يَكونُ إلى يومِ القِيامَةِ إلَّا حَدَّثَنَاهُ ، حفِظَ ذلك مَنْ حَفِظَه ونَسِيَ ذلكَ مَنْ نَسِيَهُ ، فكانَ مِمَّا قال : « يا أَيُّها النَّاسُ ، إنَّ الدُّنْيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها فَنَاظِرٌ كيفَ تَعْمَلُونَ ، فاتَّقُوا الدُّنْيا وَاتَّقُوا النِّساءَ » وذكَر تَمَامَهَا إلى أنْ قال : ثمَّ دَنَتِ الشَّمْسُ أنْ تَغْرُبَ ، فقال : « وإنَّ ما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا فيما مَضَى منها[2] مِثْلُ ما بَقِيَ مِن يَوْمِكُمْ هذا فيما مَضَى مِنْه » . وهذا هو المَحْفُوظُ ، واللهُ أعلَمُ .

---

(١) المسند ٦١/٣ . ضعيف وبعض فقراته صحيحة (ضعيف الترمذى ٣٨٥) .

(٢) سقط من : ح . وفى الأصل : « منك » .

فَصْــلٌ

قال اللهُ تَعالَى فى كتابِه العَزيزِ : ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] ، فكلُّ ما سِواه تَعالى فهو مخلوقٌ له ، مَرْبوبٌ مُدَبَّرٌ ، مُكَوَّنٌ بعدَ أن لم يكنْ ، مُحْدَثٌ بعدَ عَدَمِه ، فالعرشُ الذى هو سقْفُ المخلوقاتِ إلى ما تحتَ الثَّرَى ، وما بين ذلك مِن جَمادٍ وناطِقٍ ، الجميعُ خَلْقُه ، ومِلْكُه وعَبيدُه ، وتحتَ قَهْرِه وقُدرتِه ، وتحتَ تَصْريفِه [(1)]ومشيئَتِه[(1)] ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] . وقد أجْمَعَ [(2)]علماءُ الإسلامِ[(2)] قاطِبةً - لا يَشُكُّ فى ذلكَ مسلمٌ - أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ وما بينَهما فى سِتَّةِ أيَّامٍ ، كما [(3)]دَلَّ عليه[(3)] القرآنُ الحكيمُ . واختلفُوا فى هذه الأيَّامِ ؛ أهِيَ كأيَّامِنا هذه ، أو كلُّ يومٍ كألفِ سنةٍ ممَّا تعُدُّون ؟ على قولَيْن ، كما بيَّنَّا ذلك فى « التَّفسيرِ »[(4)] ، وسنتعَرَّضُ لإيرادِه فى موضعِه .

واختلفُوا هل كان قبلَ خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرضِ شىءٌ مخلوقٌ قبلَهما ؟ فذهب طَوائفُ مِن المتكلِّمين إلى أنه لم يكُنْ قبلَهما شىءٌ ، وأنهما خُلِقَتا من العَدَمِ الْمَحْضِ . وقال آخرون : بلْ كان قبلَ السمٰواتِ والأرضِ مخلوقاتٌ أُخَرُ ؛ لقولِه تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

(١ - ١) فى ح : « وخشيته » .
(٢ - ٢) فى م : « العلماء » .
(٣ - ٣) فى ا : « نطق بذلك » .
(٤) التفسير ٤٢٢/٣ .

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ الآية [هود: ٧] . وفى حديثِ عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ ، كما سيأتى : « كَانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ شَىْءٌ ، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وكَتَبَ فِى الذِّكْرِ كُلَّ شَىْءٍ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضَ »(١) .
وقال الإمامُ أحمدُ(٢) : حدَّثنا بَهْزٌ ، حدَّثنا حَمَّادُ بنُ سَلَمةَ ، أنبأنا يَعْلَى(٣) بنُ عَطَاءٍ ، عن وَكِيعِ بنِ حُدُسٍ ، عن عمِّه أبى رَزِينٍ لَقِيطِ بنِ عامرٍ العُقَيْلِىِّ ، أنه قال : يا رسولَ اللهِ ، أين كان ربُّنا قبلَ أن يخْلُقَ السَّمٰوَاتِ والأرضَ ؟ قال : « كَانَ فِى عَمَاءٍ ، مَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ ، ومَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الماءِ » ورَوَاهُ عن يَزِيدَ بنِ [١/٤ و] هَارونَ ، عن حمَّادِ بنِ سَلَمَةَ به ، ولفظُه : أَينَ كانَ ربُّنا قَبْلَ أن يَخْلُقَ خَلْقَهُ ؟ وباقِيه سواءٌ . وأخْرَجه التِّرْمِذِىُّ عن أحمدَ بنِ مَنِيعٍ ، وابنُ ماجَهَ عن أبى بكرِ بنِ أبى شَيْبَةَ ، ومحمدِ بنِ الصَّباحِ ، ثلاثتُهم عن يزيدَ بنِ هارونَ ، وقال التِّرمِذِىُّ : حَسَنٌ(٤) .
واخْتلَف هؤلاءِ فى أيِّها خَلَقَ أوَّلًا ؟ فقال قائلون : خلَق القلمَ قبلَ هذه الأشياءِ كلِّها . وهذا هو اخْتيارُ ابنِ جَريرٍ(٥) ، وابنِ الْجَوْزِىِّ(٦) ، وغيرِهما . قال ابنُ جَريرٍ(٧) : وبعدَ القلمِ السَّحابَ الرَّقِيقَ . (٨وبعدَه العَرْشُ٨) واحتجُّوا بالحديثِ الذى رَواه الإمامُ أحمدُ ، وأبو داودَ ، والتِّرمِذِىُّ ، عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ ، رَضِىَ اللهُ عنه ،

---

(١) البخارى (٣١٩١) مطولًا ، وفيه : « شىء غيره » بدلًا من « قبله شىء » . و(٧٤١٨) ويأتى بتمامه فى صفحة ١٣ .
(٢) المسند ١٢/٤ .
(٣) فى الأصل ، م ، ص : « أبو يعلى » .
(٤) أخرجه الترمذى (٣١٠٩) . وابن ماجه (١٨٢) . (ضعيف الترمذى ٦٠٢) .
(٥) تاريخ الطبرى ٣٤/١ .
(٦) المنتظم ١٢٠/١ ، ١٢١ .
(٧) تاريخ الطبرى ٣٧/١ .
(٨ - ٨) سقط من : م .

قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اكْتُبْ . فَجَرَى فِى تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[1] لفظُ أحمدَ . وقال التِّرْمذِىُّ : حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ . والذى عليه الجُمهورُ – فيما نقَلَه الحافظُ أبو العلاءِ الهَمَذانِىُّ وغيرُه – أنَّ العرشَ مخلوقٌ قبلَ ذلك . وهذا هو الذى رواه ابنُ جَرِيرٍ[2] ، مِن طريقِ الضَّحَّاكِ ، عن ابنِ عبَّاسٍ . كما دلَّ على ذلك الحديثُ الذى رَواهُ مسلمٌ فى « صَحيحِه »[3] ، حيثُ قال : حدَّثنى أبو الطَّاهِرِ أحمدُ بنُ عَمْرِو بنِ السَّرْحِ ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ ، أخبرنى أبو هانئٍ الْخَوْلانِىُّ ، عن أبى عبدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِىِّ[4] ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ ، قال : سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » ، قال : « وعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » . قالوا : فهذا التَّقديرُ هو كِتَابتُه بالقلمِ الْمَقادِيرَ . وقد دلَّ هذا الحديثُ أنَّ ذلك بعدَ خَلْقِ العرشِ ، فثبَت [5]تَقدُّمُ خَلقِ[5] العرشِ على القلمِ الذى كتَبَ به المقاديرَ ، كما ذهَب إلى ذلك الجماهيرُ . ويُحْمَلُ حديثُ القلمِ على أنه أوَّلُ المخلوقاتِ مِن هذا العالَمِ ، ويُؤَيِّدُ هذا ما رَواهُ البُخارِىُّ عن عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ قال : قال أهلُ اليمَنِ لرسولِ اللهِ ﷺ : جئناك لنتفَقَّه فى الدِّينِ ، ولنسألَك عن أوَّلِ هذا الأمرِ . فقال : « كَانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شَىْءٌ قَبْلَهُ – وفى روايةٍ : مَعَهُ . وفى روايةٍ : غَيْرُه – وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وكَتَبَ فِى الذِّكْرِ كُلَّ شَىْءٍ ،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣١٧/٥ . وأبو داود (٤٧٠٠) . والترمذى (٢١٥٥) وقال : غريب . و(٣٣١٩) وقال : حسن غريب . وقال المزى فى الأطراف ٢٦١/٤ : حسن صحيح غريب . وصححه الشيخ شعيب (شرح العقيدة الطحاوية حاشية صفحة ٣٤٤) .

(٢) تاريخ الطبرى ٣٩/١ .

(٣) مسلم (٢٦٥٣) .

(٤) فى ح ، م : « الجيلى » .

(٥ – ٥) فى الأصل ، م : « تقديم » .

وخَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ » . وفى لفظٍ : « ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰـوَاتِ وَالْأَرْضَ »[1] . فسألُوه[2] عن ابْتداءِ خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرضِ ، ولهذا قالوا : جئْناك نسأَلُك عن أوَّلِ هذا الأمرِ . فأجابَهم عمَّا سألوا فقط ، ولهذا لم يُخْبِرْهم بخَلْقِ العرشِ ، كما أَخْبَر به فى حديثِ أبى رَزِينٍ المتقدِّمِ .

قال ابنُ جريرٍ[3] : وقال آخرونَ : بل خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الماءَ قبلَ العَرْشِ . رَواهُ السُّدِّىُّ ، عن أبى مالكٍ ، وعن أبى صالحٍ ، [٤/١ ظ] عن ابنِ عبَّاسٍ ، وعن مُرَّةَ ، عن ابنِ مسعودٍ ، وعن ناسٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، قالوا : « إنَّ اللهَ كان عرشُه على الماءِ ، ولم يخْلُقْ شيئًا غيرَ ما خلَق قبلَ الماءِ » . وحكَى ابنُ جَريرٍ[4] ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ ، أنه قال : أوَّلُ ما خلَق اللهُ عزَّ وجلَّ النُّورُ والظُّلْمةُ ، ثم ميَّز بينَهما ، فجعل الظلمةَ ليلًا أسودَ مُظْلِمًا ، وجَعل النُّورَ نهارًا مُضِيئًا مُبْصِرًا . قال ابنُ جَريرٍ[5] : وقد قيل : إنَّ الذى خلَق ربُّنا بعدَ القَلَمِ الكرسىُّ ، ثم خلَق بعدَ الكرسىِّ العَرْشَ ، ثم خلَق بعدَ ذلك الهواءَ والظُّلْمةَ ، ثم خلَق الماءَ ، [6]فوضَع عَرْشَه علَى الماءِ[6] . واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ .

---

(١) البخارى (٣١٩١) ، بلفظ : « غيره » . و(٧٤١٨) ، بلفظ : « قبله » . ولفظ : « معه » عند غير البخارى . انظر : فتح البارى ٢٨٩/٦ .

(٢) فى ح : « قالوه » .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٩/١ .

(٤) تاريخ الطبرى ٣٤/١ .

(٥) تاريخ الطبرى ٣٩/١ .

(٦ - ٦) سقط من : ح .

فَصْلٌ
فيما وَرَد فى صِفَةِ خَلْقِ العرشِ والكُرْسِىّ

قال اللهُ تعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [غافر : ١٥] . وقال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] . وقال اللهُ : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٦] . وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾ [البروج : ١٤ ، ١٥] . وقال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] . وقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . فى غيرِ ما آيةٍ من القرآنِ ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] . وقال تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] . وفى الدعاءِ المرويِّ فى « الصحيح »[١] فى دعاءِ الكَرْبِ : « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمٰوَاتِ ورَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ » . وقال الإمامُ أحمدُ[٢] : حدَّثنا عبدُ الرزّاقِ ، حدَّثنا يحيىٰ بنُ العَلاءِ ، عن عمِّه شُعَيبِ بنِ

---

(١) البخارى (٦٣٤٥ ، ٦٣٤٦ ، ٧٤٢٦ ، ٧٤٣١) بألفاظ متقاربة .

(٢) مسند أحمد ٢٠٦/١ . (ضعيف جدا) .

خالدٍ ، حدَّثنِى سِمَاكُ بنُ حَرْبٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَيْرَةَ[1] ، عن عباسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ ، قال : كنَّا جُلوسًا مع رسولِ اللهِ ﷺ بالبَطْحاءِ ، فمرَّتْ سحابةٌ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « أتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قال : قُلْنا : السَّحابُ . قال : « وَالْمُزْنُ » . قال : قُلْنا : والمُزْنُ . قال : « والْعَنَانُ » . قال : فسَكَتْنا . فقال : « هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ » قال : قُلْنا : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : « بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وكِثَفُ[2] كُلِّ سَماءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ، [3]ثُمَّ فَوْقَ ذلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ ، بَيْنَ رُكَبِهِنَّ وأَظْلَافِهِنَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ [4]فوقَ [١/٥ و] ذلكَ[4] الْعَرْشُ ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ[3] ، واللهُ فَوْقَ ذلِكَ ، ولَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِى آدَمَ شَىْءٌ » . هذا لفظُ الإمامِ أحمدَ ، ورَواهُ أبو داودَ ، وابنُ ماجَه ، والتِّرْمِذِىُّ ، مِن حديثِ سِمَاكٍ بإسْنادِه نحوَه[5] ، وقال التِّرْمِذِىُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ ، ورَوَى شَرِيكٌ بعضَ هذا الحديثِ عن سِمَاكٍ ووقَفَه[6] . ولفظُ أبى داودَ :

---

(١) بعده فى النسخ : « الأحنف بن قيس » ، وليست فى المسند ، ولعله الصواب . فقد أورده المصنف فى جامع المسانيد ٢٠٢/٧ . وليس فيه (الأحنف بن قيس) ، وأخرجه أبو يعلى فى مسنده ٧٥/١٢ من طريق عبد الرزاق أيضًا وليس فيه (الأحنف) . ومن نفس الطريق الحاكم فى المستدرك ٣٧٨/٢ ، ٤١٢ ، وابن الجوزى فى العلل ٨/١ . ومحمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش (١٠) .

(٢) فى م : « كشف » ، وفى المسند : « كيف » . والمثبت موافق لما فى كتاب صفة العرش (١٠) .

(٣ - ٣) سقط من : ح .

(٤ - ٤) فى م : « على ظهورهم » .

(٥) أبو داود (٤٧٢٣) . والترمذى (٣٣٢٠) . وابن ماجه (١٩٣) . وانظر (ضعيف الترمذى ٦٥٤) .

(٦) فى ا : « ورفعه » .

« وهَلْ تَدْرُونَ بُعْدَ[1] مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ ؟ » قالوا : لا نَدْرِى . قال : « بُعْدُ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أو اثْنَتَانِ أو ثَلَاثَةٌ وسَبْعُونَ سَنَةً » . والباقى نحوُه .

وقال أبو داودَ : حدثنا عبدُ الأعْلَى بنُ حمَّادٍ ، ومحمدُ بنُ الْمُثَنَّى ، ومحمدُ بنُ بَشَّارٍ ، وأحمدُ بنُ سعيدٍ الرِّبَاطِىُّ ، قالوا : حدَّثنا وَهْبُ بنُ جَرِيرٍ - قال[2] أحمدُ : كتبْناهُ مِن نُسْخَتِه ، وهذا لفظُه - قال : حدَّثنا أبى ، قال : سمعتُ محمَّدَ بنَ إسحاقَ يُحدِّثُ ، عن يعقوبَ بنِ عُتْبَةَ ، عن جُبَيرِ بنِ محمَّدِ بنِ جُبَيرِ بنِ مُطْعِمٍ ، عن أبيه ، عن جَدِّه ، قال : أَتى رسولَ اللهِ ﷺ أعرابىٌّ ، فقال : يا رسولَ اللهِ ، جُهِدَتِ الأنْفُسُ ، وجاعَتِ العِيالُ ، ونُهِكَتِ الأمْوالُ ، [3]وهَلَكَتِ الأنْعامُ[3] ، فاسْتَسْقِ اللهَ لنا ، فإنَّا نسْتَشْفِعُ بك علَى[4] اللهِ ، ونسْتَشْفِعُ باللهِ عليك . فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « وَيْحَكَ ، أَتَدْرِى مَا تَقُولُ ؟ » وسبَّح رسولُ اللهِ ﷺ ، فما زال يُسبِّحُ حتى عُرِف ذلك فى وُجوهِ أصحابه ، ثم قال : « وَيْحَكَ ، إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ باللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، شأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ ، وَيْحَكَ ، أَتَدْرِى مَا اللهُ ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمـٰوَاتِهِ لهٰكذَا - وقال بأصابعِه مثلَ القُبَّةِ عليه - وإِنَّهُ ليَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ » . قال ابنُ بَشَّارٍ[5] فى حديثِه : « إِنَّ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ ، وعَرْشُهُ فوقَ[6] سَمـٰوَاتِهِ » . وساق الحديثَ . وقال عبدُ الأعْلَى ، وابنُ المُثَنَّى ، وابنُ بَشَّارٍ ، عن يعقوبَ بنِ عُتْبَةَ ، وجُبَيْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن أبيه ، عن

---

(١) عند أبى داود : « ما بعد » ، وفى ا : « كم بعد » .

(٢) بعده فى ح : « له » .

(٣ - ٣) سقط من : ح .

(٤) فى ص : « إلى » .

(٥) فى ص : « يسار » .

(٦) فى الأصل ، ا : « على » .

جَدِّه . والحديثُ بإسْنادِ أحمدَ بنِ سَعيدٍ ، [1]هو الصَّحيحُ ، وافقَه عليه جماعةٌ ؛ منهم يحيى بنُ مَعِينٍ ، وعليُّ بنُ الْمَدِينِيِّ ، ورَواهُ جماعةٌ منهم عن ابنِ إسحاقَ ، كما قال أحمدُ[1] أيضًا . وكان سَماعُ عبدِ الأعْلَى وابنِ المُثَنَّى وابنِ بَشّارٍ من[2] نسخةٍ واحدةٍ فيما بلَغنِي . تفرَّد بإخْراجِها أبو داودَ[3] . وقد صنَّف الحافظُ أبو القاسمِ ابنُ عَساكِرَ الدِّمَشْقِيُّ جزءًا فى الرَّدِّ على هذا الحديثِ ، سَمَّاه بـ « بَيانِ الوَهْمِ والتَّخْليطِ الواقعِ فى حديثِ الأَطِيطِ » ، واسْتَفْرَغ وُسْعَه فى الطَّعْنِ على محمدِ بنِ إسحاقَ بنِ يَسَارٍ[4] رَاوِيه ، وذكَر كلامَ الناسِ فيه ، ولكنْ قد رُوِىَ هذا اللفظُ مِن طريقٍ[5] أخرى ، عن غيرِ محمدِ بنِ إسحاقَ ، فرَواهُ عبدُ بنُ حُمَيْدٍ وابنُ جَريرٍ فى « تَفْسيرَيْهِما » ، وابنُ أبى عاصِمٍ والطَّبَرانِيُّ فى كتابَيِ « السنةِ » لهما ، والبَزَّارُ فى « مُسْنَدِه » ، والحافظُ الضِّياءُ المَقْدِسِيُّ فى « مختارتِه » ، من طريقِ أبى إسحاقَ السَّبِيعِيِّ ، عن [١/٥ ظ] عبدِ اللهِ بنِ خَليفةَ ، عن عمرَ بنِ الخطَّابِ ، رَضِىَ اللهُ عنه ، قال : أَتَتِ امرأةٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فقالتْ : ادْعُ اللهَ أن يُدْخلَنِى الجنةَ . قال : فعَظَّم الرَّبَّ تبارك وتعالى ، وقال : « إنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وإنَّ لَهُ أَطِيطًا كَأَطِيطِ الرَّحْلِ الجَدِيدِ مِنْ ثِقَلِهِ »[6] . عبدُ اللهِ بنُ خَليفةَ هذا ليس بذاك المشهورِ ، وفى سَماعِه مِن عمرَ نَظَرٌ ، ثُم منهم مَن يَرْوِيه موقوفًا ومُرْسَلاً ، ومنهم مَن يَزِيدُ فيه زيادةً غريبةً ، واللهُ أعلمُ .

(١ - ١) سقط من : الأصل ، ح ، ا .

(٢) فى م : « فى » .

(٣) أبو داود (٤٧٢٦) (ضعيف أبى داود ١٠١٧) .

(٤) فى م : « بشار » .

(٥) فى ا : « طرق » .

(٦) تفسير الطبرى ٣/١٠ ، ١١ ، الدر المنثور ١/٣٢٨ ، وعزاه لعبد بن حميد وللضياء المقدسى ، =

وثبَت فى « صحيحِ البُخاريِّ »[1] عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال : « إذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوه الْفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمـٰنِ » . يُرْوَى : « وفَوْقَهُ » بالفتحِ على الظَّرفيةِ ، وبالضَّمِّ ، قال شيخُنا الحافظُ المِزِّيُّ : وهو أحسنُ ، أى : وأعْلاها عرشُ الرحمنِ . وقد جاء فى بعضِ الآثارِ ، أنَّ أهلَ الفِردَوْسِ يسمعونَ أَطِيطَ العَرْشِ ، وهو تسبيحُه وتعظيمُه . وما ذاك إلَّا لقُرْبِهم منه . وفى « الصَّحيحِ »[2] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لَقَدِ اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمـٰنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » . وذكَر الحافظُ ابنُ الحافظِ ، محمدُ بنُ عثمانَ بنِ أبى شَيْبَةَ ، فى كتابِ « صِفةِ العرشِ » عن بعضِ السَّلَف ، أنَّ العرشَ مخلوقٌ مِن ياقُوتَةٍ حمراءَ[3] ، بُعْدُ ما بين قُطْرَيْه مَسِيرةُ خمسين ألفَ سنةٍ[4] . وذكَرْنا عندَ قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] . أنَّه بُعْدُ ما بين العَرشِ إلى الأرضِ السَّابعةِ مَسِيرةُ خمسينَ ألفَ سنةٍ ، وأنَّ اتِّساعَه خمسونَ ألفَ سنةٍ[5] . وقد ذهب طائفةٌ مِن أهلِ الكلامِ إلى أنَّ العرشَ فَلَكٌ مُسْتديرٌ مِن جميعِ جَوانبِه ، مُحِيطٌ بالعالَمِ مِن كلِّ جهةٍ ، ورُبَّما[6] سَمَّوْهُ الْفَلَكَ التاسعَ[7] والفَلَكَ الأَطْلَسَ والأَثِيرَ . وهذا ليس بجيِّدٍ ؛ لأنَّه قد ثبَت فى الشرعِ

= كشف الأستار (٣٩) ، وقال الهيثمى : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٨٣/١ ، ٨٤ . وضعفه الألبانى (السنة لابن أبى عاصم ٥٧٤) . وانظر السلسلة الضعيفة (٨٦٦) .

(١) البخارى (٢٧٩٠ ، ٧٤٢٣) مطولًا .

(٢) البخارى (٣٨٠٣) ، مسلم (٢٤٦٦) .

(٣) صفة العرش (٧٣) . ولفظه : عن إسماعيل ابن أبى خالد قال : أخبرت أن العرش ياقوتة حمراء .

(٤) صفة العرش (٧٩) . ولفظه : عن وهب بن منبه قال : العرش مسيرة خمسين ألف سنة .

(٥) التفسير ٢٤٨/٨ .

(٦) فى م ، ص : « ولذا » .

(٧) فى ا : « اليافع » .

أنَّ له قوائمَ تحمِلُه المَلائكَةُ ، والفَلَكُ لا يكونُ له قوائمُ ، ولا يُحْمَلُ ، وأيضًا فإنَّه فوقَ الجنَّةِ ، والجنةُ فوقَ السمٰواتِ ، وفيها مائةُ درجةٍ ، ما بين كلِّ درجتَيْنِ كما بينَ السَّماءِ والأَرْضِ ، فالبُعْدُ الذى بينَه وبينَ الكُرْسِىِّ ليس هو نِسْبةَ فَلَكٍ إلى فَلَكٍ ، وأيضًا فإنَّ العرشَ فى اللغةِ عِبَارةٌ عن السَّريرِ الذى للمَلِكِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣] . وليس هو فَلَكًا ، ولا تَفْهَمُ منه العربُ ذلك ، والقرآنُ إنَّما نزَل بلُغَةِ العَرَبِ ، فهو سَرِيرٌ ذو قوائمَ تحملُه الملائكةُ ، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ ، وهو سَقْفُ المخلوقاتِ . قال تعالى[1] : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر : ٧] . وقد تَقدَّم فى حديثِ الأَوْعالِ أنهم ثمانيةٌ ، وفوقَ ظهورِهنَّ العرشُ ، وقال تعالى[2] : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] . وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ[3] : حَمَلَةُ العرشِ ثمانيةٌ ؛ أربعةٌ منهم يقولون : سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحمدِك ، لك الحمدُ على حِلْمِك بعد [٦/١ و] عِلْمِك . وأربعةٌ يقولون : سُبْحانَك اللهُمَّ وبحمدِك ، لك الحمدُ على عَفْوِك بعد قُدْرتِك . فأما الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ مُحمَّدٍ ، هو أبو بَكْرِ ابنُ أبى شَيْبَةَ[5] ، ثنا عبدةُ بنُ سليمانَ ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ ، عن يعقوبَ بنِ عُتْبَةَ[6] ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صدَّق أُمَيَّةَ بنَ أبى الصَّلْتِ فى شىءٍ من

---

(١) التفسير ٧/١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) التفسير ٨/٢٣٩ .

(٣) صفة العرش (٦٣) .

(٤) مسند أحمد ١/٢٥٦ (صحيح) .

(٥) سقط من : ح .

(٦) فى م : « عقبة » .

شِعْرِه ، فقال[1] :

رجُلٌ وثورٌ تحتَ رِجلِ يَمِينِه   والنَّسْرُ للأُخرَى ولَيْثٌ مُرْصَدُ[2]

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « صدَق » . فقال :

والشَّمْسُ تَطْلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ   حمراءَ [3] يُصْبِحُ لونُها يَتَورَّدُ[3]

[4]ليستْ بطالِعةٍ لهم[4] فى رِسْلِها   إلا معذَّبةً وإلا تُجْلَدُ

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « صَدَق » . فإنّه حديثٌ صحيحُ الإسنادِ ، رجالُه ثِقاتٌ . وهو يقتضى أنَّ حَملَةَ العَرْشِ اليومَ أربعةٌ ، فيُعارِضُه حديثُ الأَوْعَالِ ، اللهم إلَّا أن يُقالَ : إنَّ إثْباتَ هؤلاءِ[5] الأربعةِ على هذه الصفاتِ لا ينْفِى ما عداهم . واللهُ أعلمُ .

ومن شِعْرِ أُمَيَّةَ ابنِ أبى الصَّلْتِ فى الْعرشِ قولُه[6] :

مَجِّدُوا اللهَ فَهُو للمجدِ أهلٌ   رَبُّنا فِى السماءِ أمسَى كبيرَا

بالبناءِ العالِى الذى بَهَر النا   سَ وسَوَّى فوقَ السماءِ سَرِيرَا

شَرْجَعًا لا ينالُه بَصَرُ العيـ   ـنِ ترى حولَه الملائكَ صُورَا

---

(1) ديوان أمية ص ٢٩ .

(2) فى ح : « يرصد » .

(٣ - ٣) فى م : « مطلع لونها متورد » .

(٤ - ٤) فى الأصل : « تأتى كما تطلع لها » . وفى ح : « تأبى لما تطلع لما » . وفى ا : « تأبى فما تطلع لنا » . وفى م ، ص : « تأبى فلا تبدو لنا » .

(5) فى ح : « هذه » .

(6) ديوان أمية ص ٤٣ .

(1)صُورٌ : جمعُ أصْوَرَ ، وهو المائلُ العُنقِ ؛ لنظرِه إلى العُلُوِّ . والشَّرْجَعُ : هو العالى المُنِيفُ . والسَّريرُ : هو العرشُ فى اللغةِ . ومن شعرِ عبدِ اللهِ بنِ رَواحةَ ، رضِى اللهُ عنه ، الذى عرَّض به عن القراءةِ لِامْرأتِه حين اتَّهَمَتْه بجارِيتِه :

شَهِدتُ بأنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ... وأنَّ النارَ مَثْوَى الكافرينَا
وأنَّ العرشَ فوقَ الماءِ طافٍ ... وفوقَ العرشِ ربُّ العالمينا
وتَحْمِلُه ملائكةٌ كرامٌ ... ملائكةُ الإلهِ مسوَّمينَا(2)(1)

ذكَره ابنُ عبدِ البرِّ ، وغيرُ واحدٍ من الأئمةِ(3) . وقال أبو داودَ(4) : ثنا أحمدُ بنُ حَفْصِ بنِ عبدِ اللهِ ، حدَّثنى أبى ، ثنا إبراهيمُ بنُ طَهْمانَ ، عن موسى بنِ عُقْبةَ ، عن محمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « أُذِنَ لِى أنْ أُحدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، أنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عاتقِه مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ » . (5)ورَواه ابنُ أبى حاتمٍ(6) ، [١/٦ ظ] ولفظُه : « مَخْفِقُ(7) الطيرِ(8) سَبْعِمِائَةِ عَامٍ »(5) .

(١ - ١) سقط من : ص .
(٢) فى تاريخ دمشق ، والسير : « مقربينا » .
(٣) الاستيعاب ٩٠٠/٣ ، ٩٠١ ، تاريخ دمشق ١١٢/٢٨ ، ١١٣ . سير أعلام النبلاء ٢٣٨/١ .
(٤) أبو داود (٤٧٢٧) (صحيح أبى داود ٣٩٥٣) .
(٥ - ٥) سقط من : ا .
(٦) فى م : « عاصم » .
(٧) فى م : « محقق » .
(٨) بعده فى م ، ص : « مسيرة » .

وأمّا الكرسيُّ: فروَى ابنُ جَريرٍ[1] ، من طريقِ جُوَيْبِرٍ – وهو ضعيفٌ – عن الحَسنِ البَصْرِىِّ ، أنه كان يقولُ : الكرسىُّ هو العرشُ . وهذا لا يصحُّ عن الحَسنِ ، بل الصحيحُ عنه وعن غيرِه من الصحابةِ والتابعين ، [2]أنَّ الكرسىَّ غيرُ العَرشِ[2] . وعن ابنِ عباسٍ ، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، أنَّهما قالا ، فى قولِه تعالى[3] : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] : أى عِلْمُه[4] . والمحفوظُ عن ابنِ عباسٍ ، كما رواه الحاكِمُ فى « مُسْتَدْرَكِه »[5] – وقال : إنَّه على شَرْطِ الشيخَيْن ولم يُخَرِّجاه – مِن طريقِ سفيانَ الثَّوْرِىِّ ، عن عَمَّارٍ الدُّهْنِىِّ[6] ، عن مسلمٍ البطينِ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنه قال[7] : « الكُرْسِىُّ موضِعُ القَدَمَيْنِ ، والعرشُ لا يَقْدُرُ قَدْرَه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ » . وقد رَواه شُجاعُ بنُ مَخْلَدٍ الفَلَّاسُ[8] ، فى « تفسيرِه » ، عن أبى عاصمٍ النَّبيلِ ، عن الثَّوْرِىِّ . فجعلَه مرفوعًا ، والصَّوابُ أنَّه مَوْقوفٌ علَى ابنِ عباسٍ . وحكاه ابنُ جَريرٍ[9] ، عن أبى موسى الأشْعَرِىِّ ، والضَّحَّاكِ بنِ مُزاحِمٍ ، وإسماعيلَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ السُّدِّىِّ الكبيرِ ، ومسلمٍ البطَينِ ، وقال السُّدِّىُّ ، عن أبى مالكٍ : الكُرْسِىُّ تَحْتَ العَرْشِ . وقال السُّدِّىُّ : السَّمواتُ والأرضُ فى جوفِ الكرسىِّ ، والكرسىُّ بين يَدَى

---

(١) فى تفسيره ٣/١٠ .

(٢ – ٢) كذا فى ا . وفى بقية النسخ : « أنه غيره » .

(٣) التفسير ١/٤٥٧ .

(٤) تفسير الطبرى ٣/٩ ، ١١ ورجحه . والقرطبى ٣/٢٧٦ .

(٥) المستدرك ٢/٢٨٢ (السلسلة الضعيفة ٩٠٦) .

(٦) فى ح : « المدينى » .

(٧) سقط من : ح .

(٨) فى ح : « الدلاس » .

(٩) فى تفسيره ٣/١٠ .

العرشِ[1] . وروى ابنُ جَريرٍ ، وابنُ أبى حاتمٍ ، من طريقِ الضحَّاكِ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنه قال : لو أنَّ السَّمٰواتِ السبعَ والأرَضِينَ السبعَ بُسِطْنَ ، ثم وُصِلْنَ بعضُهنَّ إلى بعضٍ ، ما كُنَّ فى سَعَةِ الكرسىِّ إلَّا بمَنْزِلةِ الحَلْقَةِ فى المَفازَةِ[2] . وقال ابنُ جَريرٍ[3] : حدثنى يونُسُ ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ ، قال : قال ابنُ زيدٍ : حدثنى أبى ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَا السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ فِى الْكُرْسِىِّ إلَّا كَدَراهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فى تُرْسٍ » . قال : وقال أبو ذَرٍّ : سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « ما الكُرْسِىُّ فى العَرْشِ إلَّا كحَلْقَةٍ من حديدٍ أُلْقِيَتْ بين ظَهْرَىْ فَلَاةٍ من الأرضِ » . أولُ الحديثِ مُرْسَلٌ . وعن أبى ذَرٍّ مُنْقَطِعٌ . وقد رُوِىَ عنه مِنْ طَريقٍ أُخرى مَوْصُولًا ، فقال الحافظُ أبو بكرٍ ابنُ مَرْدَوَيْه فى « تفسيره »[4] : أخْبَرَنا سليمانُ بنُ أحمدَ الطَّبَرَانىُّ ، أنبأنا عبدُ اللهِ بنُ وُهَيبٍ[5] الغَزِّىُّ[6] ، أنا محمدُ بنُ أبى السَّرىِّ ، أنا محمدُ بنُ [7]عبدِ اللهِ[7] التميمىُّ ، عن القاسمِ بنِ محمدٍ الثَّقَفِىِّ ، عن أبى إدْرِيسَ الخَوْلانىِّ ، عن أبى ذَرٍّ الغِفارىِّ ؛ أنه سَألَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الكُرْسىِّ ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « والذِى نَفْسى بِيَدِهِ ما السَّمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ عِنْدَ الكُرْسِىِّ إلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بأرضِ فَلاةٍ ، وإنَّ فَضْلَ العَرْشِ على الكُرْسِىِّ

---

(١) بعده عند الطبرى : « وهو موضع قدميه » ، وفى ا : « كالمرقاة إليه » .

(٢) عزاه السيوطى فى الدر المنثور ٣٢٨/١ لابن مردويه وابن أبى حاتم . ولم نجده عند الطبرى .

(٣) فى تفسيره ١٠/٣ . (ضعيف ، شرح العقيدة الطحاوية ٣٧٠/٢) .

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٢٨/١ . وعزاه لابن مردويه . وأخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش (٧٧) . والبيهقى فى الأسماء والصفات ٤٠٥ . وهو ضعيف . انظر الإحسان (٣٦١) .

(٥) فى ص : « وهب » .

(٦) فى الأصل : « العزى » ، وفى ح : « العزبى » ، وفى م ، ص : « المغربى » .

(٧ - ٧) فى الأصل ، ح ، ا : « عبيد الله » .

كَفَضْلِ الفَلاةِ على تِلْكَ الحَلْقَةِ » . وقال ابنُ جَريرٍ فى « تاريخِه »[1] : حدثنا ابنُ وَكِيعٍ ، قال : حدثنا أبى ، عن سُفْيَانَ ، عن الأَعْمَشِ ، عن المِنْهالِ بنِ عَمْرٍو ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، قال : سُئِل ابنُ عباسٍ عن قولِه عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَكَانَ [١/٧ و] عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٧] : على أىِّ شيءٍ كانَ الماءُ ؟ قال : على مَتْنِ الريحِ . قال[2] : والسَّمٰواتُ والأَرَضُونَ ، وكلُّ ما فِيهِنَّ مِنْ شيءٍ تُحيطُ بها البِحَارُ ، ويُحيطُ بذلك كُلِّه الهَيْكَلُ ويُحيطُ بالهَيْكَلِ - [3]فيما قيل[3] - الكرسِىُّ . ورَوَى عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ نحوَه[2] . وفَسَّرَ وهبٌ الهيكلَ فقال[2] : شىءٌ[4] من أطْرافِ السَّمٰواتِ مُحْدِقٌ[5] بالأَرَضِينَ والبِحارِ كأَطْنَابِ الفُسْطَاطِ .

وقد زعَمَ بعضُ من يَنْتَسِبُ إلى عِلْمِ الهَيْئَةِ أنَّ الكُرْسِىَّ عِبارَةٌ عنِ الفَلَكِ الثامِنِ الذى يُسَمُّونَه « فَلَكَ الكَواكبِ الثَّوابتِ » . وفيما زَعَموه نظَرٌ ؛ لأنَّه قد ثَبَتَ أنّه أعْظَمُ من السَّمٰواتِ السَّبْعِ[6] بشىءٍ كَثيرٍ ، كما ورد به الحديثُ المتقدِّمُ ، أن نسبتَها إليه كنِسْبَةِ حَلْقةٍ مُلْقَاةٍ بأرضٍ فَلَاةٍ . وهذا ليس نسبةَ فَلَكٍ إلى فَلَكٍ . فإنْ قال قائلُهم : نحن نعتَرِفُ بذلك ونُسَمِّيه مع ذلك فَلَكًا . فنقولُ : الكُرْسِىُّ ليس فى اللغةِ عِبارةً عن الفلكِ ، وإنما هو ، كما قال غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ : [7]إنَّ الكرسىَّ[7] بين يَدَىِ العَرْشِ كالمِرْقَاةِ إليه . ومِثْلُ هذا لا يكُونُ فَلَكًا . [8]ومَن زَعَم منهم[8] أنَّ الكواكِبَ الثوابتَ مُرَصَّعةٌ فيه [9]فقد قال ما لا يعلمُ ، و[9] لا دَلِيلَ لَهُم عليه . هذا مَعَ اخْتِلَافِهِم فى ذلك أيضًا ؛ كما هُو مُقَرَّرٌ فى كُتُبِهم ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٤٠ . وهو فى تفسيره ١٢/٤ ، ٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ١/٤١ .

(٣ - ٣) سقط من : ح .

(٤) فى ح ، ا ، ص : « هو » . والمثبت كما فى الموضع السابق من تاريخ الطبرى .

(٥) فى الأصل ، م : « يحدق » .

(٦) فى ا : « والأرض » .

(٧ - ٧)سقط من : ح ، م .

(٨ - ٨) فى ح : « وزعمهم » .

(٩ - ٩) سقط من : ح ، م ، ص .

فَصْلٌ
فى ذِكْرِ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ

قال الحافظُ أبو القاسمِ الطَّبَرانِىُّ(1) : حدثنا محمدُ بنُ عُثْمانَ بنِ أبى شَيْبَةَ ، ثنا منجابُ بنُ الحَارِثِ ، ثنا إبراهيمُ بنُ يُوسُفَ ، ثنا زِيَادُ بنُ عبدِ اللهِ ، عن لَيْثٍ ، عن عبدِ المَلِكِ بنِ سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، (2عن أبيه2) ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ نبىَّ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا من دُرَّةٍ بَيْضَاءَ ، صَفَحَاتُها من ياقُوتَةٍ حَمْراءَ ، قَلَمُه نورٌ ، وكتابُه نورٌ ، لِلّٰهِ فِيهِ فى كُلِّ يَومٍ سِتُّونَ وثَلَثُمائةِ لَحْظَةٍ(3) ، يَخْلُقُ ويرزُقُ ، ويُمِيتُ ويُحْيِى ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ، ويَفْعَلُ ما يَشاءُ » . وقال إسْحَاقُ بنُ بشرٍ(4) : أخبرنى مُقَاتِلٌ وابنُ جُرَيْجٍ ، عن مُجاهِدٍ ، عن ابنِ عباسٍ قال : إنّ فى صَدْرِ اللَّوْحِ : لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه ، دينُه الإسلامُ ، ومحمدٌ عبدُه ورسولُه ، فَمَنْ آمَنَ باللهِ وصَدَّقَ بِوَعْدِهِ واتَّبَعَ رُسُلَه ، أَدْخَلَه الجَنَّةَ . قال : واللَّوْحُ لَوْحٌ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ ، طُولُهُ ما بينَ السَّمَاءِ والأرْضِ ، وعَرْضُهُ ما بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، وحافَّتاه الدُّرُّ واليَاقُوتُ ، ودَفَّتاهُ ياقُوتَةٌ حَمْرَاءُ ، وقلمُه نورٌ ، وكلامُهُ مَعْقُودٌ بالعَرْشِ ، وأَصْلُه فى حِجْرِ مَلَكٍ . وقال أنسُ بنُ مَالكٍ ، وغَيْرُه مِنَ السلفِ : اللَّوْحُ المحفُوظُ فى جَبْهَةِ إسْرَافِيلَ(5) . وقال مُقَاتِلٌ(6) : هو عَنْ يَمِينِ العَرْشِ .

---

(1) المعجم الكبير (12511) وقال محققه : فى إسناده زياد بن عبد الله البكائى وليث بن أبى سليم وهما ضعيفان . وقد روى من وجه آخر موقوفا عند الحاكم فى مستدركه (2/474) . وقال : صحيح . وتعقبه الذهبى بقوله : اسم أبى حمزة ثابت وهو واهٍ بمرة . انظر اللآلئ 1/20 .

(2 - 2) سقط من : ح .

(3) فى ح : « نظرة » .

(4) فى ا : « بشير » . ورواه البغوى فى تفسيره 7/232 . وذكره ابن كثير فى تفسيره 8/394 .

(5) أخرجه عن أنس الطبرى فى تفسيره 30/140 . وذكره ابن كثير فى تفسيره 8/394 . وذكره القرطبى فى تفسيره 19/298 عن أنس ومجاهد .

(6) ذكره ابن كثير والقرطبى فى الموضع السابق .

بَابُ ما ورَدَ فى خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ وما بينَهما

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] . وقال تعالى[2] : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . فى غيرِ ما آيةٍ من القرآنِ [١ / ٧ ظ] . وقد اختلَفَ المفَسِّرون فى مقدارِ هذه السِّتةِ الأيامِ على قَوْلَينِ[2] ، فالجُمْهورُ على أنَّها كأيامِنَا هذه . وعن ابنِ عبَّاسٍ ، ومُجَاهِدٍ ، والضَّحَّاكِ ، وكَعْبِ الأَحْبَارِ : أنَّ كُلَّ يومٍ منها كَألْفِ سَنةٍ مما تَعُدُّون . رَواهُنَّ ابنُ جَريرٍ[3] ، وابنُ أبى حَاتِمٍ . واخْتارَ هذا القَوْلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ فى كتابه الذى رَدَّ فيه على الجَهْمِيَّةِ ، واختاره[4] ابنُ جَريرٍ وطائِفَةٌ مِنَ المُتَأَخِّرين ، واللهُ أعلمُ . وسيأتى ما يَدُلُّ عَلَى هذا القَوْلِ . ورَوَى ابنُ جَريرٍ[5] عن الضحَّاكِ بنِ مُزَاحِمٍ وغَيْرِه أَنّ أسْماءَ الأيامِ السِّتَّةِ : أَبْجَدْ هَوَّزْ حُطِّى كَلَمُنْ سَعْفَصْ قَرَشَتْ . وحَكَى ابنُ جريرٍ[6] فى أوَّلِ الأيامِ ثلاثةَ أقوالٍ ؛ فَرَوَى عَنْ محمدِ بنِ إسْحاقَ أَنَّه قال : يَقُولُ أهلُ التَّوْراةِ : ابْتَدأَ اللهُ الخَلْقَ يومَ الأَحَدِ . ويَقُولُ أهلُ الإنْجيلِ : ابْتَدَأَ اللهُ الخَلْقَ

---

(١) التفسير ٣/٢٣٤ .

(٢) التفسير ٣/٤٢٢ .

(٣) تاريخ الطبرى ١/٥٩ ، ٦٠ .

(٤) زيادة من : ا .

(٥) تاريخ الطبرى ١/٤٢ .

(٦) تاريخ الطبرى ١/٤٤ .

يومَ الإثْنَيْنِ . ونَقولُ نَحْنُ المسلمون[1] ، فِيما انْتهَى إلَيْنا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : ابْتدَأَ اللهُ الخَلْقَ يومَ السَّبْتِ . وهذا القَوْلُ الذى حَكَاه ابنُ إسْحَاقَ عن المُسْلمينَ مَالَ إليهِ طَائِفَةٌ مِنَ الفُقهَاءِ ، من الشَّافعيَّةِ وغَيْرِهم . وَسيأْتِى فيه حَديثُ أبى هُرَيْرَةَ : « خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ »[2] . والقَوْلُ بأنَّه الأَحَدُ رَوَاه ابنُ جَريرٍ[3] عنِ السُّدِّىِّ عَنْ أبى مالِكٍ وأبى صَالِحٍ ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ، وعن مُرَّةَ ، عن ابنِ مَسْعُودٍ ، وعَنْ جَماعَةٍ مِنَ الصَّحابةِ ، ورَوَاهُ أيضًا عَنْ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ . واختاره ابنُ جَرِيرٍ[4] . وهو نَصُّ التَّوْرَاةِ ، ومَالَ إليهِ طَائِفَةٌ آخَرُونَ مِنَ الفُقَهاءِ ، وهو أشبهُ باشْتِقاقِ لفظِ الأحَدِ ، ولهذَا كَمَلَ الخَلْقُ فى سِتَّةِ أيامٍ ، فَكَان آخِرُهُنَّ الجُمُعَةَ ، فاتَّخذَه المُسْلمون عِيدَهم فى الأُسْبوعِ ، وهو اليَوْمُ الذى أَضَلَّ اللهُ عنه أَهْلَ الكتابِ[5] قبْلَنا ، كما سيَأْتِى بَيانُه إنْ شَاءَ اللهُ . وقَالَ تعالى[6] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] . وقال تعالى[7] : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا

---

(١) كذا فى النسخ ، والوجه النصب على الاختصاص .
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٨٩) ، أحمد ٣٢٧/٢ . فى سياق طويل .
(٣) تاريخ الطبرى : ٤٧/١ .
(٤) تاريخ الطبرى ٤٥/١ .
(٥) فى ا : « الكتابين » .
(٦) التفسير ٩٧/١ .
(٧) التفسير ١٥٤/٧ .

طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩ - ١٢] . فهذا يدُلُّ على أنَّ الأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّماءِ ؛ لأَنَّها كالأَساسِ للبِنَاء ؛ كما قالَ تَعَالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٤] . وقَالَ تعالى(١) : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ إلى أَنْ قَالَ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا [٨/١ و] شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ٦ - ١٣] . وقَالَ(٢) : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] . أَىْ فَصَلْنا ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ حتَّى هَبَّتِ الرِّياحُ ، ونَزَلَتِ الأَمْطَارُ ، وجَرَتِ العُيُونُ والأَنْهارُ ، وانْتَعَشَ الحَيَوانُ . ثُمَّ قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] . أى عَمَّا خُلِقَ فيها مِن الكَوَاكِبِ الثَّوابِتِ ، والسَّيَّاراتِ والنُّجُومِ الزَّاهِرَاتِ ، والأَجْرَامِ النَّيِّراتِ ، وما فِي ذَلِكَ من الدَّلَالاتِ على حِكْمَةِ خالِقِ الأَرْضِ والسَّمٰواتِ ، كما قَالَ تَعالى(٣) : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦] . فأَمَّا قولُه تعالى(٤) : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا *

---

(١) التفسير ٨/٣٢٦ .
(٢) التفسير ٥/٣٣٢ .
(٣) التفسير ٤/٣٤١ .
(٤) التفسير ٨/٣٣٩ .

مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ [النازعات ٢٧ – ٣٢] . فَقَدْ تَمَسَّكَ بَعْضُ النَّاسِ بِهذهِ الآيةِ على تَقدُّمِ خَلْقِ السماءِ على خَلْقِ الأَرْضِ . فَخَالَفُوا صَرِيحَ الآيَتَيْنِ المتقدِّمتَيْن ، ولَمْ يَفْهموا هذه الآيةَ الكَرِيمةَ ، فإنَّ مُقْتَضَى هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ دَحْيَ الأَرْضِ ، وإخْرَاجَ المَاءِ والمَرْعَى مِنْها بالفِعْل ، بَعْدَ خَلْقِ السماءِ ، وقَدْ كانَ ذلك مُقَدَّرًا فيها بالقُوَّةِ ، كما قَالَ تعالى[1] : ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت : ١٠] . أىْ هَيَّأَ أَماكِنَ الزَّرْعِ ومَواضِعَ العُيُونِ والأَنهارِ ، ثمَّ لَمّا أُكملَ خَلْقَ صُورَةِ العالَمِ السُّفْلىِّ والعُلْوِىِّ دَحَى الأَرْضَ ؛ فَأَخْرَجَ مِنها ما كان مُودَعًا فِيها ، فَخَرَجَتِ العُيُونُ ، وَجَرَتِ الأَنْهارُ ، ونَبَتَتِ الزُّروعُ والثِّمارُ ، ولِهذَا فَسَّر الدَّحْىَ بإخْراجِ الماءِ والمَرْعَى منها وإرْساءِ الجِبَالِ ، فَقَال[2] : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ . وقولُه : ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ . أى قَرَّرها فى أمَاكِنِها التى وضَعَها فِيها وثَبَّتَها ، وأَكَّدَهَا وأطَّدَهَا . وقَوْلُه[3] : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ – ٤٩] . بأَيْدٍ أَىْ بِقُوَّةٍ . وإنَّا لمُوسِعُون ؛ وذلك أَنَّ كُلَّ ما عَلَا اتَّسَع ، فَكُلُّ سَمَاءٍ أَعْلَى مِنَ التى تَحْتَها ، فَهِىَ أَوْسَعُ مِنْها . ولِهذَا كَانَ الكُرْسِىُّ أَعْلى مِنَ السَّمَـٰواتِ ، وهُوَ أَوْسَعُ مِنْهُنَّ كُلِّهنَّ . والعَرْشُ أَعْظَمُ مِنْ ذلك كلِّه بِكَثِيرٍ . وقَوْلُه بَعْدَ هذا : ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا ﴾ . أىْ بَسَطْنَاها وجَعَلْناها مَهْدًا ؛ أَىْ قَارَّةً سَاكِنَةً ، غَيْرَ مُضْطَرِبةٍ ولا مَائِدةٍ بِكُم . ولهذا قَال : ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴾ والواوُ لا تَقْتَضى التَرْتِيبَ فى الوُقوعِ . وإنما تَقْتَضِى الإِخْبارَ المُطْلَقَ فى اللُّغةِ ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) التفسير ١٥٥/٧ .

(٢) التفسير ٣٣٩/٨ .

(٣) التفسير ٤٠٠/٧ .

وقال البُخَارِىُّ[1] : حَدَّثَنا [2]عمرُ بنُ حَفْص[2] بن غِيَاثٍ ، حدثنا أبى ، حَدَّثَنا الأَعْمَشُ ، حَدَّثَنا جَامِعُ بنُ شَدَّادٍ ، عن صَفْوانَ بنِ مُحْرِزٍ ، أنَّه حَدَّثَه عن عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ ، قَال : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِىِّ [١/٨ ظ] ﷺ وعَقَلْتُ نَاقَتِى بالباب ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ ، فَقَالَ : « اقْبَلُوا البُشْرَىٰ يَا بَنِى تَمِيمٍ » . قالوا : قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا . مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْه نَاسٌ مِنَ اليَمَنِ ، فَقَالَ : « اقْبَلُوا البُشْرَى يا أَهْلَ اليَمَنِ إذْ[3] لَمْ يَقْبَلْها بَنُو تَمِيمٍ » . قَالُوا : قَدْ قَبِلْنَا يا رَسُولَ اللهِ . قالوا : جِئْنَاكَ نَسأَلُكَ عن هذا الأَمْرِ . قال : « كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شَىءٌ غَيْرُهُ ، وكان عَرْشُه علَى الماءِ ، وَكَتَبَ فى الذِّكْرِ كُلَّ شَىءٍ ، وخَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضَ » . فَنَادَى مُنَادٍ : ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يا ابنَ الحُصَيْنِ . فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِىَ يَقْطَعُ[4] دُونَها السَّرابُ ، فواللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى كُنْتُ تَرَكْتُها » . هكَذا رَواه هَاهنا ، وَقَدْ رَوَاهُ فى كِتَابِ المَغَازِى[5] ، وَكِتَابِ التَّوْحِيدِ[6] ، وفِى بَعْضِ أَلْفَاظِه : « ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضَ » . وهُوَ لَفْظُ النَّسَائِىِّ[7] أَيْضًا .

وَقَالَ الإِمَامُ أحمدُ[8] : حدثنا حَجَّاجٌ ، حَدَّثَنى ابنُ جُرَيْجٍ ، أَخْبَرَنِى إِسْمَاعِيلُ بنُ أُمَيَّةَ ، عن أَيُّوبَ بنِ خَالِدٍ ، عن عَبْدِ اللهِ بنِ رَافِعٍ ، مَوْلَى أُمِّ[9]

---

(١) البخارى (٣١٩١) .
(٢ - ٢) فى م ، ص : « عمر بن جعفر » . وفى ا : « عمرو بن حفص » .
(٣) فى م ، ص : « إن » .
(٤) فى ح ، م ، ص : « تقطع » . وفى ا : « منقطع » .
(٥) البخارى (٤٣٦٥ ، ٤٣٨٦) مختصرًا .
(٦) البخارى (٧٤١٨) .
(٧) الكبرى (١١٢٤٠) . ولفظه : « ثم خلق سبع سمٰوات » .
(٨) مسند أحمد ٣٢٧/٢ (صحيح) .
(٩) فى ح : « أبى » .

سَلَمَةَ ، عن أَبِى هُرَيْرَةَ ، قال : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِى ، فَقَالَ : « خلقَ اللهُ التُّرْبَةَ يومَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الجِبَالَ فيها[1] يَوْمَ الأَحَدِ ، وَخلقَ الشَّجَرَ فيها[1] يومَ الإِثْنَيْنِ ، وَخلقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاثاءِ ، وَخَلقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبعَاءِ ، وبَثَّ [2]فيها الدَّوَابَّ[2] يومَ الخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ العَصْرِ يَومَ الجُمُعَةِ ، آخِرَ الخَلْقِ فِى آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ ساعاتِ الجُمُعَةِ فِيما بَينَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » . وهكذا رَواه مُسْلمٌ[3] ، عَنْ شُرَيْحِ بن يُونُسَ وهَـٰرُونَ بـنِ عبدِ اللهِ ، والنَّسائِىُّ[4] ، عَنْ هَـٰرُونَ ويُوسُفَ بنِ سَعِيدٍ ، ثَلاثَتُهم ، عَن حَجَّاجِ بنِ مُحمَّدٍ المِصِّيصِىِّ الأَعْوَرِ ، عن ابنِ جُرَيْجٍ به مِثْلَه سواءً . وقد رواه النَّسائِىُّ فى التَّفْسِيرِ[5] ، عن إِبراهيمَ بنِ يَعْقُوبَ الجُوزْجَانِىِّ ، عن محمدِ بنِ الصَّبَّاحِ ، عن أَبى عَبيدَةَ الحَدَّادِ ، عنِ الأَخضَرِ[6] بنِ عَجْلانَ ، عن ابنِ جُرَيْجٍ ، عن عَطَاءِ بنِ أَبى رَبَاحٍ ، عن أَبى هُرَيرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِى ، فَقَالَ : « يا أَبَا هُرَيْرَةَ ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرَضِينَ[7] وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَوْمَ السَّابعِ ، وَخَلَقَ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ » . وذَكَر تَمَامَه بِنَحْوِه ، فَقَدْ اخْتُلِفَ فيه عَلَى ابنِ جُرَيْجٍ . وقَدْ تَكَلَّمَ فى هذا الحَدِيثِ عَلِىُّ ابنُ المَدِينِىِّ ، والبُخَارِىُّ ، والبَيْهَقِىُّ ، وغيرُهم من الحُفَّاظِ[8] . قال البُخَارِىُّ فِى « التَّارِيخِ »[9] : وقَالَ

---

(١) سقط من : م ، ص .

(٢ - ٢) فى م ، ص : « الدواب فيها » . والمثبت هو المطابق لما فى صحيح مسلم ، ومسند أحمد ، وسنن النسائى الكبرى .

(٣) مسلم (٢٧٨٩) .

(٤) الكبرى (١١٠١٠) .

(٥) الكبرى (١١٣٩٢) .

(٦) فى ح : « الأحصن » .

(٧) فى ح ، م : « والأرض » .

(٨) انظر الأسماء والصفات ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(٩) التاريخ الكبير ٤١٣/١ رقم (١٣١٧) .

بَعْضُهم : عَنْ كَعْبٍ وهو أَصَحُّ . يَعْنِى[1] أَنّ هَذَا الحَدِيثَ مما سَمِعَهُ أبو هُرَيْرَةَ وتَلَقّاهُ من كَعْبِ الأَحْبَارِ ، فَإِنَّهُما كانَا يَصْطَحِبَانِ ويَتَجالَسَانِ للحَدِيثِ ، فهذا يُحَدِّثُه عن صُحُفِه ، وهذا يُحَدِّثُه بما يُصَدِّقُه[2] عَن النَّبىِّ ﷺ ، فكَانَ هَذا الحَدِيثُ مِمَّا تَلقّاهُ أَبو هُرَيْرة عن كَعْبٍ عن صُحُفِه ، فَوَهِمَ بَعْضُ الرُّوَاةِ فَجعَلَه مَرْفُوعًا إلى النَّبىِّ ﷺ ، وأَكَّدَ رَفْعَه بِقَولِه : أَخذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِى . ثُمّ فى مَتْنِهِ [٩/١ و] غَرَابَةٌ شَدِيدَةٌ ؛ فَمِنْ ذَلك ، أَنَّه لَيسَ فِيه ذِكْرُ خَلْقِ السَّمٰواتِ ، وفِيهِ ذِكْرُ خَلْقِ (٣الأَرضِ ومَا فِيها٣) فى سَبْعَةِ أيّامٍ ، وهذا خِلَافُ القُرْآنِ ؛ لأَنَّ الأَرضَ خُلِقَتْ فى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ خُلِقَتِ السَّمٰواتُ فى يَوْمَيْنِ مِن دُخَانٍ ، وهو بُخَارُ المَاءِ الذى ارْتفعَ حِينَ اضْطَرَبَ الماءُ العظيمُ الذى خَلَقَ من زَبَدِه الأَرْضَ بالقُدْرَةِ العَظِيمةِ البَالِغَةِ ؛ كما قَال إِسْمَاعيلُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ السُّدِّىُّ الكَبيرُ فى خَبَرٍ ذَكَره عن أبى مَالكٍ ، وعن أَبى صَالحٍ ، عن ابنِ عبّاسٍ ، وعن مُرَّةَ الهَمْدَانِىِّ ، عن ابنِ مَسعودٍ ، وعن نَاسٍ من أَصْحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فى قولِه[4] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩] . قالوا : إنّ اللهَ كان عَرْشُه على الماءِ ، ولم يَخْلُقْ شيئًا مما خلق قَبْلَ الماءِ ، فلَمّا أَرادَ أَنْ يَخْلُقَ الخلْقَ ، أَخرَجَ مِن الماءِ دُخانًا ، فارتَفَع فَوْقَ الماءِ ، فَسَمَا عَلَيْه ، فَسمَّاه سَمَاءً ، ثُمّ أَيْبَسَ المَاءَ فَجعَلَه أَرْضًا واحِدةً ، ثم فَتَقَها ، فجَعَلَ[5] سَبْعَ أَرَضِين فى يَوْمين - الأحدِ والإِثْنينِ - وخَلَق الأَرْضَ علَى حُوتٍ ؛ وهُو النُّونُ الذى

---

(١) فى ا : « بنص البخارى على » .

(٢) فى ا : « يصادفه » .

(٣ - ٣) فى ا : « الأشياء » .

(٤) التفسير ٩٨/١ .

(٥) فى ا : « نجعلها » .

قَالَ اللّٰهُ تعالى : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] . والحُوتُ فى المَاءِ ، والماءُ على صَفاةٍ ، والصَّفَاةُ على ظَهْرِ مَلَكٍ ، والمَلَكُ على صَخْرَةٍ ، والصَّخْرةُ فى الرِّيحِ ؛ وهى الصَّخْرَةُ التى ذَكَر[١] لقُمْانُ ، ليست فى السَّماءِ ، ولا فى الأَرْضِ ، فَتحرّكَ الحُوتُ فاضْطَرب ، فَتَزَلْزَلَتِ الأَرْضُ ، فَأَرْسَى عَلَيْها الجِبَالَ فَقرَّت . وخَلَق اللّٰهُ يومَ الثُّلاثَاءِ الجِبَالَ وما فِيهِنّ[٢] مِنَ المَنَافعِ ، وخَلَق يومَ الأَرْبعاءِ الشَّجَرَ والماءَ والمَدائنَ والعُمْرانَ والخَرابَ وفَتقَ السَّماءَ[٣] ، وكانَت رَتْقًا فجَعَلَها سَبْعَ سَمٰواتٍ [٤]فى يَوْمين[٤] – الخَميسِ والجُمُعةِ – وإنَّما سُمِّىَ يومَ الجُمُعةِ ؛ لأنه جَمَع فيه خَلْقَ [٥]السَّمٰواتِ والأَرْضِ[٥] ، وَأَوْحى فى كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها . ثُمَّ قَال : خَلَق فى كلِّ سَماءٍ خَلْقَها ، مِنَ الملائِكَةِ والبحارِ وجِبَالِ البَرَدِ ، ومَا لا يَعْلَمُه غَيْرُه ، ثم زَيَّنَ السماءَ بالكَواكِبِ ، فَجعلَهَا زِينَةً وحِفْظًا ، تُحْفَظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، فلمّا فَرَغَ مِنْ خَلْقِ ما أَحَبّ ، اسْتَوى عَلَى العَرْشِ[٦] . وهذا الإِسْنَادُ يَذْكُرُ به السُّدِّىُّ أَشْيَاءَ كثِيرةً فيها غَرَابَةٌ ، وكَانَ كَثِيرٌ مِنْهَا [٧]مُتَلَقًّى من[٧] الإِسْرائِيلِيَّاتِ ؛ فَإِنَّ كَعْبَ الأَحْبَارِ لَمّا أَسْلَم فى زَمَنِ عُمَرَ ، كَانَ يَتَحدّثُ بَيْنَ يَدَىْ عُمَرَ بنِ الخَطّاب ، رَضِىَ اللّٰهُ عنه ، بأَشْيَاءَ منْ عُلُومِ أَهْلِ الكِتَابِ ، فَيَسْتَمِعُ[٨] لهُ عُمَرُ تَأْلِيفًا له ، وتَعَجُّبًا ممَّا عِنْدَه ، مِمّا يُوافِقُ كَثِيـرٌ مِنْه الحَـقَّ الذى وَرَدَ به الشَّرْعُ

---

(١) فى م : « ذكرها » .

(٢) فى ا : « فيها » .

(٣) سقط من : ح .

(٤ – ٤) فى ح : « يوم » .

(٥ – ٥) فى ا : « الأشياء » .

(٦) أخرجه الطبرى فى تفسيره ١/١٩٤ بنحوه .

(٧ – ٧) فى ا : « يتلقاه من » .

(٨) فى ح ، ا : « فيسمع » .

المُطَهَّرُ ، فاسْتَجَازَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ نَقْلَ ما يُورِدُه كَعْبُ الأَحْبَارِ ؛ لِهَذَا المعنى[1] ، ولِمَا جَاءَ مِنَ الإِذْنِ فى التَّحْدِيثِ[2] عَنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ ، لَكِن كَثِيرًا ما يَقَعُ فيما[3] يَرْويه غَلَطٌ [4]وليس منه ، ولكنَّه مِنَ الكُتُبِ التى ينقُلُ عنها ؛ لأنَّها قد دخلَها غَلَطٌ[4] كَبِيرٌ وخَطأٌ كَثِيرٌ .

وقَدْ رَوَى البُخَارِىُّ فى « صَحِيحِه »[5] عن مُعَاوِيةَ بنِ أبى سفيانَ ، أنَّه كَانَ يَقُولُ فى كَعْبِ الأَحْبَارِ : وإِنْ [١/٩ ظ] كُنَّا مع ذَلك لَنَبْلُو عليه الكَذِبَ[6] . أىْ فيما ينقُلُه ، لا أنَّه يَتعمَّدُ ذَلك ، واللهُ أَعْلَمُ .

ونحن نُورِدُ ما نُورِدُه مِنَ الذى يَسُوقُه كَثِيرٌ مِنْ كِبَارِ الأئمَّةِ المُتَقَدِّمِين عَنْهم ، ثُمَّ نُتْبِعُ ذَلك مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا يَشْهَدُ لَه بالصِّحَّةِ ، أو يُكَذِّبُه ، ويَبْقَى البَاقِى[7] مِمّا لا يُصَدَّقُ ولا يُكَذَّبُ ، وباللهِ المُسْتَعَانُ وعليه التُّكْلانُ .

قال البُخَارِىُّ[8] : حَدَّثَنا قُتَيْبَةُ ، حَدَّثَنا مُغِيرَةُ بنُ عبدِ الرحمنِ القُرَشِىُّ ، عن أبى الزِّنادِ ، عن الأَعْرَجِ ، عن أبى هُرَيرةَ قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لَمّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ ، كَتَبَ فِى كِتَابِهِ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِى غَلَبَتْ غَضَبِى » . وكَذا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، والنَّسَائِىُّ ، عن قُتَيْبَةَ به[9] .

---

(١) سقط من : ح ، م .

(٢) فى ا : « التحدث » .

(٣) فى م : « مما » .

(٤ - ٤) سقط من : م .

(٥) البخارى (٧٣٦١) . وأوله : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب.

(٦) سقط من : ح .

(٧) فى ا : « الثالث » .

(٨) البخارى (٣١٩٤) ، و (٧٤٠٤) بلفظ « خلق » بدل « قضى » ، و (٧٤٢٢ ، ٧٤٥٣) بلفظ « سبقت » بدل « غلبت » ، و (٧٥٥٣) باللفظين ، و (٧٤٥٤) وفيه : « قبل أن يخلق الخلق » .

(٩) مسلم (٢٧٥١) بلفظ : « تغلب » ، والنسائى فى الكبرى (٧٧٥٠) بلفظ : « غلبت » .

ثُمّ قَالَ البُخَارِيُّ : بابُ مَا جَاء فِى سَبْعِ أَرَضِينَ ، وَقَوْله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] . ثُم قَال[1] : حَدَّثَنا عَلِيُّ بنُ عبدِ اللهِ ، أَخْبَرَنا ابنُ عُلَيَّةَ ، عن عليِّ بن المُبَارَكِ ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بنُ أبى كَثيرٍ ، عن محمَّدِ بنِ إِبْرَاهيمَ بنِ الحارثِ ، عن أبى سَلَمةَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ ، وكانَتْ بَيْنَه وبينَ أُناسٍ خُصُومَةٌ فى أرْضٍ ، فَدخلَ عَلى عَائِشَةَ فَذكَرَ لَها ذلك ، فَقَالَتْ : يا أَبَا سَلَمةَ ، اجْتَنِبِ الأَرْضَ ، فَإِنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَال : « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ من سَبْعِ أَرَضِينَ » . ورَوَاه أَيْضًا فى كِتَابِ المَظَالِمِ ، ومُسْلمٌ من طُرُقٍ[2] عَنْ يَحْيَى بنِ أبى كَثِيرٍ بِه[3] ، وَرَواه أَحْمدُ[4] من حَديثِ محمدِ بنِ إبراهيمَ ، عن أبى سَلَمَةَ به ، ورواه أحمدُ[5] أيضًا عن يُونُسَ ، عن أبانَ ، عَنْ يَحْيَى بنِ أبى كَثيرٍ ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن عائِشَةَ بمِثْلِه .

ثم قال البُخَارِىُّ[6] : حَدثَّنا بِشْرُ بنُ محمدٍ ، قَال : أَخْبَرَنا عَبْدُ اللهِ ، عَنْ مُوسَى بنِ عُقْبَةَ ، عن سَالِمٍ ، عَن أَبِيه ، قال : قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ ، خُسِفَ به يَومَ القِيامَةِ إِلى سَبْعِ أَرَضِينَ » . ورواه فى المَظَالِمِ[7] أيضًا عن مُسْلمِ بنِ إِبْراهيمَ ، عن عبدِ اللهِ ، هو ابنُ المُبَارَكِ ، عن مُوسَى بنِ عُقْبَةَ به ، وهو من أَفْرَادِهِ .

---

(١) البخارى (٣١٩٥) .

(٢) فى ح : « طريق » .

(٣) البخارى (٢٤٥٣) ، مسلم (١٦١٢) .

(٤) المسند ٦/٧٩ ، ٢٥٢ .

(٥) زيادة من : الأصل . المسند ٦/٦٤ ، ٢٥٩ .

(٦) البخارى (٣١٩٦) .

(٧) البخارى (٢٤٥٤) .

وذكر البُخارِىُّ هاهنا[1] حَدِيثَ محمَّدِ بنِ [2]سِيرِينَ ، عن[2] عبدِ الرحمنِ بنِ أبى بَكْرَةَ ، عن أبيه[3] ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الزَّمانَ قدِ اسْتَدارَ كهَيْئَتِه يومَ خلَقَ اللهُ السَّمٰواتِ والأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا » . الحَدِيث . ومُرادُهُ ، واللهُ أعلمُ ، [4]تَقْرِيرُ معنى[4] قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] . أىْ فى العَدَدِ ؛ كما أنّ عِدَّةَ الشُّهُورِ الآنَ اثْنا عَشَرَ ، مُطابِقَةً لعِدَّةِ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ فى كِتابِه الأوَّلِ ، فهذِه مُطابَقَةٌ فى الزَّمانِ ، كما أنّ تِلْك مُطابَقَةٌ فِى المَكانِ .

ثُمَّ قال البُخارىُّ[5] : حَدَّثَنا [١/١٠ و] عُبَيْدُ بنُ إسْماعيلَ ، حَدَّثَنا أبو أُسامةَ ، عن هِشامٍ ، عن أبِيه ، عن سَعِيدِ بنِ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ ، أنّه خاصَمَتْه أَرْوَى فى حَقٍّ زَعَمَتْ أنَّه انْتَقَصَه لها إلى مَروانَ ، فقال سَعيدٌ ، رضى اللهُ عنه ، : أنا أَنْتَقِصُ من حَقِّها شَيْئًا ؟ أشهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « مَنْ أخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا ، فإنَّه يُطَوَّقُهُ يومَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ »[6] .

وقال الإمامُ أحمدُ[7] : حَدَّثَنا حسنٌ وأبو سَعِيدٍ مَوْلَى بَنِى هَاشمٍ ، حَدَّثَنا

---

(١) البخارى (٣١٩٧) .

(٢ - ٢) فى ح : « بشر بن » .

(٣) سقطت من الطبعة السلفية وأوردها ابن كثير على الصواب ، وهى ثابتة فى النسخة التى شرح منها الحافظ ابن حجر ، وكذلك هى فى طبعة الشعب وأيضا فى نسخة الحافظ المزى . الأشراف ٩/٤٩ .

(٤ - ٤) فى ح : « تفسير » .

(٥) البخارى (٣١٩٨) .

(٦) بعده فى ح ، م ، ص : « ورواه » .

(٧) المسند ١/٣٩٦ ، ٣٩٧ . قال الشيخ شاكر : إسناده صحيح وأخشى أن يكون منقطعا .

عبدُ اللهِ بنُ لَهِيعَةَ ، حدَّثَنا عُبَيْدُ[1] اللهِ بنُ أبى جَعْفَرٍ ، عن أبى عبدِ الرحمنِ الحُبُلِىِّ ، عن ابنِ مَسْعودٍ قال : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ، أىُّ الظُّلْمِ أعظَمُ ؟ قَالَ : « ذِرَاعٌ مِنَ الأرْضِ [2]يَنْتَقِصُه المَرْءُ المُسْلِمُ مِنْ حَقِّ أخِيهِ ، فَلَيْسَ حَصَاةٌ مِنَ الأَرْضِ[2] يَأْخُذُها أحَدٌ إلا طُوِّقَها يَوْمَ القِيَامَةِ إلى قَعْرِ الأَرْضِ ، ولا يَعْلَمُ قَعْرَهَا إلَّا الذى خلَقَها » . تفَرَّدَ به أحمدُ ، وهَذا إسْنَادٌ لا بَأْسَ به .

وقالَ الإمامُ أحمدُ[3] : حَدَّثَنا عَفَّانُ ، حدَّثَنا وُهَيْبٌ ، حَدَّثَنا سُهَيْلٌ ، عن أبيهِ ، عَنْ أبى هُرَيرةَ ، أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّه ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » . تفَرّدَ بِه أيضًا من هَذا الوَجْهِ ، وهُوَ على شَرْطِ مُسْلِمٍ .

وقَال أحمدُ[4] : حَدَّثَنا يَحْيَى ، عن ابنِ عَجْلانَ ، حَدَّثَنى أَبى ، عَنْ أبى هُرَيرةَ ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّه طُوِّقَهُ [5]يومَ القيامةِ[5] إلى سَبْعِ أَرَضِينَ » . تفَرَّدَ بِه أَيْضًا ، وهُوَ عَلَى شَرْطِ مُسْلمٍ .

وقَال أحمدُ[6] أيضًا : حَدَّثَنا عَفَّانُ ، حَدَّثَنا أبو[7] عَوَانَةَ ، عَنْ عُمَرَ[8] بنِ

---

(1) فى النسخ : « عبد » . وهو عبيد الله بن أبى جعفر المصرى أبو بكر الفقيه .

(2 - 2) سقط من : ص .

(3) المسند 388/2 . وقال فى المجمع 175/4 : رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح .

(4) المسند 432/2 .

(5 - 5) سقط من : م ، ص .

(6) المسند 387/2 . الشرح 9007 .

(7) سقط من : ح .

(8) فى ا : « عمرو » . وهو عمر بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف . تهذيب الكمال 375/21 - 379 .

أبى سَلَمَةَ ، عَنْ أَبيه ، عَن أبى هريرةَ ، أَنّ النبىَّ ﷺ قال : « مَنْ أَخذَ مِنَ الأَرْضِ شِبْرًا بِغيرِ حَقّه ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » . تَفرَّدَ به أَيْضًا . وقَد رَواه الطبَرانِىُّ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيةَ بنِ قُرَّةَ ، عن ابنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا مِثْلَه[1] .

فَهَذِه الأَحاديثُ كالمُتَواتِرةِ فى إِثْباتِ سَبْعِ أَرَضِينَ ، والمُرادُ بذلك أَنّ كُلَّ واحِدَةٍ فَوْقَ الأُخْرَى ، والتى تَحْتَها فى وَسَطِها ، عند أَهْلِ الهَيْئَةِ ، حتى يَنْتَهِىَ الأَمْرُ إلى السابِعَةِ ، وهى صَمَّاءُ لا جَوْفَ لها ، وفى وَسطِها المَرْكَزُ ، وهو[2] نُقْطَةٌ مُقَدَّرَةٌ مُتَوهَّمَةٌ ، وهُو مَحَطُّ الأَثْقَالِ ، إليه يَنْتَهى ما يَهْبِطُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إذا لَمْ يُعاوِقْه مانِعٌ . واخْتَلفُوا : هل هُنَّ مُتَراكِمَاتٌ بِلَا تَفَاصُلٍ ، أو بَيْنَ كُلِّ واحِدَةٍ والتى تَلِيها خَلاءٌ ؟ على قولين . وهذا الخِلافُ جارٍ فى الأَفْلاكِ أَيْضًا . والظاهِرُ أَنّ بَيْنَ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُنّ وبَيْنَ الأُخْرَى مَسافَةً[3] ؛ لِظاهِرِ قَوْلِهِ تعالى[4] : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] . الآية .

وقال الإمامُ أحمدُ[5] : حَدّثنا سُرَيْجٌ[6] ، حدثنا الحَكَمُ بنُ عبدِ المَلِكِ ، عن قَتَادَةَ ، عن الحَسَنِ ، عن أبى هرَيْرَةَ ، قال : بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إذْ مَرّتْ سَحَابَةٌ [١/١٠ ظ] ، فَقَالَ : « أَتَدْرونَ ما هَذِه ؟ » . قُلْنَا : اللهُ

---

(١) أورده الهيثمى فى سياق طويل ، وقال : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو متروك كذاب . مجمع الزوائد ١٧٥/٤ . وهو فى الكبير (١٢٩٢١) .

(٢) فى م : « هى » .

(٣) فى ح : « خلاء » .

(٤) التفسير ١٨٢/٨ .

(٥) المسند ٣٧٠/٢ . (ضعيف الترمذى ٦٥١) .

(٦) فى النسخ : « شريح » . وهو : سريج بن النعمان بن مروان أبو الحسين الجوهرى البغدادى . سير أعلام النبلاء ٢١٩/١٠ ، ٢٢٠ .

ورَسُولُه أعلَمُ . قَالَ : « العَنَانُ[1] وَزَوايَا الأَرْضِ ، [2]يَسُوقُه اللهُ[2] إلى مَنْ لا يَشْكُرونَه مِنْ عِبَادِهِ ولا يَدْعُونَه . أَتَدرُونَ ما هَذِه فَوْقَكُم ؟ » قلنا : اللهُ وَرَسُولُه أَعْلَمُ . قَال : « الرَّقِيعُ[3] مَوْجٌ مَكْفُوفٌ ، وسَقْفٌ مَحْفُوظٌ . أَتَدرُونَ كَمْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَها ؟ » . قُلْنا : اللهُ وَرَسُولُه أَعْلَمُ . قَالَ : « مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عامٍ[4] » . ثُمّ قَالَ : « أَتَدْرونَ ما الَّذِى فَوْقَها ؟ » . قُلْنا : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قَالَ : [5]« سَمَاءٌ أُخرى . أتَدْرونَ كَمْ بينَها[6] وبينَها ؟ » قلنا : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قال :[5] « مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عامٍ » . [7]حَتّى عَدَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ ، ثُمّ قَالَ : « أَتَدْرونَ ما فَوْقَ ذَلك ؟ » . قُلْنَا : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قَالَ : « العَرْشُ . أَتَدرونَ كَمْ بَيْنَهُ[8] وبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ؟ » . قُلْنَا : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قَالَ : « مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ[7] » . ثُمَّ قَالَ : « أَتَدْرونَ ما هَذِه تَحتَكم ؟ » . قُلْنَا : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قَالَ : « أَرْضٌ . أَتَدْرونَ مَا تَحْتَها ؟ » . قُلْنَا : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قَالَ : « أرضٌ أُخرى . أَتَدْرون كَمْ بينَهما ؟ » . [9]قُلنا : اللهُ ورسُولُه أَعْلَمُ[9] . قال : « مَسِيرَةُ سَبْعِمائَةِ عَامٍ » . حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ ، ثُمَّ قَالَ : « وَايْمُ اللهِ لَوْ دَلَّيْتُم أَحَدَكُمْ إلَى الأَرْضِ

---

(١) فى ا : « الغياث » .

(٢ - ٢) فى م : « تسوقه » .

(٣) فى النسخ « الرفيع » بالفاء . والمثبت كما فى المسند . والرقيع اسم للسماء الدنيا . اللسان (ر ق ع) .

(٤) فى م ، ص : « سنة » .

(٥ - ٥) سقط من : م ، ص .

(٦) فى المسند : « بينكم » .

(٧ - ٧) سقط من : ا .

(٨) فى ص ، والمسند : « بينكم » .

(٩ - ٩) سقط من : ح .

السُّفْلَى السَّابِعَةِ لَهَبَطَ » . ثُمَّ قَرأَ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

ورَواه التِّرْمِذِيُّ[١]، عن عَبْدِ بن حُمَيْدٍ وغَيْرِ واحِدٍ ، عن يُونُسَ بن محمدٍ المؤَدِّبِ ، عن شيبانَ بن عبدِ الرَّحمَنِ ، عن قَتادَةَ ، قال : حدَّث الحَسَنُ عن أبى هريرةَ . وذكره ، إلَّا أنه ذَكَر أَنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْن خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وذَكَر فِى آخِرِه كَلِمَةً[٢] ذَكَرْناها عِنْدَ تَفْسِيرِ هذه الآيَةِ من سورةِ الحديدِ[٣] ، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هذا الوَجْهِ . قال[٤] : ويُرْوَى عن أَيُّوبَ ويُونُسَ بنِ عُبَيْدٍ وعلىِّ بنِ زَيدٍ أَنَّهُم قَالُوا : لم يَسْمَعِ الحَسَنُ من أبى هُرَيرةَ . ورَواه أَبُو محمدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ أبى حاتِمٍ فى « تَفْسيرِهِ » ، مِنْ حَدِيثِ أبى جَعْفَرٍ الرَّازِىِّ ، عن قَتادَةَ ، عن الحَسَنِ ، عن أبى هُرَيرةَ ، فذكَرَ[٥] مِثْلَ لَفْظِ التِّرْمِذِىِّ سَواءً ، بِدُون الزِّيادةِ[٦] فى آخِرِه . ورواه ابنُ جَرِيرٍ فى « تَفْسيرِه »[٧] ، عن بِشْرٍ ، عن يَزِيدَ ، عن سعيدِ بنِ أبى عَرُوبَةَ ، عن قَتَادةَ مُرْسَلًا . وقَدْ يَكُونُ هذا أَشْبَهَ ، واللهُ أعلَمُ . ورواه الحافظان[٨] أبو بكرٍ البَزَّارُ

---

(١) الترمذى (٣٢٩٨) (ضعيف الترمذى ٦٥١) .
(٢) يعنى لفظ : « لهبط على الله » .
(٣) التفسير ٣٢/٨ .
(٤) زيادة من : م .
(٥) فى ص : « وذكر » .
(٦) فى م : « زيادة » .
(٧) تفسير الطبرى ٢١٦/٢٧ .
(٨) فى م ، ص : « الحافظ » . أورده المصنف فى جامع المسانيد ٨١٩/١٣ . وعزاه للبزار كما ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣١/٨ . وعزاه للبزار ، وقال : رجاله رجال الصحيح إلا أبا نصر حميد ابن هلال لم يسمع من أبى ذر . وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ٤٠١ . وقال الألبانى : ضعيف (السنة لابن أبى عاصم ٥٧٨) . وانظر العلل المتناهية ١١/١ ، ١٢ .

والبَيْهَقِىُّ من حَديثِ أبى ذَرٍّ الغِفارِىِّ عَن النَّبِىِّ ﷺ بنَحْوِه[1] ، ولَكِنْ لا يَصِحُّ إسْنادُه ، واللهُ أعلمُ .

وقَدْ تَقَدّم عِنْدَ ذكرِ صِفَةِ العَرْشِ من حَديثِ الأَوْعَال ما يُخَالِفُ هذا فى ارتِفَاعِ العَرْشِ عنِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، وما يَشْهَدُ لَه . وفيه : « وبُعْدُ مَا بَيْنَ كُلِّ سَماءَيْنِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وكِثَفُها[2] – أَىْ سُمْكُها – خَمْسُمِائةِ عَامٍ »[3] .

وأمّا مَا ذَهَبَ إليه بَعْضُ المُتَكلّمين على حديثِ : « طُوِّقَه مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ »[4] ، أنّها سَبْعَةُ أَقَالِيمَ ، فَهُو قولٌ [١/١١ و] يُخَالِفُ ظَاهِرَ الآيَةِ والحَديثَ الصَّحِيحَ وصَرِيحَ كَثِيرٍ من أَلْفَاظِه مع ما ذكَرْنا مِنَ الحديثِ الذى أورَدْناه من طَرِيقِ الحَسَنِ عَنْ أبى هُرَيْرَةَ . ثمّ إنّه حَمَلَ الحديثَ والآيةَ على خِلافِ ظَاهِرِهِمَا بلا مُسْتَنَدٍ ولا دَلِيلٍ ، واللهُ أعلمُ . وهكذا ما يَذْكُرُه كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتَابِ ، وتَلَقّاه عَنْهُم طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمائِنَا ، مِنْ أَنّ هذِه الأرضَ مِنْ تُرابٍ ، والتى تَحْتَها مِنْ حَدِيدٍ ، والأُخْرى مِنْ حِجَارةٍ مِنْ كِبْرِيتٍ ، والأُخْرى من كذا . فَكُلُّ هَذا إذا لم يُخْبَرْ به ويَصِحَّ سَنَدُه إلى مَعْصُومٍ ، فهو مَرْدُودٌ على قَائِلِه . وهكذا الأَثَرُ المَرْوِىُّ عن ابنِ عبَّاسٍ ، أنّه قَال : فى كُلِّ أَرْضٍ مِنَ الخَلْقِ مِثْلُ ما فِى هَذِهِ الأرضِ[5] حتّى آدمُ كآدَمِكُم ، وإبراهيمُ

---

(١) سقط من : م ، ص .

(٢) فى ح : « كنفها » .

(٣) تقدم فى صفحة ١٦ .

(٤) تقدم فى صفحة ٣٦ .

(٥) زيادة من : ا .

كإبراهيمِكُمْ . فهذا ذَكَرَه ابنُ جَرِيرٍ مُخْتَصَرًا[1] ، واسْتَقْصاه البَيْهَقِيُّ فى الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ[2] ، وهو مَحْمُولٌ - إنْ صَحّ نَقْلُه عنه - على أَنَّ ابنَ عَبَّاسٍ ، رضِىَ اللهُ عَنْه ، أَخذَه عَنِ الإِسْرَائِيلِيّاتِ ، واللهُ أعلمُ .

وقالَ الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا يَزِيدُ ، حدَّثنا العَوَّامُ بنُ حَوْشَبٍ ، عن [4]سُلَيمانَ بنِ[4] أبى سليمانَ ، عن أَنَسِ بنِ مَالكٍ ، عن النَّبىِّ ﷺ قال : « لَمّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ ، فخَلَقَ الجِبَالَ فأَلْقَاهَا عَلَيْها فَاسْتَقَرّتْ ، فَتعجَّبَتِ المَلائِكَةُ من خَلْقِ الجِبَالِ ، فَقَالَتْ : يا رَبِّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَىْءٌ أَشَدُّ مِنَ الجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، الحَدِيدُ . قَالت : يا رَبِّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شىءٌ أَشَدُّ مِنَ الحَدِيدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، النّارُ . قَالَتْ : يا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شىءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ [5]الماءُ . قالت : يا رَبِّ فهل مِن خَلْقِك شىءٌ أشدُّ من الماءِ ؟ قال : نعم[5] الرِّيحُ . قَالَتْ : يا رَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَىءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، ابنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِه يُخْفِيها من شِمَالِه » . تَفَرّدَ بإخراجِه أَحْمَدُ[6] .

وَقَدْ ذَكَرَ أَصْحابُ الهَيْئَةِ أَعْدَادَ جِبالِ الأَرْضِ فى سائِرِ بِقَاعِها ، شَرْقًا

---

(1) تفسير الطبرى ٢٨/١٥٣ . ورواه الحاكم فى المستدرك ٢/٤٩٣ ، وقال : صحيح . وإسناده صحيح كما قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٦/٢٩٣ .

(2) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٣٨٩ ، ٣٩٠) . وقال : إسناد هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما صحيح ، وهو شاذ بمرة ، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعا ، والله أعلم . وانظر فتح البارى ٦/٢٩٣ .

(3) مسند أحمد ٣/١٢٤ .

(4 - 4) فى ا : « سلمان عن » .

(5 - 5) سقط من : ح ، م ، ص .

(6) لم يتفرد به أحمد بل رواه الترمذى (٣٣٦٩) من طريق يزيد بن هارون وقال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه (ضعيف الترمذى ٦٦٨) .

وغَرْبًا ، وذَكَرُوا أطوالَها ، وبُعْدَ امتِدَادِها ، وارتِفَاعَها ، وأَوْسَعُوا القَوْلَ فى ذلك بما يَطُولُ شَرْحُه هنا[1] . وقد قَالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر : ٢٧] . قال ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ : الجُدَدُ الطَرَائِقُ[2] . وقَال عِكْرِمَةُ وغيرُه : الغَرابِيبُ الجِبالُ الطِّوَالُ السُّودُ . وهذا هو المُشاهَدُ[3] مِنَ الجِبالِ فى سائِرِ الأَرْضِ ، تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ بِقَاعِهَا وأَلْوَانِهَا . وقد ذَكَر اللهُ تعالى فى كِتَابِه (الجُودِىَّ) على التَعْيينِ ، وهو جَبَلٌ عَظِيمٌ شَرْقِىَّ جَزِيرةِ ابنِ عُمَرَ إلى جَانِبِ دِجْلَةَ عندَ المَوْصِلِ ، امتِدَادُه مِنَ الجَنُوبِ إلى الشَّمالِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، وارتِفَاعُه مَسِيرَةُ نِصفِ يومٍ ، وهُو أَخْضَرُ ؛ لأنّ فيه شَجَرًا من البَلُّوطِ ، وإلى جَانِبِه قَرْيَةٌ يُقَالُ لها : قَرْيَةُ الثَّمانِين . لسُكْنَى الذين نَجَوْا فى السَّفِينَةِ مَعَ نُوحٍ عليه السلامُ فى مَوْضِعِها ، فيما ذَكَره غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المُفَسِّرين ، واللهُ أَعْلَمُ . [4]وذكَر تعالَى طُورَ سَيْنَاءَ[4] .

[5]وقدْ ذكَر الحافظُ البَهاءُ ابنُ عَساكِرَ فى كتابِه « المُسْتَقْصَىٰ فى فضائلِ المسجدِ الأقصى » فى تَرْجَمةِ الجِبالِ المُقَدَّسَةِ ، مِن طريقِ عمرِو بنِ بكرٍ ، عن ثَورِ بنِ يزيدَ ، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ ، عن أبى هريرةَ قال : أَقْسَم ربُّنا عز وجل بأَرْبَعةِ أَجْبُلٍ فقال : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين : ١ - ٣] . فالتينُ طُورُ ربِّنا مسجدُ بيتِ المَقْدِسِ ، والزَّيتونُ[5]

---

(١) انظر : كتاب مسالك الأبصار ، لابن فضل الله العمرى ١/٣٠ - ٤٤ .

(٢) التفسير ٦/٥٣٠ .

(٣) فى الأصل : « المشهود » ، وفى م : « الشاهد » .

(٤ - ٤) زيادة من : ا ، ص .

(٥ - ٥) زيادة من : ح .

(1)طورُ ربِّنا ، وطورُ سِينين ، وهذا البلدُ الأمينُ جبلُ مكَّةَ(2) . وقال قتادة : التينُ جَبلٌ عليه دمشقُ ، والزَّيْتونُ جبَلٌ عليه بيتُ المَقْدِسِ(3) . وروى الحافِظُ ابنُ عساكرَ(4) عن كعبِ الأحْبارِ أنَّه قال : أَرْبعةُ أَجْبُلٍ يومَ القيامةِ ، جبلُ الخليلِ (5)ولبنان(5) والطُّورُ والجُوديُّ ، يكونُ كلُّ واحدٍ مِنهنَّ يومَ القيامةِ لُؤلؤةً بيضاءَ تُضِيءُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ ، يَرْجِعْنَ إلى بيتِ المَقْدِسِ حتى تُجْعَلَ فى زواياه نورًا ، ويضعُ عليها كُرْسيَّه حتى يَقْضِيَ بينَ أهلِ الجنةِ والنارِ . ﴿ وَتَرَى(6) ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] . ومِن طريقِ الوليدِ ابنِ مسلمٍ ، ثنا (7)عثمانُ بنُ أبى عاتكةَ(7) ، عن عليِّ بنِ يزيدَ ، عن القاسمِ أبى عبدِ الرحمنِ قال : أوحىٰ اللهُ إلى جبلِ قاسْيونَ أن هَبْ ظلَّكَ وبَرَكَتَك لجبلِ (8)بيتِ المقدسِ . قال : ففعَل . فأوحَىٰ اللهُ تعالى إليه : أمَا إذ فعلتَ فإنِّى سأَبْنِى لى فى حِضْنِك بيتًا - قال عبدُ الرحمنِ : قال الوليدُ : فى حِضنِك . أى فى وسطِه ، وهو هذا المسجدُ(8) - يعنى مسجدَ دمشقَ - أُعْبَدُ فيه بعدَ خرابِ الدنيا أربعينَ عامًا ، ولا تذهبُ الأيامُ والليالى حتى أردَّ عَليك ظلَّك وبَركَتَك . قال : فهو عندَ اللهِ بمنزلةِ المُؤْمنِ الضعيفِ المُتَضرِّعِ(9). وعن خليلِ بنِ(1)

(1 - 1) زيادة من : ح .

(2) تاريخ دمشق ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ بنحوه عن قتادة ويزيد بن ميسرة .

(3) رواه الطبرى فى التفسير ٣٠/٢٣٩ . وبنحوه عند ابن عساكر ٢/٢٣٧ .

(4) تاريخ دمشق ٢/٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(5 - 5) فى ح : « التين » ، والمثبت من تاريخ دمشق .

(6) سقط من : ح .

(7 - 7) فى ح : « همار بن أبى العائلة » . والمثبت من التاريخ .

(8 - 8) سقط من : ح . والمثبت من التاريخ .

(9) تاريخ دمشق ٢/٢٣٨ ، ٢٣٩ .

[1]دَغْلَجٍ أنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبىِّ ﷺ أَتَتْ طرَفَ بيتِ المَقْدِسِ ، فصلَّتْ فيه وصَعِدَت إلى طورِ ربِّنا ، فصلَّت فيه وباتت على طرَفِ الجبلِ فقالت : مِن هاهنا يتفرقُ النَّاسُ يومَ القيامةِ إلى الجنَّةِ وإلى النَّارِ[2][1] .

(١ - ١) زيادة من : ح .

(٢) أورده عبد الرحمن بن محمد المقدسى فى كتابه « الأنس الجليل » ١/٢٦٦ ، ٢٦٧ .

فصل [١/١١ظ]

فى البحارِ والأنهارِ

قَال اللهُ تعالى(١) : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٤ – ١٨] . وقَالَ تعالى(٢) : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر : ١٢] . وقَالَ تعالى(٣) : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] . وقَالَ تعالى(٤) : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ ، ٢٠] . فالمُرادُ بالبَحْرين البَحْرُ المِلْحُ(٥) المُرُّ وهو الأُجَاجُ ، والبَحْرُ العَذْبُ هو هذه الأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بين أَقْطارِ الأَمْصارِ ، لمَصَالِحِ العِبَادِ . قَالَه ابنُ جُرَيْجٍ

(١) التفسير ٤/٤٨٠ .

(٢) التفسير ٦/٥٢٦ .

(٣) التفسير ٦/١٢٥ .

(٤) التفسير ٧/٤٦٧ .

(٥) فى ح ، ا : « المالح » .

وغيرُ واحدٍ مِنَ الأئمَّةِ[1] . وقَالَ تَعالى[2] : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى ٣٢ - ٣٤] . وقَالَ تعالى[3] : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان ٣١ ، ٣٢] . وقَالَ تعالَى[4] : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] . فامْتَنَّ تَعالَى على عِبَادِهِ بما خلَق لهم مِنَ البِحَارِ والأنهارِ ، فالبَحْرُ المُحِيطُ بسائِرِ[5] أرْجَاءِ الأرضِ ، وما يَنْبَثِقُ[6] مِنْه فى جَوانِبِها ، الجميعُ مَالِحُ الطَّعْمِ مُرٌّ ، وفى هذا حِكْمَةٌ عَظيمَةٌ لِصِحَّةِ الهَوَاءِ ؛ إذْ لَوْ كَانَ حُلْوًا لأَنْتَنَ الجوُّ وفَسَدَ الهواءُ ؛ بِسَبَبِ ما يَموتُ فِيه من الحَيَوانَاتِ العِظامِ ، فكان يؤدِّى إِلَى تَفانِى بنى آدَمَ ، [7]وفَسَادِ مَعايِشِهِمْ[7] ، فاقتَضَتِ الحِكْمَةُ البالِغَةُ أَنْ يكونَ على هذه الصِّفَةِ ، لهذه المَصْلَحَةِ . ولِهذا لما سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، عَنِ البَحْرِ ، قال : « هُوَ

---

(١) انظر : تفسير الطبرى ٢٤/١٩ ، ٢٥ .

(٢) التفسير ١٩٦/٧ .

(٣) التفسير ٣٥٣/٦ .

(٤) التفسير ٢٨٩/١ .

(٥) فى ا : « يبلغ » .

(٦) فى م : « ينبت » .

(٧ - ٧) سقط من : ح ، م .

الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ »[1] .

وأَمّا الأَنْهارُ فاقتضتِ الحِكْمَةُ أن يكونَ ماؤها حُلوًا عَذْبًا جاريًا [١٢/١ و] فراتًا سائغًا للشاربينَ ، وجَعَلَها جَارِيةً سَارِحةً ، يُنْبِعُها سُبْحانَه وتَعالَى فى أَرْضٍ ، ويَسُوقُها إلى أُخرى ، رزْقًا لِلعبادِ ، ومِنْها كِبَارٌ وصِغَارٌ ، بِحَسَبِ الحاجَةِ والمَصْلَحَةِ .

وقَدْ تكَلَّم [2]أَصْحابُ عِلْمِ[2] الهَيْئَةِ والتَّسْيِيرِ[3] على تَعْدَادِ البِحارِ والأَنْهارِ الكِبَارِ ، وأُصُولِ مَنَابِعِها ، وإلى أَيْنَ يَنْتَهِى مَسِيرُها ، بِكَلامٍ فيه حِكَمٌ ودَلالاتٌ على قُدْرَةِ الخالِقِ تَعالَى ، وأَنّه فاعِلٌ بالاخْتِيارِ والحِكْمةِ[4] . وقَوْلُه تَعالى[5] : ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور : ٦] . فِيه قَوْلَان ؛ أَحَدُهما ، أَنّ المُرادَ به البَحْرُ الذى تَحْتَ العَرْشِ المَذْكورُ فى حَدِيثِ الأَوْعَالِ[6] ، [7]وأَنّه فَوْقَ السّمواتِ السَبْعِ[7] بَيْنَ أَسْفَلِه وأَعْلاهُ كما بَيْنَ سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ ، وهُوَ الذى يَنْزِلُ منه المَطَرُ قَبْلَ البَعْثِ فَتَحْيا منه الأَجْسَادُ من قُبُورِها . وهذا القَوْلُ هو اخْتِيارُ الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ . والثّانى ، أَنّ البَحْرَ اسمُ جِنْسٍ ، يَعُمُّ سائِرَ البِحَارِ التى فى الأَرْضِ ، وهُو قَوْلُ الجُمْهورِ .

واخْتَلَفُوا فى معنى البَحْرِ المَسْجُورِ ، فَقِيل : المَمْلُوءُ . وقيلَ : الذى يَصِيرُ يومَ القِيامَةِ نارًا تُؤَجَّجُ ، فيُحِيطُ بأَهْلِ المَوْقفِ . كما ذَكَرْناه فى

---

(١) أبو داود (٨٣) ، الترمذى (٦٩) وقال : حسن صحيح . النسائى (٥٩ ، ٣٣١) ، ابن ماجه (٣٨٦ - ٣٨٨) ، كلهم من حديث أبى هريرة . (صحيح الجامع ٦٩٢٥) .

(٢ - ٢) فى ا : « أهل » .

(٣) فى م ، ص : « التفسير » .

(٤) انظر : مسالك الأبصار ٤٤/١ - ٦٠ .

(٥) التفسير ٤٠٥/٧ .

(٦) تقدم فى صفحة ١٦ .

(٧ - ٧) فى ا : « السماء السابعة » .

« التَفْسِيرِ »[1] عن عَلِيٍّ بنِ أَبى طالبٍ ، وابنِ عباسٍ ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ ، ومُجاهدٍ[2] ، وغيرِهم . وقيلَ : المُرَادُ به المَمْنُوعُ المَكْفُوفُ ، المَحْرُوسُ عن أَنْ يَطْغَى فَيَغْمُرَ الأَرْضَ ومَنْ عليها فَيَغْرَقُوا[3] . رواه الوالبيُّ عن ابنِ عَبَّاسٍ ، وهو قولُ السُّدِّيِّ وغيرِه . ويُؤَيِّدُه الحَديثُ الذى رَواه الإِمَامُ أَحمدُ[4] : حدَّثنا يَزِيدُ ، حدَّثنا العَوّامُ ، حدَّثنى شَيْخٌ كان مُرَابِطًا بالسَّاحِلِ ، قال : لَقِيتُ أَبا صَالحٍ مَوْلَى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، فقال : حَدَّثَنا عمرُ بنُ الخَطَّابِ ، عن رَسُولِ اللهِ ﷺ قال : « لَيسَ مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا والبَحْرُ يُشرِفُ فيها ثَلاثَ مَرّاتٍ ، يَسْتَأْذِنُ اللهَ عزَّ وجلَّ أَنْ يَنْفَضِخَ[5] عَلَيهم ، فَيَكُفُّه اللهُ عَزَّ وَجلَّ » . ورَواه إِسْحَاقُ ابنُ رَاهَوَيْه[6] ، عن يَزِيدَ بنِ هَٰرونَ ، عن العَوّامِ ابنِ حَوْشَبٍ ، حَدّثنى شَيْخٌ مُرابِطٌ قال : خَرَجْتُ ليلةً لمَحْرَسٍ[7] ، لَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ من الحَرَسِ غيرى ، فَأَتَيْتُ المِيناءَ ، فَصَعِدْتُ ، فَجعَلَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ البَحْرَ يُشْرِفُ ، يُحَاذِى برُؤُوسِ الجِبالِ ، فَعَل ذلك مِرارًا وأَنَا مُسْتَيْقِظٌ ، فَلَقِيتُ أبا صَالحٍ ، فقال : حدَّثَنا عمرُ بنُ الخَطَّابِ ، أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قال : « ما مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا والبَحْرُ يُشْرِفُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، يَسْتَأْذِنُ اللهَ أَنْ ينفَضِخَ عليهم ، فَيَكُفُّه اللهُ عَزَّ وجَلَّ » . فى إِسْنَادِه رَجُلٌ مُبْهَمٌ[8] ، واللهُ أعلَمُ .

---

(1) التفسير ٧/٤٠٥ .

(2) فى م ، ص : « ابن مجاهد » .

(3) فى ا : « جميعا » .

(4) المسند ١/٤٣ . ضعيف .

(5) فى م : « يتفصح » . وفى ص : « يتفضح » . وفى ا : « ينفضح » . وينفضخ : ينفتح ويسيل .

(6) عزاه له ابن حجر فى المطالب العالية ٢/١٧٦ .

(7) فى ح ، ا : « لمحرسى » . وفى المطالب : « بحرسى » .

(8) فى ص : « متهم » .

وهذا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ تعالى عَلَى عِبادِهِ أَنْ كَفَّ شَرَّ البَحْرِ أَنْ يَطْغَى عَليهم ، وسَخَّرَه لَهُم ، يَحْمِلُ مَراكِبَهُمْ ؛ لِيَبْلُغُوا عليها إلى الأَقالِيمِ النَّائِيَةِ بالتِّجاراتِ وغيرِها ، وهَداهم فِيه ، بما خَلَقه فى السَّماءِ والأَرْضِ من النُّجومِ (١والجِبالِ ؛ التى جَعَلَها لهم عَلاماتٍ يَهْتَدُون بها فى سَيْرِهم١) ، وبِما خَلَق لَهُم فيه (٢حِلْيَةً يَلْبَسُونها٢) مِنَ اللَّآلِئِ [١/١٢ ظ] والجَواهِرِ النَّفِيسَةِ العَزِيزَةِ الحَسَنَةِ الثَّمِينَةِ التى لا تُوجَدُ إِلَّا فيه ، وبما خَلَق فِيه مِنَ الدَّوَابِّ الغَرِيبَةِ ، (٣وأَحَلَّها لهم٣) حتّى مَيْتَتَها ، كما قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ [المائدة : ٩٦] . وقَال النبىُّ ﷺ : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الحِلُّ مَيْتَتُهُ »[٤] . وفى الحَدِيثِ الآخَرِ : « أُحِلَّتْ لَنا مَيْتَتانِ ودَمَانِ ؛ السَّمَكُ والجَرَادُ ، والكَبِدُ والطِّحَالُ » . رَواه أحمدُ وابنُ مَاجَه[٥] ، وفى إِسْنَادِه نَظَرٌ[٦] .

وقد قال الحافِظُ أبو بكرٍ البَزَّارُ فى « مُسْنَدِه »[٧] : وجدتُ فى كتابى[٨] عن محمدِ بنِ معاويةَ البَغْدادىِّ ، حدثنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، عن سُهَيْلِ بنِ أبى صالحٍ ، عن أَبِيه ، عن أبى هُرَيْرةَ رَفَعَهُ ، قال : « كَلَّمَ اللهُ هَذَا الْبَحْرَ الْغَرْبِىَّ ، وكَلَّمَ الْبَحْرَ الشَّرْقِىَّ ، فَقَالَ لِلغَرْبِىِّ : إِنِّى حَامِلٌ فِيكَ عِبَادًا مِنْ عِبَادِى ، فَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمْ ؟ قَالَ : أُغْرِقُهُمْ . قَالَ : بأْسُكَ فِى

(١ - ١) فى ا : « والعلامات وهى الجبال الراسيات » .
(٢ - ٢) سقط من : ح ، م .
(٣ - ٣) فى ا : « وأحل لهم ما فيه من السمك والدواب الغريبة كما رواه أحمد » .
(٤) تقدم فى صفحة ٤٩ .
(٥) مسند أحمد ٩٧/٢ . ابن ماجه (٣٢١٨ ، ٣٣١٤) بلفظ « الحوت » . (صحيح الجامع ٢٠٨) .
(٦) فإن فى إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال عبد الله بن الإمام أحمد : سمعت أبى يضعّف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : روى حديثا منكرا ، حديث : « أحلت لنا ميتتان » . اهـ . ورواه غيره موقوفا ، لكن له حكم الرفع ، والخلاف شكلى ، وانظر السلسلة الصحيحة (١١١٨) .
(٧) كشف الأستار (١٦٦٩) . وقال الهيثمى ٢٨١/٥ : رواه البزار وجادة ، وفيه عبد الرحمن بن عمر العمرى وهو متروك .
(٨) فى م ، ص : « كتاب » .

نَوَاحِيكَ . وحَرَمَهُ الْحِلْيَةَ والصَّيْدَ ، وكَلَّمَ هَذَا الْبَحْرَ الشَّرْقِيَّ ، فَقَالَ : إِنِّى حَامِلٌ فِيكَ عِبَادًا مِنْ عِبَادِى ، فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ بِهِمْ ؟ قَالَ : أَحْمِلُهُمْ عَلَى يَدِى ، وأَكُونُ لَهُمْ كَالْوَالِدَةِ لِوَلَدِهَا . فأَثَابَهُ الْحِلْيَةَ والصَّيْدَ » . ثم قال : لا (١)نعْلَمُ أحدًا رَوَاه(١) عن سُهَيْلٍ إلَّا عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، وهو مُنْكَرُ الحديثِ . قال : وقد رَواه سُهَيْلٌ عن النُّعْمانِ(٢) بنِ أبى عَيَّاشٍ ، عن عبدِ اللهِ ابنِ عَمْرٍو(٣) مَوْقُوفًا(٤) . قلتُ : الموقوفُ على عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ أشْبَهُ ؛ فإنَّه قد كان وَجَدَ يومَ اليَرْمُوكِ زَامِلَتَيْن مَمْلوءَتَيْن كُتُبًا مِن علومِ أهلِ الكتابِ ، فكان يُحدِّثُ منهما بأشياءَ كثيرةٍ من الإسْرائيليَّاتِ ، منها المعروفُ والمَشْهورُ والمَنكورُ والمَرْدُودُ ، فأمَّا المرفوعُ(٥) فتَفَرَّد به عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ(٦) بنِ حَفْصِ بنِ عاصِمِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أبو القاسمِ المَدَنِىُّ قاضِيها ، قال فيه(٧) الإمامُ أحمدُ : ليس بشىءٍ ، وقد سمِعْتُ منه ثم مَزَّقْتُ حديثَه ، كان كذَّابًا ، وأحاديثُه مَناكِيرُ . وكذا ضَعَّفَه ابنُ مَعِينٍ ، وأبو زُرْعَةَ ، وأبو حاتِمٍ ، والجُوزْجَانِىُّ ، والبُخارىُّ ، وأبو داودَ ، والنَّسائِىُّ(٨) ، وقال ابنُ عَدِىٍّ(٩) : عامَّةُ أحاديثِه مَناكِيرُ ، وأَفْظَعُها(١٠) حديثُ البَحْرِ .

(١ - ١) فى م : « تعلم أحدا . ما رواه » .

(٢) فى م ، ص : « عبد الرحمن » .

(٣) فى ص : « عمر » .

(٤) رواه الخطيب فى تاريخ بغداد ٢٣٣/١٠ ، عن عبد الله بن عمرو موقوفا ، ورواه من طريق آخر عن عبد الله بن عمرو عن كعب الأحبار من قوله .

(٥) فى م ، ص : « المعروف » .

(٦) فى م ، ص : « عمرو » .

(٧) سقط من : ح .

(٨) الكامل لابن عدى ١٥٨٧/٤ ، ١٥٨٨ .

(٩) الكامل لابن عدى ١٥٨٨/٤ ، ١٥٩٠ .

(١٠) فى الأصل ، ا : « وأنكرها » .

قال علماءُ التَّسْيير[1] المتكلِّمون على العُروضِ ، والأطْوالِ ، والبِحارِ ، والأنْهارِ ، والجِبالِ ، والمِساحاتِ ، وما فى الأرضِ من المُدُنِ ، والخَرابِ ، والعِمارات[2] ، والأقاليمِ السَّبْعةِ الحقِيقِيةِ فى اصطِلاحِهم ، والأقاليمِ المتعدِّدةِ العُرْفيةِ[3] ، وما فى البُلْدانِ والأقاليمِ من الخَواصِّ والنباتاتِ ، وما يُوجَدُ فى كلِّ قُطْرٍ من صُنوفِ المَعادنِ والتِّجاراتِ ، قالوا : الأرضُ مَغْمورةٌ بالماءِ العَظيمِ إلا مِقْدارَ الرُّبْعِ منها ، وهو تِسعونَ دَرجةً ، والعِنايةُ الإلهيَّةُ اقْتَضتْ انحسارَ الماءِ عن هذا القَدْرِ منها ؛ لتعيشَ الحَيَواناتُ عليه ، ويَنْبُتَ الزَّرْعُ والثِّمارُ فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ * وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ * [١٣/١ و] فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٠ – ١٣] . قالوا[4] : المَعْمورُ[5] مِن هذا البادِى[6] منها قَريبُ الثُّلُثَينِ منه أو أكثرُ قليلًا . وهو خمسٌ وسِتونَ[7] درجةً . قالوا : فالبحرُ المُحيطُ الغربِىُّ ، ويُقالُ له : أُوقيانوسُ . وهو الذى يُتاخِمُ بلادَ المَغْربِ[8] ، وفيه الجَزائرُ الخالِداتُ ، وبينَها وبينَ ساحِلِه عَشْرُ دَرَجٍ ، مسافةُ شَهْرٍ تقريبًا ، وهو بحرٌ لا يمكنُ سُلوكُه ولا ركوبُه ؛ لكثرةِ هَيْجِه واغْتِلامِه وما فيه مِن الرِّياحِ والأمواجِ ، وليس فيه صيدٌ ، ولا يُسْتَخرجُ منه شئٌ ، ولا يُسافَرُ فيه لمَتْجَرٍ ،

---

(١) فى الأصل ، م : « التفسير » .

(٢) فى ا : « العمران » .

(٣) فى ا : « الغربية » .

(٤) انظر : نزهة المشتاق ، للإدريسى ١/٨ – ١٢ . ومسالك الأبصار ١/١٦ – ٢٣ .

(٥) فى ح : « المغمور » .

(٦) بعده فى ا : « وهو مقدار الربع » .

(٧) فى م ، ص : « وتسعون » .

(٨) فى ص : « العرب » .

ولا لغيرِه ، وهو آخِذٌ فى ناحِيَةِ الجَنوبِ حتى يُسامِتَ[1] الجبالَ القُمْرَ ، ويُقالُ : جبالُ القَمَرِ[2] . التى منها أصلُ منبعِ نيلِ مِصْرَ[3] ، ويَتَجاوزُ خطَّ الاسْتواءِ ، ثم يمتدُّ شرقًا ، ويصيرُ جَنوبىَّ الأرضِ ، وفيه هناك جَزائرُ الزِّنْجِ[4] ، وعلى سَوَاحِلِه خرابٌ كثيرٌ ، ثم يمتدُّ شرقًا وشمَالًا حتى يتصلَ ببحرِ الصينِ والهندِ ، ثم يمتدُّ شرقًا حتى يُسامِتَ نهايةَ الأرضِ الشرقيةِ المكشوفةِ ، وهناك بلادُ الصينِ ، ثم يَنْعَطِفُ فى شرقِ الصينِ إلى جهةِ الشَّمالِ ، حتى يُجاوزَ بلادَ الصينِ ، ويُسامِتَ سدَّ يأجوجَ ومأجوجَ ، ثم ينعطفُ ، ويستديرُ على أرضٍ غيرِ معلومةِ الأحوالِ ، ثم يمتدُّ مَغْرِبًا فى شَمالِ الأرضِ ، ويُسَامِتُ بلادَ الرُّوسِ ، ويتجاوزُها ، ويعطِفُ مَغْرِبًا وجنوبًا ، ويستديرُ على الأرضِ ، ويعودُ إلى جهةِ الغربِ ، ويَنْبَثِقُ[5] مِن الغربىِّ إلى مَتْنِ الأرضِ الزقاقِ ، الذى ينتهى أقصاهُ إلى أطرافِ الشامِ مِن الغربِ ، ثم يأخذُ فى بلادِ الرومِ ، حتى يتَّصلَ بالقُسْطَنْطِينيةِ وغيرِها من بلادِهم .

وينبعثُ من المحيطِ الشرقىِّ بحارٌ أُخَرُ ، فيها جزائرُ كثيرةٌ ، حتى إنه يُقالُ : إنَّ فى بحرِ الهندِ ألفَ جزيرةٍ وسَبْعَمائةِ جزيرةٍ ، فيها مدُنٌ وعماراتٌ سِوَى الجزائرِ[6] العاطِلةِ ، ويُقالُ لها : البحرُ الأخضرُ . فشَرْقيُّه بحرُ الصينِ ، وغربيُّه بحرُ اليمنِ ، وشماليُّه بحرُ الهندِ ، وجنوبيُّه غيرُ معلومٍ .

وذكروا أنَّ بينَ بحرِ الهندِ وبحرِ الصينِ جبالًا فاصلةً بينَهما ، وفيها فِجاجٌ تسلُكُ المراكِبُ بينَها ، يُسيِّرُها لهم الذى خلقَها ، كما جعل مثْلَها فى البرِّ أيضًا ،

---

(١) فى ا ، ص : « تسامت » .
(٢) انظر ص ٥٨ .
(٣) بعده فى ا : « وهى جبال عظام لا يوصل إليها » .
(٤) فى م : « الزانج » .
(٥) فى الأصل ، ا : « ينشق » .
(٦) فى ح : « المدن » .

قال ٱللَّهُ تعالى[1] : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣١] . وقد ذكر بَطْلَمْيُوسُ أحدُ ملوكِ الهندِ فى كتابِه المسمَّى « بالمِجِسْطِى »[2] ، الذى عُرِّبَ فى زمانِ المأمونِ ، وهو أصلُ هذه العلومِ ، أنّ البحارَ المتفجِّرةَ من المحيطِ ، الغربىِّ ، والشرقىِّ ، والجنوبىِّ ، والشَّمالىِّ كثيرةٌ جدًّا ؛ فمنها ما هو واحدٌ ، ولكن يُسمَّى بحَسَبِ البلادِ المتاخِمَةِ له ؛ فمِن ذلك بحرُ القُلْزُمِ ، والقُلْزُمُ قريةٌ على ساحلِه قريبٌ مِن أَيْلَةَ ، وبحرُ فارسَ ، وبحرُ الخزَرِ ، وبحرُ ورنكَ ، وبحرُ الرومِ ، وبحرُ [3]بنطش[4] ، [١٣/١ ظ] وبحرُ الأزرقِ[3] مدينةٌ على ساحلِه ؛ وهو بحرُ القَرْمِ[5] أيضًا ، ويتضايقُ حتى يَصُبَّ فى[6] بحرِ الرومِ عند جنوبىِّ القُسْطنطينيةِ ، وهو خليجُ القُسْطنطينيةِ ؛ ولهذا تُسرِعُ المراكبُ فى سيرِها من القَرْمِ إلى بحرِ الرومِ ، وتُبْطِئُ إذا جاءت مِن الإسكندريةِ إلى القَرمِ ؛ لاستقبالِها جَرَيانَ الماءِ ، وهذا مِن العجائبِ فى الدنيا ، فإنَّ كلَّ ماءٍ جارٍ فهو حُلْوٌ إلا هذا ، وكلَّ بحرٍ راكِدٍ فهو مِلْحٌ أُجاجٌ إلا ما يُذْكَرُ عن بحرِ الخَزَرِ ، وهو بحرُ جُرْجانَ ، وبحرِ طَبَرِسْتانَ ، أنّ فيه قطعةً كبيرةً ماءً حُلوًا فُراتًا ، على ما أخْبرَ به المسافرون عنه . قال أهلُ الهيئةِ : وهو بحرٌ مستديرُ الشكلِ ، إلى الطولِ ما هو . وقيل : إنّه مُثَلَّثٌ كالقِلْعِ وليس هو متصلًا بشيءٍ مِنَ البحرِ المحيطِ ، بل منفردٌ وحدَه ، وطولُه ثَمانُمائةِ ميلٍ ، وعرضُه سِتُّمِائةٍ . وقيل : أكثرُ مِن ذلك . وٱللَّهُ أعلمُ .

---

(١) التفسير ٣٣٢/٥ .

(٢) فى ا : « بالمحيطى » .

(٣ - ٣) فى ا : « ينطنين وهو الأزرق وينتس » .

(٤) فى الأصل ، ح : « نيطس » .

(٥) فى ا : « القلزم » .

(٦) سقط من : ح .

ومن ذلك ، البحرُ الذى يخرجُ منه المَدُّ والجَزْرُ عند البَصْرةِ ، وفى بلادِ المغربِ نَظيرُه أيضًا يتزايدُ الماءُ من أولِ الشهرِ ، ولا يزالُ فى زيادةٍ إلى تمامِ الليلةِ الرابعةَ عشرَ منه ؛ [1]وهو المَدُّ[1] ، ثم يَشْرَعُ فى النَّقْصِ ؛ وهو الجَزْرُ ، إلى آخرِ الشهرِ .

وقد ذكروا تحديدَ هذه البحارِ ومُبتداها ومُنتهاها . وذكروا ما فى الأرضِ مِن البُحَيْراتِ المجتمعةِ مِنَ الأنهارِ وغيرِها مِن السيولِ ؛ وهى البَطائحُ . وذكروا ما فى الأرضِ مِن الأنهارِ المشهورَةِ الكِبارِ ، وذكروا ابتداءَها ، وانتهاءَها .

ولسنا بصددِ بَسْطِ ذلِك والتطويلِ فيه ، وإنَّما نتكلمُ على ما يتعلَّقُ بالأنهارِ الوارِدِ ذكرُها فى الحديثِ . وقد قال اللهُ تعالى[2] : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٤] . ففى « الصحيحين »[3] من طريقِ قَتادةَ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، عن مالكِ ابنِ صَعْصَعَةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ سِدْرَةَ المُنْتَهَى قَال : « فإذا يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِها نَهْرانِ باطِنَانِ ونَهْران ظاهِران ؛ فأَمَّا الباطِنَانِ ففى الجَنَّةِ ، وأمّا الظَاهِرانِ فالنيلُ والفُرَاتُ » . وفى لفظٍ للبخارىِّ[4] : « عُنْصُرُهما » . أى مادَّتُهما ، أو شكلُهما ، وعلى صِفَتِهما ونَعْتِهما ، وليس فى الدنيا مما فى الجَنَّةِ إلا الأسماءُ[5] . وفى صحيحِ مسلمٍ[6] من حديثِ عُبيدِ اللهِ بنِ عمرَ ، عن

(١ - ١) سقط من : ح .

(٢) التفسير ٤/٤٢٩ .

(٣) البخارى (٣٢٠٧ ، ٣٨٨٧) ، مسلم (١٦٤) .

(٤) البخارى (٧٥١٧) .

(٥) فى م ، ص : « سماوية » .

(٦) مسلم (٢٨٣٩) .

خُبَيْبِ بنِ عبدِ الرحمنِ ، عن حَفْصِ بنِ عاصِمٍ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، أَنّ رسولَ آللهِ ﷺ قال : [١٤/١ و] « سَيْحانُ وجَيْحانُ والفُراتُ والنِّيلُ ، كُلٌّ مِنْ أَنْهارِ الجَنَّةِ » .

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا ابنُ نُمَيْرٍ ويزيدُ ، أنبأنا محمدُ بنُ عمرٍو ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال رسولُ آللهِ ﷺ : « فُجِّرَتْ أَرْبَعَةُ أَنْهارٍ مِنَ الجَنَّةِ ؛ الفُرَاتُ ، والنِّيلُ ، وسَيْحانُ ، وجَيْحانُ » . وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ . وكأَنَّ المرادَ ، وآللهُ أعلمُ مِن هذا ، أَنّ هذه الأنهارَ تُشْبِهُ أَنْهارَ الجنةِ فى صفائِها ، وعُذُوبتِها ، وجَرَيانِها ، ومِن جنسِ تلك فى هذه الصفاتِ ونحوِها ، كما قال فى الحديثِ الآخرِ الذى رواه الترمذىُّ[2] وصَحَّحه ، من طريقِ سعيدِ بنِ عامرٍ ، عن محمدِ بنِ عمرٍو ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رسولَ آللهِ ﷺ قال : « العَجْوَةُ مِنَ الجنَّةِ ، وفيها شِفَاءٌ مِنَ السُّمِّ » . أى تشبهُ ثَمَرَ الجنةِ ، لا أَنَّها مُجْتَنَاةٌ مِن الجنةِ ، فإِنَّ الحسَّ يشهدُ بخلافِ ذلك ، فتعيَّن أَنّ المرادَ غيرُه . وكذا قولُه ﷺ : « الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، فَأَبْرِدُوها بِالماءِ »[3] . وكذا قولُه : « شِدَّةُ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ »[4] . وهكذا هذه الأنهارُ ، أصلُ مَنْبَعِها مُشاهَدٌ مِنَ الأرضِ[5] .

---

(١) المسند ٢٦٠/٢ ، ٢٦١ . (صحيح) .

(٢) الترمذى (٢٠٦٦) . وقال : حسن غريب . (صحيح الجامع ٤٠٠٥) .

(٣) البخارى (٣٢٦٣ ، ٣٢٦٤ ، ٥٧٢٥) ، مسلم (٢٢٠٩ - ٢٢١٢) .

(٤) البخارى (٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٦٢٩ ، ٣٢٥٨ ، ٣٢٥٩) ، مسلم (٦١٥ - ٦١٧) .

(٥) قال الشيخ الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١١٢) : « ولعل المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها ، كما أن أصل الإنسان من الجنة فلا ينافى الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة فى الأرض ، فإن لم يكن هذا هو المعنى أو ما يشبهه ، فالحديث من أمور =

أمَّا النيلُ[1] ، وهو النهرُ الذى ليسَ فى أنهارِ الدنيا له نظيرٌ فى خِفَّتِه ، ولطافَتِه ، وبُعْدِ مَسْراه فيما بينَ مُبتداه إلى مُنْتهاه ؛ فَمُبْتداه مِن الجبالِ القُمْرِ ؛ أى البيضِ . ومنهم مَنْ يقولُ : جبالُ القَمَرِ . بالإضافَةِ إلى الكوكبِ . وهى فى غربىِّ الأرضِ ، وراءَ خطِّ الاستواءِ إلى الجانبِ الجنوبىِّ . ويُقالُ : إنَّها حُمْرٌ تَنْبُعُ من بينِها عيونٌ ، ثم تَجْتَمِعُ مِن عشرِ مَسِيلاتٍ متباعدةٍ ، ثم تجتمعُ كلُّ خمسةٍ منها فى بحرٍ ، ثم تَخرجُ منها أنهارٌ ستةٌ ، ثم تجتمعُ كلُّها فى بُحَيْرةٍ أخرى ، ثم يخرجُ منها نهرٌ واحدٌ ، هو النيلُ ، فيمرُّ على بلادِ السودانِ بالحبشةِ[2] ، ثم على النوبةِ ومدينتِها العظمَى دُمْقُلَةَ ، ثم على أسوانَ ، ثم يَفِدُ على ديارِ مصرَ ، وقد تَحمَّل إليها من بلادِ الحبشةِ زياداتِ أمطارِها ، واجْتَرف من تُرابِها ، [3]وهى[3] مُحتاجةٌ إليهما معًا ؛ لأنَّ مطرَها قليلٌ لا يكفِى زُروعَها وأشْجارَها ، وتُربتَها رمالٌ لا تُنبِتُ شيئًا حتى يجىءَ النِّيلُ بزِيادتِه وطِينِه فَيَنْبُتُ فيه ما يحتاجون إليه ، وهى من أحقِّ الأراضى بدُخولِها فى قولِه تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : ٢٧] . ثم يَتجاوَزُ النيلُ مصرَ قليلًا ، فيفترِقُ شَطْرَيْن عندَ قريةٍ على شاطِئِه يُقال لها : شَطَّنَوْفُ . فيَمُرُّ الغربىُّ منه على رَشيدَ ، ويَصُبُّ فى البحرِ المالحِ ، [4]وأمَّا الشرقىُّ فَيَفترِقُ أيضًا عندَ جوجرَ فِرْقَتين ؛ تمُرُّ الغربيَّةُ [١٤/١ ظ] منهما على دِمْياطَ من غربيِّها ، ويصبُّ فى البحرِ ، والشَّرقيَّةُ[4] منهما

= الغيب التى يجب الإيمان بها ، والتسليم للمخبر عنها ، ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . ويؤيد ذلك رواية البخارى : « عنصرهما » . والعنصر هو الأصل ، كما قال الحافظ فى الفتح ٤٨٢/١٣ ، ورواية : « فجرت أربعة أنهار من الجنة » .

(١) انظر : مسالك الأبصار ٤٥/١ - ٤٩ .

(٢) فى م : « الحبشة » .

(٣ - ٣) فى ا : « وأرض مصر » .

(٤ - ٤) سقط من : ص .

تمرُّ على أُشمونِ طنَّاحٍ ، فيصبُّ هناك فى بُحيرةٍ شرقىَّ دِمْياطَ ، يُقالُ لها : بُحيرةُ تِنِّيسَ[1] ، وبُحيرةُ دِمْياطَ . وهذا بُعْدٌ عظيمٌ فيما بينَ مُبْتَدئِه إلى مُنْتهاهُ ؛ ولهذا كان ألطفَ المياهِ . قال ابنُ سينا : له خُصوصِيَّاتٌ دُونَ مياهِ سائرِ الأرضِ ؛ فمنها أنَّه أبعدُها مسافةً من مَجْراهُ إلى أَقْصاهُ ، ومنها أنَّه يجرِى على صُخورٍ ورِمالٍ ليس فيه خَزٌّ ولا طُحْلُبٌ ولا أوحالٌ ، ومنها أنه لا يخضَرُّ فيه حجرٌ ولا حصاةٌ ، وما ذاك إلا لصِحَّةِ مِزاجِه وحلاوتِه ولطافَتِه ، ومنها أنَّ زيادتَه تكونُ فى أيامِ نُقْصانِ سائرِ الأنهارِ ، ونُقْصانُه فى أيَّامِ زِيادَتِها وكَثْرتِها . وأمَّا ما يذكرُه بعضُ النَّاسِ مِن أنَّ أصلَ مَنْبعِ النِّيلِ مِن مكانٍ مُرْتفعٍ اطَّلع عليه بعضُ الناسِ ، فرأى هناك هَوْلًا عظيمًا ، وجَوارِىَ حِسانًا ، وأشياءَ غَريبةً ، وأنَّ الذى اطَّلع على ذلك لا يُمْكِنُه الكلامُ بعدَ هذا ، فهو مِن خُرافاتِ المؤرِّخينَ ، وهذياناتِ الأفَّاكينَ .

وقد قال عبدُ اللهِ بنُ لَهِيعةَ ، عن قيسِ بنِ الحجَّاجِ ، عَمَّن حدَّثه قال : لَمّا فُتِحَتْ مِصرُ ، أتى أهلُها عمرَو بنَ العاصِ حينَ دَخَل شهرُ بَؤُونةَ من أَشْهُرِ العَجَمِ القبطيةِ[2] ، فقالوا : أيُّها الأميرُ ، إنَّ لنيلِنا هذا سُنَّةً لا يجرِى إلَّا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان لِثِنْتَىْ عشْرَةَ ليلةً خَلَت مِن هذا الشَّهرِ ، عَمَدْنا إلى جاريةٍ بِكْرٍ بين أبوَيْها ، فَأَرْضَينا أبوَيْها ، وجعلنا عليها مِن الحَلْىِ والثِّيابِ أفضلَ ما يكونُ ، ثم ألقيناها فى هذا النِّيلِ . فقال لهم عمرٌو : إنَّ هذا لا يكونُ فى الإسلامِ ، وإنَّ الإسلامَ يهدِمُ ما كان قبلَه . فأقاموا بؤونَةَ ، والنِّيلُ لا يَجْرى قليلًا ولا كثيرًا . وفى رِوايةٍ : فأقاموا بَؤُونَةَ وأبيبَ ومِسْرَى ثلاثةَ أشْهُرٍ والنِّيلُ لا يجرِى . حتى هَمُّوا بالجَلاءِ ، فكتب عمرٌو إلى عُمَرَ بنِ الخطَّابِ بذلك ، فكتب إليه عمرُ : إنَّك قد أصبْتَ بالذى فعلتَ ، وإنِّى قد بعثتُ إليك

---

(١) فى ح : « نبيس » .

(٢) زيادة من : م .

بطاقةً داخلَ كتابى هذا ، فألْقِها فى النِّيلِ . فلما قَدِمَ كتابُهُ أَخَذَ عمرٌو البطاقةَ فَفَتَحها ؛ فإذا فيها : مِنْ عبدِ اللهِ عُمَرَ أميرِ المؤمنين إلى نِيلِ أهلِ مِصْرَ ، أما بعدُ ، فإن كنتَ إنَّما تجرى من (1)قِبَلِ نَفْسِك(1) فلا تَجْرِ ، وإنْ كان اللهُ (2)الواحدُ القَهَّارُ(2) هو الذى يُجرِيكَ ، فنسألُ اللهَ أن يُجْرِيَك . فألقى عمرٌو البطاقةَ فى النيلِ ، فأصبحَ يومُ السبتِ ، وقد أجرى اللهُ سُبْحانَه لهم النِّيلَ ستةَ عشَرَ ذِراعًا فى ليلةٍ واحدةٍ ، وقَطَع اللهُ تلك السُّنَّةَ عن أهلِ مصرَ إلى اليومِ (3) .

وأمّا الفُراتُ(4) ، فأصلُها مِن شمالىِّ أَرْزَنِ الرومِ ، فتمرُّ إلى قُرْبِ مَلَطْيَةَ ، ثم تمرُّ على سُمَيْسَاطَ(5) ، ثم على إلْبِيرَةَ قِبْلِيَّها ، ثم تُشرِّقُ إلى بالِسَ وقَلْعةِ جَعْبَرَ ، [15/1 و] ثم إلى الرَّقَّةِ ، ثم إلى الرَّحبةِ شماليَّها ، ثم إلى عَانَةَ ، ثم إلى هِيتَ ، ثم إلى الكُوفَةِ ، ثم تخْرُجُ إلى فضاءِ العِراقِ وتَصبُّ فى بطائِحَ(6) كبارٍ ؛ أى بُحيراتٍ ، وتردُ إليها ، وتَخرُج منها أنهارٌ كِبارٌ معروفةٌ ، (7)تَصبُّ فى بَحْرِ البَصْرَةِ(7) .

وأما سَيْحانُ(8) ، ويُقالُ له سَيْحُونُ أيضًا ، فأوَّلُه من بلادِ الرُّومِ ، ويجْرِى مِن الشَّمالِ والغربِ إلى الجَنُوبِ والشَّرْقِ ، وهو غربىُّ مَجْرى

(1 - 1) فى م : « قبلك » .

(2 - 2) فى ا : « القادر على كل شىء » .

(3) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة (941) ، وابن عبد الحكم فى فتوح مصر وأخبارها 150 ، 151 . وابن عساكر فى تاريخ دمشق (125/13 مخطوط) . وإسناده ضعيف .

(4) انظر : مسالك الأبصار 52/1 ، 53 .

(5) فى م : « شميشاط » . وفى ص : « شميساط » .

(6) فى ح : « مصالح » .

(7 - 7) زيادة من : ا .

(8) انظر : نزهة المشتاق 647/2 .

جَيْحانَ ، ودُونَه فى القَدْرِ ، وهو ببلادِ الأَرْمَن[1] التى تُعْرَفُ اليومَ ببلادِ سِيسَ ، وقد كانت فى أوَّلِ الدولةِ الإسلامِيَّةِ فى أيدى المُسلمين ، فلمَّا تغلَّبَ الفاطِميُّونَ على الدِّيارِ المصريَّةِ ومَلكوا الشامَ وأعمالَها ، عَجَزوا عن صَوْنِها من الأعداءِ ، فتغلَّب نِقفورُ الأرمنيُّ على هذه البلادِ ، أعنى بلادَ سِيسَ ، فى حُدودِ الثلاثِمِائةِ وإلى يومِنا هذا فملَكُوها . واللهُ المسؤولُ عَوْدَها إلينا بحَوْلِه وقُوَّته . ثم يجتمِعُ سَيْحانُ وجَيْحانُ عند أَذَنَةَ ، فيصيرانِ نهرًا واحدًا . ثم يَصُبَّانِ فى بحرِ الرُّومِ بينَ إياسَ وطَرَسُوسَ .

وأما جَيْحانُ[2] ، ويُقالُ له جَيْحُونُ أيضًا ، وتُسَمِّيه العامةُ جَاهانَ ، وأصلُه فى بلادِ الرُّومِ ، ويسيرُ فى بلادِ سِيسَ من الشَّمالِ إلى الجَنوبِ ، وهو نَهْرٌ يقارِبُ الفُراتَ فى القَدْرِ . ثم يجتمعُ هو وسَيْحانُ عند أَذَنَةَ ، فَيصيرانِ نهرًا واحِدًا ، ثم يصُبَّانِ فى البحرِ عند إياسَ وطَرَسُوسَ ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) فى م ، ص : « الأرض » .

(٢) نزهة المشتاق ٦٤٦/٢ .

فصـــلٌ

قال الله تعالى[1] : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٢ - ٤] . وقال تعالى[2] : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦٠ ، ٦١] . وقال تعالى[3] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ [١٥/١ ظ] فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ - ١٣] .

---

(١) التفسير ٣٥٠/٤ - ٣٥٤ .

(٢) التفسير ٢١٠/٦ .

(٣) التفسير ٤٧٩/٤ .

فذَكَر تعالى ما خلَق فى الأرضِ مِن الجِبالِ ، والأشْجارِ ، والثِّمارِ ، والسُّهولِ والأوعارِ ، وما خلَق مِن صُنوفِ المَخْلوقاتِ ، مِن الجَماداتِ والحَيَواناتِ ، فى البَرارِى والقِفارِ والْبِحارِ ، ما يدُلُّ على عظمتِه وقدرتِه وحكمَتِه ورحمَتِه بخلقِه الأبْرارِ والفُجَّارِ ، وما سَهَّل لكلِّ دابَّةٍ مِن الرِّزقِ الذى هى مُحْتاجةٌ إليه فى ليلِها ونَهارِها ، وصَيْفِها وشِتائِها ، وصَباحِها ومَسائِها ؛ كما قال تعالى[1] : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقد روى الحافِظُ أبو يَعلَى[2] ، عن محمدِ بنِ المُثَنَّى ، عن عُبيدِ بنِ واقدٍ ، عن محمَّدِ بنِ عِيسى بنِ كَيْسانَ ، عن محمدِ بنِ المُنْكَدِرِ ، عن جابرٍ ، عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ ، قال : سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « خلَقَ اللهُ ألفَ أُمَّةٍ ؛ منها سِتُّمائةٍ فى البَحْرِ ، وأَرْبَعُمائةٍ فى البَرِّ ، وأَوَّلُ شَىءٍ يَهْلِكُ مِنْ هذهِ الأُمَمِ الجَرادُ ، فإذا هَلَكَتْ تَتابَعَتْ مِثْلَ النِّظَامِ إذَا قُطِعَ سِلْكُه » . عُبَيْدُ ابنُ واقِدٍ أبو عبَّادٍ البَصْرِىُّ ضعَّفه أبو حاتِمٍ ، وقال ابنُ عَدِىٍّ[3] : عامَّةُ ما يرويه لا يُتابَعُ عليه ، وشيخُه أضعَفُ منه . قال الفَلَّاسُ والبُخارِىُّ : مُنْكَرُ الحَديثِ . وقال أبو زُرْعَةَ : لا يَنْبغى أن يُحَدَّثَ عنه . وضعَّفه ابنُ حِبَّانَ ، والدَّارَقُطْنِىُّ ، وأنكَر عليه ابنُ عَدِىٍّ هذا الحديثَ بعينِه وغيرَه[4] ، واللهُ أعلمُ .

وقال تعالى[5] : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

---

(١) التفسير ٤/٢٣٩ .
(٢) عزاه له الهيثمى وقال : فيه عبيد بن واقد القيسى وهو ضعيف . مجمع الزوائد ٧/٣٢٢ .
(٣) الكامل ٥/١٩٩٠ .
(٤) انظر الموضوعات لابن الجوزى ٣/١٤ .
(٥) التفسير ٣/٢٤٨ .

باب ذِكرِ ما يتعلَّقُ بخَلْقِ السَّماواتِ وما فِيهِنَّ مِنَ الآياتِ

قد قدَّمنا أنّ اللهَ خلقَ الأرضَ قبلَ خلقِ السَّماءِ[1] ؛ كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩ - ١٢] وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٣٠] . [2]وقد أجبْنا عَن قولِه : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ بأنَّ[2] الدَّحْىَ غَيْرُ الخَلْقِ ، وهو بعدَ خلْقِ السَّماءِ[3] . وقال تعالى[4] : ﴿ تَبَٰرَكَ [١٦/١ و] ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ * ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ

---

(١) انظر ما تقدم فى صفحة ٢٨ ، ٢٩ .

(٢ - ٢) زيادة من : ح .

(٣) انظر ما تقدم فى صفحة ٣٠ .

(٤) التفسير ٢٠٣/٨ .

ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١ - ٥] . وقال تعالى[1] : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٢ - ١٣] . وقال تعالى[2] : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] . وقال تعالى[3] : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] . وقال تعالى[4] : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦١ ، ٦٢] . وقال تعالى[5] : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ - ١٠] . وقال تعالى[6] : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ - ١٨] . وقال تعالى[7] :

---

(١) التفسير ٣٢٧/٨ .

(٢) التفسير ٢٦٠/٨ .

(٣) التفسير ١٨٢/٨ .

(٤) التفسير ١٢٩/٦ .

(٥) التفسير ٤/٧ .

(٦) التفسير ٤٤٦/٤ .

(٧) التفسير ٤٠٠/٧ .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] . وقال تعالى[1] : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢ ، ٣٣] . وقال تعالى[2] : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ - ٤٠] . وقال تعالى[3] : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٦ ، ٩٧] . وقال تعالى[4] : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . والآياتُ فى هذا كثيرةٌ جدًا ، وقد تكلّمنا على كلٍّ منها فى « التفسيرِ » .

[١/١٦ ظ] والمقصودُ أنَّه تعالى يُخبِرُ عن خلْقِ[5] السَّمواتِ وعَظَمَةِ اتِّساعِها ، وارتفاعِها ، وأنَّها فى غايةِ الحُسْنِ والبَهاءِ ، والكَمالِ[6] والسَّناءِ ؛ كما قال تعالى[7] : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ [الذاريات : ٧] . أى الخَلْقِ

---

(١) التفسير ٣٣٤/٥ .

(٢) التفسير ٥٦١/٦ .

(٣) التفسير ٢٩٧/٣ .

(٤) التفسير ٤٢٢/٣ .

(٥) فى ح : « عظمة » .

(٦) بعده فى ح : « والجمال » .

(٧) التفسير ٣٩١/٧ .

الحَسَنِ ، وقال تعالى[1] : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ ، ٤] ؛ أىْ خاسئًا عن أَنْ يرى فيها نقصًا أو خللًا . وهو حسيرٌ ؛ أىْ كَليلٌ ضَعيفٌ[2] ، ولو نظر حتى يَعْىَ ويكِلَّ ويَضْعُفَ لَمَا اطلّع على نقصٍ فيها ولا عَيْبٍ ؛ لأنَّه تعالى قد أحكَمَ خلْقَها ، وزيّنَ بالكواكبِ أُفقَها ، كما قال[3] : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ [البروج : ١] . أى النجومُ . وقِيل : مَحالُّ الحَرسِ التى يُرْمَى منها بالشُّهُبِ لمُسْترِقِ السَّمعِ . ولا مُنافاةَ بين القولَيْن . وقال تعالى[4] : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : ١٦ ، ١٧] . فذكَر أنَّه زيّن منظرَها بالكَواكبِ الثَّوابتِ ، والسَّيَّاراتِ ؛ الشَّمْسِ والقَمَرِ والنُّجومِ الزَّاهِراتِ ، وأنَّه صان حَوْزَتَها عن حُلولِ الشَّياطينِ بها ، وهذا زِينةُ مَعْنًى[5] فقال : ﴿ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ : كما قال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الصافات : ٦ - ٨] .

قال البُخاريُّ فى كتابِ بَدْءِ الخَلْقِ[6] : وقال قَتادةُ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾ [الملك : ٥] . خلَقَ هذه النجومَ لثلاثٍ ؛ جعلَها زينةً للسَّماءِ ، ورُجومًا للشَّياطِينِ ، وعلاماتٍ يُهتدَى بها ، فمن تأوَّل فيها[7] بغيرِ

---

(١) التفسير ٢٠٣/٨ .
(٢) سقط من : ح .
(٣) التفسير ٣٨٤/٨ .
(٤) التفسير ٤٤٦/٤ .
(٥) فى ح : « معناها » . وفى ص : « ومعناها » .
(٦) فتح البارى ٢٩٥/٦ ، وانظر التفسير لابن كثير ٢٠٤/٨ .
(٧) سقط من : م ، ص .

ذلك أخطأَ وأضاعَ نصيبَه ، وتكلَّف ما لا عِلْمَ له به . وهذا الذى قاله قتادةُ ، مُصرَّحٌ به فى قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] . وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٩٧] . فَمَن تكلّف غيرَ هذه الثَّلاثِ ، أى مِنْ عِلْمِ أحكامِ ما تدلُّ عليه حركاتُها ، ومقارناتُها فى سَيْرِها ، وأنَّ ذلك يدلُّ على حوادِثَ أرضيَّةٍ ، فقد أخطأ . وذلك أنَّ أكثرَ كلامِهم فى هذا البابِ ليس فيه إلا حَدْسٌ وظُنونٌ كاذِبَةٌ ودعاوَى باطِلةٌ . وذكَر تعالى أنَّه خلَق سَبْعَ سَمَٰواتٍ طِباقًا ؛ أى واحدةً فوقَ واحدةٍ . واختلف أصحابُ الهَيْئةِ ، هل هُنَّ مُتراكِماتٌ ؟ أو متُفاصلاتٌ بينَهنَّ خَلاءٌ ؟ على قولين . والصَّحِيحُ الثَّانِى ؛ لِمَا قدَّمنا من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمَيْرَةَ ، عن الأحْنَفِ ، عن العبَّاسِ ، فى حديثِ الأوْعالِ[1] ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « أتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ؟ » قُلْنا : اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ . قال : « بَيْنَهُما مَسِيرَةُ خَمْسِمائةِ سنةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ خَمْسُمائةِ سنةٍ ، وكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمائةِ سَنَةٍ » . الحديثُ بتمامِه رواه أحمدُ ، وأبو داودَ ، وابنُ ماجه [١٧/١و] ، والترمذىُّ وحسَّنه . وفى « الصحيحين »[2] من حديثِ أنسٍ فى حديثِ الإسراءِ ، قال فيه : « وَوَجَدَ فى السَّمَاءِ الدُّنْيا آدَمَ ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : هذا أَبُوكَ آدمُ . فَسَلَّمَ عليه ، فَرَد عليه السَّلَامَ ، وَقَالَ : « مَرْحَبًا وأهلًا بابْنِى ، نِعمَ الابْنُ أَنْتَ » . إلى أَنْ قَال : « ثم عَرَجَ بى[3] إلى السمَاءِ الثانيةِ » . وكذا ذَكَر فى الثالِثةِ ، والرَّابعةِ ، والخامسةِ ، والسَّادِسَةِ ، والسابعةِ . فدلَّ على التَفاصُلِ بينَها ؛ لقولِه : « ثُمّ عُرِجَ بِنَا حتى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ ، فاسْتَفتَح ،

---

(١) تقدم فى صفحة ١٦ .

(٢) البخارى (٣٥٧٠ ، ٧٥١٧) ، مسلم (١٦٢ - ١٦٤) .

(٣) سقط من : ح .

فَقِيلَ : مَنْ هذَا ؟ » إلى آخرِ الحديثِ . وهذا يدلُّ على ما قُلْناه ، واللهُ أعلمُ .

وقد حكى ابنُ حزمٍ[1] ، وابنُ المُنادِى[2] ، وأبو الفَرَجِ ابنُ الجَوْزِىّ[3] ، وغيرُ واحدٍ من العلماءِ الإجماعَ على أنّ السمٰواتِ كُرِّيَّةٌ[4] مستديرةٌ ، واستُدِلّ على ذلك بقولِه[5] : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يسٓ : ٤٠] . قال الحسنُ[6] : يدورون . وقال ابنُ عباسٍ : فى فَلْكةٍ مثلِ فَلْكَةِ المِغْزَلِ[7] . قالوا : ويدلُّ على ذلكَ ، أنّ الشمسَ تغربُ كلَّ ليلةٍ من المغربِ ، ثم تطلُعُ فى آخرِها مِن المشرقِ ، كما قال أُمَيّةُ ابنُ أبى الصَّلْتِ[8] :

والشمسُ تطْلُعُ[9] كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصْبِحُ[10] لوْنُها يَتَوَرَّدُ[11]

[12]ليستْ بطالِعةٍ لهم[12] فى رِسْلِها ... إلا مُعذَّبةً وإلا تُجْلَدُ

فأمّا الحديثُ الذى رواه البخارىُّ[13] ، حيث قال : حدثنا محمدُ بنُ

---

(١) الفصل ٢/٩٧ - ١٠٠ .

(٢) فى م ، ص : « المنير » .

(٣) المنتظم ١/١٨٣ .

(٤) فى م ، ص : « كرة » .

(٥) التفسير ٦/٥٦٥ .

(٦) سقط من : ح .

(٧) فلكة المغزل : القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تجعل فى أعلاه وتثبت الصنارة من فوقها وعود المغزل من تحتها .

(٨) ديوان أمية ص ٢٩ .

(٩) فى الأصل : « فما تبدو » . وفى ص : « تبدو » .

(١٠) فى م : « مطلع » .

(١١) فى الأصل ، ح : « يتوقد » ، فى م : « متورد » .

(١٢ - ١٢) فى الأصل : « تأتى فما تبدو لنا » . وفى ح ، ا : « تأبى فما تبدو لنا » . وفى م ، ص : « تأبى فلا تبدو لنا » .

(١٣) البخارى (٣١٩٩) .

يوسفَ ، حدثنا سُفْيانُ ، عن الأعمشِ ، عن إبراهيمَ التَّيميِّ ، عن أبيه ، عن أبي ذرٍّ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي ذَرٍّ حينَ غرَبت الشمسُ : « تَدرِى أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ » . قلتُ : اللهُ ورَسُولُه أَعْلَمُ . قال : « فإنَّها تَذْهَبُ حتى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ ، فَتستأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لها ، ويُوشِكُ أن تَسْجُدَ فلا يُقْبَلَ مِنها ، وتَسْتأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لَهَا ، يُقَالُ لَهَا : ارجعى مِنْ حَيْثُ جِئْتِ . فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِها . فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى[1] : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] . هذا لفظُه فِى بَدءِ الخلقِ . ورواه فى التفسيرِ ، وفى التوحيدِ ، من حديثِ الأَعْمَشِ أيضًا[2] . ورواه مسلمٌ فى الإيمانِ مِن طريقِ الأَعْمشِ ، ومِن طريقِ يُونُسَ[3] بنِ عُبَيْدٍ . وأبو داودَ مِن طريقِ الحَكَمِ بنِ عُتَيْبَةَ[4] ، كلُّهم عن إبراهيمَ بنِ يزيدَ بنِ شَرِيكٍ ، عن أبيه ، عن أبى ذرٍّ ، به نحوَه[5] . وقال الترمذىُّ : حسنٌ صحيحٌ .

إذا عُلِمَ هذا ، فإنه حديثٌ لا يعارِضُ ما ذكَرْناه مِنَ استِدارةِ الأفلاكِ ، التى هى السمواتُ على أشهرِ القَوْلين ، ولا يدلُّ على كُرِّيَّةِ العرشِ كما زعمه زاعمون قد أبطلْنا قولَهم فيما سلفَ[6] . ولا يدلُّ على أنها تَصْعَدُ إلى فوقِ السمواتِ من جِهتِنا حتى تسجدَ تحتَ العرشِ ، بل هى تغْرُبُ عن أعيننا ، وهى مستمرةٌ فى فَلَكِها الذى هى فيه ، وهو الرابعُ ، فيما قاله غيرُ واحدٍ مِن علماءِ التسييرِ[7] . وليس فى الشرعِ ما ينفيه ، بل فى الحِسِّ - وهو

---

(١) التفسير ٥٦٢/٦ .
(٢) البخارى (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .
(٣) فى ح : « ابن يونس » .
(٤) فى م : « عتبة » .
(٥) مسلم (١٥٩) ، أبو داود (٤٠٠٢) ، الترمذى (٢١٨٦ ، ٣٢٢٧) .
(٦) انظر صفحة ١٩ .
(٧) فى الأصل ، م : « التفسير » .

[١٧/١ ظ] الكسوفاتُ[1] - ما يدلُّ عليه ويقتضيه ، فإذا ذهبتْ فيه حتى تتوسَّطَه ، وهو وقتُ نصفِ الليلِ مثلًا فى اعتدالِ الزمانِ ، بحيثُ تكونُ بين القُطْبين الجنوبىِّ والشَّمالىِّ ، فإنَّها تكونُ أبْعَدَ ما يكونُ من العرشِ ؛ [2]لأنّه مُقبَّبٌ[2] من جهةِ وجهِ العالمِ ، وهذا مَحَلُّ سُجودِها كما يناسبُها ، كما أنّها أقربُ ما تكونُ مِنَ العرشِ وقتَ الزوالِ مِن جهتِنا ، فإذا كانت فى مَحَلِّ سُجُودِها استأذنتِ الربَّ جَلَّ جلالُه فى طلوعِها مِن المَشْرقِ ، فيُؤْذنُ لها ، فتبدُو من جهةِ الشرقِ ، وهى مع ذلك كارهةٌ لعُصاةِ بنى آدمَ أَنْ تطلُعَ عليهم : ولهذا قال أُمَيّةُ :

[3]ليستْ بطالِعةٍ لهم[3] فى رِسْلِها إلَّا مُعذَّبةً وإلَّا تُجْلَدُ

فإذا كان الوقتُ الذى يريدُ اللهُ طُلوعَها فيه[4] من جهةِ مغرِبها ، تسجدُ على عادتِها ، وتَستأذِنُ فى الطلوعِ من عادتِها[5] ، فلا يؤذنُ لها ، فجاء أنها تَسجدُ أيضًا ثُم تَستأذِنُ فلا يُؤْذنُ لها ، ثم تسجدُ فلا يُؤْذنُ لها ، وتطولُ تلك الليلةُ كما ذَكَرْنا فى « التفسيرِ »[6] ، فتقولُ : يا ربِّ إنّ الفجرَ قد اقتربَ ، وإنّ المَدَى بعيدٌ . فيقالُ لها : ارجعى مِن حَيْثُ جِئْتِ . فتطلُعُ من مغربِها ، فإذا رآها الناسُ آمنوا[7] جميعًا ، وذلك حينَ لا ينفَعُ نفْسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ مِن

---

(١) فى ص : « الكشوفات » .

(٢ - ٢) فى ا : « لأنها تغيب » .

(٣ - ٣) فى الأصل ، ح : « تأبى فما تبدو لنا » . وفى ص ، م : « تأبى فلا تبدو لنا » .

(٤) سقط من : ح ، م ، ص .

(٥) فى ا : « المشرق » .

(٦) التفسير ٥٦٢/٦ ، وتفسير عبد الرزاق ١٤٢/٢ .

(٧) فى ح : « آنسوا » .

قبلُ أو كسبتْ فى إيمانِها خيرًا . وفَسَّرُوا بذلك قولَه تعالى[1] : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : ٣٨] . قيل : لوقتِها الذى تُؤمرُ فيه أن[2] تطلُعَ مِن مَغْربِها . وقيل : مُسْتَقَرُّها مَوْضِعُها الذى تسجدُ فيه تحتَ العرشِ . وقيل : منتهى سَيْرِها ، وهو آخرُ الدنيا[3] . وعن ابنِ عباسٍ أنّه قرأ : « والشَمْسُ تَجْرى لا مُسْتَقَرَّ لها »[4] . أى : ليست تَسْتَقِرُّ . فعلى هذا تسجدُ وهى سائرةٌ . ولهذا قال تعالى[5] : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] . أى : لا تدركُ الشمسُ القمرَ فتطلعَ فى سُلطانِه ودَوْلتِه ، ولا هو أيضًا ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ . أى : ليس سابقَه بمسافةٍ يتأخرُ ذلك عنه فيها ، بل [6]إذا ذهبَ اللَّيلُ جاء النهارُ فى إثْرِه مُتَعَقِّبًا له و[6] إذا ذهب النهارُ جاء الليلُ فى إثْرِه متعقِّبًا له ، كما قال فى الآيةِ الأخرى[7] : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . وقال تعالى[8] : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] . أى : يخلفُ هذا لهذا ، وهذا لهذا ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذَا أَقْبَلَ الليلُ من ههنا ، وأَدْبرَ النهارُ مِن ههُنَا ، وغَرَبَتِ

---

(١) التفسير ٦/٥٦٢ .

(٢) زيادة من : ح .

(٣) بعده فى ا : « أى لا تزال تطلع وتغرب على هذا العالم إلى آخر وقت من الدنيا » .

(٤) المحتسب ، لابن جنى ٢/٢١٢ .

(٥) التفسير ٦/٥٦٤ .

(٦ – ٦) زيادة من : ح ، ص .

(٧) التفسير ٣/٤٢٢ .

(٨) التفسير ٦/١٣٠ .

الشمْسُ ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ »[1] . فالزمانُ المحقَّقُ ينقسمُ إلى ليلٍ ونهارٍ ، وليس بينهما غيرُهما ؛ ولهذا قال تعالى[2] : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى [١٨/١ و] لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر : ١٣] . [3]أى يولِجُ[3] مِن هذا فى هذا ، أى يأخذُ مِن طولِ هذا فى قِصَرِ هذا ، فيعتدلان ، كما فى أولِ فَصلِ الربيعِ ؛ يكونُ الليلُ قبلَ ذلك طويلًا والنهارُ قصيرًا ، فلا يزالُ الليلُ ينقُصُ والنهارُ يتزايدُ حتى يَعْتَدِلا ، وهو أولُ الربيعِ ، ثم يَشْرَعُ النهارُ يطولُ ويتزايدُ ، والليلُ يتناقصُ [4]إلى آخرِ فصلِ الربيعِ ، ثم يتراجعُ الأمرُ وينعكسُ الحال ، فيشرعُ النهارُ يتناقصُ والليل فى ازديادٍ[4] حتى يَعْتَدِلا أيضًا فى أولِ فصلِ الخريفِ ، ثم يَشْرَعُ الليلُ يطولُ ، ويقصرُ النهارُ ، إلى آخرِ فصلِ الخريفِ ، ثم يترجَّحُ النهارُ قليلًا قليلًا ويتناقصُ الليلُ شيئًا فشيئًا ، حتى يَعْتَدِلَا فى أولِ فصلِ الربيعِ كما قدمنا ، وهكذا فى كلِّ عامٍ . ولهذا قال تعالى[5] : ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [المؤمنون : ٨٠] . أى ؛ هو المتصرفُ فى ذلك كلِّه ، الحاكمُ الذى لا يُخَالَفُ ولا يُمانَعُ . ولهذا يقولُ فى ثلاثِ آياتٍ عند ذكرِ السمٰواتِ والنجومِ والليلِ والنهارِ : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٨٠ ، يس : ٣٨ ، فصلت : ١٢] . أى العزيزُ الذى قد قهر كلَّ شيءٍ ، ودان له كلُّ شيءٍ ، فلا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ ، العليمُ بكلِّ شيءٍ ؛ فقدّر كلَّ شيءٍ تقديرًا ، على نظامٍ لا يَخْتَلِفُ ولا يَضْطرِبُ .

وقد ثبتَ فى « الصحيحيْن »[6] من حديثِ سُفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، عن الزُّهْرِىِّ ،

---

(١) البخارى (١٩٥٤) ، مسلم (١١٠٠) .

(٢) التفسير ٥٢٧/٦ .

(٣ - ٣) فى ح ، م ، ص : « فيولج » .

(٤ - ٤) زيادة من : ح ، ص .

(٥) التفسير ٤٨١/٥ .

(٦) البخارى (٤٨٢٦ ، ٧٤٩١) ، مسلم (٢٢٤٦) .

عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ ، عن أبى هُرَيْرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « قَالَ ٱللهُ : يُؤْذِينِى ابنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدهرَ ، وأنا الدهرُ ، بيَدِىَ الأمْرُ ، أقلِّبُ الليلَ والنهارَ » . وفى روايةٍ : « فَأَنَا الدهْرُ ، أُقَلِّبُ لَيْلَه ونَهَارَه » .

قال العلماءُ ؛ كالشافعىِّ ، وأبى عُبيدٍ القاسمِ بنِ سلَّامٍ[1] ، وغيرِهما : يَسُبُّ الدهرَ ، أىْ يقولُ : فَعَلَ بنا الدهرُ كذا ، يا خَيْبَةَ الدهرِ ، أيتَمَ الأولادَ ، أرْمَلَ النساءَ . قال ٱللهُ تعالى : « وأَنَا الدهْرُ » . [2]أى أنا الدهرُ[2] الذى يَعْنِيه[3] ، فإنَّه فاعِلُ ذلك الذى أسنده إلى الدهرِ ، والدهرُ مخلوقٌ ، وإنما الذى فعَلَ هذا هو ٱللهُ الخالقُ ، فهو يَسُبُّ فاعِلَ ذلك ويعتقدُه الدهرَ ، وٱللهُ هو الفاعِلُ لذلك ، الخَالِقُ لكلِّ شىءٍ ، المتصرفُ فى كلِّ شىءٍ ، كما قال : « وأَنَا الدَّهْرُ بيدىَ الأَمْرُ ، أقلبُ ليلَه ونَهارَه » . وكما قال تعالى[4] : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧] . وقال تعالى[5] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

---

(١) غريب الحديث ، لأبى عبيد ٢/١٤٥ - ١٤٨ .

(٢ - ٢) سقط من : الأصل .

(٣) فى الأصل : « يعيبه » .

(٤) التفسير ٢/٢٢ .

(٥) التفسير ٤/١٨٥ .

[يونس : ٥ ، ٦] . أىْ ؛ فاوَتَ بينَ الشمسِ والقمرِ فى نورِهما ، وفى شكلِهما [١٨/١ ظ] ، وفى وقتِهما ، وفى سيرِهما ، فجعل هذا ضياءً ، وهو شعاعُ الشمسِ برهانٌ ساطِعٌ ، وضوءٌ باهرٌ ، والقمرَ نورًا ، أى أضْعَفُ من برهانِ الشمسِ ، وجعله مُستفادًا[1] مِن ضوئِها ، وقَدَّره منازلَ . أى ؛ يَطْلُعُ أولَ ليلةٍ مِنَ الشهرِ صغيرًا ضئيلًا قليلَ النورِ ؛ لقُرْبِه مِن الشمسِ وقِلَّةِ مقابلتِه لها ، فبِقَدْرِ مقابلتِه يكونُ نورُه ، ولهذا فى الليلةِ الثانيةِ يكونُ أبعدَ منها بضِعْفِ ما كان فى الليلةِ الأُولى ، فيكونُ نورُه بضِعْفِ النورِ أولَ ليلةٍ ، ثمَّ كلَّما بَعُدَ ازدادَ نورُه ، حتى يتكاملَ إبدارُه ليلةَ مقابلتِهِ إيّاها مِن المشرقِ ، وذلك ليلةَ أربعَ عشرةَ مِن الشهرِ ، ثمَّ يشرَعُ فى النقصِ ؛ لاقترابِه إليها مِن الجهةِ الأخرى إلى آخرِ الشهرِ ، فيستترُ ، حتى يعودَ كما بدأ فى أولِ الشهرِ الثانى ، فبه تُعْرَفُ الشهورُ ، وبالشمسِ تُعْرَفُ الليالى والأيامُ ، وبذلك[2] تُعْرفُ السنونُ والأعوامُ ؛ ولهذا قال تعالى[3] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] . وقال تعالى[4] : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] . وقال تعالى[5] : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] . وقد بسطنا القولَ على هذا كلِّه فى « التفسيرِ » .

---

(١) فى ح : « مستقادًا » .

(٢) فى ا : « وبهما » .

(٣) التفسير ١٨٥/٤ .

(٤) التفسير ٤٦/٥ .

(٥) التفسير ٣٢٦/١ .

فالكواكبُ التى فى السماءِ منها سَيَّاراتٌ ؛ وهى المُتَحَيِّرَةُ[1] فى اصطلاحِ علماءِ التسييرِ[2] ، وهو علْمٌ غالِبُه صحيحٌ ، بخلافِ عِلمِ الأحكامِ ، فإنّ غالِبَه باطلٌ ودعوى ما لا دليلَ عليه ، وهى سبعةٌ ؛ القمرُ فى سماءِ الدنيا ، وعطاردُ فى الثانيةِ ، والزُّهرَةُ فى الثالثةِ ، والشمسُ فى الرابعةِ ، والمريخُ فى الخامسةِ ، والمُشْتَرَى فى السادسةِ ، وزُحَلُ فى السابعةِ . وبقيةُ الكواكبِ يسمونها الثوابِتَ ، وهى عندَهم فى الفَلَكِ الثامِنِ ، وهو الكرسِىُّ فى اصطلاحِ كثيرٍ من المتأخرين .

وقال آخرون : بلِ الكواكبُ كلُّها فى السماءِ الدنيا ، ولا مانعَ مِن كونِ بعضِها فوقَ بعضٍ . وقد يُستدلُّ على هذا بقولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] . وبقولِه : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] . فَخصَّ سماءَ الدنيا من بينِهن بزينةِ الكواكبِ ؛ فإنْ دلّ هذا على كونِها مرصَّعةً فيها فذاك ، وإلا فلا مانِعَ مما قاله الآخرون ، وٱللهُ أعلمُ .

وعندَهم أَنَّ الأفلاكَ السبعةَ ، بل الثمانيةَ ، تدورُ بما فيها مِن الكواكبِ الثوابِتِ والسياراتِ [١٩/١ و] [3]فى اليومِ والليْلةِ دَوْرةً كُلِّيةً مِن الشَّرقِ إلى الْغَربِ ، وعندَهم أَنَّ كلَّ واحدٍ من الكواكبِ السَّياراتِ[3] يَدورُ على خلافِ فَلَكِه من المغربِ إلى المشرقِ ؛ فالقمرُ يقطعُ فلَكَه فى شهرٍ ، والشمسُ تقطعُ فلَكَها ، وهو الرابعُ ، فى سنةٍ ، فإذا كان السَّيْرانِ ليس بينَهما تفاوُتٌ وحركاتُهما

---

(١) فى الأصل ، ا : « المتحيزة » . وفى م ، ص : « المتخيرة » .

(٢) فى م ، ص : « التفسير » .

(٣ - ٣) سقط من : م ، ص .

متقاربةٌ ، كان قَدْرُ السماءِ الرابعةِ بقَدْرِ السماءِ الدنيا ثِنْتَىْ عشرةَ مرةً ، وزُحَلُ يقطعُ فلكَه ، وهو السابعُ ، فى ثلاثينَ سنةً ، فعلى هذا يكونُ بقَدْرِ السماءِ الدنيا ثَلاثَمِائةٍ وستينَ مرةً .

وقد تكلموا على مقاديرِ أجرامِ هذه الكواكبِ وسيرِها وحركاتِها ، وتوسعوا فى هذه الأشياءِ ، حتى تعدَّوا إلى علْمِ الأحكامِ ، وما يترتبُ على ذلك مِن الحوادِثِ الأرضيةِ ، وممَّا لا عِلْمَ لكثيرٍ منهم به . وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكُنون الشامَ قبلَ زمنِ المسيحِ عليه السلامُ بدُهورٍ ، لهم فى هذا كلامٌ كثيرٌ يطُولُ بسْطُه ، وهم الذين بَنَوْا مدينةَ دِمَشْقَ ، وجعلوا لها أبوابًا سبعةً ، وجعلوا على رأسِ كلِّ بابٍ هَيْكَلًا على صفةِ الكواكبِ السبعةِ ، يَعْبُدون كلَّ واحدٍ فى هَيْكَلِه ، ويدْعُونه بدعاءٍ يأْثُرُه عنهم غيرُ واحدٍ مِن أهلِ التواريخِ وغيرِهم . وذكَره صاحبُ « السرِّ المكتومِ فى مخاطبةِ الشمسِ والقمرِ والنجومِ »[(1)] ، [(2)]وهو خرافاتٌ لا يُلْتفتُ إليها[(2)] ، وغيرُه من علماءِ الحرنانيِّين [(3)]فلاسِفةِ حرانَ[(3)] فى قديمِ الزمانِ ، وقد كانوا مشركين يَعْبُدون الكواكبَ السبعةَ[(4)] ، وهم طائفةٌ من الصابئين ، ولهذا قال آللهُ تعالى[(5)] : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] . وقال تعالى[(6)] إخبارًا

(١) هو الإمام محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازى المفسر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . انظر : معجم المؤلفين ١١/٧٩ ، ٨٠ .

(٢ - ٢) زيادة من : الأصل ، ا .

(٣ - ٣) فى ا : « والفلاسفة » .

(٤) سقط من : ح ، ص .

(٥) التفسير ٧/١٧٠ .

(٦) التفسير ٦/١٩٦ .

عن الهُدْهُدِ ، أنَّه قال لسليمانَ [1]عليه السلامُ ، مخبرًا عن بَلْقِيسَ وجنودِها ، مَلِكَةِ سبأٍ فى اليمنِ وما والاها[1] : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٣ - ٢٦] . وقال تعالى[2] : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] . وقال تعالى[3] : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٤٨ - ٥٠] . وقال تعالى[4] : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ [١٩/١ ظ] وَٱلْأَصَالِ ﴾ [الرعد : ١٥] . وقال تعالى[5] : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . والآياتُ فى هذا كثيرةٌ جدًّا .

(١ - ١) فى ا : « عن تلك المرأة وقومها » .

(٢) التفسير ٣٩٨/٥ .

(٣) التفسير ٤٩٤/٤ .

(٤) التفسير ٣٦٨/٤ .

(٥) التفسير ٧٥/٥ .

ولما كان أشرفُ الأجرامِ المشاهَدةِ فِى السمواتِ والأرضِ هى الكواكِبَ ، وأشرَقُهنَّ[1] منظرًا وأشرفُهنّ مُعْتَبرًا الشمسَ والقمرَ ، استدَلّ الخليلُ على بُطلانِ إلٰهيةِ شيءٍ منهن ، وذلك فى قوله تعالى[2] : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٧ - ٧٩] . فبيَّن بطريقِ البرهانِ القطْعِىِّ أنّ هذه [3]الأجرامَ المشاهداتِ مِن الكواكبِ والقمرِ والشمسِ[3] ، لا يصلحُ شىءٌ منها للإلٰهيةِ ؛ لأنَّها كلَّها مخلوقةٌ مربوبةٌ مدَبَّرةٌ مسخَّرةٌ فى سيرِها ، لا تَحِيدُ عمَّا خُلِقتْ له ، ولا تَزيغُ عنه إلا بتقديرٍ مُتْقَنٍ مُحَرَّرٍ ، لا تَضْطَرِبُ ، ولا تَخْتَلِفُ ، وذلك دليلٌ على كونِها مربوبةً مصنوعةً مسخرةً مقهورةً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] . وثبت فى « الصحيحين »[4] فى صلاةِ الكُسوفِ ، مِن حديثِ ابنِ عمرَ ، وابنِ عباسٍ ، وعائشةَ ، وغيرِهم من الصحابةِ ، أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال فى خُطبتِه يومئذٍ : « إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ مِنْ آياتِ اللهِ عزَّ وَجلَّ ، وإنَّهمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِموتِ أَحَدٍ ولا لِحَياتِه » .

وقال البخاريُّ فى بَدْءِ الخلقِ[5] : حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا عبدُ العزيزِ بنُ

---

(١) فى م ، ا : « وأشرفهن » .
(٢) التفسير ٣/٢٨٢ .
(٣ - ٣) فى ا : « الأشياء » .
(٤) البخارى (١٠٤٠ - ١٠٤٤ ، ٣٢٠٢) ، مسلم (٩٠١) .
(٥) البخارى (٣٢٠٠) .

المختارِ ، حدثنا عبدُ آللهِ الداناجُ ، حدثنى أبو سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « الشمْسُ والقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يومَ القِيامةِ » . انفرد به البخارىُّ . وقد رواه الحافظُ أبو بكرٍ البَزَّارُ[1] بأبسطَ مِن هذا السياقِ ، فقال : حدثنا إبراهيمُ بنُ زيادٍ البغدادىُّ ، حدثنا يُونسُ بنُ محمدٍ ، حدثنا عبدُ العزيزِ بنُ المختارِ ، عن عبدِ آللهِ الداناجِ ، سمعتُ أبا سَلَمَةَ بنَ عبدِ الرحمنِ زَمَنَ خالدِ بنِ عبدِ آللهِ القَسْرىِّ[2] فى هذا المسجدِ مسجدِ الكوفةِ ، وجاء الحسنُ فجلسَ إليه فحدّث ، قال : حدثنا أبو هُرَيْرَةَ ، أنّ رسولَ آللهِ ﷺ قال : « إنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ ثَوْرانِ فى النَّارِ يومَ القِيامَةِ » . فقال الحسنُ : وما ذنبُهما[3] ؟ . فقال : أُحدِّثُك عن رسولِ اللهِ ﷺ وتقولُ : وما ذنبُهما[3] ؟ . ثم قال البزّارُ : لا يُرْوى عن أبى هُرَيْرَةَ إلّا مِن هذا الوجهِ ، ولم [١/٢٠ و] يَرْوِ عبدُ اللهِ الداناجُ عن أبى سَلَمَةَ سِوَى هذا الحديثِ .

وروى الحافظُ أبو يَعْلَى المَوْصِلىُّ[4] مِن طريقِ يزيدَ الرَّقاشىِّ ، وهو ضعيفٌ ، عن أَنَسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « الشَّمْسُ والقَمَرُ ثَوْران عَقِيرانِ فى النَّارِ » . وقال (٥ابنُ أبى٥) حاتِمٍ : حدثنا أبو سعيدٍ الأَشَجُّ وعمرُو[6]

---

(١) وأخرجه الطحاوى بنحوه من طريق عبد العزيز بهذا الإسناد فى مشكل الآثار ١/٦٦ ، ٦٧ .

(٢) فى الأصل : « العسيرى » ، وفى ا : « العشيرى » .

قال ابن حجر : أخرجه الإسماعيلي وقال : فى مسجد البصرة . ولم يقل : خالد القسرى . وأخرجه الخطابى ... فقال : خالد بن عبد الله أى ابن أسيد . وهو أصح ؛ فإن خالدا هذا كان قد ولى البصرة لعبد الملك قبل الحجاج بخلاف خالد القسرى . فتح البارى ٦/٢٩٩ .

(٣) فى م ، ص : « دينهما » . قال الخطابى : ليس المراد تعذيبهما بذلك ، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما فى الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلة . فتح البارى ٦/٣٠٠ .

(٤) مسند أبى يعلى (٤١١٦) . إسناده ضعيف جدا .

(٥ - ٥) فى الأصل ، ح : « أبو » .

(٦) فى م : « عمر » .

ابنُ عبدِ آللهِ الأَوْدِىُّ ، حدثنا أبو أسامةَ ، عن مجالدٍ ، عن شيخٍ مِن بَجِيلةَ ، عن ابنِ عباسٍ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] قال : يُكوِّرُ آللهُ الشمسَ والقمرَ والنجومَ يومَ القيامةِ فى البحرِ ، ويبعَثُ آللهُ ريحًا دبُورًا ، فتُضرِمُها نارًا[١] .

فدلّت هذه الآثارُ على أنّ الشمسَ والقمرَ من مخلوقاتِ آللهِ ، خَلَقَها لِمَا أراد ، ثم يفعلُ فيهما ما يشاءُ ، وله الحُجّةُ الدامِغةُ[٢] ، والحكمةُ البالِغةُ ، فلا يُسألُ عمَّا يفعلُ ؛ لعِلْمِه ، وحكمتِه ، وقُدْرتِه ، ومشيئتِه النافِذَةِ ، وحُكْمِه الذى لا يُرَدُّ ولا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ .

وما أحسنَ ما أوردَه الإمامُ محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ[٣] فى أولِ كتابِ « السيرةِ » من الشعرِ لزيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفَيْلٍ ، فى خلقِ السماءِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ وغيرِ ذلك ، قال ابنُ هشامٍ[٤] : هى لأُمية ابنِ أبى الصَّلْتِ :

إلى آللهِ أُهْدِى مِدْحتى وثَنائيَا ... وقَوْلًا رَصِينًا[٥] لا يَنِى[٦] الدهرَ باقِيَا

إلى المَلِكِ الأعلى الذى ليس فوقَه ... إلـهٌ ولا ربٌّ يكـونُ مُدَانِيَـا

ألا أيُّها الإنسانُ إياكَ والـرَّدَى ... فإنك لا تُخْفِى منَ آللهِ خافِيَا

وإياك لا تجعلْ معَ آللهِ غيرَه ... فإنَّ سبيلَ الرُّشْدِ أصبحَ باديَـا

حَنانَيْك إنَّ الجِنَّ كانت رجاءَهم ... وأنتَ إلهى ربَّنـا ورَجائيَـا

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣١٨/٦ ، وعزاه لابن أبى حاتم .
(٢) فى م ، ص : « الدافعة » .
(٣) فى ح : « بشار » .
(٤) سيرة ابن هشام ٢٢٧/١ . وديوان أمية ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٥) فى الأصل ، ح ، ا ، م : « رضيًّا » . وفى ص : « رضيناه » .
(٦) لا ينى : لا يضعف .

رَضِيتُ بك اللّهمّ رَبًّا فلَنْ أُرَى ... [(1)]أَدِينُ إلهًا[(1)] غيرَك آللهُ ثانِيَا

وأنتَ الذى مِنْ فَضْلٍ مَنٍّ ورحمةٍ ... بَعثْتَ إلى[(2)] موسى رسولًا مُنادِيَا

فقلتَ له يا اذهبْ[(3)] وهرونَ فادْعُوَا ... إلَى آللهِ فِرعونَ الذى كان طاغِيَا

وقولا له أأنت[(4)] سوَّيت هذه ... بلا وَتَدٍ حتى اطمأنَّتْ كما هِيَا

وقولا له أأنت رفَّعتَ هذه ... بلا عَمَدٍ أرفِقْ إذًا بك بانِيَا

وقولا له أأنتَ سوَّيْتَ وسْطَها ... مُنيرًا إذا ما جَنَّه الليلُ هادِيَا

وقولا له مَنْ يرسلُ الشمسَ غَدْوَةً ... فيصبحَ ما مسَّت مِن الأرضِ ضاحِيَا

وقولا له من يُنْبِتُ الحَبَّ فى الثَّرَى ... فيصبِحَ منه البَقلُ يهتَزُّ رابِيَا

ويُخْرِجُ منهُ حبَّه فى رُءُوسِه ... وفى ذاك آياتٌ لمن كان واعِيَا

وأنتَ بفضلٍ منك نجَّيتَ يُونُسَا ... وقد باتَ فى أضعافِ حُوتٍ لياليَا [١/٢٠ظ]

وإنِّى ولو[(5)] سبَّحتُ باسمِك ربَّنا ... لَأُكْثِرُ إلا ما غفرتَ خطائيَا

فربَّ العبادِ ألقِ سَيبًا[(6)] ورحمةً ... علىَّ وبارِكْ فى بَنِىَّ ومالِيَا

فإذا عُلِم هذا . فالكواكِبُ التى فى السماءِ مِن الثَّوابتِ والسيارات ، الجميعُ مخلوقةٌ ، خلقَها آللهُ تعالى ، كما قال[(7)] : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ . [فصلت : ١٢] .

(١ - ١) فى ا : « إلها وربا » .

(٢) فى ا : « النبى » .

(٣) فى ح : « يذهب » . و : يا اذهب : على حذف المنادى .

(٤) فى ا : « هل أنت » .

(٥) فى الأصل ، ح ، ص : « وإن » . وفى م : « لو » .

(٦) السَّيْب : العطاء . القاموس (س ى ب) .

(٧) التفسير ١/١٩٩ .

وأمَّا ما يذكرُه كثيرٌ مِن المفسرين فى قصةِ هاروتَ ومارُوتَ ، مِن أَنَّ الزُّهْرَةَ كانت امرأةً حسناءَ[1] ، فَراوَداها على نفسِها ، فأَبَت ؛ إلَّا أنْ يُعَلِّماها الاسمَ الأعظَمَ ، فعلّماها ، فقالته ، فرُفِعت كوكبًا إلى السماءِ ، فهذا أُظنُّه مِن وضْعِ الإسرائيليين ، وإنْ كان قد [2]أخبر به[2] كعبُ الأحبارِ ، وتلقّاه عنه طائفةٌ مِنَ السلفِ ، فذكروه على سبيلِ الحكايةِ والتحديثِ عن بنى إسرائيلَ[3] . وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ ، وابنُ حبانَ فى « صحيحِه »[4] فى ذلك حديثًا ، رواه أحمدُ ، عن يحيى بن أبى بُكَيْرٍ ، عن زُهَيْرِ بنِ محمدٍ ، عن موسى بنِ جُبَيْرٍ ، عن نافعٍ ، عن ابنِ عمرَ ، عن النبىِّ ﷺ ، وذكَر القصةَ بطُولِها . وفيه : « فمَثُلَتْ لهما الزُّهْرةُ امرأةً مِن أحسنِ البشرِ ، فجاءتهما ، فسألاها نفسَها » . وذكرَ القصةَ . وقد رواه عبدُ الرزاقِ فى « تفسيرِهِ »[5] عن الثَّوْرىِّ ، عن موسى بنِ عُقْبةَ ، عن سالمٍ ، [6]عن ابنِ عمرَ[6] ، عن كعبِ الأحبارِ به . وهذا أصحُّ وأثبتُ . وقد روى الحاكِمُ فى « مُسْتَدْرَكِه » ، وابنُ أَبِى حاتِمٍ فى « تفسيرِه » ، عن ابنِ عباسٍ ، فذكره ، وقال فيه : وفى ذلك الزمانِ امرأةٌ حسنُها فى النساءِ كحُسْنِ الزُّهْرةِ فى سائرِ الكواكبِ . وذكر تمامَه[7] . وهذا أحسنُ لفظٍ رُوِىَ فى هذه القصةِ ، واللهُ أعلمُ . وهكذا الحديثُ الذى رواه

---

(١) زيادة من : ا .

(٢ - ٢) فى م : « أخرجه » ، وفى ا : « قاله » .

(٣) انظر تفسير عبد الرزاق ٥٣/١ ، ٥٤ ، وابن جرير ٤٥٦/١ ، ٤٥٧ .

(٤) المسند ١٣٤/٢ ، وابن حبان (٦١٨٦) (ضعيف) .

(٥) تفسير عبد الرزاق ٥٣/١ .

(٦ - ٦) سقط من : م ، ص .

(٧) مستدرك الحاكم ٢٦٦/٢ مختصرًا . وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبى . وابن أبى حاتم ٣٠٥/١ ، من وجه آخر عن ابن عباس .

الحافظُ أبو بكرٍ البزّارُ[1] : حدثنا محمدُ بنُ عبدِ الملكِ الواسِطىُّ ، حدثنا يَزيدُ ابنُ هـٰرونَ ، حدثنا مُبَشِّرُ بنُ عُبَيْدٍ ، عن زيدِ[2] بنِ أسلمَ ، عن ابنِ عمرَ ، عن النبىِّ ﷺ ، وحدثنا عمرُو بنُ عيسى ، حدثنا عبدُ الأعلى ، حدثنا إبراهيمُ ابنُ يزيدَ ، عن عمرِو بنِ دينارٍ ، عن ابنِ عمرَ ، أَنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ ذكرَ سُهَيلًا فقال : « كانَ عَشَّارًا ظَلُومًا ، فمَسَخَه ٱللهُ شِهَابًا » . ثم قال : لم يروِه عن زيدِ بنِ أسلمَ إلا مُبَشِّرُ بنُ عبيدٍ ، وهو ضعيفُ الحديثِ ، ولا عن عمرِو ابنِ دينارٍ إلا إبراهيمُ بنُ يزيدَ ، وهو لَيِّنُ الحديثِ[3] . وإنما ذكرْناه على ما فيه مِن عِلَّةٍ لأَنَّا لم نَحفظْه إلا مِن هذينِ الوجهينِ . قلتُ : أَمَّا مُبَشِّرُ بنُ عُبَيْدٍ القرشىُّ فهو[4] أبو حفصٍ الحِمْصِىُّ وأصلُه مِن الكوفةِ ، فقد ضَعّفه الجميعُ ، وقال فيه الإمامُ أحمدُ ، والدارَقطنىُّ : كان يضعُ الحديثَ ويكْذِبُ . وأمّا إبراهيمُ ابنُ يزيدَ ، فهو الخُوزىُّ[5] وهو ضعيفٌ باتفاقِهم ، قال فيه أحمدُ [٢١/١و] والنسائىُّ : مَتْروكٌ . وقال ابنُ مَعِينٍ : ليس بثقةٍ ، وليس بشىءٍ . وقال البخارىُّ : سكتُوا عنه . وقال أبو حاتمٍ ، وأبو زُرْعةَ : مُنْكَرُ الحديثِ ، ضعيفُ الحديثِ[6] . ومثلُ هذا الإسنادِ لا يثبُتُ به شىءٌ بالكليَّةِ ، وإذا أحسنَّا الظَّنَّ ، قلنا : هذا مِن أخبارِ بنى إسرائيلَ ، كما تقدَّم من روايةِ ابنِ عمرَ عن كعبِ الأحبارِ ، ويكونُ من خرافاتِهم التى لا يُعوَّلُ عليها ، وٱللهُ أعلمُ .

---

(١) كشف الأستار (٩٠٣) . اللآلئ المصنوعة ١٥٩/١ ، ١٦٠ .
(٢) فى ح ، م ، ص : « يزيد » .
(٣) مجمع الزوائد ٨٨/٣ .
(٤) زيادة من : م .
(٥) فى ص : « الجوزى » .
(٦) انظر ميزان الاعتدال ٧٥/١ ، الجرح والتعديل ١٤٦/٢ ، ١٤٧ .

فصلٌ
فى الكلامِ على المَجرَّةِ وقَوْسِ قُزَحَ

قال أبو القاسمِ الطَّبَرانىُّ[1] : حدثنا علىُّ بنُ عبدِ العزيزِ ، حَدثنا عارِمٌ أبو النعمانِ ، حدثنا أبو عَوَانَةَ ، عن أبى بِشْرٍ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، أَنَّ هِرَقْلَ كتب إلى معاويةَ وقال : إنْ كان بَقِىَ فيهم شىءٌ مِن النبوةِ فسيُخْبِرُنى عما أسألُهم عنه . قال : فكتب إليه يسألُه عن المَجرَّةِ ، وعن القَوْسِ ، وعن [2]البُقْعةِ التى[2] لم تُصِبْها الشمسُ إلا ساعةً واحدةً . قال : فلمَّا أتى معاويةَ الكتابُ والرسولُ ، قال : إنّ هذا الشىءَ ما كنتُ آبَهُ له أَنْ أسألَ عنه إلى يومى هذا ، مَنْ لهذا ؟ قِيل : ابنُ عباسٍ . فطَوَى معاويةُ كتابَ هِرَقْلَ ، فبعثَ به إلى ابنِ عباسٍ ، فكتبَ إليه : إنَّ القَوْسَ أمانٌ لأهلِ الأرضِ مِن الغَرَقِ ، والمَجَرةَ بابُ السماءِ الذى تنشَقُّ منه[3] ، وأما البُقْعةُ التى لم تُصِبْها الشمسُ إلا ساعةً من النهارِ ، فالبحرُ الذى أُفْرِجَ عن بنى إسرائيلَ . وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابنِ عباسٍ رضىَ آللهُ عنه .

فأمَّا الحديثُ الذى رواه الطَّبَرانىُّ[4] : حدثنا أبو الزِّنْباعِ[5] رَوحُ بنُ

---

(١) المعجم الكبير (١٠٥٩١) وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٢٧٨/٩ .

(٢ - ٢) فى م : « بقعة » .

(٣) بعده فى م : « الأرض » .

(٤) المعجم الكبير (١٧٥٤) . وهو فى موضوعات ابن الجوزى ١٤٢/١ ، والكامل لابن عدى ٢٠٤٢/٦ . وقال فى مجمع الزوائد ١٣٥/٨ . وفيه الفضل بن مختار وهو ضعيف . وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢٨٤) : موضوع .

(٥) فى ص : « الرباع » .

الفَرَجِ ، حدثنا إبراهيمُ بنُ مَخْلَدٍ ، حدثنا الفضلُ بنُ المختارِ عن محمدِ بنِ مسلمٍ الطائفيِّ ، عن ابنِ أبي نَجيحٍ(1) ، عن مُجاهدٍ ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « يا مُعاذُ ، إنِّي مُرْسِلُكَ إلى قَوْمٍ أهْلِ كِتَابٍ ، فإذا سُئِلتَ عَنِ المَجرَّةِ التي في السَّمَاءِ فقُلْ : هِي لُعَابُ حَيَّةٍ تَحْتَ العَرْشِ » . فإنه حديثٌ مُنْكَرٌ جدًا ، بل الأَشْبهُ أنّه موضوعٌ ، وراويهِ الفضلُ ابنُ المختارِ هذا أبو سهلٍ البَصْريُّ ، ثم انتقل إلى مصرَ ، قال فيه أبو حاتِمٍ الرازيُّ(2) : هو مجهولٌ (3يُحدِّثُ بالأباطيلِ3) . وقال الحافِظُ أبو الفتحِ الأَزْدِيُّ : منكَرُ الحديثِ جدًّا . وقال ابنُ عَدِيٍّ : لا يُتابَعُ على أحاديِثه ، لا متنًا ولا إسنادًا(4) . وقال اللهُ تعالى(5) : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٢ ، ١٣] . وقالَ تعالَى(6) : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ [١/٢١ ظ] وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

---

(1) في م : « يحيى » .
(2) الجرح والتعديل ٦٧/٧ .
(3 - 3) في ا : « الحديث باطل الرواية » .
(4) انظر ميزان الاعتدال ٣٥٨/٣ ، الكامل ٢٠٤٢/٦ .
(5) التفسير ٣٦٢/٤ .
(6) التفسير ٢٨٩/١ .

وروى الإمامُ أحمدُ[1] ، عن يزيدَ بن ِ هٰرُونَ ، عن إبراهيمَ بن ِ سعدٍ ، عن أبيه ، عن شيخٍ من بنى غِفَارٍ ، قال : سمعتُ رسولَ آللهِ ﷺ يقولُ : « إنّ آللهَ يُنْشِئُ السحابَ ، فيَنْطِقُ أحسنَ النُّطْقِ ، ويَضْحَكُ أحْسَنَ الضَّحِكِ » . وروى موسى بنُ عبيدةَ [2]عن سعدِ[2] بن ِ إبراهيمَ ، أنَّه قال : إن نُطْقَه الرعدُ ، وضِحْكَه البرقُ[3] . وقال [4]ابنُ أبى[4] حاتِمٍ[5] : حدثنا أبى ، حدثنا هشامٌ ، عن عبيدِ آللهِ الرازىِّ ، عن محمدِ بن ِ مسلمٍ ، قال : بَلَغَنا أنّ البرقَ مَلَكٌ له أربعةُ وُجوهٍ ؛ وجهُ إنسانٍ ، ووجهُ ثَوْرٍ ، ووجهُ نَسْرٍ ، ووجهُ أسدٍ ، فإذا مَصَعَ[6] بذَنَبِه ، فذلك البرقُ . وقد روى الإمامُ أحمدُ ، والترمذىُّ ، والنسائىُّ ، والبخارىُّ فى كتابِ الأدبِ ، والحاكِمُ فى « مُسْتَدْرَكِه » ، من حديثِ الحجاجِ بن ِ أرطاةَ ، حدثنى أبو[7] مَطَرٍ ، عن سالمٍ ، عن أبيه ، قال : كان رسولُ آللهِ ﷺ إذا سمع الرعدَ والصواعِقَ قال : « اللهُمّ لا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِك ، ولا تُهْلِكْنَا بِعذابِكَ ، وعَافِنَا قَبْلَ ذَلِك »[8] .

---

(1) المسند ٤٣٥/٥ . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢١٦/٢ ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(2 - 2) فى الأصل ، ا : « عن سعيد » ، وفى م : « بن سعد » .

(3) أخرج نحوه أبو الشيخ فى العظمة (٧٢٣) من قول إبراهيم بن سعد وليس من قول أبيه سعد بن إبراهيم (صحيح) .

(4 - 4) فى ح : « أبو » .

(5) ذكره السيوطى فى الدر ٤٩/٤ ، ونسبه لابن أبى حاتم .

(6) المصع : تحريك الذنب من غير عدو .

(7) كذا فى الأصل ، وهو الصواب . وفى بقية النسخ : « ابن » . وانظر مصادر التخريج .

(8) أحمد فى مسنده ١٠٠/٢ ، والترمذى (٣٤٥٠) وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والنسائى (١٠٧٦٣) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٧٢١) ، والحاكم فى المستدرك ٢٨٦/٤ وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى ، والحديث صححه الشيخ شاكر فى تعليقه على المسند (٥٧٦٣) وضعفه الشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٠٤٢) وقال معللا ذلك : ذلك لأن مداره عندهم جميعا على أبى مطر هذا ، وهو كما قال الذهبى نفسه فى الميزان : لا يدرى من هو . ومثله قول الحافظ فى التقريب : مجهول . وإنما صححه الشيخ شاكر لاعتماده توثيق ابن حبان .

وروى ابنُ جَرير[1] مِن حديثِ ليثٍ ، عن رجلٍ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، رفَعَه ، كان إذا سمع الرعدَ قال : « سُبحانَ مَن يُسَبِّحُ الرعدُ بحمدِه » . وعن علىٍّ ، أنَّه كان يقولُ : سبحانَ من سبَّحَتْ له[1] . وكذا عن ابنِ عباسٍ ، والأسودِ ابنِ يزيدَ ، وطاوسٍ ، وغيرِهم . وروى مالكٌ[2] عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ[3] ، أنَّه كان إذا سَمِعَ الرعدَ ترك الحديثَ ، وقال : سبحانَ مَن يُسبحُ الرعدُ بحمدِه والملائكةُ من خِيفَتِه ، ويقولُ : إنَّ هذا وعيدٌ شديدٌ لأهلِ الأرضِ . وروى الإمامُ أحمدُ[4] ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « قال ربُّكُم : لَوْ أَنَّ عَبِيدِى أَطَاعُونِى لأَسْقَيْتُهُمُ المطَرَ بالليلِ ، وأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشمسَ بالنَّهارِ ، ولَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ » . وروى الطبرانىُّ[5] عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا : « إذا سَمِعْتُمُ الرَّعدَ فَاذْكُرُوا اللهَ ، فإنَّه لَا يُصِيبُ ذَاكِرًا » . وكلُّ هذا مبسوطٌ فى « التفسيرِ »[6] ، وللهِ الحمدُ والمِنَّةُ .

---

(1) تفسير الطبرى ١٢٤/١٣ .

(2) الموطأ ٩٩٢/٢ (صحيح) .

(3) فى النسخ : « عمر » ، والمثبت من الموطأ . وانظر الأدب المفرد ١٨٥/٢ ، والعظمة (٧٨٧) ، والتفسير ٣٦٤/٤ .

(4) المسند ٣٥٩/٢ (حسن) .

(5) المعجم الكبير (١١٣٧١) . وقال الهيثمى : فيه يحيى بن كثير أبو النضر وهو ضعيف . مجمع الزوائد ١٣٦/١٠ .

(6) التفسير ٣٦٣/٤ ، ٣٦٤ .

بابُ ذكـــرِ خلْقِ الملائكةِ وصِفاتِهم (1)عليهـمُ السـلامُ(1)

قال آللهُ تعالى[2] : ﴿ شَهِدَ آللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] . وقال[3] : ﴿ لَّـٰكِنِ آللهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] . وقال تعالى[4] : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ [١/٢٢و] كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ - ٢٩] . وقال تعالى[5] : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ آللهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى : ٥] . وقال تعالى[6] : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ

(١ - ١) سقط من : م . وفى ا : « عليهم الصلاة والسلام » .

(٢) التفسير ١٨/٢ .

(٣) التفسير ٤٢٨/٢ .

(٤) التفسير ٣٣١/٥ .

(٥) التفسير ١٧٩/٧ .

(٦) التفسير ١٢٠/٧ .

﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر : ٧ ، ٨] . وقال تعالى(١) : ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت : ٣٨] . وقال(٢) : ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] . وقال تعالى(٣) : ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات : ١٦٤ - ١٦٦] . وقال تعالى(٤) : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤] . وقال تعالى(٥) : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار : ١٠ - ١٢] . وقال تعالى(٦) : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] . وقال تعالى(٧) : ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] . وقال تعالى(٨) : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر : ١] . وقال تعالى(٩) : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا * ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ وَكَانَ

---

(١) التفسير ١٧٠/٧ .
(٢) التفسير ٣٢٩/٥ .
(٣) التفسير ٣٨/٧ .
(٤) التفسير ٢٤٣/٥ .
(٥) التفسير ٣٦٥/٨ .
(٦) التفسير ٢٩٥/٨ .
(٧) التفسير ٣٧٣/٤ .
(٨) التفسير ٥١٩/٦ .
(٩) التفسير ١١٤/٦ .

يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٥ ، ٢٦] . وقال تعالى[1] : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢١ ، ٢٢] . وقال تعالى[2] : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] . وقال تعالى[3] : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

والآياتُ فى ذكْرِ الملائكةِ كثيرةٌ جدًّا ، يصِفُهم تعالى بالقوةِ فى العبادةِ ، وفى الخَلْقِ ، وحُسنِ المنظرِ ، وعَظَمَةِ الأشكالِ ، وقوةِ الشكلِ فى الصُّوَرِ المتعدّدةِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ٧٧ ، ٧٨] . الآيات . فذكَرنا فى « التفسيرِ »[4] ما ذكره غيرُ واحدٍ [٢٢/١ ظ] مِن العلماءِ مِن أنَّ الملائكةَ تبدو لهم فى صورةِ شبابٍ حِسانٍ ؛ امتحانًا واختبارًا ، حتى قامت على قومِ لوطٍ الحُجَّةُ وأخذَهم اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ . وكذلك كان جبريلُ يأتى إلى النبىِّ ﷺ فى صفاتٍ متعددةٍ ؛ فتارةً يأتِى فى صورةِ دِحْيَةَ بنِ خليفةَ الكَلْبِىِّ[5] ، وتارةً فى صورةِ أعرابىٍّ[6] ،

---

(١) التفسير ١٠٩/٦ .
(٢) التفسير ١٨٥/١ .
(٣) التفسير ١٩٤/٨ .
(٤) ٢٦٧/٤ ، ٢٦٨ .
(٥) العظمة (٣٥٨) ، أبو نعيم فى دلائل النبوة ٢٢٢/١ .
(٦) مسلم (٨) .

وتارةً فى صورتِه التى خُلِقَ عليها[1] ، له سِتُّمائةِ جناحٍ ، ما بينَ كلِّ جناحَيْن كما بين المشرِقِ والمغربِ ، كما رآه على هذه الصفةِ مرتين ؛ مرةً مُنْهَبِطًا مِن السماءِ إلى الأرضِ ، ومرةً عندَ سِدْرَةِ المنتهَى ، عندَها جَنةُ المأوى ، وهو قولُه تعالى[2] : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٥ - ٨] . أى جبريلُ . كما ذكرناه عن غيرِ واحدٍ مِن الصحابةِ ؛ منهم ابنُ مسعودٍ ، وأبو هريرةَ ، وأبو ذَرٍّ ، وعائشةُ ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أى إلى عبدِ اللهِ محمدٍ ﷺ ، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم ١٣ ، ١٤] . [3]وكلُّ ذلك المرادُ به جبريلُ[3] . وقد ذكرنا فى أحاديثِ الإسراءِ فى سورةِ « سبحان »[4] ، أنّ سِدْرَةَ المنتهى فى السماءِ السابعةِ ، وفى رِوايَةٍ : فى السادسةِ [5]أى أصلُها[5] وفروعُها[6] فى السابعةِ [7]﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾[7] قِيل : غَشِيهَا نورُ الربِّ جَلَّ جلالُه . وقِيل : غَشِيها فَراشٌ مِن ذهبٍ . وقِيل : غَشِيها ألوانٌ متعدِّدةٌ كثيرةٌ غيرُ مُنْحَصِرَةٍ . وقِيل : غَشِيهَا الملائكةُ مِثلَ الغِرْبانِ . وقِيل : غَشِيها مِن اللهِ أمْرٌ ، فلا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَنْعَتَها . أى مِن حُسْنِها وبهائِها . ولا منافاةَ بين هذه الأقوالِ ؛ إذِ الجميعُ مُمْكِنٌ حصولُه فى حالٍ واحدةٍ . وذكرنا أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « ثم رُفِعَتْ لىَ سِدْرةُ المُنْتَهى ، فإذا نَبْقُها كالقِلَالِ » . وفى روايةٍ : « كقِلَالِ هَجَرَ ، وإذَا وَرَقُها كآذَانِ

---

(١) سيأتى فى صفحة ٩٩ - ١٠١ .

(٢) التفسير ٤١٩/٧ .

(٣ - ٣) زيادة من : ا .

(٤) التفسير ٢٨/٥ .

(٥ - ٥) فى ا : « والجمع بينهما أن يكون المراد أن أصلها فى السادسة » .

(٦) فى ص : « فرعها » .

(٧ - ٧) كذا فى : ا . وفى بقية النسخ : « فلما غشيها من أمر الله ما غشيها » .

الفِيلَةِ ، وَإِذَا يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهران بَاطِنَان ، ونَهْرَان ظَاهِران ؛ فَأَمَّا البَاطِنَان فَفِي الجَنَّةِ ، وأَمَّا الظَاهِرانِ فالنِّيلُ والفُرَاتُ »[1] . وتقدم الكلامُ على هذا فى ذكْرِ خَلْقِ الأرضِ ، وما فيها مِن البحارِ والأنهارِ ، وفيه : « ثمّ رُفِعَ لىَ البيتُ المعمورُ ، وإذا هُوَ يَدْخُلُه فى كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِليهِ آخِرَ ما عَلَيْهِم » . وذَكَرَ أنّه وجدَ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ مُسْنِدًا ظهرَه إلى البيتِ المعمورِ . [2]وذكرنا وجهَ المناسبةِ فى هذا ، أنَّ البيتَ المعمورَ[2] فى السماءِ السابعةِ بمنزلةِ الكعبةِ فى الأرضِ . وقد روى سفيانُ الثَّورىُّ ، وشُعبةُ ، [١/ ٢٣ و] وأبو الأحْوَصِ ، عن سِماكِ بنِ حربٍ ، عن خالدِ بنِ عَرْعَرَةَ ، أنَّ ابنَ الكوَّاءِ سأل عليَّ بنَ أبى طالبٍ عن البيتِ المعمورِ ، فقال : هو مسجدٌ فى السماءِ يُقالُ له : الضُّراحُ ، وهو بحِيالِ الكعبةِ مِن فوقِها ، حُرْمَتُه فى السماءِ كحُرْمةِ البيتِ فى الأرضِ ، يصلِّى فيه كلَّ يومٍ سبعونَ ألفًا مِن الملائكةِ ، لا يعودونَ فيه أبدًا[3] . وهكذا رَوَى عليُّ بنُ ربيعةَ ، وأبو الطُّفَيْلِ ، عن عليٍّ مثلَه[3] . وقال الطبرانىُّ[4] : حدَّثنا الحسنُ ابنُ عَلُّويه القطانُ ، حدثنا إسماعيلُ ابنُ عيسى العطارُ ، حدثنا إسحاقُ بنُ بشرٍ أبو حُذيفةَ ، حدثنا ابنُ جُرَيجٍ ، عن صفوانَ بنِ سُلَيْمٍ ، عن كُرَيْبٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « البيتُ المَعْمُورُ فى السماءِ يُقالُ له : الضُّرَاحُ[5] ، وهُوَ علَى مِثْلِ البيتِ الحَرامِ بحِيالِه ، لو سَقَطَ لَسَقَطَ عَلَيْه ، يَدْخُلُه كلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ

---

(١) تقدم فى صفحة ٥٦ .

(٢ - ٢) سقط من : ح .

(٣) التفسير ٧/ ٤٠٤ . وتفسير الطبرى ٢٧/ ١٦ ، ١٧ . وإسناده ضعيف (السلسلة الصحيحة ٤٧٧) .

(٤) الطبرانى (١٢١٨٥) قال الهيثمي : رواه الطبرانى وفيه إسحاق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك . مجمع الزوائد ٧/ ١١٣ . وضعفه الألبانى (الصحيحة ٤٧٧) .

(٥) عند الطبرانى : « الصراح » وكذلك فى : ص . قال ابن الأثير : من رواه بالصاد فقد صحف . النهاية ٣/ ٨١ .

مَلَكٍ ، ثُمّ لا يَرَوْنَه قطُّ ، وإنَّ له فى السماءِ حُرْمةً على قَدْرِ حُرْمَةِ مَكَّةَ » . يعنى فى الأرضِ . وهكذا قال العَوْفِىُّ عن ابنِ عباسٍ ، ومجاهدٌ ، وعكرمةُ ، والربيعُ بنُ أنسٍ ، والسُدّىُّ ، وغيرُ واحدٍ[1] . وقال قَتادَةُ : ذُكِرَ لنا أَنَّ رسولَ آللهِ ﷺ قال يومًا لأصحابِه : « هلْ تَدْرونَ ما البيْتُ المعْمُورُ ؟ » قالوا : آللهُ ورسُولُه أعلمُ . قال : « فإنّه مَسْجِدٌ فى السماءِ بِحيَالِ الكَعْبَةِ ، لو خرّ لَخرّ عليها ، يُصَلّى فيه كلَّ يومٍ سَبْعونَ ألفَ مَلَكٍ ، إذا خرَجُوا مِنْه لَم يَعُودُوا آخِرَ ما عَلَيْهم »[2] . وزعم الضَّحّاكُ أنَّه تعمُرُه طائفةٌ مِن الملائكةِ يُقالُ لهم الجِنُّ[3] ، مِن قبيلةِ إبليسَ لعنَهُ آللهُ ، كان يقولُ : سَدَنَتُه وخدّامُه منهم . وآللهُ أعلمُ . وقال آخرون : فى كلِّ سماءٍ بيتٌ تعمُرُه مَلائكتُها بالعبادةِ فيه ، ويَفدُون إليه بالنَّوْبةِ والبَدلِ ؛ كما يعمُرُ أهلُ الأرضِ البيتَ العتيقَ بالحجِّ فى كلِّ عامٍ ، والاعتمارِ فى كلِّ وقتٍ ، والطّوافِ والصلاةِ فى كلِّ آنٍ .

قال سعيدُ بنُ يحيى بنِ سعيدٍ الأموىُّ ، فى أوائلِ كتابِه « المغازى » : حدثنا أبو عبيدٍ فى حديثِ مُجاهدٍ أَنّ الحرمَ حرامٌ[4] مَناهُ - يعنى قدرُه - مِن السمٰواتِ السبعِ (٥والأرَضينَ السبعِ٥) وأنّه رابعُ أربعةَ عشرَ بيتًا ، فى كلِّ سماءٍ بيتٌ ، وفى كلِّ أرضٍ بيتٌ ، لو سقطتْ ، سقط بعضُها على بعضٍ . ثم رَوَى عن مُجاهدٍ قال : مَناه ؛ أى مقابلُه ، وهو حرفٌ مقْصورٌ . ثم قال : حدثنا أبو معاويةَ ، حدثنا الأعْمشُ ، عن أبى سليمانَ مؤذّنِ الحجاجِ : سمعتُ عبدَ آللهِ بنَ عمرٍو يقولُ : إنّ الحرمَ مُحرَّمٌ فى السمٰواتِ السبعِ مقدارُه من

---

(١) التفسير ٤٠٤/٧ ، تفسير الطبرى ١٧/٢٧ .

(٢) تفسير الطبرى ١٧/٢٧ وإسناده صحيح مرسلًا (الصحيحة ٤٧٧) .

(٣) انظر التفسير ١٠٧/١ حاشية (١) .

(٤) فى م : « حرم » .

(٥ - ٥) زيادة من : م .

الأرضِ ، وإنّ بيتَ المقدسِ مُقدَّسٌ فى السمواتِ السبعِ مقدارُه من الأرضِ .
كما قال بعضُ الشعراءِ[1] :

[١/٢٣ظ] إنّ الذى سَمَكَ السّماءَ بَنَى لنا[2] بَيْتًا دَعائِمُهُ أشدُّ وأطْولُ

واسمُ البيتِ الذى فى السماءِ الدُّنيا « بيتُ العِزَّةِ » ، واسمُ المَلَكِ الذى هو مُقَدَّمُ الملائكةِ فيها « إسماعيلُ » ، فعلى هذا يكونُ السبعونَ ألفًا مِن الملائكةِ الذين يدخُلونَ فى كلِّ يومٍ إلى البيتِ المعمورِ ثم لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم ، أى لا تَحْصُلُ لهم نَوْبةٌ فيه إلى آخرِ الدهرِ ، يكونون مِن سكانِ السماءِ السابعةِ وحدَها ، ولهذا قال تعالى[3] : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ ، حدثنا إسرائيلُ ، عن إبراهيمَ ابنِ مهاجرٍ ، عن مُجاهدٍ ، عن مُوَرِّقٍ ، عن أبى ذرٍّ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنِّى أَرَى ما لا تَرَوْنَ ، وأَسْمَعُ ما لا تَسْمَعُون ، أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أصابعَ إلَّا عليه مَلَكٌ ساجدٌ ، لو عَلِمْتُم ما أَعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قليلًا ولَبَكَيْتُمْ كثيرًا ، ولَمَا تَلَذَّذْتُم بالنساءِ على الفُرُشاتِ ، ولخَرَجْتُم إلى الصُّعُداتِ تَجْأَرُونَ إلى اللهِ عَزَّ وجلَّ » . فقال أبو ذرٍّ : واللهِ لَوَدِدتُ أنِّى شجرةٌ تُعْضَد . رواه الترمِذِىُّ وابنُ ماجَه مِن حديثِ إسرائيلَ[5] .
وقال الترمذىُّ : حسنٌ غريبٌ ، ويُروَى عن أبى ذرٍّ موقوفًا[6] .

---

(١) هو الفرزدق ، ديوانه ٧١٤ .
(٢) فى م : « لها » . وفى ا : « بها » .
(٣) التفسير ٢٩٥/٨ .
(٤) المسند ١٧٣/٥ .
(٥) الترمذى (٢٣١٢) ، ابن ماجه (٤١٩٠) وهو حديث حسن (ضعيف ابن ماجه ٩١٧) . وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٢٢) .
(٦) رواه الحاكم فى المستدرك ٥٧٩/٤ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وتعقبه =

وقال الحافظُ أبو القاسمِ الطبَرانىُّ [١] : حدثنا حسينُ بنُ عرفةَ المِصرىُّ ، حدثنا عُرْوةُ بنُ مروانَ [٢] الرَّقىُّ [٣] ، حدثنا عُبَيدُ آللهِ بنُ عمرٍو ، عن عبدِ الكَرِيمِ بنِ مالكٍ ، عن عطاءِ بنِ أبى رَباحٍ ، عن جابرِ بنِ عبدِ آللهِ قال : قال رسولُ آللهِ ﷺ : « ما فى السمَـٰواتِ السَبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ ولا شِبْرٍ ولا كَفٍّ إلا وفيه مَلَكٌ قائِمٌ ، أو مَلَكٌ ساجدٌ ، أو مَلَكٌ راكِعٌ ، فإذا كان يومُ القيامَةِ ، قَالُوا جَمِيعًا : ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ إلَّا أنَّا لم نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا » . فدلَّ هذان الحديثان على أنّه ما مِن موضعٍ فى السموات السبعِ إلَّا وهو مشغولٌ بالملائكةِ . وهم فى صُنُوفٍ مِن العبادةِ ؛ منهم مَن هو قائِمٌ أبدًا ، ومنهم مَنْ هو راكِعٌ أبدًا ، ومنهم مَنْ هو ساجِدٌ أبدًا ، ومنهم مَن هو فى صُنوفٍ أُخَرَ اللهُ أعلمُ بها ، وهم دائمون فى عبادتِهم وتسبيحِهم وأذكارِهم وأعمالِهم التى أمرهمُ اللهُ بها ، ولهم [٤] منازلُ عندَ ربِّهم ، كما قال تعالى [٥] : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٤ - ١٦٦] . وقال ﷺ : « ألا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها » . قالوا : وكيفَ يَصُفُّونَ ؟ قال : « [٦] يُتِمُّونَ الصُّفوفَ [٦] الأُوَلَ ، ويتراصُّونَ فى

= الذهبى بقوله : منقطع (أى بين مجاهد وأبى ذر) ثم يونس رافضى لم يخرجا له .

قلت : لكن توبع يونس ووُصل الحديث عند ابن أبى شيبة ٣٤١/١٣ ، وأبى نعيم فى الحلية ١٦٤/١ فالسند صحيح . انظر العظمة (٥٠٩) .

(١) الطبرانى فى الكبير (١٧٥١) . ذكره الهيثمى فى المجمع ٥١/١ ، ٥٢ وقال : فيه عروة بن مروان .

(٢) فى م ، ص : « عمران » .

(٣) والرَّقى نسبة إلى سُكْناه الرقة لمدة ، ويقال العِرْقى - وعرقة قرية من عمل طرابلس الشام ، قال الدارقطنى : كان أميا ليس بقوى فى الحديث . ميزان الاعتدال ٦٤/٣ .

(٤) فى ح ، ص : « هم » .

(٥) التفسير ٣٨/٧ .

(٦ - ٦) فى الأصل ، م ، ح : « يكملون الصف » .

الصَّفِّ »[1] . وقال : « فُضِّلْنَا على الناسِ بِثَلَاثٍ ؛ جُعِلَتْ لَنا الأرضُ مَسْجِدًا وتُرْبَتُها لَنا طَهُورًا ، وجُعِلَتْ صُفُوفُنا كَصُفُوفِ [١/٢٤و] المَلَائِكَةِ »[2] .

[3]وكذلك يأتون يومَ القيامةِ بينَ يَدَيِ الربِّ جلَّ جلالُه صفوفًا[4][3] ؛ كما قال تعالى[5] : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] . ويقفون صفوفًا بين يدى ربِّهم عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ ؛ كما قال تعالى[6] : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] . والمرادُ بالروحِ هٰهنا بنو آدَمَ . قاله ابنُ عباسٍ والحسنُ وقَتادةُ . وقِيل : ضَرْبٌ مِن الملائكةِ يُشْبِهونَ بنى آدمَ فى الشكلِ . قاله ابنُ عباسٍ ومُجاهدٌ وأبو صالحٍ والأَعْمشُ . وقِيل : جبريلُ . قاله الشَّعْبىُّ وسعيدُ بنُ جُبيرٍ والضَّحَّاكُ . وقِيل : مَلَكٌ يُقال له : الروحُ ، بقَدْرِ جميعِ المخلوقاتِ . قال علىُّ ابنُ أبى طَلْحةَ ، عن ابنِ عباسٍ : قولُه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾ قال : هو مَلَكٌ مِن أعظمِ الملائكةِ خَلْقًا . وقال ابنُ جريرٍ[7] : حدثنى محمدُ بنُ خلفٍ العَسْقَلانىُّ ، حدثنا روّادُ[8] بنُ الجراحِ ، عن أبى حمزةَ ، عن الشَّعْبىِّ ، عن عَلْقَمَةَ ، عن ابنِ مسعودٍ ، قال : الرُّوحُ فى السماءِ الرابعةِ هو أعظمُ مِنَ[9] السمٰواتِ والجبالِ ومِن الملائكةِ ، يسبِّحُ كلَّ يومٍ اثْنَى عشرَ ألفَ تسبيحةٍ ،

---

(١) مسلم (٤٣٠) .

(٢) مسلم (٥٢٢) .

(٣ - ٣) سقط من : ص .

(٤) سقط من : ح .

(٥) التفسير ٤٢١/٨ .

(٦) التفسير ٣٣٣/٨ .

(٧) تفسير الطبرى ٢٢/٣٠ .

(٨) فى م ، ص : « داود » .

(٩) سقط من : م ، ص .

يَخْلُقُ اللهُ مِن كلِّ تسبيحةٍ مَلَكًا مِن الملائكةِ يجىءُ[1] يومَ القيامةِ صفًّا وحدَه . وهذا غريبٌ جدًّا .

وقال الطبرانىُّ[2] : حدثنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُرسٍ[3] المصرىُّ ، حدثنا [4]وهبُ اللهِ بنُ رزقٍ[4] أبو هريرةَ[5] ، حدثنا بشرُ بنُ بكرٍ ، حدثنا الأَوْزاعىُّ ، حدثنى عطاءٌ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ ، قال : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « إنَّ للهِ مَلَكًا لو قِيل له : الْتَقِمِ السمٰواتِ والأَرَضِينَ بِلَقْمَةٍ واحدةٍ . لَفَعل ، تَسْبِيحُهُ : سُبْحانَكَ حَيْثُ كُنْتَ » . وهذا أيضًا حديثٌ غريبٌ جدًّا ، وقد يكونُ موقوفًا . وذكرنا فى صفةِ حَمَلةِ العرشِ ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أُذِنَ لى أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِن مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ ، إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبعِمائةِ عامٍ »[6] . رواه أبو داودَ ، وابنُ أبى حاتمٍ ، ولفظُه : « مَخْفِقُ الطيرِ سَبْعِمائةِ عامٍ » .

وقد ورد فى صفةِ جبريلَ عليه السلامُ أمرٌ عظيمٌ ، قال اللهُ تعالى[7] : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٥] . قالوا : كان مِن شدةِ قوتِه أنه رفع مَدائنَ قومِ لوطٍ ، وكُنَّ سَبْعًا ، بمن فيها مِن الأممِ ، وكانوا قريبًا مِن أربَعمائةِ

---

(١) فى م ، ص : « يحيى » .
(٢) المعجم الكبير (١١٤٧٦) . وقال الهيثمى : تفرد به وهب بن رزق ولم أر من ذكر له ترجمة . المجمع ٨٠/١ .
(٣) فى م : « عبد الحكيم » .
(٤ - ٤) فى م : « ابن وهب بن رزق » . وفى ا : « وهب الله بن رزق الله » .
(٥) كذا فى : ا ، والمعجم الكبير . وفى هامش ا وبقية النسخ : « أبو هبيرة » . وانظر جامع المسانيد ١٩٢/٣١ .
(٦) تقدم فى صفحة ٢٢ .
(٧) التفسير ٤١٩/٧ .

ألفٍ ، وما معهم مِن الدوابِّ والحيواناتِ ، وما لتلك المَدائنِ مِن الأراضى والمُعْتَمَلاتِ والعماراتِ وغيرِ ذلك ، رفع ذلك كلَّه على طَرَفِ جناحِه حتى بلغ بهنَّ عَنانَ السماءِ ، حتى سَمِعَتِ الملائكةُ نُباحَ كلابِهم[1] ، وصياحَ دِيَكَتِهم ، ثم قَلَبَها ، فجعل عالِيَها سافِلَها[2] . فهذا هو شديدُ القُوَى .

وقولُه : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أىْ ؛ ذو خَلْقٍ حَسَنٍ وبهاءٍ وسناءٍ ، كما قال فى الآيةِ الأخرى[3] : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٩] . أى ؛ جبريلُ رسولٌ مِن اللهِ ﴿ كَرِيمٍ ﴾ أى : حَسَنُ [٢٤/١ظ] المنظرِ ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ أى ؛ له قوةٌ وبأسٌ شديدٌ ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أى ؛ له مكانةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ رفيعةٌ عندَ اللهِ ذى العرشِ المجيدِ ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أى ؛ مُطاعٍ فى الملأِ الأعلَى ﴿ أَمِينٍ ﴾ أى ؛ ذو أمانةٍ عظيمةٍ ، ولهذا كان هو السفيرَ بينَ اللهِ وبينَ أنبيائِه عليهمُ السلامُ ، الذى ينزِلُ عليهم بالوحىِ ؛ فيه الأخبارُ الصادقةُ والشرائعُ العادلةُ . وقد كان يأتى إلى رسولِ اللهِ ﷺ وينزِلُ عليه فى صفاتٍ متعدِّدةٍ كما قدَّمْنا . وقد رآه على صِفَتِه التى خلَقَه اللهُ عليها مرتين ، له سِتُّمائةِ جناحٍ ، كما روى البخارىُّ[4] ، عن طلْقِ بنِ غَنَّامٍ ، عن زائدةَ ، عن[5] الشَّيْبانىِّ ، قال : سألتُ زِرًّا عن قولِه : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم ٩ ، ١٠] . قال : حدثنا عبدُ اللهِ ، يعنى ابنَ مسعودٍ ، أنَّ محمدًا ﷺ رأى جبريلَ له سِتُّمائةِ جَناحٍ .

---

(١) فى م : « الكلاب » .

(٢) انظر التفسير ٢٧١/٤ ، ٢٧٢ .

(٣) التفسير ٣٦١/٨ .

(٤) البخارى (٤٨٥٧) .

(٥) سقط من : م ، ص .

وقال الإمامُ أحمدُ[1] حدثنا يحيى بنُ آدَمَ ، حدثنا شَرِيكٌ ، عن جامعِ ابنِ أبِى راشدٍ[2] ، عن أبى وائلٍ ، عن عبدِ اللهِ ، قال : رأى رسولُ اللهِ ﷺ جبريلَ فى صورتِه ، وله سِتُّمائةِ جَناحٍ ، كُلُّ جَناحٍ منها قد سدَّ الأفقَ ، يسقطُ من جناحِه من التهاويلِ[3] مِن الدُّرِّ والياقوتِ ما اللهُ به عليمٌ . وقال أحمدُ[4] أيضًا : حدثنا حسنُ بنُ موسى ، حدثنا حمادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن عاصمِ ابنِ بَهْدَلَةَ ، عن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ ، عن ابنِ مسعودٍ فى هذه الآيةِ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ ، ١٤] . قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « رأيتُ جبريلَ وله سِتُّمائةِ جَنَاحٍ ، يَنْتَثِرُ[5] مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ ؛ الدرُّ واليَاقُوتُ » . وقال أحمدُ[6] : حدثنا زيدُ بنُ الحُبابِ ، حدثنا حسينٌ ، حدثنى عاصمُ بنُ بَهْدَلَةَ ، سَمِعتُ شقيقَ بنَ سَلَمَةَ يقولُ : سَمِعتُ ابنَ مسعودٍ يقولُ : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « رأيتُ جِبْرِيلَ على سِدْرَةِ المُنتهى وله سِتُّمائةِ جَنَاحٍ » . فسألتُ عاصِمًا عن الأجنِحَةِ ، فأبى أَنْ يُخبِرَنى ، قال : فأخبَرَنى بعضُ أصحابِهِ أَنَّ الجناحَ ما بينَ المشرقِ والمغربِ . وهذه أسانيدُ جيدةٌ قويةٌ ، انفرد بها أحمدُ .

وقال أحمدُ[6] : حدثنا زيدُ بنُ الحُبابِ ، حدثنى حسينٌ ، حدثنى

---

(١) لم نهتد إليه بهذا الإسناد ، وذكره ابن حجر فى المسند المعتلى ١٥٨/٤ ، وقال محققه : لم أجده . وكذا ذكره المصنف فى جامع المسانيد ١٤٤/٢٧ بهذا الإسناد . وقد أخرجه الإمام أحمد من طريق حجاج ثنا شريك عن عاصم عن أبى وائل به فى المسند ٣٩٥/١ ، وهو سند صحيح .

(٢ - ٢) فى م ، ص : « بن راشد » . انظر ترجمته فى تهذيب الكمال ٤٨٥/٤ .

(٣) التهاويل : الأشياء المختلفة الألوان .

(٤) المسند ٤٦٠/١ . وإسناده صحيح .

(٥) فى م : « ينتشر » . وهو لفظ أبى الشيخ فى العظمة (٥٠٣) .

(٦) المسند ٤٠٧/١ . وإسناده صحيح .

حُصَيْنٌ ، حدثنى شقيقٌ ، سمعتُ ابنَ مسعودٍ قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أتانى جبريلُ فى خَضْرٍ تَعَلَّقَ به الدُّرُّ » . إسنادُهُ صحيحٌ . وقال ابنُ جريرٍ[1] : حدثنا ابنُ بزيع البغدادىُّ ، قال : حدثنا إسحاقُ بنُ منصورٍ ، قال : حدثنا إسرائيلُ ، عن أبى إسحاقَ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ يزيدَ ، عن عبدِ اللهِ فى قولِه : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] . قال : رأى رسولُ اللهِ ﷺ جبريلَ عليه [١/٢٥و] حُلَّتا رَفْرَفٍ ، قد مَلأَ ما بينَ السماءِ والأرضِ . إسنادٌ جيدٌ قوىٌّ . وفى « الصحيحين »[2] من حديثِ عامرٍ الشَّعْبىِّ ، عن مسروقٍ ، قال : كنتُ عندَ عائشةَ ، فقلتُ : أليسَ اللهُ يقولُ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير : ٢٣] . ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣] . فقالتْ : أنا أولُ هذه الأمةِ سأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ عنها ، فقال : « إِنَّما ذاكَ جبريلُ » . لم يرَه فى صورتِهِ التى خُلق عليها إلا مرَّتينِ ؛ رآه مُنْهَبِطًا مِن السماءِ إلى الأرضِ ، سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بينَ السماءِ والأرضِ .

وقال البخارىُّ[3] : حدثنا أبو نُعَيْمٍ ، حدثنا عمرُ بنُ ذَرٍّ (ح) ، وحدثنى يحيى بنُ جعفرٍ ، حدثنا وَكيعٌ ، عن عمرَ بنِ ذَرٍّ ، عن أبيه ، عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ لجبريلَ : « أَلَا تَزُورُنا أَكْثَرَ مما تَزُورُنا » . فنَزَلت[4] : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ [مريم : ٦٤] الآيَةُ . وروى البخارىُّ[5] مِن حديثِ الزهرىِّ ، عن عبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : كان رسولُ اللهِ ﷺ أجودَ الناسِ

---

(١) تفسير الطبرى ٤٩/٢٧ . والترمذى (٣٢٨٣) ، والإمام أحمد فى المسند ٣٩٤/١ ، ٤١٨ . (صحيح) .

(٢) البخارى (٤٨٥٥) ، مسلم (١٧٧) . واللفظ لمسلم .

(٣) البخارى (٣٢١٨) .

(٤) التفسير ٢٤٣/٥ .

(٥) البخارى (٦ ، ٣٢٢٠ ، ٣٥٥٤) بدون لفظ « بالخير » ، و(١٩٠٢ ، ٤٩٩٧) بلفظ « بالخير » .

بالخيرِ[1] ، وكان أجودَ ما يكونُ فى رمضانَ حينَ يَلْقاه جبريلُ ، وكان يَلْقاه فى كلِّ ليلةٍ مِن رمضانَ فيدارسُه القرآنَ ، فلَرسولُ اللهِ ﷺ أجودُ بالخيرِ مِن الرِّيحِ المُرْسَلَةِ . وقال البخارىُّ[2] : حدثنا قُتَيْبةُ ، حدثنا اللَّيْثُ ، عن ابنِ شهابٍ ، أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أخَّرَ العصرَ شيئًا ، فقال له عروةُ : أَمَا إنَّ جبريلَ قد نزَل فصلَّى أمامَ رسولِ اللهِ ﷺ . فقال عمرُ : أعلمْ ما تقولُ يا عروةُ . قال : سمعتُ بَشِيرَ بنَ أبى مسعودٍ يقولُ : (3)سمعتُ أبا مسعودٍ يقولُ(3) : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « نزَل جبريلُ فأَمَّنى فصلَّيْتُ معه ، ثم صَلَّيْتُ معه ، ثم صلَّيتُ معه ، ثم صلَّيْتُ معه ، ثم صلَّيْتُ معه » . يَحْسِبُ بأصابِعِهِ خَمْسَ صَلَواتٍ .

ومِن صفةِ إسرافيلَ عليه السلامُ ، وهو أحدُ حَمَلَةِ العرشِ ، وهو الذى ينفخُ فى الصُّورِ بأمرِ ربِّه نَفَخاتٍ ثلاثًا ؛ أُولاهنَّ نفخةُ الفزعِ ، والثانيةُ نفخةُ الصَّعْقِ ، والثالثةُ نفخةُ البَعْثِ ، كما سيأتى بيانُه فى مَوْضِعِه من كتابِنا هذا بحولِ اللهِ وقوتِه وحُسنِ توفيقِه . والصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه ، كلُّ دارةٍ منه كما بينَ السماءِ والأرضِ ، وفيه موضِعُ أرواحِ العبادِ حينَ يأمرُه اللهُ بالنفخِ للبعثِ ، فإذا نفخَ ، تخرجُ الأرواحُ تتوهَّجُ ، فيقولُ الربُّ جلَّ جلالُه : وعزتى وجلالِى لترجِعَنَّ كلُّ رُوحٍ إلى البَدَنِ الذى كانت تَعْمُرُه فى الدنيا . فتدخلُ على الأجسادِ فى قبورِها ، فتدبُّ فيها كما يدبُّ [١/٢٥ظ] السمُّ فى اللديغِ ، فتَحْيَى الأجسادُ ، وتنشقُّ عنهم الأجداثُ ، فيَخْرُجون منها سِراعًا إلى مَقامِ المحشرِ ، كما سيأتى تفصيلُه فى مَوْضِعِه[4] . ولهذا قال رسولُ اللهِ ﷺ : « كيفَ أَنْعَمُ[5]

---

(1) زيادة من : ح .
(2) البخارى (٣٢٢١) .
(٣ - ٣) سقط من : ص .
(4) انظر التفسير ٢٢٦/٦ .
(5) فى ا : « أنتم » .

وصاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ ، وحَنَى جَبْهَته ، وانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ له ؟! » قالوا : كَيْفَ نَقُولُ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : « قولوا : حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكِيلُ ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا » . رواه أحمدُ والترمذيُّ مِن حديثِ عطيةَ العَوْفيِّ عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ[1] .

وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا أبو معاويةَ ، حدثنا الأَعْمَشُ ، عن سعدٍ الطائيِّ ، عن عطيةَ العَوْفِيِّ ، عن أبي سعيدٍ ، قال : ذكَر رسولُ اللهِ ﷺ صاحبَ الصُّورِ ، فقال : « عن يَمِينِه جِبْريلُ ، وعن يَسَارِه مِيكَائِيلُ ، عليهم السلامُ » . وقال الحافِظُ أبو القاسمِ الطبرانيُّ[3] : حدثنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ الحَضْرميُّ ، حدثنا محمدُ بنُ عمرَ[4] بنِ أبي ليلَى ، حدثني أبي ، (5عن ابن أبي ليلَى5) ، عن الحكمِ ، عن مِقْسمٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : بَيْنَا رسولُ اللهِ ﷺ ومعه جبريلُ بناحيةٍ ، إذ انشقَّ أُفُقُ السماءِ ، فأقبلَ إسرافيلُ يدنو مِن الأرضِ ويَتمايَلُ ، فإذا مَلَكٌ قد مَثَلَ بينَ يَدَيِ النَبيِّ ﷺ فقال : يا محمدُ ، إنَّ اللهَ يأْمُرُكَ أَنْ تختارَ بينَ نَبيٍّ عَبْدٍ أو مَلِكٍ نَبيٍّ ؟ قال : « فأَشَار جبريلُ[6] إلىَّ بيدِه أَنْ تَواضَعْ ، فَعَرَفْتُ أنه لِي ناصِحٌ ، فقلتُ : عَبْدٌ نَبيٌّ ، فَعَرَجَ ذلك المَلَكُ إلى السمَاءِ ، فَقُلْتُ : يا جبريلُ ، قد كنتُ أردتُ أَنْ أسأَلَكَ عَنْ هذا ،

---

(1) مسند أحمد 326/1 عن عطية عن ابن عباس . الترمذي (2431) عن عطية عن أبي سعيد ، وقال : حسن . وعطية بن سعد بن جنادة العوفي ضعيف . قال ابن حجر : صدوق يخطئ كثيرا ، كان شيعيا مدلسا . التهذيب 224/7 - 226 . والتقريب 24/2 . وصححه الألباني (صحيح الجامع 4468) .

(2) المسند 9/3 ، 10 .

(3) المعجم الكبير (12061) . وذكره الهيثمي في المجمع 19/9 وقال : فيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جماعة ولكنه سيئ الحفظ ، وبقية رجاله ثقات .

(4) في ح : « عمران » .

(5 - 5) في م : « عن أبي ليلى » .

(6) سقط من : ح .

فرأيتُ مِنْ حالِكَ ما شَغَلَنِى عَن المسألةِ ، فَمَنْ هذا يا جِبْريلُ ؟ فقال : هذا إسْرافيلُ عليه السلامُ ، خَلَقَه اللهُ يومَ خَلَقَهَ بينَ يَدَيه ، صَافًّا قَدَمَيْهِ ، لا يرفَعُ طَرْفَه ، بينَه وبينَ الربِّ سبْعونَ نُورًا ، ما مِنْها مِن نُورٍ يَكادُ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ ، بينَ يَدَيْه لَوْحٌ ، فإذا أَذِنَ اللهُ فى شئٍ مِنَ السمَاءِ أَوْ فى الأَرْضِ ، ارْتَفَع ذلكَ اللَّوْحُ فَضَرَبَ جَبْهَتَه ، فَيَنْظُرُ ، فإنْ كانَ مِنْ عَمَلِى ، أَمَرَنِى به ، وإنْ كانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ ، أَمَرَهُ به ، وإن كان مِنْ عَمَلِ مَلَكِ المَوْتِ ، أَمَرَه به . قلتُ : يا جبريلُ ، وعلى أىِّ شَئٍ أَنْتَ ؟ قالَ : على الريحِ والجُنُودِ . قلتُ : وعلى أىِّ شئٍ ميكائيلُ ؟ قالَ : على النباتِ والقَطْرِ . قلتُ : وعلى أىِّ شَئٍ مَلَكُ المَوْتِ ؟ قال : على قَبْضِ الأنْفسِ ، وما ظَنَنْتُ أَنَّه نَزَل إلا لِقِيَامِ الساعَةِ ، وما الذى رأيتَ مِنِّى إِلَّا خَوْفًا مِن قِيَامِ الساعَةِ » . هذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ .

وفى « صحيحِ مسلمٍ »[1] ، عن عائشةَ ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا قام مِن الليلِ يُصَلِّى يقولُ : « اللهمَّ ربَّ جِبْريلَ وميكائِيلَ وإسْرافيلَ ، فاطِرَ السمٰواتِ والأَرضِ ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، أنتَ تَحْكُمُ بينَ عِبادِكَ فيما كانوا فيه يَخْتَلِفُون ، اهدِنى لِمَا اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحقِّ بِإِذْنِك ، إنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وفى حديثِ الصُّورِ[2] أَنَّ إسرافيلَ أولُ مَن يبعثُه اللهُ بعدَ الصَّعْقِ[3] لينفخَ فى الصُّورِ . وذكَر محمدُ بنُ [٢٦/١و] الحسنِ النَّقَّاشُ أَنَّ إسرافيلَ أولُ مَن سجَد مِن الملائكةِ ، فَجُوزِىَ بولايةِ اللوحِ المحفوظِ . حكاه أبو القاسمِ السُّهَيلِىُّ

---

(١) مسلم (٧٧٠) .

(٢) رواه الطبرانى فى الأحاديث الطوال (٣٦) وإسناده ضعيف ، ويأتى فى صفحة ١٠٨ .

(٣) فى ح : « الصعقتين » .

فى كتابه[1] « التعريفُ والإعلامُ بما أُبْهِم فى القرآنِ مِن الأَعلامِ » . وقال تعالى[2] : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ ﴾ [البقرة : ٩٨] . عَطَفهما على الملائكةِ ؛ لشرفِهما ، فجبريلُ مَلَكٌ عظيمٌ قد تقدَّم ذكرُه ، وأمَّا ميكائيلُ فمُوَكَّلٌ بالقَطْرِ والنباتِ ، وهو ذو مكانةٍ مِن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ ، ومِن أشرافِ[3] الملائكةِ المقرَّبين .

وقد قال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا أبو اليمانِ ، حدثنا ابنُ عيَّاشٍ[5] ، عن عمارةَ بنِ غَزِيَّةَ[6] الأنصاريِّ ، أنَّه سَمِع حُمَيْدَ بنَ عُبَيْدٍ مولى بنِى المُعَلَّى ، يقولُ : سمعتُ ثابتًا البنانىَّ يحدِّثُ عن أنسِ بنِ مالكٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قال لجبريلَ : « ما لىَ لَمْ أرَ مِيكَائِيلَ ضاحِكًا قطُّ ؟ فَقَال : ما ضَحِكَ مِيكَائيلُ منذُ خُلِقَت النارُ » . فهؤلاء الملائكةُ المصرَّحُ بذكرِهم فى القرآنِ وفى الصِّحاحِ هم المذكورون فى الدعاءِ النبوىِّ : « اللهمَّ ربَّ جِبْريلَ وميكائيلَ وإسْرَافيلَ »[7] . فجبريلُ ينزلُ بالهُدَى على الرسلِ لتبليغِ الأممِ ، وميكائيلُ موكَّلٌ بالقَطْرِ والنباتِ اللذَيْن يُخْلَقُ منهما الأرزاقُ فى هذه الدارِ ، [8]وله أعوانٌ يفعلون ما يأْمُرُهم به بأمرِ ربِّه ، يُصَرِّفون الرياحَ والسحابَ كما يشاءُ الربُّ جلَّ جلالُه . وقد رُوِّينا أنَّه ما مِن قطرةٍ تنزلُ مِن السماءِ إلَّا ومعها مَلَكٌ يقدِّرُها[9] فى موضِعِها مِن الأرضِ[8] . وإسرافيلُ موكَّلٌ بالنفخِ فى الصُّورِ للقيامِ مِن

---

(١) ص ٥٧ .
(٢) التفسير ١/١٩٠ .
(٣) فى ص : « أشرف » .
(٤) المسند ٣/٢٢٤ . وحسنه الساعاتى فى الفتح ٢٠/١٨ ، ١٩ .
(٥) فى الأصل ، م : « عباس » . وهو إسماعيل بن عياش بن سليم . تهذيب الكمال ٣/١٦٣ .
(٦) فى النسخ : « عمارة بن غزنة » . وهو عمارة بن غزية بن الحارث . تهذيب الكمال ٢١/٢٥٨ .
(٧) مسلم (٧٧٠) .
(٨ - ٨) سقط من : ح .
(٩) فى م ، ص : « يقررها » .

القبورِ ، والحضورِ يومَ البعثِ والنُّشورِ ؛ ليفوزَ الشَّكُورُ ، ويُجازَى الكَفُورُ ، فذاك ذَنْبُه مغفورٌ وسعيُه مشكورٌ ، وهذا قد صار عملُه كالهَباءِ المَنْثُورِ ، وهو يدعو بالويْلِ والثُّبورِ . فجبريلُ عليه السلامُ يَحْصُلُ بما ينزِلُ به الهُدَى ، وميكائيلُ يحصلُ بما هو موكَّلٌ به الرزقُ ، وإسرافيلُ يحصُلُ بما هو موكَّلٌ به النصرُ[1] والجزاءُ .

وأمَّا مَلَكُ الموتِ فليس بمصرَّحٍ باسمِه فى القرآنِ ، ولا فى الأحاديثِ الصِّحاحِ ، وقد جاء تسميتُه فى بعضِ الآثارِ بعزرائيلَ[2] ، واللهُ أعلمُ . وقد قال اللهُ تعالى[3] : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١] . وله أعوانٌ يستخرِجون رُوحَ العبدِ مِن جثتِه حتى تبلُغَ[4] الحُلقومَ ، فيتناولُها مَلَكُ الموتِ بيدِه ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها فى يدِه طَرْفَةَ عينٍ حتى يأخذُوها (°من يدِه°) ، فَيَلُفُّوها فى أكفانٍ تَليقُ بها ، كما قد بُسِطَ عندَ قولِه[6] : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ [٢٦/١ظ] بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . ثم يصعدُون بها ، فإنْ كانت صالحةً ، فُتِحتْ لها أبوابُ السماءِ ، وإلَّا غُلِّقَتْ دُونَها وأُلْقِيَ بها إلى الأرضِ . قال اللهُ تعالى[7] : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦١ ، ٦٢] .

---

(١) فى ا : « الحياة » .
(٢) انظر العظمة لأبى الشيخ (٤٤٥) .
(٣) التفسير ٣٦٢/٦ .
(٤) فى ا : « إذا بلغت » .
(٥ - ٥) فى م ، ص : « منه » .
(٦) التفسير ٤١٣/٤ .
(٧) التفسير ٢٦١/٣ .

وعن ابنِ عباسٍ ومُجاهدٍ وغيرِ واحدٍ أنَّهم قالوا : إنَّ الأرضَ بينَ يَدَىْ مَلَكِ الموتِ مثلُ الطَّسْتِ ، يتناولُ منها حيثُ يشاءُ[1] . وقد ذكَرْنا أنَّ ملائكةَ الموتِ يأتُون الإنسانَ على حَسَبِ عملِه ، إنْ كان مؤمنًا أتاه ملائكةٌ بِيضُ الوجوهِ بِيضُ الثيابِ ، طيِّبةُ الأرواحِ ، وإنْ كان كافرًا فبالضِّدِّ[2] مِن ذلك ، عِياذًا باللهِ العظيمِ مِن ذلك .

وقد قال ابنُ أبى حاتمٍ[3] : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بنُ أبى يحيى المقرِى ، حدثنا عَمْرُو بنُ شَمْرٍ ، قال : سَمِعْتُ جعفرَ بنَ محمدٍ قال : سمعتُ أبى يقولُ : نظر رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَلَكِ الموتِ عندَ رأسِ رجلٍ منَ الأنصارِ ، فقال له النبىُّ ﷺ : « يا مَلَكَ الموتِ ، ارفُقْ بصاحِبى ، فإنَّه مُؤمِنٌ . فقال مَلَكُ الموتِ : يا محمدُ ، طِبْ نَفْسًا وقَرَّ عَيْنًا ، فإنِّى بكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيقٌ ، واعْلَمْ أنَّ ما فى الأرضِ بيتُ مَدَرٍ ولا شَعَرٍ فى بَرٍّ ولا بَحْرٍ ، إلا وأنا أتَصَفَّحُهم[4] فى كلِّ يومٍ خَمْسَ مَرّاتٍ ، حتى إنِّى أعْرَفُ بصغيرِهم وكبيرِهم منهم[5] بأنْفُسِهم ، واللهِ يا محمدُ لو أنِّى أردتُ أنْ أقبِضَ رُوحَ بَعُوضَةٍ ما قَدَرْتُ على ذلك حتى يكونَ اللهُ هو الآمِرَ بِقَبْضِها » . قال جعفرُ بنُ محمدٍ و[6] هو جَعْفرٌ[7] الصادقُ : بلغنى أنه يَتَصَفَّحُهم[8] عندَ مَواقيتِ الصلاةِ ، فإذا حضَر عندَ الموتِ ، فإذا كان مِمَّنْ يحافِظُ على الصلاةِ دنا منه المَلَكُ ، ودفَع عنه

---

(١) تفسير الطبرى ٢١/٩٧ ، ٩٨ ، ٩/٢١٧ . والعظمة (٤٣٥) عن مجاهد .

(٢) فى ا : « أتوه على خلاف » .

(٣) ذكره السيوطى فى الدر ٥/١٧٤ وعزاه إلى ابن أبى حاتم ، وأخرجه أبو الشيخ فى العظمة (٤٧٥) . وإسناده ضعيف جدا .

(٤) فى م ، ص : « أتفحصهم » .

(٥) سقط من : م .

(٦) سقط من : ح . وفى م ، ص : « أبى » .

(٧) زيادة من : ا .

(٨) فى م ، ص : « يتفحصهم » .

الشيطانَ ولقَّنه المَلَكُ : لا إلَهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ . فى تلكَ الحالِ العظيمةِ .

هذا حديثٌ مُرْسَلٌ ، وفيه نظَرٌ . وذكرنا فى حديثِ الصُّورِ مِن طريقِ إسمٰعيلَ بنِ رافعٍ المدنىِّ القاصِّ ، عن محمدِ بنِ زيادٍ ، عن محمدِ بنِ كعبٍ القُرَظِىِّ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ الحديثَ بطُولِه . وفيه : « ويأمرُ اللهُ إسرافيلَ بنفخةِ الصَّعْقِ ، فينفُخُ نفخَةَ الصعقِ ، فَيُصْعَقُ أهلُ السمٰواتِ وأهلُ الأرضِ ، إلا مَنْ شاءَ اللهُ ، فإذا هم قد خَمَدوا ، جاءَ[1] مَلَكُ الموتِ إلى الجَبّارِ عزَّ وجلَّ ، فيقولُ : يا ربِّ قد ماتَ أهلُ السمٰواتِ والأرضِ إلا مَنْ شِئْتَ . فيقولُ اللهُ ، وهو أعلمُ بِمَنْ بَقِىَ : فَمَنْ بَقِىَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ[2] بَقِيتَ أنتَ الحىُّ الذى لا يموتُ ، وبَقِيَتْ حَمَلَةُ [١/٢٧و] عَرْشِك ، وبَقِىَ جِبريلُ ومِيكَائيلُ . فيقولُ : لِيَمُتْ جبريلُ وميكائيلُ . فَيُنْطِقُ اللهُ العرشَ فيقولُ : يا ربِّ يموتُ جبريلُ وميكائيلُ ؟ فيقولُ : اسكُتْ فإنِّى كَتَبْتُ الموتَ على كلِّ مَنْ كان تحتَ عَرْشِى . فيموتان ، ثم يأتى مَلَكُ الموتِ إلى الجَبّارِ عَزَّ وَجَلَّ ، فيقولُ : يا ربِّ قد ماتَ جبريلُ وميكائيلُ . فيقولُ اللهُ ، وهو أعلمُ بِمَنْ بَقِىَ : فَمَنْ بَقِىَ ؟ فيقولُ : بَقِيتَ أنتَ الحىُّ الذى لا يموتُ ، وبَقِيَتْ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، وبَقِيتُ أنا . فيقولُ اللهُ : لِتَمُتْ حَمَلَةُ عَرْشِى . فيموتون[3] ، ويأمرُ اللهُ العرشَ فيقبِضُ الصُّورَ مِنَ إسرافيلَ ، ثم يأتى مَلَكُ الموتِ فيقولُ : يا ربِّ قد مات حَمَلَةُ عَرْشِك . فيقولُ اللهُ ، وهو أعلمُ بِمَنْ بَقِىَ : فمن بَقِىَ ؟ فيقولُ : بَقِيتَ أنتَ الحىُّ الذى لا يموتُ ، وبَقِيتُ أنا . فيقولُ اللهُ : أنت خَلْقٌ مِن خَلْقِى ، خلقتُكَ لِمَا رأيْتَ[4] فَمُتْ . فيَمُوتَ ، فإذا لم يبْقَ إلا اللهُ الواحدُ القهّارُ الأحدُ الصمدُ الذى لم يلدْ ولم يولَدْ ولم يكنْ له كُفُوًا أحدٌ ، كان آخِرًا كما كان أولًا » .

---

(١) فى ا : « فيجىء » .

(٢) زيادة من : ح .

(٣) فى ح ، م ، ص : « فتموت » .

(٤) فى النسخ : « أردت » . والمثبت من هامش (ح) ومصادر التخريج .

وذكر تمامَ الحديثِ بطولِه . رواه الطبرانىُّ وابنُ جريرٍ والبيهقىُّ[1] ، ورواه الحافِظُ أبو موسى المدينىُّ فى كتابِ « الطِّوالاتِ » ، وعندَه زيادةٌ غريبةٌ وهى قولُه : « فيقولُ اللهُ له : أنتَ خَلْقٌ مِن خَلْقى ، خلقتُكَ لِمَا أردْتُ ، فَمُتْ مَوْتًا لا تَحْيَى بعدَه أبدًا » .

ومن الملائكةِ المنصوصِ على أسمائِهم فى القرآنِ هارُوتُ ومارُوتُ ، فى قولِ جماعةٍ كثيرةٍ مِن السلفِ . وقد ورد فى قصتِهما وما كان مِن أمرِهما آثارٌ كثيرةٌ غالِبُها إسرائيلياتٌ . ورَوَى الإمامُ أحمدُ[2] حديثًا مرفوعًا عن ابنِ عمرَ وصحَّحه ابنُ حبانَ فى « تقاسيمِه » ، وفى صحتِه عِندِى نظرٌ ، والأشْبهُ أنه موقوفٌ على عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ[3] ويكونُ مما تلقَّاه عن كعبِ الأحبارِ ، كما سيأتى بيانُه واللهُ أعلمُ . وفيه : أنَّه تمثَّلتْ لهما الزُّهْرةُ امرأةً مِن أحسنِ البشرِ . وعن علىٍّ[4] ، وابنِ عباسٍ ، وابنِ عمَرَ أيضًا ، أنَّ الزُّهْرةَ كانت امرأةً ، وأنهما لَمّا طلبا منها ما ذُكِر ، أبَتْ إلَّا أَنْ يُعلِّماها الاسمَ الأعظمَ ، فعلَّماها ، فقالَتْه ، فارتفعتْ إلى السماءِ ، فصارتْ كوكبًا . وروى الحاكمُ فى « مُسْتَدْرَكِه »[5] ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : وفى ذلك الزمانِ امرأةٌ حُسنُها فى النساءِ كحُسْنِ الزُّهْرةِ فى سائرِ الكواكبِ . وهذا اللفظُ أحسنُ ما وردَ فى

---

(1) الطبرانى فى الأحاديث الطوال (٣٦) . وابن جرير فى تفسيره ٣٣٠/٢ ، ٣٣١ ، ٦١/٢٤ ، ١٨٦/٣٠ - ١٨٨ . والبيهقى فى البعث والنشور (٦٦٨ ، ٦٦٩) . وتقدم فى صفحة ١٠٤ .

(2) مسند أحمد ١٣٤/٢ ، الإحسان (٦١٨٦) . (ضعيف) .

(3) فى ا : « عمرو » .

(4) تفسير الطبرى ٤٥٦/١ .

(5) مستدرك الحاكم ٤٤٢/٢ .

شأنِ الزُّهْرةِ . ثم قيل : كان أمرُهما وقِصتُهما فى زمانِ إدريسَ . وقيل : فى زمانِ سُليمانَ بنِ داودَ . كما حرَّرنا ذلك فى « التفسيرِ »[1] .

وبالجملةِ فهو خبرٌ إسرائيلىٌّ [٢٧/١ظ] مَرْجِعُه إلى كعبِ الأحبارِ ، كما رواه عبدُ الرزاقِ فى « تفسيرِه »[2] ، عن الثورىِّ ، عن موسى بنِ عقبةَ ، عن سالمٍ ، عن ابنِ عمرَ ، عن كعبِ الأحبارِ بالقصةِ . وهذا أصحُّ إسنادًا وأثبتُ رجالًا ، واللهُ أعلمُ . ثم قد قيل : إن المرادَ بقولِه : ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] . قبيلانِ مِن الجانِّ . قاله ابنُ حزمٍ[3] ، وهذا غريبٌ وبعيدٌ مِن اللفظِ . ومِن الناسِ مَن قرأ : « وما أُنزِلَ على المَلِكَيْنِ » . بالكسرِ ، ويجعلُهما عِلْجَيْن مِن أهلِ فارسَ . قاله الضحّاكُ[4] . ومِن الناسِ مَن يقولُ : هما مَلَكان مِن السماءِ ، ولكن سبَق فى قَدَرِ اللهِ لهما ما ذكَره مِن أمرِهما ، إنْ صحّ به الخبرُ ، ويكونُ حكمُهما كحكمِ إبليسَ ، إنْ قِيل : إنه مِن الملائكةِ . لكنَّ الصحيحَ أنَّه مِن الجنِّ ، كما سيأتى تقريرُه .

ومِن الملائكةِ المُسَمَّين فى الحديثِ مُنْكَرٌ ونَكِيرٌ ، عليهما السلامُ . وقد استفاض فى الأحاديثِ ذكرُهما فى سؤالِ القبرِ . وقد أوردناها عند قولِه تعالى[5] : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . وهما فتّانا القبرِ ، موكلان بسؤالِ الميِّتِ فى قبرِه عن ربِّه ، ودينِه ، ونبيِّه ، ويمتحنان البَرَّ والفاجرَ ، وهما أزرَقان أفْرقانِ ، لهما أنيابٌ وأشكالٌ مزعجةٌ وأصواتٌ مفزعةٌ ، أجارنا اللهُ مِن عذابِ القبرِ ، وثبتَنا بالقولِ الثابتِ ، آمينَ .

---

(١) التفسير ١٩٨ - ٢٠٠ .
(٢) تفسير عبد الرزاق ٥٣/١ ، ٥٤ .
(٣) انظر الفصل ٢٦١/٣ .
(٤) تفسير الطبرى ٤٥٩/١ . والمحتسب ، لابن جنى ١٠٠/١ .
(٥) التفسير ٤١٣/٤ .

(١)وقال البخارى(٢) : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ ، حدثنا ابنُ وهبٍ ، حدثنى يونسُ ، عن ابنِ شهابٍ ، حدثنى عُرْوةُ ، أنَّ عائشةَ زوجَ النبىِّ ﷺ حدثته أنَّها قالت للنبىِّ ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِن يومِ أُحُدٍ ؟ قال : « لقد لَقِيتُ مِن قَومِكِ ، وكان أشدُّ ما لقِيتُ منهم يومَ العَقَبَةِ ؛ إذْ عَرَضْتُ نفسى على ابنِ عبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ ، فلم يُجِبْنى إلى ما أردتُ ، فانطلقْتُ - وأنا مهمومٌ - على وجْهى ، فلم أسْتَفِقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثعالبِ ، فرَفَعْتُ رأسى ، فإذا أنا بِسحابةٍ قد أظلَّتْنِى ، فنظرتُ ، فإذا فيها جبريلُ ، فنادانى ، فقال : إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قولَ قومِك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعَث لك مَلَكَ الجبالِ لِتَأْمُرَه بما شِئْتَ فيهم . فنادانى مَلَكُ الجبالِ ، فسلَّمَ عَلَيَّ ثم قال : يا محمدُ . فقال : ذلك فما(٣) شئتَ ؟ إنْ شئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهم الأخْشَبَين » . فقال النبىُّ ﷺ : « بل أرجو أنْ يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهم مَن يعبدُ اللهَ وحدَه لا يُشْرِكُ به شيئًا » . ورواه مسلمٌ(٤) من حديثِ ابنِ وهبٍ ، به(١) .

(١ - ١) سقط من : ح .

(٢) البخارى (٣٢٣١) .

(٣) فى البخارى : « فيما » .

(٤) مسلم (١٧٩٥) .

فصلٌ

ثم الملائكةُ عليهمُ السلامُ بالنسبةِ إلى ما هيأهمُ اللهُ له أقسامٌ ؛ [١/٢٨و] فمنهم حملةُ العرشِ كما تقدم ذكرُهم ، ومنهم الكَرُوبيُّون الذين هم حولَ العرشِ ، وهم أشْرفُ الملائكةِ مع حملةِ العرشِ ، وهمُ الملائكةُ المقرَّبون ؛ كما قال تعالى[1] : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء : ١٧٢] . ومنهم جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ ، وقد ذكر اللهُ عنهم أنَّهم يستغفرون للمؤمنينَ بظهرِ الغيبِ ، كما قال تعالى[2] : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٧ - ٩] . ولمَّا كانت سَجاياهم هذه السجيةَ الطاهرةَ ، كانوا يحبُّون مَن اتَّصفَ بهذه الصفةِ ويَدْعُون[3] ، كما ثبَت فى الحديثِ ، عن الصادقِ المصدوقِ ، أنَّه قال : « إذا دعا العبدُ لأخيه بظهرِ الغيبِ ، قال المَلَكُ : آمينَ ولكَ بِمِثْلٍ »[4] .

ومنهم سكانُ السمٰواتِ السبعِ ، يعمُرُونها عبادةً دائبةً ليلًا ونهارًا ، صباحًا

(١) التفسير ٤٣٣/٢ .

(٢) التفسير ١٢٠/٧ .

(٣) زيادة من : ا .

(٤) مسلم (٢٧٣٢ ، ٢٧٣٣) .

ومساءً ، كما قال تعالى[1] : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] . فمنهم الراكِعُ دائمًا ، والقائمُ دائمًا ، والساجدُ دائمًا . ومنهم الذين يتعاقبون زُمْرةً بعدَ زُمْرةٍ إلى البيتِ المعمورِ ، كلَّ يومٍ سبعون ألفًا لا يعودون إليه ، آخرَ ما عليهم . ومنهم الموكَّلون بالجنانِ وإعدادِ الكرامةِ لأهلِها ، وتهيئةِ الضيافةِ لساكِنِيها ؛ من ملابسَ ، ومَصاغٍ ، ومساكنَ ، ومآكلَ ، ومشاربَ ، وغيرِ ذلك ، مما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سَمِعت ، ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ .

وخازنُ الجنةِ مَلَكٌ يقالُ له رِضْوانُ ، جاء مصرَّحًا به فى بعضِ الأحاديثِ[2] . ومنهم الموكَّلُون بالنارِ ، وهم الزبانِيةُ ، ومُقدَّموهم تسعةَ عشرَ ، وخازنُها مالِكٌ ، وهو مقدَّمٌ على جميعِ الخزنةِ . وهم المذكورون فى قولِه تعالى[3] : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٩] الآيةَ . وقال تعالى[4] : ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨] . وقال تعالى[5] : ﴿ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] . وقال تعالى[6] : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ

---

(١) التفسير ٢٢٨/٥ .

(٢) الدر المنثور ٦٣/٥ ، وعزاه للواحدى وابن عساكر عن ابن عباس .

(٣) التفسير ١٣٩/٧ .

(٤) التفسير ٢٢٧/٧ .

(٥) التفسير ١٩٤/٨ .

(٦) التفسير ٢٩١/٨ .

فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣٠ ، ٣١] .

ومنهم[1] الموكَّلون بحفظِ بنى آدمَ ، كما قال تعالى[2] : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد : ١٠ ، ١١] [١/٢٨ظ] الآيات . قال الوالبىُّ ، عن ابنِ عباسٍ ﴿ لَهُ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ : وهى الملائكةُ . وقال عِكْرِمةُ ، عن ابنِ عباسٍ ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ قال : ملائكةٌ يحفظونه مِن بينِ يديه ، ومن خلفِه ، فإذا جاء قدَرُ اللهِ ، خلَّوا عنه . وقال مجاهدٌ : ما مِن عبدٍ إلا ومَلَكٌ موكَّلٌ بحفظِه فى نومِه ويقظتِه مِن الجنِّ والإنسِ والهوامِّ ، (3فما مِن3) شىءٍ يأتيه يريدُه إلا قال : وراءَك . إلا شىءٌ يأذنُ اللهُ فيه فيصيبُه . وقال أبو أُمامةَ[4] : ما مِن آدمىٍّ إلا ومعه مَلَكٌ يذودُ عنه ، حتى يُسَلِّمَه للذى قُدِّرَ له . وقال أبو مِجْلزٍ[5] : جاء رجلٌ إلى علىٍّ فقال : إنَّ نفرًا مِن مُرادٍ يريدون قتلَك . فقال : إنَّ مع كلِّ رجلٍ مَلَكَين يحفظانِه مِمَّا لم يُقدَّرْ ، فإذا جاء القدرُ خلَّيا بينَه وبينَه ، إنَّ الأجلَ جُنَّةٌ حصينةٌ .

ومنهم الموكَّلون بحفظِ أعمالِ العبادِ ، كما قال تعالى[6] : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ

---

(١) فى م ، ص : « وهم » .

(٢) التفسير ٣٥٩/٤ - ٣٦٢ .

(٣ - ٣) فى م ، ص : « وليس » . وفى ابن جرير : « فما منهم » .

(٤) فى م ، ص : « أسامة » . وقد أورد المصنف هذا الأثر عن أبى أمامة فى التفسير ٣٦١/٤ . وهو فى تفسير الطبرى عنه كذلك ١١٩/١٣ .

(٥) تفسير الطبرى ١١٩/١٣ .

(٦) التفسير ٣٧٦/٧ .

وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ ، ١٨] . وقال تعالى[١] : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] . قال الحافظُ أبو محمدٍ عبدُ الرحمنِ بنُ أبى حاتمٍ الرازىُّ فى « تفسيرِه » : حدثنا أبى ، حدثنا علىُّ بنُ محمدٍ الطَّنافسِىُّ[٢] ، حدثنا وَكِيعٌ ، حدثنا سفيانُ ومِسْعَرٌ ، عن عَلْقمةَ بن مَرْثَدٍ[٣] ، عن مُجاهدٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أَكْرِمُوا الكِرامَ الكَاتِبِينَ ، الَّذِينَ لا يُفارِقُونَكُم إِلَّا عِنْدَ إِحْدَى حالَتَيْنِ ؛ الجَنابَةِ ، والغائطِ ، فإذا اغتسل أحدُكم فليستترْ بِجِذْمِ[٤] حائِطٍ أو ببعيرِه أو ليسترْه أخوه »[٥] . هذا مُرسَلٌ مِن هذا الوجهِ ، وقد وصلَه البَزَّارُ فى « مُسنَدِه »[٦] ، مِن طريقِ حَفْصِ[٧] بنِ سُليمانَ القارِئ[٨] - وفيه كلامٌ - عن عَلْقَمَةَ ، عن مجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رَسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ ينهاكم عن التعرِّى ، فاستحيُوا مِن [٩]ملائِكةِ اللهِ الذينَ معكم[٩] ، الكِرامِ الكاتبين ، الذين لا يفارقونكُم إلَّا عندَ إحدى ثلاثِ حالاتٍ ؛ الغائِطِ ، والجَنابةِ ، والغُسْلِ ، فإذا اغتسل أحدُكم بالعراءِ فليستترْ بِثوبه أو بِجِذْمِ حائطٍ أو ببَعيرِه . ومعنى إكرامِهم أن يستحىَ منهم ، فلا يُملِى عليهم الأعمالَ القبيحةَ التى يَكْتبونَها ؛ فإنَّ اللهَ خَلَقَهم كِرامًا

---

(١) التفسير ٣٦٥/٨ .

(٢) فى الأصل : « الطيالسى » . وانظر ترجمته فى تهذيب الكمال ١٢٠/٢١ .

(٣) فى الأصل ، ح ، م ، ص : « يزيد » . وهو علقمة بن مرثد الحضرمى ، ترجمته فى تهذيب الكمال ٣٠٨/٢٠ .

(٤) فى ا : « جدم » . وجذم الحائط : أصله أو بقيته . النهاية ٢٥٢/١ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣٦٥/٨ .

(٦) كشف الأستار (٣١٧) . وقال الهيثمى : جعفر بن سليمان من رجال الصحيح . المجمع ٢٦٨/١ . والذى فى كشف الأستار حفص بن سليمان كما أثبتناه . وانظر جامع المسانيد ٢٩٣/٣٢ .

(٧) فى م : « جعفر » .

(٨) سقط من : م ، ص .

(٩ - ٩) فى م : « الله والذين معكم » . وفى ص : « الله الذى معكم » .

فى خَلْقِهم وأخلاقِهم . ومِن كرمِهم أنه قد ثَبَت فى الحديثِ المَروىِّ فى « الصحاحِ » و « السنَنِ » و « المسانيدِ » مِن حديثِ جماعةٍ من الصحابَةِ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ ، أنَّه قال : « لا تدخلُ المَلائكةُ بيتًا فيه صُورةٌ ، ولا كلبٌ ، ولا جُنُبٌ »[1] . وفى روايةٍ ، عن عاصمِ بنِ ضَمْرَةَ ، عن علىٍّ : « ولا بولٌ »[2] . وفى روايةِ رافعٍ ، عن أبى سعيدٍ ، مرفوعًا : « لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه صورةٌ ولا تِمثالٌ »[3] . وفى روايةِ [١/٢٩و] مجاهدٍ ، عن أبى هريرةَ ، مرفوعًا : « لا تدخلُ المَلائكةُ بيتًا فيه كلبٌ أو تمثالٌ »[4] . وفى روايةِ ذَكْوانَ أبى[5] صالحٍ السَّمَّانِ[6] ، عن أَبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لا تصحبُ[7] الملائكةُ رُفْقَةً معهم كلبٌ أو جَرَسٌ »[8] . ورواه زُرارةُ بنُ أَوْفَى عنه : « لا تَصحبُ[7] الملائِكةُ رُفْقَةً معهم جرسٌ »[9] .

وقال البَزَّارُ[10] : حدثنا إسحاقُ بنُ سُليمانَ البغداديُّ المعروفُ

---

(١) أخرجه بذكر الجنب أبو داود (٢٢٧ ، ٤١٥٢) ، النسائى (٢٦١ ، ٤٢٩٢) ، الدارمى ٢/٢٨٤ ، الإمام أحمد ١/٨٣ ، ١٠٧ ، ١٣٩ ، ١٥٠ . ويشهد لذكر الجنب حديث عمار المرفوع : « ثلاثة لا تقربهم الملائكة ... » . وذكر منهم الجنب ، أخرجه أبو داود (٤١٨٠) . وانظر السلسلة الصحيحة (١٨٠٤) .

وبدون ذكر الجنب أخرجه البخارى (٣٢٢٧ ، ٣٣٢٢ ، ٥٩٤٩ ، ٥٩٦٠) ، مسلم (٢١٠٦ ، ٢١٠٧) ، والترمذى (٢٨٠٤) وقال : حسن صحيح .

(٢) مسند أحمد ١/١٤٦ . وإسناده ضعيف جدا .

(٣) الترمذى (٢٨٠٥) وقال : حسن صحيح .

(٤) أخرجه بمعناه أبو داود (٤١٥٨) ، الترمذى (٢٨٠٦) وقال : حسن صحيح . النسائى (٥٣٨٠) .

(٥) فى ا : « عن أبى » . وهو خطأ . فهو ذكوان السمان أبو صالح . تهذيب التهذيب ٣/٢١٩ .

(٦) فى م : « السماك » .

(٧) فى ص : « تدخل » .

(٨) مسلم (٢١١٣) .

(٩) مسند أحمد ٢/٣٨٥ ، ٤١٤ .

(١٠) كشف الأستار (٣٢١٤) ، وذكره الهيثمى فى المجمع ١٠/٢٢٦ وقال : رواه البزار ، وفيه من لم أعرفهم .

بالفلوسىُّ[1] ، حدثنا بَيانُ بنُ حُمْرانَ ، حدثنا سلَّامٌ ، عن منصورِ بنِ زاذانَ ، عن محمدِ بنِ سِيرينَ ، عن أبى هُريرةَ ، قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ ملائكةَ اللهِ يَعرِفون بنى آدَمَ » . وأحْسَبُه قال : « ويعرفونَ أعمالَهم ، فإذا نظروا إلى عبدٍ يعملُ بطاعةِ اللهِ ، ذكروه بينَهم وسمَّوْه ، وقالوا : أفلحَ الليلةَ فلانٌ ، نجا اللَّيْلةَ فلانٌ . وإذا نظروا إلى عبدٍ يعملُ بمعصيَةِ اللهِ ذكروه بينَهم ، وسمَّوه ، وقالوا : هَلَك فلانٌ اللَّيْلَةَ » . ثم قال البزَّارُ[2] : سلَّامٌ هذا ، أحسبُه سلَّامًا المَدائِنِىَّ[3] ، وهو لَيِّنُ الحديثِ . وقد قال البخارِىُّ[4] : حدثنا أبو اليمانِ ، حدثنا شعيبٌ ، حدثنا أبو الزِّنادِ ، عن الأعْرَجِ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « الملائكَةُ يتعاقبون[5] ؛ ملائكةٌ بالليلِ ، وملائكةٌ بالنهارِ ، ويجتمعون فى صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ ، ثم يعرجُ إليه الذين باتوا[6] فيكُم فيسألُهم - وهو أعلمُ - فيقولُ : كيف تركتم عبادِى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » . هذا اللفظُ فى كتابِ بدءِ الخلقِ بهذا السياقِ . وهذا اللفظُ تفرَّد به دونَ مسلمٍ مِن هذا الوجهِ ، (٧وقد أخرجاه فى « الصَّحيحين » مِن حديثِ مالكٍ عن أبى الزِّنادِ به٧)[8] . وقال البَزَّارُ[9] :

---

(١) فى ح : « بالقلوسى » ، وفى م ، ا ، ص : « بالقلوس » .

(٢) سقط من : ح ، م .

(٣) هو سلام بن سلم الطويل المدائنى . له ترجمة فى تاريخ بغداد ١٩٥/٩ وتهذيب الكمال ٢٧٧/١٢ وقال الحافظ فى التقريب ٣٤٢/١ : متروك .

(٤) البخارى (٣٢٢٣) .

(٥) بعده فى ا : « فيكم » .

(٦) فى ح : « يأتون » .

(٧ - ٧) سقط من : الأصل .

(٨) البخارى (٧٤٢٩) ، مسلم (٦٣٢) .

(٩) كشف الأستار (٣٢٥٢) . وذكره الهيثمى فى المجمع ٢٠٨/١٠ وقال : رواه البزار ، وفيه تمام بن نجيح ، وثقه ابن معين وغيره ، وضعفه البخارى وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . كما أخرجه الحافظ أبو يعلى من طريق مبشر بن إسماعيل (٢٧٧٥) وإسناده ضعيف .

حدثنا زِيادُ بنُ أيوبَ ، حدثنا مُبَشِّرُ بنُ إسماعيلَ الحَلَبِيُّ ، حدثنا تَمَّامُ بنُ نَجِيحٍ ، عن الحسنِ ، يعنِى البصرىَّ ، عن أنسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ما مِنْ حافظَين يرفعان إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ - ما حفِظا فى يومٍ ، فيرى فى أولِ الصحيفةِ وفى آخرِها استغفارًا ، إلَّا قال اللهُ تعالى : قد[1] غفرتُ لعبدى ما بينَ طرفَىِ الصحيفةِ » . ثم قال : تفرَّد به تَمَّامُ بنُ نَجِيحٍ وهو صالِحُ الحَديثِ . قلت : وقد وثَّقه ابنُ مَعِينٍ ، وضعَّفه البخاريُّ ، وأبو حاتمٍ ، وأبو زُرْعَةَ ، والنَّسائِيُّ ، وابنُ عَدِيٍّ ، ورماه ابنُ حِبَّانَ بالوضعِ ، وقال الإمامُ أحمدُ : لا أعرفُ حقيقةَ أمرِه[2] . والمقصودُ أنَّ كلَّ إنسانٍ له حافظانِ مَلَكان اثنانِ ؛ واحدٌ مِن بينِ يديْه ، وآخرُ مِن خلفِه ، يحفظانِه مِن أمْرِ اللهِ بأمرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، ومَلَكانِ كاتِبانِ[3] ؛ عن يَمينِه وعن شِمالِه ، وكاتبُ اليمينِ أميرٌ على كاتبِ الشمالِ [4]يكتبُ حسناتِه ، وكاتبُ الشمالِ يكتبُ سيئاتِه ، فأرادَ صاحِبُ الشِّمالِ أنْ يَكتُبَها ، قالَ له صاحِبُ اليَمينِ : أمهلْه لعلَّه أن يتوبَ أو يستغفرَ . وإذا عمِلَ حسنةً ، كتَبَها صاحبُ اليمينِ مِن غيرِ توقُّفٍ ولا استئمارٍ مِن صاحبِ الشمالِ[4] . [١/٢٩ظ] كما ذكَرْنا ذلك عندَ قولِه تعالى[5] : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [قٓ : ١٧ ، ١٨] .

فأمَّا الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ[6] : حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ ، حدثنا

---

(١) سقط من : م ، ص .

(٢) انظر ميزان الاعتدال ١/٣٥٩ . تهذيب الكمال ١/٥١٠ .

(٣) فى ا : « يكتبان عمله » .

(٤ - ٤) زيادة من : ا .

(٥) التفسير ٧/٣٧٧ .

(٦) مسند أحمد ١/٣٨٥ (صحيح) .

سُفيانُ ، حدثنا منصورٌ ، عن سالمِ بنِ أبى الجَعْدِ ، عن أبيه ، عن عبدِ اللهِ ، هو ابنُ مسعودٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قَرِينُه مِنَ الجنِّ وقَرِينُه مِنَ الملائكةِ » . قالُوا : وإيَّاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « وإيَّاىَ ، ولكنَّ اللهَ أعانَنِى عليه فلا يأمُرُنى إلا بخيرٍ » . انفرد بإخراجه مسلمٌ[1] ، مِن حديثِ مَنصورٍ به . فيحتملُ أنَّ هذا القرينَ مِن الملائكةِ غيرُ القرينِ بحفظِ الإنسانِ ، وإنما هو مُوَكَّلٌ به ليهديَه ويُرشدَه بإذنِ ربِّه إلى سبيلِ الخيرِ وطريقِ الرشادِ ، كما أنَّه قد وُكِّل به القرينُ مِن الشياطينِ ، لا يألُوه جَهدًا فى الخَبالِ والإضلالِ . والمَعصومُ مَن عَصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ ، وباللهِ المُستَعانُ .

وقال البخارىُّ[2] : حدثنا أحمدُ بنُ يونُسَ ، حدثنا إبراهيمُ بنُ سعدٍ ، حدثنا ابنُ شِهابٍ ، عن أبى سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ والأغرِّ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا كان يومُ الجُمُعَةِ ، كان على كُلِّ بابٍ مِن أبوابِ المسجدِ ملائكةٌ يكتبون الأوَّلَ فالأولَ ، فإذا جلسَ الإمامُ طَوَوُا الصحفَ ، وجاءُوا يستمِعونَ الذكْرَ » . وهكذا رواه منفردًا به مِن هذا الوجهِ ، وهو فى « الصحيحَين » مِن وجهٍ آخرَ[3] . وقد قال اللهُ تعالى[4] : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] . وقال الإمامُ أحمدُ[5] : حدثنا أسباطٌ ، حدثنا الأعْمَشُ ، عن إبراهيمَ ، عن ابنِ مَسْعودٍ ، عن النَّبىِّ ﷺ ، وحدَّثنا الأعْمَشُ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هُريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ فى قولِه : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ . قال : « تشهدُه

---

(١) مسلم (٢٨١٤) .
(٢) البخارى (٣٢١١) .
(٣) البخارى (٩٢٩) ، مسلم (٨٥٠) بسياق أطول .
(٤) التفسير ٥/٩٨ .
(٥) المسند ٢/٤٧٤ .

ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ » . ورواه الترمذىُّ ، والنَّسائىُّ ، وابنُ ماجَه مِن حديثِ أسباطٍ[1] . وقال الترمذىُّ : حسنٌ صحيحٌ . قلتُ : وهو منقطعٌ[2] .

وقال البخارىُّ[3] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ ، حدثنا عبدُ الرزَّاقِ ، أخبرنا معمَرٌ ، عن الزهرىِّ ، عن أبى سَلَمَةَ وسعيدِ بنِ المُسَيَّبِ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ ، [4]قال : « فضلُ صلاةِ الجَميعِ[5] على صلاةِ الواحدِ خمسٌ وعشرون درجةً[4] ، ويجتمعُ ملائكةُ الليلِ ، وملائكةُ النهارِ فى صلاةِ الفجرِ » . يقولُ أبو هريرةَ : اقْرَءُوا إن شئتُم ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ . وقال البخارىُّ[6] : حدثنا مُسَدَّدٌ ، حدثنا أبو عَوانَةَ ، عن الأعْمَشِ ، عن أبى حازمٍ ، عن أبى هريرَةَ ، [١/٣٠و] قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا دَعا الرجلُ امرأتَه إلى فراشِه فأبتْ ، فباتَ غضبانَ عليْها ، لَعَنَتها الملائكةُ حتى تُصبحَ » . تابعَه شعبةُ ، وأبو حمزةَ ، وابنُ داودَ[7] ، وأبو مُعاويةَ ، عن الأعْمَشِ . وثبَتَ فى « الصحيحَيْنِ »[8] أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إذا أَمَّنَ الإمامُ فأمِّنوا ، فإنَّه مَن وافَقَ تأمِينُه تأمينَ المَلائكةِ ، غُفِرَ له ما تَقَدَّم مِن ذنبِه » . وفى لفظٍ : « إذا قال الإمامُ : آمينَ . فإنَّ الملائكةَ تقولُ فى السماءِ : آمينَ . فمَن وافَقَ تأمِينُه تأمينَ الملائكةِ ، غُفِرَ له ما تَقَدمَ مِن

---

(١) الترمذى (٣١٣٥) ، النسائى (١١٢٩٣) ، ابن ماجه (٦٧٠) .

(٢) والانقطاع الذى أراده المصنف هو الحادث بين إبراهيم النخعى وابن مسعود . وانظر تهذيب التهذيب ١/١٧٧ .

(٣) البخارى (٤٧١٧) .

(٤ - ٤) سقط من : ح .

(٥) فى النسخ : « الجمع » وما أثبتناه كما فى البخارى ، وكما أورده المصنف فى التفسير ٥/٩٩ .

(٦) البخارى (٣٢٣٧) .

(٧) فى النسخ : « وأبو داود » . والمثبت من صحيح البخارى . وأشار الحافظ فى الفتح ٦/٣١٦ إلى أنه عبد الله الخُرَيبى ، وهو عبد الله بن داود الخُرَيبى ، قال فى التقريب : ثقة عابد من التاسعة ١/٤١٢ .

(٨) البخارى (٧٨٠) ، مسلم (٤١٠) .

ذنبِه »[1] . وفى « صحيحِ البخاريِّ »[2] ، حدثنا إسماعيلُ ، حدثنى مالكٌ ، عن سُمَىٍّ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، أَنَّ النبىَّ ﷺ قال : « إذا قال الإمامُ : سَمِعَ اللهُ لمَن حَمِدَه . فقولوا : اللهم ربَّنا لك الحمدُ . فإنَّه مَن وافَقَ قولُه قولَ المَلائكةِ ، غُفِرَ له ما تَقَدمَ مِنْ ذنبِه » . ورواه بقيَّةُ الجماعةِ ، إلا ابنَ ماجَه ، مِن حديثِ مالكٍ [3]عن سُمَىٍّ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ[3] .

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا أبو معاوِيَةَ ، حدَّثنا الأَعْمَشُ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، أو عن أبى سعيدٍ - هو شَكٌّ - يعنى الأَعْمَشَ - قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ لِلهِ ملائكةً سيَّاحين فى الأرضِ ، فضلًا عن كُتَّابِ الناسِ ، فإذا وجدوا أقوامًا يذكرون اللهَ ، تنادَوا[5] هَلُمُّوا إلى بُغيتِكم ، فَيَجِيئونَ فيحُفُّونَ[6] بهم إلى السماءِ الدنيا ، فيقولُ اللهُ : أىَّ شىءٍ تركتم عبادِى يصنعون ؟ فيقولون : تَركناهُمْ يحمَدُونك ويُمجِّدونك ويذكرونك . فيقولُ : وهل رأَونى ؟ فيقولون : لا . فيقولُ : فكيف لو رأَونى ؟ فيقولون : لوْ رأوك لكانوا أشدَّ تحميدًا وتمجيدًا وذكرًا . قال : فيقولُ : فأىَّ شىءٍ يطلبون ؟ فيقولون : يطلبون الجَنَّةَ . فيقولُ : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا . فيقولُ :

---

(1) البخارى (781) ، مسلم (410) .

(2) البخارى (3228) .

(3 - 3) زيادة من ا . والحديث فى مسلم (409) ، أبى داود (848) ، الترمذى (267) ، النسائى (1062) .

(4) المسند 2/251 ، 252 (صحيح) .

(5) فى م : « فنادوا » . وغير واضحة فى ا ، ص . والمثبت كما فى الأصل ، وهو موافق لما فى المسند .

(6) سقط من : م ، ص .

وكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها لكانوا أشدَّ عليها حِرصًا ، وأشدَّ لها طَلَبًا . قالَ : فيقولُ : مِن أيِّ يتعَوَّذون ؟ فيقولون : من النارِ . فيقولُ : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا . فيقولُ : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشدَّ منها هربًا وأشدَّ منها خوفًا . قال : فيقولُ : أُشْهِدُكم أنى قد غفرتُ لهم . قال : فيقولون : إنَّ فِيهِم فلانًا الخطَّاءَ لم يُرِدْهم ، إنَّما جاء لحاجةٍ . فيقولُ : هم القومُ لا يشقَى بهم جَلِيسُهم » .

وهكذا رواه البخاريُّ ، عن قُتَيْبَةَ ، عن جريرِ بنِ عبدِ الحميدِ ، عن الأعْمَشِ به[1] ، وقال : رواه شعبةُ عن الأَعْمشِ ، ولم يرفعْه ، ورفعه سُهَيْلٌ عن أبيه . وقد رواه أحمدُ[2] ، عن عفَّانَ ، عن وُهَيْبٍ ، عن سُهَيلٍ ، عن أبيه ، عن أبي هريرةَ ، عن النبيِّ ﷺ [١/ ٣٠ظ] بنحوِه ، كما ذكَره البُخاريُّ مُعَلَّقًا عن سُهَيلٍ[3] . ورواه مسلمٌ ، عن محمدِ بنِ حاتِمٍ ، عن بَهْزِ بنِ أَسَدٍ ، عن وُهَيبٍ[4] به[5] . وقد رواه الإمامُ أحمدُ أيضًا[6] ، عن غُنْدَرٍ ، عن شُعْبَةَ ، عن سُليمانَ - هو الأَعْمَشُ - عن أبي صالحٍ ، عن أبي هريرةَ ، [7]ولم يرفعْه ، نحوَه[7] ، كما أشار إليه البخاريُّ رحِمَه اللهُ .

وقال الإمامُ أحمدُ[8] : حدثنا أبو مُعاوِيةَ ، حدثنا الأَعْمَشُ ، وابنُ نُمَيْرٍ ،

---

(١) البخارى (٦٤٠٨) .

(٢) المسند ٢/ ٢٥٢ ، ٣٨٢ (صحيح) .

(٣) انظر تغليق التعليق ٥/ ١٥٦ .

(٤) فى م ، ص : « وهب » .

(٥) مسلم (٢٦٨٩) .

(٦) المسند ٢/ ٢٥٢ إسناده صحيح .

(٧ - ٧) سقط من : م ، ص . وهى من تتمة كلام الإمام أحمد .

(٨) المسند ٢/ ٢٥٢ (صحيح) .

أخبرنا الأَعْمَشُ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَن نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنيا ، نَفَّسَ اللهُ عنه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ ، ومن ستَر مسلمًا ستَره الله فى الدنيا والآخرةِ ، (١ومَن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه فى الدنيا والآخرةِ١) ، واللهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عونِ أخيهِ ، ومَن سَلَكَ طرِيقًا يلتَمِسُ فيه علمًا ، سهَّلَ اللهُ له به طرِيقًا إلى الجنةِ ، وما اجْتَمَعَ قومٌ فى بيتٍ مِن بيوتِ اللهِ يتلُون كتابَ اللهِ ، ويتدارسونه بينَهم إلَّا نزلتْ عليهم السَّكِينَةُ وغَشِيَتْهم الرحمةُ ، وحَفَّتْهم المَلائكةُ وذَكرهم اللهُ فيمَنْ عندَه ، ومَن بَطَّأ[٢] به عملُه ، لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُه » . وكذا رواه مُسلمٌ مِن حديثِ أبى معاويةَ[٣] .

وقال الإمامُ أحمدُ[٤] : حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن أبى إسْحاقَ ، عن الأَغَرِّ أبى مُسلمٍ ، عن أبى هريرةَ ، وأبى سَعيدٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « ما اجتمع قومٌ يذكرون اللهَ عزَّ وجلَّ إلا حفَّتهم المَلائكةُ ، وتَغَشَّتْهم الرحمةُ ، ونزلتْ عليهم السَّكينَةُ ، وذَكرهمُ اللهُ فيمَن عندَه » . وكذا رواه أيضًا مِن حديثِ إسْرائيلَ ، وسُفيانَ الثَّوْرىِّ ، وشُعْبَةَ ، عن أبى إسْحاقَ به نحوَه[٥] . ورواه مُسلمٌ مِن حَديثِ شُعْبَةَ ، والترمذىُّ مِن حديثِ الثورىِّ ، وقال : حسنٌ صحيحٌ . ورواه ابنُ ماجَه ، عن أبى بكرِ ابنِ أبى شَيْبَةَ ، عن يحيى بنِ آدمَ ، عن عَمَّارِ بنِ رُزَيْقٍ[٦] ، عن أبى إسحاق بإسنادِه[٧]

(١ - ١) سقط من النسخ . والمثبت من المسند .

(٢) كذا بالنسخ . وهو لفظ مسلم . وفى المسند : « أبطأ » .

(٣) مسلم (٢٦٩٩) .

(٤) المسند ٣/٩٤ (صحيح الجامع ٥٣٨٥) .

(٥) المسند ٢/٤٤٧ ، ٣/٣٣ ، ٤٩ ، ٩٢ .

(٦) فى ا ، م ، ص : « زريق » .

(٧) فى ا : « بزيادة » .

نحوَه[1] ، وفى هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ .

وفى « مسندِ الإمامِ أحمدَ » و « السننِ » ، عن أبى الدَّرْداءِ مرفوعًا : « وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ ؛ رِضًا بما يصنعُ »[2] . أى تتواضعُ له ، كما قال تعالى[3] : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٢٤] . وقال تعالى[4] : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] . وقال الإمامُ أحمدُ[5] : حدثنا وَكِيعٌ ، عن سُفيانَ ، عن عبدِ اللهِ بنِ السائبِ ، عن زاذانَ ، عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ للهِ ملائكةً سَيَّاحين فى الأرضِ يُبَلِّغُونى عن أُمَّتِى السلامَ » .

وهكذا رواه النَّسائىُّ ، مِن حديثِ سُفيانَ الثَّورىِّ ، وسُلَيْمانَ الأعْمَشِ ، كلاهما عن عبدِ اللهِ بنِ السَّائِبِ به[6] . وقال الإمامُ أحمدُ[7] : [٣١/١و] حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن الزُّهْرِىِّ ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشةَ ، قالت : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « خُلِقَتِ المَلائكةُ مِن نورٍ ، وخُلِقتِ[8] الجانُّ مِن

---

(١) مسلم (٢٧٠٠) ، الترمذى (٣٣٧٨) ، ابن ماجه (٣٧٩١) .

(٢) مسند أحمد ١٩٦/٥ ، أبو داود (٣٦٤١) ، الترمذى (٢٦٨٢) . (صحيح الجامع ٦١٧٣) .

(٣) التفسير ٦١/٥ .

(٤) التفسير ٤٦٤/٤ .

(٥) المسند ٤٤١/١ . (صحيح) .

(٦) النسائى فى الصغرى (١٢٨١) من طريق الثورى عن عبد الله بن السائب به ، وطريقُ الأعمش، عزاه صاحب تحفة الأشراف إلى النسائى فى الكبرى ، كتاب الملائكة . وقال : كتاب الملائكة ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم . تحفة الأشراف ٢١/٧ .

كما ذكره المصنف فى جامع المسانيد ٧٩/٢٧ من كلا الطريقين .

(٧) المسند ١٦٨/٦ .

(٨) فى الأصل ، ا : « وخلق » . وهو لفظ مسلم .

مارِجٍ مِن نارٍ ، وخُلِقَ آدَمُ مما وُصِفَ لكم » . ورواه مُسلمٌ[1] ، عن محمدِ ابنِ رافعٍ ، وعبدِ[2] بنِ حُمَيْدٍ ، كلاهما عن عبدِ الرَّزَّاقِ به .

[3]وكذلك الحديثُ الذى رُوِىَ أنَّ للمَلَكِ لَمَّةً بقلبِ العبدِ ، وللشيطانِ لَمَّةً بقلبِه ، فلمَّةُ المَلَكِ إيعادٌ بالخيرِ وتصديقٌ بالحقِّ ، ولَمَّةُ الشيطانِ إيعادٌ بالفقرِ - وفى روايةٍ : بالشرِّ - وتكذيبٌ بالحقِّ »[4] . وكذلك الحديثُ الذى رُوِىَ : « إذا أصبح العبدُ ابتدرَه الشيطانُ والمَلَكُ ، فيقولُ المَلَكُ : افتحْ بخيرٍ . ويقولُ الشيطانُ : افتحْ بشرٍّ . فإذا ذَكَر اللهَ وحَمِدَه تولَّاه المَلَكُ وطرَد عنه الشيطانَ إلى الليلِ ، فإذا جاء الليلُ قال المَلَكُ : اختِمْ بخيرٍ . ويقولُ الشيطانُ : اختمْ بشرٍّ . فإن خَتَم نَهارَه بخيرٍ تولَّاه المَلَكُ حتى يُصبِحَ ، وطَرَدَ عنه الشيطانَ »[5] . وكذلك إذا خرج العبدُ من منزِله فقال : « بسمِ اللهِ توكلتُ على اللهِ ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ . قال له المَلَكُ : هُدِيتَ وكُفيتَ ووُقِيتَ . ثم يتنَحَّى عنه الشيطانُ »[6] ... إلى آخرِه[3] . والأحاديثُ فى ذِكْرِ الملائكةِ كثيرةٌ جدًّا . وقد ذكرنا ما يسَّره اللهُ تعالى ، وله الحمدُ .

---

(١) مسلم (٢٩٩٦) .

(٢) فى م : « عبدة » .

(٣ - ٣) زيادة من : ا .

(٤) الترمذى (٢٩٨٨) ، والنسائى فى الكبرى (١١٠٥١) . (ضعيف الترمذى ٥٧٢) .

(٥) النسائى فى الكبرى (١٠٦٨٩ ، ١٠٦٩٠) . وانظر الإحسان (٥٥٣٣) .

(٦) أبو داود (٥٠٩٥) ، النسائى (٣٨٨٦) ، (صحيح الجامع ٥١٣) .

فصلٌ[1]

وقد اختلفَ الناسُ فى تَفْضيلِ الملائكةِ على البشرِ على أقوالٍ . فأكثرُ ما تُوجدُ هذه المَسألةُ فى كتبِ المتكلِّمين . والخلافُ فيها مع المعتزلَةِ ومَن وافَقَهم . وأقدمُ كلامٍ رأيتُه فى هذه المسألةِ ، ما ذَكره الحافظُ ابنُ عَساكرَ فى « تاريخِه »[2] ، فى ترجمةِ أُمَيَّةَ بنِ عمرِو بنِ سعيدِ بنِ العَاصِ ، أنَّه حضَر مَجْلِسًا لعُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ وعندَه جماعةٌ ، فقال عمرُ : ما أحدٌ أكرمُ على اللهِ مِن كريمٍ بنى آدمَ . واستدلَّ بقولِه تعالى[3] : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٧] . ووافقَه على ذلك أُمَيَّةُ بنُ عمرِو بنِ سَعيدٍ ، فقال عِراكُ بنُ مالكٍ : ما أحدٌ أكرمَ على اللهِ مِن ملائكتِهِ ؛ هم خَدَمةُ دارَيْه ، ورسُلُه إلى أنبيائِه . واستدلَّ بقولِه تعالى[4] : ﴿ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] . فقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لمحمدِ بنِ كَعْبٍ القُرَظِىِّ : ما تقولُ أنت يا أبا حمزةَ ؟ فقال : قد أكرمَ اللهُ آدمَ فخلقَه بيَدِه ونفخَ فيه مِن رُوحِه ، وأسجدَ له المَلائكةَ ، وجعَل مِن ذريتهِ الأنبياءَ والرسلَ ، ومَن يزورُه الملائكةُ . فوافق عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ فى الحُكمِ ، واسْتدلَّ بغيرِ دليلِه ، وأضعفَ دلالةَ ما صرَّح به مِن الآيةِ ، وهو قولُه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾

---

(١) هذا الفصل ليس فى الأصل ، ح ، ا .

(٢) تاريخ دمشق ٣٠٣/٩ ، ٣٠٤ . بأطول من هذا .

(٣) التفسير ٤٧٧/٨ .

(٤) التفسير ٣٩٢/٣ .

مضمونُه أنَّها ليست بخاصةٍ بالبشرِ ، فإنَّ اللهَ قد وصفَ الملائكةَ بالإيمانِ فى قولِه : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [غافر : ٧] . وكذلك الجانُّ : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ [الجن : ١٣]. ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ ﴾ [الجن : ١٤] . قلتُ : وأحسنُ ما يُستدَلُّ به فى هذه المسألةِ ما رواه عثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِمىُّ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو مرفوعًا ، وهو أصحُّ ، قال : « لمَّا خَلَقَ اللهُ الجنةَ قالت الملائكةُ : يا ربَّنا اجعلْ لنا هذه نأكلُ منها ونشربُ ، فإنَّك خلقتَ الدنيا لبنِى آدمَ . فقال اللهُ : لن أَجعلَ صالحَ ذريةِ مَن خلقتُ بيدَىَّ ، كمَن قلتُ له : كنْ . فكان »[1] .

(١) وأخرج نحوه البيهقى فى الأسماء والصفات (٣١٧) من حديث عروة بن رويم عن الأنصارى ، وفى رواية سماه جابرًا ، وعند عبد الرزاق فى تفسيره ٣٨٢/٢ عن زيد بن أسلم قوله . وانظر الدر المنثور ١٩٣/٤ .

بابُ ذكرِ[1] خلْقِ الجانّ وقصَّةِ الشيطانِ

قال اللهُ تعالى[2] : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٤ - ١٦] . وقال تعالى[3] : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ ، ٢٧] . وقال ابنُ عباسٍ ، وعِكرِمَةُ ، ومجاهدٌ ، والحسنُ ، وغيرُ واحدٍ ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ قالوا : مِن طَرَفِ اللهبِ . وفى روايةٍ : مِن خالصِه وأحسنِه[4] . وقد ذكَرْنا آنفًا مِن طريقِ الزهرىِّ ، عن عروةَ ، عن عائشةَ ، قالت : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « خُلِقَتِ المَلائكةُ مِن نورٍ وخُلِقَ الجانُّ مِن [5]مارجٍ مِن[5] نارٍ ، وخُلِق آدمُ مما وُصِفَ لكم » . رواه مسلمٌ[6] . قال كثيرٌ مِن علماءِ التفسيرِ : خُلِقَتِ الجنُّ قبلَ آدمَ عليه السلامُ ، وكان قبلَهم فى الأرضِ الحِنُّ[7] والبِنُّ[8] ، فسلَّط اللهُ الجنَّ عليهم ، فقتلُوهم وأجلَوْهم عنها وأبادُوهم منها وسكنُوها بعدَهم ؛ [9]بسبَبِ ما أحدَثوا[9] . وذكَر السُّدِّىُّ فى « تفسيرِه » ، عن أبى مالكٍ ، عن

---

(١) سقط من : م .

(٢) التفسير ٧/٤٦٧ .

(٣) التفسير ٤/٤٥١ .

(٤) تفسير الطبرى ٢٨/١٢٦ ، ١٢٧ .

(٥ - ٥) سقط من : م ، ص .

(٦) مسلم (٢٩٩٦) .

(٧) الحن : هم ضعفة الجن وسفلتهم .

(٨) انظر مرآة الزمان ١/١٢٥ . كنز الدرر ١/٢٣٠ - ٢٣٥ .

(٩ - ٩) زيادة من : ا .

أبى صالحٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، وعن مُرَّةَ ، عن ابنِ مَسعُودٍ ، وعن ناسٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ : لمَّا فرَغ اللهُ مِن خلقِ ما أحبَّ ، استوَى على العرشِ ، فجعَل إبليسَ على مُلكِ سماءِ الدُّنيا ، وكان مِن قبيلةٍ مِن الملائكةِ يُقالُ لهم الجنُّ ، وإنَّما سُمُّوا الجنَّ ؛ لأنَّهم خُزَّانُ الجنَّةِ ، وكان إبليسُ مع مُلْكِه خازنًا ، فوقع فى صدرِه : إنما أعطانِى اللهُ هذا لمَزِيَّةٍ لى على الملائكةِ[1] . وذكَر الضحَّاكُ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ الجنَّ لمَّا أفسدوا فى الأرضِ وسفكوا الدماءَ ، بعَث اللهُ إليهم إبليسَ ومعه جندٌ مِن الملائكةِ ، فقتلوهم وأجلَوهم عن الأرضِ إلى جزائرِ البحورِ[2] .

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ ، عن خلَّادٍ ، عن عطاءٍ ، عن طاوُسٍ ، عن ابنِ عباسٍ : كان اسمُ إبليسَ قبل أنْ يرتكبَ المعصيةَ عزازيلَ ، وكان مِن سكَّانِ الأرضِ ومِن أشدِّ الملائكةِ اجتهادًا ، وأكثرِهم عِلْمًا ، وكان مِن حَىٍّ يُقالُ لهم الجِنُّ[3] . وروَى ابنُ أبى حاتمٍ[4] عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ عنه : كان اسمُه عزازيلَ وكان مِن أشرفِ الملائكةِ ، من أُولِى الأجْنِحَةِ الأربعةِ . [5]وقال سُنَيْدٌ[5] : عن حجاجٍ ، عن ابنِ [٣١/١ظ] جُرَيْجٍ ، قال ابنُ عباسٍ : كان إبليسُ مِن أشرفِ الملائكةِ وأكرمِهم قبيلةً ، وكان خازنًا على الجنانِ ، وكان له سلطانُ سماءِ الدنيا ، وكان له سلطانُ الأرضِ[1] . وقال صالحٌ مولَى التوأمةِ ، عن ابنِ عباسٍ : كان يسوسُ ما بينَ السماءِ والأرضِ . رواه

(١) تاريخ الطبرى ٨١/١ .

(٢) تاريخ الطبرى ٨٤/١ . مطولًا . التفسير ١٠١/١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٨٦/١ .

(٤) تفسير ابن أبى حاتم ١٢٢/١ زجال إسناده ثقات لكن عباد بن العوام مع ثقته ففى حديثه لين واضطراب .

(٥ - ٥) فى م : « وقد أسند » .

ابنُ جريرٍ[1] ، وقال قَتادةُ ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ : كان إبليسُ رئيسَ ملائكةِ سماءِ الدُّنيا[2] . وقال الحسنُ البصريُّ : لم يكنْ مِنَ الملائكةِ طرفةَ عينٍ ، وإنَّه لأَصلُ الجِنِّ ، كما أَنَّ آدمَ أصلُ البشرِ[3] . وقال شهرُ بنُ حَوْشَبٍ وغيرُه : كان إبليسُ مِن الجنِّ الذين طردوهم [4]الملائكةُ ، فأَسَره بعضُهم فذهب به إلى السماءِ . رواه ابنُ جريرٍ[5] . قالوا : فلمَّا أراد اللهُ خلْقَ آدمَ ليكونَ فى الأرضِ هو وذريتُه مِن بعدِه ، وصوَّرَ جثتَه منها جعل إبليسُ - وهو رئيسُ الجانِّ وأكثرُهم عبادةً إذ ذاك ، وكان اسمُه عزازيلَ - يَطيفُ به ، فلما رآه أجوفَ ، عرَف أنَّه خَلْقٌ لا يتمالكُ ، وقال : أَمَا لئِن سُلِّطتُ عليك لأُهلكَنَّك ، ولئنْ سُلِّطْتَ علىَّ لأعصِينَّك . فلمّا أنْ نَفَخ اللهُ فى آدمَ مِن رُوحِه - كما سيأتى - وأمَر الملائكةَ بالسجودِ له ، دخَل إبليسَ منه حسدٌ عظيمٌ ، وامتنعَ مِن السجودِ له ، وقال : أنا خيرٌ منه خلقتَنِى مِن نَارٍ وخلقتَه مِنْ طينٍ . فخالفَ الأمرَ واعترضَ على الربِّ - عزَّ وجلَّ - وأخطأَ فى قولِه ، وابتعد مِن رحمةِ ربِّه، وأُنزلَ مِن مرتبتِه التى كان قد نالها بعبادتِه ، وكان قد تشبَّه بالملائكةِ ، ولم يكنْ مِن جنسِهم ؛ لأنَّه مخلوقٌ مِن نارٍ ، وهم مِن نورٍ ، فخانه طبعُه فى أحوجِ ما كان إليه ، ورجع إلى أصلِه الناريِّ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[6] [ص : ٧٣ ، ٧٤] . وقال تعالى[7] : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ

(١) تاريخ الطبرى ٨١/١ .
(٢) تاريخ الطبرى ٨٦/١ .
(٣) تفسير الطبرى ٢٦٠/١٥ .
(٤) فى ا : « طردهم » .
(٥) تاريخ الطبرى ٨٧/١ .
(٦) التفسير ٧٢/٧ .
(٧) التفسير ١٦٣/٥ .

ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] . فأَهْبطَ إبليسَ مِن المَلاِءِ الأعلَى ، وحَرَّم عليه قَدَرًا أَنْ يسكنَه ، فنزَلَ إلى الأرضِ ، حقيرًا ذليلًا ، مذءُومًا مدحورًا ، مُتوعَّدًا بالنارِ ، هو ومَنِ اتَّبعه مِن الجنِّ والإنسِ ، إلا أنَّه مع ذلك جاهِدٌ كلَّ الجَهْدِ على إضلالِ بنى آدمَ بكلِّ طريقٍ وبكلِّ مرصَدٍ ، كما قال[1] : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۞ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۞ [٣٢/١و] إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢ - ٦٥] . وسنذكرُ القصةَ مُسْتَفاضةً عندَ ذِكْرِ خلْقِ آدمَ عليه السلامُ .

والمقصودُ أنَّ الجانَّ خُلِقوا مِن النارِ ، وهم كبَنِى آدمَ يأكلون ويشربون ويتناسَلون ، ومنْهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، كما أخبر تعالى عنهم فى سورةِ « الجن » و[2]فى قولِه تعالى[3] : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣٢] ، وقال تعالى[4] : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟

---

(١) التفسير ٥/٩٠ .

(٢) سقط من : م ، ص .

(٣) التفسير ٧/٢٧٢ .

(٤) التفسير ٨/٢٦٥ .

إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١ - ١٧] . وقد ذكرنا تفسيرَ هذه السورةِ وتمامَ القصَّةِ فى آخرِ سُورةِ « الأحْقاف »(١) ؛ وذكرنا الأحاديثَ المتعلِّقَةَ بذلك هنالك ، وأنَّ هؤلاءِ النَّفَرَ كانُوا مِن جِنِّ نَصِيبِينَ(٢) – وفى بعضِ الآثار مِن جِنِّ بُصْرَى(٣) – وأنَّهم مرُّوا برسولِ اللهِ ﷺ وهو قائمٌ يصلِّى بأصحابه ببَطْنِ نَخْلَةَ مِن أرضِ مَكَّةَ ، فوقفُوا فاستَمَعوا لقراءَتِه ، ثم اجتمعَ بهم النَّبىُّ ﷺ لَيْلَةً كامِلَةً ، فسألُوه عن أشياءَ أَمَرَهُم بها ونَهاهُم عنها ، [١/٣٢ظ] وسألُوه الزَّادَ ، فقال : « لكم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسمُ اللهِ علَيْهِ تَجِدُونَه أَوْفَرَ ما

---

(١) التفسير : ٧/٢٧٢ – ٢٨٧ .

(٢) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام . معجم البلدان ٤/٧٨٧ .

(٣) بلدة بالشام من أعمال دمشق . معجم البلدان ١/٦٥٤ .

يكُون لَحْمًا ، وكُلُّ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُم »[1] . ونهَى النبىُّ ﷺ أن يُسْتَنْجى بهما وقال : « إنَّهُمَا زَادُ إخْوَانِكُم الجنِّ »[1] . ونَهَى عن البَوْلِ فى السَّرَبِ[2] ؛ لأنَّها مساكِنُ الجنِّ[3] . وقرأ عليهم رسولُ اللهِ ﷺ سورةَ « الرحمن » ، فما جعل يمرُّ فيها بآيةِ ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلَّا قالوا : ولا بشَىْءٍ مِن آلآئِك ربَّنا نُكذِّبُ ، فلك الحَمْدُ . وقد أثنى عليهم النبىُّ ﷺ فى ذلك ، لما قرأ هذه السورةَ على الناسِ فسكَتُوا . فقال : « الجِنُّ كانوا أحْسَنَ مِنْكُم رَدًّا ، ما قرأتُ عليهم ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلَّا قالوا : ولا بشىْءٍ مِنْ آلائِك ربَّنا نُكَذِّبُ ، فلَكَ الحمدُ » . رواه الترمذىُّ[4] عن جابرٍ[5] ، وابنُ جَريرٍ والبَزَّارُ عن ابنِ عُمَرَ[6] .

وقد اختلَف العُلماءُ[7] فى مؤمنِى الجِنِّ ، هل يدخلُون الجَنَّةَ ، أو يكونُ جزاءُ طائعِهِم أَنْ لا يُعَذَّبَ بالنَّارِ فقط ؟ على قولين . الصحيحُ أنهم يدخلونَ الجَنَّةَ ؛ لعُموماتِ القرآنِ ولعُمومِ[8] قولِه تعالى[9] : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ *

---

(1) مسلم (٤٥٠) .

(2) فى ح : « الأسواق » .

(3) أبو داود (٢٩) ، (ضعيف أبى داود ٨) .

(4) الترمذى (٣٢٩١) ، (صحيح الترمذى ٢٦٢٤) .

(5) فى م ، ص : « جبير » .

(6) تفسير الطبرى ١٢٤/٢٧ ، كشف الأستار (٢٢٦٩) . وقال الهيثمى فى المجمع ١١٧/٧ : رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبى ، وثقه ابن حبان ، وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(7) سقط من : م .

(8) كذا فى : م . وفى بقية النسخ : « ولخصوص » .

(9) التفسير ٤٧٧/٧ . وانظر أضواء البيان للشنقيطى ٤٠١/٧ - ٤٠٧ .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦ ، ٤٧] . فامتَنَّ تعالى عليهم بذلك ، فلولا أنَّهم ينالُونَه ، لَمَا ذكره وعدَّه عليهم مِن النِّعَمِ . وهذا وحْدَه دَليلٌ مُسْتقلٌّ كافٍ فى المسألَةِ ، واللهُ أعلمُ .

وقال البُخارِىُّ[1] : حدَّثنا قُتَيْبَةُ ، عن مالكٍ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبى صَعْصَعَةَ ، عن أبيه ، أنَّ أبا سعيدٍ الخُدْرِىَّ قال له : « إنِّى أراك تُحِبُّ الغَنَمَ والبَادِيَةَ ، فإذا كُنْتَ فى غَنَمِك وبادِيَتِك ، فأذَّنْتَ بالصلاةِ ، فارْفَعْ صوتَك بالنِّداءِ ، فإنَّه لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤَذِّنِ جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شَىْءٌ إلا شَهِدَ له يَوْمَ القِيامَةِ » . قال أبو سعيدٍ : سمعتُه مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ . انفرد به البُخارِىُّ دونَ[2] مُسْلِمٍ .

وأمَّا كافِرو الجِنِّ ، فمنهم الشياطِينُ ، ومقدَّمُهم الأكبرُ إبليسُ ، عدوُّ آدَمَ أبى البشرِ ، وقد سلَّطه هو وذريتَه على آدمَ وذريتِه ، وتكفَّلَ اللهُ – عزَّ وجلَّ – بعصمةِ مَن آمنَ به وصدَّق رسُلَه واتَّبع شَرْعَه منهم ، كما قال[3] : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥] . وقال تعالى[4] : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢٠ ، ٢١] . وقال تعالى[5] : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

---

(١) البخارى (٣٢٩٦) .
(٢) فى ص : « و » . وليس الحديث فى صحيح مسلم .
(٣) التفسير ٥/٩٣ .
(٤) التفسير ٦/٥٠٠ .
(٥) التفسير ٣/٣٩٧ .

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ [١/٣٣و] أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٧] . وقال[1] : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٤٤] . وقد ذكر تعالى هذه القِصَّةَ فى سورةِ « البقرة » ، وفى « الأعراف » ، وهٰهنا ، وفى سورةِ « سبحان » ، وفى سُورةِ « طه » ، وفى سُورةِ « ص » . وقد تكلَّمنا على ذلك كُلِّه فى مواضِعِه فى كتابِنا « التفسيرِ »[2] ، ولله الحمدُ . وسنُورِدُها فى قِصَّةِ آدَمَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

والمقصودُ أنَّ إبليسَ أَنْظرَه اللهُ وأخَّرَه[3] إلى يوم القِيامَةِ ؛ مِحْنةً لعبادِه ، واختبارًا منه لهم ، كما قال تعالى[4] : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

---

(١) التفسير ٤/٤٥١ .
(٢) التفسير ١/١١١ ، ١١٢ ، ٣/٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٥/٩٠ ، ٩١ ، ٣١٣ ، ٧/٧٢ .
(٣) سقط من : م . وفى ص : « أخزاه » .
(٤) التفسير ٦/٥٠٠ .

[سبأ : ٢١] . وقال تعالى(١) : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢ ، ٢٣] .

فإبليسُ ، لعنَه اللهُ ، حَيٌّ الآنَ ، مُنْظَرٌ إلى يومِ القيامَةِ بنَصِّ القرآنِ ، وله عَرْشٌ على وَجْهِ البَحْرِ ، وهو جالِسٌ عليه ، ويبعثُ سَراياهُ ، يُلْقُون بينَ النَّاسِ الشَّرَّ والفِتَنَ . وقد قال اللهُ تعالى(٢) : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] . وكان اسمُه قبلَ معصيتِه العظيمةِ عزازيلَ . قال النَّقَّاشُ(٣) : وكنيتُه « أبو كُرْدوسٍ » . ولهذا لَمّا قال النبيُّ ﷺ لابنِ صَيَّادٍ : « ما تَرَى ؟ » قال : أَرَى عَرْشًا على الماءِ . فقال له النبيُّ ﷺ : « اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ »(٤) [١/٣٣ظ] . (٥فعرَف أنَّ مادةَ مكاشفَتِه التى كاشفَه بها شَيْطانِيَّةٌ ، مستَمَدَّةٌ مِن إبليسَ الذى هو يُشاهِدُ عرشَه على البحرِ ، ولهذا قال له : « اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ٥) » . أى لن تجاوِزَ قيمتَك الدَّنِيَّةَ الخَسيسةَ الحَقيرَةَ . والدَّليلُ

---

(١) التفسير ٤/٤٠٨ .

(٢) التفسير ٢/٣١٤ .

(٣) هو محمد بن الحسن بن محمد أبو بكر الموصلى ثم البغدادى ، العلامة المفسر ، له « شفاء الصدور » فى التفسير ، وله كتاب « الإشارة فى غريب القرآن » ، وغيرها من المصنفات . سير أعلام النبلاء ١٥/٥٧٣ - ٥٧٦ .

(٤) البخارى (١٣٥٤ ، ٣٠٥٥ ، ٦١٧٣ ، ٦٦١٨) ، مسلم (٢٩٢٥ ، ٢٩٣٠) .

(٥ - ٥) سقط من : ح .

على أَنَّ عرشَ إبليسَ على البَحْرِ الحديثُ الذى رواهُ الإمامُ أحمدُ[1] ، حدَّثنا أبو المُغِيرةِ ، حدَّثنا صَفْوانُ ، حدَّثنى ماعزٌ[2] التَّمِيمىُّ ، عن جُابرِ بن ِ عبدِ اللهِ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « عَرْشُ إبْلِيسَ فى البَحْرِ ، يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فى كلِّ يَوم ٍ يَفْتِنُونَ النَّاسَ ، فأَعْظَمُهُم عِنْدَه مَنْزِلَةً أعْظَمُهُم فِتْنَةً للنَّاس ِ » . وقال الإمامُ أحمدُ[3] : حدَّثنا رَوْحٌ ، حدَّثنا ابنُ جُرَيْج ٍ ، أخبرنى أبو الزُّبَيْرِ ، أنَّه سمِعَ جابرَ بنَ عبدِ اللهِ ، يقولُ : سمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « عَرْشُ إبْليسَ على البَحْرِ ، يبعَثُ سَرَاياهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ ، فأعظَمُهُمْ عِنْدَه أعظَمُهُمْ فِتْنَةً » . تفرَّد به من هذا الوجْهِ . وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدَّثنا مؤمَّلٌ ، حدَّثنا حَمَّادٌ ، حدَّثنا علىُّ بنُ زَيْدٍ ، عن أبى نَضْرَةَ ، عن جابرِ بن ِ عبدِ اللهِ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ لابن ِ صائدٍ : « ما تَرَى ؟ » قال : أرَى عَرْشًا على المَاءِ – أو قَالَ : على البَحرِ – حَوْلَه حَيَّاتٌ . قال ﷺ : « ذاك عَرْشُ إبْلِيسَ » . هكذا رواه فى مسندِ جابرٍ . وقال فى مسندِ أبى سعيدٍ[5] : حدَّثنا عفَّانُ ، حدَّثنا حمَّادُ ابنُ سَلَمَةَ ، أنبأنا علىُّ بنُ زَيْدٍ ، عن أبى نَضْرَةَ ، عن أبى سعيدٍ ، أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال لابن ِ صائدٍ : « ما تَرَى ؟ » قال : أَرَى عَرْشًا على البَحْرِ ، حَوْلَه الْحَيَّاتُ . فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « صَدَقَ ، ذاكَ عَرْشُ إبْلِيسَ » .

وروى الإمامُ أحمدُ[6] مِن طريقِ ماعِزٍ[7] التَّمِيمِىِّ ، وأبى الزُّبَيْرِ ، عن جابرٍ

---

(١) المسند ٣/٣٥٤ . وهو فى صحيح مسلم (٢٨١٣) .

(٢) فى م ، ص : « معاذ » . انظر تعجيل المنفعة ٣٨٤ .

(٣) المسند ٣/٣٨٤ . مسلم (٢٨١٣) .

(٤) المسند ٣/٣٨٨ .

(٥) المسند ٣/٩٧ . وذكره فى المجمع ٨/٤ وقال : رواه أحمد ، وفيه على بن زيد ، وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات .

(٦) المسند ٣/٣٥٤ ، ٣٦٦ ، حديث صحيح (الصحيحة ١٦٠٨) .

(٧) فى م ، ص : « معاذ » .

ابن عبدِ اللهِ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الشَّيْطَانَ قد يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَه المُصَلُّونَ ، ولكنْ فى التَّحْرِيشِ بَيْنَهُم » . وروى الإمامُ مسلمٌ[1] من حديثِ الأَعْمَشِ ، عن أبى سُفيانَ طَلْحَةَ بنِ نافعٍ ، عن جابرٍ ، عن النَّبىِّ ﷺ ، قال : « إنَّ الشَّيْطَانَ يَضَعُ عَرْشَه على الماءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرايَاهُ فى النَّاسِ ، فأَقْرَبُهُم عِنْدَه مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم عِنْدَه فِتْنَةً ، يَجِيءُ أحدُهُم ، فيَقُولُ : ما زلتُ بفلانٍ حتى تَرَكْتُهُ وهو يقولُ كذا وكذا . فيقولُ إبْليسُ : لا واللهِ ما صَنَعْتَ شيئًا . ويَجِيءُ أَحَدُهُم فيَقُولُ : ما تَرَكْتُه حتى فَرَّقْتُ بَيْنَه وبَيْنَ أَهْلِهِ » . قال : « فيُقَرِّبُه ويُدْنِيه ويَلْتَزِمُه[2] ، ويقولُ : نَعَمْ أَنْتَ » . يُرْوَى بفتحِ النونِ بمعنَى : نَعَمْ أنت ذاك الذى تَسْتَحِقُّ الإِكْرامَ . وبكسرِها : أى نِعْمَ منك . وقد استدلَّ به بعضُ النُّحاةِ على جوازِ كَوْنِ فاعلِ نِعْمَ مُضْمرًا ، وهو [٣٤/١و] قليلٌ . واختار شيخُنا الحافِظُ أبو الحجَّاجِ الأوَّلَ ، ورجَّحه ، ووجَّهَه بما ذكرناه ، واللهُ أعلمُ .

وقد أوردنا هذا الحديثَ عندَ قولِه تعالى[3] : ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] . يعنِى أنَّ السحْرَ المُتَلَقَّى عن الشَّياطينِ مِن الإنسِ والجنِّ يُتَوصَّلُ به إلى التَّفرقةِ بينَ المتآلِفين غايةَ التَّآلُفِ المتوادِّين المتحابِّين ، ولهذا شَكَرَ إبليسُ سَعْىَ مَن كان السَّبَبَ فى ذلك . فالذى ذمَّه اللهُ يَمدحُه ، والذى يُغْضِبُ اللهَ يُرْضيه ، عليه لَعْنَةُ اللهِ . وقد أنزلَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - سورَتَىِ « المُعَوِّذَتَيْنِ » ، مَطْرَدَةً لأنواعِ الشَّرِّ وأسبابِه وغاياتِه ؛ ولاسيَّما سورةُ[4] : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ . وثبت

---

(١) مسلم (٢٨١٣) .
(٢) سقط من : م ، ا . وفى الأصل : « ويكرمه » ، وفى صحيح مسلم : « فيلتزمه » .
(٣) التفسير ٢٠٦/١ .
(٤) التفسير ٥٥٨/٨ .

فى « الصحيحين » عن أنسٍ[1] ، [2]وفى « صحيحِ البُخارِىِّ » عن صَفِيَّةَ بنتِ حُيَىٍّ[2] ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطانَ يَجْرِى مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ »[3] .

وقال الحافِظُ أبو يَعْلَى المَوْصِلِىُّ[4] : حدثنا محمدُ بنُ بَحْرٍ[5] ، حدثنا عَدِىُّ بنُ أبى عمارةَ ، حدَّثنا زيادٌ النُّمَيْرِىُّ ، عن أنسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ الشيطانَ واضِعٌ خَطْمَه[6] على قلبِ ابنِ آدَمَ ، فإنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ ، وإنْ نَسِىَ ، الْتقَمَ قَلْبَه ، فَذَلكَ الوَسْوَاسُ الخَنَّاسُ » . ولَمّا كان ذكْرُ اللهِ مَطْردةً للشَّيْطانِ عن القلبِ ، كان فيه تَذْكارٌ للنَّاسى[7] ، كما قال تعالى[8] : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٤] . وقال فَتَى مُوسى[9] : ﴿ وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : ٦٣] . وقال تعالى[10] : ﴿ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٤٢] . يعنى السَّاقِىَ لَمّا قال له يوسُفُ : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ نسِىَ الساقِى أَنْ يَذْكُرَه لربِّهِ ؛ يعنى مولاهُ المَلِكَ . وكان هذا

---

(١) لم نجد حديث أنس فى صحيح البخارى . ورواه مسلم (٢١٧٤) وإليه عزاه – وإلى أبى داود – المزى فى تحفة الأشراف ١٢٠/١ من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس به . وحماد بن سلمة ليس من رجال البخارى ، ولذلك رمز له المزى فى تهذيب الكمال ٢٥٣/٧ : « م ٤ » . والله أعلم .

(٢ - ٢) سقط من : ح .

(٣) حديث صفية هو الذى ثبت فى الصحيحين أخرجه البخارى (٢٠٣٥ ، ٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩ ، ٣١٠١ ، ٣٢٨١ ، ٦٢١٩ ، ٧١٧١) ، مسلم (٢١٧٥) . انظر تحفة الأشراف ٣٣٧/١١ .

(٤) أبو يعلى (٤٣٠١) ، (ضعيف) .

(٥) فى م ، ص : « جبير » .

(٦) الخطم هو مقدم الأنف من الدواب .

(٧) فى م : « للناس » .

(٨) التفسير ١٤٥/٥ .

(٩) التفسير ١٧١/٥ . كذا فى ا . وهو موافق لسياق الآية ، وفى بقية النسخ : « صاحب موسى » .

(١٠) التفسير ٣١٦/٤ .

النِّسيانُ مِن الشَّيطانِ ، فلبِثَ يوسفُ فى السِّجنِ بِضْعَ سنينَ ، ولهذا قال بعدَه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] . (١)أى ؛ تذكَّرَ قَوْلَ يوسُفَ له : اذكُرْنى عندَ ربِّك . بعدَ مُدَّةٍ(١) . وقُرِئَ : « بعد أَمَهٍ » . أى نِسيانٍ . وهذا الذى قلنا ، مِن أَنَّ النَّاسِىَ هو السَّاقِى ، هو الصَّوابُ مِن القولين ، كما قَرَّرناه فى « التفسيرِ »(٢) ، واللهُ أعلمُ .

وقال الإمامُ أحمدُ(٣) : حدثنا محمدُ بنُ جعفرٍ ، حدَّثنا شُعْبَةُ ، عن عاصمٍ ، سمعتُ أبا تَمِيمةَ يحدِّثُ عن رَديفِ(٤) رسولِ اللهِ ﷺ قال : عَثَرَ بالنبىِّ ﷺ حِمارُه فقلت : تَعِسَ الشَّيْطانُ . فقال النبىُّ ﷺ : « لا تَقُلْ : تَعِسَ الشَّيْطانُ . فإنَّكَ إذا قُلْتَ : تَعِسَ الشَّيْطانُ . تَعاظَمَ ، وقال : بِقُوَّتِى صَرَعْتُه . وإذا قُلْتَ : بِسْمِ اللهِ . تَصَاغَرَ ، حتى يَصِيرَ مثلَ الذُّبَابِ » . تفرَّد به أحمدُ ، وهو إسنادٌ جيِّدٌ . [١/٣٤ظ] . وقال أحمدُ(٥) : حدَّثنا أبو بكرٍ الحَنَفِىُّ ، حدَّثنا الضَّحَّاكُ ابنُ عثمانَ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أَحَدَكُم إذَا كانَ فى المَسْجِدِ ، جاءَ الشَّيْطَانُ فَأَبَسَّ(٦) به كما يُبِسُّ الرَّجُلُ بدَابَّتِهِ ، فَإذا سَكَنَ له زَنَقَه ، أو أَلْجَمَهُ » . قال أبو هُرَيْرَةَ : وأنتم تَرَوْنَ ذلك ؛ أمَّا المزنوقُ فتراه مائِلًا كذا ، لا يذكرُ اللهَ(٧) ، وأما المُلْجَمُ ، فَفاتِحٌ فاه لا يذكُرُ اللهَ عَزَّ وجلَّ . تفرَّد به أحمدُ . وقال الإمامُ أحمدُ(٨) : حدَّثنا ابنُ نُمَيْرٍ ،

(١ - ١) كذا فى : ا . وفى بقية النسخ : « أى مدة » .

(٢) التفسير ٤/٣١٦ .

(٣) المسند ٥/٥٩ (صحيح الجامع ٧٢٧٨) .

(٤) هو صحابى اسمه أسامة بن عمير والد أبى المليح . أسد الغابة ١/٨٢ .

(٥) المسند ٢/٣٣٠ ، (صحيح) .

(٦) أَبَسَّ : احتال عليه بالوسوسة كاحتيال الراعى بناقته إذا أراد حلبها .

(٧) فى م : « إلا الله » .

(٨) المسند ٢/٤٣٩ . قال الهيثمى ٥/١٠٧ : رجاله رجال الصحيح .

حدَّثنا ثَوْرٌ ، يعنى ابنَ يزيدَ ، عن مَكْحُولٍ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « العَيْنُ حَقٌّ ويَحْضُرُها[1] الشَّيْطَانُ وحَسَدُ ابنِ آدَمَ » .
وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدَّثنا وَكِيعٌ ، عن سُفْيانَ ، عن مَنْصورٍ ، عن ذَرِّ بنِ عبدِ اللهِ الهَمْدَانِيِّ ، عن عبدِ اللهِ بنِ شدَّادٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ ، قال : جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ، فقال : يا رسُولَ اللهِ ، إنى أُحَدِّثُ نَفْسِى بالشَّيْءِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتكَلَّمَ به . فقال النبيُّ ﷺ : « اللهُ أَكْبَرُ ، الحَمْدُ للهِ الذى رَدَّ كَيْدَهُ إلى الوَسْوَسَةِ » . ورواه أبو داودَ ، والنَّسائيُّ ، مِن حديثِ منصورٍ ، زاد النسائيُّ : والأَعْمَشِ ، كلاهما عن ذَرٍّ[3] به .

وقال البُخاريُّ[4] : حدَّثنا يحيى بنُ بُكَيْرٍ ، حدَّثنا اللَّيْثُ ، عن عُقَيْلٍ ، عن ابنِ شهابٍ ، قال : أخبرنى عروةُ ، قال : قال أبو هُرَيْرَةَ : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « يَأْتى الشيطانُ أَحَدَكُمْ ، فيقولُ : مَنْ خلَقَ كَذَا ؟ مَنْ خلقَ كَذَا ؟ حتى يقولَ : مَنْ خلَقَ رَبَّكَ ؟ فإذَا بَلَغَه فلْيَسْتَعِذْ باللهِ وَلْيَنْتَهِ » . وهكذا رواه مسلمٌ[5] مِن حديثِ اللَّيْثِ ، ومِنْ حديثِ الزُّهْرِيِّ وهِشامِ بنِ عُرْوَةَ ، كلاهما عن عُرْوَةَ به . وقد قال اللهُ تعالى[6] : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] . وقال تعالى[7] : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن

---

(١) فى المطبوع من المسند : « يحضر بها » ، وفى رواية : « يحضرها » الفتح الربانى ١٧/١٨٩.
(٢) المسند ١/٢٣٥ ، (صحيح) .
(٣) فى م ، ص : « أبى ذر » . وهو عند أبى داود (٥١١٢) ، النسائى فى الكبرى (١٠٥٠٤ ، ١٠٥٠٥) .
(٤) البخارى (٣٢٧٦) .
(٥) مسلم (١٣٤) .
(٦) التفسير ٣/٥٣٨ .
(٧) التفسير ٥/٤٨٥ .

يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧ ، ٩٨] . وقال تعالى[١] : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] . وقال تعالى[٢] : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ - ١٠٠] . وروى الإمامُ أحمدُ ، وأهلُ « السننِ »[٣] مِن حديثِ أبى المتَوَكِّلِ ، عن أبى سعيدٍ ، قال : كان رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ : « أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، مِن هَمْزِه ، ونَفْخِه ، ونَفْثِه » . وجاء مِثلُهُ مِن روايةِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، وأبى أُمامَةَ الباهِلِىِّ[٤] . وتفسيرُه فى الحديثِ : [٣٥/١و] قال : « فهَمْزُه المَوْتَةُ ، وهو الخَنْقُ الذى هو الصَّرْعُ ، ونفخُه الكِبْرُ ، ونفثُه الشِّعْرُ » . وثبت فى « الصحيحين »[٥] ، عن أنسٍ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، كان إذا دخل الخلاءَ قال : « أعوذُ باللهِ مِنَ الخُبُثِ والخبائثِ » . قال كثيرٌ مِن العلماءِ : استعاذ من ذُكْرانِ الشياطينِ وإناثِهم .

وروى الإمامُ أحمدُ[٦] ، عن سُرَيْجٍ[٧] ، عن عيسى بنِ يُونُسَ ، عن ثَوْرٍ ،

---

(١) التفسير ٥٣٤/٣ .

(٢) التفسير ٥٢٢/٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد ٥٠/٣ ، أبو داود (٧٧٥) ، الترمذى (٢٤٢) ، الدارمى ٢٨٢/١ .

(٤) رواية جبير فى مسند أحمد ٨٠/٤ ، ٨٣ ، أبو داود (٧٦٤ ، ٧٦٥) ، ابن ماجه (٨٠٧) . ورواية ابن مسعود فى مسند أحمد ٤٠٣/١ ، ٤٠٤ ، ابن ماجه (٨٠٧ ، ٨٠٨) . ورواية أبى أمامة فى مسند أحمد ٢٥٣/٥ .

(٥) البخارى (١٤٢ ، ٦٣٢٢) ، مسلم (٣٧٥) .

(٦) المسند ٣٧١/٢ (الضعيفة ١٠٢٨) .

(٧) فى م : « شريح » .

عن الحُصَيْنِ[1] ، عن [2]أبى سَعْدٍ[2] الخَيْرِ ، وكان مِن أصحابِ عمرَ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَن أتى الغائطَ فليستترْ ، فإن لم يجدْ إلّا أنْ يَجمعَ كَثِيبًا[3] فليستدبرْه ، فإنَّ الشيطانَ يلعبُ بمقاعدِ بنى آدَمَ ، مَن فعَل فقد أحْسَنَ ، ومَن لا ، فلا حرجَ » . ورواه أبو داودَ ، وابنُ ماجَه ، مِن حديثِ ثَوْرِ بنِ يزيدَ به[4] . وقال البخاريُّ[5] : حدثنا عثمانُ بنُ أبى شَيْبَةَ ، حدثنا جريرٌ ، عن الأعْمَشِ ، عن عَدِىِّ بنِ ثابتٍ ، قال : قال سليمانُ ابنُ صُرَدٍ : استبَّ رجلان عندَ النبىِّ ﷺ ونحن عندَه جلوسٌ ، فجعَل أحدُهما يسبُّ صاحِبَه مُغْضَبًا قد احمرَّ وجْهُه ، فقال النبىُّ ﷺ : « إنِّى لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهَبَ عنه ما يجدُ ؛ لو قال : أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ » . فقالوا للرجلِ : ألا تسمعُ ما يقولُ النبىُّ ﷺ ؟ فقال : إنِّى لست بمجنونٍ . ورواه أيضًا مُسلمٌ ، وأبو داودَ ، والنَّسائىُّ ، مِن طُرُقٍ ، عن الأعْمَشِ به[6] .

وقال الإمامُ أحمدُ[7] : حدَّثنا محمدُ بنُ عُبَيْدٍ ، حدثنا عُبَيدُ اللهِ بنُ عمرَ ، عن نافعٍ ، عن ابنِ عُمَرَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لا يأكلْ أحدُكم بشمالِه ، ولا يشربْ بشِمالِه ، فإنَّ الشيطانَ يأكلُ بشِمالِه ويشربُ بشمالِه » . وهذا على شرطِ « الصحيحين » بهذا الإسنادِ ، وهو فى « الصحيحِ » مِن غيرِ هذا

---

(1) فى م ، ص : « الحسين » .

(2 - 2) فى ا : « أبى سعيد » ، وفى م ، ص : « ابن سعد » .

وانظر الفتح الربانى 1/262 .

(3) بعد فى ح : « من رمل » . وهو لفظ رواية أبى داود وابن ماجه .

(4) أبو داود (35) ، ابن ماجه (337) .

(5) البخارى (6115) .

(6) سقط من : م . مسلم (2610) ، أبو داود (4781) ، النسائى فى الكبرى (10224 ، 10225) .

(7) المسند 2/80 ، (صحيح) .

الوجهِ[1] . وروى الإمامُ أحمدُ[2] ، مِن حديثِ إسماعيلَ بن أبى حكيمٍ ، عن عُرْوَةَ ، عن عائِشةَ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قال : « مَن أكَل بشِمالِه أكَل معه الشيطانُ ، ومَن شَرِب بشِمالِه شَرِب معه الشيطانُ » . [١/٣٥ظ] وقال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا محمدُ بنُ جعفرٍ ، أنبأنا شُعْبةُ ، عن أبى زِيادٍ الطَّحَّانِ : سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ عن النبىِّ ﷺ ، أنه رأى رجلًا يشربُ قائمًا ، فقال له : « قِهْ » . قال : لِمَ ؟ قال : « أيَسُرُّكَ أنْ يَشْرَبَ مَعَكَ الهِرُّ ؟ » قال : لا . قال : « فإنّه قَدْ شَرِبَ مَعَكَ مَن هو شرٌّ منه ؛ الشيطانُ » . تفرَّد به أحمدُ مِن هذا الوجهِ . وقال أيضًا[4] : حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن الزُّهْرىِّ ، عن رجلٍ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لو يعلمُ الذى يشربُ وهو قائمٌ ما فى بطنِه لَاسْتَقاء » . قال : وحدثنا عبدُ الرزاقِ ، عن مَعْمَرٍ ، عن الأعمشِ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ ، بمثْلِ حديثِ الزُّهْرِىِّ[5] . [6]وقال الإمامُ أحمدُ[7] : حدثنا موسى ، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ ، عن أبى[8] الزبيرِ أنَّه سأل جابرًا : سمعتَ النبىَّ ﷺ قال : « إذَا دخَل الرجلُ بيتَه فذكَر اسمَ اللهِ حينَ يدخلُ وحينَ يَطعمُ قال الشيطانُ : لا[6]

---

(١) مسلم (٢٠١٩ ، ٢٠٢٠) .

(٢) المسند ٧٧/٦ . قال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ، وفى إسناد أحمد رشدين بن سعد وهو ضعيف وقد وُثِّقَ ، وفى الآخر ابن لهيعة وحديثه حسن . المجمع ٢٥/٥ .

(٣) المسند ٣٠١/٢ ، (صحيح) .

(٤) المسند ٢٨٣/٢ ، (حديث صحيح) وإسناده ضعيف . وقد أتبعه بحديث آخر صحيح . قال الهيثمى ٧٩/٥ : له حديث فى الصحيح بغير هذا السياق ، رواه أحمد بإسنادين والبزار ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح . (الإحسان ٥٣٢٤) .

(٥) (إسناده صحيح) .

(٦ - ٦) سقط من : الأصل ، ح .

(٧) المسند ٣٤٦/٣ ، وهو فى صحيح مسلم (٢٠١٨) من وجه آخر .

(٨) فى م ، ص : « ابن » .

(١مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ هٰهنا . وإنْ دخَل ولم يذكرِ اسمَ اللهِ عندَ دخولِه قال : أدْرَكْتم المَبِيتَ . وإنْ لم يذكرِ اسمَ اللهِ عندَ طعامِه قال : أدركْتم المَبِيتَ والعَشاءَ » ؟ قال : نَعَمْ١) . وقال البخارِىُّ[٢] : حدثنا محمدٌ ، حدثنا عَبْدَةُ ، عن هشامِ بنِ عُروَةَ ، عن أبيه ، عن ابنِ عمرَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا طلَع حاجبُ الشمسِ فَدَعُوا الصلاةَ حتى تبرُزَ[٣] ، وإذا غابَ حاجبُ الشمْسِ فَدَعُوا الصلاةَ حتى تَغِيبَ[٤] ، ولا تحَيَّنُوا بصلاتِكم طلوعَ الشمسِ ولا غروبَها ، فإنَّها تطلعُ بينَ قرنَىْ شَيْطانٍ - أو - الشياطينِ » . لا أدْرِى أىَّ ذلك قال هشامٌ . ورواه مسلمٌ ، والنَّسائىُّ ، مِن حديثِ هشامٍ به[٥] . وقال البخارىُّ[٦] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ مَسْلَمَةَ[٧] ، عن مالكٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ ، عن ابنِ عُمَرَ ، قال : رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يشيرُ إلى المَشرقِ ، فقال : « ها إنَّ الفتنةَ هٰهنا ، إنّ الفتنةَ هٰهنا ، مِن حيثُ يطلُعُ قرنُ الشيطانِ » . هكذا رواه البخارىُّ منفردًا به مِن هذا الوجهِ . وفى « السننِ »[٨] : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهَى أنْ يَجلسَ بينَ الشمسِ والظِّلِّ . وقال : « إنَّه مجلسُ الشيطانِ »[٩] . وقد ذكروا فى هذا معانِىَ ؛ مِن أحسنِها ، أنَّه لَمّا كان الجُلوسُ فى مِثْلِ هذا الموضعِ فيه تشويهٌ بالخلقةِ فيما يُرَى كان

(١ - ١) سقط من : الأصل ، ح .
(٢) البخارى (٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٣٢٧٢ ، ٣٢٧٣) .
(٣) فى م ، ص : « يبرز » .
(٤) فى م ، ص : « يغيب » .
(٥) مسلم (٨٢٨ ، ٨٢٩) ، النسائى (٥٧٠) ، وفى الكبرى (١٥٥٠) .
(٦) البخارى (٣٢٧٩) .
(٧) فى ح : « سلمة » .
(٨) أبو داود (٤٨٢١ ، ٤٨٢٢) ، ابن ماجه (٣٧٢٢) ، (الصحيحة ٨٣٧ ، ٨٣٨) .
(٩) ابن ماجه (٣٧٢٢) ، ومسند أحمد ٤١٣/٣ ، (الصحيحة ٨٣٨) .

يحبُّه الشيطانُ ؛ لأنَّ خِلْقتَه فى نفسِه مُشَوَّهَةٌ وهذا مستقِرٌّ فى الأذْهانِ ؛ ولهذا قال تعالى[1] : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٥] . الصحيحُ [2]أنَّهم الشياطينُ ، لا ضربٌ مِن الحياتِ كما زَعَمه مَن زَعَمه مِن المفسرين ، واللهُ أعلمُ ، فإنّ النفوسَ مغروزٌ فيها قُبْحُ الشياطينِ ، وحسنُ خَلقِ الملائكةِ ، وإنْ لم يُشاهَدُوا[3] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ . وقال النسوةُ لمَّا شاهدن جمالَ يوسُفَ : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[2] [يوسف : ٣١] . وقال البخاريُّ[4] : حدثنا يحيى بنُ جعفرٍ ، حدثنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريُّ ، حدثنا ابنُ جُرَيجٍ ، أخبرنى عطاءٌ ، عن جابرٍ ، عن النبيِّ ﷺ قال : « إذا استَجْنَح - أو : كان جُنْحُ الليلِ - فكُفُّوا صبيانَكم ، فإنَّ الشياطينَ تَنْتَشِرُ حينئذٍ ، فإذا ذَهَب ساعةٌ مِنَ العِشاءِ فخَلُّوهم[5] ، وأغلِقْ بابَك واذكرِ اسمَ اللهِ ، وأطفِئْ مصباحَك واذكرِ اسمَ اللهِ ، وأوْكِ [٣٦/١و] سِقَاءَك واذكرِ اسمَ اللهِ ، وخمِّرْ إناءَك واذكرِ اسمَ اللهِ ، ولو تَعْرُضُ عليه شيئًا » .

ورواه أحمدُ[6] عن يحيى ، عن ابنِ جُرَيجٍ به[7] ، وعندَه : « فإنَّ الشيطانَ لا يفتحُ بابًا[8] مُغلقًا » . وقال الإمامُ أحمدُ[9] : حدثنا وَكِيعٌ ، عن فِطرٍ ، عن

---

(١) التفسير ١٦/٧ .
(٢ - ٢) سقط من : الأصل ، ا .
(٣) فى م : « يشاءوا » .
(٤) البخارى (٣٢٨٠) .
(٥) فى ا : « فحلوهم » . وقد وردت أكثر نسخ البخارى بالخاء ، وفى بعضها بالحاء . أفاده ابن حجر فى الفتح ٣٤١/٦ .
(٦) المسند ٣١٩/٣ . مسلم (٢٠١٢) .
(٧) زيادة من : ح .
(٨) زيادة من : ا .
(٩) المسند ٣٠١/٣ ، (صحيح الجامع ١٠٩١) .

أبى الزبيرِ ، عن جابرٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أغلِقوا أبوابَكم ، وخَمِّروا آنيتَكم ، وأَوْكوا أسقيتَكمْ ، وأطفِئوا سُرُجَكُم ، فإنَّ الشيطانَ لا يفتحُ بابًا مُغْلَقًا ، ولا يكشِفُ غطاءً ، ولا يَحُلُّ وِكاءً[1] ، وإنَّ الفويسقةَ تُضْرِمُ البيتَ على أهلِه » . يعنى الفأرةَ . وقال البخاريُّ[2] : حدثنا آدمُ ، حدثنا شُعْبَةُ ، عن منصورٍ ، عن سالمِ بنِ أبى الجَعْدِ ، عن كُرَيبٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لو أنَّ أحدَكم إذا أرادَ أنْ يأْتِىَ أهلَه قال : اللهمَّ جَنِّبْنى الشيطانَ ، وجنِّبِ الشيطانَ ما رَزَقْتَنِى . فإنْ كان بينَهما ولدٌ لم يَضُرَّه الشيطانُ ، ولم يُسلَّطْ عليه » وحدثنا[3] الأَعْمَشُ ، عن سالمٍ ، عن كُرَيْبٍ ، عن ابنِ عباسٍ مِثْلَه . ورواه أيضًا ، عن موسى بنِ إسماعيلَ ، عن همامٍ ، عن منصورٍ ، عن سالمٍ ، عن كُرَيْبٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « أمَا لو أنَّ أحدَكم إذا أتى أهلَه قال : بسمِ اللهِ ، اللهمَّ جنِّبْنا الشيطانَ ، وجَنِّبِ الشيطانَ ما رزقْتَنا . فَرُزِقا ولدًا ، لم يَضُرَّه الشيطانُ »[4] .

وقال البخاريُّ[5] : حدثنا إسماعيلُ ، حدثنا أخى ، عن سليمانَ ، عن يحيى ابنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ ، عن أبى هريرةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، قال : « يَعقِدُ الشيطانُ على قافِيَةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ ، يضرِبُ على كلِّ عقدةٍ مكانَها ؛ عليك ليلٌ طويلٌ فارقدْ . فإنِ استيقظَ فذَكَرَ اللهَ انحلَّت عقدةٌ ، فإنْ توضأَ انحلَّت عقدةٌ ، فإنْ صلَّى انحلَّت عُقَدُه كلُّها ، فأَصبَحَ نشيطًا طيبَ النفسِ ، وإلَّا أَصْبَحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ » . هكذا رواه ، منفردًا به

---

(1) فى ح : « وعاء » .
(2) البخارى (٣٢٨٣) .
(3) قائل ذلك هو شعبة . انظر الفتح ٣٤٢/٦ .
(4) البخارى (٣٢٧١) .
(5) البخارى (٣٢٦٩) .

مِن هذا الوجهِ. وقال البخاريُّ[1] : حدثنا إبراهيمُ بنُ[2] حمزةَ ، حدثنى ابنُ أبى حازمٍ ، عن يزيدَ ، يعنى ابنَ الهادِ ، عن محمدِ بنِ إبراهيمَ ، عن عيسى ابنِ طَلْحَةَ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « إذا استَيقظَ أحدُكم مِن منامِه فتَوَضأَ فليستنثِرْ ثلاثًا ، فإنَّ الشيطانَ يَبيتُ على خَيْشُومِه » . ورواه مسلمٌ ، عن بِشْرِ بنِ الحَكَمِ عن الدَّراوَرْدِىِّ ، والنَّسائىُّ [٣٦/١ظ] عن محمدِ ابنِ زُنْبورٍ ، عن عبدِ العزيزِ بنِ أبى حازمٍ ، كلاهما عن يزيدَ بنِ الهادِ به[3] . وقال البخاريُّ[4] : حدثنا عثمانُ بنُ أبى شَيْبَةَ ، حدثنا جريرٌ ، عن منصورٍ ، عن أبى وائلٍ ، عن عبدِ اللهِ قال : ذُكِرَ عندَ النبىِّ ﷺ رجلٌ نام لَيْلَةً حتى[5] أَصْبَحَ ، قال : « ذاك رجلٌ بالَ الشيطانُ فى أُذُنَيْه » . أو قال : « فى أذُنِه » . ورواه مسلمٌ ، عن عثمانَ ، وإسحاقَ ، كلاهما عن جريرٍ به[6] . وأخرجه البخاريُّ أيضًا والنَّسائىُّ وابنُ ماجه ، مِن حديثِ منصورِ بنِ المُعتَمِرِ به[7] .

وقال البخاريُّ[8] : حدثنا محمدُ بنُ يُوسُفَ ، أنبأنا الأَوْزاعِىُّ ، عن يحيى ابنِ أبى كثيرٍ ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا نُودِىَ بالصلاةِ أدْبر الشيطانُ وله ضُراطٌ ، فإذا قُضِىَ أقبلَ ، فإذا ثُوِّب بها أدبرَ ، فإذا قُضِىَ أقبلَ ، حتى يَخطِرَ بينَ الإنسانِ وقلبِه ، فيقولُ : اذكرْ

---

(١) البخارى (٣٢٩٥) .
(٢) فى م : « عن » ، وفى ا : « و » .
(٣) مسلم (٢٣٨) ، النسائى (٩٠) .
(٤) البخارى (٣٢٧٠) .
(٥) فى م : « ثم » .
(٦) مسلم (٧٧٤) .
(٧) البخارى (١١٤٤) ، النسائى فى الكبرى (١٣٠٢) ، ابن ماجه (١٣٣٠) .
(٨) البخارى (٣٢٨٥) .

كذا وكذا . حتى لا يدرِىَ أثلاثًا صلَّى أم أربعًا ؟ فإذا لم يدْرِ أثلاثًا صلَّى أم أربعًا ، سَجَد سَجْدتى السهوِ » . هكذا رواه منفردًا به مِن هذا الوجهِ .

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا أَسْوَدُ بنُ عامرٍ ، حدثنا جعفرٌ ، يعنى الأَحْمَرَ ، عن عطاءِ بنِ السائبِ ، عن أنسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « راصُّوا الصفوفَ ، فإنَّ الشَّياطِينَ تقومُ فى الخَللِ » . وقال أحمدُ[2] : حدثنا [3]عفانُ ، حدثنا[3] أَبَانٌ ، حدثنا قتادةُ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، أنَّ النبىَّ ﷺ كان يقولُ : « راصُّوا صُفُوفَكم ، وقاربوا بينَها ، وحاذُوا بينَ الأعناقِ ، فوالذى نفسُ محمدٍ بيدِه إنِّى لأَرَى الشيطانَ يدخلُ مِن خَلَلِ الصفِّ كأنّه الحَذَفُ[4] » . وقال البخارىُّ[5] : حدثنا أبو مَعْمَرٍ ، حدثنا عبدُ الوارثِ ، حدثنا يونسُ ، عن حُمَيْدِ بنِ هلالٍ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى سعيدٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا مرَّ بينَ يدَىْ أحدِكم شىءٌ فليمنعْه ، فإنْ أبى فلْيَمنعْه ، فإنْ أبىٰ فَلْيُقاتلْه ، فإنَّما هو شيطانٌ » . ورواه أيضًا مسلمٌ وأبو داودَ ، مِن حديثِ سليمانَ بنِ المُغِيرَةِ ، عن حُمَيْدِ بنِ هلالٍ به[6] . وقال الإمامُ أحمدُ[7] : حدثنا أبو أحمدَ ، حدثنا مَسَرَّةُ[8] بنُ مَعْبَدٍ ، حدثنا أبو عُبَيدٍ صاحبُ[9] سليمانَ ، قال : رأيتُ عطاءَ بنَ يزيدَ اللَّيْثِىَّ قائمًا يصلِّى ، فذهبتُ

---

(1) المسند 3/154 ، (صحيح الجامع 3448) .

(2) المسند 3/260 ، 283 ، (صحيح الجامع 3499) .

(3 - 3) سقط من النسخ . والمثبت من المسند ، وانظر جامع المسانيد للمصنف 3/3 - 5 ، وأطراف المسند 1/483 لابن حجر .

(4) الحذف : غنم سود صغار ليس لها آذان ولا أذناب .

(5) البخارى (3274) .

(6) مسلم (505) ، أبو داود (700) .

(7) المسند 3/82 ، 83 . قال الهيثمى فى المجمع 2/87 : رواه أحمد ورجاله ثقات .

(8) فى الأصل ، ح : « بشر » ، وفى ص : « بسر » .

(9) فى الأصل ، م ، ص : « حاجب » ، وأبو عبيدة قيل : اسمه عبد الملك . وقيل غير ذلك . =

أمرُّ بينَ يديه فردَّنى ، ثمَّ قال : حدثنى أبو سعيدٍ الخُدْرِىُّ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قام يصلِّى صلاةَ الصُّبْحِ وهو خلفه فقرأ ، فالْتَبَستْ عليه القراءةُ ، فلمَّا فرَغ مِن صلاتِه قال : « لو رأيتُمونى وإبليسَ ، فأهْويتُ بِيَدِى فما زِلْتُ أخنُقه حتى وجدْتُ بَرْدَ لُعابِهِ بينَ إِصْبعَىَّ هاتين ؛ الإبهامِ والتى تَلِيها ، ولولا دعوةُ أخى سليمانَ لأصْبَحَ مرْبوطًا بساريةٍ مِن سَوارِى المسجدِ ، يتلاعبُ [٣٧/١و] به صبيانُ المدينةِ ، فمَن استَطاعَ مِنكم أنْ لا يحولَ بينَه وبينَ القِبلةِ أحدٌ فليفعلْ » . وروى أبو داودَ[1] منه : « فَمَنِ اسْتَطَاعَ » . إلى آخرِه ، عن أحمدَ ابنِ أبى سُرَيجٍ ، عن أبى أحمدَ ، [2]محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ[2] ، الزُّبَيْرِىِّ[3] به . وقال البخارىُّ[4] : حدثنا محمودٌ حدثنا شَبَابَةُ حدثنا شُعْبَةُ ، عن محمَدِ ابنِ زِيادٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ : أنه صلَّى صلاةً فقال : « إنَّ الشيطانَ عرَضَ لى ، فشدَّ[5] علىَّ يقْطَعُ الصلاةَ علىَّ ، فأمْكننى اللهُ مِنه » . فذكر الحديثَ . وقد رواه مسلمٌ والنَّسائىُّ ، مِن حديثِ شُعْبَةَ به مطوَّلًا[6] .
ولفْظُ البخارىِّ ، عندَ تفسيرِ قولِه تعالى ، إخبارًا عن سليمانَ عليه السلامُ ، أنَّه قال[7] : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] . مِن حديثِ رَوْحٍ وغُنْدَرٍ ، عن شُعْبَةَ ، عن محمدِ بنِ زِيادٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « إنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجنِّ

= وهو حاجب سليمان بن عبد الملك وصاحبه كما فى تهذيب التهذيب ١٥٨/١٢ .

(١) أبو داود (٦٩٩) ، (صحيح الجامع ٥٨٩٢) .

(٢ - ٢) فى الأصل : « عبد الله بن محمد الزبير » ، وفى م : « محمد بن عبد الله بن محمد بن الزبير » .

(٣) زيادة من : ح .

(٤) البخارى (٣٢٨٤) .

(٥) فى الأصل ، م : « فسد » .

(٦) مسلم (٥٤١) ، النسائى (١١٤٤٠) .

(٧) التفسير ٦١/٧ .

تَفَلَّت علىَّ البارحةَ » . أو كلمةً نحوَها « ليقطعَ علىَّ الصلاةَ ، فأمْكَنَنِى اللهُ مِنه ، فأردتُ أنْ أربطَه إلى ساريَةٍ مِنْ سوارِى المسجِدِ حتى تُصْبِحوا وتَنْظرُوا إليه كلُّكم ، فذكرتُ قولَ أخى سليمانَ : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ قال رَوْحٌ : فَرَدَّه خاسِئًا[1] . وروى مسلمٌ[2] مِن حديثِ أبى إدْريسَ ، عن أبى الدَّرْداءِ قال : قام رسولُ اللهِ ﷺ يصلِّى ، فسمِعْناه يقولُ : « أعُوذُ باللهِ مِنْكَ » . ثم قال : « ألعنُك بلعْنةِ اللهِ » . ثلاثًا ، وبَسَط يدَه ، كأنَّه يَتناولُ شيئًا . فلمَّا فَرَغ مِن الصلاةِ ، قلنا : يا رسولَ اللهِ ، قد سمِعْناك تقولُ فى الصلاةِ شيئًا لم نسْمعْك تقولُه قبلَ ذلك ، ورأيْناك بسطتَ يدَك . فقال : « إنَّ عدوَّ اللهِ إبليسَ ، جاءَ بشهابٍ مِنْ نارٍ ليجعلَهُ فى وجهِى ، فقلتُ : أعوذُ باللهِ مِنك . ثلاثَ مراتٍ ، ثم قلتُ : ألعنُك بلعنةِ اللهِ التامَّةِ . فلم يستأخرْ ، ثم أردتُ أَخْذَه ، واللهِ لولا دعوةُ أخينا سليمانَ ، لأصبحَ مُوثَقًا ، يلعبُ به ولدانُ أهلِ المدينةِ » . وقال تعالى[3] : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] . يعنى الشيطانَ . وقد قال تعالى[4] : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] . فالشيطانُ لا يألُو الإنسانَ خَبالًا جهدَه وطاقتَه ، فى جميعِ أحوالِه وحركاتِه وسكناتِه ، كما صنَّف الحافظُ أبو بكرِ بنُ أبى الدُّنيا رَحِمَه اللهُ كتابًا فى ذلك سمَّاه : « مصائدَ الشيطانِ[5] » وفيه فوائدُ جَمَّةٌ .

---

(١) البخارى (٤٨٠٨) .

(٢) مسلم (٥٤٢) .

(٣) التفسير ٦/٥٢١ .

(٤) التفسير ٦/٣٥٤ .

(٥) فى ا : « مكائد الشيطان » . وكلا الكتابين لابن أبى الدنيا .

[٣٧/١ظ] وفى « سننِ أبى داودَ »[1] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ فى دعائِه : « وأعوذُ بك أنْ يتخبَّطَنِى الشيطانُ عندَ الموتِ » . ورُوِّينا فى بعضِ الأخبارِ أنه قال : « يا ربِّ وعزَّتِكَ وجلالِك لا أزالُ أُغْوِيهم ما دامتْ أرواحُهم فى أجسادِهم . فقال اللهُ تعالى : وعزَّتِى وجلالِى ولا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفرونى »[2] . وقال اللهُ تعالى[3] : ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] . فوعدُ اللهِ هو الحقُّ الصدقُ[4] ، ووعدُ الشيطانِ هو الباطلُ . وقد روى الترمذىُّ ، والنَّسائىُّ ، وابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه » ، وابنُ أبى حاتِمٍ فى « تفسيرِه » مِن حديثِ عطاءِ بنِ السائبِ ، عن مُرَّةَ[5] الهَمْدانِىِّ ، عن ابنِ مسعودٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ للشيطانِ لَمَّةً بابنِ آدَمَ ، وللمَلَكِ لَمَّةً ، فأمَّا لَمَّةُ الشيطانِ فإيعادٌ بالشرِّ ، وتكذيبٌ بالحقِّ ، وأمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخَيرِ ، وتصديقٌ بالحقِّ . فمَن وَجَدَ ذلك فليعلمْ أنَّه مِنَ اللهِ ، فليحمدِ اللهَ ، ومَن وَجَدَ الأخرَى ، فليتعوذْ مِنَ الشيطانِ » . ثم قرأ : ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[6] .

وقد ذكرنا فى فضلِ سورةِ « البقرة » أنَّ الشيطانَ يفرُّ مِن البيتِ الذى تُقرأُ

---

(١) أبو داود (١٥٥٢) ، (صحيح الجامع ١٢٩٣) .
(٢) مسند الإمام أحمد ٢٩/٣ ، ٤١ (صحيح الجامع ١٦٤٦) .
(٣) التفسير ٤٧٥/١ .
(٤) فى م : « المصدق » .
(٥) فى ص : « عروة » .
(٦) الترمذى (٢٩٨٨) ، (ضعيف الترمذى ٥٧٢) ، النسائى (١١٠٥١) ، الإحسان (٩٩٧) . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٤٨/١ وعزاه لابن أبى حاتم .

فيه[1] . وذكرنا فى فضلِ آيةِ الكرسىِّ أنَّ مَن قرأها فى ليلةٍ لا يقربُه الشيطانُ حتى يصبحَ[2] . وقال البخارىُّ[3] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ يُوسُفَ ، أنبأنا مالِكٌ ، عن سُمَىٍّ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « مَن قال : لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ . (4)فى يومٍ(4) مائةَ مرةٍ ، كانت له عَدْلَ عَشْرِ رِقابٍ وكُتِبَت له مائةُ حسنةٍ ، ومُحِيَتْ عنه مائةُ سيئةٍ ، وكانت له حِرزًا مِن الشيطانِ يومَه ذلك حتى يُمسِىَ ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به إلا أحدٌ[5] عَمِلَ أكثرَ مِن ذلك » . وأخرجه مسلمٌ ، والترمذىُّ ، وابنُ ماجَه ، مِن حديثِ مالِكٍ[6] . وقال الترمذىُّ : حسنٌ صحيحٌ .

وقال البخارىُّ[7] : ثنا أبو اليَمانِ ، أخبرَنا شُعَيْبٌ ، عن أبى الزِّنادِ ، عن الأعْرَجِ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال ﷺ : « كلُّ بَنِى[8] آدَمَ يطعنُ الشيطانُ فى جَنْبَيْه بأُصبَعِه حين يُولَدُ غيرَ عيسَى ابنِ مَريمَ ؛ ذهب يطعنُ فطَعَنَ فى الحِجابِ » . تفرَّد به من هذا [١/٣٨و] الوجهِ . وقال البخارىُّ[9] : حدثنا عاصمُ بنُ علىٍّ ، حدثنا ابنُ أبى ذِئْبٍ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبيه ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « التثاؤُبُ مِنَ الشيطانِ ، فإذا تثاءَبَ أحدُكم

---

(١) التفسير ١/٥١ ، ٥٢ .
(٢) التفسير ١/٤٥٢ .
(٣) البخارى (٣٢٩٣) .
(٤ - ٤) سقط من : م .
(٥) فى م : « رجل » . وهو لفظ رواية للبخارى (٦٤٠٣) .
(٦) مسلم (٢٦٩١) ، الترمذى (٣٤٦٨) ، ابن ماجه (٣٧٩٨) .
(٧) البخارى (٣٢٨٦) .
(٨) فى م : « ابن » .
(٩) البخارى (٣٢٨٩) .

فليَرُدَّه ما استطاع ، فإنَّ أحَدَكم إذا قال : ها . ضحِك الشيطانُ » . ورواه أحمدُ وأبو داودَ والترمذىُّ وصحَّحه والنَّسائىُّ من حديثِ ابنِ أبى ذِئْبٍ به[1] . وفى لفظٍ : « إذا تثاءَبَ أحدُكم فلْيكظِمْ ما استَطاع ، فإنَّ الشيطانَ يدخلُ »[2] .

وقال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا عبدُ الرزاقِ ، أنبأنا سفيانُ ، عن محمدِ بنِ عَجْلانَ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، (4عن أبيه4) عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ يُحبُّ العُطاسَ ، ويبغَضُ ، أو يكرهُ التثاؤبَ ، فإذا قال أحدُكم : ها ها . فإنَّما ذلك الشيطانُ يضحَكُ مِن جوفِه » . ورواه الترمذىُّ ، والنَّسائىُّ مِن حديثِ محمدِ بنِ عَجْلانَ به[5] .

وقال البخارىُّ[6] : حدثنا الحَسَنُ بنُ الرَّبيعِ ، حدثنا أبو الأَحْوَصِ ، عن أشْعَثَ ، عن أبيه ، عن مَسْروقٍ ، قال : قالت عائشةُ : سألتُ النبىَّ ﷺ عن الْتِفاتِ الرجلِ فى الصلاةِ ، فقال : « هو اخْتلاسٌ يختلسُه الشيطانُ مِن صلاةِ أحدِكم » . وكذا رواه أبو داودَ والنَّسائىُّ مِن روايةِ أشْعَثَ بنِ أبى الشَّعْثاءِ سُلَيْمِ ابنِ أَسْوَدَ المُحارِبىِّ ، عن أبيه ، عن مَسْرُوقٍ به[7] .

وروى البخارىُّ[8] مِن حديثِ الأَوْزاعِىِّ ، عن يحيى بنِ أبى كَثيرٍ : حدثنى عبدُ اللهِ بنُ أبى قَتادةَ ، عن أبيه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « الرُّؤْيا

---

(1) مسند الإمام أحمد ٤٢٨/٢ ، أبو داود (٥٠٢٨) ، الترمذى (٢٧٤٧) ، النسائى (١٠٠٤٣) (صحيح) .
(2) مسلم (٢٩٩٤ ، ٢٩٩٥) .
(3) المسند ٢٦٥/٢ ، (صحيح) .
(4 - 4) كذا فى : م . وسقط من بقية النسخ .
(5) الترمذى (٢٧٤٦) ، النسائى (١٠٠٤٥) .
(6) البخارى (٣٢٩١) .
(7) أبو داود (٩١٠) ، النسائى (١١٩٥) .
(8) البخارى (٣٢٩٢) .

الصالحةُ مِنَ اللهِ ، والحُلْمُ مِن الشيطانِ ، فإذا حَلَمَ أحدُكم حُلْمًا يخافُه فليَبْصُقْ عَنْ يَسارِه ، وليتعوذْ باللهِ مِن شرِّها ، فإنَّها لا تضرُّه » . وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا عبدُ الرزاقِ ، حدثنا مَعْمرٌ ، عن همَّامٍ ، عن أبي هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لا يَمْشِيَنَّ[2] أحدُكم إلى أخِيه بالسلاحِ ، فإنَّه لا يَدرِى أحدُكم لعل الشيطانَ أنْ يَنزِعَ[3] فى يدِه ، فيقعَ فى حفرةٍ مِن النارِ » . أخرجاه مِن حديثِ عبدِ الرزاقِ[4] . وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] . وقال[5] : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ - ١٠] . وقال تعالى[6] : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا [٣٨/١ظ] لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ - ١٨] . وقال تعالى[7] : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢] . وقال تعالى إخبارًا عن الجانِّ[8] : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا

---

(١) المسند ٣١٧/٢ ، (صحيح) .

(٢) فى ح ، م : « يشيرن » .

(٣) فى ص : « ينزغ » . وهو لفظ رواية البخارى .

(٤) البخارى (٧٠٧٢) ، مسلم (٢٦١٧) .

(٥) التفسير ٤/٧ .

(٦) التفسير ٤٤٦/٤ .

(٧) التفسير ١٧٥/٦ .

(٨) التفسير ٢٦٧/٨ .

كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٨ ، ٩] .

وقال البخاريُّ[1] : وقال اللَّيْثُ : حدثني خالدُ بنُ يَزِيدَ ، عن سعيدِ بنِ أبي هِلالٍ ، أنَّ أبا الأسْوَدِ أخبَرَه ، عن عُروةَ ، عن عائشةَ ، عن النبيِّ ﷺ قال : « المَلائكةُ تَحدَّثُ في العَنانِ - والعَنانُ الغَمامُ - بالأمرِ يكونُ في الأرضِ ، فتسمعُ الشياطينُ الكلمةَ فتَقُرُّها في أُذُنِ الكاهنِ ، كما تُقَرُّ القارورةُ ، فيزيدُون معها مائةَ كَذِبَةٍ[2] » . هكَذَا رواه في صفةِ إبليسَ معَلَّقًا عن اللَّيْثِ به . ورواه في صفةِ الملائكةِ[3] ، عن سعيدِ بنِ أبي مريمَ ، عن اللَّيْثِ ، عن عُبَيدِ اللهِ بنِ أبي جَعْفرٍ ، عن محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ أبي الأسْوَدِ ، عن عروةَ ، عن عائِشةَ بنحوِه . تفرَّد بهذين الطريقين دونَ مسلمٍ . وروى البخاريُّ في موضعٍ آخرَ ، ومسلمٌ ، مِن حديثِ الزُّهريِّ ، عن يحيى بنِ عروةَ بنِ الزبيرِ ، عن أبيه قال : قالت عائِشةُ : سأل ناسٌ النبيَّ ﷺ عن الكهَّانِ ؟ فقال : « إنَّهم ليسوا بشيءٍ » . فقالوا : يا رسولَ اللهِ ، فإنَّهم يُحدِّثونَ بالشيءِ يكونُ حقًّا . فقال ﷺ : « تلك الكلمةُ مِن الحقِّ ، (٤يخطفُها الجنيُّ٤) فيُقرقِرُها ، في أُذنِ وليِّه كقَرْقَرَةِ الدجاجةِ[5] ، فيخلِطُون معها (٦أكثرَ مِن٦) مائةِ كذبةٍ »[7] . هذا لفظُ البُخاريِّ .

---

(١) البخاري (٣٢٨٨) .

(٢) في م ، ص : « كلمة » .

(٣) البخاري (٣٢١٠) .

(٤ - ٤) في م : « يخطفها من الجنى » ، وفي الأصل : « يحفظها الجنى » .

(٥) قرقرت الدجاجة : رددت صوتها كصوت الزجاجة إذا صب فيها الماء .

(٦ - ٦) سقط من : م ، ص .

(٧) البخاري (٧٥٦١) ، مسلم (٢٢٢٨) .

وقال البخاريُّ[1] : حدثنا الحُمَيْدِيُّ ، حدثنا سفيانُ ، حدثنا عمرٌو[2] قال : سمعتُ عِكْرِمةَ يقولُ : سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ : إنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قال : « إذا قَضَى اللهُ الأمرَ فى السماءِ ، ضَرَبَتِ المَلائكةُ بأجنحتِها خُضْعانًا لقولِه ، كأنَّه سلسلةٌ على صفوانٍ ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا : ماذا قال رُّبكم ؟ قالوا للَّذى قال : الحقَّ ، وهو العلىُّ الكبيرُ . فيسْمعُها مُسْتَرِقُ السمعِ ، ومُسترقُ السمعِ هكذا ، بعضُه فوقَ بعضٍ » . وَوَصَفَ سُفْيانُ بِكفِّه ، فحرَّفها وبدَّد بينَ أصابعِه « فيسمعُ الكلمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحته ، ثم يُلْقِيها الآخرُ إلى مَن تحته ، حتى يُلقيَها على لسانِ الساحرِ أو الكاهنِ ، فربما أدْرَك الشِّهابُ قبلَ أنْ يُلقيَها ، وربما ألقاها قبلَ أنْ يُدرِكَه ، فيَكذبُ معها مائةَ كَذِبةٍ ، فيُقالُ : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا وكذا . فيُصدَّقُ بتلك الكلمةِ التى سُمِعَت مِن السماءِ » . انفرد به [٣٩/١و] البخاريُّ . وروى مسلمٌ[3] ، مِن حديثِ الزُّهْرىِّ ، عن علىِّ بنِ الحسينِ زَيْنِ العابدين ، عن ابنِ عباسٍ ، عن رجالٍ مِن الأنصارِ ، عن النبىِّ ﷺ نحوَ هذا . وقال تعالى[4] : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٨] . وقال تعالى[5] : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت : ٢٥] الآية . وقال تعالى[6] : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ

---

(١) البخارى (٤٨٠٠) .

(٢) فى ح : « عمر » .

(٣) مسلم (٢٢٢٩) .

(٤) التفسير ٢١٤/٧ .

(٥) التفسير ١٦٢/٧ .

(٦) التفسير ٣٨١/٧ .

أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٧ - ٢٩] .
وقال تعالى[1] : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢ ، ١١٣] .

وقد قدَّمنا فى صفةِ المَلائكةِ ما رواه أحمدُ ، ومسلمٌ مِن طريقِ مَنْصورٍ ، عن سالمِ بنِ أبى الجَعْدِ ، عن أبيه واسمُه رافِعٌ ، عن ابنِ مَسْعودٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا وقد وُكِّل به [2]قرينُه مِن الجنِّ[2] ، وقرينُه مِنَ المَلائكةِ » . قالوا : وإيَّاك يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « وإيَّاىَ ، ولكنَّ اللهَ أعانَنِى عليه فلا يأمُرُنى إلَّا بخيرٍ »[3] .

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا عثمانُ بنُ أبى شَيْبَةَ ، حدثنا جَرِيرٌ ، عن قابوسٍ ، عن أبيه ، واسمُه حُصَينُ بنُ جُنْدَبٍ ، وهو أبو ظَبْيانَ الجَنْبِىُّ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ليس مِنكم مِن أحدٍ إلَّا وقد وُكِّل به قرِينُه مِن الشياطينِ » . قالوا : وأنت يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « نَعم ولكنَّ اللهَ أعانَنِى عليه فأَسلَمَ » . تَفرَّد به أحمدُ ، وهو على شرطِ الصحيحِ . وقال الإمامُ أحمدُ[5] : حدثنا هارُونُ ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ ، أخبرنى أبو صَخْرٍ ، عن يزيدَ بنِ قُسَيطٍ ؛ حدثه أنَّ عروةَ بنَ الزبيرِ حدثه ، أنَّ عائشة

---

(١) التفسير ٣/٣١١ .
(٢ - ٢) سقط من : ص .
(٣) تقدم فى صفحة ١١٩ .
(٤) المسند ١/٢٥٧ ، (صحيح) .
(٥) المسند ٦/١١٥ .

زوجَ النبيِّ ﷺ حدثته ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرَج مِن عندِها ليلًا ، قالت : فَغِرْتُ عليه . قالت : فجاء فرأى ما أصنعُ ، فقال : « ما لَكِ يا عائشةُ ، أغِرْتِ ؟ » قالت : فقلتُ : وما لِيَ أنْ لا يغارَ مِثْلِى على مثْلِك ؟! فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « أفأخذَكِ شيطانُك ؟ » قالت : يا رسولَ اللهِ ، أوَ معىَ شيطانٌ ؟ قال : « نعم » . قلتُ : ومع كلِّ إنسانٍ ؟ قال : « نعم » . قلتُ : ومعك يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « نعمْ ، ولكنَّ ربِّى أعانَنِى [٣٩/١ظ] عليه حتى أسلَمَ » . وهكذا رواه مسلمٌ ، عن هارونَ وهو ابنُ سعيدٍ الأيليُّ ، بإسنادِه نحوَه[(١)] .

وقال الإمامُ أحمدُ[(٢)] : حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ ، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ ، عن موسى ابنِ وَرْدانَ ، عن أبى هريرةَ ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ المؤمنَ لَيُنْضِى شيطانَه كما يُنْضِى أحدُكم بعيرَه فى السفرِ » . تفرَّد به أحمدُ مِن هذا الوجهِ . ومعنى « لَيُنْضِى شيطانَه » : ليأْخذُ بناصيتِه فيغلبُه ويقهرُه ، كما يفعلُ بالبعيرِ إذا شَرِدَ ثم غلَبَهْ . وقولُه تعالى[(٣)] إخبارًا عن إبليسَ : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] .

قال الإمامُ أحمدُ[(٤)] : حدثنا هاشِمُ بنُ القاسِمِ ، حدثنا أبو عَقيلٍ ، هو عبدُ اللهِ بنُ عَقيلٍ الثَّقَفِىُّ[(٥)] ، حدثنا موسى بنُ المُسيَّبِ[(٦)] ، عن سالمِ بنِ

---

(١) مسلم (٢٨١٥) .

(٢) المسند ٣٨٠/٢ . قال الهيثمى ١١٦/١ : رواه أحمد وفيه ابن لهيعة .

(٣) التفسير ٣٨٩/٣ .

(٤) المسند ٤٨٣/٣ ، (صحيح الجامع ١٦٤٨) .

(٥) فى المطبوع من مسند أحمد : « السقفى » وهو تصحيف .

(٦) فى المسند : « المثنى » وهو تحريف . انظر تهذيب الكمال ٢٠٢/١٠ ، وتحفة الأشراف ٢٦٤/٣ ، وأطراف المسند ٤٢٥/٢ .

أبى الجَعْدِ ، عن سَبْرَةَ بن أبى فاكهٍ ، قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ الشيطانَ قَعَد لابنِ آدَمَ بأَطْرُقِه ، فقَعَد له بطريقِ الإسلامِ ، فقال : أتُسلمُ وتذرُ دينَك ودِينَ آبائِك ؟ » قال : « فعصاه وأَسلَمَ » . قال : « وقَعَدَ له بطريقِ الهجرةِ ، فقال : أتهاجرُ وتذرُ أرضَك وسماءَك ، وإنما مَثَلُ المهاجرِ كالفرَسِ فى الطِّوَلِ[1] . فعصاه فهاجَرَ ، ثم قَعَدَ له بطريقِ الجهادِ ، وهو جَهْدُ النفسِ والمالِ ، فقال : أتقاتلُ فتُقتَلُ ، فتُنْكَحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المالُ ؟ » قال : « فعصاهُ فجاهَدَ » . قال رسولُ اللهِ ﷺ : « فَمَن فَعَل ذلك مِنهم ، كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَهُ الجنةَ ، وإنْ قُتِلَ كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَه الجنةَ ، وإنْ غَرِقَ كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَه الجنةَ ، وإنْ وَقَصَتْه دابتُه كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَه الجنةَ » . وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا وكِيعٌ ، حدثنا عُبادةُ[3] بنُ مُسْلِمٍ الفَزارِىُّ ، حدثنى جُبَيْرُ بنُ أبى سليمانَ بنِ جُبَيرِ بنِ مُطْعِمٍ ، سمعتُ عبدَ اللهِ ابنَ عمَرَ يقولُ : لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ يدَعُ هذه الدعواتِ حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسِى : « اللهمَّ إنِّى أسأَلُك العافيةَ فى الدنيَا والآخرةِ ، اللهمَّ إنِّى أسأَلُك العفوَ والعافيةَ فى دينِى ودنيایَ وأهلِى ومالِى ، اللهمَّ استرْ عَوْراتِى ، وآمنْ رَوْعَاتِى ، اللهمَّ احفظْنِى مِن بينِ يدَىَّ ومِن خلفِى ، وعن يَمِينِى وعن شِمالِى ومِن فَوْقِى ، وأعوذُ بعظَمتِك أنْ أُغْتالَ مِن تحتِى » . قال وَكِيعٌ : يعنى الخسفَ . ورواه أبو داودَ والنَّسائىُّ وابنُ ماجه وابنُ حِبَّانَ والحاكمُ مِن حديثِ عُبادةَ بنِ مُسْلمٍ به[4] . وقال الحاكمُ : صحيحُ الإسْنادِ . واللهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ .

---

(١) الطول : الحبل يربط به الفرس ليدور ويرعي ولا يذهب لوجهه .

(٢) المسند ٢/٢٥ ، (صحيح) .

(٣) فى المطبوع من المسند : « عمارة » وهو تصحيف ، وأورده ابن كثير على الصواب كما فى المصادر المذكورة بعدُ .

(٤) أبو داود (٥٠٧٤) ، النسائى (٥٥٤٤ ، ٥٥٤٥) مختصرًا ، وفى الكبرى (١٠٤٠١) ، ابن ماجه (٣٨٧١) ، الإحسان (٩٦١) ، المستدرك ١/٥١٧ .

[١/٤٠ و] بـاب ما ورد في خَلْقِ آدَمَ عليْه السَّلامُ

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٩] .

وقال تعالى[2] : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ

---

(١) التفسير ١/٩٩ .

(٢) التفسير ٢/٤٠ .

قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] . وقال تعالى(١) : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] . كما قال(٢) : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقال تعالى(٣) : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآية . وقال تعالى(٤) : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ * قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَـٰٓـَٔادَمُ [١/٤٠ظ] ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا

---

(١) التفسير ٢/١٧٩ .

(٢) التفسير ٧/٣٦٤ .

(٣) التفسير ٣/٥٢٧ .

(٤) التفسير ٣/٣٨٦ .

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ * قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : ١١ - ٢٥] . كما قال فى الآيةِ الأُخرى[1] : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] .

وقال تعالى[2] : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌ بَشَرًا مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٢٦ - ٤٤] . وقال تعالى[3] : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ

---

(١) التفسير ٥/٢٩٢ .

(٢) التفسير ٤/٤٥١ .

(٣) التفسير ٥/٩٠ .

هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦١ – ٦٥] . وقال تعالى[1] : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن [٤١/١و] دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] . وقال تعالى[2] : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١١٥ – ١٢٦] . وقال تعالى[3] : ﴿ قُلْ

---

(١) التفسير ٥/١٦٣ .

(٢) التفسير ٥/٣١٣ .

(٣) التفسير ٧/٧١ .

هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص : ٦٧ - ٨٨] .

فهذا ذِكرُ هذه القصةِ مِن مواضِعَ متفرقةٍ مِنَ القرآنِ ، وقد تكلَّمنا على ذلك كلِّه فى « التفسيرِ » . ولْنذكرْ هٰهنا مضمونَ ما دلَّت عليه هذه الآياتُ الكريماتُ ، وما يتعلقُ بها مِنَ الأحاديثِ الواردةِ فى ذلك عن رسولِ اللهِ ﷺ ، واللهُ المُستعانُ .

فأخبرَ تعالى أنَّه خاطبَ الملائكةَ قائلًا لهم : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . أعْلَمَ بما يريدُ أنْ يخلقَ مِن آدمَ وذريتِه ، الذين يخلُفُ بعضُهم بعضًا ، كما قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] . وقال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] . فأخبرهم بذلك على سبيلِ التَّنويهِ بخلْقِ آدمَ وذرِّيَّتِه ، كما يُخبَرُ بالأمرِ العظيمِ قبلَ كونهِ . فقالت الملائكةُ سائلين على وجهِ الاستكشافِ [١/٤١ظ] والاستعلامِ عن وجهِ الحكمةِ ، لا

على وجهِ الاعتراضِ والتنقُّصِ لبنى آدَمَ والحسدِ لهم ، كما قد يتوهَّمُه جَهَلَةُ المفسِّرينَ : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ . قِيل : عِلِموا أَنَّ ذلك كائنٌ بما رأَوْا مِمَّن كان قبلَ آدمَ مِن الجِنِّ والبِنِّ . قاله قَتادَةُ[1] . وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : كانت الجِنُّ والبِنُّ[2] قبلَ آدمَ بألفَىْ عامٍ ، فسفَكوا الدِّماءَ ، فبعَث اللهُ إليهم جُنْدًا مِن الملائكةِ ، فطرَدُوهم إلى جزائرِ البُحورِ[3] . وعن ابنِ عبَّاسٍ نحوُه[4] . وعن الحسَنِ : أُلْهِمُوا ذلك . وقِيل : لِمَا اطَّلَعُوا عليه مِن اللَّوْحِ المَحْفوظِ . فَقِيلَ : أَطْلَعهم عليه هاروتُ وماروتُ عن مَلَكٍ فوقَهما يُقالُ له : السِّجِلُّ[5] . رواه ابنُ أبى حاتمٍ[6] ، عن أبى جعفرٍ الباقِرِ . وقِيل : لأنَّهم عَلِموا أَنَّ الأَرضَ لا يُخلَقُ منها إلَّا مَن يكونُ بهذه المَثابَةِ غالبًا . ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى ؛ نعبدُك دائمًا لا يَعْصيك منَّا أحَدٌ ، فإنْ كان المُرادُ بخَلْقِ هؤلاء أنْ يعبدُوك ، فها نحنُ لا نَفْتُرُ ليلًا ولا نهارًا . ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى ؛ أعلمُ من المَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فى خلْقِ هؤلاءِ ما لا تَعلمونَ ، أى ؛ سيُوجَدُ منهم الأَنبياءُ والمرسَلُون والصِّدِّيقون والشُّهداءُ . ثم بَيَّن لهم شرفَ آدمَ عليهم فى العلمِ ، فقال : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ . قال ابنُ عَبَّاسٍ[7] : هى هذه الأسماءُ التى يتعارفُ بها الناسُ ؛ إنسانٌ ، ودابَّةٌ ، وأرضٌ ، وسهْلٌ ، وبحرٌ ، وجبَلٌ ، وجمَلٌ ، وحِمارٌ ،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره ٤٢/١ ، وانظر التفسير ١٠٢/١ .

(٢) ليس عند ابن أبى حاتم ذكر البن ، وعنده الجن بالجيم المعجمة .

(٣) ابن أبى حاتم فى تفسيره ١٠٩/١ وهو صحيح الإسناد .

(٤) أخرجه الحاكم فى مستدركه ٢٦١/٢ وقال : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبى .

(٥) فى م : « الشجل » وفى الأصل : « السحل » . والمثبت كما عند ابن أبى حاتم .

(٦) فى تفسيره ١١٢/١ .

(٧) ابن أبى حاتم ١١٥/١ (ضعيف) ، تفسير الطبرى ٢١٥/١ .

وأشباهُ ذلك مِن الأُمم وغيرِها . وفى روايةٍ : علَّمه اسمَ الصَّحْفةِ والقِدْرِ ، حتى الفَسْوَةِ والفُسَيَّةِ . وقال مُجاهِدٌ : علَّمه اسمَ كلِّ دابةٍ ، وكلِّ طيرٍ ، وكلِّ شىءٍ .

وكذا قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ ، وقتادَةُ ، وغيرُ واحدٍ . وقال الرَّبيعُ : علَّمه أسماءَ الملائكةِ . وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زَيْدٍ : علَّمه أسماءَ ذُرِّيَّتِه . والصحيحُ أنَّه علَّمه أسماءَ الذَّواتِ[1] وأفعالَها ؛ مُكَبَّرَها ومُصَغَّرَها . كما أشار إليه ابنُ عبَّاسٍ رضِىَ اللهُ عنهما[2] .

وذكَر البخارِىُّ ههنا ما رواه هو ومسلمٌ[3] ، مِن طريقِ سعيدٍ[4] وهِشامٍ ، عن قَتادَةَ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « يَجْتَمِعُ المؤمنونَ يومَ القِيامةِ فيَقُولُونَ : لو اسْتَشْفَعْنا إلى ربِّنا . فيأْتُونَ آدَمَ فيَقُولُونَ : أنْتَ أبو البَشرِ ، خلَقَكَ اللهُ بيدِه ، وأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَه ، وعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كلِّ شَىءٍ » . وذكَر تمامَ الحديثِ . ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ قال الحسنُ البصرىُّ : لَمَّا أراد اللهُ خلْقَ آدمَ ، قالت الملائكةُ : لا يخلُقُ ربُّنا خَلْقًا [٤٢/١و] إلَّا كنَّا أعلمَ منه . فابْتُلُوا بهذا . وذلك قولُه : ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ وقِيلَ غيرُ ذلك ، كما بسطناه فى « التَّفْسيرِ »[5] . ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أى ؛ سُبْحانَك أنْ يحيطَ أحدٌ بشىءٍ مِن عِلْمِك مِن غيرِ تَعْليمِك ،

---

(١) فى ا : « الدواب » .

(٢) انظر أقوالهم فى تفسير الطبرى ٢١٥/١ ، ٢١٦ .

(٣) البخارى (٤٤٧٦) ، مسلم (١٩٣) .

(٤) فى ح : « معبد » .

(٥) ١٠٥/١ .

كما قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .
﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أى ، أعلمُ السِّرَّ كما أعلمُ العلانيةَ . وقيل : إنَّ المُرادَ بقولِه : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ ما قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ . فهذا ما أبدَوْه ، وبقولِه : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ المُرادُ بهذا الكلامِ إبليسُ ، [1]وما أسرَّه وكتَمَه فى نفسِه من الكِبْرِ والعَداوَةِ لآدَمَ ، عليه السَّلامُ[1] . قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ ، ومُجاهِدٌ ، والسُّدِّىُّ ، والضَّحَّاكُ ، والثَّوْرِىُّ ، واختاره ابنُ جَريرٍ[2] . وقال أبو العالِيَةِ ، والرَّبيعُ ، والحَسَنُ ، وقَتادَةُ : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قولُهم : لن يخلُقَ ربُّنا خلْقًا إلَّا كنا أعلمَ منه ، وأكرمَ عليه منه[3] . وقولُه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ هذا إكْرامٌ عَظيمٌ مِنَ اللهِ تعالى لآدَمَ ، حينَ خلقه بِيَدِهِ ونفَخ فيه مِن رُوحِه ، كما قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] . فهذه أربعُ تَشريفاتٍ ؛ خَلْقُه له بيَدِه الكَريمَةِ ، وَنَفْخُه فيه مِن رُوحِه ، وأمْرُه الملائكةَ بالسُّجودِ له ، وتعليمُه أسماءَ الأشياءِ . ولهذا قال له مُوسى الكَليمُ حينَ اجتمعَ هو وإيَّاه فى المَلإِ الأَعْلَى ، وتناظَرا ، كما سيأتِى : « أنت آدمُ أبو البَشَرِ الذى خلقَكَ اللهُ بيَدِه ، ونَفَخَ فيك مِن رُوحِه ، وأسْجَدَ لك ملائكتَه ، وعلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ ؟ »[4] . وهكذا يقولُ له[5] أهلُ المَحْشرِ يومَ القيامَةِ ، كما تقدَّم ، وكما سيأتِى إن شاء اللهُ تعالى .

(١ - ١) كذا فى : ا . وفى بقية النسخ : « حين أسر الكبر والتخيرة على آدم عليه السلام » .
(٢) تفسير الطبرى ١/٢٢٢ .
(٣) انظر التفسير ١/١٠٦ ، ١٠٧ .
(٤) مسلم (٢٦٥٢) . وأصله عند البخارى (٣٤٠٩) .
(٥) ليست فى : ا ، م .

وقال فى الآيةِ الأُخرَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١١ ، ١٢] . قال الحسنُ البصرىُّ : قاسَ إبليسُ ، وهو أوَّلُ مَن قاسَ . وقال محمدُ بنُ سِيرينَ : أوَّلُ مَن قاسَ إبليسُ ، وما عُبدَتِ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ إلا بالمَقاييسِ . رواهما ابنُ جَريرٍ[1] . ومعنى هذا ، أنَّه نَظَرَ نفسَه بطريقِ المُقايَسَةِ بينَه وبينَ آدَمَ ، فرأى نفسَه أشرَفَ مِن آدَمَ ، فامتَنَعَ مِنَ السُّجودِ له ، مع وُجودِ الأمْرِ له ولسَائِرِ الملائِكَةِ بالسُّجودِ . والقِياسُ إذا كان مُقابَلًا بالنَّصِّ[2] ، كان فاسِدَ [٤٢/١ظ] الاِعْتِبارِ . ثم هو فاسدٌ فى نفسِه ؛ فإنَّ الطينَ أنفعُ وخَيْرٌ مِن النَّارِ ، فَإنَّ الطِّينَ فيه الرَّزانَةُ ، والحِلْمُ ، والأَناةُ ، والنُّمُوُّ ، والنَّارُ فيها الطَّيْشُ ، والخِفَّةُ ، والسُّرْعَةُ ، والإحْراقُ ، ثم آدمُ شرَّفه اللهُ بخَلْقِه له بيَدِه ، ونَفْخِه فيه مِن رُوحِه ؛ ولهذا أمَر الملائِكَةَ بالسُّجودِ له ، كما قال[3] : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌ بَشَرًا مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَـٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٣٥] . استحَقَّ هذا مِن اللهِ تعالى ؛ لأنه استلزم تَنقُّصَه لآدَمَ وازْدِراءَه به

---

(١) تفسير الطبرى ١٣١/٨ . وبعده فى ا : « وقال آخر من السلف : كل قايس فهو إبليسى » .

(٢) فى الأصل ، ح ، ا : « للنص » .

(٣) التفسير ٤٥٢/٤ .

وترفُّعه عليه مخالَفَةَ الأَمْرِ الإلٰهىِّ ، ومُعاندةَ الحقِّ فى النَّصِّ على آدَمَ على التَّعيينِ ، وشَرَعَ فى الاعتذارِ بما لا يُجْدِى عنه شَيْئًا ، وكان اعتذارُه أشَدَّ مِن ذَنْبه ؛ كما قال تعالى فى سورةِ « سُبْحان » : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦١ - ٦٥] . وقال فى سورةِ « الكهف » : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف : ٥٠] . أى ؛ خرَج عن طاعةِ اللهِ عَمْدًا وعنادًا واستكبارًا عن امتثالِ أمرِه ، وما ذاك إلَّا لأنَّه خانه طَبْعُه ومادتُه النارية[1] الخَبيثَةُ أحْوَجَ ما كان إليها ، فإنَّه مخلوقٌ من نارٍ كما قال ، وكما قدمنا[2] فى « صحيحِ مسلمٍ »[3] ، عن عائِشَةَ ، عن رَسولِ اللهِ ﷺ قال : « خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نورٍ ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » .

قال الحسنُ البصرىُّ : لم يكنْ إبليسُ مِن الملائكةِ طَرْفَةَ عينٍ قطُّ . وقال شهرُ بنُ حَوْشَبٍ : كان مِنَ الجنِّ ، فلمَّا أفسدُوا فى الأرضِ بعَث اللهُ إليهم جُنْدًا مِن الملائِكَةِ ، فقتلُوهم وأجلَوْهم إلى جَزائِرِ البحارِ ، وكان إبليسُ مِمَّنْ أُسِرَ ، فأخذُوه معهم إلى السماءِ ، فكان هناك ، فلمَّا أُمِرَتِ الملائكَةُ بالسجودِ امتنَعَ إبليسُ

---

(١) زيادة من : ا .

(٢) فى م : « قدرنا » .

(٣) تقدم فى صفحة ١٢٤ .

منه . وقال ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وجماعةٌ مِن الصحابةِ وسعيدُ بنُ المُسَيَّبِ وآخرونَ : كان إبليسُ رئيسَ الملائكةِ بالسماءِ الدنيا . قال ابنُ عبَّاسٍ : وكان اسمُه عَزازيلَ . وفى روايةٍ عنه[1] : الحارثُ . قال النقَّاشُ[2] : [٤٣/١و] وكُنْيَتُه أبو كُرْدُوسٍ . قال ابنُ عباسٍ : وكان مِن حَىٍّ من الملائكةِ ، يقالُ لهم الجنُّ ، وكانوا خُزَّانَ الجِنانِ ، وكان مِن أشْرَفِهم وأكثرِهم عِلْمًا وعبادةً ، وكان مِن أُولِى الأَجْنِحَةِ الأَرْبَعَةِ ، فمسخَه اللهُ شيطانًا رجيمًا[3] . وقال فى سورةِ « ص » : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٧١ - ٨٥] . وقال فى سورة « الأعراف » : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] . أى بسببِ إغوائِك إيَّاىَ لأقعدنَّ لهم كلَّ مرصدٍ ، ولآتينهم مِن كلِّ جهةٍ منهم . فالسعيدُ مَن خالَفه ، والشقِىُّ من اتَّبَعه .

كما قال الإمامُ أحمدُ : حدثنا هاشمُ بنُ القاسمِ ، حدثنا أبو عَقيلٍ - هو

---

(١) فى م : « عن » . وفى ا : « عبد » . وليست فى : ص .

(٢) تقدمت ترجمته ص ١٣٦ . وانظر التعريف والإعلام للسهيلى ص ٥٧ .

(٣) انظر الأقوال السابقة فى التفسير ١/١١٠ ، ١١١ ، ٥/١٦٤ ، ١٦٥ .

عبدُ اللهِ بنُ عَقيلٍ الثقفيُّ – حدثنا موسى بنُ المسيَّبِ ، عن سالِمِ بنِ أبى الجَعْدِ ، عن سَبْرَةَ بنِ أبى الفاكِهِ[1] قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ الشيْطانَ قعَد لِابنِ آدَمَ بأَطْرُقِه[2] » . وذكَر الحديثَ ، كما قدمناه فى صفةِ إبْليسَ[3] .

وقد اخْتَلَفَ المفسرون فى الملائكةِ المأمورين بالسجودِ لآدَمَ ، أهُمْ جميعُ الملائكةِ – كما دلَّ عليه عمومُ الآياتِ ، وهو قولُ الجمهورِ – أو المرادُ بهم ملائكةُ الأرضِ ، كما رواه ابنُ جريرٍ[4] مِن طريقِ الضحَّاكِ ، عن ابنِ عباسٍ ، وفيه انقطاعٌ ، وفى السياقِ نَكَارَةٌ ، وإنْ كان بعضُ المتأخرين قد رجَّحَه ، ولكنَّ الأظهرَ من السياقاتِ الأوَّلُ ، ويدلُّ عليه الحديثُ : « وأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَه »[5] . وهذا عمومٌ أيضًا ، واللهُ أعلمُ . وقولُه تعالى لإبليسَ : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ و ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ دليلٌ على أنَّه كان فى السماءِ ، فأُمِرَ بالهبوطِ منها والخروجِ مِنَ المنزلةِ والمكانةِ التى كان قد نالها بعبادتِه ، [١/٤٣ظ] وتَشَبُّهِهِ بالملائكةِ فى الطاعةِ والعبادةِ ، ثُمَّ سُلِبَ ذلك بِكِبْرِه وحسدِه ومخالفتِه لربِّهِ ، فأُهْبِط إلى الأرضِ مذْءُومًا مدْحورًا ، وأمر اللهُ آدمَ عليه السلامُ أن يسكنَ هو وزوجتُه الجنةَ ، فقال : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] . وقال فى « الأعراف » : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

---

(١) فى م : « فاتكة » .

(٢) فى ا : « بأطرقه كلها » وهو لفظ الطبرانى (٦٥٥٨) .

(٣) انظر ما تقدم فى صفحة ١٥٩ .

(٤) تفسير الطبرى ١٨٥/٢٣ .

(٥) تقدم ص ١٦٩ .

ﭐلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨ ، ١٩] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٦ - ١١٩] . وسياقُ هذه الآياتِ يقتضِى أنَّ خَلْقَ حواءَ كان قبلَ دخولِ آدمَ الجنةَ ؛ لقولِه : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(١) . وهذا قد صرَّح به (٢)ابنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ(٢) وهو ظاهرُ هذه الآياتِ .

ولكنْ حكَى السُّدِّيُّ ، عن أبى صالحٍ وأبى مالكٍ ، عنِ ابنِ عباسٍ ، وعن مُرَّةَ ، عنِ ابنِ مسعودٍ ، وعن ناسٍ مِنَ الصحابةِ ، أنهم قالوا : أُخْرِج إبليسُ مِنَ الجنةِ ، وأُسْكِن آدمُ الجنةَ ، فكان يمشِى فيها وَحْشًا ليس له فيها زوجٌ يسكنُ إليها ، فنام نوْمةً ، فاستيقظ وعندَ رأسِه امرأةٌ قاعدةٌ ، خلقها اللهُ مِن ضِلْعِه ، فسألها : مَن أنتِ ؟ قالت : امرأةٌ . قال : ولِـمَ خُلِقْتِ ؟ قالت : لتسكُنَ إلىَّ . فقالتْ له الملائكةُ ، ينظرون ما بلَغ مِن علمِه : ما اسمُها يا آدمُ ؟ قال : حواءُ . قالوا : ولِمَ كانتْ حواءَ ؟ قال : لأنها خُلقَتْ مِن شيءٍ حيٍّ(٣) . وذكَر محمدُ ابنُ إسحاقَ ، عنِ ابنِ عباسٍ ، أنَّها خُلقتْ مِن ضِلْعِه الأقصرِ الأيسرِ وهو نائمٌ ، ولأَمَ مكانَه لحمًا . ومصداقُ هذا فى قولِه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] الآيةَ . وفى قولِه تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن

---

(١) انظر التفسير ١/١١١ ، ١١٢ .

(٢ - ٢) فى م : « إسحاق بن بشار » ، وفى ص : « إسحاق بن يسار » ، وفى ا : « إسحق » .

(٣) تفسير الطبرى ١/٢٢٩ .

نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ [الأعراف : ١٨٩] الآيةُ[١] . وسنتكلمُ عليها فيما بعدُ إن شاء اللهُ تعالى .

وفى « الصحيحين »[٢] مِن حديثِ زائدةَ ، عن مَيْسرةَ الأَشْجَعِيِّ ، عن أَبِى حازمٍ ، عن أبى هريرةَ ، عنِ النبيِّ ﷺ ، أنَّه قال : « اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خيرًا ، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِنْ [١/٤٤و] ضِلَعٍ ، وإنَّ أَعْوَجَ شيءٍ فى الضلَعِ أَعلاهُ ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُه كَسَرْتَه ، وإنْ تَرَكْتَه لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فاسْتَوْصُوا بالنساءِ خَيْرًا » . لفظُ البخاريِّ .

وقد اختلف المفسرون فى قولِه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ فقِيل : هى الكَرْمُ . ورُوِىَ عَنِ ابنِ عباسٍ ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ ، والشَّعْبىِّ ، وجَعْدَةَ بنِ هُبَيرَةَ ، ومحمدِ بنِ قيسٍ ، والسُّدِّىِّ ؛ فى روايةٍ ، عنِ ابنِ عباسٍ ، وابنِ مسعودٍ ، وناسٍ مِن الصحابةِ ، قال : وتزْعُمُ يهودُ أنَّها الحِنْطَةُ . وهذا مروىٌّ عنِ ابنِ عباسٍ ، والحسنِ البصْرىِّ ، ووهْبِ بنِ منبهٍ ، وعطيةَ العَوْفِىِّ ، وأبى مالكٍ ، ومُحارِبِ بنِ دِثارٍ ، وعبدِ الرحمنِ بنِ أبِى ليلَى . قال وهْبٌ : والحبةُ[٣] منه ألْيَنُ مِن الزبدِ وأحلَى مِن العسلِ . وقال الثَّوْرِىُّ ، عن حُصينٍ[٤] ، عن أَبِى مَالكٍ ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ : هى النخْلةُ . وقال ابنُ جُرَيْجٍ ، عن مُجاهدٍ : هى التينَةُ . وبه قال قَتادَةُ ، وابنُ

---

(١) تفسير الطبرى ٤/٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) البخارى (٣٣٣١) ، مسلم (١٤٦٨) .

(٣) فى ا ، ص : « الخبز » ، وفى الأصل ، ح : « الخبر » .

(٤) فى م ، ص : « أبى حصين » .

جُرَيْجٍ . وقال أبو العاليةِ : كانت شجرةً ، مَن أكَل منها أحْدَث ، ولا ينبغِى فى الجنةِ حَدَثٌ[1] .

وهذا الخلافُ قريبٌ . وقد أبهمَ اللهُ ذكرَها وتعيينَها ، ولو كان فى ذكرِها مصلحةٌ تعودُ إلينا لعيَّنها لنا ، كما فى غيرِها مِن المَحالِّ التى تُبْهَمُ فى القرآنِ .

وإنما الخلافُ الذى ذَكروه فى أنَّ هذه الجنةَ التى أُسْكِنَها آدمُ ، هل هى فى السماءِ أو فى الأرضِ ؟ هو الخلافُ الذى ينبغِى فصلُه والخروجُ منه . والجمهورُ على أنَّها هى التى فى السماءِ ، وهى جنةُ المأْوَى ؛ لظاهرِ الآياتِ والأحاديثِ ، كقولِه تعالَى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ١٢٥] . والألفُ واللامُ ليست للعُمومِ ، ولا لِمَعْهودٍ لفظىٍّ ، وإنَّما تعودُ على مَعْهودٍ ذهْنىٍّ ، وهو المستقِرُّ شرعًا مِن جنةِ المأْوَى ، وكقولِ موسى عليه السلامُ لآدمَ عليه السلامُ : « علامَ أخرجْتَنَا ونفسَك مِن الجنةِ » . الحديثُ . كما سيأتِى الكلامُ عليه[2] . وروى مسلمٌ فى « صحيحِه »[3] ، مِن حديثِ أبى مالكٍ الأشْجَعِىِّ واسمُه سعدُ بنُ طارقٍ ، عن أبى حازمٍ سَلَمَةَ بنِ دينارٍ ، عن أبى هريرةَ ، وأبى مالكٍ ، عن رِبْعىٍّ ، عن حُذَيْفَةَ ، قالا : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « يجمَعُ اللهُ الناسَ فيقومُ المؤمنون حينَ[4] تُزْلَفُ لهم الجنةُ ، فيأْتُونَ آدمَ فَيقولونَ : يا أبانا ، استَفْتِح لنا الجنةَ . فيقولُ : وهل أخرَجَكُم مِن الجنةِ إلَّا خطيئةُ أبيكم ؟ » . وذكَر الحديثَ بطولِه ، وهذا فيه قوةٌ جيدةٌ ظاهرةٌ فى الدَّلالةِ على أنَّها جنةُ المأْوَى ، وليست تخلُو عن نظرٍ .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١/٢٣١ - ٢٣٣ .

(٢) يأتى بطرقه فى صفحة ١٩١ - ١٩٩ .

(٣) مسلم (١٩٥) .

(٤) فى صحيح مسلم : « حتى » .

وقال آخرون : بل الجنةُ التى أُسْكِنَها آدمُ لم تكنْ جنةَ الخُلْدِ ؛ لأنَّه كُلِّف فيها أنْ لا يأكلَ [١/٤٤ظ] مِن تلك الشجرةِ ، ولأنَّه نام فيها ، وأُخْرِجَ منها ، ودخل عليه إبليسُ فيها ، وهذا مما ينافِى (١)أَنْ تكونَ(١) جنةَ المأْوَى . وهذا القولُ محكِيٌّ عن أُبَىٍّ بنِ كعبٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ عباسٍ ، ووهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، وسفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، واختاره ابنُ قُتَيْبَةَ فى « المعارفِ »(٢) ، والقاضى منذرُ بنُ سعيدٍ البلُّوطىُّ فى « تفسيرِه » ، وأفرد له مُصنَّفًا على حِدَةٍ ، وحكاه عن أبى حنيفةَ الإمامِ وأصحابِه ، رحمهم اللهُ . ونقله أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ عمرَ الرازىُّ ابنُ خطيبِ الرىِّ فى « تفسيرِه »(٣) ، عن أبى القاسمِ البلخِىِّ ، وأبى مسلمٍ الأصبهانىِّ . ونقله القرطبىُّ فى « تفسيرِه »(٤) عنِ المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ . وهذا القولُ هو نصُّ التوراةِ التى بأيدِى أهلِ الكتابِ(٥) . وممَّن حَكَى الخلافَ فى هذه المسألةِ ، أبو محمدٍ ابنُ حزمٍ فى « المِلَلِ والنِّحَلِ »(٦) . وأبو محمدٍ ابنُ عطيةَ فى « تفسيرِه »(٧) ، وأبو عيسى الرمانىُّ فى « تفسيرِه » ، وحكَى عن الجمهورِ الأولَ ، وأبو القاسمِ الراغبُ ، والقاضى الماوَرْدىُّ فى « تفسيرِه » فقال : واخْتُلِف فى الجنةِ التى أُسْكِناها - يعنى آدمَ وحواءَ - على قولين ؛ أحدُهما : أنَّها جنةُ الخُلْدِ . الثانى : جنةٌ أعدَّها اللهُ لهما ، وجعلها دارَ ابتلاءٍ وليستْ جنةَ الخلدِ التى جعلها اللهُ دارَ جزاءٍ . ومَن قال بهذا اختلفوا على قولين ؛ أحدُهما : أنَّها فى السماءِ ؛ لأنَّه أَهْبَطَهما منها . وهذا قولُ الحسنِ . والثانى :

(١ - ١) فى ا : « حال ساكنى » .

(٢) المعارف ١٥ .

(٣) تفسير الرازى ٣/٣ .

(٤) تفسير القرطبى ٣٠٢/١ .

(٥) سفر التكوين ، الأصحاح الثانى (٨ - ٢٢) .

(٦) الملل والنحل ٨٢/٤ ، ٨٣ .

(٧) تفسير ابن عطية ٢٣٦/١ .

أنَّها فى الأرضِ ؛ لأنَّه امْتَحَنَهما فيها بالنهىِ عنِ الشجرةِ التى نُهيا عنها دونَ غيرِها مِنَ الثمارِ . وهكذا قولُ (١ابنِ جبيرٍ١) ، وكان ذلك بعدَ أنْ أُمِرَ إبليسُ بالسجودِ لآدمَ . واللهُ أعلمُ بالصوابِ مِن ذلك . هذا كلامُه .

فقد تضمَّن كلامُه حكايةَ أقوالٍ ثلاثةٍ ، وأَشْعَرَ كلامُه أنه مُتوقِّفٌ فى المسألةِ ؛ ولهذا(٢) حكى أبو عبدِ اللهِ الرازىُّ فى « تفسيرِه » ، فى هذه المسألةِ أربعةَ أقوالٍ ؛ هذه الثلاثةَ التى أوردها الماوَرْدِىُّ . ورابعُها : الوقفُ . (٣ورجَّح القولَ الأوَّلَ . واللهُ أعلمُ٣) . (٤وحَكَى القولَ بأنَّها فى السماءِ وليست جنةَ المأْوَى ، عن أبى علىٍّ الجُبَّائىِّ٤) .

وقد أورد أصحابُ القولِ الثانى سؤالًا يحتاجُ مثلُه إلى جوابٍ ، فقالوا : لا شكَّ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى طرد إبليسَ حينَ امْتَنَعَ مِنَ السجودِ عن الحضرةِ الإلَـٰهيةِ ، وأمره بالخروجِ عنها والهبوطِ منها ، وهذا الأمرُ ليس مِن الأوامرِ الشرعيةِ بحيثُ يمكنُ مُخالَفتُه ، وإنَّما هو أمرٌ قَدَرِىٌّ لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ ؛ ولهذا قال : ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨] . وقال : ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] . وقال : ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر : ٣٤] . والضميرُ عائدٌ إلى الجنةِ أو السماءِ أو المنزلةِ ، وأيًّا ما كان ، فمعلومٌ أنَّه ليس له الكونُ (٥بعدَ هذا٥) فى المكانِ الذى طُرِدَ عنه ، وأُبْعِدَ منه [١/٤٥و] لا على سبيلِ الاستقرارِ ، ولا على سبيلِ المرورِ والاجتيازِ . قالوا : ومعلومٌ مِن ظاهرِ سياقاتِ القرآنِ أنَّه وسوسَ

(١ - ١) كذا فى : ا . وفى بقية النسخ : « ابن يحيى » .
(٢) فى ا ، م : « ولقد » .
(٣ - ٣) زيادة من : الأصل .
(٤ - ٤) ليس فى : الأصل .
(٥ - ٥) فى ح ، م ، ص : « قدرا » .

لآدَمَ وخاطَبه بقولِه له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] . وبقولِه : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠ ، ٢١] الآيةُ . وهذا ظاهرٌ فى اجتماعِه معهما فى جنتِهما . وقد أُجيبوا عن هذا بأنَّه لا يمتنعُ أنْ يجتمعَ بهما فى الجنةِ على سبيلِ المرورِ فيها ، لا على سبيلِ الاستقرارِ بها ، أو أنَّه وسْوسَ لهما وهو على بابِ الجنةِ ، أو مِن تحتِ السماءِ . وفى الثلاثةِ نظرٌ . واللهُ أعلمُ .

ومما احتجَّ به أصحابُ هذه المقالةِ ، ما رواه عبدُ اللهِ بنُ الإمامِ أحمدَ ، فى الزياداتِ[1] ، عن هُدْبَةَ بنِ خالدٍ ، عن حمادِ بنِ سلمةَ ، عن حُميدٍ ، عنَ الحسنِ البصْرِىِّ ، عن [2]عُتَىٍّ ، هو[2] ابنُ ضَمْرةَ السَّعْدِىُّ ، عن أُبَىِّ بنِ كعبٍ قال : إنَّ آدمَ لَمَّا احْتُضِر ، اشتَهَى قِطْفًا مِن عنبِ الجنةِ ، فانطَلَق بنوه لِيَطلبوه له ، فلَقِيَتْهُم الملائكةُ فقالوا : أينَ تُريدون يا بنى آدمَ ؟ فقالوا : إنَّ أبانَا اشتهَى قِطْفًا من عنبِ الجنةِ . فقالوا لهم : ارجعُوا فقد كُفِيتُمُوهُ . فانتهَوْا إليه فقبضوا رُوحَه ، وغسَّلُوه ، وحنَّطوه ، وكفَّنوه ، وصلى عليه جبريلُ [3]وبَنُوه خلفَ[3] الملائكةِ ، ودفَنوه ، وقالوا : هذه سُنَّتُكم فى موتاكم . وسيأتى الحديثُ بسندِه وتمامِ لفظِه عندَ ذكْرِ وفاةِ آدمَ ، عليه السلامُ . قالوا : فلولا أنَّه كان الوصولُ إلى الجنةِ التى كان فيها آدمُ التى اشتهَى منها القِطْفَ مُمْكِنًا لَمَا ذهبوا يطْلُبون ذلك ، فدلَّ على أنَّها فى الأرضِ لا فى السماءِ . واللهُ تعالى أعلمُ .

قالوا : والاحتجاجُ بأنَّ الألفَ واللَّامَ فى قولِه : ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٦/٥ . قال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير عتى بن ضمرة وهو ثقة . المجمع ١٩٩/٨ .

(٢ - ٢) فى ح ، م ، ص : « يحيى » .

(٣ - ٣) فى م : « ومن خلفه من » .

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ لم يتقدمْ عهدٌ يعودُ عليه ، فهو المعهودُ الذهْنيُّ مُسَلَّمٌ ، ولكنْ هو ما دَلَّ عليه سياقُ الكلامِ ، فإنَّ آدمَ خُلِق مِن الأرضِ ، ولم يُنْقَلْ أنه رُفِع إلى السماءِ . وخُلِق ليكونَ فى الأرضِ ، وبهذا أَعلَمَ الربُّ الملائكةَ حيث قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

قالوا : وهذا كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [القلم : ١٧] . فالألفُ واللامُ ليس للعُمومِ ، ولم يتقدمْ معهودٌ لفظىٌّ ، وإنما هى للمعهودِ الذهنىِّ الذى دلَّ عليه السياقُ ، وهو البُستانُ .

قالوا : وذِكْرُ الهبوطِ لا يدُلُّ على النزولِ مِنَ السماءِ ، بل هو كقولِه تعالى : ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود : ٤٨] الآيةُ . [١/٤٥ظ] وإنما كان فى السفينةِ حينَ اسْتَقرَّت على الجُودِىِّ ، ونَضَبَ الماءُ عن وجهِ الأرضِ ، أُمِر أَنْ يهبِطَ إليها هو ومَن معه مُبارَكًا عليه وعليهم . وقال اللهُ تعالى : ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : ٦١] الآيةُ . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] الآيةُ . وفى الأحاديثِ واللغةِ مِن هذا كثيرٌ .

قالوا : ولا مانِعَ ، بل هو الواقعُ ، أنَّ الجنةَ التى أُسْكِنَها آدمُ كانت مرتفعةً عن سائرِ بقاعِ الأرضِ ، ذاتَ أشجارٍ ، وثمارٍ ، وظلالٍ ، ونعيمٍ ، ونَضْرَةٍ ، وسرورٍ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ [طه : ١١٨] . أى لا يُذَلَّ باطنُك بالجوعِ ، ولا ظاهرُك بالعُرْىِ . ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٩] . أى ، لا يَمَسُّ باطنَك حرُّ الظمأِ ولا ظاهِرَك حرُّ الشمسِ ؛ ولهذا قَرَنَ بينَ هذا وهذا ، وبينَ هذا وهذا ؛ لِمَا بينَهما مِن المقابلةِ[1] . فَلَمَّا كان منه ما كان مِن أَكْلِه مِنَ الشجرةِ التى نُهِىَ عنها ، أُهْبِطَ

---

(١) فى م ، ص : « الملاءمة » .

إلى أرضِ الشقاءِ ، والتعبِ ، والنَّصَبِ ، والكَدَرِ ، والسَّعىِ ، والنَّكَدِ ، والابتلاءِ ، والاختبارِ ، والامتحانِ ، واختلافِ السُّكَّانِ ؛ دِينًا ، وأخلاقًا ، وأعمالًا ، وقُصودًا[1] ، وإراداتٍ ، وأقوالًا ، وأفعالًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] . ولا يلزمُ مِن هذا أنَّهم كانوا فى السماءِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] . ومعلومٌ أنَّهم كانوا فيها ، لم يكونوا فى السماءِ .

قالوا : وليس هذا القولُ مُفَرَّعًا على قولِ مَن ينكرُ وجودَ الجنةِ والنارِ اليومَ[2] ، وَلا تلازُمَ بينَهما ، فكلُّ مَن حُكِىَ عنه هذا القولُ مِنَ السلفِ وأكثرِ الخلفِ مِمَّن يُثْبِتُ وجودَ الجنةِ والنارِ اليومَ ، كما دلَّت عليه الآياتُ والأحاديثُ الصِّحاحُ ، كما سيأتى إيرادُها فى موضِعِها ، واللهُ سُبحانَه وتعالى أعلمُ بالصوابِ .

وقولُه تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة : ٣٦] . أى ؛ عنِ الجنةِ ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أى ، مِن النعيمِ ، والنَّضرةِ ، والسُّرورِ إلى دارِ التعبِ والكدِّ والنَّكدِ ، وذلك بما وَسْوَسَ لهما ، وزيَّنه فى صدورِهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] . يقولُ : ما نهاكما عن أَكْلِ هذه الشجرةِ إلَّا أَنْ تكونا مَلَكين أو تكونا مِن الخالدين ، أى ، ولو أكلتما منها ، لصِرْتُما كذلك ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ أى ، حَلَفَ لهما على ذلك ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾

---

(١) فى ح : « وتصورًا » .

(٢) زيادة من : م .

[الأعراف : ٢١] . كما قال فى الآيةِ الأخرَى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] . أى ؛ هل أدلُّك على الشجرةِ التى [٤٦/١و] إذا أكلْتَ منها حصل لك الخلدُ فيما أنتَ فيه مِن النَّعيمِ ، واستمررْتَ فى مُلْكٍ لا يَبِيدُ ولا ينقضِى ؟ وهذا مِن التغريرِ والتزويرِ والإخْبارِ بخلافِ الواقعِ . والمقصودُ أنَّ قولَه : ﴿ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ التى إذا أكَلْتَ منها خلدتَ .

وقد تكونُ هى الشجرةَ التى قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا عبدُ الرحمنِ بنُ مهدىٍّ ، حدثنا شُعْبَةُ ، عن أبى الضَّحّاكِ ، سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ فى الجنَّةِ شَجَرَةً يسيرُ الرَّاكِبُ فى ظِلِّها مِائةَ عَامٍ لا يقطَعُها ؛ شَجَرةَ الخُلْدِ » . وكذا رواه أيضًا ، عن غُنْدَرٍ وحجاجٍ ، عن شعبةَ[2] . ورواه أبو داودَ الطَّيالِسِىُّ فى « مُسْنَدِه » ، عن شُعْبَةَ أيضًا به[3] . قال غُنْدرٌ : قلتُ لشُعْبَةَ : هى شجرةُ الخُلْدِ ؟ قال : ليس فيها « هى » . تفرَّد به الإمامُ أحمدُ .

وقولُه : ﴿ فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] . كما قال فى « طه » : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وكانت حواءُ أكلت مِنَ الشجرةِ قبلَ آدَمَ ، وهى التى حَدَتْه[4] على أكلِها ،

---

(١) المسند ٤٦٢/٢ (صحيح الجامع ٢١٢١) .
(٢) المسند ٤٥٥/٢ .
(٣) مسند الطيالسى (٢٥٤٧) .
(٤) فى ا : « حدثته » .

واللهُ أعلمُ . وعليه يُحْمَلُ الحديثُ الذى رواه البخارىُّ[1] ، حدثنا بِشْرُ بنُ محمدٍ ، حدثنا عبدُ اللهِ ، أنبأنا مَعْمَرٌ ، عن هَمّامِ بنِ مُنَبِّهٍ ، عن أبى هريرةَ ، عنِ النبىِّ ﷺ : « لولا بَنُو إسْرائيلَ لم يَخْنَزِ[2] اللحمُ ، ولولا حَوّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا » . تفرَّد به مِن هذا الوجهِ . وأخرجاه فى « الصحيحَين » مِن حديثِ عبدِ الرَّزاقِ ، عن مَعْمَرٍ ، عن هَمَّامٍ ، عن أبى هريرةَ[3] . ورواه أحمدُ ومسلمٌ ، عن هارونَ بنِ معروفٍ ، عن أبى وَهْبٍ ، عن عمرِو بنِ الحارثِ ، عن أبى يونسَ ، عن أبى هريرةَ[4] .

وفى كتابِ « التَّوراةِ » التى بينَ أيدِى أهلِ الكتابِ ، أنَّ الذى دَلَّ حواءَ على الأَكْلِ مِنَ الشجرةِ هى الحيةُ[5] ، وكانت مِن أحسنِ الأشكالِ وأعظمِها ، فأَكلتْ حواءُ عن قولِها وأطعمتْ آدمَ عليه السلامُ - وليس فيها ذِكْرٌ لإبليسَ - فعندَ ذَلك انْفَتَحَتْ أعينُهما وعَلِما أنَّهما عُرْيانان ، فَوَصلا مِن ورقِ التِّينِ ، وعَمِلا مَآزِرَ ، وفيها أنَّهما كانا عُرْيانَيْن . وكذا قال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ : كان لباسُهما [6]نورًا على فَرْجِه وفَرْجِها[6][7] .

وهذا الذى فى هذه « التوراةِ » التى بأيديهم غلطٌ منهم وتحريفٌ وخطأٌ فى التعريبِ ، فإنَّ نقْلَ الكلامِ مِن لغةٍ إلى لغةٍ لا يكادُ يتيسَّرُ لكلِّ أحدٍ ، ولاسِيَّما

---

(1) البخارى (٣٣٣٠) .
(2) يخنز : ينتن .
(3) البخارى (٣٣٩٩) ، مسلم (١٤٧٠) .
(4) مسند أحمد ٣٠٤/٢ ، ٣١٥ ، ٣٤٩ . مسلم (١٤٧٠) .
(5) كما فى سفر التكوين الأصحاح الأول (١ - ٥) .
(٦ - ٦) فى ا : « يوارى فرجهما » .
(7) رواه الطبرى فى تفسيره ١٤٣/٨ ، وصحح ابن كثير إسناده . التفسير ٣٩٤/٣ .

مِمَّنْ لا يعرِفُ كلامَ العربِ جيدًا ، ولا يُحِيطُ علمًا بِفَهْمِ كِتابِه أيضًا ؛ فلهذا وَقَع فى تعريبِهِم لها خَطَأٌ كثيرٌ ، لفظًا ومعنًى .

وقد دَلَّ القرآنُ العظيمُ على أنَّه كان عليهما لِباسٌ فى قولِه : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا [٤٦/١ظ] لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف : ٢٧] . فهذا لا يُرَدُّ لغيرِه مِنَ الكلامِ ، واللهُ تعالى أعلمُ .

وقال ابنُ أبى حاتِمٍ[١] : حدثنا علىُّ بنُ الحسينِ ابنِ إشكابَ ، حدثنا علىُّ ابنُ عاصمٍ ، عن سعيدِ بنِ أبى عَروبةَ ، عن قَتادَةَ ، عن الحسنِ ، عن أُبَىِّ ابنِ كعبٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ خلَقَ آدمَ رجلًا طُوَالًا ، كثيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ[٢] ، فلمَّا ذَاقَ الشجرةَ سقَط عَنه لباسُه ، فأَوَّلُ ما بدَا منه عورتُه ، فلَمَّا نظَرَ إلى عورتِه جعلَ يَشْتَدُّ فى الجنةِ ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شجرةٌ فنازَعَهَا ، فناداه الرحمنُ عز وجل : يا آدمُ ، مِنِّى تَفِرُّ . فَلَمَّا سَمِعَ كلامَ الرحمنِ قال : يا ربِّ ، لا ، ولكنِ اسْتِحياءً » . وقال الثَّورِىُّ ، عن ابنِ أبى ليلَى ، عنِ المِنهالِ بنِ عمرٍو ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ ، عنِ ابنِ عباسٍ ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] قال : ورقِ التينِ[٣] . وهذا إسنادٌ صحيحٌ إليه ، وكأنَّه مأخوذٌ مِن أهلِ الكتابِ . وظاهرُ الآيةِ يقتضِى أعَمَّ مِن ذلك ، وبتقديرِ تسليمِه ، فلا يضرُّ ، واللهُ تعالى أعلمُ .

وروى الحافِظُ ابنُ عَساكرَ[٤] مِن طريقِ محمدِ بنِ إسحاقَ ، عنِ الحسنِ

(١) فى تفسيره ١٢٩/١ . وإسناده صحيح بمجموع طرقه . وفى متنه غرابة .

(٢) سحوق : طويلة .

(٣) تفسير الطبرى ١٤٢/٨ .

(٤) تاريخ دمشق ٤٠٤/٧ .

ابنِ ذَكْوانَ ، عن الحسنِ البصرىِّ ، عن أُبَىِّ بنِ كعبٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أباكُمْ آدمَ كان كالنخلةِ السَّحُوقِ ، سِتينَ ذِراعًا ، كثيرَ الشَّعْرِ ، مُوارَىَ العَوْرَةِ ، فلَمَّا أَصابَ الخطيئةَ فى الجنةِ بدَتْ له سَوْأَتُه ، فخرجَ مِن الجنةِ ، فلَقِيَتْه شجرةٌ ، فأَخذتْ بناصِيَتِهِ ، فنَادَاهُ رَبُّه : أفرارًا مِنِّى يا آدَمُ ؟ قال : بل حياءً منك واللهِ يارَبِّ مِمّا جِئْتُ به » . ثم رواه مِن طريقِ سعيدِ بنِ أبى عَروبَةَ ، عن قتادةَ ، عنِ الحسنِ ، عن عُتَىٍّ[1] بنِ ضَمْرَةَ ، عن أُبَىِّ بنِ كعبٍ ، عن النبىِّ ﷺ بنحوِه[2] . وهذا أَصَحُّ ، فإنَّ الحسنَ لم يُدرِكْ أُبَيًّا . ثم أورده أيضًا مِن طريقِ خَيْثَمَةَ بنِ سليمانَ الأطرابلسىِّ ، عن محمدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ أبى قِرْصافةَ العسقلانىِّ ، عن آدمَ بنِ أبى إياسٍ ، عن شَيْبَانَ ، عن قتادةَ ، عن أنسٍ ، مرفوعًا بنحوِه[3] .

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[4] [الأعراف : ٢٢ ، ٢٣] . وهذا اعترافٌ ، ورُجوعٌ إلى الإنابةِ ، وتَذَلُّلٌ ، وخُضوعٌ ، واستكانةٌ ، وافتقارٌ إليه تعالى فى الساعةِ الرَّاهنةِ . وهذا السِّرُّ ما سَرَى فى أحدٍ مِن ذريتِه إلَّا كانت عاقبتُه إلى خيرٍ فى دُنْياه وأُخْراه .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[5] [الأعراف : ٢٤] . وهذا [٤٧/١و] خطابٌ لآدمَ وحواءَ وإبليسَ .

---

(١) فى ح ، م ، ص : « يحيى » .

(٢) تاريخ دمشق ٤٠٥/٧ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٠٤/٧ .

(٤) التفسير ٣٩٣/٣ .

(٥) التفسير ٣٩٥/٣ .

قيل : والحَيّةُ معهم . أُمِرُوا أن يهبِطوا مِنَ الجنةِ فى حالِ كونِهم مُتَعادِين مُتَحاربين[1] . وقد يُسْتَشهَدُ لذِكْرِ الحيةِ معهما بما ثبتَ فى الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه أمر بِقَتْلِ الحيّاتِ ، وقال : « ما سالَمْناهنَّ منذ حارَبْناهُنَّ »[2] .

وقولُه[3] فى سورةِ « طه » : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣] . هو أمرٌ لآدمَ وإبليسَ [4]وما تناسل منهما عداوةً مستمرةً[4] ، واستتبع آدمَ حواءُ ، وإبليسَ الحيةُ[5] . وقيل : هو أمرٌ لهم بصيغةِ التثنيةِ[6] ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] . والصحيحُ أنَّ هذا لَمَّا كان الحاكِمُ لا يحكُمُ إلا بينَ اثنينِ ؛ مُدَّعٍ ، ومدَّعًى عليه ، قال : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ . وأمَّا تكريرُه الإهْباطَ فى سورةِ « البقرة » فى قولِه : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٦ - ٣٩] . فقال بعضُ المفسِّرين : المرادُ بالإهباطِ

(١) فى ا : « متباغضين » .

(٢) أبو داود (٥٢٤٨) ، مسند أحمد ٢٣٠/١ ، ٢٤٧/٢ ، ٤٣٢ ، ٥٢٠ ، (صحيح) .

(٣) التفسير ٣١٥/٥ .

(٤ - ٤) زيادة من : ا .

(٥) يناسب اقتران إبليس بالحية الحديث الذى ذكره المصنف عن الإمام أحمد - وتقدم ص ١٣٦ - أن ابن صياد رأى عرش إبليس وحوله الحيات .

(٦) فى ح : « التنبيه » .

الأولِ الهبوطُ مِنَ الجنةِ إلى السَّماءِ الدنيا ، وبالثانى مِنَ السَّماءِ الدُّنيا إلى الأرضِ . وهذا ضعيفٌ ؛ لقولِه فى الأولِ : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . فَدَلَّ على أنهم أُهبِطُوا إلى الأرضِ بالإهباطِ الأولِ ، واللهُ أعلمُ . والصحيحُ أنه كرره لفظًا ، وإنْ كان واحدًا ، وناطَ مع كلِّ مرةٍ حُكْمًا ، فَناطَ بالأولِ عَداوتَهم فيما بينَهم ، وبالثَّانى الاشْتراطَ عليهم ، أنَّ مَن تَبِعَ هُداه الذى يُنَزِّلُه عليهم بعدَ ذلك فهو السعيدُ ، ومَن خالفه فهو الشقىُّ . وهذا الأُسْلوبُ فى الكلامِ له نظَائِرُ فى القرآنِ الحكيمِ .

وروى الحافِظُ ابنُ عساكِرَ[1] ، عن مُجاهدٍ ، قال : أَمَرَ اللهُ مَلَكيْن أَنْ يُخْرِجا آدمَ وحواءَ مِن جِوارِه ، فنزَع جبريلُ التَّاجَ عن رأسِه ، وحَلَّ مِيكائيلُ الإكْلِيلَ عن جَبينِه ، وتعلَّقَ به غُصْنٌ ، فظنَّ آدمُ أنَّه قد عُوجِل بالعقوبةِ ، فَنَكَّس رأسَه يقولُ : العَفْوَ العَفْوَ . فقال اللهُ سبحانه : فِرارًا مِنِّى يا آدمُ ؟ قال : بل حَياءً منك يا سيدِى . وقال الأَوْزاعىُّ عن حسّانَ ، هو ابنُ عطيةَ : مَكَث آدمُ فى الجنةِ مائةَ عامٍ . وفى روايةٍ : ستين عامًا ، وبكى على الجنةِ سبعين عامًا ، وعلى خطيئتِه سبعينَ عامًا ، وعلى ولَدِه حين قُتِل أربعينَ عامًا . [٤٧/١ظ] رواه ابنُ عساكِرَ[1] .

وقال ابنُ أبى حاتِمٍ[2] : حدثنا أبو زُرْعةَ ، حدثنا عثمانُ بنُ أبى شَيْبةَ ، حدثنا جريرٌ ، [3]عن عطاء[3] عن سعيدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : أُهْبِطَ آدمُ ،

---

(١) تاريخ دمشق ٤٠٩/٧ .

(٢) تفسير ابن أبى حاتم ١٣٢/١ بإسناد ضعيف .

(٣ - ٣) سقط من النسخ . والمثبت من تفسير ابن أبى حاتم .

عليه السلامُ ، إلى أرضٍ يُقالُ لها: دَحْنا . بينَ مكةَ والطائفِ . وعن الحسنِ ، قال : أُهْبِط آدمُ بالهنْدِ ، وحواءُ بجُدَّةَ ، وإبليسُ بدَسْتِمَيْسانَ[1] ، مِنَ البصرةِ على أميالٍ ، وأُهْبِطَت الحيّةُ بأصبهانَ . رواه ابنُ أبى حاتِمٍ أيضًا[2] . وقال السُّدِّىُّ : نَزَلَ آدمُ بالهندِ ، ونَزَل معه بالحجرِ الأسودِ ، وبِقَبْضَةٍ مِن ورقِ الجنةِ ، فبثَّه فى الهندِ ، فنبتَتْ شجرةُ الطِّيبِ هناك[3] . وعن ابنِ عُمَرَ ، قال : أُهْبِطَ آدمُ بالصَّفا ، وحواءُ بالمَرْوَةِ . رواه ابنُ أبى حاتِمٍ أيضًا[4] .

وقال عبدُ الرَّزَّاقِ[5] : قال مَعْمَرٌ : أخبرنى عوفٌ ، عن قَسامةَ بنِ زُهَيرٍ ، عن أبى موسى الأشْعَرىِّ ، قال : إنَّ اللهَ حينَ أَهْبَطَ آدمَ مِنَ الجنةِ إلى الأرضِ علَّمه صَنْعَةَ كلِّ شيءٍ ، وزوَّدَه مِن ثمارِ الجنَّةِ ، فثمارُكم هذه مِن ثمارِ الجنةِ ، غيرَ أنَّ هذه تتغيَّرُ ، وتلك لا تتغيَّرُ . وقال الحاكِمُ فى « مُسْتَدْرَكِه »[6] : أنبأنا أبو بكرٍ ابنُ بالُويَه ، عن محمدِ بنِ أحمدَ بنِ النضرِ ، عن معاويةَ بنِ عَمرٍو[7] ، عن زائدَةَ ، عن عمَّارِ بنِ أبى معاويةَ البَجَلىِّ ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : ما أُسْكِنَ آدمُ الجنةَ إلَّا ما بينَ صلاةِ العصرِ إلى غُروبِ الشمسِ . ثم قال : صحيحٌ على شرطِ الشيخين ولم يُخْرِجاه .

وفى « صحيحِ مسلمٍ »[8] مِن حديثِ الزهرِىِّ ، عنِ الأعرجِ ، عن أبى

---

(١) فى ا : « بميسان » .
(٢) تفسير ابن أبى حاتم ١٣٢/١ . حديث غريب .
(٣) تفسير ابن أبى حاتم ١٣٣/١ . والخبر غريب . وإسناده فيه مقال .
(٤) تفسير ابن أبى حاتم ١٣١/١ . والخبر منقطع .
(٥) تفسير عبد الرزاق ٤٣/١ ، ٤٤ .
(٦) المستدرك ٥٤٢/٢ . ووافقه الذهبى .
(٧) فى م : « عمر » .
(٨) مسلم (٨٥٤) .

هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « خيرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشمسُ يومُ الجُمُعَةِ ، فيه خُلِقَ آدمُ ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ ، وفيه أُخْرِجَ منها » . وفى « الصحيحِ » مِن وجهٍ آخَرَ : « وفيه تقومُ السَّاعةُ » . وقال أحمدُ[1] : حدثنا محمدُ بنُ مُصْعبٍ ، حدثنا الأَوْزاعىُّ ، عن أبى عمَّارٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ فَرُّوخٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « خيرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيه الشمسُ يومُ الجُمُعَةِ ، فيه خُلِقَ آدمُ ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ ، وفيه أُخْرِجَ منها ، وفيه تقومُ الساعةُ » . وإسنادُه على شرْطِ مسلمٍ .

فأمَّا الحديثُ الذى رواه ابنُ عساكِرَ[2] مِن طريقِ أبى القاسمِ البغوىِّ ، حدثنا محمدُ بنُ جعفرٍ الوَركانىُّ ، حدثنا سعيدُ بنُ مَيْسرةَ ، عن أنسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « هَبَطَ آدمُ وحواءُ عُرْيانَيْنِ جَمِيعًا ، عليهما ورَقُ الجنَّةِ ، فأَصَابَه الحَرُّ حتى قَعَدَ يَبْكِى ويقولُ لها : يا حواءُ ، قَدْ آذانِى الحرُّ » . قال : « فَجَاءَه [٤٨/١و] جبريلُ بقُطْنٍ وأمَرها أَنْ تَغْزِلَ وعلمها ، وأَمَرَ آدمَ بالحِياكةِ ، وعلَّمَه أَنْ يَنْسِجَ » . قال : « وكان آدمُ لم يُجامِعِ امْرَأَتَه فى الجَنَّةِ حتى هَبَطَ منها ؛ للخطيئةِ التى أصابَتْهُما بأكلِهما من الشجرةِ » . قال : « وكان كلُّ واحدٍ منهما ينامُ على حِدَةٍ ؛ ينامُ أَحدُهُما فى البَطْحاءِ ، والآخرُ مِن ناحِيَةٍ أُخرى ، حتى أَتَاه جبريلُ فَأَمَره أَنْ يَأْتِىَ أَهْلَه » . قال : « وعَلَّمَه كيفَ يَأْتِيها ، فَلَمَّا[3] أَتَاها جاءه جِبريلُ ، فقال : كيفَ وَجَدْتَ امرأَتَكَ ؟ قال : صالِحَةً » . فإنَّه حديثٌ غريبٌ ، ورَفْعُه مُنْكَرٌ جدًّا ، وقد يكونُ من كلامِ بعضِ السلفِ ، وسعيدُ بنُ مَيْسَرَةَ هذا ، هو أبو عِمرانَ البَكرىُّ البصرىُّ ، قال فيه البخارىُّ :

---

(١) مسند أحمد ٥٤٠/٢ ، (صحيح الجامع ٣٣٢٨) .

(٢) تاريخ دمشق ٤١٣/٧ . وقال السيوطى : سنده ضعيف . الدر المنثور ٥٧/١ .

(٣) فى ح ، ا : « فكلما » .

مُنْكَرُ الحديثِ . وقال ابنُ حِبانَ : يروِى الموضوعاتِ . وقال ابنُ عَدِىٍّ : مُظْلِمُ الأمرِ[1] .

وقولُه : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] . قِيل : هى قولُه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] . رُوِىَ هذا عن مُجاهدٍ ، وسعيدِ ابنِ جُبَيرٍ ، وأبى العاليةِ ، والربيعِ بنِ أنسٍ ، والحسنِ ، وقتادَةَ ، ومحمدِ ابنِ كعبٍ ، وخالدِ بنِ مَعْدَانَ ، وعطاءٍ الخُرَاسانىِّ ، وعبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ ابنِ أسلمَ[2] . وقال ابنُ أبى حاتِمٍ[3] : حدثنا علىُّ بنُ [4]الحسينِ ابنِ إشكابَ[4] ، حدثنا علىُّ بنُ عاصمٍ ، عن سعيدِ بنِ أبى عَروبةَ ، عن قتادَةَ ، عن الحسنِ ، عن أُبَىٍّ بنِ كعبٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « قال آدمُ عليه السلامُ : أَرَأَيْتَ يا رَبِّ إنْ تُبْتُ ورَجَعْتُ ، أَعائدِى إلى الجَنَّةِ ؟ قالَ : نَعَمْ » . فذلك قولُه : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِ ﴾ . وهذا غريبٌ مِن هذا الوجهِ ، وفيه انقطاعٌ .

وقال ابنُ أبى نَجيحٍ ، عن مُجاهِدٍ ، قال : الكلماتُ : اللهمَّ لا إلهَ إلَّا أنتَ سبحانَك وبحمدِك ، ربِّ إنِّى ظَلَمتُ نفسى ، فاغفِرْ لى إنَّك خيرُ الغافرين ، اللهمَّ لا إلهَ إلَّا أنتَ سبحانَك وبحمدِك ، ربِّ إنِّى ظلمتُ نفسى فاغفرْ لى إنَّك خيرُ الرَّاحِمِين ، اللهمَّ لا إلهَ إلَّا أنتَ سبحانَك وبحمدِك ، رَبِّ إنِّى ظلمتُ نفسى فَتُبْ علَىَّ ، إنَّك أنت التَّوابُ الرحيمُ[5] . وروى الحاكِمُ فى

---

(١) انظر الكامل لابن عدى ١٢٢٣/٣ . ولسان الميزان ٤٥/٣ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٤٣/١ - ٢٤٥ . التفسير ١١٦/١ .

(٣) فى تفسيره ١٣٥/١ .

(٤ - ٤) فى الأصل ، ح ، ا : « الحسن بن إشكاب » . وفى ص : « الحسين بن إسكاب » .

(٥) تفسير الطبرى ٢٤٤/١ ، ٢٤٥ .

« مُسْتَدْرَكِه »[1] ، مِن طريقِ سَعيدِ بنِ جبيرٍ ، عن ابنِ عباسٍ فى قولِه : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ قال : قال آدمُ : يا ربِّ ، ألم تَخْلُقنى بيدِك ؟ قِيل له : بَلَى . ونَفخْتَ فِىَّ مِن رُوحِك ؟ قِيل له : بلى . وعَطَسْتُ ، فقلْتَ : يرحَمُك اللهُ ، وسبقَتْ رَحْمَتُك غضَبَك ؟ قيل له : بلى . [2]وكَتَبْتَ علَىَّ أن أعملَ هذا ؟ قيل له : بلى[2] . قال : أفرأيْتَ إنْ تُبتُ ، هل أنت راجِعِى إلى الجنَّةِ ؟ [١/٤٨ظ] قال : نعم . ثم قال الحاكمُ : صحيحُ الإسنادِ ولم يُخرجاه . وروَى الحاكِمُ أيضًا ، والبَيْهقىُّ ، وابنُ عساكِرَ[3] مِن طريقِ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ ، عن أبيه ، عن جَدِّه ، عن عمرَ بنِ الخطَّابِ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لمَّا اقترفَ آدمُ الخطيئةَ ، قال : يا ربِّ ، أسألُك بحقِّ محمدٍ ألَّا غفَرْتَ لى ! فقال اللهُ : فكيفَ عرفْتَ محمدًا ولم أَخْلُقْه بعدُ ؟ فقال : يا ربِّ ، لأنك لَمَّا خَلَقْتَنى بيدِك ونفخْتَ فِىَّ مِن رُوحِك رفَعْتُ رأسى فرأيتُ على قوائمِ العرشِ مكتوبًا : لا إلهَ إلَّا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ ، فعلِمْتُ أنَّك لم تُضِفْ إلى اسمِك إلَّا أحبَّ الخَلْقِ إليك . فقال اللهُ : صدقْتَ يا آدَمُ ، إنَّه لأحبُّ الخلقِ إلىَّ ، وإذْ سَألْتَنِى بحقِّه فَقَدْ غفرْتُ لك ، ولولا محمدٌ ما خَلَقْتُك » . قال البَيْهَقِىُّ : تفرَّد به عبدُ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ ، مِن هذا الوجهِ ، وهو ضعيفٌ ، واللهُ أعلمُ . وهذه الآيةُ كقولِه تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ٢١ ، ٢٢] .

---

(١) المستدرك ٢/٥٤٥ . ووافقه الذهبى .

(٢ - ٢) ليس فى المستدرك .

(٣) المستدرك ٢/٦١٥ وقال الذهبى : رواه عبد الله بن مسلم الفهرى ولا أدرى من ذا . دلائل النبوة للبيهقى ٥/٤٨٨ ، تاريخ دمشق ٧/٤٣٧ . وهو حديث موضوع (السلسلة الضعيفة ٢٥) .

ذِكْرُ احتجاجِ آدمَ وموسَى (١) عَلَيهما الصلاةُ والسَّلامُ (١)

قال البخاريُّ[٢] : حدثنا قُتَيْبةُ ، حدثنا أيوبُ بنُ النَّجَّارِ ، عن يحيى بنِ أبى كثيرٍ ، عن أبى سلمةَ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « حاجَّ موسَى آدمَ ، عليهما السَّلامُ ، فقال له : أنتَ الذى أخْرَجْتَ الناسَ مِن الجنةِ بِذَنْبِكَ وأَشْقَيْتَهُمْ ؟ قال آدمُ : يا موسَى ، أنتَ الذى اصطفاكَ اللهُ برِسَالاتِه وبكلامِه ! أَتَلُومُنِى على أمرٍ كَتَبه اللهُ علىَّ قبلَ أن يَخْلُقَنِى - أَوْ - قدَّرَه علىَّ قبل أن يَخْلُقَنِى ؟ » . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « فَحَجَّ آدمُ مُوسَى » . وقد رواه مسلمٌ عن عمرٍو الناقدِ ، والنَّسائىُّ عن محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ يزيدَ ، عن أيوبَ بنِ النَّجارِ به[٣] . قال أبو مسعودٍ الدِّمشقىُّ : ولم يُخَرِّجا[٤] عنه فى « الصحيحين » سِواه[٥] . وقد رواه أحمدُ[٦] ، عن عبدِ الرزاقِ ، عَن مَعْمَرٍ ، عن هَمَّامٍ ، عن أبى هريرةَ ، ورواه مسلمٌ ، عن محمدِ بنِ رافعٍ ، عن عبدِ الرَّزاقِ به .

وقال الإمامُ أحمدُ[٧] : حدثنا أبو كامِلٍ ، حدثنا إبراهيمُ ، حدثنا ابنُ شهابٍ[٨] ، عن حُميدِ بنِ عبدِ الرحمنِ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال

(١ - ١) فى م ، ص : « عليهما السلام » .
(٢) البخارى (٤٧٣٨) .
(٣) مسلم (٢٦٥٢) ، النسائى (١١٣٢٩) .
(٤) فى م : « يخرجاه » .
(٥) انظر تحفة الأشراف ٦٥/١١ .
(٦) مسند أحمد ٣١٤/٢ ، وهو فى صحيح مسلم (٢٦٥٢) .
(٧) مسند أحمد ٢٦٤/٢ ، (صحيح) .
(٨) فى م ، ص : « أبو شهاب » .

رسولُ اللهِ ﷺ : « احتَجَّ آدمُ ومُوسى ، فقال له موسى : أَنت آدمُ الذى أخرجَتْك خطيئَتُكَ مِن الجنةِ ؟ فقال له آدمُ : وأنت موسى الذى اصْطفاكَ اللهُ برسالاتِه وبكلامِه ؟ تَلُومُنِى على أَمرٍ قُدِّرَ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ » . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « فَحَجَّ آدمُ موسى ، فَحَجَّ آدمُ موسى » مرتين . [٤٩/١و] قلْتُ : وقد روَى هذا الحديثَ البخارىُّ ومسلمٌ[١] ، مِن حديثِ الزهرىِّ ، عن حُميدِ ابنِ عبدِ الرحمنِ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ نحوَه .

وقال الإمامُ أحمدُ[٢] : حدثنا معاويةُ بنُ عمرٍو ، حدثنا زائدةُ ، عن الأعمشِ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « احْتَجَّ آدَمُ وموسى ، فقال موسى : يا آدمُ ، أَنتَ الذى خلقكَ اللهُ بيَدِه ، ونفخَ فِيكَ مِنْ رُوحِه ، أَغْوَيْتَ الناسَ ، وأَخْرَجْتَهُمْ مِن الجنةِ » . قال : « فقال آدمُ : وأَنتَ موسى الذى اصْطفاكَ اللهُ بكلامِه ، تلُومُنِى على عَمَلٍ أعملُه كَتَبَه اللهُ علىَّ قبلَ أن يَخْلُقَ السمواتِ والأرضَ ؟ » قال : « فَحَجَّ آدمُ موسى » . وقد رواه التِّرمذىُّ ، والنَّسائىُّ[٣] جميعًا ، عن يحيى بنِ حبيبِ [٤]بنِ عَرَبىٍّ[٤] ، عن مُعْتَمِرِ[٥] ابنِ سليمانَ ، عن أبيه ، عنِ الأَعْمشِ به . قال التِّرمذىُّ : وهو غريبٌ مِن حديثِ سليمانَ التيمىِّ ، عن الأَعْمشِ . قال : وقد رواه بعضُهم عنِ الأعمشِ ، عن أبى صالحٍ [٦]عن أبى هريرةَ . قال : وقد رواه بعضُهم عن أبى صالحٍ[٦] ، عن أبى سعيدٍ . قلتُ : هكذا رواه الحافِظُ أبو بكرٍ البَزَّارُ فى « مُسْنَدِه »[٧] عن

---

(١) البخارى (٣٤٠٩) ، مسلم (٢٦٥٢) .

(٢) مسند أحمد ٣٩٨/٢ .

(٣) الترمذى (٢١٣٤) ، والنسائى (١١٤٤٣) .

(٤ - ٤) فى النسخ : « بن عدى » . والتصويب من سنن النسائى والترمذى . وانظر تهذيب التهذيب ١٩٥/١١ .

(٥) فى الأصل ، ح ، م : « معمر » .

(٦ - ٦) زيادة من : ا .

(٧) كشف الأستار (٢١٤٧ ، ٢١٤٨) .

محمدِ بنِ مُثَنَّى ، عن مُعاذِ بنِ أسدٍ ، عنِ الفَضْلِ بنِ موسى ، عنِ الأعمشِ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى سعيدٍ . ورواه البَزَّارُ أيضًا : حدثنا عمرُو ابنُ علىٍّ الفَلَّاسُ ، حدثنا أبو معاويةَ ، حدثنا الأعمشُ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، أو أبى سعيدٍ ، عن النبىِّ ﷺ . فذكر نحوَه .

وقال أحمدُ[1] : حدثنا سفيانُ ، عن عمرٍو ، سمعَ طاووسًا ، سمع أبا هريرةَ ، يقولُ : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « احتَجَّ آدمُ وموسى ، فقال موسى : يا آدمُ ، أنتَ أبونا ، خَيَّبْتَنا وأخرجتنا مِن الجنةِ . فقال له آدمُ : يا موسى ، أنتَ اصْطَفَاكَ اللهُ بكلامِه . وقال مَرَّةً : بِرِسَالَتِه ، وخَطَّ لَكَ بِيَدِه ؟ أَتَلُومُنِى على أمرٍ قَدَّرَه اللهُ علىَّ قَبْلَ أن يَخْلُقَنِى بأربعينَ سنةً ؟ » قال : « حَجَّ آدمُ موسى ، حَجَّ آدمُ موسى ، حَجَّ آدمُ مُوسى » . وهكذا رواه البخارىُّ[2] عن علىِّ ابنِ المَدِينىِّ ، حدثنا سفيانُ ، قال : حَفِظْناه مِن عمرٍو ، عن طاووسٍ ، قال : سمعتُ أبا هريرةَ عنِ النبىِّ ﷺ قال : « احتجَّ آدمُ وموسى ، فقالَ موسى : يا آدمُ ، أنتَ أبونا ، خَيَّبْتَنا وأُخرجتنا مِن الجنةِ . فقال له آدمُ : يا موسى ، اصطفاكَ اللهُ بكلامِه وخَطَّ لَكَ بِيَدِه ، أَتَلُومُنِى على أمرٍ قَدَّرَه اللهُ عَلَىَّ قبلَ أن يَخْلُقَنِى بأربعينَ سنةً ؟ فَحَجَّ آدمُ موسى ، فَحَجَّ آدمُ موسَى » . هكذا ثلاثًا . قال سفيانُ : حدثنا أبو الزِّنادِ ، عن الأعرجِ ، عن أبى هريرةَ ، عنِ النَّبىِّ ﷺ مثلَه[3] . وقد رواه الجماعةُ إلا ابنَ ماجَه ، مِن عشرِ طُرُقٍ ، عن سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، عن عمرِو بنِ دينارٍ ، (4)عن عبدِ اللهِ بنِ طاووسٍ ، عن أبيه(4) ، عن

---

(1) مسند أحمد ٢٤٨/٢ (صحيح) .

(2) البخارى (٦٦١٤) .

(3) انظر فتح البارى ٥٠٦/١١ .

(4 - 4) كذا بالنسخ وهى كذلك فى تحفة الأشراف ١٢٢/١٠ . وذِكْرُ عبد الله بن طاووس مقحم ولم يرد فى مصادر التخريج . فالله أعلم .

أبى هريرةَ ، عنِ النبيِّ ﷺ بنحوِه[1] .

وقال أحمدُ[2] : حدثنا عبدُ الرحمنِ ، حدثنا حمادٌ ، عن عَمّارٍ ، عن أبى هريرةَ ، عنِ النبيِّ ﷺ ، قال : « لَقِىَ آدمُ موسى ، فقال : أَنتَ آدمُ الذى خلقَكَ اللهُ بيَدِه ، وأَسْجَدَ لك ملائكتَه ، وأسْكَنَك الجَنةَ ، [٤٩/١ظ] ثم فعلتَ ؟ فقال : أنت موسى الذى كلمك اللهُ واصطفاكَ برسالتِه ، وأنزلَ عليكَ « التوْراةَ » ؟ أنا أقْدمُ أَمِ الذِّكْرُ ؟ قال : لا ، بل الذِّكْرُ . فحَجَّ آدمُ موسَى » . قال أحمدُ : وحدثنا عفّانُ ، حدثنا حَمادٌ ، عن عمّارِ بنِ أبى عمارٍ ، عن أبى هُريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ . وحميدٌ عنِ الحسنِ ، عن رُجُلٍ ، قال حمادٌ : أظنُّه جُنْدَبَ بنَ عبدِ اللهِ البَجَلىَّ ، عنِ النبىِّ ﷺ ، قال : « لَقِىَ آدمُ موسى » . فذكر معناه . تفرَّدَ به أحمدُ مِن هذا الوجهِ[2] .

وقال أحمدُ[3] : حدثنا حُسينٌ[4] ، حدثنا جريرٌ ، هو ابنُ حازمٍ ، عن محمدٍ ، هو ابنُ سِيرينَ ، عن أبى هُريرَةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لَقِىَ آدمُ موسى ، فقالَ : أنتَ آدمُ الذى خَلَقَكَ اللهُ بيَدِه وأسْكَنَكَ جَنَّتَه ، وأَسْجَدَ لكَ مَلائِكَتَه ، ثم صَنَعْتَ ما صَنَعْتَ ؟ قالَ آدمُ : يا موسى ، أَنتَ الذى كَلَّمَه اللهُ ، وأنزلَ عليه « التوراةَ » ؟ قال : نَعَمْ . قال فهلْ تَجِدُه مَكتوبًا عَلَىَّ قبلَ أن أُخْلَقَ ؟ قال : نعم . قال : فَحَجَّ آدمُ موسى ، فَحَجَّ آدمُ موسى » . وكذا رواه حمَّادُ بنُ زيدٍ ، عن أيوبَ وهشامٍ ، عن محمدِ بنِ سِيرينَ ، عن أبى هريرةَ ،

---

(١) البخارى (٦٦١٤) ، مسلم (٢٦٥٢) ، أبو داود (٤٧٠١) ، النسائى (١١١٨٧) ، ابن ماجه (٨٠) .

(٢) مسند أحمد ٤٦٤/٢ .

(٣) مسند أحمد ٣٩٢/٢ .

(٤) فى ح : « حسين المعلم » . وفى م : « الحسن » . وهو حسين بن محمد بن بهرام التميمى شيخ الإمام أحمد . تهذيب التهذيب ٣٦٦/٢ .

رفَعَه . وكذا رواه عليُّ بنُ عاصِمٍ ، عن خالدٍ وهشامٍ ، عن محمدِ بنِ سِيرِينَ . وهذا على شرطِهما مِن هذه الوجوهِ[1] .

وقال ابنُ أبي حاتِمٍ : حدثنا يونسُ بنُ عبدِ الأعْلى ، أنبأنا ابنُ وهبٍ ، أخبرني أنسُ بنُ عِياضٍ ، عنِ الحارثِ بنِ أبي ذُبابٍ ، عن يزيدَ بنِ هُرْمُزَ : سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « احْتجَّ آدَمُ ومُوسَى عندَ ربِّهما ، فَحَجَّ آدمُ مُوسى ؛ قالَ مُوسى : أَنتَ الذى خَلقَكَ اللهُ بِيَدِه ، ونَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِه ، وأَسْجَدَ لَكَ ملائكتَه ، وأسْكَنَكَ جنتَه ، ثم أَهْبَطْتَ النَّاسَ إلى الأرضِ بِخَطِيئَتِكَ ؟ قال آدمُ : أنت موسى الذى اصْطَفَاكَ اللهُ بِرسالَتِه وكلامِهِ ، وأعطاكَ الألواحَ فيها تِبْيانُ كلِّ شيءٍ وقَرَّبَكَ نَجِيًّا ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ « التوراةَ » ؟ قالَ موسى : بأربعينَ عامًا . قال آدمُ : فهل وجدتَ فيها : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ ؟ قال : نَعَمْ . قال أَفَتَلُومُنِى عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قبلَ أن يَخْلُقَنِي بأَربعينَ سنةً ؟ » . قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « فَحَجّ آدَمُ مُوسَى » . قال الحارِثُ : وحدثنى عبدُ الرحمنِ ابنُ هُرْمُزَ بذلك عن أبي هريرةَ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ . وقد رواه مسلمٌ[2] عن إسحٰقَ بنِ موسى الأنصاريِّ ، عن أنسِ بنِ عِياضٍ ، عنِ الحارثِ [١/٥٠و] ابنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ذُبابٍ ، عن يزيدَ بنِ هُرْمُزَ والأَعْرَجِ ، كلاهما عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ بنحوِه .

وقال أحمدُ[3] : حدثنا عبدُ الرزاقِ ، أنبأنا مَعْمَرٌ ، عن الزُّهْرِيِّ ، عن أبي سلمةَ ، عن أبي هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « احتَجَّ آدمُ وموسَى ،

---

(١) تاريخ دمشق ٧/٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(٢) مسلم (٢٦٥٢) .

(٣) مسند أحمد ٢/٢٦٨ (صحيح) .

فقال موسَى لِآدمَ : يا آدمُ ، أنتَ الذى أَدْخلتَ ذُرِّيَّتكَ النارَ ؟ فقال آدمُ : يا موسى ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِرسالاتِه وبكلامِه ، وأنزلَ عليكَ « التَّوراةَ » ، فهل وجدتَ أنِّى أَهْبِطُ ؟ قال : نعَمْ » . قال : « فَحجّه آدمُ » . وهذا على شَرْطِهما ، ولم يُخرِّجاه مِن هذا الوجهِ . وفى قولِه : « أَدْخلْتَ ذرِّيتَك النارَ » . نكارةٌ .

فهذه طُرُقُ هذا الحديثِ عن أبى هريرةَ ، رواه عنه حُمَيْدُ بنُ عبدِ الرحمنِ ، وذَكْوانُ أبو صالحٍ السَّمانُ ، وطاوُوسُ بنُ كَيْسانَ ، وعبدُ الرحمنِ بنُ هُرْمُزَ الأعرجُ ، وعمّارُ بنُ أبى عمَّارٍ ، ومحمدُ بنُ سِيرِينَ ، وهَمَّامُ بنُ مُنَبِّهٍ ، ويزيدُ ابنُ هُرْمُزَ ، وأبو سلمةَ بنُ عبد الرحمنِ .

وقد رواه الحافظُ أبو يَعْلَى المَوْصليُّ فى « مُسْنَدِه »[1] مِن حديثِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ ، رَضِىَ اللهُ عنه ، فقال : حدثنا الحارِثُ بنُ مِسْكِينٍ المصرىُّ ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ وهبٍ ، أخبرنى هشامُ بنُ سعدٍ ، عن زيدِ بنِ أسلمَ ، عن أبيه ، عن عمرَ بنِ الخطابِ ، عنِ النبىِّ ﷺ ، قال : « قال موسى عليه السَّلامُ : يا ربِّ ، أرِنَا آدمَ الذى أَخْرَجَنا ونَفْسَه مِن الجنةِ . فأَرَاهُ آدمَ عليهِ السلامُ ، فقال : أنتَ آدمُ ؟ فقال له آدمُ : نعم . قال : أنتَ الذى نَفَخَ اللهُ فيكَ من رُوحِهِ ، وأَسْجَدَ لك ملائكته ، وعَلَّمَكَ الأسماءَ كُلَّها ؟ قال : نَعَم . قال : فما حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنا ونَفْسَكَ مِن الجنةِ ؟ فَقَالَ له آدمُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أنا موسى . قال : أنتَ موسى نَبىُّ بنى إسرائيلَ ؟ أنتَ الذى كَلَّمَكَ اللهُ من وراءِ الحجابِ فلم يجعلْ بَيْنَكَ وبَيْنَه رسولًا من خَلْقِه ؟ قال : نَعَم . قال : تَلُومُنِى عَلَى أَمْرٍ قَدْ سَبَقَ من اللهِ عز وجل القضاءُ به قَبْلُ ؟! » قال رسولُ اللهِ ﷺ : « فَحَجَّ آدمُ موسى ، فَحَجَّ آدمُ موسى » . ورواه أبو داودَ[2] ، عن أحمدَ بنِ صالحٍ المصرىِّ ، عن ابنِ وَهْبٍ به . قال

---

(١) مسند أبى يعلى (٢٤٣) إسناده جيد .

(٢) أبو داود (٤٧٠٢) .

أبو يَعْلَى[1] : وحدثنا محمدُ بنُ المثنَّى ، حدثنا عبدُ الملكِ بنُ الصبَّاحِ المِسْمَعِيُّ ، حدثنا عِمرانُ ، عن الرُّدَيْنِيِّ بنِ[2] أبى مِجْلَزٍ ، عن يحيى بنِ يَعْمُرَ ، عن ابنِ عمرَ ، عن عمرَ - قال أبو محمدٍ : أَكْثَرُ[3] ظَنِّى أنه رفَعَه - قال : « الْتَقَى آدمُ وموسى ، قال موسى لآدمَ : أنتَ أبو النَّاسِ[4] ، أَسْكَنَكَ اللهُ جنتَه ، وأسجَدَ لك ملائكتَه . قال آدمُ : يا موسى ، أَمَا تَجِدُه عَلَىَّ[5] مَكْتُوبًا ؟ » قال : « فَحَجَّ آدمُ مُوسَى ، [١/٥٠ظ] فَحَجَّ آدمُ موسى » . وهذا الإِسْنادُ أيضًا لا بأْسَ به ، واللهُ أعلمُ .

وقد تقدَّم روايةُ الفَضْلِ بنِ موسى لهذا الحديثِ ، عن الأعمشِ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى سعيدٍ . وروايةُ الإمامِ أحمدَ له ، عن عفانَ ، عن حمادِ بنِ سلمةَ ، عن حُمَيدٍ ، عن الحسنِ ، عن رجلٍ . قال حَمَّادٌ : أَظُنُّه جُنْدَبَ بنَ عبدِ اللهِ البَجَلِىَّ ، عن النبىِّ ﷺ : « لَقِىَ آدَمُ مُوسَى » . فذكَر معناه[6] .

وقد اختلفتْ مسالِكُ الناسِ فى هذا الحديثِ ، فرَدَّه قومٌ مِنَ القدريةِ ؛ لِما تضمَّنَ مِن إثْباتِ القَدَرِ السابقِ . واحتجَّ به قومٌ من الجبريةِ ، وهو ظاهِرٌ لهم بادِىَ الرأىِ ؛ حيثُ قال : « فحجّ آدمُ موسى » . لَمَّا احتَجَّ عليه بِتَقْديمِ كتابِه ، وسيأتى الجوابُ عن هذا . وقال آخرون : إنَّما حَجَّه ؛ لأنه لامَه على ذنبٍ قد تابَ منه ، والتَّائبُ مِن الذنبِ كمن لا ذنبَ له . وقيل : إنما حَجَّه ؛ لأنَّه

---

(١) مسند أبى يعلى (٢٤٤) .

(٢) فى م ، ص : « عن » .

(٣) فى النسخ : « أكبر » . والمثبت من مسند أبى يعلى .

(٤) فى م ، ص : « البشر » .

(٥) ليست فى مسند أبى يعلى .

(٦) تقدم بهذه الأسانيد فى صفحة ١٩٢ - ١٩٥ .

أَكْبَرُ منه وأقْدمُ . وقِيل : لأَنَّه أبوه . وقِيل : لأَنَّهما فى شريعتين مُتَغايرتين . وقيل : لأَنَّهما فى دارِ البَرْزَخِ وقد انقطع التكليفُ فيما يزعمونه .

والتحقيقُ ، أنَّ هذا الحديثَ رُوِىَ بألْفاظٍ كثيرةٍ بعضُها مروىٌّ بالمعنَى وفيه نظَرٌ ، ومدارُ معظمِها فى « الصحيحين » وغيرِهما ، على أنَّه لامَه على إخْراجِه نَفْسَه وذُرِّيَّتَه من الجنةِ ، فقال له آدَمُ : أَنَا لم أُخرِجْكم ، وإنَّما أَخرَجَكُم الذى رتَّب الإِخراجَ على أكلِى مِن الشجرةِ ، والذى رتَّب ذلك ، وقدَّره ، وكتَبه علىَّ قبلَ أَنْ أُخْلَقَ ، هو اللهُ عزَّ وجلَّ ، فأنت تلومُنى على أمرٍ ليس له نسبةٌ إلىَّ أكثرَ ما أنِّى نُهِيتُ عن الأكلِ من الشجرةِ ، فأكلْتُ منها ، وكَوْنُ الإخراجِ مترَتِّبًا على ذلك ليس مِن فِعْلِى ، فأَنَا لم أُخرِجْكُم ولا نَفْسِى من الجنةِ ، وإنما كان هذا مِن قَدَرِ(1) اللهِ وصُنْعِه ، وله الحكمةُ(2) فى ذلك ؛ فلهذا حَجَّ آدمُ موسى .

ومن كذَّب بهذا الحديثِ فمُعانِدٌ ؛ لأَنَّه متواترٌ عن أبى هريرةَ ، رضىَ اللهُ عنه ، وناهِيك به عَدَالةً ، وحِفْظًا ، وإتْقانًا . ثم هو مَرْوِىٌّ عن غيره مِن الصَّحابةِ ، كما ذكرنا . ومَن تأَوَّلَه بتلك التَّأْويلاتِ المذكورةِ آنِفًا ، فهو بعيدٌ مِن اللَّفظِ والمعنَى ، وما فيهم مَن هو أَقْوَى مَسْلَكًا مِن الجَبْرِيَّةِ . وفيما قالوه نظرٌ مِن وجوهٍ ؛ أحدُها ، أنَّ موسى ، عليه السلامُ ، لا يلومُ على أَمْرٍ قد تاب منه فاعلُه . الثانى ، أنَّه قد قتل نَفْسًا ، لم يُؤْمَرْ بقتْلِها ، وقد سأَلَ اللهَ فى ذلك بقولِه : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص : ١٦] الآيةُ . الثالثُ ، أنَّه لو كان الجوابُ عنِ اللَّوْمِ على الذنْبِ بالقَدَرِ المُتَقَدِّمِ كتابتُه على العبدِ ، لانفتح هذا لكلِّ مَن لِيمَ على أمرٍ قد فعلَه ، فيحتجُّ بالقَدَرِ السابقِ ،

---

(1) فى م ، ص : « قدرة » .

(2) فى ح : « الحكم » .

فينْسَدُّ بابُ القِصاصِ والحدودِ ، ولو كان القَدَرُ حُجَّةً ، لاحتَجَّ [١/٥١و] به كلُّ أحدٍ فى الأُمورِ الكِبارِ والصغارِ ، وهذا يُفْضِى إلى لوازمَ فظيعةٍ ؛ فلهذا قال مَنْ قال مِن العلماءِ بِأَنَّ جَوابَ آدمَ إِنَّما كان احْتِجاجًا بالقَدَرِ على المُصِيبةِ ، لا على المعصيةِ . واللهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ ، وهو حسبِى ونعمَ الوكيلُ .

ذكرُ الأحاديثِ الواردَةِ فى خلقِ آدمَ عليه الصلاةُ والسلامُ

قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا يحيى ومحمدُ بنُ جعفرٍ ، حدثنا عوفٌ ، حدثنى قَسامةُ بنُ زُهَيرٍ ، عن أبى موسى ، عنِ النبىِّ ﷺ ، قال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَها مِنْ جَميعِ الأرضِ ، فجاءَ بَنُو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ ، فجاءَ منهُم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينَ ذلك ، والخبيثُ ، والطَّيِّبُ ، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبينَ ذلك » . ورواه أيضًا[2] عن هَوذَةَ ، عن عَوْفٍ ، عن قَسامةَ بنِ زُهَيرٍ ، سَمِعْتُ الأشْعَرِىَّ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ من قَبْضَةٍ قبضها من جَميعِ الأرضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ ، فجاءَ منهُم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينَ ذلك ، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبَيْنَ ذلك ، والخبيثُ والطَّيِّبُ وبَيْنَ ذلك » . وكذا رواه أبو داودَ والتِّرمذىُّ وابنُ حبانَ فى « صحيحِه » ، مِن حديثِ عَوْفِ بنِ أبى جَميلةَ الأعرابىِّ ، عن قَسامةَ بنِ زُهَيرٍ المازِنىِّ البصرىِّ ، عن أبى موسى عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ الأشْعرىِّ ، عنِ النبىِّ ﷺ بنحوِه[3] . وقال الترمذىُّ : حَسَنٌ صحيحٌ .

وقد ذكر السُّدِّىُّ[4] ، عن أبى مالكٍ وأبى صالحٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، وعن مُرَّةَ[5] ، عن ابنِ مسعودٍ ، وعن ناسٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ، قالوا : فبعثَ اللهُ عز وجل جبريلَ فى الأرضِ ليأتِيَه بِطِينٍ منها ، فقالتِ الأرضُ : أعوذُ

---

(١) مسند أحمد ٤٠٠/٤ (صحيح الجامع ١٧٥٥) .

(٢) مسند أحمد ٤٠٦/٤ .

(٣) أبو داود (٤٦٩٣) ، الترمذى (٢٩٥٥) ، الإحسان (٦١٦٠) صحيح .

(٤) تفسير الطبرى ٢٠٣/١ . التفسير ١٠٩/١ .

(٥) فى ح : « قرة » .

باللهِ منك أَنْ تَنْقُصَ مِنِّى أو تُشِينَنى . فرجَعَ ولم يأخُذْ ، وقال : ربِّ إِنَّها عاذتْ بك فأَعَذْتُها . فبعَث ميكائيلَ ، فعاذَتْ منه ، فأَعاذَها ، فرجَعَ ، فقال كما قال جبريلُ ، فبعَث مَلَكَ المَوْتِ ، فعاذَتْ منه ، فقال : وأنا أعوذُ باللهِ أَنْ أَرْجِعَ ولم أُنْفِذْ أمْرَه . فأخَذَ مِن وجهِ الأَرضِ وخلَطَه ، ولم يأخذْ مِن مكانٍ واحدٍ ، وأخَذ مِن تُرْبَةٍ بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ ؛ فلذلك خرَج بنو آدمَ مُخْتَلِفينَ ، فصعد به فَبَلَّ الترابَ حتى عادَ طِينًا لازِبًا ؛ واللازِبُ ، هو الذى يلْزَقُ بعضُه ببعضٍ ، ثم قالَ للملائِكَةِ : ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَـٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ ، ٧٢] . فخَلَقَه اللهُ بيدِه ؛ لئلَّا يَتَكَبَّرَ إبليسُ عنه ، فَخَلَقَه [١/١٥ظ] بَشَرًا ، فكانَ جسدًا من طينٍ أربعينَ سنةً مِن مقدارِ يومِ الجُمُعةِ ، فَمرَّتْ به الملائِكةُ فَفزِعُوا مِنه لَمَّا رَأَوْه ، وكان أشَدَّهم منه فَزَعًا إِبْليسَ ، فكانَ يَمُرُّ به فَيَضْرِبُه فيُصَوِّتُ الجسدُ كما يُصَوِّتُ الفَخَّارُ ، يكونُ له صَلْصَلَةٌ ، فذلك حينَ يَقولُ : ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤]. ويقولُ : لأمرٍ ما خُلِقْتَ . ودخَل من فِيه وخرَج مِن دُبُرِه ، وقال للمَلائِكةِ : لا تَرْهَبُوا مِن هذا ، فإنَّ ربَّكُم صَمَدٌ ، وهذا أجْوَفُ ، لَئِن سُلِّطْتُ عليه لأُهْلِكَنَّه . فَلَمَّا بلغَ الحينَ الذى يريدُ اللهُ عز وجل أَنْ ينفُخَ فيه الرُّوحَ قال للملائكةِ : إذا نَفَخْتُ فيه من رُوحِى فاسْجُدوا له . فلَمَّا نفخَ فيه الرُّوحَ ، فدَخل الرُّوحُ فى رأْسِه عَطَسَ ، فقالتِ الملائكةُ : قل : الحمدُ للهِ . فقال : الحمدُ للهِ . فقال له اللهُ : رَحِمَك ربُّكَ . فلَمَّا دخَلتِ الرُّوحُ فى عَيْنَيْه[1] نظر إلى ثمارِ الجنةِ ، فلَمَّا دخَلت الرُّوحُ فى جَوْفِه اشْتَهَى الطعامَ ، فوثَبَ قبلَ أن تَبْلُغَ الرُّوحُ إلى رِجْلَيْه عَجْلَانَ إلى ثمارِ الجنةِ ، وذلك حِينَ يقُولُ اللهُ تعالى : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] . ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

---

(١) فى ا : « عنقه » .

[الحجر : ٣٠] . وذكَر تمامَ القِصَّةِ .

ولبعضِ هذا السِّياقِ شاهِدٌ مِن الأحاديثِ ، وإنْ كان كثيرٌ منه مُتَلَقًّى مِنَ الإسرائيلياتِ ، فقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا عبدُ الصمدِ ، حدثنا حمادٌ ، عن ثابتٍ ، عن أنسٍ ، أنَّ النبيَّ ﷺ ، قال : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ ترَكه ما شاءَ أن يَدَعَه فجعَل إبليسُ يُطِيفُ بِه ، فَلَمَّا رآه أجْوفَ عَرَفَ أنَّه خَلْقٌ لا يَتَمالَكُ » . وقال ابنُ حِبَّانَ[2] في « صحيحِه » : حدثنا الحسنُ بنُ سفيانَ ، حدثنا هُدبةُ بنُ خالدٍ ، حدثنا حمَّادُ بنُ سلمةَ ، عن ثابتٍ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لَمَّا نُفِخَ في آدَمَ فَبَلَغَ الرُّوحُ رَأْسَه عَطَسَ ، فقال : الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ . فقال له تباركَ وتعالى : يَرْحَمُكَ اللهُ » .

وقال الحافِظُ أبو بكرٍ البَزّارُ[3] : حدثنا يحيى بنُ محمدِ بنِ السَّكَنِ ، حدثنا حَبّانُ بنُ هلالٍ ، حدثنا مباركُ بنُ فَضالةَ ، عن عُبَيدِ اللهِ ، عن حبيبٍ ، عن حفصٍ ، هو ابنُ عاصمِ بنِ عُبَيدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ ، عن أبي هريرةَ رَفَعَه ، قال : « لَمَّا خلَق اللهُ آدَمَ عَطَسَ ، فقالَ : الحمدُ للهِ . فقال له ربُّه : رَحِمَكَ رَبُّكَ يا آدمُ » . وهذا الإسنادُ لا بأسَ به ، ولم يخرِّجوه .

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : لَمَّا أُمِرت الملائكةُ بالسجودِ ؛ كان أولَ مَن سَجَدَ مِنْهم إسرافيلُ ، فأثابه[4] اللهُ أنْ كَتَبَ القرآنَ في جَبْهَتِه . رواه ابنُ عساكِرَ[5] .

---

(١) مسند أحمد ١٥٢/٣ ، إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٢) الإحسان (٦١٦٥) ، إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٣) لم نجده في كشف الأستار ، وأخرجه الترمذي (٣٣٦٨) مطولًا ، وابن حبان (٦١٦٧) مطولًا ، من وجه آخر ، وإسناده قوي على شرط مسلم .

(٤) في ح : « فأتاه » .

(٥) تاريخ دمشق ٣٩٨/٧ .

[٥٢/١و] وقال الحافِظُ أبو يَعلَى[1] : حدثنا عقبةُ بنُ مكرمٍ ، حدثنا عمرُو بنُ محمدٍ ، عن إسمعيلَ بنِ رافِعٍ ، عن المقبُرىِّ ، عن أبى هريرةَ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ اللهَ خلَق آدمَ مِن ترابٍ ، ثم جَعَلَه طِينًا ، ثم ترَكَه حتى إذا كان حَمَأً مَسْنُونًا خَلَقَه وصوَّرَه ، ثم ترَكه حتى إذا كان صَلْصالًا كالفَخّارِ » . قال : « فكان إبليسُ يَمُرُّ به ، فيقولُ : لقد خُلِقْتَ لأمْرٍ عظيمٍ . ثم نفخَ اللهُ فيه مِن رُوحِه فكان أولَ ما جَرَى فيه الرُّوحُ[2] بصَرُه وخَياشِيمُه ، فعَطَس فلقَّاه اللهُ رحمةَ ربِّه ، فقال اللهُ : يَرْحَمُك رَبُّك . ثم قال اللهُ : يا آدمُ ، اذْهَبْ إلى هؤلاءِ النَّفَرِ فقُلْ لهم ، فانْظُرْ ماذا يقولون . فجاء فسَلَّم عليهم ، فقالوا : وعليكَ السلامُ ورَحْمَةُ اللهِ وبركاتُه . فقال : يا آدَمُ ، هذا تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيَّتِك . قال : يا رَبِّ ، وما ذُرِّيَّتِى ؟ قال : اختَرْ يدىَّ يا آدَمُ . قال : أَخْتارُ يَمِينَ رَبِّى ، وكِلْتا يَدَىْ ربى يَمِينٌ . وبَسَطَ كَفَّه ، فإذا مَنْ هو كائِنٌ مِن ذُرِّيَّتِه فى كفِّ الرَّحمنِ ، فَإذا رِجالٌ مِنهم أفْواهُهُم النُّورُ ، فإذا رجُلٌ يُعْجِبُ آدمَ نُورُه ، قال يا ربِّ ، مَن هذا ؟ قال : ابنُكَ داودُ . قال : يا ربِّ ، فكَمْ جعلْتَ له مِن العُمُرِ ؟ قال : جَعَلْتُ له ستِّينَ . قال : يا ربِّ ، فَأَتِمَّ له مِن عُمُرِى حتى يَكُونَ له مِن العُمرِ مِائَةُ سَنَةٍ . فَفَعَلَ اللهُ ذلك ، وأُشْهِدَ على ذلك . فَلَمَّا نَفَدَ عُمُرُ آدمَ بعَثَ اللهُ مَلَكَ الموتِ ، فقَال آدمُ : أَوَ لَمْ يَبْقَ مِن عُمُرِى أربعونَ سنةً ؟ قال له المَلَكُ : أَوَ لَم تُعْطِها ابْنَكَ داودَ ؟ فَجَحَدَ ذلكَ ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُه ، ونَسِىَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُه » . وقد رواه الحافِظُ أبو بكرٍ البَزّارُ ، والتِّرْمذىُّ ، والنَّسائىُّ فى اليومِ والليلةِ[3] ، مِن حديثِ صَفْوانَ بنِ عيسى ، عن الحارثِ بنِ

---

(١) مسند أبى يعلى (٦٥٨٠) ، إسناده ضعيف .

(٢) فى ص : « الريح » .

(٣) الترمذى (٣٣٦٨) ، النسائى فى الكبرى (١٠٠٤٦) مختصرا .

عبدِ الرحمنِ بنِ أبى ذُبابٍ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبى هريرةَ عن النبىِّ ﷺ . وقال الترمذىُّ : حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجهِ . وقال النَّسائىُّ : هذا حديثٌ مُنْكَرٌ . وقد رواه محمدُ بنُ عجلانَ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبيه ، عن عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ ، قولَه[1] .

وقد رواه [2]أبو حاتمٍ ابنُ حِبّانَ[2] فى « صحيحِه »[3] فقال : حدثنا محمدُ ابنُ إسحاقَ بنِ خُزَيْمَةَ ، حدثنا محمدُ بنُ بَشّارٍ ، حدثنا صَفْوانُ بنُ عيسى ، حدثنا الحارثُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبى ذُبابٍ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدمَ ونَفَخَ فيه الرُّوحَ عطَسَ ، فقالَ : الحمدُ للهِ . فحَمِدَ اللهَ بإذْنِ [١/٥٢ظ] اللهِ ، فقالَ له ربُّه : يَرْحَمُكَ رَبُّكَ ، يا آدمُ اذْهَبْ إلى أُولَئِكَ المَلائِكَةِ - إلى مَلإٍ منهم جلُوسٍ - فَسَلِّمْ عَلَيْهِم . فقالَ : السَّلامُ عَلَيْكُم . فقالوا : وعلَيْكُم السلامُ ورحمةُ اللهِ . ثم رجَع إلى ربِّه ، فقال : هذه تحيَّتُكَ وتحيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُم . وقال اللهُ ويداه مَقْبوضتان : اخْتَرْ أيَّهُما شِئْتَ . فقال : اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّى ، وكِلْتَا يَدَىْ رَبِّى يَمِينٌ مُبارَكَةٌ . ثم بَسَطَهُما ، فإذا فيهما آدمُ وذُرِّيَّتُه ، فقال : أى رَبِّ ، ما هؤلاءِ ؟ قال : هؤلاءِ ذُرِّيَّتُكَ . وإذا كلُّ إنسانٍ منهُم مكتوبٌ عُمُرُه بينَ عَيْنَيْه[4] ، وإذا فيهِم رجلٌ أَضْوَؤُهُم - أو : من أضْوئِهم - لم يُكْتَبْ له إلَّا أربعونَ سنةً ، قال : يا ربِّ ، ما هذا ؟ قال : هذا ابنُكَ داودُ . وقد كتَبَ اللهُ عمُرَه أربعِينَ سنةً . قال : أى ربِّ ، زِدْ فى عُمُرِه . فقال : ذاكَ الذى كُتِب

---

(١) سقط من : م ، ا .

(٢ - ٢) فى م ، ص : « أبو حاتم وابن حبان » . وفى ا : « ابن أبى حاتم وابن حبان » .

(٣) الإحسان (٦١٦٧) هـ إسناده قوى على شرط مسلم .

(٤) فى ص : « يديه » .

له . قال : فإنِّى قَدْ جَعَلْتُ له مِن عُمُرِى ستينَ سنةً . قال : أَنْتَ وذاك ، اسْكُنِ الجَنَّةَ . فسَكَنَ الجنةَ ما شاءَ اللهُ ، ثُمَّ أُهْبِطَ منها ، وكانَ آدمُ يَعُدُّ لنَفْسِه ، فأَتَاه مَلَكُ المَوْتِ ، فقال له آدمُ : قد عَجِلْتَ ، قد كُتِبَ لى أَلْفُ سنةٍ . قال : بلى ولكنكَ جَعَلْتَ لابْنِكَ داودَ منها ستِّينَ سنةً . فَجَحَدَ آدمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّته ، ونَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُريتُه ، فيومئذٍ أُمِر بالكِتَابِ والشُّهُودِ » . هذا لَفْظُه .

وقال التِّرْمذىُّ[1] : حدثنا عبدُ بنُ حُمَيْدٍ ، حدثنا أبو نُعَيْمٍ ، حدثنا هشامُ ابنُ سعدٍ ، عن زيدِ بنِ أسلَمَ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَه ، فَسَقَطَ مِن ظَهْرِه كُلُّ نَسَمَةٍ هو خَالِقُها مِن ذُرِّيَّته إلى يومِ القيامةِ ، وجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كلِّ إنسانٍ منهم وَبيصًا من نُورٍ ، ثم عَرَضَهُم على آدمَ ، فقال : أَىْ رَبِّ ، مَنْ هؤلاءِ ؟ قال : هؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ . فرأى رجلًا منهم ، فأَعْجَبَه وَبيصُ ما بَيْنَ عَيْنَيْه ، فقالَ : أىْ رَبِّ ، مَنْ هذا ؟ قال : هذا رَجُلٌ مِن آخِرِ الأممِ مِن ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ له دَاودُ . قال : رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَه ؟ قال : سِتِّينَ سَنَةً . قال : أى رَبِّ زِدْهُ مِن عُمُرِى أربعينَ سنةً . فَلَمَّا انقضَى عُمُرُ آدمَ ، جاءَه مَلَكُ المَوْتِ ، قال : أَوَ لَمْ يَبْقَ مِن عُمُرِى أربعونَ سنةً ؟ قال : أَوَ لَمْ تُعْطِها ابْنَكَ داودَ ؟ » قال : « فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّته ، ونَسِيَ آدمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّته ، وخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّته » . ثم قال التِّرْمذىُّ : حسنٌ صحيحٌ ، وقد رُوِىَ مِن غيرِ وجهٍ ، عن أبى هريرةَ عن النبىِّ ﷺ . ورواه الحاكِمُ فى « مُسْتَدْرَكِه »[2] ، مِن حديثِ [١/٥٣و] أبى نُعيْمٍ الفضلِ بنِ دُكينٍ ، وقال : صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ ، ولم يُخَرِّجاه . وروى ابنُ أبى حاتِمٍ[3] مِن حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ

---

(١) الترمذى (٣٠٧٦) ، (صحيح الجامع ٥٠٨٤) .

(٢) المستدرك ٣٢٥/٢ ووافقه الذهبى .

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٤٢/٣ ، ١٤٣ . وعزاه لابن أبى حاتم . وإسناده ضعيف . العظمة (١٠٣٠) .

أسلمَ ، عن أبيه ، عن عطاءِ بنِ يسارٍ ، عن أبى هريرةَ مرفوعًا ، فذكَره ، وفيه : « ثُمَّ عَرَضَهُمْ على آدمَ ، فقال : يا آدمُ ، هؤلاءِ ذُرِّيَّتُكَ . وإذا فيهم الأَجْذَمُ ، والأَبْرَصُ ، والأَعْمَى ، وأَنْواعُ الأَسْقامِ ، فقال آدَمُ : يا ربِّ ، لِمَ فَعَلْتَ هذا بِذُرِّيَّتِى ؟ قال : كَىْ تُشْكَرَ نِعْمَتِى » . ثم ذكَر قصةَ داودَ . وستأتى مِن روايةِ ابنِ عباسٍ أيضًا .

وقال الإمامُ أحمدُ فى « مُسْنَدِه »[1] : حدثنا الهَيْثَمُ بنُ خارجةَ ، حدثنا أبو الربيعِ ، عن يونسَ بنِ مَيْسَرةَ ، عن أبى إدريسَ ، عن أبى الدرداءِ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « خلقَ اللهُ آدَمَ حِينَ خَلقَه ، فضَرَبَ كَتِفَه اليُمْنَى ، فأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بيضاءَ كأَنَّهُم الذَّرُّ ، وضَرَبَ كَتِفَه اليُسْرَى ، فأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سوداءَ كأَنَّهُم الحُمَمُ ، فقالَ للذى فى يَمِينِه : إلى الجَنَّةِ ولا أُبالِى . وقال للذى فى كَفِّه اليُسْرَى : إلى النَّارِ ولا أُبالى » .

وقال ابنُ أبى الدنيا[2] : حدثنا خَلَفُ بنُ هشامٍ ، حدثنا الحَكَمُ بنُ سِنانٍ ، عن حَوْشَبٍ ، عنِ الحسنِ ، قال : خَلَقَ اللهُ آدمَ حينَ خَلَقَه ، فأَخْرَجَ أَهْلَ الجَنَّةِ مِن صَفْحَتِه اليُمْنَى ، وأَخْرَجَ أَهْلَ النارِ مِن صَفْحَتِه اليُسْرَى ، فأَلْقُوا على وَجْهِ الأرضِ ؛ مِنهم الأَعْمَى ، والأَصَمُّ ، والمُبْتَلَى ، فقال آدَمُ : يا رَبِّ ، ألا سَوَّيْتَ بينَ وَلَدِى ؟ قالَ : يا آدمُ ، إنِّى أَرَدْتُ أَنْ أُشْكَرَ . وهكذا روى عبدُ الرزَّاقِ[3] ، عن مَعْمَرٍ ، عن قتادةَ ، عنِ الحسنِ بنحوِه .

وقد قال البخارىُّ[4] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ ، حدثنا عبدُ الرزاقِ ،

---

(١) مسند أحمد ٤٤١/٦ ، (الصحيحة ٤٩) .

(٢) فى كتاب الشكر (١٦٥) .

(٣) فى تفسيره ٢٤٢/٢ .

(٤) البخارى (٣٣٢٦) .

أخبرنا مَعْمرٌ ، عن هَمّامِ بنِ مُنَبِّهٍ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « خَلَقَ اللهُ آدَمَ ، وطُولُه سِتُّون ذِراعًا ، ثم قال : اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أُولئك من الملائكةِ ، فاسْتَمِعْ ما يُحيُّونك[1] ، فإنَّهَا تَحِيَّتُك وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِك . فقال : السلامُ علَيْكُم . فقالوا : السلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ . فزادُوه : ورَحْمَةُ اللهِ . فكُلُّ مَن يَدْخُلُ الجنةَ على صورةِ آدمَ ، فلم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتَّى الآنَ » . وهكذا رواه البخاريُّ فى كتابِ الاستئذانِ عن يحيى بنِ جعفرٍ ، ومسلمٌ عن محمدِ ابنِ رافعٍ ، كلاهما عن عبدِ الرَّزّاقِ به[2] .

وقال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا رَوحٌ ، حدثنا حَمّادُ بنُ سلمةَ ، عن عَلِىِّ بنِ زيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، عن أبى هريرةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « كانَ طُولُ آدَمَ سِتِّينَ ذراعًا فى سَبْعِ أَذْرُعٍ عَرْضًا » . انفرَد به أحمدُ .

وقال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا عفّانُ ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ ، عن علىِّ بنِ زيدٍ ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : لَمَّا نزلَتْ [٥٣/١ظ] آيةُ الدَّيْنِ قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ ، إنَّ[5] أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدمُ ، إنَّ اللهَ لَمَّا خلَقَ آدمَ ، ومَسَح ظهرَهُ فَأَخْرَجَ منه ما هو ذارِئٌ[6] إلى يومِ القيامةِ ، فجعَل يَعْرِضُ ذُرِّيَّته عليه ، فرأَى فِيهِم رجلًا يَزْهَرُ ، قال : أى ربِّ ، مَنْ هذا ؟ قال : هذا ابنُكَ داودُ . قال : أى ربِّ ، كم عمُرُه ؟ قال :

---

(١) فى م ، ص : « يجيبونك » .

(٢) البخارى (٦٢٢٧) ، مسلم (٢٨٤١) .

(٣) مسند أحمد ٥٣٥/٢ ، قال الهيثمى : إسناده حسن . المجمع ٣٩٩/١٠ .

(٤) مسند أحمد ٢٥١/١ ، (حسن لغيره) .

(٥) فى المسند : « أو » .

(٦) ذارئ : خالق .

ستونَ عَامًا . قال : أى ربِّ ، زِدْ فى عمرِه . قال : لا ، إلَّا أنْ أَزِيدَه مِنْ عُمُرِكَ . وكانَ عمُرُ آدمَ أَلفَ عامٍ ، فزادَه أَربعينَ عامًا ، فكتبَ اللهُ عَليه بذلك كتابًا وأشهدَ عليه الملائكةَ ، فَلَمَّا احْتُضِرَ آدمُ أَتَتْهُ الملائكةُ لتقبِضَه[1] قال : إنَّه قَدْ بَقِىَ مِن عُمُرِى أربعونَ عامًا . فَقِيلَ : إنكَ قد وَهَبْتَها لابْنِكَ داودَ . قال : ما فَعَلْتُ . وأَبْرَزَ[2] اللهُ عليه الكتابَ ، وشَهِدَتْ عليه الملائكةُ » .

وقال أحمدُ[3] : حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ ، عن علىِّ ابنِ زيدٍ ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أولَ مَن جَحَدَ آدمُ - قالها ثلاثَ مَرّاتٍ - إنَّ اللهَ عز وجل لَمَّا خَلَقَه مَسَحَ ظهرَه فأخرجَ ذريتَه ، فَعَرَضَهُم عليه ، فرأى فيهم رجلًا يَزْهَرُ ، قال : أى ربِّ ، زِدْ فى عمرِه . قال : لا ، إلَّا أنْ تَزِيدَه أنتَ مِن عمرِك . فزادَه أربعينَ سنةً مِن عمرِه . فَكَتَبَ اللهُ تعالى عليه كتابًا وأشهدَ عليه الملائكةَ ، فَلَمَّا أرادَ أنْ يَقْبِضَ رُوحَه قال : بَقِىَ مِنْ أجلِى أربعونَ سنةً . فقيلَ له : إنَّك قد جَعَلْتَهَا لابْنِكَ داودَ » . قال : « فَجَحَدَ » . قال : « فأَخْرَجَ اللهُ الكتابَ وأقامَ عليه البَيِّنَةَ فأتمّها لداودَ مائةَ سنةٍ ، وأتمَّها لآدمَ عمرَه ألفَ سنةٍ » . تفرَّد به أحمدُ ، وعلىُّ بنُ زيدٍ فى حديثِه نَكارةٌ . ورواه الطَّبَرانىُّ[4] عن علىِّ بنِ عبدِ العزيزِ ، عن حجاجِ بنِ مِنهالٍ ، عن حمادِ بنِ سلمةَ ، عن علىِّ بنِ زيدٍ ، عن يوسفَ بنِ مِهْرانَ عن ابنِ عباسٍ ، وغيرِ واحدٍ ، عنِ الحسنِ ، قال : لما نَزَلتْ آيةُ الدَّيْنِ قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ أولَ مَنْ جَحَدَ آدمُ » . ثلاثًا . وذكَرَه .

---

(1) كذا فى : ا . وهو موافق لما فى المسند . وفى بقية النسخ : « لقبضه » .

(2) فى ا : « فأبرز » .

(3) مسند أحمد ٢٩٩/١ ، (حسن لغيره) .

(4) المعجم الكبير (١٢٩٢٨) .

وقال الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ فى « مُوَطَّئِه »[1] عن زيدِ بنِ أبى أُنَيْسَةَ ، أنَّ عبدَ الحميدِ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ الخطابِ أخْبره ، عن مُسْلمِ بنِ يَسَارٍ الجُهَنِىِّ ، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ سُئِل عن هذه الآيةِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الآيةُ . فقال عمرُ بنُ الخطابِ : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يُسألُ [١/٥٤و] عنها ، فقال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عليه السلامُ ، ثم مَسَحَ ظهرَه بِيَمِينِه فاسْتَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً ، قال : خَلقْتُ هؤلاءِ للجنةِ وبعَمَلِ أهلِ الجنةِ يعملُون . ثم مَسَحَ ظَهْرَه فاسْتَخْرَجَ منه ذريةً ، قال : خلقتُ هؤلاءِ للنارِ وبعملِ أهلِ النارِ يعملُون » . فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ، ففيمَ العملُ ؟ قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا خَلَقَ اللهُ العبدَ للجنةِ ، استَعْمَلَه بعملِ أهلِ الجنةِ حتى يموتَ على عملٍ مِن أعمالِ أهلِ الجنةِ ، فيدخُلَ به الجنةَ ، وإذا خلقَ اللهُ العبدَ للنارِ ، استعملَه بعملِ أهلِ النارِ حتى يموتَ على عملٍ مِن أعمالِ أهلِ النارِ ، فيدخُلَ به النارَ » . وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ ، وأبو داودَ ، والترمذىُّ والنسائىُّ ، وابنُ جريرٍ ، وابنُ أبى حاتِمٍ ، وأبو حاتِمٍ ابنُ حِبّانَ فى « صحيحِه » مِن طُرُقٍ ، عنِ الإمامِ مالكٍ به[2] . وقال الترمذىُّ : هذا حديثٌ حسنٌ ، ومسلمُ بنُ يسارٍ لم يسمعْ عمرَ . وكذا قال أبو حاتمٍ وأبو زُرْعَةَ . زاد أبو حاتمٍ : وبينَهما نُعَيْمُ بنُ ربيعةَ . وقد رواه أبو داودَ[3] ، عن محمدِ بنِ مُصفًّى ، عن بقيةَ ، عن عمرَ بنِ جُعْثُمٍ[4] ، عن زيدِ بنِ أبى أُنَيْسَةَ ، عن

---

(١) موطأ مالك ٢/٨٩٨ ، ٨٩٩ .

(٢) مسند أحمد ١/٤٤ ، ٤٥ ، أبو داود (٤٧٠٣) ، الترمذى (٣٠٧٥) ، النسائى (١١١٩٠) ، تاريخ الطبرى ١/١٣٥ ، الإحسان (٦١٦٦) . (ضعيف الترمذى ٥٩٤) .

(٣) أبو داود (٤٧٠٤) .

(٤) فى ا : « خثعم » وفى م ، ص : « جثعم » .

عبدِ الحميدِ بن عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ الخطابِ ، عن مسلمِ بنِ يَسارٍ ، عن نُعَيْمِ بنِ ربيعةَ ، قال : كنتُ عندَ عمرَ بنِ الخطابِ ، وقد سُئِل عن هذه الآيةِ . فذَكَرَ الحديثَ . قال الحافظُ الدارقطنيُّ[1] : وقد تابع عمرَ بنَ جُعْثُمٍ[2] أبو فروةَ يزيدُ بنُ سنانٍ الرَّهاويُّ ، عن زيدِ بنِ أبى أُنَيْسَةَ ، قال : وقولُهما أَوْلَى بالصَّوابِ مِن قولِ مالكٍ رَحِمَه اللهُ .

وهذه الأحاديثُ كلُّها دالَّةٌ على استخراجِه تعالى ذُرِّيَّةَ آدمَ مِن ظهرِه كالذَّرِّ ، وقِسْمَتِهم[3] قسمين ؛ أهلِ اليمينِ ، وأهلِ الشِّمالِ ، وقال : هؤلاء للجنةِ ولا أُبالِى ، وهؤلاءِ للنَّارِ ولا أُبالى . فَأمَّا الإشْهادُ عليهم واستِنْطاقُهم بالإقْرارِ بالوَحْدانيةِ ، فلم يَجِئْ فى الأحاديثِ الثَّابتةِ ، وتفسيرُ الآيةِ التى فى سورةِ « الأعراف » وحملُها على هذا فيه نَظَرٌ ، كما بَيَّنَّاه هناك ، وذكَرْنا الأحاديثَ والآثارَ مُسْتَقْصاةً بأسانيدِها ، وألفاظِ مُتُونِها ، فَمَنْ أراد تَحْريرَه فَلْيُراجِعْه ثَمَّ ، واللهُ أعلمُ[4] .

فأمَّا الحديثُ الذى رواه أحمدُ[5] : حدثنا حسينُ بنُ محمدٍ ، حدثنا جَريرٌ ، يعنى ابنَ حازمٍ ، عن كُلْثُومِ [6]بنِ جبرٍ[6] ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النَّبىِّ ﷺ قال : « إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ مِن ظهرِ آدمَ عليه السلامُ بنَعْمانَ يومَ[7] عرفةَ ، فأَخْرجَ مِن صُلْبِه [١/٥٤ظ] كلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرأها ، فنثرَها

(١) العلل ٢/٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) فى م ، ح ، ص : « جثعم » .

(٣) فى الأصل : « قسمهم » .

(٤) التفسير ٣/٥٠٠ - ٥٠٦ .

(٥) مسند أحمد ١/٢٧٢ ، (صحيح) .

(٦ - ٦) فى الأصل : « عن جبر » . وفى ا : « بن جبير » .

(٧) فى المسند : « يعنى » . ونعمان وزن ظمآن وهو واد فى مكة .

بينَ يَدَيْه ، ثمَّ كلَّمَهُم قُبُلًا ، قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ ﴾ إلى قولِه : ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣] . فهو بإسْنادٍ جيّدٍ قويٍّ على شرطِ مسلمٍ . رواه النَّسائيُّ ، وابنُ جريرٍ ، والحاكمُ فى « مستدركِهِ » ، مِن حديثِ حسينِ بنِ محمدٍ المَرُّوذِيِّ[1] به . وقال الحاكِمُ : صحيحُ الإسْنادِ ولم يُخَرِّجاه . إلَّا أنَّه اخْتُلِفَ فيه على كُلْثُومِ بنِ جبرٍ ، فَرُوِىَ عنه مرفوعًا وموقوفًا . وكذا رُوِىَ عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ ، عنِ ابنِ عباسٍ مَرْفوعًا[2] . وهكذا رواه العَوْفِيُّ والوالبيُّ[3] والضَّحاكُ وأبو جمرةَ عنِ ابنِ عباسٍ قولَه . وهذا أكثرُ وأثْبَتُ واللهُ أعلمُ . وهكذا رُوِىَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو[4] موقوفًا ومرفوعًا ، والموقوفُ أصحُّ[5] .

واستأنَس القائلون بهذا القولِ ؛ وهو أخْذُ الميثاقِ على الذُّرِّيةِ - وهم الجُمْهورُ - بما قال الإمامُ أحمدُ[6] : حدثنا حجّاجٌ ، حدثنى شُعْبةُ ، عن أبى عِمرانَ الجَوْنِيِّ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، عن النبيِّ ﷺ قال : « يُقَالُ للرجلِ مِنْ أهلِ النارِ يومَ القيامةِ : لو كانَ لكَ ما على الأرضِ مِن شيءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا به ؟ قال : فيقولُ : نَعَم . فيقولُ : قد أَرَدْتُ مِنْكَ ما هو أَهْوَنُ مِن ذلك ، قد أخذتُ عليكَ فى ظهرِ آدمَ أنْ لا تُشْرِكَ بى شيئًا ، فأَبَيْتَ إلَّا أنْ تُشْرِكَ

---

(١) النسائى (١١١٩١) ، تفسير الطبرى ١١٠/٩ ، ١١١ ، مستدرك الحاكم ٥٤٤/٢ وأقره الذهبى . وعنده : « الحسن بن محمد المرووذى » وليس : « حسين بن محمد المروذى » . وانظر تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر ١٣٥٨/٤ .
(٢) فى الأصل ، ا ، م ، ص : « موقوفًا » .
(٣) هو سعيد بن جبير أبو عبد الله الأسدى الوالبى . السير ٣٢١/٤ .
(٤) فى الأصل ، م : « عمر » .
(٥) روى الموقوف والمرفوع من جميع الطرق المتقدمة الطبرى فى تفسيره ١١٠/٩ - ١١٦ .
(٦) مسند أحمد ١٢٧/٣ ، ١٢٩ .

بى ». أخرَجاه مِن حديثِ شُعْبَةَ به[1]. وقال أبو جعفرٍ الرازىُّ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ، عن أبى العاليةِ، عن أُبَىِّ بنِ كعبٍ، فى قولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآيةُ والتى بعدَها، قال: فَجَمَعَهُم له يَوْمَئِذٍ جميعًا ما هو كائنٌ مِنْه إلى يومِ القِيامةِ، فَخَلَقَهُم، ثُمَّ صَوَّرَهُم، ثُمَّ اسْتَنطَقَهم، فَتَكَلَّمُوا، وأخذَ عليهِمُ العَهْدَ والميثاقَ، وأَشْهَدَ عَلَيْهِم أنفُسَهُم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ الآيةُ. قال: فإنِّى أُشهِدُ عليكم السَّمواتِ السَّبْعَ والأَرَضِينَ السَّبْعَ، وأُشهِدُ عَلَيْكم أباكُم آدمَ أنْ لا تقولوا يومَ القيامةِ: لمْ نعلمْ بهذا. اعْلَمُوا أنَّه لا إلهَ غَيْرِى، ولا رَبَّ غَيْرِى، ولا تُشْرِكُوا بى شيئًا، وإنِّى سَأُرْسِلُ إليكمُ رُسُلًا، يُنْذِرونكم عَهْدِى وميثاقِى، وأُنْزِلُ عليكُم كتابى. قالُوا: نَشْهَدُ أنكَ رَبُّنَا وإلَهُنا، لا ربَّ لنا غيرُكَ، ولا إلهَ لنا غيرُكَ. فأَقَرُّوا له يَوْمَئِذٍ بالطاعةِ، ورَفَعَ أباهُم آدمَ فنَظَر إليهِم، فرأى فِيهِمُ الغنىَّ والفقيرَ، وحَسَنَ الصورةِ ودُونَ ذلك، فقال: يا ربِّ، لو سَوَّيْتَ بينَ عبادِك! فقال: إنِّى أحببتُ أنْ أُشْكَرَ. ورأى فيهم الأَنبياءَ مِثْلَ السُّرُجِ عليهِمُ النورُ، وخُصُّوا بِميثاقٍ آخرَ مِن الرسالةِ والنبوةِ، فهو الذى يقولُ اللَّهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]. [١/٥٥و] وهو الذى يقولُ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]. وفى ذلك قال: ﴿ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النجم: ٥٦]. وفى ذلك قال: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢]. رواه الأئمةُ؛ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، وابنُ أبى حاتمٍ، وابنُ جَريرٍ، وابنُ مردويَه فى «تفاسيرِهم»، مِن طريقِ

---

(١) البخارى (٣٣٣٤)، مسلم (٢٨٠٥).

أبي جعفرٍ[1] . ورُوِى عن مُجاهِدٍ ، وعكرمةَ ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ ، والحسنِ البصريِّ ، وقتادةَ ، والسُّدِّيِّ ، وغيرِ واحدٍ مِن علماءِ السَّلفِ بسياقاتٍ تُوافِقُ هذه الأحاديثَ[2] . وتقدَّم أنَّه تَعالى لَمَّا أمرَ الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ ، امتثلوا كلُّهم الأمرَ الإلهيَّ ، وامتنع إبليسُ مِنَ السجودِ له ؛ حَسَدًا وعَداوةً له ، فطرَدَه اللهُ وأبْعَده ، وأخرجَه مِن الحَضْرَةِ الإلٰهيةِ ، ونَفَاه عنها ، وأهْبَطَه إلى الأرضِ طريدًا ، ملعونًا ، شيطانًا ، رجيمًا .

وقد قال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا وكيعٌ ، ويَعْلَى ومحمدٌ ابنا[4] عُبَيْدٍ ، قالوا : حدثنا الأعْمشُ ، عن أبي صالحٍ ، عن أبي هريرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجَد اعتزلَ الشيطانُ يبكِي ، يقولُ : يا وَيْلَه ، أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجد فلَه الجنةُ ، وأُمِرْتُ بالسجودِ فَعَصَيْتُ فلِيَ النارُ » . ورواه مسلمٌ مِن حديثِ وَكِيعٍ وأبي معاويةَ ، عنِ الأعمشِ به[5] .

ثم لَمَّا أُسْكِن آدمُ الجنةَ التي أُسْكِنَها ، سواءٌ كانت في السماءِ أو في الأرضِ ، على ما تقدَّمَ مِنَ الخلافِ فيه[6] ، أقام بها هو وزوجتُه حواءُ عليهما السلامُ يأكُلان منها رَغَدًا حيثُ شاءَا ، فلما أَكَلا مِنَ الشجرةِ التي نُهيا عنها سُلِبا ما كانا فيه مِنَ اللِّباسِ ، وأُهْبِطا إلى الأرضِ . وقد ذكرنا الاختلافَ في مواضعِ

---

(1) مسند أحمد ١٣٥/٥ ، وتفسير الطبري ١١٥/٩ . وذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤٢/٣ . وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما .

(2) انظر تفسير الطبري ١١٥/٩ - ١١٧ .

(3) مسند أحمد ٤٤٣/٢ .

(4) في المسند والفتح الرباني : « أنبأنا » ، انظر أطراف المسند المعتلى ٢١٠/٧ .

(5) مسلم (٨١) .

(6) تقدم في صفحة ١٧٦ .

هُبُوطِه[1] منها . واختلفوا فى مقدارِ مُقامِه فى الجنةِ فقِيل : بعضُ يومٍ مِن أيامِ الدنيا . وقد قدَّمنا[2] ما رواه مسلمٌ عن أبى هريرةَ مرفوعًا : « وخُلِقَ آدمُ فى آخرِ ساعةٍ مِن ساعاتِ يومِ الجُمُعةِ » . وتقدَّم أيضًا حديثُه عنه : « وفيه - يعنى يومَ الجمعةِ - خُلِقَ آدمُ ، وفيه أُخْرِج منها » . فإنْ كان اليومُ الذى خُلِق فيه ، فيه أُخْرِج ، وقلنا : إنَّ الأيامَ السِّتةَ كهذه الأيامِ ، فقد لَبِثَ بعضَ يومٍ مِن هذه . وفى هذا نظَرٌ . وإنْ كان إخراجُه فى غيرِ اليومِ الذى خُلِقَ فيه ، أو قلنا بِأَنَّ تلكَ الأيامَ مقدارُها ستةُ آلافِ سنةٍ كما تقدَّم عنِ ابنِ عباسٍ ومُجاهدٍ والضَّحَّاكِ ، واختاره ابنُ جريرٍ[3] ، فقد لَبِث هناك مدةً طويلةً . قال ابنُ جريرٍ[4] : ومعلومٌ أنَّه خُلِق فى آخرِ ساعةٍ مِن يومِ الجمعةِ ، والساعةُ منه ثلاثٌ وثمانون سنةً وأربعةُ أشهرٍ ، فمكث مُصَوَّرًا طينًا قبلَ أَنْ يُنْفَخَ فيه الرُّوحُ أربعين سنةً ، وأقام فى الجنةِ قبلَ أنْ يهبِطَ ثلاثًا وأربعين سنةً وأربعةَ أشهرٍ ، واللهُ تعالى أعلمُ . وقد رَوَى عبدُ الرزاقِ[5] ، عن هشامِ بنِ حَسَّانَ ، عن سَوَّارٍ خَبَرَ عطاءِ بنِ أبى رباحٍ ، أنَّه كان لَمَّا أُهْبِط ، رِجْلاه فى الأرضِ ورأسُه فى السماءِ . فحطَّه اللهُ إلى ستين ذراعًا[6] . وقد رُوِىَ عن ابنِ عباسٍ نحوُه[7] . وفى هذا نظرٌ ؛ لِمَا تقدّم مِنَ الحديثِ المتَّفقِ على صحتِه عن أبى هريرةَ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ وطولُه ستُّونَ ذِراعًا ،

---

(١) فى الأصل : « هبوطهم » . وفى ا : « هبوطهما » .

(٢) تقدم فى صفحة ٣٢ ، ١٨٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ١/١٧ .

(٤) تاريخ الطبرى ١/١١٨ ، ١١٩ .

(٥) المصنف (٩٠٩٠) .

(٦) هذه العبارة رواها عبد الرزاق فى تفسيره ٢/٣٤ ، من حديث قتادة .

(٧) أخرجه عنهما الطبرى فى تاريخه ١/١٢٤ .

فلم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ »[1] . وهذا يقتضِي أنَّه خُلِق كذلك ، لا أطولَ مِن ستين ذِراعًا ، وأنَّ ذريتَه لم يزالوا يتناقصُ خَلْقُهم حتى الآنَ .

وذكر ابنُ جريرٍ[2] عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ اللهَ قال : يا آدمُ ، إنَّ لى حَرَمًا بِحِيالِ عَرْشى ، فانطلِقْ فابْنِ لى فيه بَيْتًا فَطُفْ به كما تطوفُ مَلائِكَتِى بِعَرْشِى . وأَرْسَلَ اللهُ له [١/٥٥ظ] مَلَكًا فعرَّفَه مَكَانَه ، وعلَّمَه المناسِكَ . وذكَرَ أنَّ مَوْضِعَ كُلِّ خُطْوَةٍ خَطاها آدمُ صارتْ قريةً بعدَ ذلك . وعنه[3] ، أنَّ أولَ طعامٍ أَكَله آدمُ فى الأرضِ أنْ جاءه جبريلُ بسبعٍ[4] حبّاتٍ مِن حِنْطةٍ ، فقال : ما هذا ؟! قال : هذا مِن الشَّجرةِ التى نُهِيتَ عنها فأَكَلْتَ منها . فقال : وما أصنعُ بهذا ؟! قال : ابذُرْه فى الأرضِ . فبَذَرَه ، وكان كلُّ حبةٍ منها زِنَتُها[5] أَزْيَدُ مِن مائةِ ألفٍ ، فنبتتْ ، فحصدَه ، ثم دَرَسه ، ثم ذرَّاه ، ثم طَحَنَه ، ثم عَجَنه ، ثم خَبَزَه ، فأكله بعدَ جَهدٍ عظيمٍ ، وتعبٍ ، ونكدٍ ، وذلك قولُه تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١١٧] . وكان أولُ كِسْوتِهما مِن شعْرِ الضَّأْنِ ، جزَّاه ثم غزَلاه ، فنَسَج آدمُ له جُبَّةً ولحواءَ دِرْعًا وخِمارًا .

واختلفوا ؛ هل وُلِد لهما بالجنةِ شىءٌ مِن الأولادِ ؟ فقِيل : لم يُولدْ لهما إلَّا فى الأرضِ . وقيل : بل وُلِدَ لهما فيها ، فكان قابيلُ وأختُه ممن وُلِد بها ، واللهُ أعلمُ . وذكروا أنَّه كان يُولَدُ له فى كلِّ بطنٍ ذَكَرٌ وأنثى ، وأُمِر أن يُزَوِّجَ كلَّ ابنٍ أختَ أخيه التى وُلِدتْ معه ، والآخَرَ بالأخرَى ، وهَلُمَّ جرًّا ، ولم يكنْ تَحِلُّ أختٌ لأخيها الذى وُلِدتْ معه .

---

(١) تفسير الطبرى ٥٤٧/١ .

(٢) تاريخ الطبرى ١٢٤/١ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٢٨/١ ، ١٢٩ .

(٤) فى الأصل : « بتسع » .

(٥) ليست فى : ح ، ا .

ذكرُ قِصَّةِ ابْنَىْ آدمَ قابيلَ وهَابيلَ

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ [٥٦/١و] قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧ – ٣١] . قد تكلمنا على هذه القصةِ فى سورةِ « المائدة » فى « التفسيرِ » بما فيه كفايةٌ ، وللهِ الحمدُ[١] .

ولنذكرْ هنا ملخَّصَ ما ذكره أئمةُ السَّلفِ فى ذلك ؛ فذكر السُّدِّىُّ[٢] ، عن أبى مالكٍ وأبى صالحٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، وعن مُرَّةَ عن ابنِ مسعودٍ ، وعن ناسٍ مِن الصحابةِ ، أنَّ آدمَ كان يُزَوِّجُ ذَكَرَ كلِّ بطنٍ بأُنثى البطنِ الأخرى ، وأنَّ هابيلَ أراد أنْ يتزوجَ بأختِ قابيلَ ، وكان أكبرَ مِن هابيلَ ، وأختُ قابيلَ[٣] أحسنُ ، فأراد قابيلُ[٣] أن يستأثرَ بها على أخيه ، وأمره آدمُ عليه السلامُ أن يزوِّجه إيّاها فأَبَى ، فأمرهما أنْ يقرِّبا قُرْبانًا ، وذهب آدمُ لِيَحُجَّ

---

(١) التفسير ٧٥/٣ – ٨٦ .

(٢) هذه الرواية والروايات التى بعدها أوردها المصنف فى التفسير ٧٦/٣ – ٨٣ . والطبرى فى تفسيره ١٨٨/٦ – ١٩٣ ، وفى تاريخه ١٣٧/١ – ١٤٢ .

(٣) كذا فى : ا . و هو موافق لما فى المصادر . وفى بقية النسخ : « هابيل » .

إلى مكةَ ، واستحفظَ السمواتِ على بنيه فأَبَيْنَ ، والأَرَضِين والجبالَ فأَبَيْن ، فتقَبَّل قابيلُ بحفظِ ذلك ، فلَمَّا ذهبَ آدمُ قَرّبا قُرْبانَهما ، فقرَّب هابيلُ جَذَعَةً سمينةً ، وكان صاحبَ غنمٍ ، وقرّب قابيلُ حِزْمةً مِن زرعٍ مِن رديءِ زَرْعِه ، فَنزلت نارٌ فأكلتْ قُرْبانَ هابيلَ ، وتركتْ قربانَ قابيلَ ، فغَضِب وقال : لأقتلَنَّك حتى لا تنْكِحَ أختى . فقال : إنَّما يتقبلُ اللهُ مِنَ المتقين . ورُوِىَ عنِ ابنِ عباسٍ مِن وُجُوهٍ أُخرَ ، وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو . وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو : وايْمُ اللهِ إنْ كان المقتولُ لأَشَدَّ الرجلَيْن ، ولكنْ منعه التحرُّجُ أَنْ يبسُطَ إليه يدَه .

وذكَر أبو جعفرٍ الباقِرُ ، أَنَّ آدمَ كان مباشِرًا لتقرُّبهما القربانَ والتقبُّلِ مِن هابيلَ دونَ قابيلَ ، فقال قابيلُ لآدمَ : إنَّما تُقُبِّلَ منه لأَنَّك دعوْتَ له ولم تَدْعُ لى . وتوعَّدَ أخاه فيما بينَه وبينَه . فلما كان ذاتَ ليلةٍ ، أبطأَ هابيلُ فى الرَّعىِ ، فبعث آدمُ أخاه قابيلَ لينظُرَ ما أبطأَ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له : تُقُبِّلَ منك ولم يُتَقَبَّلْ منى ؟ فقال : إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين . فغضِبَ قابيلُ عندَها وضَرَبه بحديدةٍ كانت معَه فقتله . وقِيل : إنه إنما قتله بصَخْرَةٍ رماها على رأسِه وهو نائمٌ فشَدَخَتْه . وقِيل : بل خنَقَه خَنْقًا شديدًا وعَضًّا كما تفعلُ السِّباعُ فمات . واللهُ أعلمُ .

وقولُه له لَمَّا توعَّده بالقتلِ : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . دلَّ على خُلُقٍ[1] حسنٍ ، وخَوْفٍ مِنَ اللهِ تعالى ، وخَشْيةٍ منه ، وتَوَرُّعٍ أَنْ يُقابلَ أخاه[2] بالسوءِ الذى أراد منه أخوه مثلَه ؛ ولهذا ثبت فى « الصَّحيحَين »[3] [١/٥٦ظ]

---

(١) سقط من : ح .

(٢) فى ا : « من آذاه ».

(٣) البخارى (٣١ ، ٦٨٧٥ ، ٧٠٨٣) ، مسلم (٢٨٨٨) .

عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال : « إذا تواجَه المسلمانِ بسَيْفَيْهِما ، فالقاتلُ والمقتولُ فى النارِ » . قالوا : يا رسولَ اللهِ ، هذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قال : « إنَّه كان حريصًا على قَتْلِ صاحِبِه » . وقولُه : ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أى ، إنِّى أريدُ ترْكَ مقاتَلَتِك وإنْ كنتُ أشدَّ منك وأقوَى ، إذ قد عَزَمْتَ على ما عَزَمْتَ عليه ﴿ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ أى ، تتحملُ إثْمَ قتلِى مع ما لَكَ مِنَ الآثامِ المتقدِّمةِ قبلَ ذلك . قاله : مُجاهِدٌ والسُّدِّىُّ وابنُ جريرٍ وغيرُ واحدٍ . وليس المرادُ أَنَّ آثامَ المقتولِ تتحولُ بمجردِ قتْلِه إلى القاتلِ ، كما قد تَوهَّمه بعضُ الناسِ[1] ، فإنَّ ابنَ جريرٍ حكى الإجماعَ على خلافِ ذلك[2] .

وأمَّا الحديثُ الذى يُورِدُه بعضُ مَنْ لا يعلمُ عنِ النبىِّ ﷺ أنَّه قال : « ما ترَكَ القاتلُ على المقتولِ مِن ذَنْبٍ »[3] . فلا أصْلَ له ، ولا يُعْرَفُ فى شىءٍ مِن كتبِ الحديثِ بسندٍ صحيحٍ ولا حَسَنٍ ولا ضعيفٍ أيضًا . ولكنْ قد يَتَّفِقُ فى بعضِ الأشخاصِ يومَ القيامةِ أن يطالِبَ المقتولُ القاتِلَ ، فتكونَ حسناتُ القاتلِ لا تَفِى بهذه المظلمةِ ، فتُحَوَّلَ مِن سيئاتِ المقتولِ إلى القاتلِ ، كما ثبت به الحديثُ الصحيحُ فى سائرِ المظالِمِ[4] ، والقتْلُ مِن أعظمِها . واللهُ أعلمُ . وقد حرَّرنا هذا كلَّه فى « التفسيرِ »[5] ، ولله الحمدُ .

وقد روى الإمامُ أحمدُ ، وأبو داودَ ، والتِّرمذىُّ[6] ، عن سعدِ بنِ

---

(١) سقط من : م .

(٢) ولفظه : لإجماع أهل التأويل عليه . تفسيره ٦/١٩٣ .

(٣) كشف الخفاء ٢/١٨٤ .

(٤) يشير إلى حديث المفلس ، الذى أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبى هريرة .

(٥) التفسير ٣/٨١ ، ٨٢ .

(٦) مسند أحمد ١/١٨٥ ، أبو داود (٤٢٥٧) ، الترمذى (٢١٩٤) وقال : حسن . (صحيح الجامع ٢٤٢٧) .

أبى وقّاصٍ ، أنَّه قال عندَ فِتْنةِ عثمانَ بنِ عفانَ : أشهدُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّها ستَكونُ فِتْنةٌ ؛ القاعدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القائمِ ، والقائمُ خيرٌ مِنَ الماشِى ، والماشِى خَيْرٌ مِنَ الساعِى » . قال : أفرأيْتَ إنْ دَخَل علىَّ بيتى فبسط يدَه إلىَّ ليقتُلَنى ؟ قال : « كُنْ كابنِ آدمَ » . ورواه ابنُ مَرْدَوَيْه[1] عن حُذيفةَ ابنِ اليَمانِ مرفوعًا ، وقال : « كُنْ كَخَيرِ ابْنَىْ آدمَ » . وروى مسلمٌ وأهلُ « السُّننِ » إلَّا النَّسائىَّ عن أبى ذَرٍّ نحوَ هذا[2] .

وأمَّا الآخرُ فقد قال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا أبو معاويةَ ووَكِيعٌ ، قالا : حدثنا الأعمشُ ، عن عبدِ اللهِ بنِ مُرَّةَ ، عن مسروقٍ ، عن ابنِ مسعودٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلْمًا إلا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِها ؛ لِأنَّه كانَ أولَ مَنْ سَنَّ القتلَ » . ورواه الجماعةُ سِوى أبى داودَ مِن حديثِ الأعمشِ به[4] . وهكذا رُوِىَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ ، وإبراهيمَ النَّخَعىِّ أنَّهما قالا مِثْلَ هذا سواءً[5] . [6]وبجبلِ قاسِيونَ شَمالىَّ دِمَشْقَ مَغارَةٌ يُقالُ لها : مغارةُ الدَّمِ . مشهورةٌ بأنَّها المكانُ الذى قَتلَ قابيلُ أخاه هابيلَ عندَها . وذلك مما تَلَقَّوْه عن أهلِ الكتابِ ، فاللهُ أعلمُ بصحّةِ ذلك . وقد ذكر الحافِظُ ابنُ عساكرَ[7] فى ترجمةِ أحمدَ بنِ كثيرٍ ، وقال : إنه كان مِنَ الصالحين ، أنه رأى النبىَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعمرَ وهابيلَ ، وأنه[6]

---

(١) عزاه إليه السيوطى فى الدر المنثور ٢٧٤/٢ .

(٢) أبو داود (٤٢٦١) ، ابن ماجه (٣٩٥٨) ولم نهتد إليه عند مسلم (صحيح الجامع ٧٦٩٦) ولم يعزه فى تحفة الأشراف ١٧٣/٩ ، إلا إلى أبى داود وابن ماجه .

(٣) مسند أحمد ٣٨٣/١ ، ٤٣٠ (صحيح) .

(٤) البخارى (٦٨٦٧) ، مسلم (١٦٧٧) ، الترمذى (٢٦٧٣) ، النسائى (٣٩٩٦) ، ابن ماجه (٢٦١٦) .

(٥) الطبرى ١٩٤/٦ .

(٦ - ٦) سقط من : الأصل ، ح .

(٧) تاريخ دمشق ١٧٧/٥ .

(1) استحلفَ هابيلَ أنَّ هذا دَمُه ، فَحَلَفَ له ، وذكر أنه سأل الله تعالى أنْ يجعلَ هذا المكانَ يُستجابُ عندَه الدُّعاءُ ، فأجابه إلى ذلك ، وصَدَّقه فى ذلك رسولُ اللهِ ﷺ ، وقال إنَّه وأبا بكرٍ وعمرَ يزورون هذا المكانَ فى كلِّ يومِ خميسٍ . وهذا مَنامٌ لو صَحَّ عن أحمدَ بنِ كثيرٍ هذا لم يَترتَّبْ عليه حُكْمٌ شرعىٌّ ، واللهُ أعلمُ(1) .

وقولُه تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ [٥٧/١و] أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ . ذكر بعضُهم أنَّه لَمَّا قتَله حَمَلَه على ظهرِه سنةً . وقال آخرون : حمله مائةَ سَنَةٍ ، ولم يَزَلْ كذلك حتى بعث اللهُ غرابَيْن - قال السُّدِّىُّ بإسنادِه عنِ الصَّحابةِ : أخوَيْن - فتقاتلا ، فقتل أحدُهما الآخرَ ، فلمَّا قتله عَمَد إلى الأرضِ فحفَر له فيها ، ثم ألقاه ودفَنه وواراه ، فلَمَّا رآه يصنعُ ذلك ، قال : ﴿ يا وَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الغُرَابِ فأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ . ففعل مثلَ ما فعل الغرابُ ، فواراه ودفنه .

وذكر أهلُ التواريخِ والسِّيَرِ أنَّ آدمَ حزِن على ابنِه هابيلَ حُزْنًا شديدًا ، وأنَّه قال فى ذلك شِعْرًا ، وهو قولُه فيما ذكره ابنُ جريرٍ(2) ، عن ابنِ حُميدٍ :

تغيَّرتِ البلادُ ومَنْ عَلَيْها ... فوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ
تغيَّر كلُّ ذى طَعْمٍ ولَونٍ ... وقلَّ بَشاشةُ الوجْهِ المَلِيحِ(3)

(1 - 1) سقط من : الأصل ، ح .

(2) تاريخ الطبرى ١٤٥/١ . وعنه ابن كثير فى التفسير ٨٥/٣ .

(3) فى حاشية الأصل : فيه من عيوب القافية الإقواء وهو حرف الروى مجرور مع أن الأول مرفوع . ص ٩٥ .

فأُجيبَ آدمُ :

أبا هابيلَ قد قُتِلا جميعًا وصارَ الحَىُّ كالمَيْتِ[1] الذبيحِ
وجاء بِشَرَّةٍ[2] قد كان منها على خوفٍ فجاء بها يصيحُ

وهذا الشِّعرُ فيه نظرٌ ، وقد يكونُ آدمُ عليه السلامُ قال كلامًا يتحزّنُ به بلغتِه ، فألَّفه بعضُهم إلى هذا ، وفيه إقواءٌ ، واللهُ أعلمُ . وقد ذكر مُجاهِدٌ أَنَّ قابِيلَ عُوجِل بالعقوبةِ يومَ قَتَلَ أخاه ، فعُلِّقتْ ساقُه إلى فخذِه ، وجُعِل وجهُه إلى الشمسِ كيفما دارت ؛ تنكيلًا به وتعجيلًا لذنبه وبَغْيه وحَسَدِه لأخيه لأبَويْه . وقد جاء فى الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّه قال : « ما مِن ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عقُوبَتَه فى الدنيا مع ما يَدَّخِرُ لصاحِبه فى الآخرةِ مِنَ البَغْىِ وقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »[3] .

والذى رأيتُه فى الكتابِ الذى بأيدى أهلِ الكتابِ[4] ، الذين يزعمُون أنه التوراةُ ، أَنَّ اللهَ عز وجل أَجَّلَه وأَنظَره ، وأَنَّه سكَن فى أرضِ نُودٍ[5] فى شرقِىِّ عَدَنَ ، وهم يسمُّونه قَيْنًا[6] ، وأَنَّه وُلِدَ له خَنُوخُ ، ولخَنُوخَ ، عُندرُ[7] ،

---

(١) فى الأصل ، ح : « بالميت » .
(٢) فى الأصل : « يسوؤه » .
(٣) مسند أحمد ٣٦/٥ ، من حديث أبى بكرة (صحيح الجامع ٥٥٨٠) .
(٤) سفر التكوين ، الأصحاح ١٦/٤ .
(٥) فى ا : « قود » ، وفى تاريخ الطبرى ١٤٣/١ « بوذ » .
(٦) فى الأصل : « قتين » ، وفى بقية النسخ : « قنين » . والتصويب من تاريخ الطبرى ١٦٥/١ ، الكامل لابن الأثير ٥٦/١ . وفى القاموس : قاينُ ابن لآدمَ عليه السلام . (ق ى ن) وكذلك فى مروج الذهب للمسعودى ٤٩/١ . فلعل الألف حذفت تسهيلا .
(٧) فى الأصل : « غبدز » ، وفى ا : « قيدز » ، وفى تاريخ الطبرى : « عيرد » ، وفى الكامل : « غيرد » .

ولعندرَ[1] مَحْواويلُ ، ولمحواويلَ مَتُّوشِيلُ[2] ، ولِمَتُّوشِيلَ[2] لامَكُ ، وتزوّج هذا[3] امرأتين ؛ عَدَا ، وَصِلَا ، فولدتْ عَدًّا وَلَدًا اسمُه أبلُ[4] ، وهو أولُ مَن سكن القِبابَ واقتنى المالَ[5] ، وولدت أيضًا توبلَ[6] ، وهو أولُ مَن أخذ فى ضَرْبِ الوَنَجِ والصَّنْجِ[7] . وولدتْ صِلَا ولدًا اسمُه توبلقين[8] ، [١/٥٧ظ] وهو أولُ مَن صنع النُّحاسَ والحديدَ ، وبنتًا اسمُها نُعْمَى . وفيها أيضًا أنَّ آدمَ طاف على امرأتِه فولدتْ غلامًا ودعتِ اسمَه شِيثَ[9] ، [10]وقالتْ : مِن أجلِ أنَّه قد وُهِبَ لى خلفًا مِن [11]هابيلَ الذى قتله[11] قابيلُ[10] . ووُلِدَ لشيثَ أنوشُ . قالوا : وكان عُمُرُ آدمَ يومَ وُلِدِ له شيثُ ، مائةً وثلاثين سنةً ، وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةِ سنةٍ ، وكان عمرُ شيثَ يومَ وُلِد له أُنوشُ مائةً [12]وخمسَ سنين[12] ، وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةِ سنةٍ [13]وسبعَ سنين[13] . ووُلِد له بنونَ وبناتٌ غيرُ أنوشَ ، فوُلِد لأُنوشَ قَيْنَانُ[14] وله مِن العمرِ تسعون[15] سنةً ،

---

(١) فى الأصل : « ولغدد » ، وفى ا : « ولقيدر » .

(٢) فى ا : « متوشلح » . وفى تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير : « أنوشيل » . وفيهما أيضا أن عيرد ومحواويل ومتوشيل إخوة ثلاثة وهم أبناء خنوخ .

(٣) فى ا : « كيدز » .

(٤) فى تاريخ الطبرى : « تولين » ، وفى الكامل : « بولس » .

(٥) سفر التكوين الأصحاح ٤/٢٠ : « الذى كان أبا لساكنى الخيام ورعاة المواشى » .

(٦) فى تاريخ الطبرى : « تو بيش » ، وفى الكامل : « توبلين » .

(٧) الوَنَجُ : هو المِزْهَر والعود . والصَّنْجُ : مِعْزَف ذو أوتار . فارسى معرب . اللسان (ص ن ج - و ن ج) .

(٨) فى الأصل : « توبلتين » ، وفى ا : « يومنتيل » . وفى تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير أن توبلقين ابن عدا وليس ابن صلا ، ولم يذكرا لصلا أولادًا .

(٩) فى ا وفيما يأتى بعد : « شيت » .

(١٠ - ١٠) سقط من : ا .

(١١ - ١١) ليس فى الأصل .

(١٢ - ١٢) فى م : « وخمسا وستين » وفى ا : « وخمسا وخمسين » .

(١٣ - ١٣) فى ا : « وسبع وستين سنة » .

(١٤) فى م : « فتيان » . وانظر تاريخ الطبرى ١/١٦٣ ، الكامل لابن الأثير ١/٥٤ ، مروج الذهب ١/٤٩ .

(١٥) فى ا : « سبعون » .

وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةِ سنةٍ وخمسَ عشرةَ سنةً ، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ ، فلَمَّا كان عمرُ قَيْنَانَ[1] سبعين سنةً وُلِد له مَهْلَائيلُ ، وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةِ سنةٍ وأربعين سنةً ، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ ، فَلَمَّا كان لمَهْلَائيلَ مِن العمرِ خمسٌ وستون سنةً وُلِد له يَرْدُ[2] ، وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةٍ وثلاثين[3] سنةً ، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ ، فلَمَّا كان ليَرْدَ مائةُ سنةٍ واثنتان وستون سنةً وُلِدَ له خَنُوخُ[4] ، وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةِ سنةٍ ، ووُلِد له بَنُونَ وبناتٌ ، فلَمَّا كان لخَنُوخَ خمسٌ وسِتُّون سنةً وُلِد له مَتُّوشَلَخُ[5] ، وعاش بعدَ ذلك ثمانِمائةِ سنةٍ ، ووُلِدَ له بَنُونَ وبناتٌ ، فلَمَّا لمَتُّوشَلَخَ مائةٌ وسبعٌ وثمانون سنةً وُلِد له لامَكُ ، وعاش بعدَ ذلك سبعَمائةٍ واثنتين وثمانينَ سنةً ، ووُلِد له بَنُونَ وبناتٌ ، فلَمَّا كان للامَكَ مِن العمرِ مائةٌ واثنتانِ وثمانونَ سنةً وُلِد له نوحٌ ، وعاش بعدَ ذلك خمسَمائةٍ وخمسًا وتسعين[6] سنةً ، ووُلِد له بَنُونَ وبناتٌ ، فلَمّا كان لنوحٍ خمسُمائةِ سنةٍ وُلِد له بَنُونَ ؛ سامٌ ، وحامٌ ، ويافثُ . هذا مضمونُ ما فى كتابِهم صريحًا[7] .

وفى كَوْنِ هذه التواريخِ محفوظةً فيما نزل مِن السماءِ نَظَرٌ ؛ كما ذكره غيرُ واحدٍ مِنَ العلماءِ طاعِنين عليهم فى ذلك . والظاهرُ أنَّها مُقْحَمَةٌ فيها . ذكرها

---

(١) فى م : « فتيان » . وانظر تاريخ الطبرى ١٦٣/١ ، الكامل لابن الأثير ٥٤/١ ، مروج الذهب ٤٩/١ .

(٢) فى ا هنا وفى الموضع الآتى : « برد » .

(٣) فى ا : « وستة وثلاثين » .

(٤) خنوخ هو أخنوخ ، وهو نبى الله إدريس عند أهل الكتاب . وعندهم أن الله رفعه إليه ، سفر التكوين الأصحاح ٢٤/٤ : « وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » .

(٥) فى م ، ص هنا وفى الموضع الآتى : « متوشلح » بالحاء المهملة .

(٦) فى ا : « سبعين » .

(٧) سفر التكوين : الأصحاح الرابع والخامس .

بعضُهم[1] على سبيلِ الزِّيادةِ والتَّفسيرِ . وفيها غَلَطٌ كثيرٌ ؛ كما سنذكرُه فى مواضعِه إنْ شاء اللهُ تعالى[2] .

وقد ذكر الإمامُ أبو جعفرٍ ابنُ جَريرٍ فى « تاريخِه »[3] عن بعضِهم أنَّ حواءَ ولدتْ لآدمَ أربعينَ ولدًا فى عشرين بَطْنًا . [4]قاله ابنُ إسحٰقَ ، وسمَّاهم ، واللهُ تعالى أعلمُ . وقيل : مائةً وعشرينَ بطنًا[4] ، فى كلِّ واحدٍ ذكرٌ وأنثى ؛ أوَّلُهم قابيلُ وأختُه قِليما ، وآخِرُهم عبدُ المُغيثِ ، وأختُه أَمَةُ[5] المُغيثِ ، ثم انتشر الناسُ بعدَ ذلكَ ، وكَثُروا وامتدُّوا فى الأرضِ ، ونَمَوْا ، [٥٨/١و] كما قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات : ١٣] الآياتُ . وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] الآيةُ . وقد ذكَر أهلُ التاريخِ أنَّ آدمَ عليه السلامُ لم يمتْ حتى رأى مِن ذُرِّيَّتِه مِن أولادِه وأولادِ أولادِه أربعينَ[6] ألفَ[7] نسمةٍ ، واللهُ أعلمُ . وقال تعالى[8] : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّـٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَـٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ

---

(١) فى ا : « بعض علمائهم » .

(٢) بعده فى ا : « اللهم إلا أن تكون هذه التواريخ قد تلقوها عن الأنبياء المتقدمين وكتب الأولين قرنا فقرنا وجيلا فجيلا » .

(٣) تاريخ الطبرى ١٤٥/١ .

(٤ - ٤) سقط من : ص .

(٥) فى النسخ : « أم » ، والمثبت من تاريخ الطبرى ١٤٥/١ .

(٦) فى ح ، م ، ص : « أربعمائة » وانظر تاريخ الطبرى ١٦٧/١ . مروج الذهب ٤٨/١ .

(٧) سقط من : ص .

(٨) التفسير ٥٢٧/٣ - ٥٣١ .

ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩ ، ١٩٠] . فهذا تنبيهٌ أولًا بذِكرِ آدمَ ، ثم استَطْرد إلى الجنسِ ، وليس المرادُ بهذا ذِكْرَ آدمَ وحواءَ ، بل لَمَّا جَرَى ذكرُ الشَّخْصِ استطرد إلى الجنسِ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] . ومعلومٌ أنَّ رجومَ الشياطينِ ليست هى أعيانَ مصابيحِ السَّماءِ ، وإنَّما استَطرَدَ مِن شخصِها إلى جِنْسِها .

فأمَّا الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ[1] ، حدثنا عبدُ الصَّمدِ ، حدثنا عمرُ ابنُ إبراهيمَ ، حدثنا قتادةُ ، عنِ الحسنِ ، عن سَمُرَةَ ، عنِ النَّبىِّ ﷺ ، قال : « لما وَلَدت حواءُ ، طافَ بها إبليسُ ، وكان لا يعيشُ لها ولَدٌ ، فقال :سَمِّيه عبدَ الحارثِ ، فإنَّه يعيشُ . فسمَّتْه عبدَ الحارث فعاشَ ، وكان ذلك مِن وَحْىِ الشيطانِ وأَمْرِه » . وهكذا رواه التِّرمذىُّ ، وابنُ جَريرٍ ، وابنُ أبى حاتِمٍ ، وابنُ مَرْدَوَيْه فى « تفاسيرِهم »[2] عندَ هذه الآيةِ من سورةِ « الأعرافِ » ، وأخرجَه الحاكِمُ فى « مُسْتَدْرَكِه » ، كلُّهم مِن حديثِ عبدِ الصَّمدِ بنِ عبدِ الوارثِ به . وقال الحاكمُ : صحيحُ الإسنادِ ، ولم يُخرِّجاه . وقال التِّرمذىُّ : حَسَنٌ غريبٌ لا نعرفُه مرفوعًا[3] إلا من حديثِ عمرَ بنِ إبراهيمَ ، ورواه بعضُهم عن عبدِ الصَّمدِ ولم يرفعْه . فهذه عِلَّةٌ قادِحةٌ فى الحديثِ ، أنه رُوِىَ موقوفًا

---

(١) مسند أحمد ١١/٥ .

(٢) الترمذى (٣٠٧٧) ، تفسير الطبرى ١٤٦/٩ مرفوعا وموقوفا على ابن عباس ، الدر المنثور ١٥١/٣ ، المستدرك ٥٤٥/٢ ، ووافقه الذهبى . انظر (الضعيفة ٣٤٢) .

(٣) سقط من النسخ والمثبت من سنن الترمذى .

على الصحابيِّ ، وهذا أشبهُ ، والظاهِرُ أنَّه تلقَّاه مِنَ الإسرائيليَّاتِ . وهكذا رُوِىَ موقوفًا على ابنِ عباسٍ . والظَّاهِرُ أنَّ هذا مُتَلقًّى عن كعبِ الأحبارِ (1)ومَن دونَه(1) ، واللهُ أعلمُ . وقد فسَّر الحسنُ البَصْرِىُّ - راوى الحديثِ - هذه الآيةَ بخلافِ هذا ، فلو كان عندَه عن سَمُرةَ مرفوعًا ، لَمَا عَدَل عنه إلى غيرِه ، واللهُ أعلمُ . وأيضًا فاللهُ تعالى إنَّما خلق آدمَ وحواءَ ليكونا أصلَ البشرِ ، ولِيَبُثَّ منهما رِجالًا كثيرًا ونساءً ، فكيف كانتْ حواءُ لا يعيشُ لها ولدٌ ، كما ذُكِر فى هذا الحديثِ إنْ كان محفوظًا ؟ والمَظْنونُ ، بلِ المقطوعُ به ، أنَّ رَفْعَه إلى النبىِّ ﷺ خطأٌ ، والصوابُ وَقْفُه ، واللهُ تعالى أعلمُ . وقد حرَّرنا هذا [١/١٥٨ظ] فى كتابِنا « التفسيرِ »(2) وللهِ الحمدُ . ثم قد كان آدمُ وحواءُ أتقَى للهِ مِمّا ذُكِر عنهما فى هذا ؛ فإنَّ آدمَ أبو البشرِ الذى خلَقه اللهُ بيدِه ، ونفَخ فيه مِن رُوحِه ، وأَسْجَد له ملائِكتَه ، وعلَّمَه أسماءَ كلِّ شىءٍ ، وأَسْكَنَه جنَّتَه .

وقد روى ابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »(3) عن أبى ذرٍّ ، قال : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ، كَمِ الأنبياءُ ؟ قال : « مائةُ ألفٍ (4)وأربعةٌ وعِشرون(4) ألفًا » . قلتُ : يا رسولَ اللهِ ، كَمِ الرُّسُلُ مِنهم ؟ قال : « ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ ، جَمٌّ غَفِيرٌ » . قلت : يا رسولَ اللهِ ، مَنْ كان أوَّلَهم ؟ قال : « آدمُ » . قلت : يا رسولَ اللهِ ، نبىٌّ مُرْسَلٌ ؟ قال : « نعم ، خلَقَه اللهُ بيدِه ، ثم نفَخَ فيه مِن رُوحِهِ ، ثم سَوَّاه(5) قُبُلًا » .

(١ - ١) فى الأصل ، ح : « وذويه » ، فى م ، ص : « ودونه » .

(٢) التفسير ٣/٥٢٧ - ٥٣١ .

(٣) الإحسان (٣٦١) ، إسناده ضعيف جدا .

(٤ - ٤) كذا بالنسخ . وفى صحيح ابن حبان : « وعشرون » . ولفظ : « وأربعة وعشرون » رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء ١/١٦٦ ، ١٦٧ .

(٥) كذا بالنسخ . وفى صحيح ابن حبان : « كلَّمه » . ولفظة « سواه » رواها أبو نعيم فى الحلية ١/١٦٧ من طريق سليمان بن أحمد .

وقال الطَّبرانىُّ[1] : حدثنا إبراهيمُ بنُ نائلَةَ الأصبهانىُّ ، حدثنا شَيْبانُ بنُ فَرُّوخٍ ، حدثنا نافِعُ بنُ[2] هُرْمُزَ ، عن عطاءِ بنِ أبى رَبَاحٍ ، عن ابنِ عباسٍ قال : قال : رسولُ اللهِ ﷺ : « ألا أُخْبِرُكُم بأفضلِ الملائكةِ ؟ جبريلُ ، وأفضَلُ النَّبِيِّين آدَمُ ، وأفضَلُ الأيَّامِ يومُ الجُمُعَةِ ، وأفضلُ الشهورِ شهرُ رمضانَ ، وأفضلُ الليالِى لَيْلَةُ القَدْرِ ، وأفَضَلُ النِّساءِ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ » . وهَذا إسنادٌ ضعيفٌ ، فإنَّ نافِعًا أبا هُرْمُزَ هذا كذَّبَه ابنُ مَعِينٍ ، وضَعَّفه أحمدُ ، وأبو زُرْعَةَ ، وأبو حاتمٍ ، وابنُ حِبَّانَ ، وغيرُهم ، واللهُ أعلمُ .

وقال كعبُ الأحبارِ[3] : ليس أحدٌ فى الجنةِ له لِحْيَةٌ إلا آدمُ ، لحيتُه سوداءُ ، إلى سُرَّتِه ، وليس أحدٌ يُكْنَى فى الجنةِ إلا آدمُ ، كُنْيَتُه فى الدنيا أبو البشرِ ، وفى الجنةِ أبو محمدٍ .

وقد روى ابنُ عَدِىٍّ[4] من طريقِ شيخِ ابنِ أبى خالدٍ ، عن حمّادِ بنِ سلمةَ ، عن عمرِو بنِ دينارٍ ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، مرفوعًا : « أهلُ الجنةِ يُدْعَون بأسمائِهم إلا آدمَ ، فإنَّه يُكْنَى أبا محمدٍ » . ورواه ابنُ عدىٍّ[5] أيضًا ، مِن حديثِ علىِّ بنِ أبى طالبٍ ، وهو ضعيفٌ مِن كلِّ وجهٍ ، واللهُ أعلمُ .

وفى حديثِ الإسراءِ الذى فى « الصحيحين »[6] ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا

---

(١) المعجم الكبير (١١٣٦١) . وقال الهيثمى : فيه نافع أبو هرمز وهو ضعيف . المجمع ١٤٠/٣ ، ١٩٨/٨ . وهو حديث موضوع (الضعيفة ٤٤٦) .

(٢) كذا بالنسخ ، وفى المعجم الكبير : « أبو » . وهو يوافق كلام المصنف فى التعليق على الحديث . وانظر لسان الميزان ١٤٦/٦ .

(٣) رواه ابن عساكر ٣٨٩/٧ .

(٤) الكامل فى الضعفاء ١٣٦٨/٤ .

(٥) الكامل ٢٣٠٣/٦ .

(٦) البخارى (٣٤٩ ، ٣٣٤٢) ، مسلم (١٦٣) .

مَرَّ بآدمَ وهو فى السماءِ الدنيا ، قال له : « مرحبًا بالابنِ الصَّالحِ والنَّبىِّ الصالحِ . قال : وإذا عن يمينِه أَسْوِدَةٌ ، وعن يسارِه أَسْوِدَةٌ ، فإذا نظر عن يمينِه ضحِكَ ، وإذا نظر عن شِمالِه بكَى ، فقلتُ : يا جبريلُ ، ما هذا ؟ قال هذا آدَمُ ، وهؤلاءِ نسَمُ بَنِيه ، فإذا نظَر قِبَلَ أهلِ اليمينِ ، وهم أهلُ الجنةِ ، ضَحِك ، وإذا نظر قِبَلَ أهلِ الشِّمالِ ، وهم أهلُ النَّارِ ، بكَى » . هذا معنى الحديثِ . وقال أبو بكرٍ البزَّارُ[1] : حدثنا محمدُ بنُ المُثَنَّى ، حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ ، أنبأنا هشامُ بنُ حسَّانَ ، عنِ الحسنِ ، قال : كان عَقْلُ آدمَ مثلَ عقلِ جميعِ ولدِه .

وقال بعضُ [٥٩/١و] العلماءِ[2] فى قولِه ﷺ : « فمررتُ بيوسُفَ ، وإذا هو قد أُعْطِىَ شَطْرَ الحُسْنِ »[3] . قالوا : معناه أنَّه كان على النِّصفِ مِن حُسْنِ آدمَ عليه السلامُ . وهذا مناسِبٌ ، فإنَّ اللهَ خلقَ آدمَ وصوَّرَه بيدِه الكريمةِ ، ونفَخ فيه مِن رُوحِه ، فما كان لِيخْلُقَ إلا أحسنَ الأشياءِ[4] . وقد رُوِّينا عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وابنِ عمرٍو أيضًا ، موقوفًا ومرفوعًا : « إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خلق الجنةَ قالتِ الملائكةُ : يا رَبَّنا ، اجعْل لنا هذه ، فإنَّك خلقتَ لبنِى آدمَ الدنيا يأكُلون فيها ويشربُون . فقال اللهُ تعالى : وعزَّتِى وجَلَالِى لا أجْعَلُ صالِحَ ذُرِّيَّةِ مَن خلقْتُ بِيَدىَّ ، كَمَنْ قلتُ له : كُنْ . فكان »[5] . وقد ورد الحديثُ المَرْوِىُّ فى « الصحيحين »[6] وغيرِهما مِن طرقٍ أَنَّ رسولَ اللهِ

---

(١) لم نجده فى كشف الأستار .

(٢) انظر التفسير ٣١٢/٤ .

(٣) مسلم (١٦٢) .

(٤) فى م : « الأشباه » .

(٥) تقدم المرفوع عن ابن عمرو فى صفحة ١٢٧ ، والموقوف أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٣٢) من حديث ابن عمر .

(٦) البخارى (٣٣٢٦ ، ٦٢٢٧) ، مسلم (٢٦١٢ ، ٢٨٤١) .

ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ على صُورَتِه » . [1]وفى غيرِ « الصحيحين » : « إن اللهَ خلق آدمَ على صورةِ الرحمنِ عز وجل »[1] . وقد تكلَّم العلماءُ على هذا الحديثِ ، فذكروا فيه مسالِكَ كثيرةً ، ليس هذا موضِعَ بَسْطِها ، واللهُ أعلمُ .

(١ - ١) زيادة من : ا . وهذه الرواية أخرجها البيهقى فى الأسماء والصفات ص ٢٩١ . وضعفها الألبانى فى السنة لابن أبى عاصم (٥١٧) . وانظر التوحيد لابن خزيمة ص ٢٧ .

ذكرُ وفاةِ آدمَ ووصيَّتِه إلى ابنِه شِيثٍ[1]

ومعنى شِيثٍ[1] ، هِبَةُ اللهِ . وسمَّياه بذلك ؛ لأنَّهما رُزِقاه بعد أنْ قُتِلَ هابيلُ . قال أبو ذَرٍّ فى حديثِه[2] عن رسولِ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ أنزَلَ مائة صحيفةٍ وأرْبَعَ صُحُفٍ ؛ على شِيْثَ خمسينَ صحيفةً » . قال محمدُ بنُ إسحاقَ[3] : ولما حضرتْ آدمَ الوفاةُ عَهِد إلى ابنِه شِيثٍ ، وعلَّمه ساعاتِ الليلِ والنهارِ ، وعلَّمه عباداتِ تلك الساعاتِ ، وأعْلَمه بوقوعِ الطُّوفانِ بعدَ ذلك . قال : ويُقَالُ : إنَّ أنسابَ[4] بنى آدمَ اليومَ كلَّها تنتهِى إلى شِيثٍ ، وسائِرُ أولادِ آدمَ غيرَه انقرضوا وبادُوا ، واللهُ أعلمُ .

ولما تُوُفِّىَ آدمُ عليه السلامُ ، وكان ذلك يومَ الجمعةِ ، جاءَتْه الملائكةُ بحَنُوطٍ وكَفَنٍ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجل مِنَ الجنةِ ، وعزُّوا فيه ابنَه ووصيَّه شِيثٍ عليه السلامُ . قال ابنُ إسحاقَ[3] : وكسفَتِ الشمسُ والقمرُ سبعةَ أيامٍ بلياليهنَّ . وقد قال عبدُ اللهِ بنُ الإمامِ أحمدَ[5] : حدثنا هُدبةُ بنُ خالدٍ ، حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ ، عن حُميدٍ ، عنِ الحسنِ ، عن عُتَىٍّ[6] - هو ابنُ ضَمْرةَ السَّعْدِىُّ - قال : رأيتُ شيخًا بالمدينةِ يتكلمُ ، فسألتُ عنه ، فقالوا : هذا أُبَىُّ بنُ كعبٍ . فقال : إن آدمَ لَمَّا حضره الموتُ قال لبَنِيه : أىْ بَنِىَّ ، إنِّى أشتَهِى مِن ثمارِ

---

(١) فى الأصل ، ا : « شيت » .

(٢) تقدم فى صفحة ٢٢٦ .

(٣) تاريخ الطبرى ١٥٢/١ ، ١٥٣ . وأورده الثعلبى فى عرائس المجالس (٤١) بنحوه .

(٤) فى ح : « أسماء » .

(٥) مسند أحمد ١٣٦/٥ ، ورجاله رجال الصحيح غير ضمرة وهو ثقة . مجمع الزوائد ١٩٩/٨ .

(٦) فى م : « يحيى » .

الجنةِ . قال : فذهبوا يطلبُون له ، فاستقبلتْهمُ الملائكةُ ومعهم أكفانُه وحَنُوطُه ، ومعهم الفُئُوسُ والمَساحِى والمَكاتِلُ ، فقالوا لهم : يا بَنى آدمَ ، ما تريدون وما تَطلُبون - أو : ما تُريدونَ وأينَ تطلُبون - قالوا : أبونا مريضٌ واشتَهى مِن ثمارِ الجنةِ . فقالوا لهم : ارجعوا فقد قُضِىَ قَضاءُ أبيكم . فجاءُوا ، فلما رأتْهم [٥٩/١ظ] حواءُ عرفَتْهم ، فلاذَتْ بآدمَ ، فقال : إليكِ عنِّى فإنِّى إنَّما أُتيتُ مِن قِبَلِكِ ، فَخَلِّى بَيْنِى وبينَ ملائكةِ ربِّى عزَّ وجلَّ . فقبضوه ، وغسَّلُوه ، وكفَّنوه ، وحنَّطوه ، وحفَروا له ، وألْحَدُوه ، وصَلَّوْا عليه ، ثم دخلُوا[1] قبرَه فوضعوه فى قبرِه ، ثم حَثَوْا عليه ، ثم قالوا : يا بَنِى آدمَ هذه سُنَّتُكم[2] . إسنادٌ صحيحٌ إليه . وروى ابنُ عساكرَ[3] مِن طريقِ شَيْبانَ بنِ فرُّوخٍ ، عن محمدِ بنِ زيادٍ ، عن ميمونِ بنِ مِهرانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « كبَّرَتِ الملائكةُ على آدمَ أربعًا » . وكبَّر أبو بكرٍ على فاطمةَ أربعًا ، وكبَّر عمرُ على أبى بكرٍ أربعًا ، وكبَّر صُهَيبٌ على عمرَ أربعًا . قال ابنُ عساكرَ : ورواه غيرُه عن ميمونٍ ، فقال : عنِ ابنِ عمرَ .

واختلفوا فى موضعِ دَفْنِه ؛ فالمشهورُ أنَّه دُفِنَ عندَ الجبلِ الذى أُهْبِطَ عليه[4] فى الهندِ . وقِيلَ : بجبلِ أبى قُبَيْسٍ بمكةَ . ويقالُ : إنَّ نوحًا عليه السلامُ لما كان زمنُ الطوفانِ حمَله هو وحواءَ فى تابوتٍ فدفَنَهما ببيتِ المَقدسِ . حكى ذلك ابنُ جَريرٍ[5] . وروى ابنُ عساكِرَ[6] عن بعضِهم أنَّه قال : رأسُه عندَ مسجدِ إبراهيمَ ، ورِجْلاه عندَ صَخْرةِ بيتِ المَقْدسِ . وقد

---

(١) فى م ، ص : « أدخلوه » .
(٢) بعده فى ا : « فى موتاكم » .
(٣) تاريخ دمشق ٤٥٨/٧ . ومحمد بن زياد كذاب . الكامل لابن عدى ٢١٤١/٦ .
(٤) فى الأصل ، ح ، م : « منه » .
(٥) تاريخ الطبرى ١٦١/١ .
(٦) تاريخ دمشق ٤٥٨/٧ .

ماتتْ بعدَه حواءُ بسنةٍ واحدةٍ .

واخْتُلِفَ فى مقدارِ عمرِه عليه السلامُ ، فقدَّمنا فى الحديثِ عن ابنِ عباسٍ وأبى هريرةَ مرفوعًا ، أَنَّ عُمُرَه اكْتُتِبَ فى اللوحِ المحفوظِ ألفَ سنةٍ[1] . وهذا لا يعارِضُه ما فى التوراةِ مِن أنَّه عاش تِسعَمائةٍ وثلاثين سنةً ؛ لأنَّ قولَهم هذا مطعونٌ فيه مردودٌ إذا خالف الحقَّ الذى بأيدِينا مِمَّا هو المحفوظُ عن المعصومِ . وأيضًا فإنَّ قولَهم هذا يمكنُ الجمعُ بينَه وبينَ ما فى الحديثِ ؛ فإنَّ ما فى التوراةِ - إنْ كان محفوظًا - محمولٌ على مدةِ مُقامِه فى الأرضِ بعدَ الإهباطِ ، وذلك تِسعُمائةٍ وثلاثون سنةً شمسيةً ، وهى بالقمريةِ تِسعُمائةٍ وسبعٌ وخمسون سنةً ، ويضافُ إلى ذلك ثلاثٌ وأربعون سنةً ، مدةُ مُقامِه فى الجنةِ قبلَ الإهباطِ ، على ما ذكره ابنُ جَريرٍ[2] وغَيْرُه ، فيكونُ الجميعُ ألفَ سنةٍ .

وقال عطاءٌ الخُراسانىُّ : لَمَّا مات آدمُ ، بكتِ الخلائقُ عليه سبعةَ أيامٍ . رواه ابنُ عساكِرَ[3] . فلمّا مات آدمُ عليه السلامُ قام بأعباءِ الأمرِ بعدَه ولدُه شيثٌ عليه السلامُ ، وكان نبيًّا بنصِّ الحديثِ الذى رواه ابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »[4] عن أبى ذرٍّ مرفوعًا أنه أُنْزِل عليه خمسونَ صحيفةً . فلمَّا حانتْ وفاتُه ، أَوْصَى إلى ابنِه أنوشَ[5] ، فقام بالأمرِ بعدَه ، ثم بعدَه ولَدُه قَيْنَنُ ، ثم مِن بعدِه ابنُه مَهلائيلُ ، وهو الذى تزْعُمُ الأعاجمُ مِنَ الفُرْسِ [١/٦٠و] أَنَّه مَلَكَ الأقاليمَ السبعةَ ، وأَنَّهُ أَوَّلُ مَن قطَع الأشجارَ وبنى المدائِنَ ،

---

(١) تقدم فى صفحة ٢٠٣ - ٢٠٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ١١٩/١ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٥٩/٧ .

(٤) تقدم فى صفحة ٢٢٦ .

(٥) فى الأصل ، ص : « يانش » . وذكرها صاحب تاج العروس ٢٨٠/٤ .

والحصونَ الكِبارَ ، وأنَّه هو الذى بنى مدينةَ بابِلَ ، ومدينةَ السُّوسِ الأقصَى ، وأنَّه قهر إبليسَ وجنودَه وشرَّدهم عنِ الأرضِ إلى أطرافِها وشِعابِ جبالِها ، وأنَّه قتل خَلْقًا مِن مَرَدَةِ الجِنِّ والغِيلانِ ، وكان له تاجٌ عظيمٌ ، وكان يخطُبُ الناسَ ، ودامت دولَتُه أربعينَ سنةً . فلَمَّا مات ، قام بالأمرِ بعدَه ولَدُه يَرْدُ ، فلَمَّا حَضَرَتْه الوفاةُ ، أوصَى إلى ولدِه خَنُوخَ ، وهو إدريسُ عليه السلامُ على المشهورِ . واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ[1] .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ١/١٦٨ ، ١٦٩ .

ذكرُ إدريسَ عليه السلامُ

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦ ، ٥٧] . فإدريسُ عليه السلامُ قد أثنى اللهُ عليه ، ووَصفه بالنُّبوَّةِ والصِّديقيَّةِ ، وهو خَنُوخُ هذا ، وهو فى عَمودِ نَسَبِ رسولِ اللهِ ﷺ ، على ما ذكره غيرُ واحدٍ مِن علماءِ النَّسَبِ . وكان أوَّلَ بَنِى آدمَ أُعْطِىَ النُّبوةَ بعدَ آدمَ وشِيثٍ عليهما السلامُ . وذكر ابنُ إسحاقَ[2] أنَّه أولُ مَن خَطَّ بالقلمِ . وقد أدرك مِن حياةِ آدمَ ثلاثَمائةِ سنةٍ وثمانِىَ سنينَ . وقد قال طائفةٌ مِنَ النَّاسِ : إنَّه المُشارُ إليه فى حديثِ معاويةَ بنِ الحكمِ السُّلَمىِّ لمّا سأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الخَطِّ بالرملِ ، فقال : « إنَّه كان نبىٌّ يخُطُّ به ، فمن وافق خطَّه فذاك »[3] . ويزعُمُ كثيرٌ مِن علماءِ التَّسْيِيرِ[4] والأحكامِ أنَّه أوَّلُ مَن تكلَّم فى ذلك ويُسَمُّونه « هَرْمِسَ الهرامسةِ » ويكْذِبون عليه أشياءَ كثيرةً ، كما كذَبوا على غيرِه مِن الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ والأولياءِ .

وقولُه تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ . هو كما ثَبَتَ فى « الصحيحين » فى حديثِ الإسراءِ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مَرَّ به وهو فى السماءِ الرابعةِ[5] . وقد روى ابنُ جريرٍ[6] عن يونسَ بنِ[7] عبدِ الأعلى ، عن ابنِ وهبٍ ، عن

---

(١) التفسير ٥/٢٣٦ .
(٢) وأورده مختصرًا الطبرى فى تاريخه ١/١٧١ .
(٣) مسلم (٥٣٧) ، أبو داود (٩٣٠) .
(٤) فى ا ، م ، ص : « التفسير » .
(٥) البخارى (٣٢٠٧) ، مسلم (١٦٢) .
(٦) تفسير الطبرى ١٦/٩٦ .
(٧) فى م : « عن » .

جَريرِ بنِ حازمٍ ، عن الأعمشِ ، عن شِمْرِ بنِ عطيةَ ، عن هلالِ بنِ يَسافٍ ، قال : سَأَلَ ابنُ عباسٍ كعبًا ، وأنا حاضرٌ ، فقال له : ما قولُ اللهِ تعالى لإدريسَ : ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ؟ قال كعبٌ : أمَّا إدريسُ فإنَّ اللهَ أوحَى إليه : إنِّى أرفعُ لكَ كلَّ يومٍ مثلَ جميعِ عملِ بنى آدمَ - لعلّه مِن أهلِ زمانِه - فأَحبَّ أن يزدادَ عملًا ، فأتاه خليلٌ له مِن الملائكةِ ، فقال : إنَّ اللهَ أوحَى إلىَّ كذا وكذا ، فكلِّمْ مَلَكَ الموتِ فليُؤَخِّرْنى حتى أزدادَ عملًا . فحمله بينَ جناحَيْه ثم صَعَدَ به إلى السَّماءِ ، فلمَّا كان فى السماءِ الرابعةِ تَلَقَّاهم ملكُ الموتِ مُنحدِرًا ، فكلَّمَ ملكَ [١/٦٠ظ] الموتِ فى الذى كلَّمه فيه إدريسُ ، فقال : وأين إدريسُ ؟ قال : هو ذا على ظهرِى . فقال مَلَكُ الموتِ : فالعجبُ ، بُعِثْتُ وقِيل لى : اقْبِضْ رُوحَ إدريسَ فى السماءِ الرابعةِ . فجعلْتُ أقولُ : كيف أقبِضُ رُوحَه فى السَّماءِ الرابعةِ وهو فى الأرضِ ؟ فقبَض رُوحَه هناك . فذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ورواه ابنُ أبى حاتمٍ عندَ تفسيرِها[1] . وعندَه : فقال لذلك المَلَكِ : سَلْ لى مَلَكَ الموتِ كم بَقِىَ مِن عُمُرِى ؟ فسأله وهو معه : كم بَقِىَ مِن عمرِه ؟ فقال : لا أدرِى حتى أنظُرَ . فنظر ، فقال : إنك لتسألُنى عن رجلٍ ما بَقِىَ مِن عمرِه إلا طَرْفةُ عينٍ . فنظر المَلَكُ إلى تحتِ جناحِه ، إلى إدريسَ ، فإذا هو قد قُبِضَ وهو لا يشعرُ . وهذا من الإسرائيليّاتِ ، وفى بعضِه نَكارةٌ . وقولُ ابنِ أبى نَجيحٍ ، عن مُجاهدٍ فى قولِه : ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال : إدريسُ رُفِع ولم يَمُتْ كما رُفِع عيسى[2] . إنْ أراد أنَّه لم يَمُتْ إلى الآن ، ففى هذا نَظَرٌ ، وإنْ أراد أنَّه رُفِع حيًّا إلى السَّماءِ ثم قُبِض هناك ، فلا يُنافِى ما تقدَّمَ عن كعبِ الأحبارِ ،

---

(١) الدر المنثور ٢٧٤/٤ .

(٢) تفسير الطبرى ٩٦/١٦ .

واللهُ أعلمُ . وقال العَوفىُّ ، عن ابنِ عباسٍ فى قولِه : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال : رُفِع إلى السَّماءِ السادسةِ فمات بها . وهكذا قال الضَّحَّاكُ . والحديثُ المُتَّفقُ عليه مِن أنَّه فى السماءِ الرابعةِ أصحُّ ، وهو قولُ مُجاهدٍ وغيرِ واحدٍ[1] . وقال الحسنُ البَصْرىُّ ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال : إلى الجنةِ . وقال قائلون : رُفِع فى حياةِ أبيه يَرْدَ بنِ مَهْلائيل[2] ، واللهُ أعلمُ .

وقد زعَم بعضُهم أنَّ إدريسَ لم يكُنْ قبلَ نوحٍ ، بل فى زمانِ بنى إسرائيلَ . قال البخارىُّ[3] : ويُذْكَرُ عن ابنِ مسعودٍ وابنِ عباسٍ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ . واستأنَسُوا فى ذلك بما جاء فى حديثِ الزُّهْرىِّ عن أنسٍ فى الإسراءِ ، أنَّه لما مر به عليه السلامُ قال له : مرحبًا بالأخِ الصالحِ والنبىِّ الصالحِ . ولم يَقُلْ كما قال آدمُ وإبراهيمُ : مرحبًا بالنَّبىِّ الصَّالحِ والابنِ الصَّالحِ . قالوا : فلو كان فى عمودِ نَسَبِه لقال له كما قال له . وهذا لا يدلُّ ولابدَّ على ذلك ؛ لأنه قد لا يكونُ الراوى حَفِظَه جيدًا ، أو لعلَّه قاله له على سبيل الهضْمِ والتواضُعِ ، ولم ينتَصِبْ له فى مقامِ الأُبُوَّةِ كما انتصَب لآدمَ أبى البشرِ ، وإبراهيمَ الذى هو خليلُ الرحمنِ ، وهو أكبرُ أُولِى العزمِ بعدَ محمدٍ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

---

(1) تفسير الطبرى ٩٧/١٦ .

(2) تاريخ الطبرى ١٧٠/١ .

(3) وقال ابن حجر : حديث ابن مسعود إسناده حسن ، وحديث ابن عباس إسناده ضعيف . فتح البارى ٣٧٣/٦ . وروى أثر ابن مسعود ابن عساكر فى تاريخه ٢٠٧/٩ .

قصةُ نوحٍ عليه السَّلامُ

[٦١/١و] هو نوحُ بنُ لامَكَ بنِ متُّوشلخَ بنِ خنوخَ - وهو إدريسُ - بنِ يَرْدَ بنِ مهلائيلَ بنِ قينَنَ بنِ أنُوشَ بنِ شِيثٍ بنِ آدمَ أبي البشرِ عليه السلامُ . كان مولِدُه بعدَ وفاةِ آدمَ بمائةِ سنةٍ وستٍّ وعشرين سنةً ، فيما ذكره ابنُ جريرٍ[(١)] وغيرُه . وعلى تاريخِ أهلِ الكتابِ المتقدِّمِ ، يكونُ بينَ مولدِ نوحٍ وموتِ آدمَ مائةٌ وستٌّ وأربعون سنةً ، وكان بينَهما عشرةُ قرونٍ ، كما [(٢)]قال الحافظُ أبو حاتمٍ ابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »[(٣)(٢)] حدثنا محمدُ بنُ عمرَ بنِ يوسفَ ، حدثنا محمدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ زَنْجُويَه ، حدثنا أبو تَوْبَةَ ، حدثنا معاويةُ بنُ سَلَّامٍ ، عن أخيه زيدِ بنِ سلَّامٍ ، سمعتُ أبا سلَّامٍ ، سمعتُ أبا أُمامةَ ، أنَّ رجلًا قال : يا رسولَ اللهِ ، أنَبِىٌّ كان آدمُ ؟ قال : « نعمْ ، مُكَلَّمٌ » . قال : فكم كان بينَه وبينَ نوحٍ ؟ قال : « عشَرةُ قرونٍ » . قلتُ : وهذا على شرطِ مسلمٍ ، ولم يخرجْه . وفى « صحيحِ البخارىِّ »[(٤)] ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : كان بينَ آدمَ ونوحٍ عشَرةُ قرونٍ ، كلُّهم على الإسلامِ . فإن كان المرادُ بالقَرْنِ مائةَ سنةٍ ، كما هو المتبادَرُ عندَ كثيرٍ من الناسِ ، فبينَهما

---

(١) تاريخ الطبرى ١٧٤/١ .

(٢ - ٢) فى ا : « روى ابن أبى حاتم » .

(٣) الإحسان (٦١٩٠) ، وإسناده صحيح .

(٤) لم نجده فى صحيح البخارى ، ورواه الحاكم فى المستدرك ٤٤٢/٢ ، ٥٤٦ . وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه. وأقره الذهبى . والبزار ، كشف الأستار (٢١٩٠) . وقال الهيثمى فى المجمع ٣١٩/٦ : رواه البزار ، وفيه عبد الصمد بن النعمان وثقه ابن معين ، وقال غيره : ليس بالقوى . وأورده ابن كثير فى تفسيره ٣٦٤/١ ، وعزاه للحاكم ونقل قول الحاكم : صحيح ولم يخرجاه . وقال السيوطى فى الدر المنثور ٢٤٢/١ بسند صحيح .

ألفُ سنةٍ لا محالَةَ ، لكن لا ينفِى أن يكونَ أكثرَ باعتبارِ ما قَيَّد به ابنُ عباسٍ بالإسلامِ ؛ إذ قد يكونُ بينَهما قرونٌ أُخَرُ متأخرةٌ لم يكونوا على الإسلامِ ، لكنَّ حديثَ أبى أُمامةَ يدلُّ على الحَصْرِ فى عشَرةِ[1] قرونٍ ، وزادنا ابنُ عباسٍ أنهم كلَّهم كانوا على الإسلامِ . وهذا يردُّ قولَ مَن زعَم مِن أهلِ التواريخِ وغيرِهم مِن أهلِ الكتابِ ، أن قابيلَ وبَنِيه عبدُوا النَّارَ ، واللهُ أعلمُ . وإن كان المرادُ بالقرنِ الجيلَ من الناسِ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] . وقولِه : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٢] . وقال تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٨] . وقال : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم : ٧٤] . وكقولِه عليه السلامُ : « خَيْرُ القُرونِ قَرْنِى » الحديث[2] . فقد كان الجيلُ قبلَ نوحٍ يُعَمَّرون الدُّهورَ[3] الطويلَةَ ، فعلى هذا يكونُ بينَ آدمَ ونوحٍ ألوفٌ من السِّنينَ ، واللهُ أعلمُ .

وبالجملةِ ، فنوحٌ عليه السلامُ إنَّما بعَثه اللهُ تعالى لمّا عُبِدتِ[4] الأصنامُ والطواغيتُ ، وشَرَع الناسُ فى الضلالةِ والكفرِ ، فبعَثَه اللهُ رحمةً للعبادِ ، فكان أولَ رسولٍ بُعِثَ إلى أهلِ الأرضِ ، كما يقولُ له أهلُ الموقفِ يومَ القيامةِ[5] . وكان قومُه يقالُ لهم : بنو راسبٍ . فيما ذكره ابنُ جريرٍ[6] وغيرُه .

واختلفوا فى مقدارِ سِنِّه يومَ بُعِث ؛ فقيل : كان ابنَ [٦١/١ظ] خمسينَ

(١) فى ح : « عشر » .
(٢) البخارى (٦٤٢٩) ، مسلم (٢٥٣٥) بألفاظ مقاربة . ولفظة : « القرون » لم يروها سوى أبى نعيم فى الحلية : « خير القرون القرن الذى أنا فيه » . ١٧٢/٤ .
(٣) فى : م « الدهر » .
(٤) فى : ص « عبدوا » .
(٥) صحيح البخارى (٣٣٤٠) .
(٦) فى : م « جبير » وهو فى تاريخ الطبرى ١٧٤/١ ، ١٧٩ . إلا أنه قال : بيوراسب . فى كل المواضع .

سنةً . وقيل : ابنَ ثلاثِمائةٍ وخمسينَ سنةً . وقيل : ابنَ أربعِمائةٍ وثمانينَ سنةً . حكاها ابنُ جريرٍ[1] وعزا الثالثَ منها إلى ابنِ عباسٍ .

وقد ذكر اللهُ قصتَه ، وما كان مِن قومِه ، وما أنْزل بمَن كفَر به مِن العذابِ بالطُّوفانِ[2] ، وكيف أنجاه وأصحابَ السَّفينةِ ، فى غيرِ ما موضعٍ مِن كتابِه العزيزِ ؛ ففى « الأعراف » ، و « يونس » ، و « هود » ، و « الأنبياء » ، و « المؤمنون » ، و « الشعراء » ، و « العنكبوت » ، و « الصافات » ، و « اقتربت » ، وأنْزل فيه سورةً كامِلة ، فقال فى سورةِ « الأعراف »[3] : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٩ - ٦٤] .

وقال فى سورة « يونس »[4] : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ

---

(١) تاريخ الطبرى ١٧٩/١ .

(٢) سقط من : ح .

(٣) التفسير ٤٢٧/٣ .

(٤) التفسير ٢١٨/٤ .

أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧١ - ٧٣] .

وقال تعالى فى سورة« هود »[1] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ * قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ * وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا [١/٦٢و] فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ *

---

(١) التفسير ٢٤٩/٤ .

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٢٥ – ٤٩] .

وقال تعالى فى سورةِ « الأنبياء »[١] : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٦ ، ٧٧] .

وقال تعالى فى سورةِ « قد أفلح المؤمنون »[٢] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

(١) التفسير ٥/٣٤٨ .
(٢) التفسير ٥/٤٦٦ .

قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ [٦٢/١ظ] إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣ - ٣٠] .

وقال تعالى فى سورةِ « الشعراء »[1] : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١٢٢] .

---

(١) التفسير ١٦٠/٦ .

وقال تعالى فى سورةِ « العنكبوت »[1] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٤ ، ١٥] .

وقال تعالى فى سورةِ : « الصافات »[2] : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات : ٧٥ - ٨٢] .

وقال تعالى فى سورةِ « اقتربت »[3] : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٩ - ١٧] .

وقال تعالى[4] : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ [٦٣/١و] ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *

---

(١) التفسير ٢٧٧/٦ .

(٢) التفسير ١٩/٧ .

(٣) التفسير ٤٥١/٧ .

(٤) التفسير ٢٥٨/٨ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا * وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا * مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح : ١ - ٢٨] .

وقد تكلمنا على كلِّ موضعٍ مِن هذه فى « التفسيرِ » ، وسنذكرُ مضمونَ القصةِ مجموعًا مِن هذه الأماكنِ المتفرقةِ ، وممَّا دلّت عليه الأحاديثُ والآثارُ .

وقد جرى ذِكْرُه أيضًا فى مواضعَ متفرقةٍ من القرآنِ ، فيها مدحُه وذَمُّ مَن خالفه ، فقال تعالى فى سورةِ « النساء »[1] : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ

(١) التفسير ٢/٤٢١ .

إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ - ١٦٥] . وقال فى سورةِ « الأنعام »[١] : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ [٦٣/١ظ] كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٣ - ٨٧] الآيات . وتقدمت قصتُه فى « الأعراف » ، وقال فى سورةِ « براءة »[٢] : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة : ٧٠] . وتقدمت قصتُه فى « يونس » و « هود » ، وقال فى سورةِ « إبراهيم »[٣] : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم : ٩] . وقال فى

---

(١) التفسير ٢٨٩/٣ .

(٢) التفسير ١١٤/٤ .

(٣) التفسير ٤٠٠/٤ .

سورةِ « سبحان »[1] : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] . وقال فيها أيضًا[2] : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٧] . وتقدمت قصتُه فى « الأنبياء » ، و « المؤمنون » ، و « الشعراء » ، و « العنكبوت » . وقال فى سورةِ « الأحزاب »[3] : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] . وقال فى سورةِ « صٓ »[4] : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [صٓ : ١٢ - ١٤] . وقال فى سورةِ « غافر »[5] : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر : ٥ ، ٦] . وقال فى سورةِ « الشورى »[6] : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] . وقال تعالى فى سورةِ « قٓ »[7] : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ

---

(١) التفسير ٥/٤٣ .
(٢) التفسير ٥/٥٩ .
(٣) التفسير ٦/٣٨٣ .
(٤) التفسير ٧/٤٨ .
(٥) التفسير ٧/١١٩ .
(٦) التفسير ٧/١٨٢ .
(٧) التفسير ٧/٣٧٥ .

وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : ١٢ - ١٤] . [١/٦٤و] وقال فى « الذاريات »[1] : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الذاريات : ٤٦] . وقال فى « النجم »[2] : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم : ٥٢] . وتقدمتْ قصتُه فى سورةِ « اقتربت الساعة » ، وقال تعالى فى سورةِ « الحديد »[3] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] . وقال تعالى فى سورةِ « التحريم »[4] : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] .

وأمَّا مضمونُ ما جرى له مع قومِه ، مأخوذًا مِن الكتابِ والسنَّةِ والآثارِ ، فقد قدَّمنا عن ابنِ عباسٍ أنَّه كان بينَ آدمَ ونوحٍ عشَرةُ قرونٍ ، كلُّهم على الإسلامِ . رواه البخاريُّ[5] ، وذكَرنا أنَّ المرادَ بالقرنِ الجيلُ أو المدةُ على ما سلَف ، ثم بعدَ تلك القرونِ الصَّالحةِ حدثت أمورٌ اقتضت أنْ آلَ الحالُ بأهلِ ذلك الزَّمانِ إلى عبادةِ الأصنامِ ، وكان سببُ ذلك ما رواه البخاريُّ[6] مِن حديثِ ابنِ جُريجٍ ، عن عطاءٍ ، عن ابنِ عباسٍ عندَ تفسيرِ قولِه تعالى :

---

(١) التفسير ٧/٤٠٠ .
(٢) التفسير ٧/٤٤٢ .
(٣) التفسير ٨/٥٤ .
(٤) التفسير ٨/١٩٨ .
(٥) تقدم تخريجه فى صفحة ٢٣٧ .
(٦) البخارى (٤٩٢٠) .

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] . قال : هذه أسماءُ رجالٍ صالحين [1]مِن قومِ[1] نوحٍ ، فلما هلكوا أوحَى الشيطانُ إلى قومِهم ، أن انصِبوا إلى مجالِسِهم التى كانوا يجلِسون فيها[2] أنصابًا ، وسمُّوها بأسمائِهم ، ففعلوا ، فلم تُعْبَدْ ، حتى إذا هلَك أولئك ، ونُسِخَ العلمُ ، عُبِدَتْ . قال ابنُ عباسٍ : وصارت هذه الأوثانُ التى كانت فى قومِ نوحٍ فى العربِ بَعدُ[3] . وهكذا قال عِكْرِمةُ والضحَّاكُ وقَتادَةُ ومحمدُ بنُ إسحاقَ[4] .

وقال ابنُ جَريرٍ فى « تفسيرِه »[5] : حدثنا ابنُ حُميدٍ ، حدثنا مِهرانُ ، عن سفيانَ ، عن موسى ، عن محمدِ بنِ قيسٍ ، قال : كانوا قومًا صالحين بينَ آدمَ ونوحٍ ، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادةِ إذا ذكَرْناهم . فصوَّرُوهم ، فلَمَّا ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليسُ ، فقال : إنَّما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسْقَوْن المطرَ . فعبدوهم . وروى ابنُ أبى حاتمٍ[6] ، عن عُروةَ بنِ الزبيرِ ، أنَّه قال : ودٌّ ويَغوثُ ويَعوقُ وسُواعٌ ونَسْرٌ أولادُ آدمَ ، وكان ودٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به .

وقال ابنُ أبى حاتمٍ[6] : حدثنا أحمدُ بنُ منصورٍ ، حدثنا الحسنُ بنُ

(١ - ١) فى ح : « رفقة » .
(٢) زيادة من : م .
(٣) البخارى (٤٩٢٠) .
(٤) تفسير الطبرى ٩٩/٢٩ .
(٥) تفسير الطبرى ٩٨/٢٩ ، ٩٩ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢٦٢/٨ ، الدر المنثور ٢٦٩/٦ .

موسى ، حدثنا [٦٤/١ظ] يعقوبُ ، عن أبي المُطَهِّرِ ، قال : ذكروا عندَ أبي جعفرٍ - هو الباقرُ ، وهو قائمٌ يصلِّى - يزيدَ بنَ المُهلَّبِ ، قال : فلما انفتَلَ مِن صلاتِه قال : ذكرتُم يزيدَ[1] بنَ المُهلَّبِ ، أما إنه قُتِلَ فى أولِ أرضٍ عُبِدَ فيها غيرُ اللهِ . قال : ذكر ودًّا ، رجلًا مسلمًا[2] ، وكان مُحبَّبًا فى قومِه ، فلما مات عَسْكَروا حولَ قبرِه فى أرضِ بابلَ وجَزِعوا عليه ، فَلمَّا رأى إبليسُ جزَعَهم عليه تشَبَّه فى صورةِ إنسانٍ ، ثم قال : إنِّى أرى جَزعَكم على هذا الرجلِ ، فهل لكم أن أصَوِّرَ لكم مثْلَه ، فيكونَ فى نادِيكم فتَذْكُرونه ؟ قالوا : نعمْ . فصوَّر لهم مِثْلَه . قال : ووضعوه[3] فى ناديهم وجعلوا يذْكُرونَه ، فلما رأى ما بهم مِن ذِكْرِه ، قال : هل لكم أن أجعلَ فى منزلِ كلِّ واحدٍ منكم تمثالًا مثلَه ؛ ليكونَ له فى بيتِه فتذكرونه ؟ قالوا : نعمْ . قال : فمَثَّل لكلِّ أهلِ بيتٍ تمثالًا مثلَه ، فأقبلوا فجعلوا يذْكُرونه به . قال : وأدرَك أبناؤُهم فجعلوا يَرَوْن ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ، ودَرَس أمرُ[4] ذِكْرِهم إياه ، حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه مِن دونِ اللهِ أولادُ أولادِهم ، فكان أوّلَ ما عُبِدَ غيرَ اللهِ ودٌّ الصنمُ ، الذى سَمَّوه ودًّا .

ومقتضَى هذا السياقِ أنَّ كلَّ صنمٍ مِن هذه عبَده طائفةٌ من الناسِ ، وقد ذُكِر أنه لما تطاولت العهودُ والأزمانُ ، جعلوا تلك الصُّورَ تماثيلَ مُجَسّدةً ؛ ليكونَ أثبتَ لها[5] ، ثم عُبِدَتْ بعدَ ذلك مِن دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولهم فى عبادتِها مسالِكُ كثيرةٌ قد ذكرناها فى كتابِنا « التَّفسيرِ »[6] فى مواضعِها ، ولله

---

(١) فى ح : « زيد » .

(٢) فى م : « صالحًا » .

(٣) فى ص : « فصنعوهم » .

(٤) فى ح ، م ، ص : « أثر » .

(٥) فى : م ، ا « لهم » .

(٦) التفسير ٢٦١/٨ ، ٢٦٢ .

الحمدُ والمِنَّةُ . وقد ثَبتَ فى « الصحيحين »[1] عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه لمّا ذكَرتْ عندَه أُمُّ سَلَمَةَ وأُمُّ حَبيبةَ تلك الكنيسةَ التى رأَيْنَها بأرضِ الحبشةِ ، يُقالُ لها : ماريَّةُ . فذكرتا مِن حُسْنِها وتصاويرَ فيها قال : « أولئك إذا مات فيهم الرجلُ الصالحُ بَنَوْا على قَبرِه مسجِدًا ثم صَوَّرُوا فيه تلك الصُّورَ ، أولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ » .

والمقصودُ أن الفسادَ لمّا انتشر فى الأرضِ ، وعمَّ البلاءُ بعُبَّادِ الأصنامِ فيها ، بعَث اللهُ عبدَه ورسولَه نوحًا ، عليه السّلامُ ، يدعو إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، وينهَى عن عِبادَةِ ما سواه ، فكان أولَ رسولٍ بعثَه اللهُ إلى أهلِ الأرضِ ، كما ثبَت فى « الصحيحين »[2] من حديثِ أبى حيّانَ ، عن أبى زُرْعَةَ ابنِ عمرِو بنِ جَريرٍ ، عن أبى هُرَيْرَةَ عن النبىِّ ﷺ فى حديثِ الشَّفاعةِ ، قال : « فيأتون آدمَ فيقولون : يا آدمُ ، أنت أبو [١/٦٥و] البشرِ ، خلقَكَ اللهُ بيدِه ، ونفَخ فيك مِن رُوحِه ، وأمَر الملائكةَ فسجدوا لك ، وأسْكنَك الجنَّةَ ، ألا تشفَعُ لنا إلى ربِّك ؛ ألا ترى ما نحن فيه ، وما بلَغنا ؟ فيقولُ : ربى قد غَضِب غضبًا لم يغضَبْ قبلَه مِثْلَه ، ولا يغضبُ بعدَه مِثْلَه ، ونهانِى عن الشجرةِ فعصَيْتُ ، نَفْسِى نَفْسِى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوحٍ . فيأتون نوحًا ، فيقولون : يا نوحُ ، أنت أولُ الرُّسلِ إلى أهلِ الأرضِ ، وسَمَّاك اللهُ عبدًا شكورًا (٣ألا ترى إلى ما نحن فيه٣) ، ألا ترى إلى ما بَلَغنا ؟ ألا تشفعُ لنا إلى ربِّك عزَّ وجلَّ ؟ فيقولُ : ربى قد غَضِب اليومَ غضبًا ، لم يغضبْ قبلَه مِثْلَه ، ولا يغضبُ بعدَه مثلَه ، نفسى نفسى » . وذكر تمامَ الحديثِ بطُولِه ، كما أورَده

---

(١) البخارى (٤٢٧) ، مسلم (٥٢٨) .

(٢) البخارى (٣٣٤٠) ، مسلم (١٩٤) .

(٣ - ٣) سقط من : ص .

البخاريُّ فى قصةِ نوحٍ . فلما بعَث اللهُ نوحًا ، عليه السلامُ ، دعاهم إلى إفرادِ العبادةِ للهِ وحدَه لا شريكَ له ، وأن لا يعبدوا معه صنمًا ، ولا تِمثالًا ، ولا طاغوتًا ، وأن يعترفوا بوَحْدانيته ، وأنه لا إلَه غيرُه ، ولا ربَّ سواه ، كما أمَر اللهُ تعالى مَن بعدَه مِن الرسلِ الذين هم كلُّهم مِن ذريتِه ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] . وقال فيه وفى إبراهيمَ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [الحديد : ٢٦] . أى ؛ كلُّ نبىٍّ مِن بعدِ نوحٍ فَمِن ذريَّتِه وكذلك إبراهيمُ ، (١)قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . ولهذا قال نوحٌ(١) لقومِه : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] . (١)وقال : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾(١) [هود : ٢٦] . وقال : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣] . وقال : ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم

(١ - ١) سقط من : ص .

مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ٢ - ١٤] . الآيات الكريمات . فذكر أنه دعاهم إلى اللهِ بأنواعِ الدعوةِ ، في الليلِ والنهارِ والسرِّ والإجهارِ ، بالترغيبِ تارةً والترهيبِ أخرى ، وكلُّ هذا فلم يَنْجَحْ فيهم ، بل استمرَّ أكثرُهم على الضلالةِ ، والطغيانِ ، [١/٦٥ظ] وعبادةِ الأصنامِ والأوثانِ ، ونَصَبوا له العداوةَ في كلِّ وقتٍ وأوانٍ ، وتَنَقَّصُوه وتنقَّصوا مَن آمَن به ، وتَوَعَّدُوهم بالرَّجمِ والإخراجِ ، ونالُوا منهم ، وبالغوا في أمرِهم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ أي ؛ السادةُ الكبراءُ منهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٠ ، ٦١] . (١)أي ؛ لستُ كما تزعمون مِن أني ضالٌّ ، بل على الهُدَى المستقيمِ ، رسولٌ مِن ربِّ العالمين(١) ، أي ؛ الذي يقولُ للشيءِ : كنْ . فيكونُ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] . وهذا شأنُ الرسولِ ، أن يكونَ بليغًا ، أي ؛ فصيحًا ، ناصحًا ، أعلمَ الناسِ باللهِ عزَّ وجلَّ . وقالوا له فيما قالوا : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود : ٢٧] . تَعجَّبوا أنْ يكونَ بَشَرًا رسولًا ، وتَنَقَّصوا بمَن اتبعَه ورأَوهُم أراذِلَهم ، وقد قيل : إنَّهم كانوا مِن أقيادِ الناسِ وهم ضعفاؤُهم . كما قال هِرَقْلُ : وهم أتباعُ الرسلِ(٢) . وما ذاك إلا لأنه لا مانعَ لهم مِن اتباعِ الحقِّ . وقولُهم : ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي ؛ بمجردِ ما دعوتَهم استجابوا لك مِن غيرِ نَظَرٍ ولا رويَّةٍ . وهذا الذي ذمُّوهم(٣) به

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) البخاري (٧) ، مسلم (١٧٧٣) .

(٣) في ح : « سموهم » ، وفي م ، ص : « رموهم » .

هو عينُ ما يُمْدَحون بسببِه ، رضِيَ اللهُ عنهم ، فإنَّ الحقَّ الظاهِرَ لا يحتاجُ إلى رَوِيَّةٍ ولا فكرٍ ، ولا نظرٍ ، بل يجبُ اتِّباعُه والانقيادُ له متى ظهَر ؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ ﷺ مادحًا للصِّدِّيقِ : « ما دعَوْتُ أحدًا إلى الإسلامِ إلَّا كانَتْ له كَبْوةٌ ، غيرَ أبي بكرٍ ؛ فإنَّه لم يَتَلَعْثَمْ »[1] . ولهذا كانت بيْعَتُه يومَ السَّقِيفةِ أيضًا سريعةً مِن غيرِ نظرٍ ولا رَوِيَّةٍ ؛ لأنَّ أفْضَلِيَّتَه على مَن عَداه ظاهرةٌ جليَّةٌ عندَ الصحابةِ ، رَضِيَ اللهُ عنهم ؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ ﷺ لمَّا أراد أن يكتُبَ الكتابَ الذى أرادَ أن ينُصَّ فيه على خلافتِه فترَكَه ، وقال : « يأْبَى اللهُ والمؤمنون إلا أبا بكرٍ »[2]. رضِيَ اللهُ عنه . وقولُ كفرةِ قومِ نوحٍ له ولِمَن آمن به : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ أى ؛ لم يَظْهَرْ لكم أمْرٌ بعدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ ولا مَزِيَّةٌ علينا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود : ٢٧ ، ٢٨] . وهذا تلطُّفٌ فى الخطابِ معهم ، وترفُّقٌ بهم فى الدعوةِ إلى الحقِّ ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وهذا منه يقولُ لهم : ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ [٦٦/١و] عِندِهِ ﴾ أى ؛ النبوةَ والرسالةَ ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى فلم تفهموها ، ولم تهتدوا إليها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أى ؛ أنَغْصِبُكم[3] بها ونُجْبِرُكم[4] عليها ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٢/١ .

(٢) مسلم (٢٣٨٧) ، أحمد ١٤٤/٦ .

(٣) فى م ، ص : « أنغضبكم » .

(٤) فى ص : « نخيركم » .

كَـٰرِهُونَ ﴾ أى ؛ ليس لى فيكم حِيلَةٌ والحالةُ هذه ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (١أى ؛ لستُ أريدُ منكم أُجْرَةً على إبلاغى إيَّاكم ما ينفعُكم فى دنياكم وأخراكم ، إنْ أطلبُ ذلك إلَّا مِن اللهِ الذى ثوابُه خيرٌ لى وأبْقَى مِمَّا تُعطُونَنى أنتم . وقولُه١) : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : ٢٩] . كأنهم طلبوا منه أنْ يُبْعِدَ هؤلاء عنه ، ووعدوه أنْ يجتمعوا به إذا هو فعَل ذلك ، فأبَى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ فأخاف(٢) إنْ طردتُهم أنْ يشْكونى إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . ولهذا قال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٣٠] . ولهذا لَمَّا سأل كفارُ قريشٍ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يطرُدَ عنه ضعفاءَ المؤمنين ؛ كعَمَّارٍ ، وصُهَيبٍ ، وبلالٍ ، وخَبَّابٍ وأشباهِهم ، نهاه اللهُ عن ذلك كما بيَّنَّاه فى سورتَىْ « الأنعام » و « الكهف » . ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أى ؛ بل أنا عبدٌ ، رسولٌ ، لا أعلمُ من عِلمِ اللهِ إلَّا ما أعْلمنى به ، ولا أقْدِرُ إلَّا على ما أقْدَرَنى عليه ، ولا أمْلِكُ لنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء اللهُ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ يعنى من أتباعِه ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أى ؛ لا أشهدُ عليهم بأنَّهم لا خيرَ لهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ ، اللهُ أعلمُ بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسِهم ، إنْ خيرًا فخيرٌ ، وإنْ شرًّا فشرٌّ ، كما قالوا فى (٣الموضعِ الآخرِ٣) : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) فى ح ، م : « أى فأخاف » .

(٣ - ٣) فى : م « المواضع الأخر » .

تَشْعُرُونَ * وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ١١١ - ١١٥] .

وقد تطاوَل الزمانُ والمجادَلةُ بينَه وبينَهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] . أى ؛ ومع هذه المدةِ الطويلةِ ، فما آمن به إلا القليلُ منهمْ وكان كلَّما انقرَض جيلٌ وَصَّوْا مَن بعدَهم بعدمِ الإيمانِ به ومحاربتِه ومخالفتِه ، وكان الوالِدُ إذا بلَغ ولدُه وعَقَل عنه كلامَه ، وصَّاه فيما بينَه وبينَه أنْ لا يُؤْمِنَ بنوحٍ أبدًا ما عاش ، ودائمًا ما بَقِىَ ، وكانت سجاياهم تأْبَى الإيمانَ واتباعَ الحقِّ ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] . ولهذا قالوا : ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ [١/٦٦ظ] إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [هود : ٣٢ ، ٣٣] . أى ؛ إنما يَقْدِرُ على ذلك اللهُ عزَّ وجلَّ ، فإنَّه الذى لا يُعْجِزُه شىءٌ ، ولا يَكْتَرِثُه أمرٌ ، بل هو الذى يقولُ للشىءِ : كُنْ . فيكونُ . ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] . أى ؛ مَن يُرِدِ اللهُ فِتنَتَه فلن يملِكَ أحدٌ هدايتَه ، هو الذى يهدِى مَن يشاءُ ، ويضلُّ مَن يشاءُ ، وهو الفعَّالُ لما يريدُ ، وهو العزيزُ ، الحكيمُ ، العليمُ بِمَن يستحِقُّ الهدايةَ ، ومَن يستحقُّ الغوايَةَ ، وله الحكمةُ البالغةُ والحُجةُ الدامغةُ ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] . وهذه تعزِيةٌ لنوحٍ ، عليه السلامُ ، فى قومِه أنَّه لن يُؤمِنَ منهم إلا مَن قد آمَن ، وتسليةٌ له عما كان منهم إليه ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أى ؛ لا يَسُوأَنَّكَ ما جرَى ، فإنَّ النصرَ قريبٌ ، والنبأُ عجيبٌ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم

مُّغْرَقُونَ ﴾ وذلك أنَّ نوحًا ، عليه السلامُ ، لما يَئِسَ مِن صلاحِهم وفلاحِهم ، ورأى أنَّهم لا خيرَ فيهم ، وتوصَّلوا إلى أذيتِه ، ومُخالَفتِه ، وتكْذيبِه بكلِّ طريقٍ ، مِن فِعالٍ ومَقالٍ ، دعا عليهم دعوةَ غضَبٍ للهِ[1] فلَبَّى اللهُ دعوتَه ، وأجاب طِلْبَتَه ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات : ٧٥ ، ٧٦] . وقال تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء : ٧٦] . وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٧ ، ١١٨] . وقال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون : ٢٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٥ - ٢٧] . فاجتمَع عليهم خطاياهم ؛ مِن كفرِهم ، وفجورِهم ، ودعوةِ نبيِّهم عليهم ، فعندَ ذلك أمرَه اللهُ تعالى أنْ يصنَعَ الفُلْكَ ؛ وهى السفينةُ العظيمةُ التى لم يكنْ لها نظيرٌ قبْلَها ، ولا يكونُ بعدَها مِثْلُها ، وتقدَّم[2] اللهُ تعالى إليه أنه إذا جاء أمرُه ، وحَلَّ بهم بأسُه الذى لا يُرَدُّ عنِ القومِ المجرمين ، أنَّه لا يعاوِدُه فيهم ولا يُراجِعُه ؛ فإنَّه لعلَّه قد تُدْرِكُه رِقَّةٌ على قومِه عندَ مُعاينةِ العذابِ النازِلِ بِهم ، فإنَّه ليس الخبَرُ كالمعاينةِ[3] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ

---

(١) سقط من : م . وفى ص : « الله عليهم » .

(٢) فى م ، ص : « قدَّم » .

(٣) ورد مرفوعا من حديث ابن عباس ، مسند أحمد ٢١٥/١ . (صحيح الجامع ٥٢٥٠) .

مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ [٦٧/١و] مِنْهُ ﴾ أى ؛ يستهزئون به ، استبعادًا لوقوعِ ما توعّدَهم به ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ أى ؛ نحن الذين نسخَرُ منكم ، ونتعجّبُ منكم فى استمرارِكم على كفرِكم وعنادِكم الذى يَقتضِى وقوعَ العذابِ بكم ، وحُلُولَه عليكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد كانت سَجاياهم الكفرَ الغليظَ ، والعنادَ البالِغَ فى الدنيا ، وهكذا فى الآخرةِ ؛ فإنَّهم يجحَدُون أيضًا أنْ يكونَ جاءهم (١مِن اللهِ١) رسولٌ ، كما قال البخارىُّ(٢) : حدثنا موسى بنُ إسمٰعيلَ ، حدثنا عبدُ الواحِدِ بنُ زيادٍ ، حدثنا الأَعْمشُ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى سعيدٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « يجىءُ نوحٌ ، عليه السّلامُ ، وأُمَّتُه ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : هل بلّغْتَ ؟ فيقولُ : نعمْ ، أَى ربِّ . فيقولُ لأُمتِه : هل بَلَّغَكُم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا مِن نَبِىٍّ . فيقولُ لِنُوحٍ : مَن يَشْهَدُ لك ؟ فيقولُ : محمدٌ وأُمَّتُهُ . فَتَشْهَدُ أنَّه قد بَلَّغَ » . وهو قولُه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

والوسَطُ : العَدْلُ . فهذه الأمةُ تشهدُ على شهادةِ نَبِيِّها الصّادِقِ المصدوقِ ، بِأَنَّ(٣) اللهَ قد بعث نوحًا بالحقِّ ، وأنزلَ عليه الحقَّ وأمره به ، وأنَّه بَلَّغه إلى أمتِه على أكملِ الوجوهِ وأَتَمِّها ، ولم يَدَعْ شيئًا مِمَّا يَنْفَعُهم فى دينِهم إلَّا وقد أمَرَهم به ، ولا شيئًا مِمَّا قد يضرُّهم إلا وقد نهاهُم عنه وحذَّرَهم منه ، وهكذا شأْنُ جميعِ الرسلِ ، حتى أنَّه حَذَّر قومَه المسيحَ الدَّجّالَ ، وإنْ كان لا يَتوقَّعُ

(١ - ١) زيادة من : الأصل .

(٢) البخارى (٣٣٣٩) .

(٣) فى : ص « فإن » .

خروجَه فى زمانِهم ؛ حَذرًا عليهم ، وشَفَقَةً ورحمةً بهم ، كما قال البخاريُّ[1] : حدثنا عَبْدانُ ، حدثنا عبدُ اللهِ ، عن يونُسَ ، عن الزُّهْرِىِّ ، قال سالمٌ : قال ابنُ عمرَ : قام رسولُ اللهِ ﷺ فى الناسِ ، فأثْنى على اللهِ بما هو أهلُه ، ثم ذكَرَ الدَّجّالَ ، فقال : « إنِّى لَأُنْذِرُكُمُوه ، وما مِنْ نَبِىٍّ إلَّا وقد أنْذَرَه قَوْمَه ؛ لقد أنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَه ، ولكنِّى أقولُ لكم فيه قَوْلًا لم يَقُلْه نَبِىٌّ لِقَومِه : تعلمُونَ أنَّه أعْوَرُ ، وأنَّ اللهَ ليس بِأعْوَرَ » . وهذا الحديثُ فى « الصحيحين »[2] أيضًا مِن حديثِ شَيْبانَ بنِ عبدِ الرحمنِ ، عن يحيى بنِ أبى كثيرٍ ، عن أبى سَلَمَة ابنِ عبدِ الرحمنِ ، عن أبى هُريرَةَ ، عن النّبىِّ ﷺ قال : « ألا أُحدِّثُكم عن الدَّجّالِ حَديثًا ما حَدَّثَ به نَبِىٌّ قَومَه ؟ إنَّه أعْوَرٌ ، وإنه يَجِىءُ معه بِمِثالِ الجَنَّةِ والنَّارِ ، فالتى يقولُ : إنها[3] الجنةُ . هى النَّارُ ، وإنِّى أُنْذِرُكُمْ ، كما أنْذرَ به نُوحٌ قَوْمَه » . لفظُ البخارىِّ . [١/٦٧ظ]

وقد قال بعضُ علماءِ السلفِ[4] : لما استجاب اللهُ له أمرَه أنْ يَغْرِسَ شجرًا ليعملَ منه السفينةَ ، فغرسه وانتظَره مائةَ سَنَةٍ ، ثم نَجَره فى مائةٍ أخرى ، وقيل : فى أَرْبَعِينَ سَنَةً . فاللهُ أعلمُ . قال محمدُ بنُ إسحقَ ، عن الثَّوْرىِّ : وكانت مِن خشبِ السَّاجِ . وقيل : مِن الصَّنَوْبَرِ . وهو نَصُّ التوراةِ[5] . قال الثورىُّ : وأمَره أنْ يجعلَ طولَها ثمانين ذِراعًا ، وعَرْضَها خمسينَ ذِراعًا ، وأنْ يَطْلِىَ ظَاهِرَها وباطِنَها بالقارِ ، وأنْ يجعلَ لها جُؤْجُؤًا أزْوَرَ[6] يُشقُّ الماءَ . وقال

---

(١) البخارى (٣٣٣٧) ، مسلم (٢٩٣١) .
(٢) البخارى (٣٣٣٨) ، مسلم (٢٩٣٦) .
(٣) فى : م ، ص ، ا : « عليها » .
(٤) انظر هذه الرواية وما بعدها فى تاريخ الطبرى ١/١٨٠ - ١٨٣ .
(٥) سفر التكوين الأصحاح ١٤/٦ ، وفيها : من خشب جُفْرٍ .
(٦) الجُؤْجُؤُ : الصدر . أزور : مائل .

قَتادةُ : كان طولُها ثلثمائةِ ذراعٍ فى عَرْضِ خمسينَ ذِراعًا . وهذا الذى فى التوراةِ على ما رأيتُه[1] . وقال الحسنُ البصرىُّ : ستُّمائةٍ فى عرضِ ثلثِمائةٍ . وعن ابنِ عباسٍ : ألفٌ ومائتا ذِراعٍ فى عرضِ ستِّمائةِ ذراعٍ . وقيل : كان طولُها ألْفَىْ ذِراعٍ ، وعرضُها مائةَ ذِراعٍ . قالوا كلُّهم : وكان ارتفاعُها ثلاثين ذِراعًا ، وكانت ثلاثَ طَبَقاتٍ ، كلُّ واحدةٍ عشَرةُ أَذْرُعٍ ، فالسُّفْلَى للدوابِّ والوحُوشِ ، والوُسْطَى للناسِ ، والعُلْيا للطُّيورِ ، وكان بابُها فى عَرْضِها ، ولها غِطاءٌ مِن فوقِها مُطْبَقٌ عليها .

قال اللهُ تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [المؤمنون ٢٦] . أى ؛ بأمرِنا لك ، وبِمَرْأًى مِنّا لِصَنْعَتِك لها ومُشاهَدَتِنا لذلك ؛ لنرشدَك إلى الصوابِ فى صنعَتِها ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] . فتقدَّمَ إليه بأمرِه العظيمِ العالى ؛ أنّه[2] إذا جاء أمرُه وحلَّ بأسُه أَنْ يحمِلَ فى هذه السفينةِ مِن كلٍّ زوجين اثنين ؛ مِن الحيواناتِ ، وسائرِ ما فيه روحٌ من المأكولاتِ وغيرِها ؛ لبقاءِ نَسْلِها ، وأن يحمِلَ معه أهلَه ، أى ؛ أهلَ بيتِه . ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أى ؛ إلَّا مَن كان كافرًا ، فإنَّه قد نفَذت فيه الدعوةُ التى لا تُرَدُّ ، ووجَب عليه حُلولُ البأسِ الذى لا يُرَدُّ ، وأمَره أن لا يراجعَه فيهم إذا حلَّ بهم ما يعاينُه مِن العذابِ العظيمِ ، الذى قد حتَّمه عليهم الفعَّالُ لِمَا يريدُ ، كما قدَّمنا بيانَه قَبْلُ .

---

(١) سفر التكوين الأصحاح ١٥/٦ .

(٢) سقط من : الأصل ، ص .

و[1] المرادُ بالتَّنُّورِ عند الجمهورِ وجهُ الأرضِ . أى ؛ [2]نَبعت الأرضُ[2] مِن سائرِ أرجائِها ، حتى نَبَعت التَّنانيرُ ؛ التى هى مَحالُّ النارِ . وعن ابنِ عباسٍ : التَّنُّورُ ، عينٌ فى الهندِ . وعن الشَّعْبىِّ : بالكوفةِ . وعن قَتادَةَ بالجزيرةِ . وقال علىُّ بنُ أبى طالبٍ : المرادُ بالتَّنُّورِ فَلَقُ الصُّبحِ وتنويرُ الفجرِ ، أى ؛ إشراقُه وضياؤه . أى ؛ عند ذلك فاحمِلْ فيها مِن كل زوجين اثنين . وهذا قولٌ غريبٌ[3] . وقولُه تعالى [١/٦٨و] : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] . هذا أمرٌ ثانٍ[4] عند حُلولِ النِّقمةِ بهم ، أن يحمِلَ فيها مِن كلٍّ زوجين اثنين ، وفى كتابِ أهلِ الكتابِ أنه أُمر أن يَحملَ من كلٍّ ما يؤكَلُ سبعةَ أزواجٍ ، ومما لا يُؤكَلُ زوجين ؛ ذكرًا وأنثى . وهذا مُغايرٌ لمفهومِ قولِه تعالى فى كتابِنا الحقِّ : ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ إنْ جعلنا ذلك مفعولًا به ، وأما إنْ جعلناه توكيدًا لزوجين ، والمفعولُ به محذوفٌ ، فلا تَنافِىَ[5] . واللهُ أعلمُ .

وذكر بعضُهم ، ويُروَى عن ابنِ عباسٍ[6] ، أن أولَ ما دخل من الطيورِ الدُّرَّةُ[7] ، وآخِرَ ما دخل من الحيواناتِ الحمارُ ، ودخل إبليسُ متعلِّقًا بذَنَبِ الحمارِ . وقال ابنُ أبى حاتمٍ[8] : حدثنا أبى ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ صالحٍ ،

---

(١) فى ص : « وقيل » . وانظر تفسير الطبرى ١٢/٣٨ - ٤٠ .

(٢ - ٢) فى ا : « نبع الماء » . وانظر تاريخ الطبرى ١/١٨٦ ، ١٨٧ .

(٣) التفسير ٤/٢٥٤ .

(٤) فى ح ، م ، ص : « بأن » .

(٥) فى م ، ا : « ينافى » .

(٦) تفسير الطبرى ١٢/٣٦ ، ٣٧ ، وتاريخه ١/١٨٤ ، ١٨٥ .

(٧) الدرة : ضرب من الببغاوات . انظر الحيوان للجاحظ ٥/١٥١ ، حاشية (٣) .

(٨) تفسير ابن كثير ٤/٢٥٤ . وأخرجه الطبرى فى تفسيره ١٢/٣٧ عن ابن عباس .

حدثنى اللَّيثُ ، حدثنى هشامُ بنُ سعيدٍ ، عن زيدِ بنِ أَسلمَ ، عن أبيه ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لَمّا حَمل نوحٌ فى السفينةِ من كُلٍّ زوجين اثنين ، قال أصحابُه : وكيف نطمئنُّ - أو : كيف تطمئنُّ المواشِى - ومعنا الأسدُ ؟ فسَلَّط اللهُ عليه الحُمَّى . فكانت أولَ حُمَّى نزلت فى الأرضِ ، ثم شَكَوا الفأْرَةَ ، فقالوا : الفُوَيْسِقةُ تُفْسِدُ علينا طعامَنا ومتاعَنا . فأوحَى اللهُ إلى الأسدِ فعطَس ، فخرجت الهِرَّةُ منه[1] فَتَخَبَّأَت الفأْرَةُ منها » . هذا مُرْسَلٌ . وقولُه : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ أى ؛ مَن استَجبْتُ[2] فيهم الدعوةَ النافذةَ مِمَّنْ كفَر . فكان منهم ابنُه يامٌ الذى غَرِق ، كما سيأتى بيانُه ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ . أى ؛ واحمِلْ فيها مَن آمن بك مِن أُمّتِك ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . هذا مع طولِ المدَّةِ والمُقامِ بينَ أظهرِهم ، ودعوتِهم الأكيدةِ لِيلًا ونهارًا ، بضروبِ المقالِ وفنونِ التَّلطُّفاتِ ، والتهديدِ والوعيدِ تارةً ، والترغيبِ والوعدِ أخرى .

وقد اختُلِف[3] فى عدّةِ مَن كان معه فى السفينةِ ؛ فعن ابنِ عباسٍ : كانوا ثمانين نَفْسًا ، معهم نساؤُهم . وعن كَعْبِ الأحبارِ : كانوا اثنين وسبعين نَفْسًا . وقيل : كانوا عشرةً . وقيل : إنما كانوا نوحًا وبَنِيه الثلاثةَ وكَنائنَه[4] الأربعَ ، بامرأةِ يامٍ الذى انخزَل وانعزَل و (٥سلَك غيرَ٥) طريقِ النجاةِ ، فما عَدَلَ إذْ عَدَلَ . وهذا القولُ فيه مخالفةٌ لظاهرِ الآيةِ ، بل هى نصٌّ فى أنّه قد رَكِب معه

---

(١) فى ا : « من أنفه » .

(٢) فى ا ، ص : « استجيب » وفى ح ، م : « استجيبت » .

(٣) بعدها فى م : « العلماء » . وانظر تفسير الطبرى ٤٢/١٢ ، ٤٣ ، وتاريخه ١٨٧/١ - ١٨٩ .

(٤) فى م ، ا : « كنائنته » .

والكَنائنُ مفردها : الكنَّة . وهى امرأة الابن أو الأخ . القاموس (ك ن ن) .

(٥ - ٥) فى ح ، م : « وسلك عن » .

مِن[1] غيرِ أهلِه طائفةٌ مِمّن آمن به ؛ كما قال : ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨] . وقيل : كانوا سبعةً . [2]وأما امرأةُ نوحٍ[2] - وهى أُمُّ أولادِه كلِّهم ؛ وهم حامٌ وسامٌ ويافِثُ ويامٌ[3] ، وتُسمِّيه [١/٦٨ظ] أهلُ الكتابِ كنعانَ[4] ، وهو الذى غرِق ، وعابرُ[5] ، وقد مات[6] قبلَ الطوفانِ - قيل : إنها غرِقت مع مَن غرِق ، وكانت مِمّن سبَق عليه القولُ ؛ لكُفرِها . وعندَ أهلِ الكتابِ ، أنها كانت فى السفينةِ . فيَحْتَملُ أنها كفَرت بعدَ ذلك ، أو أنها أُنْظِرَت ليوم القِيامةِ ، والظاهرُ الأولُ ؛ لقولِه : ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨ ، ٢٩] . أمَره أنْ يَحْمَدَ ربَّه على ما سَخَّر له مِن هذه السفينةِ ، فنَجّاه بها ، وفتح بينَه وبينَ قومِه ، وأَقَرَّ عينَه مِمّن[7] خالفه وكذَّبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٢ - ١٤] . وهكذا يُؤْمَرُ بالدعاءِ فى ابتداءِ الأمورِ ، أن يكونَ على الخيرِ والبركةِ ، وأنْ تكونَ عاقِبتُها محمودةً ؛ كما قال تعالى لرسولِه ﷺ حينَ هاجر : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ

---

(١) زيادة من : ص .

(٢ - ٢) سقط من : ص .

(٣) سقط من : ص .

(٤) فى م : « كعنان » .

(٥) فى الأصل : « عامر » . وانظر تاريخ الطبرى ١/١٩١ .

(٦) فى ا ، م : « ماتت » .

(٧) فى ص : « فيمن » .

صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] . وقد امتثل نوحٌ عليه السلامُ هذه الوصيةَ ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أى ؛ على اسمِ اللهِ ابتداءُ سيرِها وانتهاؤُه ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أى ؛ وذو عقابٍ أليمٍ ، مع كَوْنِه غفورًا رحيمًا ، لا يُرَدُّ بأسُه عن القومِ المجرمين ، كما أَحلَّ بأهلِ الأرضِ الذين كفروا به وعبدوا غيرَه . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ وذلك أن اللهَ تعالى أرسل من السماءِ مطرًا لم تعهَدْه الأرضُ قبلَه ، ولم تُمْطَرْه بعدَه ، كان كأفواهِ القِرَبِ ، وأَمر الأرضَ فنبَعتْ من جميعِ فجاجِها ، وسائرِ أرجائِها ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ * فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : ١٠ - ١٣] . والدُّسُرُ : المساميرُ[(١)] ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى بحِفْظِنا وكلاءتِنا وحراستِنا ، ومشاهدتِنا لها ، ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ .

وقد ذكَر ابنُ جريرٍ[(٢)] وغيرُه ، أن الطوفانَ كان فى ثالثَ عشرَ شهرِ آبٍ فى [(٣)]حَمَارَةِ القَيْظِ[(٣)] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ . أى السفينةِ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ قال جماعةٌ مِن المفسّرين : ارتفع الماءُ على أعلى جبلٍ بالأرضِ خمسةَ عشرَ ذراعًا . وهو الذى عندَ [٦٩/١و] أهلِ الكتابِ . وقيل : ثمانين ذراعًا . وعَمَّ جميعَ الأرضِ ؛ طولَها والعرضَ ، سَهْلَها وحَزْنَها ، وجبالَها ، وقِفارَها ورِمالَها ، ولم

---

(١) فى م : « السائر » .

(٢) تاريخ الطبرى ١٨٩/١ .

(٣ - ٣) فى ا : « قوة القيض وجمرته » . وفى م ، ص : « حساب القبط » . وحمارة القيظ : أى شدته .

يبقَ على وجهِ الأرضِ ممَّن كان بها من الأحياءِ عينٌ تَطْرِفُ ، ولا صغيرٌ ولا كبيرٌ . قال الإمامُ مالكٌ ، عن زيدِ بنِ أسلمَ : كان أهلُ ذلك الزمانِ قد مَلَئُوا السَّهْلَ والجبلَ . وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ : لم تكنْ بقعةٌ فى الأرضِ إلَّا ولها مالِكٌ وحائزٌ . رَواهما ابنُ أبى حاتمٍ[1] . ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٢ ، ٤٣] . وهذا الابنُ هو يامٌ ، أخو سامٍ وحامٍ ويافثَ ، وقيل : اسمُه كَنْعانُ . وكان كافرًا عاملًا[2] غيرَ صالحٍ ، مُخالفًا[3] أباه فى دينِه ومذهبِه ، فهلَك مع مَن هَلَك . هذا وقد نجا مع أبيه الأجانبُ [4]فى النَّسبِ[4] ؛ لمَّا كانوا مُوافِقِين فى الدينِ والمذهبِ ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ . أى ؛ لمَّا فُرِغ من أهلِ الأرضِ ، ولم يبْقَ منها أحدٌ ممن عَبَدَ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أمر اللهُ الأرضَ أنْ تبلعَ ماءَها ، وأمر السماءَ أن تُقلِعَ ، أى تُمسِكَ عن المطرِ ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ . أى ؛ نَقَصَ عمَّا كان ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ . أى ؛ وقَع بهم الذى كان قد سبَق فى علمِه وقَدَرِه ، مِن إحلالِه بهم ما حلَّ بهم ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أى ؛ نُودِىَ عليهم بلسانِ القُدْرةِ[5] : بُعدًا لهم مِن الرحمةِ والمغفرةِ . كما قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٤] . وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ

---

(١) ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور ٩٥/٣ . وعزاهما لابن أبى حاتم .

(٢) فى م ، ص : « عمل عملا » .

(٣) فى ح ، م ، ص : « فخالف » .

(٤ - ٤) فى ا : « من المؤمنين » .

(٥) فى الأصل ، ح : « القدر » .

فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧٣] . وقال تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] . وقال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١١٩ - ١٢٢] . وقال تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٤ ، ١٥] . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات : ٨٢] . وقال : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٥ - ١٧] . وقال تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٥ - ٢٧] . وقد استجاب اللهُ تعالى ، وله الحمدُ والمنّةُ ، [١/٦٩ظ] دعوتَه فلم يبْقَ منهم عينٌ تَطْرِفُ .

وقد روى الإمامان : أبو جعفرٍ ابنُ جَريرٍ ، وأبو محمدٍ ابنُ أبى حاتمٍ[1] ، فى « تفسيرَيْهما » مِن طريقِ [2]موسى بنِ يعقوبَ الزَّمْعىِّ[2] ، عن فائدٍ[3] مولى عبيدِ[4] اللهِ بنِ أبى رافعٍ ، أنّ إبراهيمَ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ أبى ربيعةَ ، أخبرَه أنّ عائشةَ أمَّ المؤمنين

---

(١) تفسير الطبرى ١٢/٣٥ . وانظر الدر المنثور ٣/٣٢٧ .

(٢ - ٢) فى النسخ : « يعقوب بن محمد الزهرى » . والمثبت من تفسير الطبرى ، وتفسير ابن كثير ٤/٣٥٨ . وانظر مستدرك الحاكم ٢/٣٤٢ ، والجرح والتعديل ٨/١٦٧ .

(٣) فى ح ، م : « قائد » .

(٤) فى م ، ص : « عبد » .

أخبرتْه ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « فلو رَحِمَ اللهُ مِن قومِ نُوحٍ أَحدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ » . قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مكَثَ نوحٌ ، عليه السلامُ ، فى قومِه ألفَ سَنَةٍ – (١)يَعْنى إلا خمسين عامًا(١) – وغَرَسَ مائةَ سنَةٍ الشَّجَرَ ، فعَظُمَتْ وذَهَبَتْ كُلَّ مَذْهَبٍ ، ثم قَطَعَها ثم جعَلَها سفينةً ، ويَمُرُّونَ عليه ويَسْخَرُونَ منه ، ويَقُولُونَ : تَعْمَلُ سفينةً فى البَرِّ ! كيف تَجْرِى ؟ قال : سوف تَعْلَمُون . فلَمّا فرَغَ ونَبَعَ الماءُ وصار فى السِّكَكِ ، خَشِيَتْ أُمُّ الصبِيِّ عليه ، وكانتْ تُحِبُّه حُبًّا شَديدًا ، خَرَجَتْ به إلى الجَبَلِ ، حتى بلغَتْ ثُلُثَه ، فلمّا بلغَها الماءُ خَرجَتْ به حتى اسْتَوَتْ على الجَبَلِ ، فلمّا بلغَ الماءُ رَقَبَتَها رفَعَتْه بيَدَيْها ، فغَرِقَا(٢) ، فلو رَحِمَ اللهُ منهم أحَدًا لَرَحِم أُمَّ الصَّبِيِّ » . وهذا حديثٌ غريبٌ . وقد رُوِى عن كعبِ الأحبارِ ، ومجاهدٍ ، وغيرِ واحدٍ شبيهٌ لهذه القصةِ ، وأَحْرَى بهذا الحديثِ أن يكونَ موقوفًا ، مُتلقًّى عن مِثلِ كعبِ الأحبارِ . واللهُ أعلمُ .

والمقصودُ ، أن اللهَ لم يُبْقِ من الكافرين دَيَّارًا ، فكيف يزعُمُ بعضُ المفسرين أن عُوجَ بنَ عُنُقَ ، ويُقالُ : ابنُ(٣) عَناقَ ، كان موجودًا مِن قبلِ نوحٍ إلى زمانِ موسى ؟! ويقولون : كان كافرًا مُتمرِّدًا جَبّارًا ، عنيدًا . ويقولون : كان لغيرِ رِشْدةٍ ، بل ولدتْه أُمُّه عُنُقُ بنتُ آدمَ مِن زنًى ، وأنه كان يأخُذُ – مِن طولِه – السمكَ مِن قَرارِ البحارِ ، ويَشْويه فى عينِ الشمسِ ، وأنه كان يقولُ لنوحٍ ، وهو فى السفينةِ : ما هذه القُصَيْعَةُ التى لك ؟! ويستهزِئُ به . ويذكرون أنه كان طولُه ثلاثَةَ آلافِ ذراعٍ ، وثلاثَمائةٍ وثلاثَةً وثلاثين ذِراعًا وثُلُثًا ، إلى غيرِ ذلك من الهَذَياناتِ التى لولا أنها مُسَطَّرَةٌ فى كثيرٍ مِن كتبِ التفاسيرِ وغيرِها مِن التواريخِ وأيامِ الناسِ ، لَما تعرّضنا لحكايتِها ؛ لسقاطَتِها ورَكاكتِها ، ثم إنها مخالِفةٌ للمعقولِ والمنقولِ .

(١ – ١) زيادة من : ح ، م .

(٢) سقط من : الأصل .

(٣) سقط من : ص .

أما المعقولُ ؛ فكيف يَسُوغُ فيه أن يُهلِكَ اللهُ ولدَ نوحٍ لكُفرِه ، وأبوه نبىُّ الأمةِ ، وزعيمُ أهلِ الإيمانِ ، ولا يُهلِكَ عُوجَ بنَ عُنُقَ ، ويقالُ : عَنَاقُ ، وهو أظلَمُ وأطْغَى ، على ما ذكَروا ؟ وكيف لا يرحمُ اللهُ منهم أحدًا ، ولا أمَّ الصبىِّ ، [1]ولا الصبىَّ[1] ، ويَتركُ هذا الدَّعِىَّ[2] الجبارَ العنيدَ ، الفاجرَ الشديدَ ، الكافرَ الشيطانَ المَرِيدَ ، على ما ذكروا ؟!

وأما المنقولُ ؛ فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴾ . [٧٠/١و] وقَالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ . ثم هذا الطولُ الذى ذكروه مخالفٌ لما ثبت فى « الصحيحين »[3] عن النبىِّ ﷺ أنَّه قال : « إنّ اللهَ خلقَ آدمَ وطولُه سِتُّونَ ذِراعًا ، ثم لم يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حتى الآنَ » . فهذا نصُّ الصادقِ المصدوقِ المعصومِ ، الذى لا ينطقُ عن الهوَى ، إن هو إلا وحىٌ يُوحَى ، أنه لم يَزَلِ الخلقُ ينقُصُ حتى الآنَ ، أى ؛ لم يَزَلِ الناسُ فى نقصانٍ فى طولِهم من آدمَ إلى يومِ إخبارِه بذلك ، وهَلُمَّ جَرًّا ، إلى يومِ القيامةِ . وهذا يقتضى أنه لم يُوجَدْ من ذريةِ آدمَ مَن كان أطولَ منه . فكيف يُتْرَكُ هذا ويُذْهَلُ عنه ، ويُصَارُ إلى أقوالِ الكَذَبَةِ الكَفَرةِ مِن أهلِ الكتابِ الذين بدَّلوا كتبَ اللهِ المنزَّلَةَ ، وحرَّفُوها وأوَّلُوها ، ووضعوها على غيرِ مواضِعِها ؟ فما ظنُّك بما هم يستقلُّون بنقلِه ، أو يُؤْتَمَنُون[4] عليه ، [5]وهم الخونةُ الكذَبةُ ، عليهم لعائنُ اللهِ المتتابعةُ إلى يومِ القيامةِ[5] ؟ وما أظنُّ أن هذا الخبرَ عن عُوجِ ابنِ عناقَ ، إلا اختلاقًا مِن بعضِ زنادقتِهم وفُجّارِهم الذين كانوا أعداءَ

(١ - ١) سقط من : ص .

(٢) فى الأصل ، ص : « المدعى » .

(٣) البخارى (٣٣٢٦) ، مسلم (٢٨٤١) .

(٤) فى ص : « يموتون » .

(٥ - ٥) سقط من : ا ، م .

الأنبياءِ . واللهُ أعلمُ .

ثم ذكر اللهُ تعالى مُناشدةَ نوحٍ ربَّه فى ولدِه ، وسؤالَه له عن غرَقِه على وجهِ الاستعلامِ والاستكشافِ . ووجهُ السؤالِ : أنك وعدتنى بنجاةِ أهلى معى ، وهو منهم وقد غرِق . فأُجيبَ بأنه ليس من أهلِك ، أى ؛ الذين وعدتُ بنجاتِهم ، أى ؛ أَمَا قُلْنا لك : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ ؟ فكان هذا ممن سبَق عليه القولُ منهم بأنْ سيَغْرَقُ بكفرِه ؛ ولهذا ساقته الأقدارُ إلى أنِ انْحازَ عن حَوْزَةِ أهلِ الإيمانِ ، فغَرِقَ مع حِزْبِه أهلِ الكُفرِ والطغيانِ .

ثم قال تعالى : ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا أمرٌ لنوحٍ ، عليه السلامُ ، لمَّا نَضَب الماءُ عن وجهِ الأرضِ ، وأَمكن السَّعىُ فيها والاستقرارُ عليها ، أن يهبِطَ من السفينةِ التى كانت قد استَقَرت ، بعدَ سيرِها العظيمِ ، على ظهرِ جبلِ الجُودِىِّ ؛ وهو جبلٌ بأرضِ الجزيرةِ مشهورٌ ، وقد قدَّمنا ذكرَه عندَ خلقِ الجبالِ ﴿ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ أى ؛ اهبِطْ سالمًا مُباركًا عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِمَّن سَيولدُ بعدُ ، أَىْ من أولادِك . فإنَّ اللهَ لم يجعلْ لأحدٍ ممن كان معه من المؤمنين نَسْلًا ولا عَقِبًا ، سوى (1)نوحٍ عليه السلامُ(1) ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] . فكلُّ مَن على وجهِ الأرضِ اليومَ ، مِن سائرِ أجناسِ بنى آدمَ ، ينتسبون(2) إلى أولادِ نوحٍ الثلاثةِ ؛ وهم سامٌ وحامٌ ويافثُ .

قال الإمامُ أحمدُ(3) : [١/٧٠ظ] حدثنا عبدُ الوهَّابِ ، عن سعيدٍ ، عن قَتادَةَ ، عنِ الحسنِ ، عن سَمُرةَ ، أَنَّ النبىَّ ﷺ ، قال : « سامٌ أبو العَربِ ،

(١ - ١) فى ا : « أولاده » .

(٢) فى م ، ا : « ينسبون » .

(٣) المسند ٥/٩ .

وحامٌ أبو الحَبَشِ ، ويافثُ أبو الرُّومِ » . ورواه الترمذىُّ[1] عن بِشْرِ بنِ مُعاذٍ العَقَدىِّ[2] ، عن يزيدَ بنِ زُرَيعٍ ، عن سعيدِ بنِ أبى عَروبةَ ، عن قَتادَةَ ، عن الحسنِ ، عن سَمُرةَ مرفوعًا ، نحوَه .

وقال الشيخُ أبو عُمَرَ[3] ابنُ عبدِ البرِّ : وقد رُوِىَ عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ ، عن النبىِّ ﷺ مثلُه[4] . قال : والمرادُ بالرُّومِ هنا الرُّومُ الأُوَلُ ؛ وهم اليونانُ المُنْتَسِبون إلى رُومىِّ بنِ ليطىِّ[5] بنِ يونانَ بنِ يافثَ بنِ نوحٍ عليه السلامُ . ثم روَى من حديثِ إسمعيلَ بنِ عيَّاشٍ ، عن يحيى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، أنَّه قال : ولدُ نوحٍ ثلاثةٌ : سامٌ ويافثُ وحامٌ ، وولَدَ كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ[6] ثلاثةً ؛ فولَد سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ ، وولَد يافثُ التُّركَ والصَّقالِبَةَ ويأْجوجَ ومأْجوجَ ، وولَد حامٌ القِبْطَ والسودانَ والبربرَ . قلتُ : وقد قال الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ فى « مُسْنَدِه »[7] : حدثنا إبراهيمُ بنُ هانئٍ ، وأحمدُ بنُ حسينِ بنِ عبَّادٍ أبو العباسِ ، قالا : حدثنا محمدُ بنُ يزيدَ ابنِ سِنَانٍ الرُّهَاوىُّ ، حدثنى أبى ، عن يحيى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المُسيَّبِ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « وُلِدَ لنوحٍ سامٌ

---

(١) الترمذى (٣٢٣١) (ضعيف الترمذى ٦٣٥) .

(٢) فى ح : « العندى » .

(٣) كذا فى : الأصل . وفى بقية النسخ : « عمرو » . وانظر : القصد والأمم ، لابن عبد البر صفحة ١٠ ، ١١.

(٤) وحديث عمران أخرجه الطبرى فى تاريخه ٢٠٩/١ ، والطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون . مجمع الزوائد ١٩٣/١ . المعجم الكبير ١٤٥/١٨ ، ١٤٦ .

(٥) فى ح ، م : « لبطى » وفى ص : « نبطى » . وفى الطبرى ٢٠٧/١ والكامل ٨١/١ : « لنطى » .

(٦) فى ح ، م ، ا : « هذه الثلاثة » .

(٧) كشف الأستار (٢١٨) . وقال الهيثمى فى المجمع ١٩٣/١ : وفيه محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى عن أبيه ، فمحمد وثقه ابن حبان ، وقال أبو حاتم : صدوق . وضعفه يحيى بن معين والبخارى ، ويزيد بن سنان وثقه أبو حاتم ، فقال : محله الصدق . وقال البخارى : مقارب الحديث . وضعفه يحيى وجماعة .

وحامٌ ويافثُ ، فوُلِدَ لسامٍ العربُ وفارسُ والرُّومُ ، والخيرُ فيهم ، ووُلِدَ ليافثَ يأجوجُ ومأْجوجُ والتُّركُ والصَّقالِبَةُ ، ولا خيرَ فيهم ، ووُلِدَ لحامٍ القِبْطُ والبربرُ والسُّودانُ » . ثم قال : لا نعلمُه[1] يُروَى مرفوعًا إلَّا من هذا الوجهِ ، تفرَّد به محمدُ بنُ يزيدَ بنِ سنانٍ ، عن أبيه ، وقد حدَّث عنه جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ ، واحتمَلوا حديثَه ، ورواه غيرُه عن يحيى بنِ سعيدٍ مُرْسَلًا ، ولم يُسنِدْه ، وإنما جعَله مِن قولِ سعيدٍ . قلتُ : وهذا الذى ذكَره أبو عُمَرَ[2] هو المحفوظُ عن سعيدٍ قولَه ، وهكذا رُوِىَ عن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ مثلُه[3] ، [4]واللهُ أعلمُ[4] . ويزيدُ ابنُ سنانٍ أبو فَرْوَةَ الرُّهَاوىُّ ضعيفٌ بمرَّةٍ لا يُعتمَدُ عليه .

وقد قيل : إن نوحًا ، عليه السلامُ ، لم يُولَدْ له هؤلاء الثَّلاثةُ الأولادُ إلَّا بعدَ الطوفانِ ، وإنما وُلِد له قبلَ السفينةِ كَنْعانُ الذى غَرِق ، وعابرُ مات قبلَ الطوفانِ . والصحيحُ أن أولادَه[5] الثلاثةَ كانوا معه فى السفينةِ ، هم ونساؤُهم وأُمُّهم ، وهو نصُّ التوراةِ[6] . وقد ذُكِر أن حامًا واقَع امرأتَه فى السفينةِ ، فدعا عليه نوحٌ أن تُشَوَّهَ[7] خِلْقَةُ نُطْفَتِه ، فوُلِد له ولدٌ أسودُ ، وهو كَنْعَانُ ابنُ حامٍ ، جَدُّ السودانِ . وقيل : بل رأى أباه نائمًا[8] ، وقد بدتْ عورتُه فلم يستُرْها وستَرها أخواه ؛ فلهذا دعا عليه [١/٧١و] أن تُغَيَّرَ نُطفتُه ، وأنْ يكونَ

---

(١) فى م ، ص : « لا نعلم » .
(٢) فى الأصل ، ا ، م : « عمرو » .
(٣) تاريخ الطبرى ٢٠١/١ .
(٤ - ٤) فى ا : « سواء » .
(٥) فى م ، ا : « الأولاد » .
(٦) سفر التكوين الأصحاح ٦/٧ .
(٧) فى الأصل ، ص : « يشوه » .
(٨) فى ص : « قائما » . وانظر تاريخ الطبرى ٢٠٢/١ .

أولادُه عبيدًا لإخوتِه[1] . وذكر الإمامُ أبو جعفرِ ابنُ جَريرٍ[2] ، مِن طريقِ عليِّ ابنِ زيدِ بنِ جُدْعانَ ، عن يوسفَ بنِ مِهرانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّه قال : قال الحَوَارِيُّون لعيسى ابنِ مريمَ : لو بعثْتَ لنا رجُلًا شَهِد السفينةَ فحدَّثَنا عنها ؟ قال : فانطلَق بهم حتى أتَى إلى كَثِيبٍ مِن ترابٍ ، فأخَذ كفًّا مِن ذلك التُّرابِ بكفِّه ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : هذا كعبُ[3] حامِ بنِ نوحٍ . قال : وضرَب الكَثِيبَ بعصاه ، وقال : قمْ بإذنِ اللهِ . فإذا هو قائمٌ ينفُضُ التُّرابَ عن رأسِه ، قد شاب ، فقال له عيسى عليه السلامُ : هكذا هلكْتَ ؟ قال : لا ، ولكنِّي مِتُّ وأنا شابٌّ ، ولكنِّي ظَنَنْتُ أنَّها الساعةُ ، فمِن ثَمَّ شِبْتُ . قال : حدِّثْنا عن سفينةِ نوحٍ . قال كان طولُها ألفَ ذراعٍ ومائتَى ذراعٍ ، وعرضُها سِتَّمائةِ ذراعٍ ، وكانت ثلاثَ طَبقاتٍ ؛ فطَبقةٌ فيها الدوابُّ والوحْشُ ، وطبقةٌ فيها الإنسُ ، وطبقةٌ فيها الطَّيرُ ، فلما كثُرَ أرواثُ الدَّوابِّ أَوْحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نوحٍ ، عليه السلامُ ، أَنِ اغمِزْ ذَنَبَ الفيلِ ، فغَمَزَه ، فوقَع منه خنزيرٌ وخِنزيرةٌ ، فأقبَلا على الرَّوْثِ[4] ، ولمَّا وقَع (5) الفأرُ يخرِزُ السفينةَ بقَرْضِه (5) ، أوحَى اللهُ عز وجل إلى نوحٍ ، عليه السلامُ ، أنِ اضربْ بينَ عَيْنَىِ الأسدِ ، فخرج من مِنْخَرِه سِنَّوْرٌ وسِنَّوْرَةٌ ، فأقبَلا على الفأرِ . فقال له عيسى : كيف عَلِم نوحٌ ، عليه السلامُ ، أن البلادَ

---

(1) هذه القصة مذكورة فى سفر التكوين الأصحاح ٢١/٩ - ٢٦ ، وفيها شنائع عظيمة منها ؛ أن نوحًا شرب الخمر فسكر فبدت عورته فرآها حام ، فلعن نوحٌ كنعان بن حام . ولا ندرى ما سبب لعن كنعان والذى رأى العورة إنما هو أبوه ، وعندهم فى كتبهم أن الابن لا يحمل إثم الأب ، والأب لا يحمل إثم الابن ، وبرُّ البار له ، وإثم الآثم عليه .

(2) تفسير الطبرى ٣٥/١٢ ، وتاريخه ١٨١/١ ، ١٨٢ .

(3) فى تاريخ الطبرى : « قبر » .

(4) بعده فى : ا « يأكلانه » .

(5 - 5) فى الأصل : « الفساد يجرد السفينة بقرضه » .

قد غَرِقت ؟ قال : بعَث الغرابَ يأتيه بالخبرِ ، فوجَد جِيفةً فوقَع عليها ، فدعا عليه بالخوفِ ؛ فلذلك لا يألَفُ البيوتَ . قال : ثم بعَث الحمامةَ فجاءت بورقِ زَيتونٍ بمِنْقارِها وطينٍ برجلَيْها[1] ، فعَلِم أن البلادَ قد غَرِقت ، فطوَّقَها الخُضْرةَ التى فى عُنقِها ، ودعا لها أن تكونَ فى أُنْسٍ وأمانٍ ، فمِن ثَمَّ تألَفُ البيوتَ . قال : فقالوا : [2]يا رسولَ اللهِ[2] ، ألا ننطلقُ به إلى أهلينا ، فيجلِسَ معنا ، ويحدثَنا ؟ قال : كيف يَتْبَعُكم مَن لا رزقَ له ؟ قال : فقال له : عُدْ بإذنِ اللهِ . فعاد تُرابًا . وهذا أثرٌ غريبٌ جدًّا . وروَى عِلْباءُ بنُ أحمرَ ، عن عِكْرِمةَ عن ابنِ عباسٍ[3] ، قال : كان مع نوحٍ فى السفينةِ ثمانون رجلًا ، معهم أهلوهم ، وأنهم كانوا فى السفينةِ مائةً وخمسين يومًا ، وأن اللهَ وجَّه السفينةَ إلى مكَّةَ ، فدارت بالبيتِ أربعين يومًا ، ثم وجَّهها إلى الجُودِىِّ ، فاستقرت عليه ، فبعَث نوحٌ عليه السلامُ الغرابَ ليأتيَه بخبرِ الأرضِ ، فذهَب فوقَع على الجِيَفِ ، فأبطَأ عليه ، فبعَث الحمامةَ ، فأتَتْه بورَقِ الزَّيتونِ ، ولطَّختْ رجلَيْها بالطينِ ، فعرَف نوحٌ أن الماءَ قد نَضَب ، فهبَط إلى أسفلِ الجُودِىِّ ، فابْتَنى قريةً [١/٧١ظ] وسمَّاها ثمانينَ ، فأصبحوا ذاتَ يومٍ ، وقد تَبَلْبَلَتْ[4] ألسنتُهم على ثمانينَ لغةً ؛ إحداها لغةُ[5] العَرَبِىِّ ، فكان بعضُهم لا يفقهُ كلامَ بعضٍ ، فكان نوحٌ عليه السلامُ يُعبِّرُ عنهم . وقال قتادَةُ وغيرُه[6] : ركِبوا فى السفينةِ فى اليومِ العاشرِ مِن شهرِ رجبٍ ، فساروا مائةً وخمسين

---

(١) فى م ، ا : « برجلها » .

(٢ - ٢) فى ا : « لعيسى » .

(٣) التفسير ٤/٢٥٧ .

(٤) فى ص : « تبللت » .

(٥) سقط من : م .

(٦) تاريخ الطبرى ١/١٩٠ .

يومًا ، واستقرت بهم على الجُودِيِّ شهرًا ، وكان خروجُهم من السفينَةِ في يومِ عاشوراءَ من المحرمِ . وقد روَى ابنُ جَرِيرٍ[1] خبرًا مرفوعًا يوافِقُ هذا ، وأنهم صاموا يومَهم ذلك .

وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا أبو جعفرٍ ، حدثنا عبدُ الصمدِ بنُ حبيبٍ الأَزْدِيُّ ، عن أبيه حبيبِ بنِ عبدِ اللهِ ، عن شُبَيْلٍ[3] ، عن أبي هُرَيْرَةَ ، قال : مَرَّ النبيُّ ﷺ بأُناسٍ من اليهودِ ، وقد صاموا يومَ عاشوراءَ ، فقال : « ما هذا مِن[4] الصَّوْمِ ؟ » . فقالوا : هذا اليومُ الذي نَجَّى اللهُ موسى وبني إسرائيلَ من الغرقِ ، وغَرِق فيه فرعونُ ، وهذا يومٌ استوت فيه السفينةُ (5على الجُودِيِّ5) ، فصام نوحٌ وموسى ، عليهما السلامُ ؛ شكرًا للهِ عزّ وجلّ . فقال النَّبيُّ ﷺ : « أنا أحقُّ بموسى ، وأحقُّ بصومِ هذا اليومِ » . وقال لأصحابه : « مَن كان مِنْكم أصْبَح صائِمًا فليُتِمَّ صومَه ، ومَنْ كان أصابَ مِن غدَاءِ أهلِه فَلْيُتِمَّ بَقيَّةَ يَومِه » . وهذا الحديثُ له شاهدٌ في « الصحيحِ »[6] من وجهٍ آخرَ ، والمُسْتَغْرَبُ ذِكْرُ نوحٍ أيضًا . واللهُ أعلمُ .

وأمَّا ما يذكرُه كثيرٌ مِن الجهلةِ ، أنهم أكلوا مِن فضولِ أزوادِهم ، ومِن حبوبٍ كانت معهم قد استصحبوها ، وطحنُوا الحبوبَ يومَئذٍ ، واكتحلوا

---

(١) تفسير الطبري ٤٧/١٢ ، وتاريخه ١٩٠/١ .

(٢) المسند ٣٥٩/٢ . وقال الهيثمي ١٨٤/٣ : وفيه حبيب بن عبد الله الأزدي لم يرو عنه غير ابنه .

(٣) في النسخ : « شبل » . والمثبت من مسند الإمام أحمد ، والتفسير ٢٥٧/٤ . وانظر تهذيب التهذيب ٣١١/٤ . أطراف المسند ٣٠٩/٧ .

(٤) سقط من : م ، ص .

(٥ - ٥) سقط من : ص .

(٦) البخاري (٢٠٠٤) .

بالإثْمِدِ ؛ لتقويةِ أبصارِهم لَمّا ابْهَارَّت[1] من الضياءِ ، بعدَ ما كانوا فى ظُلمةِ السفينةِ ، فكلُّ هذا لا يصِحُّ فيه شىءٌ ، وإنما يُذْكَرُ فيه آثارٌ منقطعةٌ عن بنى إسرائيلَ ، لا يُعْتَمدُ عليها ، ولا يُقْتَدَى بها ، واللهُ أعلمُ . وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[2] : لمَّا أراد اللهُ أَنْ يكُفَّ ذلك الطُّوفانَ ، أرسل رِيحًا على وجهِ الأرضِ ، فسكَن الماءُ ، وانسدّت ينابيعُ الأرضِ ، فجعَل الماءُ ينقُصُ ويغِيضُ ويُدْبِرُ ، وكان استواءُ الفُلْكِ[3] على الجُودىِّ - فيما يزعمُ أهلُ التوراةِ[4] - فى الشهرِ السابعِ ، لسبعَ عَشْرةَ ليلةً مضت منه ، وفى أولِ يومٍ من الشهرِ العاشرِ رُئِيَتْ رءُوسُ الجبالِ ، فلمَّا مضَى بعدَ ذلك أربعون يومًا ، فتَح نوحٌ كُوَّةَ الفُلْكِ التى صنَع فيها ، ثم أرسَل الغرابَ لينظرَ له ما فعَل الماءُ ، فلم يرجِعْ إليه ، فأرسل الحمامةَ فرجعتْ إليه فلم يجِدْ لرجلَيْها موضعًا ، فبسَط يدَه للحمامةِ فأخذَها فأدخلَها ، ثم مضت سبعةُ أيامٍ ، ثم أرسلها لتنظُرَ له ، فرجعت حينَ أمست ، وفى فِيهَا ورقُ زيتونةٍ ، فعَلِم نوحٌ أن الماءَ قد قَلَّ عن وجهِ الأرضِ ، ثم مكَث سبعةَ أيامٍ ، ثم أرسلَها ، فلم [٧٢/١و] ترجِعْ إليه ، فعَلِم نوحٌ أن الأرضَ قد برزَتْ ، فلمَّا كَمَلت السنةُ فيما بينَ أن أرسل اللهُ الطوفانَ إلى أن أرسل نوحٌ الحمامةَ ، ودخل يومٌ واحدٌ من الشهرِ الأولِ مِن سنةِ اثنتَين ، برَز وجهُ الأرضِ وظهَر البرُّ ، وكشَف نوحٌ غطاءَ الفُلْكِ . وهذا الذى ذكره ابنُ إسحاقَ هو بعينِه مضمونُ سياقِ التوراةِ التى بأيدِى أهلِ الكتابِ . قال ابنُ إسحٰقَ :

---

(١) فى م ، ص : « انهارت » .

(٢) تفسير الطبرى ١٢/٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سقط من : ص ، م .

(٤) سفر التكوين الأصحاح ٨/٤ - ١٣ .

وفى الشهرِ الثانى من سنةِ اثنتين فى ستٍّ وعشرين ليلةً منه . ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وفيما ذكر أهلُ الكتابِ ، أنَّ اللهَ كلَّم نوحًا قائلًا له : اخرُجْ من الفُلْكِ أنت وأمرأتُك وبنوك ونساءُ بنيك معك ، وجميعُ الدوابِّ التى معك ، ولتَنْمُوا ولْتكثُروا فى الأرضِ . فخرجوا ، وابْتَنَى نوحٌ مَذْبَحًا للهِ عزَّ وجلَّ ، وأخَذ مِن جميعِ الدوابِّ الحلالِ ، والطيرِ الحلالِ ، فذبَحها قُربانًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعَهِد اللهُ إليه أن لا يُعيدَ الطوفانَ على أهلِ الأرضِ ، وجعَل تذكارَ الميثاقِ إليه القوسَ الذى فى الغَمامِ ، وهو قوسُ قُزَحَ الذى قدَّمنا عن ابنِ عباسٍ ، أنه أمانٌ من الغَرَقِ[1] . قال بعضُهم : فيه إشارةٌ إلى أنه قوسٌ بلا وترٍ . أى أن هذا الغَمامَ لا يُوجَدُ منه طوفانٌ كأولِ مرةٍ . واللهُ أعلمُ . وقد أنكَرت طائفةٌ مِن جَهَلةِ الفُرْسِ وأهلِ الهندِ وقوعَ الطوفانِ ، واعتَرَف بهِ آخَرون منهم ، وقالوا : إنما كان بأرضِ بابلَ ، ولم يصِلْ إلينا . قالوا : ولم نزَلْ نتوارثُ المُلْكَ كابرًا عن كابرٍ ، مِن لَدُنْ كيومرثَ[2] - يَعنُون آدَمَ - إلى زمانِنا هذا . وهذا قاله مَن قاله مِن زنادقةِ المَجوسِ عُبَّادِ النيرانِ وأتْباعِ الشيطانِ . وهذه سَفْسطَةٌ منهم وكفرٌ فظيعٌ وجهلٌ بليغٌ ، ومكابرةٌ للمحسوساتِ ، وتكذيبٌ لربِّ الأرضِ والسمواتِ ، وقد أجمع أهلُ الأديانِ ، الناقِلون عن رسلِ الرحمنِ ، مع ما تواتَر عندَ الناسِ فى سائِرِ الأزمانِ ، على وقوعِ الطُّوفانِ ، وأنَّه عَمَّ جميعَ البلادِ ، ولم يُبْقِ اللهُ أحدًا مِن كَفَرةِ العبادِ ؛ استجابةً لدَعوةِ نبيِّه المؤيَّدِ المعصومِ ، وتنفيذًا لِمَا سبَق فى القَدَرِ المحتومِ .

---

(١) تقدم فى صفحة ٨٥ .

(٢) فى الأصل : « المورث » ، وفى ص : « كومرت » . وفى تاريخ الطبرى ١٩٢/١ ، والكامل لابن الأثير ٧٣/١ : « جيومرت » .

ذكرُ شيءٍ مِن أخبَارِ نوحٍ نفسِه[1] عَلَيه الصلاةُ والسَّلامُ

قال اللهُ تعالى[2] : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] . قيل : إنه كان يحمَدُ اللهَ على طعامِه وشرابِه ولباسِه وشأْنِه كلِّه . وقال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا أبو أُسامَةَ ، حدثنا زكريا بنُ أَبِى زائدةَ ، عن سعيدِ بنِ أبى بُردةَ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَه عَلَيها ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَه عَلَيها » . وكذا رواه مسلمٌ والترمذىُّ والنَّسائىُّ مِن حديثِ أبى أسامةَ[4] . والظاهرُ ، أن الشكورَ هو الذى يعملُ بجميعِ الطاعاتِ القلبيةِ والقوليةِ ، والعَمَليةِ ؛ فإن الشكرَ[5] يكونُ بهذا وبهذا ؛ كما قال الشاعرُ[6] :

أفادتْكُم النَّعماءُ منِّى ثلاثةً ... يدى ولِسانى والضميرَ المحجَّبا

---

(١) سقط من : م .

(٢) التفسير ٥/٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المسند ٣/١١٧ .

(٤) مسلم (٢٧٣٤) ، الترمذى (١٨١٦) وقال : حسن . النسائى فى الكبرى (٦٨٩٩) .

(٥) فى ص : « الشكور » .

(٦) لم نهتد إليه .

(١ذكرُ صومِه عليه السلامُ١)

وقال ابنُ ماجَهْ(٢) : بابُ صيامِ نوحٍ عليه السلامُ : حدثنا سَهْلُ بنُ أبى سهلٍ ، حدثنا سعيدُ بنُ (٣أبى مريمَ٣) ، عن ابنِ لَهِيعةَ ، عن جعفرِ بنِ ربيعةَ ، عن أبى فِراسٍ ، أنه سَمِع عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو يقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « صامَ نوحٌ الدهرَ إلَّا يومَ الفِطْرِ ، ويومَ الأَضْحَى » . هكذا رواه ابنُ ماجَهْ مِن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ لَهِيعةَ (٤بإسنادِه [٧٢/١ظ] ولَفْظِه ، وقد قال الطَّبَرانِىُّ(٥) : حدثنا أبو الزِّنْباعِ روحُ بنُ الفرجِ ، حدثنا عمرُو بنُ خالدٍ الحرَّانىُّ ، حدثنا ابنُ لَهِيعةَ٤) ، عن أبى قَنَّانٍ(٦) ، عن يزيدَ بنِ رباحٍ أبى فِراسٍ ، أنه سَمِع عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو يقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ ، يقولُ : « صام نوحٌ الدَّهرَ إلَّا يومَ الفِطْرِ والأَضْحَى ، وصامَ داودُ نِصفَ الدّهرِ ، وصامَ إبراهيمُ ثلاثةَ أيّامٍ مِنْ كلِّ شَهْرٍ ، صامَ الدهرَ وأَفْطَرَ الدَّهْرَ » .

(١ - ١) ليس فى : الأصل ، ا .

(٢) ابن ماجه (١٧١٤) وفى الزوائد : فيه ابن لهيعة وهو ضعيف . (ضعيف ابن ماجه ٣٧٦) .

(٣ - ٣) فى ح : « هريم » .

(٤ - ٤) سقط من : ص .

(٥) عزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٩٥/٣ إلى الطبرانى وقال : فيه أبو قنان ولم أعرفه .

(٦) فى الأصل ، ص ، م : « أبو قتادة » وفى ا : « أبو غسان » . وأبو قنان هو أيوب ابن أبى العالية ، وانظر الجرح والتعديل ٢٥٤/٢ . الإكمال ٩٨/٧ .

⁽¹⁾ذكرُ حَجَّةِ نوحٍ⁽¹⁾ عليه السلامُ

وقال الحافِظُ أبو يعلَى[2] : حدثنا سفيانُ بنُ وَكيعٍ ، حدثنا أبى ، عن زَمْعةَ هو ابنُ[3] صالِحٍ ، عن سَلَمَةَ بنِ وَهْرامٍ ، عن عِكْرِمةَ ، عنِ ابنِ عباسٍ ، قال : حجّ رسولُ اللهِ ﷺ ، فلمَّا أتى وادىَ عُسْفانَ ، قال : « يا أبا بَكْرٍ ، أىُّ وادٍ هذا ؟ » . قال : هذا وادى عُسْفانَ . قال : « لقد مرَّ بهذا الوادى نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ على بَكَراتٍ لهم حُمْرٍ ، خَطْمُهم اللِّيفُ ، أُزُرُهم العَباءُ ، وأرْدِيَتُهم النِّمارُ ، يَحُجُّون البيتَ العتيقَ » . ⁽⁴⁾فيه غرابةٌ⁽⁴⁾ .

(١ - ١) فى م : « حجه » .

(٢) لم نجده فى مسند أبى يعلى . وقال الهيثمى : رواه أحمد ، وفيه زمعة بن صالح وفيه كلام وقد وثق . المجمع ٢٢٠/٣ . وهو فى مسند أحمد ٢٣٢/١ ، من طريق وكيع بن الجراح به . وفيه : « هود وصالح » بدلا من : « نوح وهود وإبراهيم » . وسيأتى ص ٣٢٠ .

(٣) فى م : « ابن أبى » .

(٤ - ٤) فى الأصل : « هذا حديث غريب » .

ذكرُ[1] وصيَّتِه لولدِه، عليه الصلاةُ والسلامُ

قال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا سليمانُ بنُ حربٍ ، حدثنا حمَّادُ بنُ زيدٍ ، عن الصَّقْعَبِ بنِ زُهَيرٍ ، عن زيدِ بنِ أسلمَ ، قال حمادٌ : أظنُّه عن عطاءِ بنِ يَسارٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو ، قال : كُنا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ ، فجاء رجلٌ مِن أهلِ الباديةِ ، عليه جُبَّةُ سِيجانَ مَزْرورَةٌ بالدِّيباجِ ، فقال : ألَا إنَّ صاحِبَكُم هذا قد وضَع كُلَّ فارِسٍ ابنِ فارِسٍ - [3]أو قال[3] : يُريدُ أنْ يضعَ كُلَّ فارِسٍ بنِ فارِسٍ - ورَفَعَ كلَّ راعٍ ابنِ راعٍ » . قال : فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بمَجامِعِ جُبَّتِه ، وقال : « ألَا[4] أرَى عليك لباسَ مَن لا يَعْقِلُ » . ثم قال : « إنَّ نَبِيَّ اللهِ نوحًا ، عليه السلامُ ، لمَّا حضرتْه الوفاةُ ، قال لابنِه : إنِّى قاصٌّ عليكَ الوصيَّةَ ، آمُرُكَ باثْنتين ، وأَنْهاكَ عن اثْنتَيْن ؛ آمُرُكَ بلا إلهَ إلا اللهُ ؛ فإنَّ السَّمٰواتِ السَّبْعَ ، والأَرَضِينَ السَّبْعَ لو وُضِعتْ فى كِفَّةٍ ، ووُضِعَتْ لا إلهَ إلَّا اللهُ فى كِفَّةٍ ، رجحَتْ بِهِنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ ، ولو أَنَّ السَّمٰواتِ السَّبْعَ ، والأَرَضينَ السَّبعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمةً ، قصَمَتْهُنَّ[5] لا إلهَ إلَّا اللهُ، وسبحانَ اللهِ وبحمدِه ، فإنَّها[6] صلاةُ[7] كلِّ شيءٍ ، وبها يُرزَقُ الخَلْقُ ، وأَنْهاكَ عن الشِّرْكِ

---

(1) سقط من : م .
(2) مسند أحمد ٢/١٦٩ ، ١٧٠ ، (صحيح) .
(٣ - ٣) فى المسند « قال » .
(4) فى م ، ا : « لا » ، وفى ص : « أن » .
(5) فى ح : « فصمتهن » . وفى م ، ص : « فضمتهن » .
(6) فى م ، ص : « فإن بها » .
(7) فى م : « صلات » .

والكِبْرِ » . قال : قلتُ – أو : قيل – : يا رسولَ اللهِ ، هذا الشِّرْكُ قد عرَفناه ، فما الكِبْرُ ؟ قال[1] : أنْ يكونَ لأحدِنا نَعلان حَسَنَتانِ لهما شِراكانِ حَسَنانِ ؟ قال : « لا » . قال : هو أنْ يكونَ لأحدِنا حُلَّةٌ يلبَسُها ؟ قال : « لا » . قال : هو أنْ يكونَ لأحدِنا دابَّةٌ يركَبُها ؟ قال : « لا » . قال : أفهو أنْ يكونَ لأحدِنا أصحابٌ يجلِسونَ [٧٣/١و] إليه ؟ قال : « لا »[2] . قيلَ : يا رسولَ اللهِ ، فما الكِبْرُ ؟ قال : « سَفَهُ الحقِّ وغَمْصُ[3] النَّاسِ » . وهذا إسنادٌ صحيحٌ ولم يخرجوه . ورواه أبو القاسمِ الطَّبرانيُّ[4] مِن حديثِ عبدِ الرَّحيمِ بنِ سليمانَ ، عن محمدِ بنِ إسحٰقَ ، عن عمرٍو[5] بنِ دينارٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، قال : « كان في وَصِيَّةِ نوحٍ لابْنِه : أُوصِيكَ بخَصْلَتَيْنِ ، وأنْهاكَ عَن خَصْلتَيْنِ » . فذكَر نحوَه . وقد رواه أبو بكرٍ البَزَّارُ[6] عن إبراهيمَ بنِ سعيدٍ ، عن أبي معاويَةَ الضريرِ ، عن محمدِ بنِ إسحٰقَ ، عن عمرِو بنِ دينارٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، عن النبيِّ ﷺ بنحوِه . والظَّاهِرُ أنَّه عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ ، كما رواه أحمدُ والطَّبرانيُّ . واللهُ أعلمُ .

ويزعمُ أهلُ الكتابِ أنَّ نوحًا عليه السلامُ لَمَّا رَكِبَ السَّفينةَ ، كان عمرُه ستَّمائةِ[7] سنةٍ . وقدمنا عن ابنِ عباسٍ مثلَه ، وزاد : وعاش بعدَ ذلك

---

(١) زيادة من : المسند .

(٢) بعدها في الأصل ، ا : « قال : قلت : أو » وفي ح ، م ، ص : « قلت : أو » .

(٣) في الأصل ، م ، ص : « غمض » . وفي ح : « عمض » .

(٤) وذكره في مجمع الزوائد ٢٢٠/٤ وقال : رواه كله أحمد ، ورواه الطبراني بنحوه ... ورجال أحمد ثقات .

(٥) في ص : « عبد الله » .

(٦) كشف الأستار (٣٠٦٩) وقال البزار : لا نعلم أحدًا رواه عن عمرو عن ابن عمر إلا ابن إسحاق ، ولا نعلم حدث به عن أبي معاوية إلا إبراهيم بن سعد . وقال الهيثمي : فيه محمد بن إسحاق وهو ثقة وبقية رجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٨٤/١٠ .

(٧) في ص : « سبعمائة » . والمثبت هو الموافق لما في سفر التكوين الأصحاح ٦/٧ .

ثَلثْمائةٍ وخمسين سنةً[1] . وفى هذا القولِ نَظَرٌ . ثم إنْ لم يُمْكنِ الجمعُ بينه وبينَ دلالةِ القرآنِ ، فهو خطأٌ مَحْضٌ ؛ فإنَّ القرآنَ يقتضِى أنَّ نوحًا مكَث فى قومِه بعدَ البَعْثَةِ وقبلَ الطوفانِ ألفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] . ثم اللهُ أعْلمُ كم عاشَ بعدَ ذلك ، فإنْ كان ما ذُكِرَ عن ابنِ عباسٍ محفوظًا ؛ من أنه بُعِث وله أربعُمائةٍ سنةٍ وثمانون سنةً ، وأنه عاشَ بعدَ الطوفانِ ثلاثَمائةٍ وخمسين سنةً ، فيكونُ قد عاش على هذا ألفَ سنةٍ وسبعَمائةٍ وثمانين سنةً .

وأما قَبْرُه ، عليه السلامُ ، فروَى ابنُ جريرٍ والأَزْرَقىُّ[2] ، عن عبدِ الرحمنِ ابنِ سابِطٍ ، أو غيرِه مِنَ التابعين مُرْسَلًا أنَّ قبرَ نوحٍ عليه السلامُ بالمسجدِ الحرامِ . وهذا أقوَى وأثْبتُ من الذى يذكُرُه كثيرٌ مِن المتأخرين من أنه ببلدةٍ بالبقاعِ ، تُعرَفُ اليومَ بكَرْكِ نوحٍ ، وهناك جامِعٌ قد بُنِىَ بسببِ ذلك ، [3]وأُوقِفت عليه أوقافٌ[3] فيما ذُكِرَ . واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) لم نجده فيهما .

(٣ - ٣) زيادة من : ا .

قصَّةُ هودٍ علَيه السلَامُ

وهو هودُ بنُ شَالَخَ بنِ أَرْفَخْشَدَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السَّلامُ . ويُقالُ : إنَّ هودًا هو عابرُ بنُ شالَخَ بنِ[1] سامِ بنِ نوحٍ . ويُقالُ : هودُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ رباحِ بنِ الجارودِ[2] بنِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السَّلامُ . [3]ذكره ابنُ جَريرٍ[3] . وكانوا عربًا يسكنون الأَحقافَ ؛ وهى جبالُ الرَّمْلِ ، وكانت باليمنِ مِن عُمانَ وحَضْرَمَوْتَ ، بأرضٍ مُطِلَّةٍ على البحرِ ؛ يُقالُ لها : الشِّحْرُ . واسمُ واديهم مُغِيثٌ . وكانوا كثيرًا ما يسكُنون الخِيامَ ذواتِ الأعمدةِ الضِّخامِ ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] . أى ؛ عادُ إرَمَ . وهم عادٌ الأُولَى ، وأما عادٌ الثانيةُ [١/٧٣ظ] فمتأخِّرةٌ ، كما سيأتى بيانُ ذلك فى موضعِه . وأما عادٌ الأُولَى فهم عادُ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر ٧ ، ٨] . أى ؛ مِثلُ القبيلةِ . وقيل : مِثْلُ العُمُدِ . والصحيحُ الأولُ ، كما بيّناه فى « التفسيرِ »[4] . ومَن زعَم أن إرَمَ مدينةٌ تدورُ فى الأرضِ ، فتارةً فى الشَّامِ ، وتارةً فى اليمنِ ، وتارةً فى الحجازِ ، وتارةً فى غيرِها ، فقد أَبْعَد النُّجْعَةَ ، وقال ما لا دليلَ عليه ، ولا برهانَ يُعَوِّلُ علَيه ، ولا مُسْتَنَدَ يركَنُ

---

(١) بعدها فى ح ، م : « أرفخشذ بن » .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « الخلود » .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل . وهو فى تاريخه ١/٢١٦ .

(٤) التفسير ٨/٤١٧ .

إليه . وفى « صَحيحِ ابنِ حِبَّانَ »[1] ، عن أبى ذرٍّ ، فى حديثِه الطويلِ فى ذكرِ الأنبياءِ والمرسَلين ، قال فيه : « منهم أربعةٌ من العربِ ؛ هودٌ وصالحٌ وشُعَيْبٌ ، ونَبيُّك يا أبا ذرٍّ » . ويُقالُ : إن هودًا ، عليه السَّلامُ ، أولُ مَن تكلَّم بالعربيةِ . وزعَم وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ أن أباه أوَّلُ مَن تكلم بها . وقال غيرُه : أولُ مَن تكلم بها نوحٌ . وقيل : آدمُ . وهو الأشبهُ . وقيل غيرُ ذلك . واللهُ أعلمُ . ويُقالُ للعربِ الذين كانوا قبلَ إسماعيلَ عليه السلامُ : العربُ العاربةُ . وهم قبائلُ كثيرةٌ ؛ منهم عادٌ ، وثمودُ ، وجُرْهُمٌ ، وطَسْمٌ ، وجَدِيسٌ ، وأميمٌ ، ومَدْينُ ، وعِمْلاقٌ ، وعَبِيلٌ ، وجاسِمٌ ، وقَحْطانُ ، وبنو يَقْطُنَ ، وغيرُهم . وأما العربُ المُسْتَعرِبةُ ، فهم مِن ولدِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ ، وكان إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ ، عليهما السلامُ ، أولَ من تكلَّمَ بالعربيةِ الفصيحةِ البليغةِ[2] ، وكان قد أخَذ كلامَ العربِ مِن جُرْهُمٍ ، الذين نزلوا عندَ أمِّه هاجَرَ بالحَرَمِ ، كما سيأتى بيانُه فى موضعِه إن شاء اللهُ تعالى ، ولكن أنطقَه اللهُ بها فى غايةِ الفصاحةِ والبيانِ ، وكذلك كان يتلفظُ بها رسولُ اللهِ ﷺ .

والمقصودُ أن عادًا ، وهم عادٌ الأُولَى ، كانوا أولَ مَن عبَد الأصنامَ بعدَ الطوفانِ ، وكان أصنامُهم ثلاثةً ؛ [3]صدٌّ وصمودٌ وهرا[3] ، فبعَث اللهُ فيهم أخاهم هُودًا ، عليه السلامُ ، فدعاهم إلى اللهِ ، كما قال تعالى بعدَ ذِكْرِ قومِ نوحٍ وما كان مِن أمرِهم فى سورةِ « الأعراف »[4] : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ

---

(١) الإحسان (٣٦١) ، ضعيف جدا .

(٢) انظر فيض القدير (٢٨٣٧) . (صحيح الجامع ٢٥٧٨) .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « صداء ، وصمود ، وهباء » .

(٤) التفسير ٤٢٩/٣ .

كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ [١/٧٤و] سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٥ – ٧٢] . وقال تعالى بعدَ ذِكر قصةِ نوحٍ فى سورةِ « هود »[1] : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ * قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

---

(١) التفسير ٤/٢٦١ .

هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : ٥٠ - ٦٠] . وقال تعالى فى سورةِ « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ »[1] بعدَ قصةِ قومِ نوحٍ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١ - ٤١] . وقال تعالى فى سورةِ « الشعراء »[2] بعدَ قصةِ قومِ نوحٍ أيضًا : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ [١/٧٤ظ] وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّىٓ

---

(١) التفسير ٥/٤٦٧ .

(٢) التفسير ٦/١٦٢ .

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٢٣ - ١٤٠] . وقال تعالى فى سورةِ « حمٓ السَّجدة »(١) : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت : ١٥ ، ١٦] . وقال تعالى فى سورةِ « الأحقاف »(٢) : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢١ - ٢٥] . وقال تعالى فى « الذاريات »(٣) : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤١ ، ٤٢] . وقال تعالى فى « النجم »(٤) : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ

---

(١) التفسير ٧/١٥٧ .

(٢) التفسير ٧/٢٦٨ .

(٣) التفسير ٧/٣٩٩ .

(٤) التفسير ٧/٤٤١ .

فَغَشَّـٰهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم : ٥٠ – ٥٥] . وقال تعالى فى سورةِ « اقتربت »(١) : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٨ – ٢٢] . وقال فى « الحاقة »(٢) : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦ – ٨] . وقال فى سورةِ « الفجر »(٣) : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ٦ – ١٤] .

وقد تكلَّمنا على كلٍّ مِن هذه القصصِ فى أماكنِها مِن كتابنا « التفسيرِ » ولله الحمدُ والمِنَّةُ . وقد جرَى ذكرُ عادٍ فى سورةِ « براءة » ، و « إبراهيم » ، و « الفُرْقان » ، [١/٧٥و] و « العنكبوت » ، وفى سورةِ « ص » ، وفى سورة « ق » . ولنذكرْ مضمونَ القصةِ مجموعًا مِن هذه السِّياقاتِ ، مع ما يُضافُ إلى ذلك من الأخبارِ . وقد قدمنا أنهم أولُ الأممِ عبدوا الأصنامَ بعد الطُّوفانِ ، وذلك بَيِّنٌ فى قولِه لهم : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف : ٦٩] . أى ؛ جعلَهم أشدَّ أهلِ زمانِهم فى الخِلْقةِ والشِّدَّةِ والبَطْشِ . وقال فى « المؤمنون » : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ

---

(١) التفسير ٧/٤٥٤ .

(٢) التفسير ٨/٢٣٥ .

(٣) التفسير ٨/٤١٣ .

قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] . وهم قومُ هودٍ على الصَّحيحِ ، وزعَم آخرون أنهم ثمودُ ؛ لقولِه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ﴾ [المؤمنون : ٤١] . قالوا : وقَوْمُ صالحٍ هم الذين هلكوا بالصيحةِ ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦] . وهذا الذى قالوه لا يمنعُ من اجتماعِ الصيحةِ والريحِ العاتيةِ عليهم ، كما سيأتى فى قصةِ أهلِ مَدْيَنَ أصحابِ الأيْكَةِ ، فإنه اجتمع عليهم أنواعٌ مِن العُقوباتِ ، ثم لا خلَافَ أن عادًا قبلَ ثمودَ .

والمقصودُ أن عادًا كانوا عَرَبًا جُفاةً كافرين ، عُتاةً متمردين فى عبادةِ الأصنامِ ، فأرسل اللهُ فيهم رجلًا منهم يدعوهم إلى اللهِ وإلى إفرادِه بالعبادةِ والإخلاصِ له ، فكذبوه وخالفوه وتَنقَّصوه ، فأَخذهم اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ ، فلمّا أمرَهم بعبادةِ اللهِ ، ورغّبَهم فى طاعتِه واستغفارِه ، ووعدَهم على ذلك خيرَ الدُّنيا والآخرةِ ، وتوعَّدهم على مخالفةِ ذلك عقوبةَ الدُّنيا والآخرةِ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف : ٦٦] . أى ؛ هذا الأمرُ الذى تدعونا إليه سَفَهٌ بالنسبةِ إلى ما نحن عليه من عبادةِ هذه الأصنامِ ، التى يُرتَجَى منها النصرُ والرزقُ ، ومع هذا نظنُّ أنك تكذبُ فى دعواك أن اللهَ أرسلك ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٧] . أى ؛ ليس الأمرُ كما تظنون ولا ما تعتقدون . ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] . والبلاغُ يستلزمُ عدمَ الكذبِ فى أصلِ المُبلَّغِ ، وعدمَ الزيادةِ فيه والنقصِ منه ، ويستلزمُ إبلاغَه بعبارةٍ فصيحةٍ وجيزةٍ ، جامعةٍ مانعةٍ ، لا لَبْسَ فيها ولا اختلافَ ولا اضطرابَ ، وهو مع هذا البلاغِ على هذه الصفةِ فى غايةِ النُّصحِ لقومِه والشفقَةِ عليهم والحرصِ على هدايتِهم ، لايبتغِى منهم أجرًا ولا يَطلبُ منهم جُعْلًا ، بل

هو مخلِصٌ للهِ عزّ وجلّ فى الدعوةِ إليه والنُّصحِ لخَلْقِه ، لا يطلبُ أجرَه إلا مِن الذى أرسلَه ، فإنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ كلَّه فى يدَيْه ، وأمْرَه إليه ؛ ولهذا قَالَ : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود : ٥١] . أى ؛ ما لكم عقلٌ تميزون به [١/٧٥ظ] وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحقِّ المبينِ ، الذى تشهدُ به فِطَرُكم التى خُلِقْتُم عليها ، وهو دينُ الحقِّ الذى بعَث اللهُ به نوحًا ، وأهلك مَن خالفَه مِن الخلقِ ، وها أنا أدعوكم إليه ، ولا أسأَلُكم أجرًا عليه ، بل أبتغِى ذلك عندَ اللهِ ، مالِكِ الضُّرِّ والنَّفعِ ؛ ولهذا قال مؤمنُ « يٓس » : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يٓس : ٢١ ، ٢٢] . وقال قومُ هودٍ له فيما قالوا : ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود : ٥٣] . يقولون : ما جئتَنا بخارقٍ يشهدُ لك بصدقِ ما جئتَ به ، وما نحن بالذين نتركُ عبادةَ أصنامِنا عن مجرَّدِ قولِك ، بلا دليلٍ أقمتَه ، ولا برهانٍ نَصَبتَه ، وما نظنُّ إلا أنك مجنونٌ فيما تزعُمُه ، وعندَنا ، أنما أصابَك هذا أن بعضَ آلهتِنا غَضِبَ عليك ، فأصابَك فى عقلِك ، فاعتراك جنونٌ بسببِ ذلك . وهو قولُهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود : ٥٤ ، ٥٥] . وهذا تحدٍّ منه لهم وتبرُّؤٌ[١] من آلهتِهم ، وتنقُّصٌ منه لها ، وبيانٌ أنها لا تنفعُ شيئًا ولا تضرُّ ، وأنّها جمادٌ ، حُكمُها حكمُه وفعلُها فعلُه ، فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصرُ وتنفعُ وتضرُّ ، فها أنا برىءٌ منها ، لاعِنٌ لها ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أنتم وهى[٢] جميعًا ، بجميعِ ما يمكنُكم أن تصِلوا

---

(١) فى الأصل : « تبرى » .

(٢) سقط من : ١ ، م .

إليه ، وتقدِروا عليه ، ولا تؤخّرونى ساعةً واحدةً ولا طَرْفَةَ عينٍ ، فإنى لا أبالى بكم ، ولا أفكّرُ فيكم ، ولا أنظرُ إليكم ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] أى ؛ أنا متوكلٌ على اللهِ ، ومتأيِّدٌ به ، وواثِقٌ بجَنابه الذى لا يُضيعُ مَن لاذَ به ، واستنَد إليه ، فلستُ أبالى مخلوقًا سواه ، ولستُ أتوكلُ إلا عليه ، ولا أعبدُ إلَّا إياه . وهذا وحدَه برهانٌ قاطعٌ على أنَّ هودًا عبدُ اللهِ ورسولُه ، وأنهم على جهلٍ وضلالٍ فى عبادتِهم غيرَ اللهِ ؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوءٍ ، ولا نالوا منه مكروهًا ، فدلَّ على صِدْقِه فيما جاءهم به ، وبُطلانِ ما هم عليه ، وفسادِ ما ذهبوا إليه . وهذا الدليلُ بعينِه قد استدلَّ به نوحٌ ، عليه السَّلامُ ، قبلَه فى قولِه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] . وهكذا قال الخليلُ عليه السلامُ : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ＊ [٧٦/١و] وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ＊ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ＊ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٣] . ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ＊ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ＊ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾

[المؤمنون : ٣٣ - ٣٥] . استبعدوا أن يبعثَ اللهُ رسولًا بشريًّا ، وهذه الشُّبْهةُ أَدْلَى بها كثيرٌ مِن جهلَةِ الكفرَةِ قديمًا وحديثًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس : ٢] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤ ، ٩٥] . ولهذا قال لهم هودٌ عليه السلامُ : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ . أى ؛ ليس هذا بعجيبٍ ؛ فإنَّ اللهَ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه . وقولُه : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٥ - ٣٩] . استبعَدوا المعادَ ، وأنكروا قيامَ الأجسادِ بعدَ صَيْرورتِها ترابًا وعظامًا ، وقالوا : هيهاتَ هَيْهاتَ . أى ؛ بعيدٌ بعيدٌ هذا الوعدُ ، ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . أى ؛ يموتُ قومٌ ويَحْيَا آخرون . وهذا هو اعتقادُ الدَّهْرِيّةِ ، كما يقولُ بعضُ الجهلةِ مِن الزَّنادقةِ : أرحامٌ تَدْفَعُ ، وأرضٌ تَبْلَعُ . وأمّا الدَّوريةُ ، فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدارِ بعدَ كلِّ ستةٍ وثلاثين ألفَ سنةٍ . وهذا كلُّه كَذِبٌ وكفرٌ وجهلٌ وضلالٌ ، وأقوالٌ باطلةٌ ، وخيالٌ فاسِدٌ بلا برهانٍ ولا دليلٍ ، يستميلُ عقلَ الفجرةِ الكفرةِ مِن بنى آدمَ ، الذين لا يعقلون ولا يهتدون ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٣]. وقال لهم فيما وعظَهم به : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ . يقولُ لهم : أَتَبْنُون بكلِّ مكانٍ مرتفعٍ بناءً عظيمًا هائلًا ، كالقصورِ ونحوِها ،

تعبثون ببنائِها ؛ لأنَّه لا حاجةَ لكم فيه . وما ذاك إلا لأنّهم كانوا يسكنون الخيامَ ؛ [٧٦/١ظ] كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ فعادُ إرَمَ هم عادٌ الأُولَى ، الذين كانوا يسكُنون الأعمدةَ التى تحمِلُ الخيامَ . ومن زعَم أن إرَمَ مدينةٌ من ذهبٍ وفضةٍ ، وهى تنتقلُ فى البلادِ ، فقد غَلَط وأخطأ ، وقال ما لا دليلَ عليه .

وقولُه : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ قيل : هى القصورُ . وقيل : بروجُ الحمامِ . وقيل : مآخِذُ الماءِ . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أى ؛ رجاءً منكم أن تُعمَّروا فى هذه الدارِ أعمارًا طويلةً . ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقالوا له فيما قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ . أى ؛ أجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ، ونخالِفَ آباءَنا وأسلافَنا وما كانوا عليه ؟ فإنْ كنتَ صادقًا فيما جئتَ به ، فأتِنا بما تعِدُنا مِن العذابِ والنَّكالِ ، فإنَّا لا نؤمنُ بك ولا نتَّبِعُك ولا نصدقُك . كما قالوا : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أمَّا على قراءةِ فَتْحِ الخاءِ ، فالمرادُ به اختلاقُ الأولين ، أى ؛ إنْ هذا الذى جئتَ به إلا اختلاقٌ منك ، وأخذتَه مِن كتبِ الأولين[1] . هكذا فسَّره غيرُ واحدٍ مِن الصحابةِ والتابعين . وأمَّا على قراءةِ ضمِّ الخاءِ واللامِ ، فالمرادُ به الدِّينُ . أى ؛ إنْ هذا الدينُ الذى نحن عليه إلا دينُ الآباءِ والأجدادِ مِن أسلافِنا ، ولن نتحولَ عنه ، ولا نتغيرُ ، ولا نزالُ متمسِّكين به . ويناسبُ كلا القراءتين ؛ الأولى والثانيةِ ، قولُهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قال : ﴿ قَدْ

---

(١) تفسير الطبرى ٩٧/١٩ .

وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

أى ؛ قد استحَقَّيْتُم بهذه المقالةِ الرِّجسَ والغضبَ من اللهِ ، أتعارضون عبادةَ اللهِ وحدَه لا شريكَ له بعبادةِ أصنامٍ أنتم نحتُّموها ، وسمَّيْتُموها آلهةً من تِلْقاءِ أنفسِكم ، اصطَلَحْتم عليها أنتم وآباؤُكم ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾أى؛ لم يُنَزِّلْ على ما ذهبتم إليه دليلًا ولا برهانًا ، وإذا أبيتُم قَبولَ الحقِّ ، وتماديتُم فى[1] الباطلِ ، وسواءٌ عليكم أنهيْتُكم عمّا أنتم فيه أم لا ، فانتظروا الآن عذابَ اللهِ الواقعَ بكم ، وبأسَه الذى لا يُرَدُّ ونكالَه الذى لا يُصَدُّ . وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٧٧/١و] وقال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وقد ذكَر اللهُ تعالى خبرَ إهلاكِهم فى غيرِ ما آيةٍ ، كما تقدم مُجمَلًا ومُفصَّلًا ؛ كقولِه : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وكقولِه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ وكقولِه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ

---

(١) فى الأصل : « على » .

غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وقالَ تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وأما تفصيلُ إهلاكِهم ، فلمّا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كان هذا أولَ ما ابتدأهم العذابُ ؛ أنَّهم كانوا مُمْحِلين مُسْنِتِين ، فطلبوا السُّقْيا[1] ، فرأَوا عارضًا فى السماءِ وظنُّوه سُقْيا رحمةٍ ، فإذا هو سُقْيا عذابٍ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ . أى ؛ من وُقوعِ العذابِ . وهو قولُهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ومِثْلُها فى « الأعراف » .

وقد ذكَر المفسرون وغيرُهم هـٰهنا الخبرَ الذى ذكَره الإمامُ محمدُ بنُ إسحقَ بنِ يَسارٍ[2] ، قال : فلمّا أَبَوْا إلا الكفرَ باللهِ عزّ وجلّ ، أمسَك عنهم المطرَ ثلاثَ سنين ، حتى جَهَدهم ذلك . قال : وكان الناسُ إذا جَهَدهم أمرٌ فى ذلك الزمانِ ، فطلبوا مِن اللهِ الفرجَ منه ، إنما يطلبونه بحَرَمِه ومكانِ بيتِه ، وكان معروفًا عندَ أهلِ ذلك الزمانِ ، وبه العَماليقُ مقيمون ، وهم مِن سُلالةِ عِمْليقِ بنِ لاوَذَ بنِ سامِ ابنِ نوحٍ ، وكان سيِّدُهم إذْ ذاك رجلًا يُقالُ له : مُعاويةُ بنُ بَكْرٍ . وكانت أمُّه مِن قومِ عادٍ ، واسمُها : جلهدةُ[3] ابنةُ الخَيْبَرِىِّ . قال : فبعَث عادٌ وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا ليستقُوا لهم عندَ الحرمِ ، فمرُّوا بمعاويةَ بنِ بكرٍ بظاهرِ مكةَ ، فنزلوا عليه فأقاموا عندَه شهرًا يشربون الخمرَ ، تُغنِّيهم الجَرَداتان – قَيْنتان لمعاويةَ – وكانوا قد وصلوا إليه فى شهرٍ ، فلما طال [٧٧/١ظ] مُقامُهم عندَه ، وأخذته شفقةٌ

---

(١) سقط من : ص .

(٢) فى م ، ص : « بشار » .

(٣) فى تاريخ الطبرى ٢١٩/١ : « كلهدة » .

على قومِه ، واستحيَى منهم أن يأمرَهم بالانصرافِ ، عَمِل شعرًا يُعَرِّضُ[1] لهم بالانصرافِ ، وأمر القَيْنَتَيْن أن تُغنِّياهم به ، فقال :

ألا يا قَيْلُ ويْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ لعلَّ اللهَ يُصبحُنا[2] غمامَا
فيَسقِي أرضَ عادٍ إنّ عادًا قدَ امْسَوْا لا يُبِينون الكلامَا
مِن العطشِ الشديدِ فليس نرجو به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلامَا
وقد كانت نساؤُهُم بخيرٍ فقد أمستْ نساؤُهُم عَيَامَا[3]
وإنّ الوَحشَ يأتيهم جِهارًا ولا يخشَى لعاديٍّ سِهامَا
وأنتمْ هٰهنا فيما اشتهَيتم نهارَكُمُ وليلَكُمُ التَّمامَا[4]
فقُبِّحَ وفدُكم مِن وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التَّحيَّةَ والسَّلامَا

قال : فعندَ ذلك تنبَّه القومُ لِما جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرمِ ، ودعَوْا لقومِهم ، فدعا داعِيهم ، وهو قَيْلُ بنُ عِتْرٍ ، فأنشأ اللهُ سحاباتٍ ثلاثًا ؛ بيضاءَ وحمراءَ وسوداءَ ، ثم ناداه منادٍ مِن السماءِ : اختَرْ لنفسِك ولقومِك من هذا السحابِ . فقال : اخترتُ السحابةَ السوداءَ ؛ فإنها أكثرُ السحابِ ماءً . فناداه منادٍ[5] : اخترتَ رَمادًا رِمْدَدًا ، لا تُبْقِي مِن عادٍ أحدًا ، لا والدًا تَترُكُ ولا ولدًا ، إلا جعلتْه هَمِدًا ، إلَّا بنِي اللَّوْذيَّةِ المُهْدَا[6] . قال : وهو بطْنٌ مِن عادٍ كانوا مقيمين بمكةَ ، فلم يُصِبْهم ما أصاب قومَهم . قال : ومَن بَقِيَ مِن أنسابِهم

---

(1) فى ح : « فعرض » ، وفى م : « فيعرض » .
(2) فى الطبرى : « يسقينا » .
(3) فى م : « أياما » وفى ا : « عياسا » .
وعَيَامًا ؛ جمع : عَيْمَى . وهى المرأة التى مات زوجها ولا مال لها . اللسان (ع ى م) .
(4) فى م : « تماما » .
(5) سقط من : م .
(6) فى م : « الهمدا » .

وأعقابِهم هم عادٌ الآخِرةُ . قال : وساق اللهُ السحابةَ السوداءَ التى اختارها قَيْلُ بنُ عِتْرٍ ، بما فيها من النقمةِ إلى عادٍ ، حتى تخرجَ عليهم مِن وادٍ يقالُ له : المُغيثُ . فلما رأَوْها استبشروا ، وقالوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا . فيقولُ تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ . أى ؛ كلَّ شيءٍ أُمِرتْ به . فكان أوّلُ مَن أبصرَ ما فيها وعرَف أنها ريحٌ فيما يذكرون ، امرأةً مِن عادٍ يقالُ لها : مهدُ[1] . فلما تبينتْ ما فيها صاحتْ ثم صَعِقَتْ ، فلمَّا أفاقت قالوا : ما رأيتِ يا مهدُ[1] ؟ قالت : رأيتُ ريحًا فيها كشُهبِ النارِ ، أمامَها رجالٌ يقودونها . فسخرها اللهُ عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ والحُسُومُ : الدائمةُ . فلم تدعْ مِن عادٍ أحدًا إلا هلَك . قال : واعتزَل هودٌ ، عليه السلامُ ، فيما ذُكِر لى ، فى حظيرةٍ هو ومَن معه مِن المؤمنين ، ما يُصيبُهم إلَّا ما يُلينُ عليهم الجلودَ ، وتَلْتَذُّ الأنفسُ ، وإنها لَتمُرُّ على عادٍ بالظَّعنِ فيما [١/٧٨و] بينَ السماءِ والأرضِ ، وتَدْمَغُهم بالحجارةِ . وذكَر تمامَ القصةِ[2] .

وقد روَى الإمامُ أحمدُ حديثًا فى « مُسنَدِه »[3] ، يشبهُ هذه القصةَ ، فقال : حدثنا زيدُ بنُ الحُبابِ ، حدثنى أبو المنذرِ سلَّامُ بنُ سليمانَ النَّحْوىُّ، حدثنا عاصمُ بنُ أبى النَّجُودِ ، عن أبى وائلٍ ، عن الحارثِ ، وهو ابنُ حَسَّانَ ، ويقالُ : ابنُ يزيدَ البَكْرىُّ . قال : خرجْتُ أشكو العلاءَ بنَ الحَضْرَمِىِّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فمررتُ بالرَّبذَةِ ، فإذا عجوزٌ مِن بنى تميمٍ مُنْقَطِعٌ بها ، فقالت لى : يا عبدَ اللهِ ، إن لى إلى رسولِ اللهِ ﷺ حاجةً ، فهل أنت مُبلِّغِى إليه ؟

---

(١) فى م : « فهد » . وفى الطبرى : « مهدد » .

(٢) الخبر فى تفسير الطبرى ٢١٧/٨ - ٢٢٠ ، وتاريخه ٢١٩/١ - ٢٢٤ .

(٣) المسند ٤٨٢/٣ .

قال : فحملتُها[1] ، فأتيتُ المدينةَ ، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهلِه ، وإذا [2]رايةٌ سوداءُ تَخفِقُ ، و[2] بلالٌ متقلِّدٌ السيفَ بينَ يَدَىْ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقلتُ : ما شأنُ الناسِ ؟ قالوا : يريدُ أَنْ يبعثَ عمرَو بنَ العاصِ وَجْهًا . قال : فجلستُ . قال : فدخل منزِلَه - أو قال : رَحْلَه - فاستأذنتُ عليه فأَذِنَ لى ، فدخلتُ فسلَّمتُ ، فقال : « هل كان بينَكم وبينَ بنى تَميمٍ شىءٌ ؟ » . فقلتُ : نعم . قال : وكانت لنا الدَّبْرَةُ[3] عليهم ، ومررتُ بعجوزٍ من بنى تميمٍ مُنْقطِعٍ بها ، فسألتْنى أن أحمِلَها إليك ، وها هى بالبابِ . فأَذِنَ لها فدخلتْ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، إنْ رأيتَ أَنْ تجعلَ بينَنا وبينَ بنى تميمٍ حاجزًا ، فاجعلِ الدَّهْناءَ[4] . فحَمِيتِ العجوزُ واستوفزَتْ ، قالت : يا رسولَ اللهِ ، فإلى أين تَضْطَرُّ مُضَرَكَ ؟ قال : قلتُ : إن مِثْلى ما قال الأولُ : مِعْزًى حملتْ حتْفَها . حملتُ هذه ولا أشعرُ أنَّها كانت لى خَصْمًا ، أعوذُ باللهِ ورسولِه أن أكونَ كوافِدِ عادٍ ، قال : « هِيه ، وما وافدُ عادٍ ؟ » . وهو أعلمُ بالحديثِ منه ، ولكن يَستطعمُه ، قلتُ : إن عادًا قَحَطوا ، فبعثُوا وافدًا لهم يقالُ له : قَيْلٌ . فمرَّ بمُعاويةَ بنِ بكرٍ ، فأقام عندَه شهرًا يسقيه الخمرَ ، وتُغنِّيه جاريتان يُقالُ لهما : الجَرادَتان . فلمَّا مضَى الشهرُ خرَج إلى جبالِ تِهامَةَ فنادَى : اللهم إنَّك تعلمُ أنى لم أجِئْ إلى مريضٍ فأداويَه ، ولا إلى أسيرٍ فأُفادِيَه ، اللهمَّ اسقِ عادًا ما كنتَ تسقيه . فمرت به سحاباتٌ سودٌ ، فنودِىَ منها : اخترْ . فأَوْمَأَ إلى سحابةٍ منها سوداءَ ، فنُودِىَ منها : خُذْها رمادًا رِمْدَدًا ، لا تُبْقِى مِن عادٍ

---

(١) فى ح : « فحملها » .

(٢ - ٢) سقط من : ح .

(٣) فى الأصل ، ح : « الدائرة » . وهما بمعنى واحد .

(٤) بعدها فى الأصل ، م : « فإنها كانت لنا . قال » .

أحدًا . قال : فما بلغنى أنه بُعِث عليهم من الريحِ إلا كقَدْرِ ما يجرِى فى خاتَمِى هذا من الريحِ ، حتى هلكوا . قال أبو وائلٍ ، وصدَق : وكانت المرأةُ والرجلُ إذا بعثوا وفدًا لهم ، قالوا : لا تكنْ كوافدِ عادٍ . وهكذا رواه التِّرمِذِىُّ عن عبدِ بنِ حُمَيْدٍ ، عن زيدِ بنِ الحُبابِ به . ورواه النَّسائىُّ مِن حديثِ سلَّامٍ أبى المنذرِ ، عن عاصمِ بنِ بَهْدَلَةَ . ومن [١/٧٨ظ] طريقِه رواه ابنُ ماجَهْ[1] . وهكذا أورد هذا الحديثَ وهذه القصةَ عندَ تفسيرِ هذه القصةِ غيرُ واحدٍ مِن المفسرين كابنِ جَريرٍ[2] وغيرِه .

وقد يكونُ هذا السياقُ لإهلاكِ عادٍ الآخِرةِ ؛ فإن فيما ذكَره ابنُ إسحاقَ وغيرُه ذكْرًا لمكةَ ، ولم تُبْنَ إلا بعدَ إبراهيمَ الخليلِ ، حينَ أسكَن فيها هاجَرَ وابنَه إسماعيلَ ، فنزلتْ جُرْهُمٌ عندَهم ، كما سيأتى ، وعادٌ الأولى قبلَ الخليلِ . وفيه ذكْرُ معاويةَ بنِ بكرٍ وشعرِه ، وهو من الشعرِ المتأخرِ عن زمانِ عادٍ الأولى ، لا يُشْبهُ كلامَ المتقدمين. وفيه أن فى تلك السَّحابةِ شرَرَ نارٍ ، وعادٌ الأولى إنَّما أُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ . وقد قال ابنُ مسعودٍ ، وابنُ عباسٍ ، وغيرُ واحدٍ مِن أئمةِ التابعين[3] : هى الباردةُ والعاتيةُ الشديدةُ الهبوبِ ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] . أى ؛ كوامِلَ متتابعاتٍ . قيل : كان أولَها الجمعةُ . وقيل : الأربعاءُ . ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] . شبَّههم بأعجازِ النخلِ التى لا رءُوسَ لها ؛ وذلك لأن الريحَ كانت تجىءُ إلى أحدِهم فتحملُه ، فترفعُه فى الهواءِ ، ثم

---

(١) الترمذى (٣٢٧٤) ، النسائى فى الكبرى (٨٦٠٧) مختصرًا . ورواه ابن ماجه (٢٨١٦) من طريق عاصم بن بهدلة ولم يذكر أبا وائل ، وانظر تحفة الأشراف ٥/٣ ، وجامع المسانيد ٢١٠/٣ . (حسن . صحيح الترمذى ٢٦١١) . وانظر السلسلة الضعيفة (١٢٢٨) .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢٠/٨ ، ٢٢١ ، وتاريخه ٢١٧/١ ، ٢١٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٤٩/٢٩ .

تُنكِّسُه على أمِّ رأسِه فتَشدَخُه ، فيبقَى جثَّةً بلا رأسٍ ، كما قال[1] : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : ١٩] . [2]أى ؛ فى يومِ نحسٍ عليهم ، مستمرٍّ[2] عذابُه عليهم ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : ٢٠] . ومَن قال : إن اليومَ النَّحْسَ المستمرَّ هو يومُ الأربعاءِ . وتشاءَمَ به [3]لهذا الفهمِ[3] ، فقد أخطأ وخالفَ القرآنَ ؛ فإنَّه قال فى الآيةِ الأخرى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾[4] [فصلت : ١٦] . ومعلومٌ أنها ثمانيةُ أيامٍ متتابعاتٍ ، فلو كانت نَحِساتٍ فى أنفسِها ، لكانت جميعُ الأيامِ السبعةِ المُنْدَرِجةِ فيها مشؤومةً ، وهذا لا يقولُه أحدٌ ، وإنما المرادُ فى أيامٍ نحساتٍ ، أى ؛ عليهم . وقال تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات : ٤١] . أى ؛ التى لا تُنْتِجُ خيرًا . فإن الريحَ المفردةَ لا تنثُرُ سحابًا ولا تَلْقِحُ شجرًا ، بل هى عقيمٌ لا نتيجةَ خيرٍ لها ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : ٤٢] . أى ؛ كالشىءِ البالِى الفانِى الذى لا يُنْتَفَعُ به بالكليةِ . وقد ثبَت فى « الصحيحين »[5] مِن حديثِ شُعْبَةَ عن الحَكَمِ ، عن مُجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ » . وأما قولُه تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢١] . فالظاهرُ[١/٧٩و] أن عادًا هذه هى عادٌ

---

(١) تفسير الطبرى ٩٨/٢٧ .

(٢ - ٢) سقط من : ص .

(٣ - ٣) فى ح : « فهذا إليهم » .

(٤) التفسير ١٥٨/٧ .

(٥) البخارى (١٠٣٥) ، مسلم (٩٠٠) .

الأُولَى ، فإن سياقَها شبيهٌ بسياقِ قومِ هودٍ ، وهم الأولَى . ويَحتَملُ أن يكونَ المذكورون فى هذه القصةِ هم عادٌ الثانيةُ ، ويدلُّ عليه ما ذكرنا ، وما سيأتى من الحديثِ ، عن عائشةَ رضى اللهُ عنها . وأما قولُه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] . فإنَّ عادًا لما رأَوْا هذا العارضَ ، وهو الناشئُ فى الجوِّ كالسحابِ ، ظنُّوه سحابَ مطرٍ ، فإذا هو سحابُ عذابٍ ، اعتقدوه رحمةً فإذا هو نِقْمَةٌ ، رَجَوْا فيه الخيرَ فنالوا منه غايةَ الشرِّ . قال اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] . أى ؛ من العذابِ . ثم فسَّره بقولِه : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] . يَحتَملُ أن ذلك العذابَ هو ما أصابهم من الريحِ الصَّرْصَرِ العاتيةِ الباردةِ ، الشديدةِ الهبوبِ ، التى استمرت عليهم سبعَ ليالٍ بأيامِها الثَّمانيةِ ، فلم تُبْقِ منهم أحدًا ، بل تتبَّعتْهم حتى كانت تدخلُ عليهم كهوفَ الجبالِ والغِيرانِ ، فتلُفُّهم وتُخرِجُهم وتُهْلكُهم ، وتدمرُ عليهم البُيوتَ المُحْكَمةَ ، والقصورَ المشيَّدةَ ، فكما مُنُوا بقوتِهم وشدتِهم ، وقالوا : مَن أَشَدُّ مِنَّا قوةً ؟ سلَّط اللهُ - (١الذى هو أشدُّ مِنهم قوةً١) - عليهم ما هو أشدُّ منهم قوةً وأقدرُ عليهم ، وهو الريحُ العقيمُ . ويَحتمِلُ أن هذه الريحَ أثارتْ فى آخرِ الأمرِ سحابةً ظَنَّ مَن بَقِىَ منهم أنها سحابةٌ فيها رحمةٌ بهم ، وغِياثٌ لِمَن بَقِىَ منهم ، فأرسلها اللهُ عليهم شررًا ونارًا ، كما ذكره غيرُ واحدٍ ، ويكونُ هذا كما أصابَ أصحابَ الظُّلَّةِ من أهلِ مَدْيَنَ ، وجمعَ لهم بينَ الريحِ الباردةِ وعذابِ النارِ ، وهو أشدُّ ما يكونُ من العذابِ بالأشياءِ المختلفةِ المتضادَّةِ ، مع الصيحةِ التى ذكرها فى سورةِ « قد أفلح المؤمنون » . واللهُ أعلمُ .

(١ - ١) زيادة من : الأصل ، ح .

وقد قال ابنُ أبى حاتمٍ[1] : حدثنا أبى ، حدثنا محمدُ بنُ يحيى بنِ الضَّريسِ ، حدثنا ابنُ فُضَيْلٍ ، عن مسلمٍ ، عن مجاهدٍ ، عن ابنِ عمرَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ما فَتحَ اللهُ على عادٍ مِنَ الرِّيحِ التى أُهْلِكُوا بها ، إلَّا مِثْلَ مَوْضِعِ الخاتَمِ ، فمرَّتْ بأهْلِ البادِيةِ ، فحملَتْهُم ومواشِيَهُم وأمْوالَهم ، وحَمَلَتْهُم بينَ السَّماءِ والأَرْضِ ، فلمَّا رأى ذلك أهلُ الحاضِرَةِ من عادٍ الرِّيحَ وما فيها ﴿ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] . فألْقَتْ أهلَ البادِيةِ ومواشِيَهم على أهلِ الحاضِرةِ » . وقد رواه الطَّبرانىُّ[2] عن عَبْدانَ ابنِ أحمدَ ، عن إسماعيلَ بنِ زكريا الكوفىِّ ، عن أبى مالكٍ ، عن مسلمٍ المُلائىِّ ، عن مجاهدٍ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ ، عن ابنِ عباسٍ - [3]كذا قال[3] - قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ما فُتِح على عادٍ مِن الرِّيحِ إلا مثْلُ مَوْضِعِ الخاتَمِ ، ثم أُرْسِلَتْ عليهم ، فَحَمَلَتْهُم[4] البَدْوَ إلى الحَضَرِ ، فلمَّا رآها أهلُ الحضَرِ [٧٩/١ظ] قالوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا مُسْتَقْبِلُ أَوْدِيَتِنا . وكان أهلُ البوادِى فيها ، فأُلْقِىَ أهلُ البادِيَةِ على أهلِ الحاضِرَةِ حتى هلَكُوا » . قال : عتَتْ على خَزائِنِها[5] حتى خرجتْ مِن خلالِ الأبوابِ . قلت : وقال غيرُه : خرجَتْ بغيرِ حسابٍ . والمقصودُ أنّ هذا الحديثَ فى رفعِه نَظَرٌ ، ثم اخْتُلِفَ فيه على مُسلمٍ المُلائىِّ ، وفيه نوعُ اضطرابٍ . واللهُ أعلمُ .

وظاهرُ الآيةِ أنهم رأَوْا عارضًا ، والمفهومُ منه لغةً[6] السحابُ . كما دلَّ

---

(١) الدر المنثور ٤٤/٦ .

(٢) المعجم الكبير (١٢٤١٦) ، قال الهيثمى : فيه مسلم الملائى وهو ضعيف . مجمع الزوائد ١١٣/٧ .

(٣ - ٣) زيادة من : الأصل .

(٤) زيادة من الطبرانى .

(٥) فى الأصل : « خرابها » . وفى ح ، ا ، ومعجم الطبرانى : « خزانها » . والذى فى تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير « عتت على الخَزَنة » .

(٦) فى ح ، م ، ص : « لمعة » .

عليه حديثُ الحارثِ بنِ حسَّانَ البَكْرىِّ ، إنْ جعلناه مفسِّرًا لهذه القصةِ ، وأصرحُ منه فى ذلك ما رواه مسلمٌ فى « صحيحِه »[1] ، حيث قال : حدثنا أبو الطَّاهرِ ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ ، سمعتُ ابنَ جُرَيْجٍ يحدثُنا ، عن عطاءِ بن أبى رَبَاحٍ ، عن عائشةَ ، رضى اللهُ عنها ، قالت : كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا عصَفَت الرِّيحُ قال : « اللهمَّ إنِّى أَسْأَلُكَ خيْرَها وخَيرَ ما فيها وخَيْرَ ما أُرْسِلَتْ به ، وأَعُوذُ بك مِن شَرِّها وشَرِّ ما فيها وشَرِّ ما أُرْسِلَتْ به » . قالت : وإذا تَخيَّلَت[2] السماءُ تغيَّر لونُه ، وخرج ودخَل ، وأقبلَ وأدبَر ، فإذا أمطرتْ سُرِّىَ عنه ، فعَرَفتْ ذلك عائشةُ ، فسألْته ، فقال : « لعَلَّه يا عائشةُ كما قال قومُ عادٍ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ » . رواه التِّرمذىُّ والنَّسائىُّ وابنُ ماجَهْ ، من حديث ابنِ جُرَيْجٍ[3] .

طريقٌ أخرى ، قال الإمامُ أحمدُ[4] : حدثنا هَارونُ بنُ مَعْرُوفٍ ، أنبأنا عبدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ ، أنبأنا عمرٌو ، وهو ابنُ الحارثِ ، أن أبا النَّضرِ حدَّثه ، عن سُلَيمانَ بنِ يَسارٍ ، عن عائشةَ ، أنها قالت : ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ مُستجمِعًا ضاحكًا قَطُّ حتى أَرَى منه لَهَواتِه ، إنما كان يتبسَّمُ . وقالت : كان إذا رأَى غَيْمًا أو ريحًا عُرِفَ ذلك فى وجهِه . قالت : يا رسولَ اللهِ ، الناسُ إذا رأَوُا الغيمَ فرِحوا ؛ رجاءَ أن يكونَ فيه المطرُ ، وأراكَ إذا رأَيْتَه عُرِفَ[5] فى وجْهِكَ الكراهيةُ؟ فقال : « يا عائشةُ ، ما يُؤَمِّنُنى أنْ يكونَ فيه عذابٌ ؛ قد عُذِّب

---

(١) مسلم (٨٩٩) .

(٢) فى م ، ص : « عبيت » .

(٣) الترمذى (٣٤٤٩) ، النسائى (١٠٧٧٦ ، ١٠٧٧٧) ، ابن ماجه (٣٨٩١) . (صحيح الترمذى ٢٧٤٤) .

(٤) المسند ٦٦/٦ ، (صحيح الجامع ٧٨٠٧) .

(٥) كذا فى النسخ ، وهو لفظ البخارى ، وفى المسند : « عرفت » .

قومٌ[1] بالرِّيحِ ، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا » .
وهكذا رواه مسلمٌ[2] عن هارونَ بنِ معروفٍ ، وأخرجه البخاريُّ وأبو داودَ[3] مِن حديثِ ابنِ وهْبٍ . فهذا الحديثُ كالصريحِ فى تغايُرِ القصتين ، كما أشرنا إليه أولًا . فعلى هذا تكونُ القصةُ المذكورةُ فى سورةِ « الأحقاف » خبرًا عن قومِ عادٍ الثانيةِ ، وتكونُ بقيةُ السِّياقاتِ فى القرآنِ خبرًا عن عادٍ الأولى ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

وقدمنا حجَّ هودٍ ، عليه السلامُ ، عندَ ذكْرِ حجِّ نوحٍ ، عليه السلامُ . ورُوِى عن أميرِ المؤمنين [١/٨٠و] علىِّ بنِ أبى طالبٍ ، أنه ذكَر صفةَ قبرِ هودٍ ، عليه السلامُ ، فى بلادِ اليمنِ[4] . وذكر آخرون أنه بدمشقَ ، وبجامعِها مكانٌ فى حائطِه القِبْلِىِّ ، يزعُمُ بعضُ الناسِ أنَّه قبرُ هودٍ ، عليه السلامُ . واللهُ أعلمُ .

---

(١) بعده فى م ، ص : « نوح » .
(٢) مسلم (٨٩٩) .
(٣) البخارى (٤٨٢٨) ، أبو داود (٥٠٩٨) .
(٤) المستدرك ٢/٥٦٤ .

قصةُ صَالِحٍ نَبِـيِّ ثمودَ عليه الصلاةُ والسلامُ

وهم قبيلةٌ مشهورةٌ يقالُ لهم : ثمودُ . باسمِ جَدِّهم ثمودَ أخِى جَدِيسٍ ، وهما ابْنا عابرِ بنِ إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ ، وكانوا عربًا مِن العاربةِ ، يسكنون الحِجْرَ الذى بينَ الحِجازِ وتبوكَ ، وقد مرَّ به رسولُ اللهِ ﷺ[1] وهو ذاهبٌ إلى تبوكَ بمَن معه مِن المسلمين ، كما سيأتى بيانُه . وكانوا بعدَ قومِ عادٍ ، وكانوا يعبدون الأصنامَ كأولئك ، فبعث اللهُ فيهم رجلًا منهم ، وهو عبدُ اللهِ ورسولُه صالحُ بنُ عُبَيْدِ بنِ ماسِخِ بنِ عُبَيْدِ بنِ حاجرِ بنِ ثمودَ بنِ عابرِ بنِ إرَمَ ابنِ سامِ بنِ نوحٍ ، فدعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، وأن يخلعوا الأصنامَ والأندادَ ، ولا يُشرِكوا به شيئًا ، فآمَنتْ به طائفةٌ منهم ، وكفر جمهورُهم ، ونالوا منه بالمَقالِ والفعالِ ، وهمُّوا بقتلِه ، وقتلوا الناقةَ التى جعَلها اللهُ حُجّةً عليهم ، فأخَذَهم اللهُ أخْذَ عزيزٍ مُقتدرٍ ؛ كما قال تعالى فى سورةِ « الأعراف »[2] : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ

---

(١) البخارى (٣٣٨٠) ، مسلم (٢٩٨٠) .

(٢) التفسير ٣/٤٣٤ - ٤٤١ .

ءَامَنتُم بِهِ كَٰفِرُونَ * فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٣ - ٧٩] . وقال تعالى فى سورةِ « هود »(١) . ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى [١/٨٠ظ] مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦١ - ٦٨] . وقال تعالى فى سورةِ « الحِجْرِ »(٢) : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر : ٨٠ - ٨٤] . وقال سبحانه وتعالى فى سورةِ « سبحان »(٣) : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن

---

(١) التفسير ٤/٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) التفسير ٤/٤٦٢ ، ٤٦٣ .

(٣) التفسير ٥/٨٧ - ٨٩ .

نُرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء : ٥٩] . وقال تعالى فى سورةِ « الشّعراءِ »(١) : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٤١ - ١٥٩] . وقال تعالى فى سورةِ « النمل »(٢) : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

---

(١) التفسير ٦/١٦٤ - ١٦٧ .

(٢) التفسير ٦/٢٠٧ - ٢٠٩ .

خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً [٨١/١و] لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : ٤٥ - ٥٣] . وقال تعالى فى سورةِ « حمٓ السجدة »[1] : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت : ١٧ ، ١٨] . وقال تعالى فى سورةِ « اقتربت »[2] : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ * ولَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٢٣ - ٣٢] . وقال تعالى[3] : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴾ [الشمس : ١١ - ١٥] . وكثيرًا ما يَقْرِنُ اللهُ فى كتابِه بينَ ذكرِ عادٍ وثمودَ ، كما فى سورةِ « براءةَ » و « إبراهيمَ » و « الفرقانِ » وسورةِ « صٓ » ، وسورةِ « قٓ » و « النَّجْمِ » و « الفجرِ » . ويُقالُ : إن هاتين الأُمَّتين[4] لا يَعْرِفُ خبرَهما أهلُ الكتابِ ، وليس لهما ذِكْرٌ فى كتابِهم التوراةِ . ولكنْ فى القرآنِ ما يدُلُّ على أن موسى أخبرَ عنهما ؛ كما قال تعالى فى سورةِ « إبراهيم »[5] : ﴿وَقَالَ

---

(١) التفسير ٧/١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) التفسير ٧/٤٥٤ ، ٤٥٥ .

(٣) التفسير ٨/٤٣٦ ، ٤٣٧ .

(٤) فى الأصل : « الآيتين » .

(٥) التفسير ٤/٣٩٩ .

مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [إبراهيم : ٨ ، ٩] الآيةُ . الظاهرُ أن هذا مِن تمامِ كلامِ موسى مع قومِه ، ولكنْ لَمّا كان هاتان الأمتان[1] من العربِ ، لم يَضْبِطُوا خبرَهما جيدًا ، ولا اعتَنَوْا بحفظِه ، وإنْ كان خبرُهما كان مشهورًا فى زمانِ موسى عليه السلامُ . وقد تكلمنا على هذا كلِّه فى « التفسيرِ » مُسْتَقْصًى ، ولله الحمدُ والمِنّةُ .

والمقصودُ الآنَ ذكرُ قصتِهم ، وما كان مِن أمرِهم ، وكيف نجَّى اللهُ نبيَّه صالحًا ، عليه السلامُ ، ومَن آمنَ به ، وكيف قطَع دابرَ القومِ الذين ظلموا ؛ بكفرِهم ، وعُتُوِّهم ، ومخالفتِهم رسولَهم ، عليه السلامُ . وقد قدَّمنا أنهم كانوا عربًا ، وكانوا بعدَ عادٍ ، ولم يعتبرُوا بما كان من أمرِهم ؛ ولهذا قال لهم نبيُّهم ، عليه السلامُ : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * [٨١/١ظ] وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[2] . أى ؛ إنما جعلكم خلفاءَ من بعدِهم ؛ لتعتبروا بما كان من أمرِهم ، وتعملوا بخلافِ عملِهم ، وأباح لكم هذه الأرضَ تبنُون فى سُهولِها القصورَ ، وتَنْحِتون مِن الجبالِ بيوتًا فارِهِين . أى ؛ حاذِقِين فى صَنْعتِها وإتقانِها وإحكامِها ، فقابِلُوا نعمةَ اللهِ بالشكرِ والعملِ الصالحِ والعبادةِ له وحدَه لا شريكَ له ، وإيّاكم ومخالفتَه ، والعدولَ عن طاعتِه ؛

---

(١) فى الأصل : « الآيتان » .

(٢) التفسير ٣/٤٣٤ .

فإن عاقبةَ ذلك وخيمةٌ ، ولهذا وعَظهم بقولِه[1] : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أى ؛ متراكِمٌ ، كثيرٌ ، حَسَنٌ ، بَهِىٌّ ، ناضجٌ . ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وقال لهم أيضًا[2] : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ . أى ؛ هو الذى خلقكم ، فأنشأكم من الأرضِ ، وجعلكم عُمَّارَها ، أى أعطاكُموها بما فيها من الزروعِ والثِّمارِ ، فهو الخالقُ الرزاقُ ، فهو الذى يستحقُّ العبادةَ وحدَه لا سواهُ ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ . أى ؛ أقْلِعوا عما أنتم فيه ، وأقبلُوا على عبادتِه ، فإنه يقبلُ منكم ويتجاوزُ عنكم ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ * قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ﴾ . أى ؛ قد كنا نرجو أنْ يكونَ عقلُك كاملًا قبلَ هذه المقالةِ ؛ وهى دعاؤُك إيانا إلى إفرادِ العبادةِ [3]للهِ وحدَه[3] ، وتَرْكِ ما كنا نعبدُه من الأندادِ ، والعدولِ عن دينِ الآباءِ والأجدادِ . ولهذا قالوا : ﴿ أَتَنْهَـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ . وهذا تلطُّفٌ منه لهم فى العِبارةِ[4] ولِينِ الجانبِ ، وحُسْنُ تَأَتٍّ فى الدعوةِ لهم إلى الخيرِ . أى ؛ فما ظنُّكم إن كان الأمرُ كما أقولُ لكم وأدعوكم إليه ؟ ماذا عذرُكم عندَ اللهِ ؟ وماذا يُخلِّصُكم بينَ يدَيْه ، وأنتم تطلبون منِّى أن أتركَ دُعاءَكم إلى طاعتِه ؟ وأنا لا

---

(١) التفسير ٦/١٦٥ .

(٢) التفسير ٤/٢٦٣ .

(٣ - ٣) سقط من : م ، ص .

(٤) فى الأصل : « العذارة » .

يمكننى هذا ؛ لأنَّه واجبٌ علىَّ ، ولو تركتُه لَمَا قَدَر أحدٌ منكم ولا مِن غيرِكم أن يُجِيرَنى منه ، ولا ينصرَنى ، فأنا لا أزالُ أدعوكم إلى اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، حتى يحكمَ اللهُ بينى وبينَكم . وقالوا له أيضًا[1] : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ أى ؛ من المسحُورين . يعنون : مسحورًا لا تدرى ما تقولُ فى دُعائِك إيَّانا إلى إفرادِ العبادةِ للهِ وحدَه ، وخَلْعِ ما سِواه من الأندادِ . [٨٢/١و] وهذا القولُ عليه الجمهورُ ؛ أن المرادَ بالمُسَحَّرِين المسحورون . وقيل : من المُسَحَّرِين . أى ؛ ممَّنْ له سَحْرٌ - وهى الرِّئةُ - كأنهم يقولون : إنما أنت بَشَرٌ له سَحْرٌ . والأولُ أظهرُ ؛ لقولِهم بعدَ هذا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ . وقولُهم : ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ سألوه أن يأتِيَهم بخارقٍ يدُلُّ على صدقِ ما جاءهم به ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ .

وقد ذكَر المفسرون أن ثمودَ اجتمعوا يومًا فى ناديهم ، فجاءهم رسولُ اللهِ صالحٌ ، عليه السلامُ ، فدعاهم إلى اللهِ تعالى وذكَّرهم وحذَّرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إنْ أنت أخرجتَ لنا من هذه الصخرةِ - وأشاروا إلى صخْرةٍ هناك - ناقةً مِن صِفَتِها كَيْتَ وكَيْتَ - وذكروا أوصافًا سمَّوْها ، ونعتُوها وتعنَّتوا فيها - وأَنْ تكونَ عُشَرَاءَ طويلةً ، مِن صِفَتِها كذا وكذا . فقال لهم النَّبىُّ صالحٌ ، عليه السلامُ : أرأيتُم إنْ أجبتُكم إلى ما سألـتم على الوجهِ الذى طلبتم ، أتؤمنون بما جئتُكم به وتصدِّقُونى فيما أُرْسِلْتُ به ؟ قالوا : نعم .

(١) التفسير ١٦٦/٦ .

فأخذ عُهودَهم ومواثيقَهم على ذلك ، ثم قام إلى مُصلَّاه ، فصلَّى للهِ عزَّ وجلَّ ما قُدِّرَ له ، ثم دعا ربَّه عزَّ وجلَّ أَنْ يُجيبَهم إلى ما طلبوا ، فأمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ تلك الصخْرةَ أن تَنْفَطِرَ عن ناقةٍ عظيمةٍ كَوْماءَ[1] عُشَراءَ ، على الوجهِ الذى طلبوا ، وعلى الصفةِ التى نَعَتُوا ، فلما عاينُوها كذلك ، رأَوْا أمرًا عظيمًا ، ومنظرًا هائلًا ، وقدرةً باهِرةً ، ودليلًا قاطعًا وبُرهانًا ساطعًا ، فآمَن كثيرٌ منهم ، واستمرَّ أكثرُهم على كفرِهم وضلالِهم ، وعنادِهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ أى ؛ جحَدوا بها و لم يَتَّبِعُوا الحقَّ بسببِها . أى ؛ أكثرُهم . وكان رئيسُ الذين آمنوا جُنْدَعَ بنَ عمرٍو[2] بنِ مخلاةَ بنِ لَبيدِ بنِ جَوَّاسٍ ، [3]وكان مِن رؤسائِهم[3] ، وهَمَّ بقيَّةُ الأشرافِ بالإسلامِ ، فَصَدَّهم ذُؤَابُ بنُ عمرَ بنِ لَبيدٍ [4]والحُبابُ صاحبُ[4] أوثانِهم ، وربابُ بنُ صَمْعَرِ بنِ جَلْهسٍ ، ودعا جُنْدَعٌ ابنَ عمِّه[2] شهابَ بنَ خليفةَ ، وكان مِن أشرافِهم ، فهَمَّ بالإسلامِ ، فنهاه أولئك ، فمال إليهم ، فقال فى ذلك رجلٌ من المسلمين ، يقالُ له : مِهْرَشُ بنُ غَنْمةَ بنِ الدُّمَيلِ ، رحمه اللهُ شعرًا :

[٨٢/١ظ] وكانتْ عُصْبةٌ مِن آلِ عمرٍو ... إلى دِينِ النبىِّ دَعَوْا شهابَا
عزيزَ ثمودَ كلَّهُمُ جميعًا ... فهَمَّ بأن يُجيبَ ولو أجابَا
لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزًا ... وما عَدَلوا بصاحِبِهمْ ذُؤَابا[5]
ولكنَّ الغُواةَ مِنَ آلِ حِجْرٍ ... تولَّوْا بعدَ رُشدِهمُ ذئابَا

---

(١) ليست فى : م ، ص . والناقة الكوماء : العظيمة السنام .

(٢) فى الأصل : « همه » .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل .

(٤ - ٤) فى م ، ص : « الخباب صاحبا » .

(٥) فى الأصل ، ح : « درابا » .

ولهذا قال لهم صالحٌ ، عليه السلامُ[1] : ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أضافها للهِ سبحانه وتعالى إضافةَ تشريفٍ وتعظيمٍ ؛ كقولِه : بيتُ اللهِ . و : عبدُ اللهِ . ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أى ؛ دليلًا على صِدْقِ ما جئتُكم به ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ فاتفق الحالُ على أَنْ تبقَى هذه الناقةُ بينَ أظهرِهم تَرْعَى حيث شاءت مِن أرضِهم ، وتَرِدَ الماءَ يومًا بعدَ يومٍ ، وكانت إذا وردت الماءَ تشربُ ماءَ البئرِ يومَها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتَهم من الماءِ فى يومِهم لغدِهم . ويقالُ : إنهم كانوا يشربون مِن لبنِها كفايتَهم . ولهذا قال : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أى ؛ اختبارًا لهم ؛ أيؤمنون بها ، أم يكفرون ؟ واللهُ أعلمُ بما يفعلون ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ أى ؛ انتظِرْ ما يكونُ مِن أمرِهم ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبرُ على جَلِيَّةٍ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ فلمّا طال عليهم الحالُ هذا ، اجتمع ملؤُهم ، واتفق رأيُهم على أنْ يَعْقِروا هذه الناقةَ ؛ ليستريحوا منها ، ويتوفَّرَ عليهم ماؤُهم ، وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم . قال اللهُ تعالى[2] : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] . وكان الذى تولَّى قَتْلَها منهم رئيسَهم قُدارَ بنَ سالِفِ بنِ جُنْدَعٍ ، وكان أحمرَ أزرقَ قصيرًا[3] ، وكان يقالُ : إنه وَلَدُ زانيةٍ ، وُلِدَ على فراشِ سالفٍ . وهو مِن[4] رجلٍ يقالُ له : صيبانُ[5] . وكان فعلُه ذلك باتفاقِ جميعِهم ؛ فلهذا نُسِب

---

(١) التفسير ٢٦٤/٤ .

(٢) التفسير ٤٣٧/٣ .

(٣) فى النسخ : « أصهب » . والمثبت من تفسير الطبرى ٢٢٨/٨ . والتفسير ٤٣٧/٣ .

(٤) فى م ، ص : « ابن » .

(٥) الذى فى الطبرى « صهياد » .

الفعلُ إلى جميعِهم كلِّهم .

وذكَر ابنُ جريرٍ[1] ، وغيرُه من علماءِ المفسرين ، أن امرأتَيْن من ثمودَ ، اسمُ إحداهما صَدُوفُ[2] بنتُ المحيَّا بنِ زهيرِ بنِ المحيَّا[3] . وكانت ذاتَ حَسَبٍ ومالٍ ، وكانت تحتَ رجلٍ مِن أَسْلَمَ ، ففارقَتْه ، فدعتِ ابنَ عمٍّ لها ، يقالُ له : مِصْدَعُ بنُ مَهْرَجٍ بنِ المحيَّا . وعرضَتْ عليه نفسَها إنْ هو عقر الناقةَ . واسمُ الأخرى عُنَيْزةُ بنتُ غُنْمِ بنِ مِجْلَزٍ ، وتُكْنَى أَمَّ عثمانَ[4] ، وكانت عجوزًا كافرةً ، لها بناتٌ من زوجِها ذُؤابِ بنِ عمرٍو ، أحدِ الرؤساءِ ، فعرضت بناتِها الأربعَ [٨٣/١و] على قُدارِ بنِ سالِفٍ ، إنْ هو عقَر الناقةَ فله أيُّ بناتِها شاء ، فانتُدِب هذان الشَّابَّان لعَقْرِها ، وسَعَوْا فى قومِهم بذلك ، فاستجابَ لهم سبعةٌ آخرون ، فصاروا تسعةً ؛ وهم المذكورون فى قولِه تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وسَعَوْا فى بقيةِ القبيلةِ ، وحسَّنوا لهم عَقْرَها ، فأَجابوهم إلى ذلك ، وطاوعوهم فى ذلك ، فانطلقوا يَرْصُدونَ الناقةَ ، فلما صدَرَتْ من وِرْدِها ، كَمَنَ لها مِصْدَعٌ ، فرماها بسهمٍ فانتظَم ساقَها ، وجاء النساءُ ؛ نساءُ القبيلةِ فى قتلِها ، وحَسَرْن عن وجوهِهن ؛ ترغيبًا لهم ، فابتدرَهم قُدارُ بنُ سالِفٍ ، فشدَّ عليها بالسيفِ ، فكشَف عن عُرْقُوبِها ، فخرَّتْ ساقطةً إلى الأرضِ ، ورَغَتْ رَغاةً واحدةً عظيمةً ، تُحذِّرُ ولدَها ، ثم طعَن فى لَبَّتِها ، فنحَرَها ، وانطلق سَقْبُها ، وهو فَصِيلُها ، فصَعِد جبلًا منيعًا ، ورَغَا ثلاثًا .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢٦/٨ - ٢٢٩ .

(٢) فى م ، ص : « صدوق » .

(٣) فى النسخ : « المختار » . والمثبت من تفسير الطبرى ٢٢٧/٨ . وانظر التفسير ٤٣٧/٣ .

(٤) فى الطبرى : « أم غنم » .

وروَى عبدُ الرَّزَّاقِ[1] ، عن معْمَرٍ ، عمَّن سَمِع الحسنَ ، أنه قال : يا ربِّ ، أين أمى ؟ ثم دخَل فى صخرةٍ فغاب فيها . ويقالُ : بل اتَّبَعوه فعقَروه أيضًا . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ أى ؛ احْذَرُوها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ .

قال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ نُمَيْرٍ ، حدثنا هشامٌ – هو ابنُ عُروةَ – عن أبيه عن عبدِ اللهِ بنِ زَمْعَةَ قال : خطَب رسولُ اللهِ ﷺ فذكَر النَّاقةَ ، وذكَر الذى عقَرها ، فقال : ﴿ إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ . « انبعَث لها رَجُلٌ[3] عارِمٌ ، عَزيزٌ مَنِيعٌ فى رَهْطِه ، مثْلُ أبى زَمْعَةَ » . أخرجاه[4] من حديثِ هشامٍ به[5] . عارِمٌ ؛ أى شهمٌ . عزيزٌ ؛ أى رئيسٌ . منيعٌ ؛ أى مُطاعٌ فى قومِه .

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[6] : حدثنى يزيدُ بنُ محمدِ بنِ خُثَيْمٍ ، عن محمدِ ابنِ كعبٍ ، عن محمدِ بنِ خُثَيْمٍ أبى يزيدَ ، عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ لِعَلِىٍّ : « ألَا أُحَدِّثُكَ بأَشْقَى النَّاسِ ؟ » . قال : بلى . قال :

---

(1) تفسير عبد الرزاق ٢/٢٣١ . وانظر تفسير الطبرى ٨/٢٢٩ .

(2) المسند ٤/١٧ .

(3) بعده فى م : « من » .

(4) البخارى (٤٩٤٢) ، مسلم (٢٨٥٥) .

(5) فى م : « بن » .

(6) سيرة ابن هشام ١/٦٠٠ . وعنده « خيثم » بدل « خثيم » وهى كذلك فى م ، ص ، والمسند ٤/٢٦٣ ، وانظر التهذيب ٩/١٤٧ ، ١٤٨ .

« رجُلانِ ؛ أحدُهما أُحَيمِرُ ثمودَ الذى عقَرَ النَّاقَةَ ، والذى يَضْرِبُكَ يا عَلِيُّ عَلَى هذا - يعنى قَرْنَه - حتى تَبْتَلَّ منه هذه » . يعنى لِحْيَتَه . رواه ابنُ أبى حاتِمٍ[1] . وقال تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] . فجمَعوا فى كلامِهم هذا بينَ كُفْرٍ بليغٍ مِن وجوهٍ ؛ منها أنهم خالَفوا اللهَ ورسولَه فى ارتكابِهم النهىَ الأكيدَ فى عقرِ الناقةِ ، [١/٨٣ظ] التى جعلها اللهُ لهم آيةً ، ومنها أنهم استعجلوا وقوعَ العذابِ بهم ، فاستحقُّوه مِن وجهَيْن ؛ أحدُهما الشَّرطُ عليهم فى قولِه : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ وفى آيةٍ ﴿ عَظِيمٌ ﴾ ، وفى الأخرى ﴿ أَلِيمٌ ﴾ والكلُّ حقٌّ . والثانى ، استعجالُهم على ذلك . ومنها أنهم كذَّبوا الرسولَ الذى قد قام الدليلُ القاطعُ على نُبُوَّتِه وصدقِه ، وهم يعلمون ذلك عِلْمًا جازمًا ، ولكنْ حمَلهم الكفرُ والضلالُ والعنادُ على استبعادِ الحقِّ ، ووقوعِ العذابِ بهم . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ . وذكروا أنهم لما عقروا الناقةَ ، كان أولَ مَن سطَا عليها قُدَارُ بنُ سالِفٍ ، لعنَه اللهُ ، فعَرْقَبها ، فسقطتْ إلى الأرضِ ، ثم ابتَدَروها بأسيافِهم يُقَطِّعونها ، فلما عايَن ذلك سَقْبُها ، وهو ولدُها ، شَرَد عنهم فعَلا أعلى الجبلِ هناك ، ورغَا ثلاثَ مراتٍ ؛ فلهذا قال لهم صالحٌ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أى ؛ غيرَ يومِهم ذلك . فلم يصدِّقوه أيضًا فى هذا الوعدِ الأكيدِ ، بل لمّا أمسَوْا همُّوا بقتلِه ، وأرادوا ، فيما يزعُمون ، أن يُلحِقُوه بالناقةِ ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى ؛ لنَكْبِسَنَّه فى دارِه مع أهلِه ، فلَنقتُلَنَّه ، ثم نَجحَدَنَّ قتْلَه ، ونُنكِرَنَّ ذلك إنْ طالَبنا أولياؤُه بدمِه ؛ ولهذا قالوا : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ قال اللهُ تعالى :

---

(١) وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٥٧/٦ وعزاه لابن أبى حاتم .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النَّفرِ الذين قصدوا قَتْلَ صالحٍ حجارةً رضَخَتْهم ، سلفًا وتعجيلًا قبلَ قومِهم ، وأصبحت ثمودُ يومَ الخميسِ ، وهو اليومُ الأولُ من أيامِ النَّظِرَةِ ، ووجوهُهم مُصْفَرَّةٌ كما أنذرهم صالحٌ ، عليه السلامُ ، فلما أمسَوْا نادَوْا بأجمعِهم : أَلَا قد مضَى يومٌ مِن الأجلِ . ثم أصبحوا فى اليومِ الثانى مِن أيامِ التأجيلِ ، وهو يومُ الجُمُعَةِ ، ووجوهُهم مُحْمَرَّةٌ ، فلمَّا أَمْسَوْا نادَوْا : أَلَا قد مضَى يومانِ مِن الأجَلِ . ثم أصبَحوا فى اليومِ الثَّالثِ من أيامِ المتاعِ ، وهو يومُ السَّبْتِ ، ووجوهُهم مُسْوَدَّةٌ ، فلمَّا أَمْسَوْا نادَوْا : أَلَا قد مضَى الأجَلُ . فلمَّا كَان صَبيحةُ يومِ الأحدِ ، تحنَّطوا وتأهَّبوا وقعَدوا ينتظرون ماذا يَحُلُّ بهم من العذابِ والنَّكالِ والنِّقمةِ ، لا يَدرون كيفَ يُفعَلُ بهم ، ولا مِن أىِّ جهةٍ يأتيهم العذابُ ، فلما أشرقت الشمسُ جاءتهم صَيْحَةٌ مِن السماءِ من فوقِهم ، ورَجْفَةٌ شديدةٌ من أسفَلَ منهم ، ففاضت الأرواحُ وزَهَقت النفوسُ ، وسكَنت الحركاتُ [٨٤/١و] وخشعت الأصواتُ ، وحُقَّتِ الحقائقُ ، ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ ؛ جُثَثًا لا أرواحَ فيها ولا حِراكَ بها . قالوا : ولم يَبْقَ منهم أحدٌ إلا جاريةٌ كانت مُقْعَدةً ، واسمُها : كَلْبَةُ بنتُ[1] السَّلْقِ . ويقالُ لها : الزُّرَيْعَةُ[2] . وكانت شديدةَ الكفرِ والعداوةِ لصالحٍ ، عليه السلامُ ، فلما رأت العذابَ أُطْلِقَتْ رِجلاها ، فقامت تسعَى كأسرعِ شيءٍ ، فأتَتْ حيًّا من

(١) فى الأصل : « بن » .

(٢) فى الأصل ، ح ، ص : « الذريعة » ، وفى ا ، م : « الدريعة » . والمثبت من تفسير الطبرى بتحقيق محمود محمد شاكر وأخيه ٥٣٦/١٢ .

العربِ ، فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومِها ، واستَسْقَتْهم ماءً ، فلما شَربت ماتت . قال اللهُ تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ أى ؛ لم يُقيموا فيها فى سَعَةٍ ورزقٍ وغناءٍ ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦٨] أى ؛ نادَى عليهم لسانُ القَدَرِ بهذا .

قال الإمامُ أحمد[١] : حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ عثمانَ بنِ خُثَيْمٍ ، عن أبى الزُّبيرِ ، عن جابرٍ ، قال : لمَّا مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ بالحِجْرِ ، قال : « لا تَسْأَلوا الآياتِ ، فقد سألها قومُ صالحٍ فكانت - يعنى الناقةَ - تَرِدُ من هذا الفَجِّ ، وتَصدُرُ من هذا الفجِّ ، فعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم فعقروها ، وكانت تَشرَبُ ماءَهم يومًا ويشرَبونَ لبنَها يومًا ، فعقروها ، فأخذتهم صيحةٌ ، أهْمَدَ اللهُ مَن تحتَ أديمِ السماءِ منهم ، إلا رجلًا واحدًا ، كان فى حَرَمِ اللهِ » فقالوا : من هو يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « هو أبو رِغَالٍ ، فلما خرَج من الحرمِ أصابه ما أصابَ قومَه » . وهذا الحديثُ على شرطِ مسلمٍ ، وليس هو فى شيءٍ من « الكتب الستةِ »[٢] . واللهُ أعلمُ .

وقد قال عبدُ الرزاقِ أيضًا[٣] : قال مَعْمرٌ : أخبرنى إسماعيلُ بنُ أُمَيَّةَ ، أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقبرِ أبى رِغَالٍ ، فقال : « أتدرُون من هذا ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعلمُ . قال : « هذا قبرُ أبى رِغَالٍ ؛ رجلٍ من ثمودَ كان فى حَرَمِ اللهِ ، فمَنَعه حرَمُ اللهِ عذابَ اللهِ ، فلمَّا خرَج أصابَه ما أصابَ قومَه ، فدُفِنَ ههنا ، ودُفِنَ معه غُصْنٌ مِن ذَهَبٍ » . فنزَل القومُ فابتدَروه بأسيافِهم ، فبحثوا عنه ،

---

(١) المسند ٢٩٦/٣ . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٩٤/٦ ، ٣٨/٧ وقال : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط ، ورجال أحمد رجال الصحيح . وانظر الإحسان (٦١٩٧) .

(٢) وأخرجه الطبرى فى تفسيره ٢٣٠/٨ .

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢٣٢/٢ .

فاستخرجوا الغصنَ . قال عبدُ الرزاقِ(١) : قال مَعْمَرٌ : قال الزُّهْرِىُّ : أبو رِغَالٍ ؛ أبو ثَقِيفٍ . هذا مُرسَلٌ من هذا الوجهِ . وقد جاء مِن وجهٍ آخرَ متَّصِلًا ، كما ذكره محمدُ بنُ إسحاقَ فى « السيرةِ »(٢) ، عن إسماعيلَ بن ِ أُمَيَّةَ ، عن بُجَيرِ بن ِ أبى بُجَيرٍ ، سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ حينَ خرجنا معه إلى الطائفِ ، فمَرَرْنا بقبرٍ ، فقال : « إن هذا قبرُ أبى رِغَالٍ ، وهو أبو ثَقِيفٍ ، وكان من ثَمودَ ، وكان بهذا الحرَم ِ يدفَعُ عنه ، فلما خرَج منه أصابَتْه النِّقْمَةُ التى أصابتْ قومَه بهذا المكانِ ، فدُفِنَ فيه ، [١/٨٤ظ] وآيةُ ذلك أنَّه دُفِنَ معه غُصْنٌ مِن ذهبٍ ، إنْ أنتم نَبَشْتُم عنه أَصَبْتُموه معه » . فابتَدَره الناسُ فاستخرجوا منه الغُصْنَ . وهكذا رواه أبو داودَ(٣) مِن طريقِ محمدِ بن ِ إسحاقَ به(٤) . قال شيخُنا الحافِظُ أبو الحجَّاجِ المِزِّىُّ ، رحمه اللهُ : هذا حديثٌ حسنٌ عزيزٌ . قلت : تفرَّد به بُجَيْرُ بنُ أبى بُجَيْرٍ هذا ، ولا يُعْرَفُ إلا بهذا الحديثِ ، ولم يَرْوِ عنه سوى إسماعيلَ بن ِ أُمَيَّةَ . قال شيخُنا : فيحتَملُ أنه وَهِم فى رفعِه ، وإنما يكونُ من كلام ِ عبدِ اللهِ بن ِ عمرٍو ، مِن زامِلَتَيْه(٥) ، واللهُ أعلمُ . (٦)قلتُ : لكنْ فى المُرسَلِ الذى قبلَه ، وفى حديثِ جابرٍ أيضًا شاهدٌ لَه . واللهُ أعلمُ(٦) .

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/٢٣٢ .

(٢) لم نجده فى السيرة .

(٣) أبو داود (٣٠٨٨) . (ضعيف أبى داود ٦٧٨) .

(٤) سقط من : ح .

١/٢٣٢ (ضعيف) .« زاملته » . والزامِلةُ : بعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه وطعامه . اللسان (ز م ل) .

وأراد بهما هنا الصحف التى أصابها يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بنى إسرائيل .

(٦ - ٦) سقط من : ح .

وقولُه تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ إخبارٌ عن صالحٍ ، عليه السَّلامُ ، أنه خاطَب قومَه بعدَ هلاكِهم ، وقد أخَذ فى الذَّهابِ عن مَحِلَّتِهم إلى غيرِها ، قائلًا لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أى ؛ جَهَدْتُ فى هدايتِكم بكلِّ ما أمكننى ، وحرَصتُ على ذلك بقولى وفعلى ونِيَّتى ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ أى ؛ لم تكنْ سَجَاياكم تقبَلُ الحقَّ ولا تريدُه ؛ فلهذا صِرتُم إلى ما أنتم فيه مِن العذابِ الأليمِ المستمِرِّ بكم ، المتصلِ إلى الأبدِ ، وليس لى فيكم حِيلةٌ ولا لى بالدَّفعِ عنكم يَدَانِ ، والذى وَجَب علَىَّ من أداءِ الرسالةِ والنُّصحِ لكم قد فعلتُه وبذلتُه لكم ، ولكنَّ اللهَ يفعَلُ ما يريدُ . وهكذا خاطَب النَّبىُّ ﷺ أهلَ قَلِيبِ بَدْرٍ بعدَ ثلاثِ ليالٍ ، وقَف عليهم ، وقد رَكِب راحلتَه وأمَر بالرَّحيلِ من آخرِ الليلِ ، فقال : « يا أهلَ القَلِيبِ ، هل وجدتُم ما وعَدَكم ربُّكم حقًّا ؟ فإنِّى قد وجدتُ ما وعدَنى ربى حقًّا »[1] . وقال لهم فيما قال : « بئسَ عَشِيرةُ النَّبىِّ كنتُم لِنبيِّكم ؛ كذَّبْتُمونى وصدَّقَنِى النَّاسُ ، وأخرجتُمونى وآوانِى النَّاسُ ، وقاتَلْتمُونى ونَصَرَنِى النَّاسُ ، فبئسَ عَشيرةُ النَّبِىِّ كنتُم لنبيِّكم » . فقال له عمرُ : يا رسولَ اللهِ ، تُخاطِبُ أقوامًا قد جَيَّفوا ؟ فقال : « والذى نَفْسى بيدِه ، ما أنتم بأسمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم ، ولكنَّهم لا يُجِيبُون » . وسيأتى بيانُه فى موضعِه إن شاء اللهُ . ويقالُ : إنَّ صالحًا ، عليه السلامُ ، انتقلَ إلى حَرَمِ اللهِ ، فأقام به حتى مات[2] .

قال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا وَكِيعٌ ، حدثنا زَمْعةُ بنُ صالحٍ ، عن سَلَمةَ

---

(1) البخارى (٣٩٨٠) ، مسلم (٩٣٢) .

(2) تاريخ الطبرى ١/٢٣٢ ، الكامل ١/٩٣ .

(3) المسند ١/٢٣٢ ، (ضعيف) .

ابنِ وَهْرَامٍ ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : لَمَّا مرَّ النَّبىُّ ﷺ بوادِى عُسْفَانَ حينَ حجَّ ، قال : « يا أبا بَكْرٍ : أَىُّ وادٍ هذا ؟ » . قال : وادِى عُسْفَانَ . قال : « لقد مرَّ به هودٌ وصالحٌ ، عليهما السلامُ ، على بَكَراتٍ حُمْرٍ خُطُمُها اللِّيفُ ، أُزُرُهم العَباءُ ، وأردِيَتُهم النِّمارُ ، يُلَبُّونَ ، يَحُجُّونَ البيتَ العَتِيقَ » [١/٨٥و] . إسنادٌ حَسَنٌ . وقد تقدَّم فى قصةِ نُوحٍ[1] ، عليه السلامُ ، مِن روايةِ الطَّبرانىِّ[2] ، وفيه نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ .

---

(١) تقدم فى صفحة ٢٧٨ .

(٢) هكذا نسبه هنا إلى الطبرانى ، ولم نجده فى مظانه من مسند ابن عباس ، ولم يعزه الهيثمى ٣/٢٢٠ إليه ، ولعل نسبته إلى الطبرانى سبقُ قلم من المصنف رحمه الله ، والذى تقدم ص ٢٧٨ نسبته إلى أبى يعلى عن شيخه سفيان بن وكيع عن أبيه وكيع به ، ولم نجده فى مسند ابن عباس من المطبوع ، ولعله فى مسنده الكبير ، ولكن نسبته إلى أبى يعلى هى الأصح فإن سفيان بن وكيع توفى سنة (٢٤٧ هـ) كما فى تهذيب الكمال ٢٠٣/١١ ، وولد الحافظ أبو يعلى سنة (٢١٠ هـ) كما فى سير أعلام النبلاء ١٧٤/١٤ وولد الحافظ الطبرانى سنة (٢٦٠ هـ) كما فى سير أعلام النبلاء ١٩/١٦ ، فعلى هذا فالذى يمكن أن يروى عن سفيان بن وكيع هو أبو يعلى لا الطبرانى ، والله أعلم .

ذكرُ مرورِ النبيِّ ﷺ بوادى الحِجْرِ من أرضِ ثَمودَ عَامَ تَبُوكَ

قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا عبدُ الصَّمدِ ، حدثنا صَخْرُ بنُ جُوَيْرِيَةَ ، عن نافعٍ ، عنِ ابنِ عُمَرَ ، قال : لما نزَل رسولُ اللهِ ﷺ بالنَّاسِ عامَ تَبُوكَ ، نزَلَ بهم الحِجْرَ عندَ بيوتِ ثَمُودَ ، فاستَسْقَى النَّاسُ مِن الآبارِ التى كانت تشربُ منها ثمودُ ، فعَجَنُوا منها ونصَبوا القُدُورَ باللحمِ ، فأمَرَهم رسولُ اللهِ ﷺ ، فأهْراقُوا القُدورَ ، وعلَفُوا العجينَ الإبلَ ، ثم ارتَحَل بهم حتى نزَل بهم على البئرِ التى كانت تشرَبُ منها الناقةُ ، ونهاهم أن يدخلوا على القومِ الذين عُذِّبُوا ، قال : « إنِّى أخشَى أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم » .

وقال أحمدُ أيضًا[2] : حدثنا عَفَّانُ ، حدثنا عبدُ العزيزِ بنُ مُسْلِمٍ ، حدثنا عبدُ اللهِ بنُ دينارٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ وهو بالحِجْرِ : « لا تدخُلوا على هؤلاءِ القومِ المُعَذَّبينَ ، إلَّا أنْ تكونوا باكِينَ ، فإنْ لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ؛ أَنْ يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم » . أخرجاه فى « الصحيحين »[3] مِن غيرِ وجهٍ . وفى بعضِ الرواياتِ ، أنَّه ، عليه السلامُ ، لمَّا مرَّ بمنازِلهم ، قنَّع رأسَه وأسرَع راحلَتَه ، ونهَى عن دخولِ منازِلهم : « إلَّا أنْ تكونوا باكين » . وفى روايةٍ : « فإنْ لم تبكُوا فتباكَوْا ، خشْيةَ أنْ يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم » . صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه .

---

(١) المسند ١١٧/٢ (صحيح) .

(٢) المسند ١٧٤/٢ (صحيح) .

(٣) البخارى (٤٣٣) ، مسلم (٢٩٨٠) .

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ ، حدثنا المَسْعُودِىُّ ، عن إسماعيلَ بنِ أَوْسَطَ ، عن محمدِ بنِ أبى كَبْشَةَ الأنمارِىِّ ، عن أبيه ، واسمُه عمرُو بنُ سعدٍ ، [2]ويقالُ : عامرُ بنُ سَعْدٍ[2] ، رضى اللهُ عنه قال : لَمَّا كان فى غزوةِ تَبُوكَ ، تسارَع الناسُ إلى أهلِ الحِجْرِ يدخُلون عليهم ، فبلَغ ذلك رسولَ اللهِ ﷺ فنادَى فى الناسِ : « الصلاةُ جامعةٌ » . قال : فأتيتُ النبىَّ ﷺ وهو مُمْسِكٌ بَعِيرَه ، وهو يقولُ : « ما تدخُلُونَ على قومٍ غَضِب اللهُ عليهم ؟ » . فناداه رجلٌ منهم : نَعْجَبُ منهم يا رسولَ اللهِ . قال : « أفلا أُنبِّئُكم[3] بأعجبَ من ذلك ؟ رجُلٌ مِن أنفسِكم ينبِّئُكم بما كان قبلَكم ، وما هو كائنٌ بعدَكم ، فاستقيموا وسدِّدوا ، فإنَّ اللهَ لا يَعْبَأُ بعذابِكم شيئًا ، وسيأتى قومٌ لا يَدفَعُون عن أنفسِهم بشىءٍ » . إسنادُه حَسَنٌ ، و لم يُخرِّجوه . وقد ذُكِرَ أنَّ قومَ صالحٍ كانت أعمارُهم طَويلةً ، فكانوا يبنُون البيوتَ من المَدَرِ[4] فتَخْرَبُ قبلَ موتِ الواحدِ منهم ، فنحتوا لهم بيوتًا فى الجبالِ . [١/٨٥ظ] وذكَروا أنَّ صالِحًا ، عليه السلامُ ، لمَّا سألوه آيةً فأخرَج اللهُ لهم النَّاقةَ من الصخرةِ ، أمرَهم بها وبالولدِ الذى كان فى جَوْفِها ، وحذَّرهم بأْسَ اللهِ إنْ هم نالوها بسُوءٍ ، وأخبرهم أنهم سيَعْقِرونها ، ويكونُ سببُ هلاكِهم ذلك ، وذكَر لهم صفةَ عاقِرِها ، وأنَّه أحمرُ أزرقُ أصهبُ ، فبعثوا القَوابلَ فى البلدِ ، متى وجدوا مولودًا بهذه الصفةِ يَقْتُلْنَه ، فكانوا على ذلك دهرًا طويلًا وانقرضَ جيلٌ وأتَى جيلٌ آخرُ ، فلمَّا كان فى بعضِ الأعصارِ ، خطَب رئيسٌ

---

(١) المسند ٤/٢٣١ ، وقال الهيثمى : فيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى وقد اختلط . مجمع الزوائد ٦/١٩٤ .

(٢ - ٢) سقط من : الأصل . وانظر الإصابة ٧/٣٤١ .

(٣) كذا بالنسخ . وفى المسند : « أنذركم » .

(٤) المدَرُ : قطع الطين اليابس . القاموس (م د ر) .

مِن رؤسائِهم على ابنِه بنتَ آخَرَ مثلِه فى الرياسةِ ، فزوَّجه فوُلِدَ بينَهما عاقِرُ الناقَةِ ، وهو قُدَارُ بنُ سالِفٍ ، فلم تتمكنِ القوابلُ مِن قتلِه ؛ لشرفِ أبوَيْه وجَدَّيْه فيهم ، فنشَأ نشأةً سريعةً ، فكان يشِبُّ فى الجُمُعةِ كما يشِبُّ غيرُه فى شهرٍ ، حتى كان من أمرِه أنْ خرَج مُطاعًا فيهم ، رئيسًا بينَهم ، فسوَّلتْ له نفسُه عَقْرَ الناقَةِ ، واتَّبعَه على ذلك ثمانيةٌ من أشرافِهم ؛ وهم التسعةُ الذين أرادوا قتْلَ صالحٍ ، عليه السَّلامُ ، فلمَّا وقَع من أمرِهم ما وقَع من عَقْرِ الناقَةِ ، وبلَغ ذلك صالحًا ، عليه السلامُ ، جاءهم باكيًا عليها ، فتلقَّوْه يَعتذرون إليه ويقولون : إنَّ هذا لم يقعْ عن مَلأٍ مِنَّا ، وإنما فعَل هذا هؤلاءِ الأحداثُ فينا . فيقالُ : إنه أمرَهم باستدراكِ سَقْبِها حتى يُحسِنوا إليه عِوضًا عنها ، فذهبوا وراءَه ، فصعِد جبلًا هناك ، فلمَّا تصاعدوا فيه وراءَه تعالَى الجبلُ ، حتى ارتفَع فلا ينالُه الطيرُ ، وبكَى الفصِيلُ حتى سالت دموعُه ، ثم استقبَل صالحًا ، عليه السلامُ ، ورغَا ثلاثًا ، فعندَها قال صالحٌ ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ وأخبرهم أنهم يُصبحون مِن غدِهم صُفْرًا ، ثم تَحْمَرُّ وجوهُهم فى الثانى ، وفى اليومِ الثَّالثِ تَسْوَدُّ وجوهُهم ، فلمَّا كان فى اليومِ الرابعِ أتتهم صيحةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ ، فأخمدَتْهم ، فأصبَحوا فى دارِهم جاثمين . وفى بعضِ هذا السِّياقِ نظرٌ ، ومخالفَةٌ لظاهرِ ما يُفْهَمُ من القرآنِ فى شأنِهم وقصتِهم ، كما قدَّمنا . واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ بالصوابِ ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ .

قصةُ إبراهيمَ الخليلِ[1] ، عليه الصلاةُ والسلامُ

هو إبراهيمُ بنُ تارِخَ[2] « ٢٥٠ » بنِ ناحورَ « ١٤٨ » بنِ ساروغَ « ٢٣٠ » بنِ راغو[3] « ٢٣٩ » بنِ فالغَ « ٤٣٩ » بنِ عابرِ « ٤٦٤ » بنِ شالَخِ[4] « ٤٣٣ » بنِ أَرْفَخْشَدَ « ٤٣٨ » بنِ سامِ « ٦٠٠ » بنِ نوحٍ، عليه السلامُ . هذا نصُّ أهلِ الكتابِ فى كتابِهم ، وقد أُعلمتُ على أعمارِهم تحتَ أسمائِهم بالهندِىِّ ، كما ذكروه مِن المُدَدِ[5] ، وقدمنا الكلامَ على عمرِ نوحٍ ، عليه السلامُ ، فأغنَى عن إعادَتِه .

[6]وحكَى الحافظُ ابنُ عساكِرَ[7] فى ترجمةِ إبراهيمَ الخليلِ مِن « تاريخِه » ، عن إسحاقَ بنِ بشرٍ الكاهِلِىِّ ، صاحبِ كتابِ « المبتدأ » أنَّ اسمَ أُمِّ إبراهيمَ أميلةُ . ثم أوردَ عنه فى خبرِ ولادتِها له حكايةً طويلةً . وقال الكلبىُّ[8] : اسمُها نونا بنتُ كرنبا بنِ كوثى مِن بنى أَرْفَخْشَدَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ .

وروَى ابنُ عساكِرَ[9] مِن غيرِ وجهٍ ، عن عِكْرِمةَ ، أنه قال : كان إبراهيمُ ، عليه السَّلامُ يُكْنَى أبا الضِّيفانِ[6] . قالوا : ولما كان عُمُرُ تارِخَ خمسًا

---

(١) فى م ، ص : « خليل الرحمن » .

(٢) فى الأصل : « رباح » ، وفى م ، ص : « تسارخ » . وانظر تاريخ الطبرى ٢٣٣/١ ، الكامل ٩٤/١ ، تاريخ دمشق ١٦٤/٦ - ١٦٦ .

(٣) فى تاريخ الطبرى والكامل : « أرغوا » .

(٤) بعده فى تاريخ الطبرى والكامل : « بن قينان » .

(٥) هذه المدد ليست فى : الأصل ، ص .

(٦ - ٦) سقط من : الأصل .

(٧) تاريخ دمشق ١٦٥/٦ .

(٨) طبقات ابن سعد ٤٦/١ .

(٩) تاريخ دمشق ١٧٣/٦ .

وسبعين سنةً ، [١/٨٦و] وُلِدَ له إبراهيمُ ، عليه السلامُ ، وناحُورُ ، وهارَانُ ، ووُلِدَ لهارَانَ لوطٌ . وعندَهم أن إبراهيمَ ، عليه السلامُ ، هو الأوسطُ ، وأن هارانَ مات فى حياةِ أبيه ، فى أرضِه التى وُلِدَ فيها ، وهى أرضُ الكَلْدَانِيِّين ؛ يعنُونَ أرضَ بابِلَ . (١)وهذا هو الصحيحُ المشهورُ عندَ أهلِ السِّيَرِ والتواريخِ والأخبارِ ، وصحَّح ذلك الحافِظُ ابنُ عساكِرَ(٢) بعد ما روَى مِن طريقِ هشامِ بنِ عمَّارٍ ، عن الوليدِ ، عن سعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ ، عن مَكْحُولٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : وُلِدَ إبراهيمُ بغُوطَةِ دِمشْقَ ، فى قريةٍ يقالُ لها : بَرْزَةُ . فى جبلٍ يقالُ له : قاسِيُونُ . ثم قال : والصّحيحُ أنه وُلِد ببابِلَ ، وإنَّما نُسِبَ إليه هذا المقامُ ؛ لأنَّه صلَّى فيه ، إذ جاء مُعينًا للوطٍ عليه السلامُ(١) . قالوا : فتزوج إبراهيمُ سارَّةَ ، وناحورُ مَلْكَا(٣) ابنةَ هارَانَ ؛ يعنون بابنةِ أخيه . قالوا : وكانت سارَّةُ عاقرًا لا تَلِدُ . قالوا : وانطَلَقَ تارِخُ بابنِه إبراهيمَ وامرأتِه سارَّةَ ، وابنِ ابنِه لوطِ بنِ هارَانَ ، فخرج بهم من أرضِ الكَلْدَانِيِّين إلى أرضِ الكَنْعَانِيِّين ، فنزلوا حَرَّانَ ، فمات فيها تارِخُ وله مائتان وخمسون سنةً . وهذا يدلُّ على أنَّه لم يُولَدْ بحرَّانَ ، وإنما مَولدُه بأرضِ الكَلْدَانِيِّين ، وهى أرضُ بابِلَ وما والَاها . ثم ارتحلوا قاصدِين أرضَ الكَنْعَانِيين ، وهى بلادُ بيتِ المقدسِ فأقاموا بحَرَّانَ ، وهى أرضُ الكَشْدَانِيين فى ذلك الزمانِ ، وكذلك أرضُ الجزيرةِ والشامِ أيضًا ، وكانوا يعبدون الكواكبَ السبعةَ ، والذين عَمَروا مدينةَ دمشقَ كانوا على هذا الدِّينِ ، يستقبلون القُطْبَ الشماليَّ ، ويعبدون الكواكبَ السَّبْعةَ بأنواعٍ من الفَعالِ والمقالِ ؛ ولهذا كان على كلِّ بابٍ من أبوابِ دمشقَ السبعةِ

(١-١) سقط من : الأصل ، ا .

(٢) تاريخ دمشق ٦/١٦٤ وما بعدها .

(٣) سقط من : ح .

القديمةِ هيكلٌ لكوكبٍ[1] منها ، ويعملون لها أعيادًا وقرابينَ ، وهكذا كان أهلُ حَرَّانَ يعبدون الكواكِبَ والأصنامَ ، وكلُّ مَن كان على وجهِ الأرضِ كانوا كفَّارًا ، سوى إبراهيمَ الخليلِ وامرأتِه وابنِ أخيه لوطٍ ، عليهم السَّلامُ ، وكان الخليلُ ، عليه السلامُ ، هو الذى أزال اللهُ به تلك الشرورَ ، وأبطَل به ذاك الضلالَ ؛ فإن اللهَ سبحانه وتعالى آتاه رُشْدَهُ فى صِغَرِه ، وابتعثه رسولًا ، واتخذه خليلًا فى كِبَرِه ، قال تعالى[2] : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] . أى ؛ كان أهلًا لذلك . وقال تعالى[3] : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ [٨٦/١ظ] إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ

(١) فى الأصل : « ككوكب » .

(٢) التفسير ٣٤١/٥ .

(٣) التفسير ٢٧٩/٦ .

ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ * فَـَٔامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٦ - ٢٧] . ثم ذكَر تعالى مُناظَرَتَه لأبيه وقومِه ، كما سنذكرُه إنْ شاء اللهُ تعالى . وكان أولُ دعوتِه لأبيه ، وكان أبوه ممَّن يعبدُ الأصنامَ ؛ لأنه أحقُّ النّاسِ بإخلاصِ النَّصيحةِ له كما قال تعالى[1] : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم ٤١ - ٤٨] . يذكرُ[2] تعالى ما كان بينَه وبينَ أبيه من المحاورةِ والمجادلةِ ، وكيف دعا أباه إلى الحقِّ بألْطَفِ عبارةٍ ، وأحسنِ إشارةٍ ، بيَّنَ لَهُ بطلانَ ما هو عليه من عبادةِ الأصنامِ[3] التى [4]لا تَسمعُ[4] دعاءَ عابدِها ، ولا تُبْصِرُ مكانَه ، فكيف تُغْنِى عنه شيئًا أو تَفعَلُ به خيرًا مِن رِزقٍ أو نصرٍ ؟

---

(١) التفسير ٥/٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) فى م ، ص : « فذكر » .

(٣) فى م : « الأوثان » .

(٤ - ٤) فى ص : « لا يسمع » .

ثم قال له منبِّهًا على ما أعطاه اللهُ مِن الهدَى والعلمِ النافِعِ ، وإنْ كان أصغرَ سنًّا مِن أبيه : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ . أى ؛ مستقِيمًا واضحًا سهلًا حنيفًا ، يُفضِى بك إلى الخيرِ فى دنياكَ وأُخْرَاكَ . فلمَّا عرَض هذا الرُّشْدَ عليه ، وأهدَى هذه النَّصِيحةَ إليه ، لم يقبَلْها منه ولا أخذَها عنه ، بل تهدَّده وتوعَّده ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ . قيل : بالمقالِ . وقيل : بالفَعالِ . ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ . أى ؛ واقْطَعْنِى وأَطِلْ هِجْرانى . فعندَها قال له إبراهيمُ : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ . أى ؛ لا يصلُك منِّى مكروهٌ ، ولا ينالُك منِّى أذًى ، بل أنت سالِمٌ من ناحِيتى . وزاده خيرًا فقال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ . قال ابنُ عباسٍ وغيرُه[1] : أى لطيفًا . يعنى فى أَنْ هدانى لعبادتِه والإخلاصِ له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ [٨٧/١و] وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ . وقد استغفَر له إبراهيمُ ، عليه السلامُ ، كما وعَده فى أدعيتِه ، فلمّا تبيَّن له أنه عدوٌّ للهِ تبرَّأَ مِنه ؛ كما قال تعالى[2] : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

وقال البخارىُّ[3] : حدثنا إسماعيلُ بنُ عبدِ اللهِ ، حدثنى أخى عبدُ الحميدِ ، عن ابنِ أبى ذِئْبٍ ، عن سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ ، وعلى وَجْهِ آزرَ قَتَرةٌ وغَبَرَةٌ ، فيقولُ له إبراهيمُ : أَلَمْ أَقُلْ لك : لا تَعْصِنى ؟ فيقولُ أبوه : فاليومَ

---

(١) تفسير الطبرى ٩٢/١٦ .

(٢) التفسير ١٦١/٤ .

(٣) البخارى (٣٣٥٠) .

لا أعْصِيكَ . فيقولُ إبراهيمُ : يا ربِّ ، إنَّك وعَدتَنى أنْ لا تُخزِنى يومَ يُبْعَثون ، فأىُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِن أبى الأَبْعَدِ ؟ فيقولُ اللهُ : إنِّى حَرَّمْتُ الجنَّةَ على الكافرين . ثم يقالُ : يا إبراهيمُ ، ما تحتَ رِجْلَيْكَ ؟ فينظرُ ، فإذا هو بِذِيخٍ[1] مُتلَطِّخٍ ، فيُؤْخَذُ بقوائِمِه فيُلْقَى فى النَّارِ » . هكذا رواه فى قصَّةِ إبراهيمَ مُنفرِدًا .

وقال فى التفسيرِ[2] : وقال إبراهيمُ بنُ طَهْمَانَ ، عن ابنِ أبى ذئبٍ[3] ، عن [4]سعيدِ ابنِ أبى[4] سعيدٍ المَقْبُرِىِّ ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرةَ . وهكذا رواه النَّسائىُّ[5] ، عن أحمدَ بنِ حَفْصِ بنِ عبدِ اللهِ ، عن أبيه ، عن إبراهيمَ بنِ طَهْمَانَ ، به . وقد رواه البزَّارُ[6] مِن حديثِ حمَّادِ بنِ سَلَمةَ ، عن أيوبَ ، عن محمدِ بنِ سِيرِينَ ، عن أبى هريرةَ ، عن النبىِّ ﷺ بنَحْوِه ، وفى سياقِه غَرابةٌ . ورواه أيضًا مِن حديثِ قَتادةَ ، عن عُقْبةَ بنِ عبدِ الغافرِ ، عن أبى سعيدٍ ، عن النبىِّ ﷺ بنَحْوِه . وقال تعالى[7] : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا يدلُّ على أن اسمَ أبى إبراهيمَ آزَرُ ، وجمهورُ أهلِ النَّسَبِ ، منهم ابنُ عباسٍ ، على أن اسمَ أبيه تارِحُ[8] ، وأهلُ الكتابِ يقولون : تارخُ[9] . بالخاءِ المعجمةِ . فقِيل : إنه لُقِّب بصَنَمٍ كان يعبدُه اسمُه آزَرُ .

---

(١) الذيخ : ذكر الضباع الكثير الشعر . القاموس (ذ ى خ) .
(٢) البخارى (٤٧٦٨) .
(٣) فى ا ، م : « ذؤيب » .
(٤ - ٤) سقط من : ح ، م ، ص .
(٥) النسائى فى الكبرى (١١٣٧٥) .
(٦) لم نجده فى كشف الأستار . وقد عزاه للبزار ابن حجر . فتح البارى ٤٩٩/٨ .
(٧) التفسير ٢٨٢/٣ .
(٨) فى الأصل : « بارخ » .
(٩) فى الأصل : « نارخ » .

وقال ابنُ جرير[1] : والصوابُ أن اسمَه آزرُ ، ولعلَّ له اسمَيْن علَمَيْن ، أو أحدُهما لَقَبٌ والآخرُ عَلَمٌ . وهذا الذى قاله مُحْتَمَلٌ ، والله أعلمُ .

ثم قال تعالى[2] : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ *[١/٨٧ظ] وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٧٥ - ٨٣] .
وهذا المَقامُ مقامُ مناظرةٍ لقومِه ، وبيانٍ لهم أن هذه الأجرامَ المشاهَدَةَ مِن الكواكبِ النَّيِّرةِ [3]لا تَصلُحُ للألوهيَّةِ ، ولا أَنْ تُعْبَدَ مع اللهِ عزّ وجلّ ؛ لأنَّها مخلوقةٌ مربوبةٌ مصنوعةٌ مدبَّرةٌ مسخَّرةٌ[3] ، تَطلُعُ تارةً وتأفُلُ أُخْرَى ، فتغيبُ عن[4] هذا العالمِ ، والربُّ تعالى لا يَغيبُ عنه شيءٌ ولا تَخْفَى عليه خافيةٌ ،

---

(١) تفسير الطبرى ٧/٢٤٤ .
(٢) التفسير ٣/٢٨٤ .
(٣ - ٣) سقط من : الأصل ، ا .
(٤) فى ص : « بين » .

بل هو الدائمُ الباقِى بلا زوالٍ ، لا إلهَ إلا هو ، ولا ربَّ سواه . فبيَّنَ لهم أولًا عدَمَ صلاحيةِ الكوكبِ[1] - قيل : هو الزُّهَرةُ - لذلك ثم ترقَّى منها إلى القمرِ الذى هو أضْوأُ منها وأبْهَى مِن حُسْنِها ، ثم ترقَّى منها إلى الشمسِ التى هى أشدُّ الأجرامِ المشاهَدَةِ ضياءً وسَناءً وبَهاءً ، فبيَّن أنها مُسخَّرةٌ مسيَّرةٌ ، مقدَّرةٌ مربُوبةٌ ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] . ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ أى ؛ طالِعةً ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ أى ؛ لستُ أُبالى فى هذه الآلهةِ التى تعبدونها من دونِ اللهِ ، فإنَّها لا تنفعُ شيئًا ، ولا تسمعُ ولا تَعقِلُ ، بل هى مربوبةٌ ، مسخَّرةٌ ، كالكواكبِ ونحوِها ، أو مصنوعةٌ منحوتةٌ مَنْجُورَةٌ .

والظاهرُ أن موعِظتَه[2] هذه فى الكواكبِ لأهلِ حَرَّانَ ، فإنَّهم كانوا يعبدونها . وهذا يردُّ قولَ مَن زعَم أنه قال هذا حينَ خرَج من السَّرَبِ لما كان صغيرًا كما ذكَره ابنُ إسحاقَ وغيرُه[3] ، وهو مُستنِدٌ إلى أخبارٍ إسرائيليةٍ لا يُوثَقُ بها ، ولا سيما إذا خالفت الحقَّ . وأما أهلُ بابلَ ، فكانوا يعبدون الأصنامَ ، وهم الذين ناظَرهم فى عبادتِها ، وكسَرها عليهم ، وأهانها ، وبيَّن بُطلانَها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ

---

(١) فى م ، ا : « الكواكب » .

(٢) فى ص : « مناظرته » .

(٣) تاريخ الطبرى ١/٢٣٤ . قصص الأنبياء للثعالبى ص٦٤ ، ٦٥ . الكامل ١/٩٥ .

فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ وقال فى سورةِ « الأنبياء »(١) : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن [١/٨٨و] قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ * وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ * قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١ - ٧٠] . وقال فى سورةِ « الشعراء »(٢) : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم

---

(١) التفسير ٥/٣٤١ .

(٢) التفسير ٦/١٥٥ .

مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٩ - ٨٣] .

وقال تعالى فى سورةِ « الصَّافَّات »[1] : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٨٣ - ٩٨] . يُخبرُ اللهُ تعالى عن إبراهيمَ خَليلِه ، عليه السلامُ ، أنه أنكَر على قومِه عبادةَ الأوثانِ ، وحقَّرها عندَهم وصغَّرها ، وتنقَّصها ، فقال : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُم لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ أى ؛ مُعتكِفُون عندَها ، وخاضِعون لها . قالوا : ﴿ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ ما كان حُجَّتَهم إلا صنيعُ [١/٨٨ظ] الآباءِ والأجدادِ ، وما كانوا عليه مِن عبادةِ الأندادِ ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال قَتادةُ[2] : فما ظنُّكم به أنَّه فاعلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عبدتُم غيرَه ؟ وقال لهم : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ سلَّموا

---

(١) التفسير ٧/٢٠ .

(٢) تفسير الطبرى ٢٢/٧٠ .

له أنها لا تسمعُ داعيًا ولا تَنفعُ ولا تَضرُّ شيئًا ، وإنما الحاملُ لهم على عبادتِها الاقتداءُ بأسلافِهم ، ومَن هو مِثْلُهم فى الضلالِ من الآباءِ الجُهَّالِ ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وهذا بُرهانٌ قاطعٌ على بُطلانِ إلـٰهيةِ ما ادَّعَوْه من الأصنامِ ؛ لأنه تبرَّأ منها وتنقَّص بها ، فلو كانت تضرُّ لضَرَّته ، أو تؤثِّرُ لأثَّرتْ فيه ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴾ يقولون : هذا الكلامُ الذى تقولُه لنا وتتنقَّصُ به آلهتَنا ، وتَطعَنُ بسببِه فى آبائِنا ، تقولُه مُحِقًّا جادًّا فيه أم لاعبًا ؟ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ يعنى : بل أقولُ لكم ذلك جادًّا مُحِقًّا ؛ إنما إلهُكم اللهُ الذى لا إلهَ إلا هو ربُّكم وربُّ كلِّ شىءٍ ، فاطِرُ السَّمواتِ والأرضِ ، الخالقُ لهما على غيرِ مثالٍ سبَق ، فهو المستَحِقُّ للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له ، وأنا على ذَلِكُم من الشاهدين . وقولُه : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ أَقْسَم لَيَكيدَنَّ هذه الأصنامَ التى يعبدونها بعدَ أَنْ تولَّوْا مُدبرين إلى عيدِهم . قيلَ : إنه قال هذا خُفْيَةً فى نفسِه[1] . وقال ابنُ مسعودٍ : سَمِعه بعضُهم[2] . وكان لهم عيدٌ يذهبون إليه فى كلِّ عامٍ مرةً إلى ظاهرِ البلدِ ، فدعاه أبوه ليحضُرَه ، فقال : إنى سَقِيمٌ . كما قال تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ عَرَّض لهم فى الكلامِ حتى توصَّل إلى مقصودِه مِن إهانةِ أصنامِهم ، ونُصرةِ دينِ اللهِ الحَقِّ فى بطلانِ ما هم عليه مِن عبادةِ الأصنامِ التى تَستحقُّ أن تُكسَّرَ ، وأن تُهانَ غايةَ الإهانةِ . فلما خرجُوا إلى عيدِهم واستقرَّ هو فى بلدِهم ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أى ذهب إليها مسرِعًا مُستَخْفِيًا ،

---

(١) تفسير الطبرى ٣٧/١٧ .

(٢) التفسير ٣٤٣/٥ .

فوجَدها فى بَهْوٍ عظيمٍ ، وقد وضَعوا بينَ أيديها أنواعًا من الأطعمةِ ، قُرْبانًا إليها ، فقال لها على سبيلِ التَّهكُّمِ والازدراءِ : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ لأنَّها أقوى وأبْطَشُ وأسْرَعُ وأقْهَرُ . فكسَّرها بقَدُومٍ فى يدِه ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أى ؛ حُطامًا . كسَّرها كلَّها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ قيل[1] : إنه وضَع القَدُومَ فى يدِ الكبيرِ [٨٩/١و] ؛ إشارةً إلى أنه غارَ [2]أن تُعبَدَ[2] معه هذه الصِّغارُ . فلما رجَعوا من عيدِهم ، ووجَدوا ما حَلَّ بمعبُودِهم ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهذا فيه دليلٌ ظاهرٌ لهم ، لو كانوا يعقلون ، وهو ما حَلَّ بآلهتِهم التى كانوا يعبدُونها ، فلو كانت آلهةً لَدفعتْ عن أنفسِها مَن أرادها بسوءٍ ، لكنهم قالوا مِن جهلِهم وقلةِ عقلِهم وكثرةِ ضلالِهم وخَبالِهم : ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أى ؛ يذكرُها بالعَيْبِ والتنقُّصِ لها والازدراءِ بها ، فهو المُقيمُ عليها والكاسرُ لها . وعلى قولِ ابنِ مسعودٍ يذكرُهم بقولِه : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ . ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أى فى الملإِ الأكبرِ على رءُوسِ الأشهادِ ، لعلَّهم يشهدون مقالتَه ويسمعون كلامَه ، ويعاينون ما يَحِلُّ به من الاقتصاصِ منه[3] . وكان هذا من[4] أكبرِ مقاصدِ الخليلِ عليه السلامُ ؛ أن يجتمِعَ الناسُ كلُّهم ، فيُقيمَ على جميعِ عُبَّادِ الأصنامِ الحُجَّةَ على بطلانِ ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلامُ لفرعونَ : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ

---

(١) تفسير الطبرى ١٧/٣٨ ، ٣٩ .

(٢ - ٢) فى الأصل : « من يعبد » ، وفى ص : « إلى أن تعبد » .

(٣) فى ص : « عنه » .

(٤) سقط من : م ، ا .

ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] . فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ قيل : معناه ، هو[1] الحاملُ لى على تكسيرِها . وإنما عرَّض لهم فى القولِ ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وإنما أراد بقولِه هذا أن يبادروا إلى القولِ بأنَّ [2]هذه لا تَنطِقُ[2] ، فيعترفوا بأنها جَمادٌ كسائرِ الجماداتِ ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أى ؛ فعادُوا على أنفسِهم بالمَلامةِ ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أى ؛ فى تَرْكِها لا حافظَ لها ولا حارسَ عندَها ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ قال السُّدِّىُّ[3] : أى ثم رجعوا إلى الفتنةِ . فعلى هذا يكونُ قولُه : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ أى فى عبادتِها . وقال قتادةُ : أدركَت القومَ حَيْرةُ[4] سَوْءٍ . أى فأطرَقوا ثم قالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ أى لقد علمتَ يا إبراهيمُ أن هذه لا تَنطِقُ ، فكيف تأمُرُنا بسؤالِها ؟ فعندَ ذلك قال لهم الخليلُ عليه السلامُ : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كما قال : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ قال مُجاهِدٌ[5] : يُسرِعون . ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أى كيف تعبدون أصنامًا أنتم تَنْحِتونها من الخشبِ والحجارةِ ، وتُصوِّرونها وتُشكِّلونها كما تريدون ؟ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وسواءٌ كانت « ما » مَصْدريةً أو بمعنى « الذى » فمقتضَى الكلامِ أنكم مخلوقون وهذه [٨٩/١ظ] الأصنامُ مخلوقةٌ ، فكيف يَعْبُدُ مخلوقٌ مخلوقًا مثلَه ؟ فإنَّه ليس عبادتُكم

(١) فى الأصل : « وهو » .
(٢ - ٢) فى ص : « هذا لا ينطق » .
(٣) تفسير الطبرى ٤٢/١٧ .
(٤) فى ص : « حسرة » .
(٥) تفسير الطبرى ٧٤/٢٢ .

لها بأَوْلَى مِن عبادتِها لكم ، وهذا باطلٌ ؛ فالآخَرُ باطلٌ للتحكُّمِ ، إذ ليست العبادةُ تجبُ ولا تصلُحُ إلا للخالقِ وحدَه لا شريكَ له ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ * فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ . عدَلوا عن الجِدالِ والمُناظرةِ لَمّا انقطَعوا وغُلِبوا ، ولم تَبْقَ لهم حُجَّةٌ ولا شُبْهَةٌ إلا استعمالُ قوَّتِهم وسلطانِهم ؛ لينصُروا ما هم عليه مِن سَفَهِهم وطُغْيانِهم ، فكادَهم الربُّ جلَّ جلالُه ، وأعْلَى كلمتَه ودينَه وبرهانَه ؛ كما قال تعالى : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ * قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ وذلك أنهم شرَعوا يجمعُون حطبًا من جميعِ ما يمكنُهم من الأماكنِ ، فمكثُوا مدةً يجمعُون له ، حتى إن المرأةَ منهم كانت إذا مرِضتْ تَنْذِرُ ؛ لئِنْ عُوفِيَتْ لتحمِلَنَّ حطبًا لحريقِ إبراهيمَ ، ثم عمَدُوا إلى جَوْبَةٍ[١] عظيمةٍ ، فوضَعوا فيها ذلك الحطبَ وأطلَقوا فيه النارَ ، فاضطرمتْ[٢] وتأجَّجتْ والْتهبتْ وعَلا لها شَرَرٌ لم يُرَ مثلُه قطُّ ، ثم وضَعوا إبراهيمَ ، عليه السلامُ ، فى كِفَّةِ مَنْجَنِيقٍ ، صنَعه لهم رجُلٌ من الأكرادِ يقالُ له : هيزنُ[٣] . وكان أولَ مَن صنَع المجانيقَ ، فخسَف اللهُ به الأرضَ ، فهو يتجَلْجَلُ فيها إلى يومِ القيامةِ[٤] . ثم أخَذوا يُقيِّدونه ويُكتِّفونه ، وهو يقولُ : لا إلهَ إلا أنت ، سُبحانَك لك الحمدُ ولك المُلْكُ ، لا شريكَ لك[٥] .

فلما وُضِع الخليلُ عليه السلامُ فى كِفَّةِ المَنْجَنيقِ مُقَيَّدًا مكتوفًا ، ثم ألْقَوْه

---

(١) الجَوْبةُ : الحفرة . القاموس (ج و ب) .

(٢) فى ص : « اضطربت » .

(٣) فى م ، ص : « هزن » ، وفى تاريخ الطبرى : « هينون » ، وفى تفسيره : « هيزن » وكذلك فى الكامل .

(٤) تفسير الطبرى ٤٣/١٧ .

(٥) تفسير الطبرى ٤٥/١٧ .

منه إلى النارِ ، قال : حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ . كما روَى البخاريُّ[1] عن ابنِ عباسٍ ، أنه قال : حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ ؛ قالها إبراهيمُ حينَ أُلْقِيَ فى النارِ ، وقالها محمدٌ حينَ قِيل له : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] الآيةِ .

وقال أبو يَعْلَى[2] : حدثنا أبو هشامٍ الرِّفاعىُّ ، حدثنا إسحاقُ بنُ سليمانَ ، عن أبى جعفرٍ الرَّازىِّ ، عن عاصِمِ بنِ أبى النَّجُودِ ، عن أبى صالحٍ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : قال ﷺ : « لَمّا أُلْقِىَ إبراهيمُ فى النّارِ ، قال : اللهم إنّكَ فى السماءِ واحدٌ ، وأنا فى الأرضِ واحدٌ أعبُدُك » .

وذكَر بعضُ السلفِ[3] أن جبريلَ عرَض له فى الهواءِ ، فقال : أَلَكَ حاجةٌ ؟ فقال : أمَّا إليك فلا . ويُروَى عن ابنِ عباسٍ ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنه قال : جعَل مَلَكُ المطرِ يقولُ : متى أُومَرُ فأُرسِلَ المطرَ ؟ فكان أمرُ اللهِ أَسْرَعَ ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال علىُّ بنُ أبى طالبٍ : أى لا تَضُرِّيه . وقال ابنُ عباسٍ وأبو العاليةِ : لولا أن اللهَ قال : ﴿ وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لَأَذَى إبراهيمَ بردُها . وقال كعبُ الأحبارِ : لم ينتفعْ أهلُ الأرضِ يومئذٍ بنارٍ ، ولم يُحْرَقْ منه سوى وَثَاقِه . وقال الضَّحاكُ : [١/٩٠و] يُرْوَى أن جبريلَ ، عليه السلامُ ، كان معه يمسَحُ العرَقَ عن وجهِه ، لم يصبْه منها شىءٌ غيرُه . وقال السُّدِّىُّ : كان معه أيضًا مَلَكُ الظِّلِّ . وصار إبراهيمُ

---

(١) البخارى (٤٥٦٣) .

(٢) لم نهتد إليه فى مسنده . لكن رواه أبو نعيم فى الحلية ١٩/١ ، والخطيب فى تاريخ بغداد ٣٤٦/١٠ كلاهما من طريق أبى هشام الرفاعى به . وذكره فى الدر المنثور ٣٢٢/٤ وعزاه إلى أبى يعلى .

(٣) أورد هذه الأقوال الطبرى فى تفسيره ٤٤/١٧ ، ٤٥ .

عليه السلامُ فى (١مِثْلِ الجُونَةِ١) ، حولَه النارُ وهو فى روضةٍ خضراءَ ، والناسُ ينظرون إليه ، لا يقدرون على الوصولِ إليه ، ولا هو يخرجُ إليهم . فعن أبى هُرَيرةَ ، أنه قال : أحسنُ كلمةٍ قالها أبو إبراهيمَ ، إذْ قال لما رأى ولدَه على تلك الحالِ : نِعمَ الربُّ ربُّك يا إبراهيمُ .

وروَى ابنُ عساكرَ[٢] ، عن عِكْرِمةَ ، أَنّ أمَّ إبراهيمَ نظَرت إلى ابنِها ، عليه السلامُ ، فنادتْه : يا بنى ، إنى أريدُ أن أجيءَ إليك ، فادعُ اللهَ أن يُنجِّيَنى مِن حرِّ النارِ حولَك . فقال : نعم . فأقبلتْ إليه لا يَمَسُّها شيءٌ مِن حرِّ النارِ ، فلمّا وصلتْ إليه اعتنقته وقبَّلتْه ، ثم عادت .

وعن المِنْهالِ بنِ عمرٍو[٣] أنه قال : أُخْبِرتُ أن إبراهيمَ مكَث هناك إمَّا أربعين وإمَّا خمسين يومًا ، وأنه قال : ما كنتُ أيامًا وليالىَ أطيبَ عيشًا إذ كنتُ فيها ، ووددْتُ أن عَيْشِى وحياتِى كلَّها مثلُ إذ كنتُ فيها . صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه . فأرادوا أن ينتصروا فخُذِلوا ، وأرادوا أن يرتفِعوا فاتَّضَعُوا ، وأرادوا أنْ يَغْلِبوا فغُلِبوا . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ وفى الآيةِ الأخرى : ﴿ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ ففازوا بالخسارةِ والسَّفالِ ، هذا فى الدنيا ، وأمّا فى الآخرةِ فإن نارَهم لا تكونُ عليهم بردًا ولا سلامًا ، ولا يُلَقَّوْن فيها تحيةً ولا سلامًا ، بل هى كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] .

قال البخارىُّ[٤] : حدثنا عُبَيْدُ اللهِ بنُ موسَى أو ابنُ سَلّامٍ عنهُ ، أنبأنا

(١ - ١) فى م : « ميل الجوبة » ، وفى ص : « ميل الحوبة » .

(٢) تاريخ دمشق ١٨٤/٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٤٦/٥ . والطبرى ٤٤/١٧ . دون ذكر مدة مقامه فى النار .

(٤) البخارى (٣٣٥٩) .

ابنُ جُرَيْجٍ ، عن عبدِ الحميدِ بنِ جُبَيرٍ ، عن سعيدِ بنِ المُسيَّبِ ، عن أمّ شَرِيكٍ ، أنّ رسولَ اللهِ ﷺ أمَر بقتلِ الوَزَغِ[1] ، وقال : « كان ينفُخُ على إبراهيمَ » . ورواه مسلمٌ[2] مِن حديثِ ابنِ جُرَيْجٍ ، وأخرجاه ، والنَّسائىُّ وابنُ ماجَهْ[3] من حديثِ سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ ، كلاهما عن عبدِ الحميدِ بنِ جُبَيْرِ ابنِ شَيْبَةَ به .

وقال أحمدُ[4] : حدثنا محمدُ بنُ بَكْرٍ ، حدثنا ابنُ جُرَيْجٍ ، أخبرنى عبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبى أُمَيَّةَ ، أن نافِعًا مولى ابنِ عمرَ أخبره ، أن عائشةَ أخبَرتْه ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « اقتلوا الوَزَغَ ، فإنّه كان ينفُخُ على إبراهيمَ النَّارَ » . قال : فكانت عائشةُ تقتلُهنَّ .

وقال أحمدُ[5] : حدثنا إسماعيلُ ، حدثنا أيوبُ ، عن نافعٍ ، أن امرأةً دخلت على عائشةَ ، فإذا رُمْحٌ منصوبٌ ، فقالت : ما هذا الرُّمْحُ ؟ فقالت : نَقتلُ به الأَوْزَاغَ . ثم حدَّثتْ عن رسولِ اللهِ ﷺ أن إبراهيمَ لما أُلْقِىَ فى النّارِ ، جعَلت الدَّوابُّ كلُّها تُطْفِئُ عنه ، إلا الوزَغَ فإنه جعَل يَنفُخُها عليه . تفرد به أحمدُ من هذين الوجهين .

وقال أحمدُ[6] : حدثنا عَفَّانُ ، حدثنا جَرِيرٌ ، حدثنا نافِعٌ ، حدَّثتْنى سائِبَةُ ، مولاةٌ للفاكِهِ بنِ المغيرةِ ، قالت : دخلتُ على [١/٩٠ظ] عائشةَ ،

---

(١) الوَزَغُ ؛ مفردها وَزَغَة : سامُّ أبرص . سميت بها لخفتها وسرعة حركتها .
(٢) مسلم (٢٢٣٧) .
(٣) البخارى (٣٣٠٧) ، مسلم (٢٢٣٧) ، النسائى (٣٨٦٨) ، ابن ماجه (٣٢٢٨) .
(٤) المسند ٢٠٠/٦ .
(٥) المسند ٢١٧/٦ .
(٦) المسند ٨٣/٦ .

فرأيتُ فى بيتِها رُمْحًا موضوعًا ، فقلتُ : يا أمَّ المؤمنين ، ما تصنعون بهذا الرُّمْحِ ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغِ ، نقتُلُهنَّ به ؛ فإنّ رسولَ اللهِ ﷺ حدثنا أن إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ حينَ أُلْقِيَ فى النّارِ لم تكنْ فى الأرضِ دابَّةٌ إلا تُطْفئُ عنه النَّارَ ، غيرَ الوزَغِ كان يَنفُخُ عليه ، فأمَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ بقَتْلِه .
ورواه ابنُ ماجَهْ[1] ، عن أبى بكرِ ابنِ أبى شَيْبَةَ ، عن يونُسَ بنِ محمدٍ ، عن جريرِ بنِ حازمٍ ، به .

(١) ابن ماجه (٣٢٣١) . (صحيح ابن ماجه ٢١٨/٢) . وانظر الصحيحة (١٥٨١) .

ذكرُ مناظرةِ إبراهيمَ الخليلِ مع من(1) أراد أن ينازعَ العظيمَ الجليلَ فى إزارِ العظمةِ ورداءِ الكبرياءِ فادَّعى(1) الربوبيَّةَ، وهو أحدُ العبيدِ الضعفاءِ

قال اللهُ تعالى(2) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] . يذكرُ تعالى مناظرةَ خليلِه مع هذا الملِكِ الجبارِ المتمرِّدِ ، الذى ادَّعى لنفسِه الربوبيةَ ، فأبطَل الخليلُ عليه السلامُ دليلَه ، وبيَّن كثرةَ جهلِه وقلةَ عقلِه ، وألْجَمه الحُجَّةَ وأوضَح له طريقَ المَحَجَّةِ .

قال المفسرون وغيرُهم من علماءِ النَّسَبِ والأخبارِ : وهذا الملكُ هو ملِكُ بابلَ ، واسمُه : النُّمْرُودُ بنُ كَنْعَانَ بنِ كُوشِ(3) بنِ سامِ بنِ نوحٍ . قاله مُجاهِدٌ . وقال غيرُه : نُمْرُودُ بنُ فالَحِ بنِ عابرِ بنِ صالحِ(4) بنِ أَرْفَخْشَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ . قال مُجاهدٌ وغيرُه : وكان أحدَ ملوكِ الدنيا .

(1 - 1) فى م : « ادعى » .

(2) التفسير ٤٦٢/١ .

(3) فى ص : « لوش » ، وفى تاج العروس ٥١٩/٢ ، ونهاية الأرب ٢٨٩/٢ : « كوش بن حام » وليس « بن سام » .

(4) سقط من : ا . وفى ح : « شالخ » ، وفى ص : « شالح » .

فإنه قد ملَك الدنيا فيما ذكروا أربعةٌ ؛ مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان ذو القَرْنَيْن وسُلَيمانُ ، والكافران النُّمْرُودُ وبُخْتُنَصَّرَ . وذكروا أن نُمْرُودًا هذا استمر فى مُلكِه أربعَمائةِ سنةٍ ، وكان قد طغَى وبغَى ، وتجبّر وعتَى ، وآثر الحياةَ الدنيا ، ولما دعاه إبراهيمُ الخليلُ إلى عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، حمَله الجهلُ والضلالُ وطولُ الإمْهالِ[1] على إنكارِ الصانعِ ، فحاجَّ إبراهيمَ الخليلَ فى ذلك ، وادَّعَى لنفسِه الربوبيةَ . فلما قال له الخليلُ : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ .

قال قَتادةُ والسُّدِّىُّ ومحمدُ بنُ إسحاقَ : يعنى أنه إذا أُتِىَ بالرجلين قد تحتَّم قتْلُهما ، فإذا أمَر بقتلِ أحدِهما وعفَا عن الآخَرِ ، فكأنَّه قد أحيا هذا وأمات الآخَرَ[2] . وهذا ليس بمعارَضةٍ للخليلِ ، بل هو كلامٌ خارجىٌّ عن مَقامِ المُناظرةِ ، ليس بمَنْعٍ ولا بمعارضةٍ ، بل هو تَشْغِيبٌ مَحْضٌ ، وهو انقطاعٌ فى الحقيقةِ ؛ فإن الخليلَ استدلَّ على وجودِ الصانعِ [١/٩١و] بحدوثِ هذه المُشاهَدَاتِ - مِن إحياءِ الحيواناتِ وموتِها - على وجودِ فاعلٍ ذلك الذى لا بدَّ مِن استنادِها إلى وجودِه [3]ضرورةً ، وعَدَمِ[3] قيامِها[4] بنفسِها ، ولا بدَّ مِن فاعلٍ لهذه الحوادثِ المشاهَدَةِ ؛ مِن خَلْقِها وتسخيرِها ، وتسْيِيرِ هذه الكواكبِ والرياحِ والسَّحابِ والمطرِ ، وخلقِ هذه الحيواناتِ التى توجَدُ مشاهَدَةً ، ثم إماتتِها ؛ ولهذا ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ فقولُ

(١) فى ا ، م ، ص : « الآمال » .
(٢) تفسير الطبرى ٣/٢٥ - ٢٧ .
(٣ - ٣) كذا فى ا ، وفى بقية النسخ : « عدم » .
(٤) فى ص : « فنائها » .

هذا الملِكِ الجاهلِ : ﴿ أَنَا۠ أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ . إن عنَى أنه الفاعلُ لهذه المشاهَدَاتِ فقد كابَر وعانَد ، وإن عنَى ما ذكَره قَتادةُ والسُّدِّىُّ ومحمدُ بنُ إسحاقَ ، فلم يقلْ شيئًا يتعلقُ بكلامِ الخليلِ ؛ إذْ لم يمنَعْ مقدِّمةً ولا عارَضَ الدليلَ .

ولمّا كان انقطاعُ مناظرةِ هذا الملِكِ قد تَخفَى على كثيرٍ من الناسِ مِمَّن حضَره وغيرِهم ، ذكَر دليلًا آخرَ بيَّن وجودَ الصانعِ وبُطلانَ ما ادَّعاه النُّمْرودُ وانقطاعَه جَهْرةً ﴿ قَالَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ أى هذه الشمسُ مسخَّرةٌ ، كلَّ يومٍ تَطلُعُ من المشرقِ ، كما سخَّرها خالقُها ومسيِّرُها وقاهرُها ، وهو اللهُ الذى لا إلهَ إلا هو خالقُ كلِّ شىءٍ ، فإنْ كنتَ كما زعَمتَ مِن أنّك الذى تحيى وتُميتُ ، فَأْتِ بهذه الشمسِ مِن المغربِ ، فإن الذى يُحيى ويُميتُ هو الذى يفعلُ ما يشاءُ ولا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ ، بل قد قهَر كلَّ شىءٍ ، ودان له كلُّ شىءٍ ، فإنْ كنتَ كما تزعُمُ فافعَلْ هذا ، فإنْ لم تَفعلْه فلستَ[1] كما زعمتَ ، وأنت تعلمُ وكلُّ أحدٍ ، أنّك لا تقدِرُ على شىءٍ مِن هذا ، بل أنت أعجزُ وأقلُّ من أَنْ تَخلُقَ بَعوضةً أو تَنْتَصِرَ[2] منها . فبيَّن ضلالَه وجهْلَه وكَذِبَه فيما ادَّعاه وبُطْلانَ ما سلَكه وتبجَّحَ به عندَ جَهَلَةِ قومِه ، ولم يَبْقَ له كلامٌ يُجيبُ الخليلَ به ، بل انقطَع وسكَت ؛ ولهذا قال : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

وقد ذكَر السُّدِّىُّ أنَّ هذه المناظَرةَ كانت بينَ إبراهيمَ وبينَ النُّمرودِ يومَ خرَج من النارِ ، ولم يكنِ اجتمَع به إلا[3] يومئذٍ ، فكانت بينَهما هذه المناظَرةُ .

---

(١) سقط من : ص .

(٢) فى م ، ا : « تنصر » .

(٣) سقط من : م .

(1)وقد روَى عبدُ الرزاقِ ، عن مَعْمَرٍ ، عن زيدِ بنِ أَسْلَمَ ، أن النُّمرودَ كان عندَه طعامٌ ، وكان الناسُ يَفِدون إليه للمِيرَةِ ، فوفَد إبراهيمُ فى جُمْلَةِ مَن وفَد للمِيرَةِ ، فكان بينَهما هذه المناظَرةُ(1) ، ولم يُعْطِ إبراهيمَ مِن الطعامِ كما أَعطَى الناسَ ، بل خرَج وليس معه شئٌ مِن الطعامِ ، فلما قَرُبَ من أهلِه ، عَمَد إلى كَثِيبٍ من الترابِ ، فملأَ منه عِدْلَيْه ، وقال : أَشْغَلُ أهلى إذا قدِمتُ عليهم . فلما قَدِم وضَع رِحالَه ، وجاء فاتَّكأ فنام ، فقامتِ امرأتُه سارَّةُ إلى العِدْلَيْنِ فوجدتْهما ملآنَيْن طعامًا طيبًا ، فعَمِلت منه طعامًا ، فلمَّا [٩١/١ظ] استيقظ إبراهيمُ وجَد الذى قد أصلحوه ، فقال : أنَّى لكم هذا ؟ قالت : مِن الذى جئتَ به . فعرَف أنه رزقٌ رَزَقَهُمُوه اللهُ عز وجل .

قال زيدُ بنُ أَسْلَمَ(2) : وبعث اللهُ إلى ذلك المَلِكِ الجبارِ ملَكًا يأمرُه بالإيمانِ باللهِ فأبَى عليه ، ثم دعاه الثانيةَ فأبَى عليه ، ثم الثالثةَ فأبَى عليه ، وقال : اجمَعْ جُمُوعَك وأَجْمَعُ جُمُوعى . فجمع النُّمرودُ جيشَه وجنودَه وقتَ طلوعِ الشَّمسِ ، فأرسَل اللهُ عليه ذبابًا من البَعُوضِ ، بحيثُ لم يَرَوْا عينَ الشمسِ ، وسلَّطها اللهُ عليهم ، فأكلتْ لحومَهم ودماءَهم وتركتهم عظامًا باليةً ، ودخلَتْ واحدةٌ منها فى مَنْخَرَيِ(3) المَلِكِ ، فمكثت فى مَنْخَرَيْهِ(4) أربعَمائةِ سنةٍ ، عذَّبه اللهُ تعالى بها ، فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمَرازِبِ(5) فى هذه المدةِ كلِّها ، حتى أهلكه اللهُ عز وجل بها . واللهُ تعالى أعلمُ .

(1 - 1) سقط من : ص . وهو فى تفسير عبد الرزاق ١/١٠٥ ، ١٠٦ .
(2) تفسير الطبرى ٣/٢٥ .
(3) فى م : « منخر » ، وفى الطبرى : « منخره » .
(4) فى م : « منخرها » .
(5) فى م : « بالمزارب » .

ذكرُ هجرةِ الخليلِ
عليه السلامُ إلى بلادِ الشامِ، ودخولِه
الديارَ المصريةَ، واستقرارِه فى الأرضِ المقدسةِ

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٦ ، ٢٧] . وقال تعالى[2] : ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ * وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٣] . لمَّا هجَر قومَه فى اللهِ ، وهاجَر مِن بين أَظْهُرِهم ، وكانت امرأتُه عاقِرًا ، لا يُولَدُ لها ، ولم يكنْ له مِن الولدِ أحدٌ ، بل معه ابنُ أخيه لوطُ بنُ هارانَ بنِ آزرَ ، وهبَه اللهُ تعالى بعدَ ذلك الأولادَ الصالحين ، وجعَل فى ذريتِه النُّبوةَ والكِتابَ ؛ فكلُّ نبىٍّ بُعِث بعدَه فهو من ذريتِه ، وكلُّ كتابٍ نزَل من السماءِ على نبىٍّ مِن الأنبياءِ مِن بعدِه فعلى أَحَدِ نَسْلِه وعَقِبِه ، خِلْعَةً مِن اللهِ وكرامةً له حينَ ترَك بلادَه وأهلَه وأقرِباءَه[3] ، وهاجَر إلى بلدٍ يتمكنُ فيها مِن عبادةِ ربِّه عز وجل ، ودعوةِ الخلقِ إليه . والأرضُ التى قصَدها بالهجرةِ أرضُ الشامِ ، وهى التى قال اللهُ عز وجل[2] : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ قاله أُبَىُّ بنُ كَعْبٍ ، وأبو العاليةِ ،

---

(١) التفسير ٦/٢٨٢ .

(٢) التفسير ٥/٣٤٧ .

(٣) فى ص : « قرباه » .

وقَتادةُ وغيرُهم[1] .

وروى العَوْفِىُّ عن ابنِ عباسٍ : قولُه : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ مكةُ ، ألم تسمعْ إلى قولِه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا [١/٩٢و] وَهُدًى لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] . وزعَم كعبُ الأحبارِ أنَّها[2] حَرَّانُ . وقد قدَّمنا عن نقلِ أهلِ الكتابِ أنه خرَج من أرضِ بابلَ ، هو وابنُ أخيه لوطٌ ، وأخوه ناحُورُ ، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ ، وامرأةُ أخيه مَلْكا ، فنزلوا حَرَّانَ ، فمات تارِخُ أبو إبراهيمَ بها .

وقال السُّدِّىُّ : انطلَق إبراهيمُ ولوطٌ قِبَلَ الشَّامِ ، فلقِىَ إبراهيمُ سارَّةَ ، وهى ابنةُ ملِكِ حَرَّانَ ، وقد طعنَتْ على قومِها فى دينِهم ، فتزوَّجَها على أنْ لا يُغَيِّرَها . رواه ابنُ جَرِيرٍ ، وهو غريبٌ . والمشهورُ أنها ابنةُ عمِّه هارانَ الذى تُنْسَبُ إليه حَرَّانُ . ومَنْ زعَم أنها ابنةُ أخيه هارانَ ، أختُ لوطٍ ، كما حكاه السُّهَيْلِىُّ[3] عن القُتَبِىِّ[4] والنَّقاشِ ، فقد أبْعَدَ النُّجْعةَ ، وقال بلا علمٍ ، وادَّعَى أن تزويجَ بنتِ الأخِ كان إذْ ذاك مشروعًا ، فليس له على ذلك دليلٌ . ولو فُرِض أن هذا كان مشروعًا فى وقتٍ ، كما هو منقولٌ عن الرَّبَّانيِّين من اليهودِ ، فإن الأنبياءَ لا تَتعاطَاه . واللهُ أعلمُ . ثم المشهورُ أن إبراهيمَ عليه السلامُ لمَّا هاجَر مِن بابِلَ ، خرَج بسارَّةَ مهاجرًا من بلادِه كما تقدَّم . واللهُ أعلمُ . وذكَر أهلُ الكتابِ أنه لمّا قدِمَ الشامَ أوحَى اللهُ إليه : إنِّى جاعِلٌ هذه الأرضَ لخَلَفِك مِن بعدِك . فابْتَنَى إبراهيمُ مَذْبَحًا للهِ ؛ شكرًا على هذه النعمةِ ، وضرَب قُبَّته شرقىَّ بيتِ

---

(١) هذه الرواية والروايات التى بعدها فى تفسير الطبرى ١٧/٤٥ - ٤٧ .

(٢) فى ص : « أنه » .

(٣) الروض الأنف ١/٨٧ ، ٨٨ . وضعف هذا القول .

(٤) فى م ، ص : « القتيبى » .

المقدسِ ، ثم انطلَق مرتحِلًا إلى اليَمَنِ[1] ، وأنه كان جوعٌ ؛ أى قَحْطٌ وشدةٌ وغَلاءٌ ، فارتحَلوا إلى مصرَ ، وذكروا قصةَ سارَّةَ مع مَلِكِها ، وأن إبراهيمَ قال لها : قُولى : أنا أختُه . وذكروا إخدامَ الملِكِ إياها هاجَرَ ، ثم أخرجهم منها فرجَعوا إلى بلادِ التيمُّنِ ؛ يعنى أرضَ بيتِ المقدسِ وما والاها ، ومعه دَوَابُّ وعبيدٌ وأموالٌ .

وقد قال البخارىُّ[2] : حدثنا محمدُ بنُ مَحْبُوبٍ ، حدثنا حمادُ بنُ زيدٍ ، عن أيوبَ ، عن محمدٍ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : لم يَكْذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ ؛ ثِنْتان منهنّ فى ذاتِ اللهِ ؛ قولُه : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ، وقولُه : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ وقال : بينا هو ذاتَ يومٍ وسارَّةُ ، إذ أتَى على جبَّارٍ من الجبابرةِ ، فقيل له : هٰهنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسنِ الناسِ . فأرسَل إليه فسأَلَه عنها ، فقال : مَن هذه ؟ قال : أختى . فأتَى سارَّةَ ، فقال : يا سارَّةُ ، ليس على وجهِ الأرضِ مؤمنٌ غيرى وغيرَك ، وإنَّ هذا سألنى فأخبَرتُه أنَّكِ أختى ، فلا تُكَذِّبينى . فأرسَل إليها ، فلما دخلت عليه ذهَب يتناولُها بيدِه ، فأُخِذ ، فقال : ادْعِى اللهَ لى ولا أضُرُّكِ . فدعَت اللهَ فأُطْلِقَ ، ثم تناولها الثانيةَ ، فأُخِذ مثلَها أو أشدَّ ، فقال : ادعِى اللهَ لى ولا أضُرُّكِ . فدعتْ فأُطْلِقَ ، فدعا بعضَ حَجَبَتِه ، فقال : إنَّكَ [٩٢/١ظ] لم تأتِنى بإنسانٍ ، وإنَّما أتيتَنى بشيطانٍ . فأَخْدَمَها هاجَرَ . فأتَتْه وهو قائمٌ يصلِّى ، فأَوْمأَ بيدِه ؛ مَهْيَمْ ؟ فقالت : ردَّ اللهُ كيدَ الكافرِ - أو : الفاجرِ - فى نَحْرِه ، وأَخْدَم هاجَرَ . قال أبو هُرَيرةَ : فتلك أُمُّكم يا بنى ماءِ السماءِ . تفرَّد به مِن هذا الوجهِ موقوفًا .

---

(١) فى م : « التيمن » .

(٢) البخارى (٣٣٥٨) ، وبنحوه مرفوعا وموقوفا أيضًا (٥٠٨٤) .

وقد رواه الحافظُ أبو بكرٍ البزّارُ ، عن عمرِو بنِ عليٍّ الفَلّاسِ ، عن عبدِ الوهابِ الثَّقفيِّ ، عن هشامِ بنِ حسّانَ ، عن محمدِ بنِ سِيرِينَ ، عن أبي هُرَيرةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « إنَّ إبراهيمَ لم يَكذِبْ قطُّ إلا ثلاثَ كَذَباتٍ ، كلُّ ذلك في ذاتِ اللهِ ؛ قولُه : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وقولُه : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وبينما هو يسيرُ في أرضِ جبّارٍ مِن الجَبابِرَةِ إذْ نَزَل مَنْزِلًا ، فأُتِيَ الجبارُ فقيل له : إنه قد نَزَل هٰهنا رجلٌ معه امرأةٌ مِن أَحْسَنِ الناسِ . فأَرْسَل إليه ، فسأله عنها ، فقال : إنها أختي . فلمّا رجَع إليها ، قال : إنَّ هذا سألَني عنكِ ، فقلْتُ إنَّكِ أُخْتِي ، وإنَّه ليس اليومَ مُسلمٌ غيري وغيرَك ، وإنَّك أختي ، فلا تُكَذِّبيني عندَه . فانطَلَق بها ، فلما ذهَب يتناوَلُها أُخِذ ، فقال : ادْعِي اللهَ لي ولا أضرُّكِ . فدعَتْ له فأُرْسِل ، فذهب يتناوَلُها ، فأُخِذَ مثْلَها أو أَشَدَّ منها ، فقال : ادْعي اللهَ لي ولا أضرُّكِ . فدَعَتْ فأُرسِل ، ثلاثَ مرّاتٍ ، فدعا أَدْنى حَشَمِه ، فقال : إنك لم تأْتِني بإنسانٍ ؛ لكنْ أَتيتَنِي بشَيْطانٍ ، أَخْرِجْها وأَعْطِها هاجَرَ . فجاءتْ وإبراهيمُ قائمٌ يصلِّي ، فلمَّا أحسَّ بها انْصرَفَ ، فقال : مَهْيَمْ ؟ فقالتْ : كفَى اللهُ كيدَ الظَّالِمِ ، وأَخْدَمَنِي هاجَرَ » . (١)وأخرجاه مِن حديثِ هشامٍ(١)(٢) . ثم قال البزّارُ : لا نعلمُ أَسْنَده عن محمدٍ ، عن أبي هُرَيرةَ إلا هشامٌ ، ورواه غيرُه موقوفًا(٣) .

وقال الإمامُ أحمدُ(٤) : حدثنا عليُّ بنُ حَفْصٍ ، عن وَرْقَاءَ ، هو ابنُ عُمَرَ اليَشْكُرِيُّ ، عن أبي الزِّنادِ ، عن الأعرَجِ ، عن أبي هُرَيرةَ ، قال : قال رسولُ

(١ - ١) سقط من : الأصل .

(٢) لم نجده في الصحيحين من رواية هشام . وانظر تحفة الأشراف ٣٤٩/١٠ - ٣٥٩ . والفتح ٣٩١/٦ .

(٣) وليس كما قال البزار ، بل تابعه على الرفع أيوب عن محمد عن أبي هريرة كما رواه البخاري (٥٠٨٤) .

(٤) المسند ٤٠٣/٢ ، ٤٠٤ .

اللهِ ﷺ : « لم يكْذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ ؛ قولُه حينَ دُعِىَ إلى آلهتِهم ، فقال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ . وقولُه : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ . وقولُه لسارَّةَ : إنها أختى » . قال : « ودخَلَ إبراهيمُ قريةً فيها مَلِكٌ مِن الملوكِ – أو جبّارٌ مِن الجبابرةِ – فقِيلَ : دخَل إبراهيمُ الليلةَ بامرأةٍ مِن أَحسنِ النَّاسِ » . قال : « فأرسَل إليه المَلِكُ – أو الجبّارُ – : مَن هذه معك ؟ قال : أختى . قال : فأَرْسِلْ بها » . قال : « فأرسَلَ بها إليه ، وقال : لا تُكَذِّبى قولى ؛ فإنّى قد أخبرتُه أنَّكِ أختى ، إنْ على الأرضِ مؤمنٌ غيرى وغيرَك . فلمّا دخلتْ عليه قام إليها ، فأقبلتْ تَوَضَّأُ وتُصلِّى وتقولُ : اللهُمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنِّى آمنتُ بك وبرسولِك ، وأحصنتُ فَرْجِى إلَّا على زوجِى ، فلا تسلِّطْ علىَّ الكافرَ » . قال : « فغَطَّ حتى رَكَض برِجْلِه » . قال أبو الزِّنادِ : قال أبو سَلَمةَ بنُ عبدِ الرَّحمنِ ، عن أبى هُرَيرةَ : إنها قالت [٩٣/١و] : اللهمَّ إنْ يَمُتْ يُقَلْ : هى قتلتْه . قال : « فأُرْسِلَ » . قال : « ثم قام إليها » . قال : « فقامت تَوَضَّأُ وتصلِّى ، وتقولُ : اللهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنِّى آمنتُ بك وبرسولِك ، وأحصَنْتُ فَرْجِى إلَّا على زوجى ، فلا تُسلِّطْ علىَّ الكافِرَ » . قال : « فغَطَّ حتى رَكَضَ بِرِجْلِه » . قال أبو الزِّنادِ : وقال أبو سَلَمةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، أنَّها قالت : اللهمَّ إنْ يَمُتْ يُقَلْ : هى قَتَلَتْه . قال : « فَأُرْسِلَ » . قال : فقال فى الثالثةِ أو الرابعةِ : « ما أرسلْتُم إلىَّ إلَّا شيطانًا ، أرجِعوها إلى إبراهيمَ ، وأَعطُوها هاجَرَ » . قال : « فرجعتْ ، فقالت لإبراهيمَ : أَشَعَرْتَ ؟ إنَّ اللهَ رَدَّ كيدَ الكافرِ[1] ، وأخدَمَ وليدةً » .

تفرَّد به أحمدُ مِن هذا الوجهِ ، وهو على شرطِ « الصحيحِ » . وقد رواه البخارىُّ[2] ، عن أبى اليمانِ ، عن شُعَيبِ بنِ أبى حَمْزَةَ ، عن أبى الزِّنادِ ، عن

---

(١) فى م : « الكافرين » .

(٢) البخارى (٢٢١٧) .

الأعرجِ ، عن أبى هُرَيْرَةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ به مختصَرًا .

وقال ابنُ أبى حاتِمٍ[1] : حدثنا أبى ، حدثنا سفيانُ ، عن علىِّ بنِ زيدِ بنِ جُدْعَانَ ، عن أبى نَضْرَةَ ، عن أبى سعيدٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ فى كلماتِ إبراهيمَ الثلاثِ التى قال : « ما مِنْها كلمةٌ إلَّا ماحَلَ[2] بها عن دينِ اللهِ ؛ فقال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ ، وقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ ، وقال للمَلِكِ حينَ أراد امرأتَه : هى أختى » . فقولُه فى الحديثِ : « هى أختى » . أى فى دينِ اللهِ . وقولُه لها : « إنه ليس على وجْهِ الأرضِ مؤمِنٌ غيرى وغيرَكِ » . يعنى زَوْجَين مُؤْمِنَين غيرى وغيرَك . ويَتَعيَّنُ حملُه على هذا ؛ لأنَّ لوطًا كان معهم وهو نبىٌّ عليه السَّلامُ . وقولُه لها لمّا رجعتْ إليه : « مَهْيَمْ ؟ » . معناه : ما الخبرُ ؟ فقالت : « إنَّ اللهَ ردَّ كيدَ الكافرِ[3] » . وفى روايةٍ : « الفاجرِ » وهو : المَلِكُ . « وأَخْدَمَ جاريةً » . وكان إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن وقتِ ذهَب بها إلى المَلِكِ قام يُصلِّى للهِ عزَّ وجلَّ ، ويسألُه أن يدْفَعَ عن أهلِه ، وأن يرُدَّ بأسَ هذا الذى أراد أهْلَه بسُوءٍ ، وهكذا فعلتْ هى أيضًا ، كلما[4] أراد عدوُّ اللهِ أنْ ينالَ منها أمرًا ، قامت إلى وُضوئِها وصلاتِها ، ودعَتِ اللهَ عزَّ وجلَّ بما تقدم مِن الدعاءِ العظيمِ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] . فعصَمَها اللهُ وصانها ؛ لعِصْمَةِ عبدِه ورسولِه وحبيبِه وخليلِه إبراهيمَ عليه السلامُ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢١/٧ .

(٢) ماحَل : دافع وجادل .

(٣) فى م : « الكافرين » .

(٤) فى الأصل ، ح ، م : « فلما » .

وقد ذهَب بعضُ العلماءِ إلى نبوةِ ثلاثِ نسوةٍ ؛ سارَّةُ ، وأُمُّ موسى ، ومريمُ عليهن السلامُ . والذى عليه الجمهورُ أنَّهنَّ صِدِّيقاتٌ ، رضى اللهُ عنهن وأرضاهن . ورأيتُ فى بعضِ الآثارِ[1] أنَّ اللهَ عزّ وجلّ كشَف الحجابَ فيما بينَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وبينَها ، فلم يزَلْ يراها منذُ خرجتْ مِن عندِه إلى أن رجَعتْ إليه ، وكان مُشاهِدًا لها وهى عندَ الملكِ ، وكيف عصَمها اللهُ منه ؛ ليكونَ ذلك أطيبَ لقلبِه ، وأَقَرَّ لعينِه ، وأَشَدَّ لطُمأْنِينَتِه ، فإنَّه [٩٣/١ظ] كان يحبُّها حبًّا شديدًا ؛ لدينِها وقَرابتِها منه وحُسْنِها الباهرِ ، فإنه قد قيل : إنَّه لم تكنِ امرأةٌ بعدَ حَوَّاءَ إلى زمانِها أَحْسَنَ منها . رضى اللهُ عنها . ولله الحمدُ والمِنَّةُ .

وذكَر بعضُ أهلِ التواريخِ أن فِرْعونَ مصرَ هذا كان أخًا للضحاكِ ، المَلِكِ المشهورِ بالظلمِ ، وكان عامِلًا لأخيه على مصرَ . ويقالُ : كان اسمُه سِنَانَ ابنَ علوانَ بنِ عُبَيْدِ بنِ عُوجِ بنِ عِمْلَاقِ بنِ لاوَذَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ . وذكَر ابنُ هشامٍ فى « التِّيجانِ » أن الذى أرادها عمرُو بنُ امرئَ القيسِ بنِ بايلبونَ[2] بنِ سَبأٍ ، وكان على مصرَ . نقَله السُّهَيْلِىُّ[3] . فاللهُ أعلمُ .

ثم إنَّ الخليلَ عليه السَّلامُ رجَع مِن بلادِ مصرَ إلى أرضِ التيمنِ ، وهى الأرضُ المقدسةُ التى كان فيها ، ومعه أنعامٌ وعبيدٌ ومالٌ جَزِيلٌ ، وصُحْبَتُهم هاجَرُ القِبْطِيَّةُ المِصريةُ . ثم إن لوطًا عليه السَّلامُ نزَح بما له مِن الأموالِ الجزيلةِ ، بأمرِ الخليلِ له فى ذلك إلى أرضِ الغَوْرِ ، المعروفِ بغَوْرِ زُغَرَ ، فنزَل بمدينةِ سَدُومَ ، وهى أُمُّ تلك البلادِ فى ذلك الزمانِ ، وكان أهلُها أشرارًا كفارًا فُجّارًا ،

---

(١) قصص الأنبياء للثعالبى ص ٧٠ .

(٢) فى م ، ص : « مايلون » .

(٣) الروض الأنف ٩١/١ .

وأوحَى اللهُ تعالى إلى إبراهيمَ الخليلِ يَأمرُه أَنْ يمُدَّ بصرَه ، وينظُرَ شمالًا وجَنوبًا وشَرقًا وغَربًا ، وبشَّره بأن هذه الأرضَ كلَّها سأجعلُها لك ولِخَلَفِك إلى آخرِ الدَّهرِ ، وسأُكثِّرُ ذرِّيَّتَك حتى يصيروا بعددِ ترابِ الأرضِ . وهذه البِشارةُ اتَّصلتْ بهذه الأمةِ ، بل ما كَمَلتْ ولا كانت أعظَمَ منها فى هذه الأمةِ المحمديةِ ، يؤيدُ ذلك قولُ رسولِ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ زوَى لِىَ الأرضَ ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها ، وسيبلغُ مُلْكُ أمتى ما زوَى لى منها »[1] . قالوا : ثم إنَّ طائفةً من الجبَّارين تسلَّطوا على لوطٍ عليه السلامُ فأسَرُوه وأخذوا أموالَه واسْتاقُوا أنعامَه ، فلما بلَغ [2]الخبرُ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ سار إليهم فى ثلاثِمائةٍ وثمانيةَ عشرَ رجلًا ، فاستنقَذ لوطًا عليه السلامُ واسترجَع[2] أموالَه ، وقتَل من أعداءِ اللهِ ورسولِه خَلْقًا كثيرًا وهزَمهم ، وساق فى آثارِهم حتى وصَل إلى شَمالىّ[3] دِمَشْقَ ، وعَسْكَرَ بظاهرِها عندَ برزَةَ . وأظنُّ مقامَ إبراهيمَ [4]المنسوبَ إليه ببرزَةَ اليومَ[4] إنَّما سُمِّى ؛ لأنَّه كان موضعَ موقفِ جيشِ الخليلِ ، واللهُ أعلمُ . ثم رجَع مؤيَّدًا منصورًا إلى بلادِه ، وتلقَّاه ملوكُ بلادِ بيتِ المقدسِ معظِّمينَ له مكرِّمين خاضعين ، واستقَر ببلادِه ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه .

---

(١) مسلم (٢٨٨٩) .

(٢ - ٢) سقط من : م .

(٣) فى ح ، م : « شرق » .

(٤ - ٤) زيادة من : ا .

ذكرُ مولدِ إسماعيلَ عليه الصلاةُ والسلامُ مِن هاجَرَ

[٩٤/١و] قال أهلُ الكتابِ : إنَّ إبراهيمَ عليه السلامُ سألَ اللهَ ذريةً طيبةً ، وإنَّ اللهَ بشَّره بذلك ، وإنه لما كان لإبراهيمَ ببلادِ بيتِ المقدسِ (١عشرُ سنين١) ، قالت سارَّةُ لإبراهيمَ عليه السلامُ : إنَّ الربَّ قد أحرَمنى الولدَ ، فادْخُلْ على أَمَتِى هذه ، لعل اللهَ يرزقُنا(٢) منها ولدًا . فلما وهبَتْها له دخَل بها إبراهيمُ عليه السَّلامُ ، فحينَ دخَل بها حمَلت منه . قالوا : فلمّا حمَلتْ ارتفعت نفسُها وتعاظَمتْ على سيدتِها ، فغارت منها سارَّةُ ، فشَكَت ذلك إلى إبراهيمَ ، فقال لها : افْعَلى بها ما شئْتِ . فخافت هاجَرُ فهرَبَتْ ، فنزلَتْ عندَ عَيْنٍ هناك ، فقال لها مَلَكٌ مِن الملائكةِ : (٣لا تخافِى ، فإن اللهَ جاعِلٌ مِن هذا الغلامِ الذى حَمَلْتِ خيرًا٣) . وأمرَها بالرجوعِ ، وبشَّرها أنها ستلدُ ابنًا وتسمِّيه إسماعيلَ ، ويكونُ وحشَ الناسِ(٤) ، يدُه على الكلِّ ويدُ الكلِّ به ، ويملكُ جميعَ بلادِ إخوتِه . فشكَرَت اللهَ عزّ وجلّ على ذلك .

وهذه البِشارةُ إنَّما انطبَقَتْ على ولدِه محمدٍ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ؛ فإنه الذى سادَت به العربُ ، وملكتْ جميعَ البلادِ غربًا وشرقًا ، وآتاها اللهُ مِن العلمِ النَّافعِ والعملِ الصَّالحِ ما لم يُؤْتِ أُمَّةً من الأممِ قبلَهم ، وما ذاك إلا بشَرفِ رسولِها على سائرِ الرسلِ ، وبركةِ رسالتِه ويُمْنِ بِشارتِه ، وكمالِه فيما جاء به ، وعمومِ بَعْثَتِه لجميعِ أهلِ الأرضِ .

(١ - ١) فى م ، ص : « عشرون سنة » .

(٢) فى م : « يرزقنى » .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل ، ص .

(٤) بعده فى ا : « أى سيد الناس » .

ولما رجَعت هاجَرُ ، وضعتْ إسماعيلَ عليه السلامُ . قالوا : ولَدتْه ولإبراهيمَ من العمُرِ ستٌّ وثمانون سنةً ، قبلَ مولدِ إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً . ولمّا وُلِد إسماعيلُ ، أوحَى اللهُ إلى إبراهيمَ يبشرُه بإسحاقَ مِن سارَّةَ ، فخرَّ للهِ ساجدًا ، وقال له : قد استجبتُ لك فى إسماعيلَ ، وباركتُ عليه وكثَّرتُه ونمَّيْتُه جَدًّا كبيرًا ، ويُولَدُ له اثنَا عشرَ عظيمًا ، وأجْعَلُه رئيسًا لشعبٍ عظيمٍ . وهذه أيضًا بِشارةٌ بهذه الأمةِ العظيمةِ ، وهؤلاء الاثنا عشَرَ عظيمًا هم الخلفاءُ الاثنا عشَرَ المبشَّرُ بهم فى حديثِ عبدِ الملكِ بنِ عُمَيْرٍ ، عن جابرِ بنِ سَمُرَةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ قال : « يكونُ اثْنَا عَشَرَ أميرًا » . ثم قال كلمةً لم أفهمْها ، فسألتُ أبى : ما قال ؟ قال : « كلُّهم مِن قُرَيْشٍ » . أخرجاه فى « الصحيحين »[1] . وفى روايةٍ : « لا يزالُ هذا الأمرُ قائمًا »[2] . وفى روايةٍ : « عزيزًا ، حتى يكونَ اثنا عشَرَ خليفةً ، كلُّهم مِن قُرَيْشٍ »[3] . فهؤلاء منهم الأئمةُ الأربعةُ ؛ أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعلىٌّ . ومنهم عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أيضًا . ومنهم بعضُ بنى العباسِ . وليس المرادُ أنهم يكونون اثْنَىْ عشَرَ [٩٤/١ظ] نَسَقًا[4] ، بل لا بدَّ مِن وجودِهم . وليس المرادُ الأئمةَ الاثْنَىْ عَشَرَ الذين يعتقدُ فيهم الرافضةُ ، الذين أوَّلُهم علىُّ بنُ أبى طالبٍ ، وآخِرُهم المنتظِرُ بسِرْدابِ سامَرَّا ؛ (٥وهو محمدُ بنُ الحسنِ العسكرىُّ ، فيما يزعُمون٥) ، فإن أولئك لم يكنْ فيهم أنفعُ مِن علىٍّ وابنِه الحسنِ بنِ علىٍّ ، حينَ ترَك القتالَ وسلَّم الأمرَ لمعاويةَ ، وأخمَد نارَ

---

(١) البخارى (٧٢٢٢) ، مسلم (١٨٢١) . واللفظ للبخارى .

(٢) هى رواية الطبرانى (١٨٧٦) ، وعند مسلم (١٨٢٢) بلفظ « لا يزال هذا الدين قائمًا ... » .

(٣) مسلم (١٨٢١) بلفظ : « لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثنى عشر خليفة ... » .

(٤) نَسَقًا : متتابعين .

(٥ - ٥) زيادة من : ا ، م .

الفتنةِ ، وسكَّن رَحَى الحروبِ بينَ المسلمين ، والباقون من جملةِ الرَّعايَا ، لم يكنْ لهم حُكْمٌ على الأُمةِ فى أمرٍ من الأمورِ . وأما ما يعتقدونه بسِرْدَابِ سامَرًّا ، فذاك هَوَسٌ فى الرءُوسِ ، وهَذَيانٌ فى النفوسِ ، لا حقيقةَ له ولا عينٌ ولا أثرٌ .

والمقصودُ أن هاجَرَ عليها السلامُ لمّا وُلِد لها إسماعيلُ اشتدّتْ غَيْرَةُ سارَّةَ منها ، وطلَبتْ مِن الخليلِ أنْ يُغيِّبَ وجهَها عنها ، فذهب بها وبولدِها ، فسار بهما حتى وضعَهما حيثُ مكةُ اليومَ . ويقالُ : إن ولدَها كان إذْ ذاك رضيعًا ، فلمّا تركهما هناك وولَّى ظهْرَه عنهما ، قامت إليه هاجَرُ ، وتعلَّقتْ بثيابه ، وقالت : يا إبراهيمُ ، أين تذهبُ وتَدَعُنا ههنا وليس معنا ما يَكْفِينا ؟ فلم يُجِبْها ، فلمّا ألَحَّتْ عليه وهو لا يُجِيبُها ، قالت له : آللهُ أمرَك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : فإذًا لا يضيِّعُنا . (1)وقد ذكَر الشيخُ أبو محمدٍ بنُ أبى زيدٍ ، رحمه اللهُ ، فى كتابِ « النَّوادرِ » أنَّ سارَّةَ تغضَّبتْ على هاجَرَ ، فحلَفتْ لَتَقْطَعَنَّ ثلاثَةَ أعضاءٍ منها ، فأمَرَها الخليلُ أنْ تثقُبَ أُذُنَيْها ، وأنْ تَخْفِضَها ، فتبرَّ قَسَمُها(1) . قال السُّهَيْلِىُّ(2) : فكانت أولَ مَن اختَتَن من النساءِ ، وأولَ مَن ثَقبتْ أُذُنَيْها منهن ، وأولَ مَن طوَّلتْ ذَيْلَها .

(1 - 1) سقط من : الأصل . وانظر قصص الأنبياء للثعالبى ص 71 .

(2) الروض الأنف 1/91 .

ذكرُ مُهاجرةِ إبراهيمَ عليه السلامُ بابنِه إسماعيلَ وأمِّه هاجَرَ إلى جبالِ فارَانَ؛ وهى أرضُ مكَّةَ، وبنائِه البيتَ العتيقَ

قال البخارى[(1)] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ ، حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن أيوبَ السَّخْتيانىِّ وكثيرِ بنِ كثيرِ بنِ المطَّلِبِ بنِ أبى وَدَاعَةَ ، يزيدُ أحدُهما على الآخَرِ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : أوَّلَ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ[(2)] مِن قِبَلِ أمِّ إسماعيلَ ؛ اتخذتْ مِنْطَقًا لتُعْفِىَ أثَرَها على سارَّةَ . ثم جاء بها إبراهيمُ ، وبابنِها إسماعيلَ ، وهى تُرضعُه ، حتى وضعَهما عندَ البيتِ عندَ دَوْحةٍ فوقَ زَمْزَمَ ، فى أعلَى المسجدِ ، وليس بمكةَ يومئذٍ أحدٌ ، وليس بها ماءٌ ، فوضَعهما هنالكِ ، ووضَع عندَهما جِرابًا فيه تَمْرٌ ، وسِقاءً فيه ماءٌ ، ثم قفَّى إبراهيمُ منطلِقًا ، فتَبِعتْه أمُّ إسماعيلَ ، فقالت : يا إبراهيمُ ، أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادِى الذى ليس فيه إنسٌ ولا شىءٌ ؟ فقالت له ذلك مِرارًا ، وجعَل لا يلتَفِتُ إليها ، فقالت له : آللهُ أمَرك بهذا ؟ قال : نعمْ . قالت : إذًا لا يُضيِّعُنا . ثم رجَعت ، فانطلَق إبراهيمُ ، حتى إذا كان عندَ الثَّنِيَّةِ حيثُ [١/٩٥و] لا يَرَوْنه ، استقبَل بوجهِه البيتَ ، ثم دعا بهؤلاء الكلماتِ[(3)] ، ورفَع يَدَيْه ، فقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم

---

(1) البخارى (٣٣٦٤) .

(2) المِنْطَقُ : حبل تشد به المرأة وسطها .

(3) فى ح ، م : « الدعوات » . وهو لفظ إحدى روايات البخارى .

مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1] [إبراهيم : ٣٧] . وجعَلت أُمُّ إسماعيلَ تُرضِعُ إسماعيلَ ، وتَشرَبُ مِن ذلك الماءِ ، حتى إذا نَفِد ما فى السِّقاءِ عَطِشتْ ، وعَطِش ابنُها ، وجعَلت تَنْظُرُ إليه يَتلوَّى . أو قال : يَتلبَّطُ . فانطلَقت كراهيةَ أنْ تَنظُرَ إليه ، فوجَدت الصَّفَا أقربَ جبلٍ فى الأرضِ يَلِيها ، فقامت عليه ، ثم استقبَلت الوادىَ ، تَنظُرُ هل تَرَى أحدًا ، فلم تَرَ أحدًا ، فهبَطَتْ من الصَّفَا ، حتى إذا بلغَت الوادىَ ، رفَعت طَرَفَ دِرْعِها[2] ، ثم سعَت سَعْىَ الإنسانِ المجهودِ حتى جاوزَت الوادىَ ، ثم أتَت المَرْوةَ ، فقامت عليها ، ونظرت هل ترَى أحدًا ، فلم تَرَ أحدًا ، ففعَلَت ذلك سبْعَ مراتٍ . قال ابنُ عباسٍ : قال النَّبىُّ ﷺ : « فذلك سَعْىُ النَّاسِ بينَهما » . فلمَّا أشرفَت على المروةِ ، سمِعت صوتًا ، فقالت : صَهٍ . تريدُ نفسَها . ثم تسمَّعَت أيضًا ، فقالت : قد أُسمَعْتَ إنْ كان عندَك غُوَاثٌ . فإذا هى بالمَلَكِ عندَ موضِعِ زَمْزَمَ ، فبحَث بعقِبِه - أو قال : بجَناحِه - حتى ظهَر الماءُ ، فجعَلت تُحَوِّضُه ، وتقولُ بيدِها هكذا ، وجعَلت تَغرِفُ من الماءِ فى سِقائِها ، وهو يفُورُ بعدَ ما تَغرِفُ . قال ابنُ عبَّاسٍ : قال النَّبىُّ ﷺ : « يَرْحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ ، لو ترَكَتْ زَمْزَمَ - أو قال - لو لم تَغرِفْ مِن الماءِ لكانت زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا » . قال : فشربت وأرضعَت ولدَها ، فقال لها المَلَكُ : لا تخافوا الضَّيْعةَ ؛ فإن ههنا بيتَ اللهِ يَبْنِى هذا الغلامُ وأبوه ، وإن اللهَ لا يُضَيِّعُ أهلَه . وكان البيتُ مرتفعًا من الأرضِ كالرَّابيةِ ، تأتيه السيولُ فتأخذُ عن يمينِه وشِمالِه ، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رُفْقَةٌ مِن جُرْهُمٍ ، أو أهلُ بيتٍ من جُرْهُمٍ ، مُقبلِين من طريقِ كَدَاءَ ، فنزَلوا فى أسفلِ مكةَ ، فرأَوْا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إنَّ هذا الطائرَ لَيَدورُ على الماءِ ، لَعَهْدُنا بهذا الوادى

(١) التفسير ٤/٤٣٢ .

(٢) فى م : « ذراعها » .

وما فيه ماءٌ . فأرسَلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ ، فإذا هم بالماءِ ، فرجَعوا فأخبروهم بالماءِ ، فأقْبَلوا . قال : وأُمُّ إسماعيلَ عندَ الماءِ ، فقالوا : أتأْذَنِين لنا أنْ نَنْزِلَ عندَك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لا حَقَّ لكم فى الماءِ . قالوا : نعمْ . قال عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ : قال النبىُّ ﷺ : « فألْفَى ذلك أمَّ إسماعيلَ ، وهى تحبُّ الأُنْسَ » . فنزَلوا وأرسَلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم ، وشَبَّ الغلامُ وتعلَّم العربيةَ منهم ، وأَنْفَسَهم[1] وأَعجَبَهم حينَ شَبَّ ، [١/٩٥ظ] فلمَّا أدرَكَ زوَّجُوه امرأةً منهم ، وماتت أُمُّ إسماعيلَ ، فجاء إبراهيمُ بعدَ ما تزوَّج إسماعيلُ ، يطالِعُ تَرْكَتَه ، فلم يجدْ إسماعيلَ ، فسأل امرأتَه عنه فقالت : خرَج يبتغِى لنا . ثم سألها عن عَيْشِهم وهيئَتِهم ، فقالت : نحن بشَرٌّ ، نحن فى ضِيقٍ وشدةٍ . وشكَتْ إليه ، قال : فإذا جاء زوجُك فاقْرَئى عليه السلامَ وقولى له يغُيِّرُ عَتَبَةَ بابِه . فلما جاء إسماعيلُ كأنه آنَسَ شيئًا فقال : هل جاءكم مِن أحدٍ ؟ فقالت : نعمْ ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا ، فسألَنا عنك فأخبرتُه ، وسألنى كيف عيشُنا ، فأخبرتُه أنَّا فى جَهْدٍ وشِدَّةٍ . قال : فهل أوْصَاكِ بشىءٍ ؟ قالت : نعمْ ، أمَرنى أن أقرأَ عليكَ السلامَ ، ويقولُ : غَيِّرْ عتبَةَ بابِك . قال : ذاكِ أبى ، وأَمَرنى أن أُفَارِقَكِ ، فالْحَقِى بأهلِك . فطلَّقها وتزوَّج منهم أخرى ، ولَبِث عنهم إبراهيمُ ما شاء اللهُ ، ثم أتاهم بعدُ ، فلم يجدْهُ ، فدخَل على امرأتِه ، فسألها عنه ، فقالت : خرَج يبتغِى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عَيْشِهم وهيئَتِهم ، فقالت : نحن بخيرٍ وسَعَةٍ . وأَثْنَتْ على اللهِ ، فقال : ما طعامُكم ؟ قالت : اللَّحمُ . قال : فما شرابُكم ؟ قالت : الماءُ . قال : اللهمَّ بارِكْ لهم فى اللَّحمِ والماءِ . قال النَّبىُّ ﷺ : « ولم يكنْ لهم يومئذٍ حَبٌّ ، ولو كان لهم

---

(١) أنفَسَهم : أعجبهم وصار عندهم نفيسًا : النهاية ٩٦/٥ .

حَبٌّ لدعَا لهم فيه ، فَهُما لا يَخلُو عليهما أحدٌ بغَيْرِ[1] مكةَ إلّا لم يُوافِقَاه »[2] . قال : فإذا جاء زوجُك فاقرَئى عليه السلامَ ، ومُرِيه يُثبِّتْ عَتَبَةَ بابِه . فلمّا جاء إسماعيلُ قال : هل أتاكم مِن أحدٍ ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخٌ حَسَنُ الهيئةِ - وأثنَتْ عليه - فسألنى عنك فأخبرتُه ، فسألنى كيف عيشُنا فأخبرتُه أنَّا بخيرٍ . قال : فأوصاكِ بشىءٍ ؟ قالت : نعم ، هو يقرأُ عليك السَّلامَ ، ويأمرُك أنْ تُثبِّتَ عتبةَ بابِك . قال : ذاك أبى ، وأنتِ العَتَبَةُ ، وأمرنى أنْ أُمسِكَكِ . ثم لبِث عنهم ما شاء اللهُ ، ثم جاء بعدَ ذلك وإسماعيلُ يَبْرِى نَبْلًا له تحتَ دَوْحةٍ قريبًا مِن زَمْزَمَ ، فلمَّا رآه قام إليه ، فصنَعا كما يصنعُ الولدُ بالوالدِ ، والوالدُ بالولدِ ، ثم قال : يا إسماعيلُ ، إن اللهَ أمرَنى بأمرٍ . قال : فاصنَعْ ما أمَرك ربُّك . قال : وتُعِينُنى ؟ قال : وأُعِينُك . قال : فإن اللهَ أمَرنى أنْ أَبْنِىَ ههنا بيتًا . وأشار إلى أُكَمَةٍ مرتفعةٍ على ما حولَها . قال : فعندَ ذلك رفعَا القواعِدَ مِن البيتِ ، فجعَل إسماعيلُ يأتى بالحجارةِ ، وإبراهيمُ يَبنِى ، حتى إذا ارتفَع البناءُ ، جاء بهذا الحجَرِ ، فوضَعَه له ، فقام عليه وهو يَبْنِى ، وإسماعيلُ يُناوِلُه الحجارةَ ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] . قال : وجعَلا يبنيان حتى يَدُورَا حولَ البيتِ ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

ثم قال البخارىُّ[3] : حدثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ ، حدثنا أبو[4] [١/٩٦و] عامرٍ عبدُ الملِكِ بنُ عمرٍو ، حدثنا إبراهيمُ بنُ نافعٍ ، عن كثيرِ بنِ كثيرٍ ، عن

---

(١) فى ح ، م : « بعين » .

(٢) يعنى لا ينفردُ أحدٌ بغير مكة بالماء واللحم إلا اشتكى بطنه . النهاية ٧٦/٢ . فتح البارى ٤٠٥/٦ .

(٣) البخارى (٣٣٦٥) .

(٤) فى الأصل : « ابن » .

سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : لما كان بينَ إبراهيمَ وأهلِه ما كان ، خرَج بإسماعيلَ وأمِّ إسماعيلَ ، ومعهم شَنَّةٌ فيها ماءٌ . وذكر تمامَه بنحوِ ما تقدَّم . وهذا الحديثُ مِن كلامِ ابنِ عباسٍ ، ومُوَشَّحٌ برَفْعِ بعضِه ، وفي بعضِه غرابةٌ ، وكأنه مما تلقَّاه ابنُ عباسٍ عن الإسرائيلياتِ . وفيه أنَّ إسماعيلَ كان رضيعًا إذْ ذاك . وعندَ أهلِ التوراةِ ، أن إبراهيمَ أمَره اللهُ بأن يَخْتِنَ ولدَه إسماعيلَ وكلَّ مَن عندَه مِن العبيدِ وغيرِهم ، فختَنَهم ، وذلك بعدَ مُضِيِّ تسعٍ وتسعين سنةً مِن عمرِه ، فيكونُ عمرُ إسماعيلَ يومئذٍ ثلاثَ عشْرةَ سنةً . وهذا امتثالٌ لأمرِ اللهِ عزّ وجلّ في أهلِه ، فيدلُّ على أنَّه فعَله على وجهِ الوجوبِ ؛ ولهذا[1] كان الصحيحُ مِن أقوالِ العلماءِ أنَّه واجبٌ على الرِّجالِ ، كما هو مقرَّرٌ في موضعِه .

وقد ثَبَت في الحديثِ الذي رواه البخاريُّ[2] : حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ ، حدثنا مُغيرَةُ بنُ عبدِ الرحمنِ القُرَشيُّ ، عن أبي الزِّنادِ ، عن الأعرَجِ ، عن أبي هُرَيرَةَ ، قال : قال النبيُّ ﷺ : « اختَتَن إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ وهو ابنُ ثمانينَ سنةً بالقَدُومِ » . تابعَه عبدُ الرحمنِ بنُ إسحاقَ ، عن أبي الزِّنادِ ، وتابعَه عَجْلانُ ، عن أبي هُرَيْرَةَ ، ورواه محمدُ بنُ عمرٍو ، عن أبي سَلَمَةَ ، عن أبي هُرَيرةَ . وهكذا روَاه مسلمٌ[3] عن قُتَيْبَةَ به . وفي بعضِ الألفاظِ[4] : « اختَتَن إبراهيمُ بعدَ ما أتتْ عليه ثمانون سنةً ، واختَتَن بالقَدُومِ » . والقَدُومُ هو الآلَةُ .

---

(١) في ص : « ولما » .

(٢) البخارى (٣٣٥٦) .

(٣) مسلم (٢٣٧٠) .

(٤) البخارى (٦٢٩٨) ، المسند ٢/٣٢٢ .

وقيل : موضِعٌ . وهذا اللفظُ لا ينافِى الزيادةَ على الثمانين – واللهُ أعلمُ – لِما سيأتى مِن الحديثِ عندَ ذِكْرِ وفاتِه ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال : « اختَتَن إبراهيمُ وهو ابنُ مائةٍ وعشرين سنةً ، وعاش بعدَ ذلك ثمانينَ سنةً » . رواه ابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »[1] . وليس فى هذا السِّياقِ ذِكْرُ قصةِ الذبيحِ وأنه إسماعيلُ ، ولم يَذْكُرْ فى قَدَماتِ إبراهيمَ ، عليه السلامُ ، إلا ثلاثَ مرَّاتٍ ؛ أولاهن بعدَ أن تزوَّج إسماعيلُ بعدَ موتِ هاجَرَ ، وكيف يَترُكُهم مِن حينِ صِغَرِ الولدِ ، على ما ذُكِر ، إلى حينِ تزْويجِه لا يَنظُرُ فى حالِهم ؟ وقد ذُكِر أن الأرضَ كانت تُطْوَى له ، وقيل : إنه كان يَركَبُ البُراقَ إذا سار إليهم . فكيف يتخلفُ عن مطالعةِ حالِهم ، وهم فى غايةِ الضرورةِ الشديدةِ ، والحاجةِ الأكيدةِ ؟ وكأنَّ بعضَ هذا السِّياقِ مُتَلَقًّى من الإسرائيلياتِ ، ومُطرَّزٌ بشىءٍ مِن المرفوعاتِ . ولم يُذْكَرْ فيه قصةُ الذبيحِ ، وقد دلَّلنا على أن الذبيحَ هو إسماعيلُ ، على الصحيحِ ، فى سورةِ « الصافات »[2] .

---

(١) الإحسان (٦٢٠٥) إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٢) التفسير ٧/٢٢ – ٣٠ .

[٩٦/١ظ] قصةُ الذبيحِ عليه السلامُ

قال اللهُ تعالى[١] : ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ٩٩ - ١١٣] . يذكرُ تعالَى عن خليلِه إبراهيمَ أنه لما هاجَر مِن بلادِ قومِه ، سأل ربَّه أنْ يَهَبَ له ولدًا صالحًا ، فبشَّرَه اللهُ تعالى بغلامٍ حليمٍ ، وهو إسماعيلُ[٢] عليه السلامُ ؛ لأنَّه أولُ مَن وُلِد له على رأسِ ستٍّ وثمانين سنةً مِن عُمُرِ الخليلِ . وهذا ما لا خلافَ فيه بينَ أهلِ المِلَلِ ؛ أنَّه أولُ ولدِه وبكرُه . وقولُه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أى شبَّ وصار يَسْعَى فى مصالِحِه كأبيه . قال مُجاهِدٌ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أى ؛ شبَّ وارتَحَلَ وأطاقَ ما يفعلُه أبوه مِن السَّعْىِ والعملِ . فلمّا كان هذا ، أُرِىَ إبراهيمُ عليه السلامُ فى المنامِ أنه يُؤْمَرُ بذبحِ ولدِه هذا .

وفى الحديثِ عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا[٣] : « رُؤْيا الأنبياءِ وَحْىٌ » . قاله

---

(١) التفسير ٢٢/٧ - ٣١ .

(٢) فى ص : « إسحاق » .

(٣) عزاه ابن حجر فى الفتح ٢٣٩/١ إلى مسلم مرفوعا ، ولم نهتد إليه . ورواه الطبرانى فى الكبير (١٢٣٠٢) موقوفا على ابن عباس ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد ابن أبى مريم وهو ضعيف ، وبقية رجاله رجالُ الصحيح . المجمع ١٧٦/٧ .

عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ[1] أيضًا[2] . وهذا اختبارٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لخليلِه فى أنْ يَذبَحَ هذا الولدَ العزيزَ ، الذى جاءه على كِبَرٍ ، وقد طَعَنَ فى السِّنِّ ، بعدَ ما أُمِر بأنْ يُسكِنَه هو وأمَّه فى بلادٍ قَفْرٍ ، ووادٍ ليس به حَسِيسٌ ولا أَنِيسٌ ، ولا زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ ، فامتثَل أَمْرَ اللهِ فى ذلك ، وتركَهما هناك ثِقةً باللهِ وتوكُّلًا عليه ، فجَعَل اللهُ لهما فرَجًا ومَخْرَجًا ، ورزَقَهما مِن حيثُ لا يحتسبان ، ثم لمّا أُمِر بعدَ هذا كلِّه بذَبْحِ ولدِه هذا ، الذى أَفْرَدَه عن أمرِ ربِّه ، وهو بِكْرُه ووحيدُه الذى ليس له غيرُه ، أجاب ربَّه وامتثَل أمرَه وسارَع إلى طاعتِه ، ثم عرَض ذلك على ولدِه ؛ ليكونَ أَطْيَبَ لقلبِه ، وأَهْوَنَ عليه مِن أنْ يأخُذَه قَسْرًا ويذبَحَه قَهْرًا ﴿ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ . فبادَر الغلامُ الحليمُ يَبَرُّ[3] والدَه الخليلَ إبراهيمَ ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ . وهذا الجوابُ فى غايةِ السَّدادِ والطاعةِ للوالدِ ولربِّ العبادِ . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ . قيل[4] : أَسْلَما ؛ أى استسلَما لأمرِ اللهِ ، وعزَما على ذلك . وقيل : [١/٩٧و] هذا من المقدَّمِ والمؤخَّرِ ، والمعنى ﴿ تَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ أى ؛ ألقاه على وجهِه . قيل : أراد أن يذبَحَه من قَفاه لِئَلَّا يشاهدَه فى حالِ ذَبْحِه . قاله ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، وقَتادةُ ، والضحاكُ . وقيل : بل أَضْجَعَه كما تُضْجَعُ الذبائحُ ، وبَقِىَ طَرَفُ جبينِه لاصقًا بالأرضِ . ﴿ أَسْلَمَا ﴾ أى ؛ سمَّى إبراهيمُ وكبَّر ، وتشهَّد وسلَّم الولدَ للموتِ . قال السُّدِّىُّ وغيرُه : أَمَرَّ السِّكينَ على حَلْقِه فلم

---

(١) فى الأصل : « عمر » .

(٢) البخارى (١٣٨ ، ٨٥٩) .

(٣) فى م ، ص : « سر » .

(٤) هذه الرواية وما بعدها من روايات فى تفسير الطبرى ٢٣/٧٩ - ٨٨ .

تَقطَعْ شيئًا . ويقالُ : جُعِلَ بينَها وبينَ حَلْقِه صفيحةٌ مِن نُحاسٍ . واللهُ أعلمُ .
فعندَ ذلك نُودِىَ من اللهِ عز وجل : ﴿ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ .
أى قد حصَل المقصودُ من اختبارِك وطاعتِك ، ومبادرتِك إلى أمرِ ربِّك ، وبَذْلِكَ ولَدَكَ للقُرْبانِ ، كما سمَحْتَ[1] ببدنِك للنيرانِ ، وكما مالُك مبذولٌ للضِّيفانِ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴾ . أى ؛ الاختبارُ الظاهرُ البيِّنُ . وقولُه : ﴿ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ . أى ؛ وجعلنا فداءَ ذَبْحِ ولَدِه ما يَسَّرَه اللهُ تعالى له من العِوَضِ عنه . والمشهورُ عن الجمهورِ أنه كَبْشٌ أبيضُ أَعْيَنُ أَقْرَنُ ، رآه مربوطًا بسَمُرَةٍ فى ثَبِيرٍ[2] . قال الثورىُّ ، عن عبدِ اللهِ ابنِ عثمانَ بنِ خُثَيْمٍ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : كَبْشٌ قد رَعَى فى الجنةِ أربعين خريفًا[3] . وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ : كان يَرْتَعُ فى الجنةِ حتى تشقّقَ عنه ثَبِيرٌ ، وكان عليه عِهْنٌ أحمرُ[3] . وعن ابنِ عباسٍ : هبَط عليه مِن ثَبِيرٍ كَبْشٌ أَعينُ أَقْرَنُ له ثُغَاءٌ فذبَحه ، وهو الكَبْشُ الذى قرَّبه ابنُ آدمَ فتُقُبِّلَ منه . رواه ابنُ أبى حاتمٍ[4] . قال مُجاهدٌ : فذبحه بِمِنًى . وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ[5] : ذبَحه بالمَقامِ . فأمَّا ما رُوِى عن ابنِ عباسٍ ، أنَّه كان وَعْلًا ، وعن الحسنِ ، أنه كان تَيْسًا مِن الأَرْوَى واسمُه جريرٌ ، فلا يكادُ يصحُّ عنهما . ثم غالِبُ ما ههنا من الآثارِ مأخوذٌ من الإسرائيلياتِ ، وفى القرآنِ كفايةٌ عما جرَى من الأمرِ العظيمِ ، والاختبارِ الباهرِ ، وأنه فُدِىَ بذِبْحٍ عظيمٍ .

---

(1) بعده فى الأصل : « بولدك للقربان » .

(2) السمرة : الشجرة . وثبير : جبل بظاهر مكة .

(3) رواه ابن جرير فى تفسيره ٨٧/٢٣ .

(4) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٢٨٤/٥ وعزاه لابن أبى حاتم .

(5) فى الأصل : « عمر » .

وقد ورَد فى الحديثِ أنه كان كَبْشًا ، قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا سُفيانُ ، حدثنا منصورٌ ، عن خالِه مُسافِعٍ ، عن صفيةَ بنتِ شَيْبَةَ ، قالت : أخبرتنى امرأةٌ مِن بنى سُلَيمٍ ولَّدتْ عامَّةَ أهلِ دارِنا ، قالت : أرسَل رسولُ اللهِ ﷺ إلى عثمانَ بنِ طَلْحةَ - وقال مرَّةً : إنها سألت عثمانَ : لِمَ دعاك رسولُ اللهِ ﷺ ؟ - قال : « إنِّى كنتُ رأيتُ قَرْنَىِ الكبشِ ، حينَ دخلتُ البيتَ ، فنَسِيتُ أنْ آمُرَكَ أنْ تُخمِّرَهما ، فخمِّرْهما ؛ فإنه لا يَنبغِى أَنْ يكونَ فى البيتِ شىءٌ يَشْغَلُ المصلِّىَ » . قال سُفيانُ : لم تَزَلْ قَرْنَا الكبشِ فى البيتِ حتى احْتِراقِ البيتِ فاحتَرقا [٩٧/١ظ] . وهكذا رُوِىَ عن ابنِ عباسٍ ، أن رأسَ الكبشِ لم يَزَلْ معلَّقًا عندَ ميزابِ الكعبةِ ، قد يَبِسَ . وهذا وحدَه دليلٌ على أن الذبيحَ إسماعيلُ ؛ لأنه كان هو المقيمَ بمكةَ ، وإسحاقُ لا نعلَمُ أنه قَدِمها فى حالِ صِغَرِه . واللهُ أعلمُ . وهذا هو الظاهرُ مِن القرآنِ ، بل كأنه نصٌّ على أن الذبيحَ هو إسماعيلُ ؛ لأنَّه ذكَر قصةَ الذبيحِ ، ثم قال بعدَه : ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ومن جعَله حالًا فقد تكلَّف ، ومستَنَدُه أنه إسحاقُ إنما هو إسرائيلياتٌ ، وكتابُهم فيه تحريفٌ ، ولاسيما ههنا قَطْعًا لا مَحيدَ عنه ؛ فإن عندَهم أن اللهَ أمَر إبراهيمَ أن يَذْبَحَ ابنَه وحيدَه ، وفى نسخةٍ مِن المُعرَّبةِ[2] : بِكْرَه إسحاقَ . فلَفْظَةُ « إسحاقَ » ههنا مُقْحَمةٌ مكذوبةٌ مفتراةٌ ؛ لأنه ليس هو الوحيدَ ، ولا البِكْرَ ، وإنما الوحيدُ البِكْرُ إسماعيلُ ، وإنّما حمَلَهم على هذا حسدُ العربِ ؛ فإن إسماعيلَ أبو العربِ الذين يسكنون الحجازَ ، الذين منهم رسولُ اللهِ ﷺ ، وإسحاقَ والدُ يعقوبَ ، وهو إسرائيلُ الذين ينتسبون

---

(١) المسند ٦٨/٤ (صحيح الجامع ٢٥٠٠) .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح ٢/٢٢ .

إليه ، فأرادوا أن يَجُرُّوا هذا الشرفَ إليهم ، فحرَّفوا كلامَ اللهِ وزادُوا فيه ، وهم قومُ بُهْتٍ ، ولم يُقِرُّوا بأنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يؤتيه مَن يشاءُ . وقد قال بأنه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ مِن السَّلَفِ وغيرِهم[1] ، وإنما أخذوه ، واللهُ أعلمُ ، مِن كعبِ الأحبارِ ، أو صُحُفِ أهلِ الكتابِ ، وليس فى ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصومِ ، حتى نَتركَ لأجلِه ظاهرَ الكتابِ العزيزِ ، ولا يُفْهَمُ هذا مِن القرآنِ ، بل المفهومُ ، بل المنطوقُ ، بل النصُّ عندَ التأملِ على أنه إسماعيلُ .

وما أحسَنَ ما استدَلَّ محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ ، على أنه إسماعيلُ وليس بإسحاقَ ، مِن قولِه : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] . قال : فكيف تقعُ البِشارةُ بإسحاقَ ، وأنه سيُولدُ له يعقوبُ ، ثم يُؤْمَرُ بذَبْحِ إسحاقَ وهو صغيرٌ قبل أَنْ يُولَدَ له ؟ هذا لا يكونُ ؛ لأنه يناقضُ البِشارةَ المتقدِّمةَ ، واللهُ أعلمُ . وقد اعترَض السُّهَيْلىُّ[2] على هذا الاستدلالِ بما حاصِلُه ، أن قولَه : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ جملةٌ تامةٌ ، وقولَه : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ جملةٌ أخرى ليست فى حَيِّزِ البِشارةِ . قال : لأنه لا يَجُوزُ مِن حيثُ العربيةُ أن يكونَ مخفوضًا ، إلا أن يُعادَ معه حرفُ الجرِّ ، فلا يجوزُ أن يُقالَ : مررتُ بزيدٍ ، ومِن بعدِه عمرٍو . حتى يقالَ : ومِن بعدِه بِعمرٍو . وقال : فقولُه : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ تقديرُه : ووهبنا لإسحاقَ يعقوبَ . وفى هذا الذى قاله نظرٌ . ورجَّح أنه إسحاقُ ، واحتجَّ بقولِه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ قال : وإسماعيلُ لم يكنْ عندَه ، إنما كان فى حالِ صِغَرِه هو وأُمُّه بجِبالِ مكةَ ، فكيف يبلغُ معه السَّعْىَ ؟ وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ ؛ لأنَّه قد رُوِى أن الخليلَ كان يذهَبُ فى كثيرٍ من الأوقاتِ

---

(١) انظر التفسير ٧/٢٧ ، ٢٨ .

(٢) فى التعريف والإعلام ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

راكبًا البُراقَ إلى مكةَ ، يَطَّلِعُ على ولدِه وابنِه ثم يرجعُ . واللهُ أعلمُ .

فممَّن حُكِي القولُ عنه بأن الذبيحَ إسحاقُ : كعبُ الأحبارِ . ورُوِىَ عن عمرَ ، والعباسِ ، وعليٍّ ، وابنِ مسعودٍ ، ومسروقٍ ، وعِكْرِمةَ ، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، ومُجاهِدٍ ، وعطاءٍ ، والشَّعْبىِّ ، ومُقاتِلٍ ، وعُبيدِ بنِ عُمَيْرٍ[1] ، وأبى مَيْسَرةَ ، وزيدِ بنِ أَسْلَمَ ، وعبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ ، والزُّهْرىِّ ، والقاسمِ [2]بنِ أبى بزَّةَ[2] ، ومكحولٍ ، وعثمانَ بنِ حاضِرٍ ، والسُّدِّىِّ ، والحسنِ ، وقَتادةَ ، وأبى الهُذَيْلِ ، وابنِ سابِطٍ . وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ[3] ، وهذا عجبٌ منه ، وهو إحدى الروايتين عن ابنِ عباسٍ . ولكنَّ الصَّحيحَ عنه وعن أكثرِ هؤلاء أنه إسماعيلُ عليه السلامُ . قال مُجاهِدٌ ، وسعيدٌ ، والشَّعْبىُّ ، [١/٩٨و] ويوسفُ بنُ مِهْرَانَ ، وعطاءٌ ، وغيرُ واحدٍ عن ابنِ عباسٍ : هو إسماعيلُ عليه السلامُ . وقال ابنُ جَريرٍ[4] : حدثنى يونُسُ ، أنبأنا ابنُ وهْبٍ ، أخبرنى عُمَرُ بنُ قَيْسٍ ، عن عطاءِ بنِ أبى رَبَاحٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنه قال : المَفْدِىُّ إسماعيلُ ، وزعَمت اليهودُ أنه إسحاقُ ، وكذَبت اليهودُ . وقال عبدُ اللهِ ابنُ الإمامِ أحمدَ ، عن أبيه : هو إسماعيلُ . وقال ابنُ أبى حاتِمٍ : سألتُ أبى عن الذبيحِ ، فقال : الصحيحُ أنه إسماعيلُ عليه السلامُ .

قال ابنُ أبى حاتِمٍ[5] : ورُوِى عن علىٍّ ، وابنِ عُمَرَ ، وأبى هُرَيرةَ ، وأبى الطُّفَيْلِ ، وسعيدِ بنِ المسيَّبِ ، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، والحسنِ ، ومُجاهِدٍ ،

---

(١) فى الأصل : « عمر » .

(٢ - ٢) فى م : « وابن أبى بردة » .

(٣) تفسير الطبرى ٨٥/٢٣ .

(٤) تفسير الطبرى ٨٤/٢٣ .

(٥) التفسير ٢٩/٧ .

والشَّعْبِىِّ ، ومحمدِ بنِ كعبٍ ، وأبى جعفرٍ محمدِ بنِ علىٍّ ، وأبى صالحٍ ، أنهم قالوا : الذبيحُ هو إسماعيلُ عليه السلامُ . وحكاه البَغَوِىُّ[1] أيضًا عن الرَّبيعِ بنِ أنسٍ ، والكَلْبِىِّ ، وأبى عمرِو بنِ العلاءِ .

قلتُ : ورُوِى عن معاويةَ . وجاء عنه أن رجلًا قال لرسولِ اللهِ ﷺ : يا ابنَ الذَّبيحَيْن . فضحِك رسولُ اللهِ ﷺ[2] . وإليه ذهَب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسارٍ ، وكان الحسنُ البصرىُّ يقولُ : لا شكَّ فى هذا . وقال محمدُ بنُ إسحاقَ[3] ، عن بُرَيْدَةَ بنِ[4] سفيانَ بنِ فَرْوَةَ الأَسْلَمىِّ ، عن محمدِ بنِ كعبٍ ، أنَّه حدثهم أنه ذكَر ذلك لعُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، وهو خليفةٌ إذ[5] كان معه بالشَّامِ - [6]يعنِى استدلالَه بقولِه بعدَ القصةِ[7] : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[6] - فقال له عمرُ : إن هذا الشىءَ ما كنتُ أَنظُرُ فيه ، وإنى لأُراه كما قلتَ . ثم أرسَل إلى رجلٍ كان عندَه بالشامِ ، كان يهوديًّا فأسلَم وحَسُن إسلامُه ، وكان يُرَى أنه مِن علمائِهم . قال : فسأله عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ عن ذلك . قال محمدُ بنُ كعبٍ : وأنا عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فقال له عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : أىُّ ابْنَىْ إبراهيمَ أُمِر بذَبْحِه ؟ فقال : إسماعيلُ واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، وإنَّ يهودَ لتعْلَمُ

---

(١) تفسير البغوى ٢٧/٦ .

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره ٨٥/٢٣ ، والحاكم فى مستدركه ٥٥٤/٢ وسكت عليه ، وعلق عليه الذهبى بقوله : إسناده واه . وقال السيوطى فى الدر المنثور ٢٨١/٥ : بسند ضعيف .

(٣) تفسير الطبرى ٨٤/٢٣ ، ٨٥ .

(٤) فى م : « عن » .

(٥) فى الأصل : « أو » .

(٦ - ٦) زيادة من : م ، ص .

(٧) فى م : « العصمة » .

بذلك ، ولكنَّهم يَحسُدونكم - مَعْشَرَ العربِ - على أنْ يكونَ أباكم ؛ الذى كان مِن أمرِ اللهِ فيه ، والفضلِ الذى ذَكَره اللهُ مِنْه ، لصبرِه لِمَا أُمِر به ، فهم يَجْحَدون ذلك ، ويزعُمون أنه إسحاقُ ؛ لأن إسحاقَ أبوهم . وقد ذكرنا هذه المسألةَ مستقصَاةً بأدلَّتِها وآثارِها فى كتابِنا « التفسيرِ »[1] . ولله الحمدُ والمنةُ .

---

(١) التفسير ٢٧/٧ - ٣٠ .

ذكرُ مولدِ إسحاقَ عليه الصلاةُ والسلامُ

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ، ١١٣] . وقد كانت البشارةُ به من الملائكةِ لإبراهيمَ وسارَّةَ ، لَمّا مرُّوا عليهم مُجتازِين ذاهِبين إلى مدائِنِ قومِ لُوطٍ ليدمِّروا عليهم ؛ لكُفْرِهم وفجورِهم ، كما سيأتى بيانُه فى موضعِه إن شاء اللهُ تعالى . [١/٩٨ظ] قال اللهُ تعالى[2] : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٦٩ - ٧٣] . وقال تعالى[3] : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر : ٥١ - ٥٦] . وقال تعالى[4] : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ

---

(١) التفسير ٧/٣٠ ، ٣١ .

(٢) التفسير ٤/٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٣) التفسير ٤/٤٥٨ ، ٤٥٩ .

(٤) التفسير ٧/٣٩٧ ، ٣٩٨ .

حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٢٤ - ٣٠] . يذكرُ تعالى أن الملائكةَ - قالوا : وكانوا ثلاثةً ؛ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ - لمّا وردوا على الخليلِ حَسِبهم أولًا[1] أضيافًا ، فعامَلهم معاملةَ الضيوفِ ؛ شوَى لهم عِجْلًا سمينًا من خيارِ بَقرِه ، فلما قرَّبه إليهم وعرَض عليهم ، لم يَرَ لهم هِمَّةً إلى الأكلِ بالكليةِ ؛ وذلك لأن الملائكةَ ليس فيهم قوةُ الحاجةِ إلى الطعامِ ، فنَكِرَ منهم أَمْرَهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أى ؛ لندمِّرَ عليهم . فاستَبشَرت عندَ ذلك سارَّةُ غضبًا للهِ عليهم ، وكانت قائمةً على رءُوسِ الأضيافِ ، كما جرَت به عادةُ الناسِ من العربِ وغيرِهم ، فلمّا ضَحِكَت استبشارًا بذلك ، قال اللهُ تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى ؛ بشَّرَتْها الملائكةُ بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ أى فى صَرْخةٍ ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أى كما يَفعلُ النِّساءُ عند التعجُّبِ ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ أى كيف يَلِدُ مثلى وأنا كبيرةٌ وعقيمٌ أيضًا . ﴿ وَهَـٰذَا بَعْلِى ﴾ أى زوجى ﴿ شَيْخًا ﴾ تعجَّبت مِن وجودِ ولَدٍ والحالةُ هذه ؛ ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾. وكذلك تعجَّب إبراهيمُ ، عليه السلامُ ، استبشارًا بهذه البِشارةِ ، وتثبيتًا لها ، [١/٩٩و] وفرحًا بها ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ

---

(١) سقط من : م ، ص .

فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴾ . أكَّدوا الخبرَ بهذه البِشارةِ ، وقرَّروه معه ، فبشَّروهما ﴿ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ وهو إسحاقُ ، وأخوه إسماعيلُ غلامٌ حليمٌ ، مناسِبٌ لمَقامِه وصبرِه ، وهكذا وصَفه ربُّه بصدقِ الوعدِ والصَّبرِ . وقال فى الآيةِ الأُخْرَى : ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ . وهذا مما استدَلَّ به محمدُ ابنُ كعبٍ القُرَظىُّ وغيرُه على أن الذبيحَ هو إسماعيلُ ، وأن إسحاقَ لا يجوزُ أن يُؤْمَرَ بذبحِه ، بعدَ أن وقَعَت البشارةُ بوجودِه ووجودِ ولدِه يعقوبَ المشتَقِّ مِن العَقِبِ مِن بعدِه .

وعندَ أهلِ الكتابِ[1] أنه أحضَر مع العجلِ الحَنِيذِ - وهو المَشْوِىُّ - رغيفًا مِن مَلَّةٍ[2] فيه ثلاثةُ أكيالٍ وسمنٌ ولبنٌ . وعندَهم أنهم أكَلوا . وهذا غَلَطٌ مَحْضٌ . وقِيل : كانوا يُورُون[3] أنهم يأكلون ، والطعامُ يتلاشَى فى الهواءِ . وعندَهم أن اللهَ تعالى قال لإبراهيمَ : أمَّا سارَّةُ امرأتُك فلا يُدْعَى اسمُها سارا ، ولكنِ اسمُها سارَّةُ ، وأبارِكُ عليها ، وأعطيك منها ابنًا وأُبارِكُه ، ويكونُ للشُّعوبِ[4] وملوكُ الشُّعوبِ منه . فخرَّ إبراهيمُ على وجهِه - يعنى ساجدًا - وضحِك قائلًا فى نفسِه : أَبَعْدَ مائةِ سنةٍ يُولَدُ لى غلامٌ ، أو سارَّةُ تَلِدُ وقد أتَت عليها[5] تسعون سنةً ؟ وقال إبراهيمُ للهِ تعالى : ليت إسماعيلَ يعيشُ قُدَّامَك ! فقال اللهُ لإبراهيمَ : بحَقِّى ، إن امرأتَك سارةَ تَلدُ لك غلامًا

---

(١) سفر التكوين الأصحاح ٦/١٨ وما بعده .

(٢) فى م ، ص : « مكة » . والملة هى التراب الحار أو الرماد أو الجمر يخبز عليه ويطبخ عليه .

(٣) فى م : « يودون » ، وفى ا : « يرون » .

(٤) فى م : « الشعوب » .

(٥) فى ص : « عليه » .

وتدعُو اسمَه إسحاقَ إلى مثلِ هذا الحينِ مِن قابلٍ ، وأُواثِقُه[1] ميثاق إلى الدهرِ ، ولِخَلَفِه من بعدِه ، وقد استجبتُ لك فى إسماعيلَ ، وباركتُ عليه وكبَّرتُه[2] ، ونَمَّيتُه جَدًّا كبيرًا ، ويُولَدُ له اثنَا عشَرَ عظيمًا ، وأَجعلُه رئيسًا لشعبٍ عظيمٍ . وقد تكلمنا على هذا بما تقدم . واللهُ أعلمُ .

فقولُه تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ دليلٌ على أنها تَستمتِعُ[3] بوجودِ ولدِها إسحاقَ ، ثم مِن بعدِه يولَدُ ولدُه يعقوبُ ؛ أى يولَدُ فى حياتِهما ، لتَقَرَّ أعينُهما به ، كما قرَّت بوالدِه[4] . ولو لم يَرِدْ هذا ، لم يكنْ لذِكْرِ يعقوبَ وتخصيصِ التنصيصِ عليه مِن دونِ سائرِ نسلِ إسحاقَ فائدةٌ ، ولمَّا عُيِّن بالذِّكرِ ، دلَّ على أنَّهما يتمتعان به ويُسَرَّان بمَولدِه[5] ، كما سُرَّا بمولدِ أبيه مِن قبلِه . وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام : ٨٤] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم : ٤٩] . وهذا إن شاء اللهُ ظاهرٌ قوىٌّ ، ويؤيدُه ما ثبَت فى « الصحيحين »[6] من حديثِ سليمانَ بنِ مِهْرَانَ الأعمشِ ، عن إبراهيمَ بنِ يزيدَ التَّيْمِىِّ ، عن أبيه ، عن أبى ذَرٍّ ، قال : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ، [٩٩/١ظ] أىُّ مسجدٍ وُضِعَ أوَّلَ ؟ قال : « المسجدُ الحرامُ » . قلت : ثم أىٌّ ؟ قال : « المسجدُ الأقْصَى » . قلت : كم بينَهما ؟ . قال :

---

(١) فى م ، ص : « وأوثقه » .

(٢) فى ص : « كثرته » .

(٣) فى ص : « ستمتع » .

(٤) فى م ، ص : « بولده » .

(٥) فى م : « بولده » ، وفى ا : « به » .

(٦) البخارى (٣٣٦٦) ، مسلم (٥٢٠) .

« أربعون سنةً » . قلت : ثم أيٌّ ؟ . قال : « ثم حيثُ أدركْتَ الصلاةَ فصلِّ ، فكلُّها مَسْجِدٌ » . وعندَ أهلِ الكتابِ أن يعقوبَ ، عليه السلامُ ، هو الذى أسَّس المسجدَ الأقْصَى ، وهو مسجدُ إيلِيَا ، (1)وهو مسجدُ(1) بيتِ المقدسِ ، شرَّفَه اللهُ . وهذا مُتَّجِهٌ ، ويشهدُ له ما ذكرناه من الحديثِ .

فعلَى هذا يكونُ بناءُ يعقوبَ - وهو إسرائيلُ عليه السلامُ - بعدَ بناءِ الخليلِ وابنِه إسماعيلَ المسجدَ الحرامَ بأربعين سنةً سواءً ، وقد كان بناؤُهما ذلك بعدَ وجودِ إسحاقَ ؛ لأن إبراهيمَ عليه السلامُ لما دعا قال فى دعائِه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ * رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٣٥ - ٤١] .

وما جاء فى الحديثِ(2) من أن سليمانَ بنَ داودَ عليهما السلامُ لَمَّا بَنى بيتَ المقدسِ سأل اللهَ خِلالًا ثلاثًا ، كما ذكرناه عندَ قولِه(3) : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى

(١ - ١) سقط من : م .

(٢) رواه النسائى (٦٩٢) وابن ماجه (١٤٠٨) . وانظر (صحيح ابن ماجه ١١٠٦) .

(٣) التفسير ٦٣/٧ .

وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِىٓ ﴾ [صٓ : ٣٥] . وكما سنورِدُه فى قصتِه . فالمرادُ مِن ذلك ، واللهُ أعلمُ ، أنَّه جدَّد بناءَه ، لِمَا تقدم من أن بينَهما أربعين سنةً ، ولم يقُلْ أحدٌ : إن بينَ سليمانَ وإبراهيمَ أربعينَ سنةً سوى ابنِ حِبَّانَ فى « تقاسيمِه وأنواعِه »[1] ، وهذا القولُ لم يُوافَقْ عليه ولا سُبِقَ إليه ، واللهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ[2] .

---

(١) الإحسان (٦٢٢٨) .

(٢) انظر أعلام المساجد للزركشى ص ٢٩ ، ٣٠ . وزاد المعاد ٤٩/١ ، ٥٠ .

ذكرُ بناءِ البيتِ العتيقِ

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٦ ، ٢٧] . وقال تعالى[2] : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] . وقال تعالى[3] : ﴿ وَإِذِ [١٠٠/١و] ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٤ - ١٢٩] . يذكرُ

---

(١) التفسير ٤٠٩/٥ ، ٤١٠ .

(٢) التفسير ٦٣/٢ - ٧٠ .

(٣) التفسير ٢٣٧/١ - ٢٦٩ .

تعالى عن عبدِه ورسولِه وصَفِيِّه وخليلِه ، إمامِ الحُنَفاءِ ووالدِ الأنبياءِ إبراهيمَ ، عليه أفضلُ صلاةٍ وتسليمٍ ، أنه بنَى البيتَ العتيقَ الذى هو أولُ مسجدٍ وُضِع لعمومِ الناسِ يعبدون اللهَ فيه ، وبوَّأه اللهُ مكانَه ، أى أرشَدَه إليه ودلَّه عليه . وقد رُوِّينا عن أميرِ المؤمنين علىِّ بنِ أبى طالِبٍ ، وغيرِه ، أنه أُرْشِد إليه بوحْىٍ مِن اللهِ عز وجل[1] . وقد قدمنا فى صفةِ خلقِ السَّمٰواتِ أنَّ الكعبةَ بحِيالِ البيتِ المعمورِ ، بحيث إنَّه لو سقط لسقَط عليها[2] . وكذلك معابدُ السَّمٰواتِ السبعِ ، كما قال بعضُ السلفِ : إن فى كلِّ سماءٍ بيتًا يَعبُدُ اللهَ فيه أهلُ كلِّ سماءٍ ، وهو فيها كالكعبةِ لأهلِ الأرضِ . فأمرَ اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السلامُ أن يَبْنِيَ له بيتًا ، يكونُ لأهلِ الأرضِ كتلك المعابدِ لملائكةِ السَّمٰواتِ ، وأرشَده اللهُ إلى مكانِ البيتِ المهيَّإِ له ، المعيَّنِ لذلك منذ خلَق السَّمٰواتِ والأرضَ . كما ثبَت فى « الصَّحيحين »[3] : « إن هذا البلَدَ حرَّمه اللهُ يومَ خلَق السَّمٰواتِ والأرضَ ، فهو حَرامٌ بحُرْمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ » . ولم يجئْ فى خبرٍ صحيحٍ عن معصومٍ أن البيتَ كان مبنيًّا قبلَ الخليلِ عليه السلامُ ، ومَن تَمسَّك فى هذا بقولِه : ﴿ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ فليس بناهِضٍ ولا ظاهِرٍ ؛ لأن المرادَ مكانُه المقدَّرُ فى علمِ اللهِ ، (٤)المقدَّرُ فى قدرِه(٤) ، المعظَّمُ عندَ الأنبياءِ موضِعُه ، مِن لَدُنْ آدمَ إلى زمانِ إبراهيمَ .

وقد ذكَرنا أن آدمَ نصَب عليه قُبَّةً ، وأن الملائكةَ قالوا له : قد طُفْنا قبْلَك بهذا البيتِ . وأن السفينةَ طافت به أربعين يومًا ، أو نحوَ ذلك . [١/١٠٠ظ]

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٢٥١ .

(٢) فى الأصل : « عليه » . وتقدم فى صفحة ٩٣ ، ٩٤ فى باب ذكر خلق الملائكة ، وليس كما ذكر المصنف فى باب صفة خلق السمٰوات .

(٣) البخارى (١٥٨٧) ، مسلم (١٣٥٣) واللفظ لمسلم .

(٤ - ٤) فى م : « المقرر فى قدرته » .

ولكنْ كلُّ هذه أخبارٌ عن بنى إسرائيلَ ، وقد قرَّرنا أنها لا تُصدَّقُ ولا تُكذَّبُ ، فلا يُحتَجُّ بها ، فأمَّا إنْ ردَّها الحقُّ ، فهى مردودةٌ . وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، أى ؛ أولُ بيتٍ وُضِع لعمومِ الناسِ للبركةِ والهدَى ، البيتُ الذى ببكَّةَ . قِيل : مكةُ . وقِيل : مَحَلَّةُ الكعبةِ ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ ﴾ أى على أنه بناءُ الخليلِ والدِ الأنبياءِ مِن بعدِه وإمامِ الحنفاءِ مِن ولدِه ، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنَنِه ؛ ولهذا قال : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أى ؛ الحَجرُ الذى كان يقفُ عليه قائمًا لَمَّا ارتفع البناءُ عن قامتِه ، فوضَع له ولدُه هذا الحَجَرَ المشهورَ ليرتفعَ عليه لَمَّا تعالَى البناءُ وعَظُمَ الفِناءُ ، كما تقدّم فى حديثِ ابنِ عباسٍ الطويلِ[1] . وقد كان هذا الحَجَرُ مُلْصَقًا بحائطِ الكعبةِ على ما كان عليه مِن قديمِ الزمانِ إلى أيامِ عمرَ بنِ الخطابِ ، رضى اللهُ عنه ، فأخَّرَه عن البيتِ قليلًا ؛ لِئَلَّا يَشْغَلَ المُصلُّون عندَه الطَّائفين بالبيتِ ، واتَّبع عمرُ بنُ الخطابِ رضى اللهُ عنه فى هذا ، فإنه قد وافقه ربُّه فى أشياءَ ؛ منها فى قولِه لرسولِه ﷺ : لو اتخذْنا مِن مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى . فأنزَل اللهُ : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾[2] . وقد كانت آثارُ قَدَمَى الخليلِ باقيةً فى الصخرةِ إلى أولِ الإسلامِ . وقد قال أبو طالبٍ فى قَصيدتِه اللاميَّةِ المشهورةِ[3] :

وثَوْرٍ ومَن أرسَى ثَبيرًا مكانَه ... وراقٍ لِيَرْقَى فى حِراءَ ونازِلِ
وبالبيتِ حقٌّ البيتِ مِن بطنِ مكَّةَ ... وباللهِ إنَّ اللهَ ليس بغافِلِ
وبالحجَرِ المُسْوَدِّ إذ يَمْسَحُونه ... إذا اكتَنَفوه بالضُّحَى والأَصائِلِ
ومَوْطِئُ إبراهيمَ فى الصَّخْرِ رَطْبةٌ ... على قَدَميْهِ حَافيًا غيرَ ناعِلِ

---

(١) تقدم فى صفحة ٣٥٧ وما بعدها .

(٢) البخارى (٤٤٨٣) .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٧٢/١ - ٢٨٠ . والروض الأنف ٦٣/٣ - ٦٩ .

يعنى أن رِجْلَه الكريمةَ غاصَت فى الصخرةِ ، فصارت على قدرِ قدمِه ، حافيةً لا مُنْتَعِلةً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ أى فى حالِ قولِهما : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهما فى غايةِ الإخلاصِ والطاعةِ للهِ عز وجل ، وهما يسألان مِن اللهِ السميعِ العليمِ أن يتقبَّلَ منهما ما هما فيه من الطاعةِ العظيمةِ والسَّعْىِ المشكورِ ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

والمقصودُ أن الخليلَ بنَى أشرفَ المساجدِ فى [١٠١/١و] أفضلِ البِقاعِ ، فى وادٍ غيرِ ذى زرعٍ ، ودعَا لأهلِها بالبركةِ وأن يُرزَقوا من الثمراتِ ، مع قلةِ المياهِ وعدمِ الأشجارِ والزروعِ والثمارِ ، وأنْ يجعَلَه حَرَمًا محرَّمًا وأمْنًا محتَّمًا ، فاستجاب اللهُ – وله الحمدُ – له مسألتَه ، ولبَّى دعوتَه ، وآتاه طِلْبَتَه ؛ فقال تعالى[1] : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] . وقال تعالى[2] : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : ٥٧] . وسأل اللهَ أن يَبعَثَ فيهم رسولًا منهم ؛ أى مِن جِنْسِهم ، وعلى لغتِهم الفصيحةِ البليغةِ النَّصيحةِ ؛ لتتمَّ عليهم النِّعمتان ؛ الدنيويةُ والدينيةُ ، بسعادةِ الأُولَى والآخرةِ . وقد استجاب اللهُ له ، فبعَث فيهم رسولًا ، وأىَّ رسولٍ ، ختَم به أنبياءَه ورسلَه ، وأكمَل له من الدينِ ما لم يؤْتِ أحدًا قبلَه ، وعمَّ بدعوتِه أهلَ الأرضِ على اختلافِ أجناسِهم ولغاتِهم وصفاتِهم ، فى سائرِ الأقطارِ والأمصارِ والأعصارِ إلى يومِ القيامةِ . وكان هذا من خصائِصِه من بينِ سائرِ الأنبياءِ ؛ لشَرَفِه فى نفسِه ،

---

(١) التفسير ٣٠٢/٦ .

(٢) التفسير ٢٥٥/٦ – ٢٥٧ .

وكمالِ ما أُرْسِل به ، وشَرَفِ بقعتِه ، وفصاحةِ لغتِه ، وكمالِ شَفَقَتِه على أُمتِه ، ولطفِه ورحمتِه ، وكريمِ مَحْتِدِه[1] ، وعظيمِ مولدِه ، وطِيبِ مصدرِه ومَوْردِه . ولهذا استحَق إبراهيمُ الخليلُ عليه السلامُ - إذ كان بانىَ كعبةِ أهلِ الأرضِ - أن يكونَ مَنْصِبُه ومَحَلُّه وموضِعُه فى منازلِ السمٰواتِ ورفيعِ الدرجاتِ عندَ البيتِ المعمورِ ، الذى هو كعبةُ أهلِ السماءِ السابعةِ ، المبارَكِ المبرورِ ، الذى يدخلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفًا مِن الملائكةِ يتعبَّدُون فيه ، ثم لا يعودون إليْه إلى يومِ البعثِ والنُّشورِ . وقد ذكرنا فى « التفسيرِ »[2] فى سورةِ « البقرة » صفةَ بِنائِه للبيتِ ، وما ورَد فى ذلك من الأخبارِ والآثارِ بما فيه كفايةٌ ، فَمَن أراده فلْيُراجِعْه ثَمَّ . وللهِ الحمدُ .

فمِن ذلك ما قال السُّدِّىُّ[3] : لَمّا أمَر اللهُ إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ يَبْنِيا البيتَ ، لم يَدْرِيا أينَ مكانُه ، حتى بعَث اللهُ ريحًا يقالُ لها : الخَجُوجُ . لها جَناحانِ ورأسٌ ، فى صورةِ حيَّةٍ ، فكَنَسَتْ[4] لهما ما حولَ الكعبةِ عن أساسِ البيتِ الأولِ ، وأتْبعَاها بالمعاوِلِ يَحْفُران ، حتى وضَعا الأساسَ ، وذلك حيثُ[5] يقولُ تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج : ٢٦] . فلما بلَغا القواعدَ ، بنيا الرُّكْنَ ، قال إبراهيمُ لإسماعيلَ : يا بُنَىَّ ، اطلُبْ لى (٦حجرًا حسنًا أضعْه ههنا . قال : يَا أبت ، إنى كسلانُ تعِبٌ . قال : علىَّ ذلك . فانطَلق وجاءه جبريلُ٦) بالحجَرِ الأسودِ [١/١٠١ظ] من الهندِ ، وكان

(١) محتده : أصله وطبعه .

(٢) التفسير ١/٢٤٧ وما بعدها .

(٣) تاريخ الطبرى ١/٢٥٢ .

(٤) فى ص : « فكشفت » .

(٥) فى ح ، م ، ص : « حين » .

(٦ - ٦) سقط من : م .

ياقوتةً بيضاءَ مثلَ الثَّغامةِ[1] ، وكان آدمُ هبَط به من الجنةِ ، فاسودَّ مِن خطايا الناسِ[2] ، فجاءه إسماعيلُ بحَجَرٍ ، فوجَده عندَ الرُّكْنِ ، فقال : يا أبت ، مَن جاءك بهذا ؟ قال : جاء به مَن هو أنشَطُ منك . فبَنَيا وهما يدعُوَان اللهَ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وذكَر ابنُ أبى حاتمٍ[3] أنه بناه مِن خمسةِ أجْبُلٍ ، وأن ذا القَرْنَيْن - وكان مَلِكَ الأرضِ إذ ذاك - مرَّ بهما وهما يَبْنِيانه ، فقال : مَن أمرَكُما بهذا ؟ فقال إبراهيمُ : اللهُ أمَرَنا به . فقال : وما يُدْرِينى بما تقولُ ؟ فشَهِدَت خمسةُ أَكْبُشٍ أنه أمَرَه بذلك ، فآمَنَ وصدَّقَ . وذكَر الأَزْرَقىُّ[4] أنَّه طاف مع الخليلِ بالبيتِ .

وقد كانت على بناءِ الخليلِ مدةً طويلةً ، ثم بعدَ ذلك بنَتْها قريشٌ ، فقَصُرت بها عن قواعدِ إبراهيمَ من جهةِ الشَّمالِ ، ممّا يلِى الشامَ[5] ، على ما هى عليه اليومَ . وفى « الصحيحين »[6] مِن حديثِ مالكٍ ، عن ابنِ شِهابٍ ، عن سالمٍ ، أن عبدَ اللهِ بنَ محمدِ بنِ أبى بكرٍ أَخْبَرَ ابنَ عُمَرَ ، عن عائشةَ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « ألم تَرَىْ أن قومَكِ لمَّا بَنَوُا الكعبةَ اقتصَروا عن قواعِدِ إبراهيمَ ؟ » . فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، ألا ترُدُّها على قواعدِ إبراهيمَ ؟ فقال :

---

(1) فى م : « النعامة » . والثغامة شجرة بيضاء الثمر والزهر وإذا يبست اشتد بياضها .

(2) أخرج الترمذى (٨٧٧) مرفوعا : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن ، فسودته خطايا بنى آدم » . وقال : حسن صحيح . (صحيح الترمذى ٦٩٥) .

(3) تفسير ابن أبى حاتم ٣٨٠/١ . إسناده ضعيف ومتنه منكر .

(4) أخبار مكة ٣٩/١ .

(5) فى الأصل : « الشمال » .

(6) البخارى (١٥٨٣) ، مسلم (١٣٣٣) .

« لولا حِدْثانُ قومِكِ - وفى روايةٍ[1] : لولا أَنَّ قومَكِ حديثو[2] عهدٍ بجاهليةٍ . أو قال : بكُفرٍ - لأَنفقتُ كَنْزَ الكعبةِ فى سبيلِ اللهِ ، ولجعَلْتُ بابَها بالأرضِ ، ولأَدْخَلْتُ فيها الحِجْرَ » . وقد بناها ابنُ الزُّبَيْرِ رحمه اللهُ فى أيامِه [3]على ما أشار إليه رسولُ اللهِ ﷺ[3] حَسْبَما أخبرَتْه خالتُه عائشةُ أُمُّ المؤمنين عنه ، فلما قتَلَه الحجَّاجُ فى سنةِ ثلاثٍ وسبعين ، كتَب إلى عبدِ الملِكِ بنِ مَرْوانَ ، الخليفةِ إذ ذاك ، فاعتَقَدوا أن ابنَ الزُّبَيْرِ إنَّما صنَع ذلك مِن تِلْقاءِ نفسِه ، فأمرَ بردِّها إلى ما كانت عليه ، فنَقَضُوا الحائِطَ الشَّامىَّ ، وأخرجوا منْها الحِجْرَ ، ثم سَدُّوا الحائطَ ، ورَدَمُوا الأحجارَ فى جوفِ الكعبةِ ، فارتفَع بابُها الشَّرقىُّ ، وسدُّوا الغربىَّ بالكُلِّيةِ ، كما هو مشاهَدٌ اليومَ ، ثم لمَّا بلَغهم أَنَّ ابنَ الزُّبَيْرِ إنما فعَل هذا لَمَّا أخبرَتْه عائشةُ أُمُّ المؤمنين ، ندِمُوا على ما فعَلوا ، وتأَسَّفُوا أنْ لو كانوا ترَكوه وما تولَّى مِن ذلك ، ثم لمَّا كان فى زمَنِ المهدىِّ ابنِ المنصورِ ، استشَار الإمامَ مالكَ بنَ أنسٍ فى ردِّها على الصِّفةِ التى بناها ابنُ الزبيرِ ، فقال له : إنِّى أخشَى أنْ يَتَّخذَها الملوكُ لُعبةً . يعنى كلَّما جاء مَلِكٌ بناها على الصِّفةِ التى يريدُ . فاستَقَرَّ الأمرُ على ما هى عليْه اليومَ .

---

(١) هى إحدى روايات مسلم (١٣٣٣) .

(٢) فى النسخ : « حديث » . والمثبت من صحيح مسلم .

(٣ - ٣) سقط من : ص .

ذكرُ ثناءِ اللَّـهِ ورسولِه الكريمِ، على عبدِ اللَّـهِ وخليلِه إبراهيمَ

[١٠٢/١و] قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] . لَمَّا وفَّى ما أمَره ربُّه به مِن التكاليفِ العظيمةِ ، جعَله للناسِ إمامًا ، يَقتَدُون به ويأْتَمُّون بهَدْيِه ، وسأَل اللهَ أن تكونَ هذه الإمامةُ متصلةً بسببِه ، وباقيةً فى نَسَبِه ، وخالدةً فى عَقِبِه ، فأُجيبَ إلى ما سأَل ورامَ ، وسُلِّمتْ إليه الإمامةُ بزِمَامٍ ، واسْتُثْنِىَ مِن نَيْلِها الظالمون ، واخْتُصَّ بها مِن ذريتِه العلماءُ العاملون ؛ كما قال : تعالى[2] : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] . وقال تعالى[3] : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٤ - ٨٧] . فالضَّميرُ فى قولِه : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ عائدٌ على إبراهيمَ ، على المشهورِ ، ولوطٌ وإنْ كان ابنَ أخيه ، إلَّا أنَّه دخَل فى الذريةِ تغليبًا ، وهذا هو الحاملُ للقائلِ الآخرِ : إن الضميرَ عائدٌ على نوحٍ . كما قدمنا فى قصتِه . واللهُ أعلمُ .

---

(١) التفسير ٢٣٧/١ - ٢٤٢ .

(٢) التفسير ٢٨٢/٦ - ٢٨٥ .

(٣) التفسير ٢٩٠/٣ - ٢٩٢ .

وقال تعالى[1] : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [الحديد : ٢٦] الآية . فكلُّ كتابٍ أُنْزِلَ من السماءِ على نبيٍّ من الأنبياءِ بعدَ إبراهيمَ الخليلِ فمِن ذريتِه وشِيعَتِه ، وهذه خِلْعَةٌ سَنيَّةٌ لا تُضاهَى ، ومرتبةٌ عِليّةٌ لا تُباهَى ؛ وذلك أنه وُلِد له لصُلْبِه ولدانِ ذَكَرانِ عظيمانِ ، إسماعيلُ من هاجَرَ ، ثم إسحاقُ مِن سارَّةَ ، ووُلِدَ لهذا يعقوبُ ، وهو إسرائيلُ الذى يَنتسبُ إليه سائِرُ أسباطِهم ، فكانت فيهم النبوةُ ، وكثُرُوا جِدًّا بحيثُ لا يَعلَمُ عددَهم إلا الذى بعَثَهم ، واختَصَّهم بالرِسالةِ والنبوةِ ، حتى خُتِموا بعيسى ابنِ مريمَ مِن بنى إسرائيلَ .

وأمّا إسماعيلُ عليه السلامُ فكانت منه العربُ على اختلافِ قَبائِلِها ، كما سنبيِّنُه فيما بعدُ إنْ شاء اللهُ تعالى ، ولم يُوجَدْ من سُلالتِه من الأنبياءِ سوى خاتَمِهم على الإطلاقِ وسيِّدِهم ، وفَخرِ بنى آدمَ فى الدنيا والآخرةِ ؛ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المطَّلبِ بنِ هاشمٍ القُرَشِيِّ الهاشميِّ المَكِّيِّ ثم المَدَنِيِّ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ، فلم يُوجَدْ من هذا الفرعِ الشريفِ والغُصنِ المُنيفِ سِوى هذه الجوهرةِ الباهرةِ ، [١٠٢/١ظ] والدُّرَّةِ الزاهرةِ وواسطةِ العِقْدِ الفاخرةِ ، وهو السيدُ الذى يَفْتَخِرُ به أهلُ الجَمْعِ ، ويَغْبِطُه الأوَّلون والآخِرون يومَ القيامةِ .

وقد ثبَت عنه فى « صحيحِ مسلمٍ »[2] ، كما سنورِدُه ، أنه قال : « سأقومُ مَقامًا يَرْغَبُ إلىَّ الخلقُ كلُّهم ، حتى إبراهيمُ ». فمدَح إبراهيمَ أباه مِدْحةً عظيمةً فى هذا السياقِ ، ودلَّ كلامُه على أنه أفضلُ الخلائقِ بعدَه عندَ الخَلَّاقِ فى هذه

---

(١) التفسير ٥٤/٨ .

(٢) مسلم (٨٢٠) .

الحياةِ الدُّنيا ، ويومَ يُكْشَفُ عن ساقٍ .

وقال البخاريُّ[1] : حدثنا عثمانُ ابنُ أبى شَيْبةَ ، حدثنا جَرِيرٌ ، عن منصورٍ ، عن المنهالِ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعَوِّذُ الحسنَ والحسينَ ، ويقولُ : « إن أباكما كان يُعَوِّذُ بهما إسماعيلَ وإسحاقَ : أُعُوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّةِ ، مِن كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ ، ومِن كلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ »[2] . ورواه أهلُ « السُّننِ »[3] ، مِن حديثِ منصورٍ ، به .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] . ذكر المفسرون لهذا السؤالِ أسبابًا ، بسطْناها فى « التفسيرِ »[4] وقرَّرْناها بأتمِّ تقريرٍ . والحاصلُ أن اللهَ ، عز وجل ، أجابه إلى ما سأل ، فأمَرَه أن يَعْمِدَ إلى أربعةٍ من الطيورِ ، واختلفوا فى تَعْيِينِها[5] على أقوالٍ ، والمقصودُ حاصِلٌ على كلِّ تقديرٍ ، فأمَرَه أن يُمزِّقَ لُحُومَهن وريشَهن ، ويَخلِطَ ذلك بعضَه فى بعضٍ ، ثم يَقْسِمَه قِسَمًا ، ويَجعلَ على كلِّ جبلٍ منهن جزْءًا ، ففعَل ما أُمِر به ، ثم أُمِر أن يَدْعُوَهن بإذنِ ربِّهن ، فلما دعاهن جعَل كلُّ عضوٍ يطيرُ إلى صاحبِه ، وكلُّ ريشةٍ تأتى إلى أختِها ، حتى اجتَمع بدنُ كلِّ طائرٍ على ما كان عليه ، وهو يَنظرُ إلى قدرةِ الذى يقولُ

---

(١) البخارى (٣٣٧١) .

(٢) الهامَّةُ : كل ذات سمٍّ يقتل . النهاية ٥/٢٧٥ . والعينُ اللامَّةُ : المصيبة بسوء . القاموس (ل م م) .

(٣) أبو داود (٤٧٣٧) ، الترمذى (٢٠٦٠) ، النسائى فى الكبرى (١٠٨٤٤ ، ١٠٨٤٥) ، ابن ماجه (٣٥٢٥) . (صحيح سنن أبى داود ٣٩٦٣) .

(٤) التفسير ١/٤٦٥ - ٤٦٧ .

(٥) فى ص : « تعينها » .

للشيءِ : كنْ . فيكونُ . فأَتَيْنَ إليه سَعْيًا ؛ ليكونَ أَبْيَنَ له ، وأوضَحَ لمشاهدتِه مِن أن يأتِينَ طَيَرانًا . ويقالُ : إنه أُمِر أن يأخُذَ رءُوسَهن فى يدِه ، فجعَل كلُّ طائرٍ يأتى فتلْقَاه رأسُه ، فيتركَّبُ على جثَّتِه كما كان ، فلا إلهَ إلا اللهُ . وقد كان إبراهيمُ عليه السلامُ يَعْلَمُ قدرةَ اللهِ تعالَى على إحياءِ الموتَى عِلْمًا يقينيًّا لا يَحتمِلُ النقيضَ ، ولكنْ أحَبَّ أَنْ يُشاهِدَ ذلك عَيانًا ، ويترقَّى من علمِ اليقينِ إلى عينِ اليقينِ ، فأجابه اللهُ إلى سؤالِه ، وأعطاه غايةَ مأمولِه .

وقال تعالى[1] : ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ [١/١٠٣و] لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٥ - ٦٨] . يُنكِرُ تعالى على أهلِ الكتابِ ، من اليهودِ والنصارَى ، فى دَعْوَى كلٍّ مِن الفريقَين كَوْنَ الخليلِ على مِلَّتِهم وطريقتِهم ، فبرَّأه اللهُ منهم وبيَّن كثْرةَ جهلِهم وقِلَّةَ عقلِهم ، فى قولِه : ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِۦٓ ﴾ أى فكيف يكونُ على دينِكم ، وأنتم إنما شُرِع لكم ما شُرِع بعدَه بمُدَدٍ متطاوِلةٍ ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى أنْ قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . فبيَّن أنه كان على دينِ اللهِ الحنيفِ ؛ وهو القَصْدُ إلى الإخلاصِ ، والانحرافُ عَمْدًا عن الباطلِ إلى الحقِّ الذى هو مخالِفٌ لليهوديةِ والنصرانيةِ والمُشرِكيَّةِ ؛ كما قال تعالى[2] : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ

(١) التفسير ٢/٤٧ ، ٤٨ .

(٢) التفسير ١/٢٦٩ - ٢٧٣ .

إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ * قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٤٠] . فنزَّه اللهُ عزّ وجلّ خليلَه عليه السلامُ عن أن يكونَ يهوديًّا أو نصرانيًّا ، [١/١٠٣ظ] وبيَّن أنه إنما كان حنيفًا مسلمًا ، ولم يكنْ من المشركين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ يعنى الذين كانوا على مِلَّتِه مِن أتباعِه فى زمانِه ، ومَن تمسَّكَ بدينِه مِن بعدِهم ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ يعنى محمدًا ﷺ فإن اللهَ شرَع له الدِّينَ الحنيفَ الذى شرَعه للخليلِ ، وكمَّله اللهُ تعالى له ،

وأعطاه ما لم يُعْطِ نبيًّا ولا رسولًا قبلَه ؛ كما قال تعالى[1] : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١ - ١٦٣] . وقال تعالى[2] : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٣] .

وقال البخاريُّ[3] : حدثنا إبراهيمُ بنُ موسى ، حدثنا هشامٌ ، عن مَعْمَرٍ ، عن أيوبَ ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أن النَّبيَّ ﷺ لما رأى الصُّوَرَ فى البيتِ لم يدخُلْ حتى أَمَر بها فمُحِيَتْ ، ورأى إبراهيمَ وإسماعيلَ بأيْديهما الأزلامُ ، فقال : « قاتَلَهم اللهُ ، واللهِ إنِ استَقْسَما بالأزلامِ قَطُّ » . لم يخرجه مسلمٌ . وفى بعضِ ألفاظِ البخاريِّ : « قاتَلَهم اللهُ ، لقد عَلِموا أنَّ شيخَنا لم يَستَقْسِمْ بها قطُّ »[4] .

فقولُه : ﴿ أُمَّةً ﴾ أى ؛ قدوةً إمامًا مهتديًا ، داعيًا إلى الخيرِ ، يُقْتَدَى به فيه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ أى ؛ خاشعًا له فى جميعِ حالاتِه وحركاتِه وسَكَناتِه ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى ؛ مخلصًا على بصيرةٍ ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أى ؛ قائمًا بشكرِ ربِّه بجميعِ جوارحِه ؛ مِن قلبِه ولسانِه وأعمالِه

---

(١) التفسير ٣/٣٧٦ - ٣٧٨ .

(٢) التفسير ٤/٥٣٠ ، ٥٣١ .

(٣) البخارى (٣٣٥٢) .

(٤) البخارى (١٦٠١ ، ٤٢٨٨) وليس فيه لفظ : « شيخنا » .

﴿ ٱجْتَبَـٰهُ ﴾ أى ؛ اختارَه اللهُ لنفسِه ، واصطفاه لرسالتِه ، واتخذَه خليلًا ، وجمَع له بينَ خَيْرَىِ الدنيا والآخرةِ . وقال تعالى[1] : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] . يُرَغِّبُ تعالى فى اتِّباعِ إبراهيمَ عليه السلامُ ؛ لأنَّه كان على الدينِ القويمِ ، والصراطِ المستقيمِ ، وقد قام بجميعِ ما أمرَه به ربُّه ، ومدَحه تعالى بذلك فقال : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] . ولهذا اتخذه اللهُ خليلًا ، والخُلَّةُ : هى غايةُ المحبةِ . كما قال بعضُهم[2] :

قد تخلَّلْتَ مسلكَ الرُّوحِ منى وبـذا سُمِّـىَ الخليـلُ خلـيلًا

وهكذا نال هذه المنزلةَ خاتَمُ الأنبياءِ وسيدُ الرسلِ محمدٌ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ، [١/١٠٤و] كما ثبَت فى « الصحيحين »[3] وغيرِهما مِن حديثِ جُنْدَبٍ البَجَلىِّ ، وعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو ، وابنِ مسعودٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال : « أيها الناسُ ، إن اللهَ اتَّخَذَنى خليلًا ، كما اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا » . وقال أيضًا فى آخرِ خُطبةٍ خطَبها : « أيها النَّاسُ ، لو كنتُ متَّخِذًا مِن أهلِ الأرضِ خليلًا ، لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلًا ، ولكنَّ صاحبَكم خليلُ اللهِ » . أخرجاه[4] مِن حديثِ أبى سعيدٍ . وثبَت أيضًا مِن حديثِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ ، وابنِ عباسٍ ، وابنِ مسعودٍ[5] .

---

(١) التفسير ٢/٣٦٩ - ٣٧٦ .

(٢) نسب هذا البيت إلى النظار الفقعسى . انظر : الدر الفريد لابن أيدمر ٤/٣٠٠ .

(٣) حديث جندب أخرجه مسلم (٥٣٢) . وحديث عبد الله بن عمرو أخرجه ابن ماجه (١٤١) . وحديث ابن مسعود أخرجه مسلم (٢٣٨٣) . وانظر تحفة الأشراف ٢/٤٤٢ ، ٦/٣٧٥ ، ٧/١٢٣ .

(٤) البخارى (٣٦٥٤) ، مسلم (٢٣٨٢) كلاهما من حديث أبى سعيد .

(٥) حديث ابن الزبير أخرجه البخارى (٣٦٥٨) ، وحديث ابن عباس أخرجه البخارى (٣٦٥٦ ، ٣٦٥٧) ، وحديث ابن مسعود أخرجه مسلم (٢٣٨٣) .

ورَوَى البخاريُّ فى « صحيحِه »[1] : حدثنا سُليمانُ بنُ حربٍ ، حدثنا شعبةُ ، عن حبيبِ بنِ أبى ثابتٍ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن عمرِو بنِ ميمونٍ ، قال : إنَّ مُعاذًا لمَّا قَدِمَ اليَمنَ صلَّى بهم الصبحَ ، فقرَأ : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ . فقال رجلٌ مِن القومِ : لقد قَرَّتْ عَيْنُ أمِّ إبراهيمَ . وقال ابنُ مَرْدَوَيْه[2] : حدثنا عبدُ الرَّحيمِ بنُ محمدِ بنِ مسلمٍ ، حدثنا إسماعيلُ بنُ أحمدَ بنِ أُسَيدٍ ، حدثنا إبراهيمُ بنُ يعقوبَ الجُوزْجَانِيُّ[3] بمكَّةَ ، حدثنا عبدُ اللهِ الحَنَفِيُّ ، حدثنا زَمْعَةُ بنُ صالحٍ ، عن سَلَمَةَ بنِ وَهْرَامٍ ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : جلَس ناسٌ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ينتظِرونه ، فخرَج ، حتى إذا دنا منهم سمِعهم يتذاكَرون ، فسَمِع حديثَهم ، وإذا بعضُهم يقولُ : عَجَبٌ أنَّ اللهَ اتَّخَذَ مِن خَلْقِه خليلًا ، فإبراهيمُ خليلُه . وقال آخرُ : ماذا بأَعْجَبَ مِن أنَّ اللهَ كلَّم موسى تكليمًا . وقال آخرُ : فعيسى رُوحُ اللهِ وكلمتُه . وقال آخرُ : آدَمُ اصطفاه اللهُ . فخرَج عليهم فسلَّم ، وقال : « قد سمِعتُ كلامَكم ، وعَجَبَكم أنَّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ وهو كذلك ، وموسى كليمُه وهو كذلك ، وعيسى رُوحُه وكلمتُه وهو كذلك ، وآدَمُ اصطفاه اللهُ وهو كذلك ، أَلَا وإنِّى حبيبُ اللهِ ولا فَخْرَ ، أَلَا وإنِّى أوَّلُ شافِعٍ ، وأوَّلُ مُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ ، وأنا أوَّلُ مَن يُحرِّكُ حَلْقَةَ بابِ الجنَّةِ ، فيفتَحُه اللهُ ، فيُدْخِلُنِيها ومعِى[4] فُقراءُ المؤمنين ، وأنا أكْرَمُ الأوَّلين والآخِرين يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ » . هذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ ، وله شواهدُ مِن وجوهٍ أُخَرَ . واللهُ أعلمُ .

---

(١) البخارى (٤٣٤٨) .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٢/٢٣٠ وعزاه لابن مردويه . وأخرجه الترمذى (٣٦١٦) من طريق زمعة بن صالح وقال : غريب . (ضعيف الترمذى ٧٤٢) .

(٣) فى الأصل : « الجوزانى » .

(٤) فى ح : « ويبقى » .

وروى الحاكمُ فى « مُسْتَدْرَكِه »[1] ، مِن حديثِ قَتادةَ ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : أتُنْكِرون أنْ تكونَ الخُلَّةُ لإبراهيمَ ، والكلامُ لموسى ، والرُّؤيةُ لمحمدٍ . صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين . وقال ابنُ أبى حاتمٍ[2] : حدثنا أبى ، حدثنا محمودُ بنُ خالدٍ السُّلَمِيُّ ، حدثنا الوليدُ ، عن إسحاقَ بنِ يسارٍ[3] ، قال : لمّا اتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا ، أُلْقِىَ فى قلبِه الوجَلُ ، حتى إنْ كان خَفَقانُ قلبِه لَيُسْمَعُ مِن بُعْدٍ ، كما يُسْمَعُ خَفَقانُ الطيرِ فى الهواءِ . وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ : كان إبراهيمُ عليه السلامُ يُضِيفُ [١/١٠٤ظ] الناسَ ، فخرَجَ يومًا يَلتَمسُ إنسانًا يُضِيفُه ، فلم يجدْ أحدًا يُضِيفُه ، فرجَع إلى دارِه ، فوجَد فيها رجلًا قائمًا ، فقال : يا عبدَ اللهِ ، ما أدخَلَك دارى بغيرِ إذنى ؟ قال : دخلتُها بأذنِ ربِّها . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا مَلَكُ الموتِ ، أُرسَلنى ربى إلى عبدٍ مِن عبادِه أبشِّرُه بأن اللهَ قد اتخذَه خليلًا . قال : من هو ؟ فواللهِ إنْ أخبرتَنِى به ، ثم كان بأقصَى البلادِ لآتِيَنَّه ، ثم لا أَبرَحُ له جارًا حتى يُفرِّقَ بينَنا الموتُ . قال : ذلك العبدُ أنت . قال : أنا ؟ قال : نعم . قال : فبِمَ اتَّخذَنى ربى خليلًا ؟ قال : بأنك تُعطِى الناسَ ولا تسأَلُهم . رواه ابنُ أبى حاتمٍ[2] .

وقد ذكَره اللهُ تعالى فى القرآنِ كثيرًا فى غيرِ ما موضِعٍ بالثناءِ عليه والمدحِ له ، فقِيل : إنه مذكورٌ فى خمسةٍ وثلاثين موضعًا[4] ، منها خمسةَ عَشَرَ فى « البقرة » وحدَها . وهو أحدُ أُولِى العزمِ الخمسةِ المنصوصِ على أسمائِهم ،

---

(١) المستدرك ٦٥/١ . وقال : صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٧٦/٢ .
(٣) فى م ، ص : « بشار » .
(٤) ذكر فى تسعة وستين موضعًا على سبيل المدح والذكر ، منهم خمسة عشر موضعا فى سورة البقرة كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

تخصيصًا مِن بينِ سائرِ الأنبياءِ فى آيَتَى « الأحزاب » و « الشُّورَى » ؛ وهما قولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : ٧] . وقولُه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] الآية . ثم هو أشرَفُ أولِى العزمِ بعدَ محمدٍ ﷺ وهو الذى وجدَه عليه الصلاةُ والسلامُ فى السماءِ السابعةِ ، مُسنِدًا ظهرَه بالبيتِ المعمورِ ، الذى يدخلُه كلَّ يومٍ سبعون ألفًا من الملائكةِ ، ثم لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم . وما وقع فى حديثِ شَريكِ بنِ أبى نَمِرٍ[١] عن أنسٍ ، فى حديثِ الإسراءِ[٢] ، من أن إبراهيمَ فى السادسةِ ، وموسى فى السابعةِ فمِمَّا انتُقِد على شَريكٍ فى هذا الحديثِ ، والصحيحُ الأولُ . ثم ممّا يدلُّ على أن إبراهيمَ أفضلُ مِن موسى ، الحديثُ الذى قال فيه : « وأخَّرتُ الثالثةَ ليومٍ يَرْغَبُ إلىَّ الخلقُ كلُّهم ، حتى إبراهيمُ » . رواه مسلمٌ[٣] مِن حديثِ أُبَىِّ بنِ كعبٍ ، رضى اللهُ عنه . وهذا هو المقامُ المحمودُ الذى أخبرَ عنه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه بقولِه : « أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ » . ثم ذكَر استشفاعَ الناسِ بآدمَ ، ثم بنوحٍ ، ثم بإبراهيمَ ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلُّهم يَحِيدُ عنها ، حتى يأتوا محمدًا ﷺ فيقولَ : « أنا لها ، أنا لها » . الحديث[٤] .

قال البخارىُّ[٥] : حدثنا علىُّ بنُ عبدِ اللهِ ، حدثنا يَحْيَى بنُ سعيدٍ ، حدثنا

---

(١) فى م ، ص : « نمير » .

(٢) البخارى (٧٥١٧) .

(٣) مسلم (٨٢٠) .

(٤) البخارى (٣٣٤٠) ، مسلم (١٩٤) .

(٥) البخارى (٣٣٥٣) .

عُبَيْدُ اللهِ ، حدثني سعيدٌ ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : قيل : يا رسولَ اللهِ ، مَن [١/١٠٥و] أكرمُ الناسِ ؟ قال : « أتْقاهُم » . قالوا : ليس عن هذا نَسأَلُك . قال : « فيوسُفُ نبىُّ اللهِ ابنُ نبىِّ اللهِ ابنِ نبىِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ » . قالوا : ليس عن هذا نَسأَلُك . قال : « فعَن معادِنِ العربِ تسألونى ؟ خِيارُهم فى الجاهليَّةِ خيارُهم فى الإسلامِ إذا فَقِهوا » . وهكذا روَاه البخارىُّ فى مواضِعَ أُخَرَ ، ومسلمٌ والنَّسائىُّ مِن طرقٍ[1] ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ القَطَّانِ ، عن عُبَيْدِ اللهِ ، وهو ابنُ عُمَرَ العُمَرِىُّ ، به[2] . ثم قال البخارىُّ : قال أبو أسامةَ ومُعْتَمِرٌ : عن عُبَيْدِ اللهِ ، عن سعيدٍ ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النبىِّ ﷺ[3] . قلتُ : وقد أسنَده فى موضعٍ آخَرَ مِن حديثِهما وحديثِ عَبْدَةَ بنِ سليمانَ ، والنَّسائىُّ مِن حديثِ محمدِ بنِ بِشْرٍ ، أَرْبَعَتُهم عن عُبَيْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، عن سعيدٍ ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ[4] ، (5ولم يذكروا أباه5) .

وقال أحمدُ[6] : حدثنا محمدُ بنُ بِشْرٍ ، حدثنا محمدُ بنُ عَمْرٍو ، حدثنا أبو سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ » . تفرَّد به أحمدُ . وقال البخارىُّ[7] : حدثنا عَبْدَةُ ، حدثنا عبدُ الصَّمَدِ بنُ عبدِ الرحمنِ ، عن أبيه ، عن ابنِ عُمَرَ ، عن النَّبىِّ ﷺ ، قال : « الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ

(١) فى م ، ص : « طريق » .
(٢) البخارى (٣٤٩٠) ، مسلم (٢٣٧٨) ، النسائى (١١٢٤٩) .
(٣) البخارى (٣٣٥٣) .
(٤) البخارى (٣٣٧٤ ، ٣٣٨٣ ، ٤٦٨٩) ، النسائى (١١٢٤٩) .
(٥ - ٥) زيادة من : الأصل .
(٦) المسند ٢/٣٣٢ . إسناده صحيح .
(٧) البخارى (٣٣٩٠) .

إسحاقَ بنِ إبراهيمَ » . تفرَّد به مِن طريقِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ ، عن أبيه ، عن ابنِ عُمَرَ ، به .

فأمَّا الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا يَحْيَى ، عن سفيانَ ، حدثنى مُغِيرَةُ بنُ النُّعْمانِ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن النَّبىِّ ﷺ : « يُحشَرُ الناسُ حُفاةً عُراةً غُرْلًا ، فأوَّلُ مَن يُكْسَى إبراهيمُ عليه السلامُ » . ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] . فأخرجاه فى « الصّحيحين »[2] مِن حديثِ سُفيانَ الثَّوْرىِّ وشُعبةَ بنِ الحجَّاجِ ، كلاهما عن مُغيرَةَ بنِ النُّعمانِ النَّخَعِىِّ الكوفىِّ ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، به . وهذه الفضيلةُ المُعَيَّنَةُ لا تَقْتَضِى الأفضليةَ بالنسبةِ إلى ما قبْلَها مِمّا ثبَت لصاحبِ المَقامِ المحمودِ ، الذى يَغْبِطُه به الأوَّلون والآخِرون . وأمَّا الحديثُ الآخَرُ الذى قال الإمامُ أحمدُ[3] : حدثنا وَكِيعٌ وأبو نُعَيْمٍ ، حدثنا سفيانُ ، هو الثورىُّ ، عن مُخْتَارِ بنِ فُلْفُلٍ ، عن أنسِ بنِ مالِكٍ ، قال : قال رجلٌ للنبىِّ ﷺ : يا خيرَ البريَّةِ . فقال : « ذاك إبراهيمُ » . فقد رواه مسلمٌ[4] مِن حديثِ الثَّورىِّ ، وعبدِ اللهِ بنِ إدريسَ ، وعلىِّ بنِ مُسْهِرٍ ، ومحمدِ بنِ فُضَيْلٍ ، أَرْبَعَتُهم عن المختارِ بنِ فُلْفُلٍ . [١/١٠٥ظ] وقال التِّرمِذىُّ : حسنٌ صحيحٌ . وهذا من بابِ الهَضمِ والتَّواضُعِ مع والدِه الخليلِ عليه السلامُ ، كما قال : « لا تُفَضِّلونى على الأنبياءِ » . وقال : « لا تُفَضِّلونى على موسى ، فإنَّ النَّاسَ يُصْعَقُون يومَ القيامةِ ، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفِيقُ ، فأجدُ موسَى

---

(١) المسند ١/٢٢٣ .

(٢) البخارى (٤٦٢٥) ، مسلم (٢٨٦٠) .

(٣) المسند ٣/١٧٨ .

(٤) مسلم (٢٣٦٩) ، الترمذى (٣٣٥٢) .

باطِشًا بقائِمةِ العرْشِ ، فلا أدْرِى أَفاقَ قبلى أم جُوزِىَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ ؟ »[1] .
وهذا كلُّه لا يُنافِى ما ثبَت بالتَّواتُرِ عنه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ، من أنَّه سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ . وكذلك حديثُ أُبَىِّ بنِ كعبٍ فى « صحيحِ مسلمٍ »[2] : « وأخَّرتُ الثالثةَ ليومٍ يَرْغَبُ إلَىَّ الخلقُ كلُّهم ، حتى إبراهيمُ » . ولمّا كان إبراهيمُ عليه السّلامُ أفضلَ الرسلِ وأُولِى العزمِ بعدَ محمدٍ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين ، أُمِر المُصلِّى أنْ يقولَ فى تشهُّدِه ما ثَبت فى « الصَّحيحين »[3] ، مِن حديثِ كَعْبِ بنِ عُجْرَةَ ، وغيرِه ، قال : قُلنا : يا رسولَ اللهِ ، هذا السلامُ عليك قد عرَفناه ، فكيف الصّلاةُ عليك ؟ قال : « قولوا : اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ ، كما صلَّيْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ ، إنك حميدٌ مجيدٌ ، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ ، كما بارَكتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ ، إنَّك حميدٌ مَجيدٌ » .

وقال تعالى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ . قالوا : وفَّى جميعَ ما أُمِر به ، وقام بجميعِ خصالِ الإيمانِ وشُعَبِه ، وكان لا يَشْغَلُه مراعاةُ الأمرِ الجليلِ عن القيامِ بمصلحةِ الأمرِ القليلِ ، ولا يُنْسِيه القيامُ بأعباءِ المصالحِ الكبارِ عن الصغارِ . قال عبدُ الرَّزَّاقِ[4] : أنبأنا مَعْمَرٌ ، عن ابنِ طاوُسٍ ، عن أبيه ، عن ابنِ عباسٍ ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] . قال : ابتَلاه اللهُ بالطَّهارةِ ؛ خمسٌ فى الرأسِ ، وخمسٌ فى الجسدِ . فأمَّا التى فى الرَّأسِ ؛ قَصُّ الشَّاربِ ، والمضمضةُ ، والسِّواكُ ، والاستنشاقُ ، وفَرْقُ

---

(١) البخارى (٣٤١٤) ، مسلم (٢٣٧٣) بلفظ : « لا تفضلوا بين أنبياء الله » .

(٢) مسلم (٨٢٠) .

(٣) البخارى (٣٣٧٠) ، مسلم (٤٠٦) .

(٤) تفسير عبد الرزاق ٥٧/١ .

الرأسِ . وأمَّا التى فى الجسدِ ؛ تقليمُ الأظفارِ ، وحَلْقُ العانةِ ، والخِتانُ ، ونَتْفُ الإبْطِ ، وغَسْلُ أَثَرِ الغائطِ والبولِ بالماءِ . رواه ابنُ أبى حاتِمٍ[1] ، وقال : ورُوِىَ عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، ومُجاهدٍ ، والشَّعبىِّ ، والنَّخَعِىِّ ، وأبى صالحٍ ، وأبى الجَلْدِ[2] ، نحوُ ذلك . قلتُ : وفى « الصّحيحين »[3] عن أبى هُرَيرةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ قال : « الفِطْرةُ خَمْسٌ ؛ الخِتانُ ، والاستحدادُ ، وقصُّ الشاربِ ، وتقليمُ الأظفارِ ، ونَتْفُ الإبْطِ » . وفى « صحيحِ مسلمٍ » وأهلِ « السُّننِ »[4] مِن حديثِ وَكيعٍ ، عن زكريَّا بنِ أبى زائدةَ ، عن مُصْعَبِ بنِ شَيْبَةَ العَبْدَرِىِّ المكِّىِّ الحَجَبِىِّ ، عن طَلْقِ بنِ حبيبٍ العَنَزِىِّ[5] ، عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ ، عن عائشةَ قالت : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « عشرٌ مِن الفِطْرَةِ ؛ قَصُّ [١٠٦/١و] الشاربِ ، وإعفاءُ اللحيةِ ، والسِّواكُ ، واستنشاقُ الماءِ ، وقَصُّ الأظفارِ ، وغسلُ البراجِمِ ، ونَتفُ الإبْطِ ، وحَلْقُ العانَةِ ، وانتقاصُ الماءِ » . قال مُصْعَبٌ : ونسيتُ العاشرةَ إلا أن تكونَ المضمضةَ . قال وكيعٌ : « انتقاصُ الماءِ » يعنى الاستنجاءَ . (6)وسيأتى فى ذِكرِ مقدارِ عُمُرِه الكلامُ على الخِتانِ(6) . والمقصودُ أنه ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، كان لا يَشْغَلُه القيامُ بالإخلاصِ للهِ عزّ وجلّ ، وخشوعُ العبادةِ العظيمةِ عن مراعاةِ مصلحةِ بدنِه ، وإعطاءِ كلِّ عضوٍ ما يَستحقُّه من الإصلاحِ والتحسينِ ، وإزالةِ ما

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم ٣٥٩/١ .

(٢) فى الأصل : « الخلد » .

(٣) البخارى (٥٨٨٩) ، مسلم (٢٥٧) .

(٤) مسلم (٢٦١) ، أبو داود (٥٣) ، الترمذى (٢٧٥٧) ، النسائى فى المجتبى (٥٠٥٥) وفى الكبرى (٩٢٨٦) ، ابن ماجه (٢٩٣) .

(٥) فى م : « العترى » .

(٦ - ٦) سقط من : الأصل ، ص .

يَشِينُ مِن زيادةِ شَعْرٍ أو ظُفُرٍ ، أو وجودِ قَلَحٍ[1] أو وَسَخٍ ، فهذا من جملةِ قولِه تعالى فى حقِّه ، من المدحِ العظيمِ : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ .

(١) القلح : تغير لون الأسنان بصفرة وخضرة تعلوها .

ذكرُ قصرِه فى الجنةِ

قال الحافظُ أبو بكرٍ البزَّارُ[1] : حدثنا أحمدُ بنُ سِنَانٍ القطَّانُ الواسِطىُّ ومحمدُ بنُ موسى القطَّانُ ، قالا : حدثنا يزيدُ بنُ هارونَ ، حدثنا حمّادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن سِماكٍ ، عن عِكْرِمةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : [2]« إن فى الجنةِ قَصْرًا - أحسَبُه قال : مِن لؤلؤةٍ - ليس فيه فَصْمٌ ولا وَهْنٌ ، أعَدَّه اللهُ لخَليلِه إبراهيمَ عليه السلامُ نُزُلًا » . قال البزّارُ : وحدثنا أحمدُ بنُ جميلٍ[3] المَرْوَزِىُّ ، حدثنا النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ ، حدثنا حمادُ بنُ سَلَمَةَ ، عن سِماكٍ ، عن عِكْرِمةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ[2] بنحوِه . ثم قال : وهذا الحديثُ لا نَعْلَمُ رواه عن حمَّادِ بنِ سَلَمَةَ فأسنَدَه إلا يزيدُ ابنُ هارونَ والنَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ ، وغيرُهما يَرْوِيه موقوفًا . قلتُ : لولا هذه العِلَّةُ لكان على شرطِ « الصحيحِ » ، ولم يُخرِّجوه .

---

(1) كشف الأستار (٢٣٤٦) ورجاله رجال الصحيح . وانظر مجمع الزوائد ٢٠١/٨ .

(٢ - ٢) سقط من : ص .

(3) فى كشف الأستار : « حميد » .

ذكرُ صفةِ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ

قال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا يُونسُ وحُجَيْنٌ ، قالا : حدثنا اللَّيْثُ ، عن أبى الزُّبَيْرِ ، عن جابرٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ ، أنه قال : « عُرِض علىَّ الأنبياءُ ، فإذا موسى ضَرْبٌ مِن الرِّجالِ كأنَّه مِن رجالِ شَنُوءَةَ ، ورأيتُ عيسى ابنَ مَرْيَمَ ، فإذا أَقْرَبُ مَن رأيتُ به شَبَهًا عُرْوةُ بنُ مسعودٍ ، ورأيتُ إبراهيمَ ، فإذا أَقْرَبُ مَن رأيتُ به شَبَهًا [2]صاحِبُكم - يعنى نَفْسَه ﷺ - ورأيتُ جبريلَ ، عليه السلامُ ، فإذا أقربُ من رأيتُ به شَبَهًا[2] دِحْيةُ » . تفرَّد به الإمامُ أحمدُ مِن هذا الوجهِ وبهذا اللفظِ . وقال أحمدُ[3] : حدثنا أَسْوَدُ بنُ عامرٍ ، حدثنا إسرائيلُ ، عن عثمانَ ، يعنى ابنَ المغيرةِ ، عن مُجاهدٍ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « رأيتُ عيسى ابنَ مَرْيَمَ وموسى وإبراهيمَ ؛ فأمَّا [١/١٠٦ظ] عِيسى فأَحْمَرُ جَعْدٌ عريضُ الصَّدْرِ ، وأمَّا موسى فآدَمُ جَسِيمٌ » . قالوا له : فإبراهيمُ ؟ قال : « انظُروا إلى صاحِبِكم » . يعنى نفسَه . وقال البخاريُّ[4] : حدثنا بَيَانُ[5] بنُ عَمْرٍو ، حدثنا النَّضْرُ ، أنبأنا ابنُ عَوْنٍ ، عن مُجاهدٍ ، أنَّه سَمِع ابنَ عباسٍ ، وذكروا له الدَّجّالَ ؛ بينَ عَيْنَيْه مكتوبٌ : كافرٌ . أو : ك ف ر . فقال : لم أسمعْه ، ولكنَّه قال ﷺ : « أمَّا إبراهيمُ فانظُروا إلى صاحِبِكم ، وأمَّا موسى فَجَعْدٌ آدَمُ ، على جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُومٍ

---

(١) المسند ٣/٣٣٤ (صحيح الجامع ٣٨٩٩) .

(٢ - ٢) سقط من النسخ ، ومستدركة من المسند لينتظم السياق .

(٣) المسند ١/٢٩٦ (إسناده صحيح) .

(٤) البخارى (٣٣٥٥) .

(٥) فى م ، ص : « بنان » .

بخُلْبةٍ ، كأنّى أَنْظُرُ إليه انْحدَرَ فى الوادِى » . وهكذا رواه البخارىُّ أيضًا فى كتابِ الحجِّ وفى اللباسِ ، ومسلِمٌ جميعًا عن محمدِ بنِ المثنَّى ، عن ابنِ أبى عدىٍّ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عونٍ ، به[1] .

---

(١) البخارى فى الحج (١٥٥٥) مختصرًا ، وفى اللباس (٥٩١٣) ، مسلم (١٦٦) .

ذكرُ وَفاةِ إبرَاهيمَ الخليلِ
عليه السلامُ، وما قيل فى عمُرِه

ذكَر ابنُ جَريرٍ فى « تاريخِه »[1] أن مولدَه كان فى زمنِ النُّمْرودِ بنِ كَنْعَانَ ، وهو – فيما قيلَ – الضَّحاكُ المِلكُ المشهورُ ، الذى يقالُ : إنه مَلَكَ ألفَ سنةٍ ، وكان فى غايةِ الغَشَمِ والظلمِ . وذكَر بعضُهم أنه مِن بنى راسِبٍ[2] ، الذين بُعِث إليهم نوحٌ عليه السلامُ ، وأنَّه كان إذْ ذاك مَلِكَ الدنيا . وذكَروا أنه طلَع نَجْمٌ أخفَى ضَوْءَ الشمسِ والقمرِ ، فهال ذلك أهلَ ذلك الزمانِ ، وفَزِع النُّمْرودُ ، فجَمع الكَهَنةَ والمُنجِّمين وسأَلهم عن ذلك ، فقالوا : يُولَدُ مولودٌ فى رعيَّتِك ، يكونُ زوالُ مُلكِك على يديه . فأمَر عندَ ذلك بمنعِ الرِّجالِ عن النساءِ ، وأن يُقْتَلَ المولودون مِن ذلك الحينِ ، فكان مولِدُ إبراهيمَ الخليلِ فى ذلك الحينِ ، فحماه اللهُ عزّ وجلّ وصانه من كيدِ الفُجَّارِ ، وشَبَّ شبابًا باهرًا ، وأنبتَه اللهُ نباتًا حسنًا ، حتى كان من أمرِه ما تقدَّم . وكان مولدُه بالسُّوسِ ، وقِيل : ببابِلَ . وقِيل : بالسَّوادِ مِن ناحيةِ كُوثَى[3] . وتقدم عن ابنِ عباسٍ أنه وُلِد ببَرْزَةَ ، شرقِيَّ دِمَشْقَ . فلما أَهْلَكَ اللهُ نُمْرُودَ على يَدَيْه ، وهاجَر إلى حَرَّانَ ، ثم إلى أرضِ الشَّامِ ، وأقام ببلادِ إيليا ، كما ذكرنا ، ووُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ ، وماتت سارَّةُ قبلَه ، بقريةِ حَبْرُونَ ، التى فى أرضِ كَنْعَانَ ، ولها مِن العمُرِ مائةٌ وسبعٌ وعشرون سنةً ، فيما ذكَر أهلُ

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٣/١ .

(٢) فى الطبرى : « بيوراسب » .

(٣) بضم أوله ، على وزن فُعْلَى : بلدة بالعراق معلومة ، وهى التى ولد بها إبراهيم عليه السلام . معجم ما استعجم (ك و ث) .

الكتابِ[1] ، فحزِن عليها إبراهيمُ عليه السلامُ ورَثَاها ، رحِمَها اللهُ ، واشتَرَى مِن رجلٍ مِن بنى حِيث ، يقالُ له : عفرُونُ بنُ صَخْرٍ . مغارةً بأربعمائةِ مثقالٍ فضةً[2] ، ودفَن فيها سارَّةَ هنالك . قالوا : ثم خَطَبَ إبراهيمُ على ابنِه إسحاقَ ، فزوَّجه رفقا بنتَ ثبويلَ بن ِ ناحورَ بن ِ تارِخَ ، وبعَث مولاه فحمَلها مِن بلادِها ، ومعها مُرضِعتُها وجَواريها على الإبلِ . قالوا : ثم تزوَّجَ إبراهيمُ [١/١٠٧و] عليه السّلامُ قَنْطُورَا ، فولدتْ له زمرانَ ويقشانَ ومادانَ ومدينَ وشياقَ وشوحَ . وذكَروا ما وَلَد كلُّ واحدٍ مِن هؤلاء أولادِ قَنْطُورَا .

وقد روَىْ ابنُ عساكِرَ[3] ، عن غيرِ واحدٍ من السلفِ ، عن أخبارِ أهلِ الكتابِ ، فى صفةِ مجىءِ مَلَكِ الموتِ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ أخبارًا كثيرةً ، اللهُ أعلمُ بصحتِها . وقد قيل : إنَّه مات فجأةً ، وكذا داودُ وسليمانُ . والذى ذكَره أهلُ الكتابِ وغيرُهم خلافُ ذلك . قالوا : ثم مَرِض إبراهيمُ عليه السلامُ ، ومات عن مائةٍ وخمسٍ وسبعين[4] سنةً ، ودُفِن فى المغارةِ المذكورةِ عندَ امرأتِه سارَّةَ ، التى فى مزرعةِ عفرونَ الحيثىِّ ، وتولَّى دَفْنَه إسماعيلُ وإسحاقُ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين .

وقد ورَد ما يدلُّ أنه عاش مائتَىْ سنةٍ ، كما قاله ابنُ الكَلْبىِّ[5] . وقد قال أبو حاتمٍ بنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »[6] : أنبأنا المفضَّلُ بنُ محمدٍ الجَنَدِىُّ

---

(١) سفر التكوين ، الأصحاح ١/٢٣ ، ٢ .

(٢) سقط من : م .

(٣) تاريخ دمشق ٢٥٢/٦ - ٢٥٨ .

(٤) بعده فى ح ، م : « وقيل وتسعين » . وانظر سفر التكوين الأصحاح ٧/٢٥ .

(٥) تاريخ الطبرى ٣١٢/١ .

(٦) الإحسان (٦٢٠٤) صحيح .

بمكَّةَ ، حدثنا علىُّ بنُ زِيادٍ اللَّحْجىُّ[1] ، حدثنا أبو قُرَّةَ ، عن ابنِ جُرَيْجٍ ، عن يَحْيَى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، [2]عن أبى هُرَيرةَ[2] ، أن النَّبىَّ ﷺ قال : « اختتَن إبراهيمُ بالقَدُومِ وهو ابنُ عشرين ومائةِ سنةٍ ، وعاش بعدَ ذلك ثمانين سنةً » . [3]وقد رواه الحافظُ ابنُ عساكرَ[4] مِن طريقِ عكرمةَ ابنِ إبراهيمَ وجعفرِ بنِ عونٍ العَمْرىِّ ، عن يحيى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدٍ ، عن أبى هريرةَ موقوفًا[3] .

ثم قال ابنُ حِبَّانَ[5] : ذِكرُ الخبرِ المُدْحِضِ قولَ مَن زعَم أنَّ رفْعَ هذا الخبرِ وَهْمٌ ، أخبرنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الجنيدِ ببُسْتَ ، حدثنا قُتَيبة بنُ سعيدٍ ، حدثنا ، اللَّيْثُ ، عن ابنِ عَجْلَانَ ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ ، قال : « اختتَن إبراهيمُ حينَ بَلَغَ مائةً وعشرين سنةً ، وعاش بعدَ ذلك ثمانينَ سنةً ، واختتَن بقَدومٍ » . وقد رواه الحافظُ ابنُ عساكِرَ[6] ، مِن طريقِ يحيى ابنِ سعيدٍ ، عن ابنِ عَجْلَانَ ، عن أبيه ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النَّبىِّ ﷺ : « وقد أَتَتْ عليه ثمانون سنةً » . ثم روَى ابنُ حِبَّانَ[7] عن عبد الرَّزَّاقِ ، أنه قال : القَدومُ اسمُ القريةِ . قلتُ : الذى فى « الصحيحِ » أنه اختتَن وقد أتتْ عليه ثمانون سنةً . وفى روايةٍ : وهو ابنُ ثمانين سنةً . وليس فيهما تَعَرُّضٌ لِما عاش بعدَ ذلك ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) فى النسخ : « اللخمى » . والتصويب من ابن حبان ، والثقات ٨/٤٧٠ ، والأنساب (ل ح ج) .

(٢ - ٢) سقط من : ص .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل ، ح .

(٤) تاريخ دمشق ٦/١٩٨ ، ١٩٩ .

(٥) الإحسان (٦٢٠٥) ، إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٦) تاريخ دمشق ٦/١٩٧ .

(٧) الإحسان ١٤/٨٥ .

وقال محمدُ بنُ إسماعيلَ الحَسَّانىُّ[1] الواسِطىُّ ، راوى[2] تفسيرِ وَكيعٍ عنه ، فيما ذكَره مِن الزياداتِ : حدثنا أبو معاوية ، عن يحيى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : كان إبراهيمُ أوَّلَ مَن تَسَرْوَلَ ، وأوَّلَ مَن فَرَقَ ، وأوَّلَ مَن استَحَدَّ ، وأوَّلَ مَن اختَتَن بالقَدومِ ، وهو ابنُ عشرينَ ومائةِ سنةٍ ، وعاش بعدَ ذلك ثمانين سنةً ، وأوَّلَ مَن قَرَى الضَّيْفَ ، وأوَّلَ مَن شابَ . هكذا رواه موقوفًا[3] ، وهو أشبَهُ بالمرفوعِ ، خلافًا لابنِ حِبَّانَ . واللهُ أعلمُ . (4)وقال مالكٌ[5] : عن يحيى بنِ سعيدٍ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، قال : كان إبراهيمُ أوَّلَ مَن أضَافَ الضَّيْفَ ، وأولَ النَّاسِ اختَتَن ، وأولَ النَّاسِ قصَّ شارِبَه ، وأولَ النَّاسِ[6] رأى الشَّيْبَ ، فقال : ياربِّ ما هذا ؟ فقال اللهُ : وَقارٌ . فقال : ياربِّ زِدْنِى وقارًا . وزاد غيرُهما : وأوَّلَ مَن قصَّ شارِبَه ، وأوَّلَ مَن استَحَدَّ ، وأوَّلَ مَن لَبِسَ السَّراويلَ(4) .

فقبْرُه ، وقبرُ ولدِه إسحاقَ ، وقبرُ وَلَدِ ولدِه يعقوبَ ، فى المَرْبَعةِ التى بناها سُليمانُ بنُ داودَ عليه السلامُ ببلدِ حَبْرُونَ ، وهو البلدُ المعروفُ بالخليلِ اليومَ . وهذا مُتَلَقًّى بالتَّواتُرِ ، أمةً بعدَ أمةٍ ، وجيلًا بعدَ جيلٍ ، مِن زمنِ بنى إسرائيلَ وإلى زمانِنا هذا أن قبرَه بالمربعةِ تحقيقًا . فأما تعيينُه منها فليس فيه خبرٌ صحيحٌ عن معصومٍ ، فينبَغِى أنْ تُراعَى تلك المَحَلَّةُ ، وأنْ تُحتَرَمَ احترامَ مثلِها ، وأنْ

---

(1) فى ح : « الحيانى » . والمثبت هو الصواب . انظر تهذيب التهذيب ٩/٥٦ ، ٥٧ .

(2) فى ح ، م ، ص : « زاد فى » .

(3) تاريخ دمشق ٦/١٩٩ بنحوه .

(٤ - ٤) سقط من : الأصل .

(5) الموطأ ٢/٩٢٢ .

(6) بعدها فى ص : « لبس السراويل » .

تُبجَّلَ ، وأنْ تُجلَّ أنْ يُداسَ فى أرجائِها ؛ خشيةَ [١/١٠٧ظ] أن يكونَ قبرُ الخليلِ أو أحدٍ مِن أولادِهِ الأنبياءِ عليهم السلامُ تحتَها . وروَى[1] ابنُ عساكِرَ[2] بسندِهِ إلى وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ قال : وُجِد عندَ قبرِ إبراهيمَ الخليلِ ، على حَجَرٍ ، كتابَةٌ خَلِقَةٌ :

أَلْهَى جَهولًا أمَلُهْ ... يموتُ مَن جا أجَلُهْ

ومَن دنا مِن حَتْفِهِ ... لم تُغنِ عنه حِيَلُهْ

وكيفَ يبقَى آخِرُهْ[3] ... مَن ماتَ عنه أوَّلُهْ[4]

والمرءُ لا يَصْحَبُهُ ... فى القبرِ إلَّا عملُهْ

---

(١) من هنا إلى آخر أبيات الشعر ليس فى : الأصل .

(٢) تاريخ دمشق ٦/٢٥٨ .

(٣) فى تاريخ دمشق « آخر » .

(٤) فى تاريخ دمشق بعد هذا البيت قال : وزادنى فيه بعض أهل العلم . ثم ذكر البيت الأخير . تاريخ دمشق ٦/٢٥٨ .

ذكرُ أولادِ إبراهيمَ الخليلِ
عليه وعليهم أفضلُ الصلاةِ والسلامِ

أَوَّلُ مَن وُلِد له إسماعيلُ ، مِن هاجَرَ القِبطيةِ المصريةِ ، ثم وُلِد له إسحاقُ مِن سارَّةَ بنتِ عمِّ الخليلِ ، ثم تزوَّج بعدَها قَنْطُورَا بنتَ يَقْطُنَ الكنعانيةَ ، فولَدَتْ له ستةً ؛ مدين ، وزمران ، [1]وسرج ، ويقشان ، ونشق[1] ، ولم يُسَمَّ السَّادسُ ، ثم تزوَّج بعدَها حجون بنتَ أمين[2] ، فولدتْ له خمسةً ؛ كيسان ، وسورج[3] ، وأميم ، ولوطان ، ونافس[4] . هكذا ذكَره أبو القاسمِ السُّهَيْليُّ فى كتابِه « التعريفُ والإعلامُ »[5] .

(١ - ١) فى تاريخ الطبرى ٣١١/١ : « سوح ، يقسان ، أسبق » ، وفى ص : « تمثاق » بدلا من : « يقشان » .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « أرهير » . وفى التعريف والإعلام : « أهين » .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « شورخ » . وفى التعريف والإعلام : « سورح » .

(٤) فى التعريف والإعلام : « نافش » .

(٥) ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

ومما وقع فى حياةِ إبراهيمَ الخليلِ مِـن الأمـورِ العظيمـةِ قصةُ قـومِ لـوطٍ عليه السلامُ وما حَلَّ بهم مِن النِّـقمةِ العميمةِ

وذلك أن لوطًا ابنُ هارانَ بنِ تارِخَ ، وهو آزَرُ كما تقدَّم ، ولوطٌ ابنُ أخى إبراهيمَ الخليلِ ، فإبراهيمُ وهارانُ وناحورُ إخوةٌ ، كما قدَّمنا . ويُقالُ : إن هارانَ هذا هو الذى بنَى حَرَّانَ . وهذا ضعيفٌ ؛ لمُخالفتِه ما بأيدى أهلِ الكتابِ ، واللهُ أعلمُ . وكان لوطٌ قد نزَح عن مَحَلَّةِ عمِّه الخليلِ عليهما السلامُ بأمرِه له وإذنِه ، فنزَل بمدينةِ سَدُومَ ، مِن أرضِ [(1)]غَوْرِ زُغَرَ[(1)] ، وكانت أمَّ تلك[(2)] المَحَلَّةِ ، ولها أرضٌ ومُعْمَلاتٌ[(3)] وقُرًى مضافَةٌ إليها ، ولها أهلٌ من أفْجرِ الناسِ وأكفرِهم ، وأسوئِهم طَوِيَّةً وأردئِهم سريرةً وسيرةً ، يقطعَون السَّبيلَ ، ويأتون فى نادِيهم المنكرَ ، ولا يَتناهَوْن عن منكرٍ فعَلوه ، لبِئسَ ما كانوا يَفْعَلون . ابتدَعُوا فاحشةً لم يَسبِقْهم إليها أحدٌ مِن بنِى آدمَ ، وهى إتْيانُ الذُّكرانِ من العالمين ، وتَركُ ما خلَق اللهُ من النِّسوانِ لعبادِه الصالحين ، فدعاهم لوطٌ إلى عبادةِ اللهِ تعالى وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن تعاطِى هذه المُحرَّماتِ ، والفواحشِ المنكَراتِ ، والأفاعيلِ المستقبَحاتِ ، فتمادَوْا على ضلالِهم وطُغيانِهم ، واستمرُّوا على فجورِهم وكُفرانِهم ، فأحلَّ اللهُ بهم مِن البأسِ الذى لا يُردُّ ما لم يكنْ فى خَلَدِهم وحسبانِهم ، وجعَلهم مُثْلَةً فى العالمين وعِبرةً يَتَّعِظُ بها

(1 - 1) فى ص : « عزعز » .

(2) فى ص : « ملك » .

(3) فى م ، ص : « معتملات » وفى ا : « معاملات » وكلها بمعنى واحد .

الأَلِبَّاءُ مِن العالمين ؛ ولهذا ذكَر اللهُ تعالى قصتَهم فى غيرِ ما موضعٍ مِن كتابِه المُبينِ ، فقال تعالى فى سورةِ « الأعرافِ »[1] : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ [١٠٨/١و] يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ - ٨٤] . وقال تعالى فى سورةِ « هود »[2] : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ

---

(١) التفسير : ٤٤١/٣ ، ٤٤٢ .

(٢) التفسير : ٢٦٤/٤ - ٢٧٢ .

قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٦٩ – ٨٣] . وقال تعالى فى سورةِ « الحِجْر »[(١)] : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ [١٠٨/١ظ] مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ * وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٥١ – ٧٧] . وقال تعالى فى سورةِ « الشعراءِ »[(٢)] : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ

---

(١) التفسير : ٤٥٨/٤ – ٤٦٢ .

(٢) التفسير : ١٦٧/٦ .

ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٦٠ – ١٧٥] . وقال تعالى فى سورةِ « النمل »[1] : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [النمل : ٥٤ – ٥٨] . وقال تعالى فى سورةِ « العنكبوت »[2] : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَـٰلِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ * وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ

---

(١) التفسير : ٦/٢٠٩ .

(٢) التفسير : ٦/٢٨٥ .

بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨ - ٣٥] . وقال تعالى فى سورةِ « الصَّافَّات »[1] : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ [١/١٠٩و] وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٣ - ١٣٨] . وقال تعالى فى « الذاريات »[2] بعدَ قصةِ ضيفِ إبراهيمَ ، وبشارتِهم إياه بغلامٍ عليمٍ : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣١ - ٣٧] . وقال فى سورةِ « الانشقاق »[3] : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٣٣ - ٤٠] .

---

(١) التفسير : ٣٢/٧ .

(٢) التفسير : ٣٩٨/٧ .

(٣) قد أورد المصنف فى أكثر من موضع تسمية سورة القمر بسورة الانشقاق ولعل ذلك أن أولها : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وانظر التفسير ٤٥٥/٧ .

وقد تكلمنا على هذه القِصَصِ فى أماكنِها مِن هذه السُّورِ فى « التفسيرِ » ، وقد ذكَر اللهُ لوطًا وقومَه فى مواضعَ أُخَرَ مِن القرآنِ ، تقدَّم ذكرُها مع قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ . والمقصودُ الآن إيرادُ ما كان مِن أمرِهم ، وما أحَلَّ اللهُ بهم ، مجموعًا مِن الآياتِ والآثارِ ، وباللهِ المستعانُ . وذلك أن لوطًا ، عليه السلامُ ، لمَّا دعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن تعاطِى ما ذكَر اللهُ عنهم من الفواحشِ ، فلم يَستجِيبوا له ولم يؤمنوا به ، حتى ولا رجلٌ واحدٌ منهم ، ولم يتركوا ما عنه نُهُوا ، بل استمرُّوا على حالِهم ، ولم يَرْعَوُوا[1] عن غَيِّهم وضلالِهم ، وهمُّوا بإخراجِ رسولِهم مِن بينِ ظَهرانَيْهِم ، وما كان حاصِلُ جوابِهم عن خطابِهم ، إذ كانوا لا يَعقِلُون : ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ . فجعلوا غاية المدحِ ذَمًّا يَقتضِى الإخراجَ ، وما حَمَلَهم على مقالتِهم هذه إلَّا العنادُ واللَّجاجُ ، فطهَّره اللهُ وأهلَه إلا امرأتَه ، وأَخرجهم منها أَحْسَنَ إخراجٍ ، وترَكَهم فى مَحَلَّتِهم خالدين ، لكنْ بعدَ ما صيَّرها عليهم بَحْرَةً[2] مُنْتِنةً ذاتَ أمواجٍ ، لكنها عليهم فى الحقيقةِ نارٌ تأَجَّجُ ، وحرٌّ يتوهَّجُ ، وماؤُها مِلْحٌ أُجاجٌ ، وما كان هذا جوابَهم إلا لمَّا نهاهم عن الطَّامَّةِ العُظمَى والفاحشةِ الكُبرَى ، التى لم يَسبِقْهم إليها أحدٌ من أهلِ الدنيا ؛ ولهذا صارُوا مَثُلَةً فيها، وعبرةً لمَن عليها ، وكانوا مع ذلك يَقْطَعون الطريقَ ، ويخونون الرفيقَ ، ويأْتون فى ناديهم – وهو مجتمَعُهم ومَحَلُّ حديثِهم وسَمَرِهم – المنكرَ من الأقوالِ والأفعالِ على اختلافِ أصنافِه ، [١٠٩/١ظ] حتى قِيل : إنهم كانوا يَتَضارَطُون فى مجالِسِهم ولا يَستَحْيُون من مُجالِسِهم . وربما وقَع منهم الفَعْلَةُ العظيمةُ فى المحافِلِ ولا

---

(١) فى م : « يرتدعوا » .

(٢) فى الأصل ، ح ، ا : « بخرة » . وانظر التفسير ٣٩٩/٧ .

يَستنكِفون ، ولا يَرْعَوُون لوَعْظِ واعظٍ ، ولا نصيحةٍ من ناقلٍ[1] ، وكانوا فى ذلك وغيرِه كالأنعامِ بل أضلُّ سبيلًا ، ولم يُقلِعوا عمَّا كانوا عليه فى الحاضرِ ، ولا نَدِموا على ما سلَف مِن الماضى ، ولا رامُوا فى المستقبَلِ تحويلًا ، فأخذَهم اللهُ أخذًا وَبِيلًا ، وقالوا له فيما قالوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فطلَبوا منه وُقوعَ ما حذَّرهم عنه من العذابِ الأليمِ ، وحُلولِ البأسِ العظيمِ ، فعندَ ذلك دعا عليهم نبيُّهم الكريمُ ، فسأل مِن ربِّ العالمين وإلهِ المرسَلين أن يَنْصُرَه على القومِ المفسدين ، فغار اللهُ لغَيْرَتِه وغَضِب لغَضْبَتِه ، واستجاب لدعوتِه وأجابه إلى طِلْبَتِه ، وبعَث رُسُلَه الكرامَ ومَلائكتَه العظامَ ، فمرُّوا على الخليلِ إبراهيمَ ، وبشَّرُوه بالغلامِ العليمِ ، وأخبروه بما جاءُوا له مِن الأمرِ الجَسيمِ ، والخَطْبِ العَميمِ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ . وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ . وذلك أنه كان يرجُو أن يُنيبُوا ويُسلِموا ، ويُقلِعوا ويَرجِعُوا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ * يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أى ؛ أَعرِضْ عن هذا ، وتَكلَّمْ فى غيرِه ، فإنَّه قد حُتِمَ أمرُهم [2]ووجَب عذابُهم وتدميرُهم وهلاكُهم . ﴿ إِنَّه قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى ؛ قد أَمَر به مَن لا يُرَدُّ أمرُه ، ولا يُرَدُّ بأسُه ، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾[2] .

---

(١) فى م : « عاقل » .

(٢ - ٢) زيادة من : م ، ص .

وذكَر سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ[1] ، والسُّدِّيُّ ، وقَتادةُ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ أن إبراهيمَ عليه السلامُ جعَل يقولُ : أتُهلِكون قريةً فيها ثلاثمائةِ مؤمنٍ ؟ قالوا : لا . قال : فمِائتا مؤمنٍ ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون مؤمنًا ؟ قالوا : لا . قال : فأربعةَ عشَرَ مؤمنًا ؟ قالوا : لا . قال ابنُ إسحاقَ : إلى أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمنٌ واحدٌ ؟ قالوا : لا . ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا * قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ الآية . وعندَ أهلِ الكتابِ[2] أنه قال : يا ربِّ ، أتُهلِكُهم وفيهم خمسون رجلًا صالحا ؟ فقال اللهُ : لا أُهلِكُهم وفيهم خمسون صالحًا . ثم تنازَلَ إلى عشَرةٍ ، فقال اللهُ : لا أُهلِكُهم وفيهم عشرةٌ صالحون .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال المفسرون : لمَّا فصَلَتِ الملائكةُ [١/١١٠و] مِن عندِ إبراهيمَ ؛ وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ، أقبَلوا حتى أَتَوْا أرضَ سَدُومَ ، فى صورةِ شُبَّانٍ حِسانٍ ، اختبارًا مِن اللهِ تعالى لقومِ لوطٍ ، وإقامةً للحُجَّةِ عليهم ، فاستضَافوا لوطًا عليه السلامُ ، وذلك عندَ غروبِ الشمسِ ، فخَشِىَ إنْ لم يُضِفْهم [3]أن يُضِيفَهم[3] غيرُه من القومِ الفاسقين ، وحَسِبهم بَشَرًا من الناسِ و ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ . قال ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، وقَتادةُ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ : شديدٌ بلاؤُه[4] . وذلك لِما يَعلَمُ مِن مُدافعتِه الليلةَ عنهم ، كما كان يصنعُ بغيرِهم معهم ، وكانوا قد اشترَطوا عليه أن لا يُضِيفَ أحدًا ، ولكن رأى مَنْ لا يُمكِنُ المَحِيدُ عنه . وذكَر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٩٧/١ ، ٢٩٨ .
(٢) سفر التكوين الأصحاح ٢٣/١٨ - ٣٣ .
(٣ - ٣) سقط من : الأصل .
(٤) تفسير الطبرى ٨٢/١٢ ، ٨٣ .

قَتادةُ[1] أنهم ورَدُوا عليه وهو فى أرضٍ له يَعمَلُ فيها ، فتَضَيَّفُوه ، فاستَحْيَى منهم وانطلَق أمامَهم ، وجعَل يُعرِّضُ لهم فى الكلامِ ، لعلهم يَنصرفون عن هذه القريةِ ويَنزِلون فى غيرِها ، فقال لهم فيما قال : واللهِ يا هؤلاءِ ، ما أَعلَمُ[2] على وجهِ الأرضِ أهلَ بلدٍ أخبَثَ من هؤلاءِ . ثم مشَى قليلًا ، ثم أعاد ذلك عليهم ، حتى كرَّره أربعَ مراتٍ . قال : وكانوا قد أُمِروا أن لا يُهلِكُوهم حتى يَشْهَدَ عليهم نبيُّهم بذلك . وقال السُّدِّىُّ[3] : خرَجت الملائكةُ مِن عندِ إبراهيمَ نحوَ قومِ لوطٍ ، فأتَوْها نصفَ النهارِ ، فلما بلَغوا نهرَ سَدُومَ ، لَقُوا ابنةَ لوطٍ تَسْتقِى من الماءِ لأهلِها - وكانت له ابنتانِ ؛ اسمُ الكبرَى أريثا ، والصغرَى دَغُوْثا[4] - فقالوا لها : يا جاريةُ ، هل مِن مَنزِلٍ ؟ فقالت لهم : مكانَكم ، لا تدخلوا حتى آتيَكمْ . فرِقَت[5] عليهم من قومِها ، فأتت أباها فقالت : يا أبَتاه ، أرادَك[6] فِتْيانٌ على بابِ المدينةِ ، ما رأيتُ وجوهَ قومٍ قطُّ[7] هى أحسنَ منهم ، لا يأخذْهم قومُك فيَفضَحوهم . وقد كان قومُه نَهَوْه أن يُضِيفَ رجلًا ، فجاء بهم ، فلم يَعْلَمْ أحدٌ إلا أهلُ البيتِ ، فخرجَت امرأتُه فأخبرَت قومَها ، فقالت : إنَّ فى بيتِ لوطٍ رجالًا ما رأيتُ مثلَ وجوهِهم قَطُّ . فجاءه قومُه يُهْرَعُون إليه .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٢٩٩ .

(٢) بعده فى ح : « أحدًا » .

(٣) تاريخ الطبرى ١/٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) فى م : « ذعرتا » ، وفى ا : « زعوقا » ، وفى الطبرى : « رعزيا » .

(٥) فى ا : « خوفا » ، وفى ص : « شفقة » .

(٦) فى ا : « أدرك » .

(٧) فى ص : « لوط » .

وقولُه : ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أى هذا مع ما سلَف لهم مِن الذُّنوبِ العظيمةِ الكبيرةِ الكثيرةِ ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يُرشِدُهم إلى غِشيانِ نسائِهم ، وهنَّ بناتُه شرعًا ؛ لأنَّ النَّبىَّ للأُمَّةِ بمنزلةِ الوالدِ ، كما ورَد فى الحديثِ[1] ، وكما قال تعالى : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] . وَفِى قراءةٍ[2] بعضِ الصحابةِ والسلفِ : « وهو أبٌ لهم » . وهذا كقولِه : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦] . وهذا هو الذى نصَّ عليه [١/١١٠ظ] مُجاهدٌ ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ ، وقَتادةُ ، والسُّدِّىُّ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ ، وهو الصَّوابُ[3] . والقولُ الآخَرُ خطأٌ مأخوذٌ من أهلِ الكتابِ ، وقد تَصحَّف عليهم ، كما أخْطَأُوا فى قولِهم : إن الملائكةَ كانوا اثنين ، وإنَّهم تَعَشَّوْا عندَه . وقد خبَّط أهلُ الكتابِ فى هذه القصةِ تخبيطًا عظيمًا[4] .

وقولُه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ نَهْىٌ لهم عن تَعاطِى ما لا يليقُ مِن الفاحشةِ ، وشهادةٌ عليهم بأنه ليس فيهم رجلٌ رشيدٌ له مُسْكَةٌ[5] ، ولا فيه خيرٌ ، بل الجميعُ سفهاءُ ، فجرةٌ أقوياءُ ، كفرةٌ أعتِياءُ[6] . وكان هذا من جُملةِ ما أراد الملائكةُ أن يَسمَعوه منه مِن قبلِ

---

(١) تفسير الطبرى ١٢/٦٤ . أبو داود (٨) بلفظ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد ... » ، حديث حسن (صحيح أبى داود ٦) .

(٢) فى م : « قول » .

(٣) تفسير الطبرى ١٢/٨٤ ، ٨٥ .

(٤) سفر التكوين الأصحاح ١٩/١ - ٣ .

(٥) المُسْكَةُ : العقلُ . المصباح المنير (م س ك) .

(٦) فى ح ، م : « أغبياء » .

أن يسألوه عنه . فقال قومُه ، عليهم لعنةُ اللهِ الحميدِ المجيدِ ، مُجيبين لنبيِّهم فيما أمَرَهم به مِن الأمرِ السَّديدِ : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ يقولون ، عليهم لعائِنُ اللهِ : لقد عَلِمتَ يا لوطُ أنه لا أَرَبَ لنا فى نسائِنا ، وإنَّك لَتعلَمُ مرادَنا وغرَضَنا . واجَهُوا بهذا الكلامِ القبيحِ رسولَهم الكريمَ ، ولم يخافُوا سَطْوةَ العظيمِ ، ذى العذابِ الأليمِ ؛ ولهذا قال عليه السلامُ : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ودَّ أن لو كان له بهم قوةٌ ، أو له مَنَعةٌ وعشيرةٌ ينصرونه عليهم ؛ ليُحِلَّ بهم ما يستحقونه من العذابِ على هذا الخطابِ . وقد قال الزُّهْرِىُّ ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ ، وأبى سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، مرفوعًا : « نحن أحقُّ بالشَّكِّ مِن إبراهيمَ ، ويَرحَمُ اللهُ لوطًا ، لقد كان يَأْوِى إلى رُكْنٍ شديدٍ ، ولو لَبِثتُ فى السِّجْنِ طُولَ ما لَبِث يوسفُ لأجبتُ الدَّاعىَ »[1] . ورواه أبو الزِّنادِ ، عن الأعرَجِ ، عن أبى هُرَيرةَ[2] . وقال محمدُ بنُ عمرِو بنِ عَلْقَمةَ ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « رحمةُ اللهِ على لوطٍ ، لقد كان يَأْوِى إلى رُكْنٍ شديدٍ » . يعنى اللهَ عزَّ وجلَّ . « فما بعَث اللهُ بعدَه مِن نبىٍّ إلَّا فى ثَرْوةٍ مِن قومِه »[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوٓاْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ * قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ . فأمرَهم بقُربانِ نسائِهم ، وحذَّرهم الاستمرارَ على طريقتِهم وسيِّآتِهم ، هذا وهُمْ فى ذلك لا يَنتهون ولا يَرْعَوُون ،

---

(١) البخارى (٣٣٧٢) ، مسلم (١٥١) .
(٢) البخارى (٣٣٧٥) .
(٣) المسند ٢/٣٣٢ . (إسناده صحيح) .

بل كلما نهاهم يبالغون فى تَحصيلِ هؤلاء الضِّيفانِ ويَحْرِصون[1] ، و لم يَعلَمُوا ما حَمَّ به القَدَرُ[2] ، ممَّا هم إليه صائرون[3] ، وصَبيحةَ ليلتِهم مُنتقلون[4] ؛ ولهذا قال تعالى ، مقسِمًا بحياةِ نبيِّه محمدٍ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ [١١١/١و] فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ . ذكَر المفسرون وغيرُهم أنَّ نبىَّ اللهِ لوطًا ، عليه السلامُ ، جعَل يمانِعُ قومَه الدُّخولَ ويدافِعُهم ، والبابُ مغلَقٌ ، وهم يَرُومون فتحَه ووُلُوجَه ، وهو يَعظِهُم وينْهاهم مِن وراءِ البابِ[5] ، فلما ضاق الأمرُ وعَسِر الحالُ قال [6]ما قال[6] : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ لأحللتُ بكم النَّكَالَ . قالت الملائكةُ : ﴿ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ وذكَروا أن جبريلَ ، عليه السَّلامُ ، خرَج عليهم فضرَب وجوهَهم خَفْقةً بطَرَفِ جَناحِه ، فطمَسَت أعينَهم ، حتى قيل : إنها غارَت بالكليةِ و لم يَبْقَ لها محلٌّ ولا عينٌ ولا أثرٌ . فرجَعوا يتحسَّسون مع الحيطانِ ، ويتوعَّدون رسولَ الرَّحمنِ ، ويقولون : إذا كان الغدُ كان لنا وله شأنٌ . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ . فذلك

---

(١) فى م : « يحرضون » .

(٢) حَمَّ به القدرُ : قضَى وقدَّر . القاموس (ح م م) .

(٣) فى ص : « صاغرون » .

(٤) فى م ، ص : « منقلبون » .

(٥) بعده فى الأصل : « وكلما نهاهم فى إلحاح والعاج » ، وفى ا : « وكلما نهاهم فى التمادى واللجاج » ، وفى ح ، م ، ص : « وكل ما لهم فى الجاج والعاج » .

(٦ - ٦) سقط من : م .

أن الملائكةَ تقدَّمت إلى لوطٍ ، عليهم السلامُ ، آمِرين له بأن يَسْرِىَ هو وأهلُه مِن آخرِ الليلِ ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ يعنى عندَ سماعِ صوتِ العذابِ إذا حَلَّ بقومِه . وأمَرُوه أن يكونَ سيرُه فى آخرِهم كالسَّاقةِ لهم . وقولُه : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ على قراءة النصبِ ، يَحتَملُ أن يكونَ مستثنًى مِن قولِه : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ كأنَّه يقولُ : إلا امرأتك فلا تَسْرِ بها . ويَحتَملُ أن يكونَ من قولِه : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ أى ؛ فإنها ستلتفتُ فيصيبُها ما أصابهم . ويقوِّى هذا الاحتمالَ قراءةُ الرَّفعِ ، ولكنَّ الأولَ أظهرُ فى المعنى ، واللهُ أعلمُ . قال السُّهَيْلِىُّ : واسمُ امرأةِ لوطٍ والهةُ ، واسمُ امرأةِ نوحٍ والغةُ .

وقالوا له ، مبشِّرين له بهلاكِ هؤلاءِ البغاةِ العُتاةِ الملعونين النُّظَراءِ[1] والأشباهِ ، الذين جعلهم اللهُ سلفًا لكلِّ خائنٍ مُريبٍ : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ فلما خرَج لوطٌ عليه السلامُ بأهلِه ، وهم ابنتاه ، ولم يَتْبَعْه منهم رجلٌ واحدٌ . ويقالُ : إن امرأتَه خرجتْ معه ، فاللهُ أعلمُ . فلما خلَصوا من بلادِهم وطلَعت الشمسُ ، فكان عندَ شروقِها ، جاءهم مِن أمرِ اللهِ ما لا يُردُّ ، ومن البأسِ الشديدِ ما لا يُمكِنُ أن يُصَدَّ . وعندَ أهلِ الكتابِ[2] أن الملائكةَ أمَروه أن يَصْعَدَ إلى رأسِ الجبلِ الذى هناك ، فاستَبْعَده ، وسأل منهم أن يذهَبَ إلى قريةٍ قريبةٍ منهم ، فقالوا : اذهَبْ ، فإنَّا ننتَظرُك حتى تصيرَ إليها وتستقرَّ فيها ، ثم نُحِلَّ بهم العذابَ . فذكَروا أنه ذهَب إلى قريةِ صُغَرَ ، التى يقولُ [١١١/١ظ] الناسُ : غَوْرُ زُغَرَ . فلما أشرَقت الشمسُ نزَل بهم العذابُ . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

---

(١) فى ص : « المنظر » .

(٢) سفر التكوين ، الأصحاح ١٩/١٧ - ٢٢ .

قالوا[1] : اقتلعَهنَّ جبريلُ بطَرَفِ جناحِه مِن قرارِهن ، وكنَّ سبعَ مُدُنٍ ، بمَن فيهن مِن الأممِ - يقالُ[2] : إنهم كانوا أربعَمائةِ ألفِ[3] نَسمةٍ . وقيل : أربعةَ آلافِ ألفِ[3] نَسمةٍ - وما معهم من الحيواناتِ ، وما يَتْبَعُ تلك المدنَ من الأراضى والأماكنِ والمعتَمَلاتِ ، فرفَع الجميعَ حتى بلَغ بهن عَنانَ السماءِ ، حتى سَمِعَت الملائكةُ أصواتَ دِيَكتِهم ونُباحَ كلابِهم ، ثم قَلَبها عليهم فجعَل عالِيَها سافِلَها . قال مُجاهدٌ[1] : فكان أولَ ما سقَط منها شُرُفاتُها . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ والسِّجِّيلُ : فارسيٌّ مُعرَّبٌ ؛ وهو الشَّديدُ الصُّلبُ القويُّ ﴿ مَّنضُودٍ ﴾ أى ؛ يَتْبَعُ بعضُها بعضًا فى نزولِها عليهم من السماءِ ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أى ؛ معلَّمةً ، مكتوبٌ على كلِّ حَجَرٍ اسمُ صاحبِه الذى يَهبِطُ عليه فيدمَغُه ، كما قال ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم : ٥٣ ، ٥٤] . يعنى قَلَبها فأهوَى بها مُنكَّسةً ؛ عالِيَها سافلَها ، وغشَّاها بمطرٍ من حجارةٍ مِن سِجِّيلٍ متتابعةٍ مسوَّمةٍ[4] ، مرقومٍ ، على كلِّ حَجَرٍ اسمُ صاحبِه الذى سقَط عليه مِن الحاضرين منهم فى بلدِهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشَّاذِّين منها . ويُقالُ : إن امرأةَ لوطٍ مكثَت مع قومِها . ويقالُ : إنها خرجَت مع زوجِها وبنتَيْها ، ولكنَّها لمَّا سَمِعت الصَّيْحةَ وسقوطَ البَلدةِ ، والتَفتتْ إلى قومِها ، وخالفَتْ أَمْرَ ربِّها قديمًا وحديثًا ،

---

(١) تفسير الطبرى ١٢/٩٧ .

(٢) فى م : « فقالوا » .

(٣) سقط من : م .

(٤) سقط من : ح ، م .

وقالت : واقَوْمَاه . فسقَط عليها حجَرٌ فدَمَغها وألْحقَها بقومِها ؛ إذ كانت على دينِهم ، وكانت عَيْنًا لهم على مَن يكونُ عندَ لوطٍ مِن الضِّيفانِ ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] . أى ؛ خانتاهما فى الدينِ فلم تَتْبَعاهما فيه . وليس المرادُ أنهما كانتَا على فاحشةٍ ؛ حاشا وكَلَّا ، فإن اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أنْ تَبْغِىَ امرأتُه ؛ كما قال ابنُ عباسٍ وغيرُه من أئمةِ السلفِ والخلفِ : ما بَغَتِ امرأةُ نبىٍّ قَطُّ[1] . ومَنْ قال خلافَ هذا فقد أخطأَ خطأً كبيرًا[2] . قال اللهُ تعالى فى قصةِ الإفكِ ، لمَّا أنزَلَ براءةَ أمِّ المؤمنين عائشةَ بنتِ الصِّدِّيقِ ، زوجِ رسولِ اللهِ ﷺ ، [١١٢/١و] حينَ قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا ، فعاتَب اللهُ المؤمنين ، وأنَّب وزجَر ، ووعَظ وحذَّر ، وقال فيما قال : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥ ، ١٦] . أى ؛ سبحانَك أن تكونَ زوجةُ نبيِّك بهذه المثابةِ .

وقولُه ههنا : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . أى ؛ وما هذه العقوبةُ ببعيدةٍ مِمَّن أشْبَههم فى فعلِهم . ولهذا ذهَب مَن ذهَب مِن العلماءِ إلى أنَّ اللائطَ يُرجَمُ ، سواءٌ كان مُحصنًا أوْ لَا . نصَّ عليه الشافعىُّ وأحمدُ بنُ حنبلٍ ، وطائفةٌ

---

(١) رواه ابن عساكر ٦٣٦/١٤ مخطوط ، عن أشرس الخرسانى مرفوعا ، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٢٤٥/٦ إلى ابن المنذر عن ابن عباس موقوفًا .

(٢) فى ص : « كثيرا » ، وفى ا : « فاحشا » .

كثيرةٌ مِن الأئمةِ . واحتَجُّوا أيضًا بما رواه الإمامُ أحمدُ وأهلُ « السُّننِ »[1] مِن حديثِ عمرِو بنِ أبى عمرٍو ، عن عِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « مَن وجدتُموه يَعْمَلُ عملَ قومِ لوطٍ فاقتُلُوا الفاعِلَ والمفعولَ به » .

وذهَب أبو حنيفةَ إلى أن اللائطَ يُلْقَى مِن شاهِقٍ ، ويُتْبَعُ بالحجارَةِ ؛ كما فُعِل بقومِ لوطٍ ؛ لقولِه تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وجعَل اللهُ مكانَ تلك البلادِ بَحْرَةً[2] مُنتِنةً لا يُنْتفَعُ بمائِها ، ولا بما حولَها من الأراضى المُتاخِمةِ لفنائِها ؛ لرداءِتها ودناءتها ، فصارت عِبْرةً ومَثُلَةً وعِظَةً ، وآيةً على قدرةِ اللهِ تعالى وعظمتِه وعزَّتِه فى انتقامِه ممن خالَف أمرَه وكذَّب رُسُلَه واتَّبَع هواه وعصَى مولاه ، ودليلًا على رحمتِه بعبادِه المؤمنين فى إنجائِه إياهم مِن المُهلِكاتِ ، وإخراجِه إياهم من الظلماتِ إلى النورِ ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ٨ ، ٩] . وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٧٣ - ٧٧] أى ؛ مَنْ نظَر بعينِ الفِراسَةِ والتَّوسُّمِ فيهم ، كيف غيَّرَ اللهُ تلك البِلادَ وأهلَها ؟ وكيف جعلها ، بعدما كانت آهِلةً عامرةً هالكةً غامرةً ؟ كما روَى التِّرمذىُّ وغيرُه مرفوعًا[3] : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ المؤمنِ ؛ فإنَّه يَنظُرُ بنورِ اللهِ » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

---

(١) المسند ١/ ٣٠٠ ، الترمذى (١٤٥٦) ، أبو داود (٤٤٦٢) ، ابن ماجه (٢٥٦١) ، (صحيح الترمذى ١١٧٧) .

(٢) فى ا : « بخرة » .

(٣) الترمذى (٣١٢٧) وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . (ضعيف الترمذى ٦٠٧) .

وقولُه : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ . أي ؛ لَبطريقٍ مَهْيَعٍ مسلوكٍ إلى الآنَ ، كما قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ - ٣٧] . أي ؛ تركناها عبرةً وعظةً [١١٢/١ظ] لمن خاف عذابَ الآخرةِ ، وخَشِيَ الرحمنَ بالغيبِ ، وخاف مقامَ ربِّه ونهَى النفسَ عن الهوَى ، فانزَجَر عن محارمِ اللهِ ، وترَك معاصِيَه ، وخاف أن يُشابِهَ قومَ لوطٍ . و « مَن تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم »(١) . وإن لم يكنْ مِن كلِّ وجهٍ ، فمِن بعضِ الوجوهِ ؛ كما قال بعضُهم :

فإنْ لمْ تكونوا قومَ لُوطٍ بعينِهمْ ... فما قَومُ لُوطٍ مِنْكمُ ببعيدِ

فالعاقلُ اللبيبُ ، الخائفُ من ربِّه ، الفاهِمُ يمتثِلُ ما أمرَه اللهُ به عزّ وجلَّ ويَقبَلُ ما أرشَده إليه رسولُ اللهِ ؛ من إتيانِ ما خُلِق له مِن الزوجاتِ الحلالِ ، والجوارِى من السَّرارِىِّ ذواتِ الجمالِ ، وإيّاه أن يَتَّبِعَ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ ، فيَحِقَّ عليه الوعيدُ ، ويدخلَ فى قولِه تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٣] .

(١) رواه أحمد ٥٠/٢ ، أبو داود (٤٠٣١) ، حديث حسن صحيح (صحيح أبي داود ٣٤٠١) .

قصةُ مَدْيَنَ قومِ شُعَيْبٍ عليه الصلاةُ والسلامُ

قال اللهُ تعالى فى سورةِ « الأعراف » بعدَ قصةِ قومِ لوطٍ[1] : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ۞ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ۞ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۞ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٥ - ٩٣] . وقال فى سورةِ « هود » بعدَ قصةِ قومِ لوطٍ أيضًا[2] : ﴿ وَإِلَىٰ

---

(١) التفسير : ٣/٤٤٣ - ٤٤٥ .

(٢) التفسير : ٤/٢٧٢ - ٢٧٦ .

مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ [١١٣/١و] بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ * قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : ٨٤ - ٩٥] . وقال فى « الحِجْر » بعدَ قصةِ قومِ لوطٍ أيضًا(١) : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ ، ٧٩] . وقال تعالى فى « الشعراء » بعدَ

---

(١) التفسير : ٤٦٢/٤ .

قصتِهم[1] : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٩١] .

كان أهلُ مَدْيَنَ قومًا عربًا ، يسكنون مدينتَهم مَدْيَنَ ، التى هى قريةٌ من أرضِ مُعَانٍ من أطرافِ الشام مِمَّا يلِى ناحيةَ الحجازِ قريبًا مِن بُحيرةِ قومِ لوطٍ . وكانوا بعدَهم بِمُدةٍ قريبةٍ . ومَدْيَنُ قبيلةٌ عُرِفت بهم المدينةُ[2] ، وهم مِن بنِى مَدْيَنَ بنِ مديانَ بنِ إبراهيمَ [١/١١٣ظ] الخليلِ عليه الصلاةُ والسلامُ . وشُعَيبٌ نبيُّهم هو ابنُ ميكيلَ بنِ يشجنَ . ذكَره ابنُ إسحاقَ[3] . قال : ويقالُ له بالسُّريانيةِ : بثرونُ[4] . وفى هذا نظَرٌ . ويقالُ : شُعَيبُ بنُ يشجنَ بنِ لاوِى بنِ يعقوبَ . ويُقالُ : شعيبُ بنُ ثويبِ بنِ عبقا بنِ

---

(١) التفسير : ٦/١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) فى م ، ص : « القبيلة » .

(٣) تفسير الطبرى ٨/٢٣٧ . وفيه : « يشجر » بدل « يشجن » .

(٤) فى م ، ص : « بنزون » ، وفى تاريخ الطبرى ١/٣٢٥ : « يزون » ، وفى الكامل ١/١٥٧ : « يثرون » ، وفى تفسير الطبرى : « بثرون » .

مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ . ويقالُ : شعيبُ بنُ صيفورَ بنِ عبقا بنِ ثابتِ بنِ مَدْيَنَ ابنِ إبراهيمَ . وقِيل غيرُ ذلك فى نسبِه[1] . قال ابنُ عساكِرَ[2] : ويقالُ : جَدَّتُه - ويقالُ : أمُّه - بنتُ لوطٍ[3] . وكان مِمّن آمَن بإبراهيمَ وهاجَر معه ، ودخَل معه دمشقَ . وعن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنه قال : شعيبٌ وبلعمُ[4] مِمَّن آمَن بإبراهيمَ يومَ أُحْرِق بالنارِ ، وهاجَرا معه إلى الشامِ ، فزوَّجهما بنتَىْ لوطٍ عليه السلامُ . ذكره ابنُ قُتَيْبَةَ[5] . وفى هذا كلِّه نظرٌ أيضًا . واللهُ أعلمُ .

وذكَر أبو عُمَرَ بنُ عبدِ البَرِّ فى « الاستيعابِ »[6] ، فى ترجمةِ سَلَمَةَ بنِ سعيدٍ[7] العَنَزِىِّ : قَدِم على رسولِ اللهِ ﷺ فأسلَم ، وانتسَب إلى عَنَزَةَ ، فقال : « نِعْمَ الحىُّ عَنَزَةُ مَبْغِىٌّ عليهم ، منصورون ، قومُ شُعَيْبٍ وأَخْتانُ موسى » . فلو صحَّ هذا ، لدَلَّ على أنَّ شُعيبًا صِهرُ[8] موسى ، وأنه من قبيلةٍ من العربِ العاربةِ يقالُ لهم : عَنَزَةُ . لا أنَّهم مِن عَنَزَةَ بنِ أسدِ بنِ ربيعةَ بنِ نِزَارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنَانَ ؛ فإن هؤلاء بعدَه بدهرٍ طويلٍ . واللهُ أعلمُ .

وفى حديثِ أبى ذَرٍّ الذى فى « صحيحِ ابنِ حِبَّانَ »[9] ، فى ذِكْرِ الأنبياءِ والرُّسلِ ، قال : « أربعةٌ مِن العربِ ؛ هودٌ ، وصالحٌ ، وشُعَيبٌ ، ونَبِيُّك يا

---

(١) وفى نسبه اختلاف شديد بين النسخ وكذلك فى المصادر .

(٢) لعله من الجزء الساقط من تاريخ دمشق . انظر التاريخ ٦٦/٨ من المخطوط ، و٧٠/٢٣ من المطبوع .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٢٥/١ ، الكامل ١٥٧/١ . وفيها أن جدته بنت لوط ، بالجزم .

(٤) فى م ، ص : « ملغم » .

(٥) المعارف ص ٤١ .

(٦) الاستيعاب ٦٤٤/٢ . وفيه : « وأحبار موسى » بدل « وأختان موسى » .

(٧) فى م ، ص : « سعد » .

(٨) فى م ، ص : « من » .

(٩) الإحسان (٣٦١) إسناده ضعيف جدا .

أبا ذَرٍّ » . وكان بعضُ السلفِ يسمِّى شعيبًا خطيبَ الأنبياءِ . يعنى لفصاحتِه وعُلُوِّ عبارتِه ، وبلاغتِه فى دِعايةِ قومِه إلى الإيمانِ برسالتِه . وقدْ روَى (١إسحاقُ بنُ١) بشرٍ ، عن جُوَيْبِرٍ ومُقاتلٍ ، عن الضحاكِ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا ذكَر شعيبًا قال : « ذاكَ خَطِيبُ الأنبياءِ »(٢) .

وكان أهلُ مَدْيَنَ كفارًا ، يقطَعون السَّبيلَ ويُخيفون المارَّةَ ، ويعبُدون الأيْكَةَ ؛ وهى شجرةٌ من الأيْكِ ، حولَها غَيْضَةٌ مُلتفَّةٌ بها ، وكانوا مِن أسوإِ الناسِ معاملةً ، يَبْخَسُون المِكيالَ والميزانَ ويُطَفِّفون فيهما ، يأخذون بالزائدِ ويَدفَعُون بالناقصِ ، فبعَث اللهُ فيهم رجلًا منهم ؛ وهو رسولُ اللهِ شعيبٌ عليه السلامُ ، فدعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، ونهاهم عن تعاطِى هذه الأفاعيلِ القبيحةِ ؛ مِن بَخْسِ الناسِ أشياءَهم ، وإخافَتِهم لهم فى سُبُلِهم وطُرُقاتِهم ، فآمَن به بعضُهم وكفَر أكثرُهم ، حتى أحَلَّ اللهُ بهم البأسَ الشديدَ ، وهو الولىُّ الحميدُ ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ [١١٤/١و] ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى ؛ دلالةٌ وحُجَّةٌ واضحةٌ ، وبرهانٌ قاطعٌ على صدقِ ما جئتُكم به ، وأنه أرسَلَنى . وهو ما أَجْرَى اللهُ على يَدَيْه مِن المعجزاتِ التى لم تُنْقَلْ إلينا تفصيلًا ، وإنْ كان هذا اللفظُ قد دلَّ عليها إجمالًا . ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ أمَرَهم بالعدلِ ، ونهاهم عن الظلمِ ، وتوعَّدهم على خلافِ ذلك ، فقال : ﴿ ذَٰلِكُمْ

(١ - ١) فى م ، ص : « ابن إسحاق بن » .

(٢) عزاه فى الدر المنثور ١٠٣/٣ إلى إسحاق بن بشر وابن عساكر ضمن حديث طويل . ورواه ابن عساكر ٦٠/١٠ عن أبى إدريس الخولانى عن النبى ﷺ . ورواه الحاكم فى المستدرك ٥٦٨/٢ من حديث ابن إسحاق يبلغ به النبى ﷺ . ورواه الطبرى فى تاريخه ٣٢٧/١ من حديث ابن إسحاق عن يعقوب بن أبى سلمة يبلغ به النبى ﷺ .

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ أى ؛ طريقٍ ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ أى ؛ تتوعدون الناسَ ، بأَخْذِ أموالِهم مِن مُكُوسٍ وغيرِ ذلك ، وتُخِيفُون السَّبيلَ . قال السُّدِّىُّ[1] فى « تفسيرِه » عن الصحابةِ ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ : أنهم كانوا يأخذون العُشُورَ من أموالِ المارَّةِ . وقال إسحاقُ بنُ بِشرٍ ، عن جُوَيْبِرٍ ، عن الضحاكِ ، عن ابنِ عباسٍ[2] ، قال : كانوا قومًا طُغاةً بُغاةً ، يجلِسون على الطريقِ يبخسون الناسَ ، يعنى يَعْشُرُونهم ، وكانوا أَوَّلَ مَنْ سَنَّ ذلك . ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ فنهاهم عن قطعِ الطريقِ الحِسِّيةِ الدنيويةِ والمعنويةِ الدينيةِ ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ذكَّرهم بنعمةِ اللهِ تعالى عليهم فى تكثيرِهم بعدَ القلةِ ، وحذَّرهم نِقْمةَ اللهِ بهم إنْ خالفوا ما أَرشَدَهم إليه ودلَّهم عليه ؛ كما قال لهم فى القصةِ الأخرى : ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أى ؛ لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه ، فيمحَقَ اللهُ بركةَ ما فى أيديكم ويُفقِرَكم ويُذهِبَ ما به يُغْنِيكم ، وهذا مُضافٌ إلى عذابِ الآخرةِ ، ومَنْ جُمِع له هذا وهذا ، فقد باءَ[3] بالصَّفْقةِ الخاسرةِ . فنهاهم أولًا عن تعاطِى ما لا يَلِيقُ من التطفيفِ ، وحذَّرهم سَلْبَ نعمةِ اللهِ عليهم فى دنياهم ، وعذابَه الأليمَ فى أُخْرَاهم ، وعنَّفهم أشدَّ تعنيفٍ ، ثم قال لهم آمِرًا بعد ما كان عن ضدِّه زاجرًا : ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم

---

(١) تفسير الطبرى ٢٣٨/٨ .

(٢) عزاه فى الدر المنثور ١٠٢/٣ إلى إسحاق بن بشر وابن عساكر .

(٣) فى الأصل ، ح : « فاز » .

مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ قال ابنُ عباسٍ والحسنُ البصريُّ : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى ؛ رزقُ اللهِ خيرٌ لكم مِن أَخْذِ أموالِ الناسِ بالتطفيفِ[1] . وقال ابنُ جَريرٍ[2] : ما فَضَل لكم من الربحِ بعدَ وفاءِ الكَيْلِ والميزانِ خيرٌ لكم مِن أَخْذِ أموالِ الناسِ بالتطفيفِ . قال : وقد رُوِى هذا عن ابنِ عباسٍ . وهذا الذى قاله وحكَاه حسنٌ ، وهو شبيهٌ بقولِه تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] . يعنى أن القليلَ من الحلالِ خيرٌ لكم من الكثيرِ من الحرامِ ؛ فإن الحلالَ مبارَكٌ وإنْ قَلَّ ، والحرامَ ممحوقٌ وإنْ كَثُر ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] . وقال رسولُ اللهِ ﷺ : « إن الرِّبا وإنْ كَثُرَ ، فإنَّ مَصِيرَه إلى قُلٍّ » . رواه أحمدُ[3] . أى إلى قِلَّةٍ . وقال رسولُ اللهِ ﷺ : « البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يَتفرَّقا ، فإن صَدَقَا وبيَّنا بُورِكَ لهما فى بَيْعِهما ، وإنْ كَتَمَا وكَذَبا مُحِقَتْ بَرَكَةُ [١/١١٤ظ] بَيْعِهما »[4] .

والمقصودُ أن الربحَ الحلالَ مبارَكٌ فيه وإن قَلَّ ، والحرامَ لا يُجدِى وإن كَثُر ؛ ولهذا قال نبىُّ اللهِ شعيبٌ : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . وقولُه : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أى ؛ افعلوا ما آمُرُكم به ابتغاءَ وجهِ اللهِ ورجاءَ ثوابِه ، لا لأَراكم أنا وغيرى ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ يقولون هذا على سبيلِ الاستهزاءِ والتنقُّصِ والتهكُّمِ ؛ أصلواتُك هذه التى تُصلِّيها

---

(١) سقط من : ح ، م ، ص .

(٢) تفسير الطبرى ١٢/١٠٠ ، ١٠١ .

(٣) المسند ١/٣٩٥ (إسناده صحيح) .

(٤) البخارى (٢٠٧٩) ، مسلم (١٥٣١) .

هي الآمِرةُ لك بأن تَحْجُرَ علينا ، فلا نَعبُدَ إلا إلَـٰهَكَ ، ونَترُكَ ما يَعبُدُ آباؤُنا الأَقْدَمون وأسلافُنا الأوَّلون ؟ أو أنَّا لا نتعامَلُ إلا على الوجهِ الذى تَرْتضِيه أنت ، ونَترُكُ المعاملاتِ التى تأباها وإن كنا نحن نرضاها ؟ ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ قال ابنُ عباسٍ ، وميمونُ بنُ مِهْرانَ ، وابنُ جُرَيْجٍ ، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ ، وابنُ جَريرٍ[1] : يقولون ذلك - أعداءُ اللهِ - على سبيلِ الاستهزاءِ .

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هذا تلطُّفٌ معهم فى العبارةِ ، ودعوةٌ لهم إلى الحقِّ بأَبْيَنِ إشارةٍ ؛ يقولُ لهم : أرأيتُم أيها المكذِّبون ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أى ؛ على أَمْرٍ بَيِّنٍ مِن اللهِ تعالى أنه أَرْسَلنى إليكم ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يعنى النبوةَ والرسالةَ . يعنى : وعمِّى عليكم معرفتَها ، فأىُّ حيلةٍ لى بكم ؟ وهذا كما تقدَّم عن نوحٍ عليه السلامُ أنَّه قال لقومِه سواءً .

وقولُه : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ ﴾ أى لستُ آمُرُكم بالأمرِ إلا وأنا أولُ فاعلٍ له ، وإذا نهيتُكم عن الشىءِ فأنا أولُ مَن يَتْرُكُه . وهذه هى الصفةُ المحمودةُ العظيمةُ ، وضِدُّها هى المردودةُ الذميمةُ ، كما تَلَبَّسَ بها علماءُ بنى إسرائيلَ فى آخِرِ زمانِهم ، وخطباؤُهم الجاهلون . قال اللهُ تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] . وذكَرنا[2] عندَها فى « الصحيحِ »[3] ، عن رسولِ اللهِ ﷺ ، أنه قال : « يُؤتَى بالرجُلِ ، فيُلقَى فى النارِ ، فتَنْدَلِقُ أَقْتابُ[4] بطنِه ». أى

---

(١) تفسير الطبرى ١٠٣/١٢ .

(٢) فى م ، ص : « وذكر » .

(٣) البخارى (٣٢٦٧) ، مسلم (٢٩٨٩) .

(٤) فى الأصل : « أفنان » .

تَخرُجُ أمعاؤُه من بطنِه « فيَدُورُ بها كما يَدُورُ الحمارُ برَحَاهُ ، فيجتمِعُ إليه أهلُ النَّارِ ، فيقولون : يا فُلانُ ، مَا لَكَ ؟ ألم تكنْ تأمُرُ بالمعروفِ وتَنْهَى عن المنكرِ ؟ فيقولُ : بلى ، كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيه ، وأَنْهَى عن المنكَرِ وآتِيه » . وهذه صفةُ مخالِفِي الأنبياءِ من الفجارِ والأشقياءِ ، فأما السادةُ من النُّجباءِ والألِبَّاءِ ، من العلماءِ الذين يخشَوْن ربَّهم بالغيبِ ، فحالُهم[1] كما قال نبيُّ اللهِ شعيبٌ : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ [١/١١٥و] مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ؛ ما أُريدُ فى جميعِ أمرِى إلا الإصلاحَ فى الفَعالِ والمقالِ ، بجَهْدِى وطاقتى ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾ أى فى جميعِ أحوالى ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى عليه أتوكَّلُ فى سائرِ الأمورِ ، وإليه مَرْجِعى ومصيرى فى كلِّ أمرى . وهذا مَقامُ ترغيبٍ . ثم انتقل إلى نوعٍ من الترهيبِ ، فقال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ أى ؛ لا تَحْمِلَنَّكم مخالفتى وبغضُكم ما جئتُكم به على الاستمرارِ على ضلالِكم وجهلِكم ومخالفتِكم ، فَيُحِلَّ اللهُ بكم من العذابِ والنَّكالِ نظيرَ ما أحَلَّه بنُظَرائِكم وأشباهِكم ، مِن قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ ، مِن المكذِّبين المخالِفين .

وقولُه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ قيل : معناه فى الزمانِ . أى ما بالعهدِ مِن قِدَمٍ ممّا قد بلغَكم ما أحلَّ اللهُ بهم على كُفْرِهم وعُتُوِّهم . وقيل : معناه وما هم منكم ببعيدٍ فى المَحَلَّةِ والمكانِ . وقيل : فى الصفاتِ والأفعالِ المستقبَحاتِ ؛ مِن قطعِ الطريقِ ، وأخذِ أموالِ الناسِ جَهْرةً وخُفيةً ، بأنواعِ الحِيَلِ والشبهاتِ . والجمعُ بينَ هذه الأقوالِ ممكنٌ ، فإنهم لم يكونوا بَعيدِين منهم ؛ لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفاتٍ . ثم مزَج الترهيبَ بالترغيبِ ، فقال :

---

(١) فى الأصل : « فخالفهم » .

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أى أَقلِعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلى ربِّكم الرحيمِ الودودِ ؛ فإنه مَن تاب إليه تاب عليه ، فإنه ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بعبادِه ، أرحَمُ بهم مِن الوالدةِ بولدِها ﴿ وَدُودٌ ﴾ وهو الحبيبُ ، ولو بعدَ التوبةِ على عبدِه ، ولو من المُوبِقاتِ العِظامِ .

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ رُوِىَ عن ابنِ عباسٍ ، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، والثَّوْرِىِّ أنَّهم قالوا : كان ضريرَ البصرِ[1] . وقد رُوى فى حديثٍ مرفوعٍ ، أنَّه بكَى من حُبِّ اللهِ حتى عَمِىَ ، فرَدَّ اللهُ عليه بصَرَه ، وقال : « يا شعيبُ ، أَتَبكِى خوفًا من النارِ أو من شوقِك إلى الجنةِ ؟ فقال : بل مِن محبتِك ، فإذا نَظَرتُ إليك فلا أبالى ماذا يُصنَعُ بى . فأوحَى اللهُ إليه : هنيئًا لك يا شعيبُ [2]لقائى ، فلذلك أخدمتُك[2] موسى بنَ عِمرانَ كليمى » . رواه الواحدِىُّ ، عن أبى الفتحِ محمدِ بنِ علىٍّ الكوفىِّ ، عن علىِّ بنِ الحسنِ بنِ بُنْدَارٍ[3] ، عن أبى عبدِ اللهِ محمدِ بنِ إسحاقَ الرملىِّ[4] ، عن هشامِ بنِ عمَّارٍ ، عن إسماعيلَ بنِ عيَّاشٍ[5] ، عن [6]بَحِيرِ ابنِ سَعْدٍ[6] ، عن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ ، عن النبىِّ ﷺ بنحْوِه . وهذا غريبٌ جدًّا ، وقد ضعَّفه الخطيبُ البغدادىُّ[7] . وقولُهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ

---

(1) أثر ابن عباس رواه الحاكم فى مستدركه ٥٦٨/٢ ، ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٧١/٢٣ وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وانظر تفسير الطبرى ١٠٥/١٢ .

(٢ - ٢) فى الأصل : « هنيئًا لك . فقال : فلذلك أخدمك » .

(3) فى الأصل : « بيدار » .

(4) فى م ، ص : « التربلى » .

(5) فى م ، ص : « عباس » .

(٦ - ٦) فى ح ، م ، ص : « يحيى بن سعيد » ، وفى الأصل : « بحير بن سعيد » ، والأكثر على أنه « بحير بن سعد » . وانظر : تهذيب الكمال ٢٠/٤ ، ٢١ .

(7) رواه الواحدى كما فى الدر المنثور ٣٤٨/٣ ، ومن طريقه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٧٣/٢٣ والخطيب فى تاريخ بغداد ٣١٥/٦ واستنكره ، ومن طريق الخطيب رواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية ٤٩/١ وقال : لا أصل له .

لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ وهذا [١/١١٥ظ] مِن كفرِهم البليغِ، وعنادِهم الشنيعِ حيث قالوا : ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أى ؛ ما نفهمُه ولا نتعقَّلُه ؛ لأَنا لا نحبُّه ولا نريدُه ، وليس لنا هِمَّةٌ إليه ولا إقبالٌ عليه . وهو كما قال كفارُ قريشٍ لرسولِ اللهِ ﷺ : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] . وقولُهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ أى ؛ مضطَهَدًا مهجورًا ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أى ؛ قَبيلتُك وعَشيرتُك فينا ﴿ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أى ؛ تخافون قبيلتى وعشيرتى وتراعونى بسببِهم ، ولا تخافون جَنْبَةَ اللهِ ولا ترعونى لأنى رسولُ اللهِ ، فصار رهْطِى أعزَّ عليكم من اللهِ ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى ؛ جعلتم جانبَ اللهِ وراءَ ظهورِكم ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى ؛ هو عليمٌ بما تعملونه وما تصنعونه ، محيطٌ بذلك كلِّه ، وسيجزيكم عليه يومَ تُرجَعون إليه ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ وهذا أمرُ تهديدٍ شديدٍ ، ووعيدٍ أكيدٍ بأن يستمرُّوا على طريقتِهم ومنهجِهم وشاكلتِهم ، فسوف تعلمون مَن تكونُ له عاقبةُ الدارِ ، ومَن يَحِلُّ عليه الهلاكُ والبَوارُ ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى ؛ فى هذه الحياةِ الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى ؛ فى الأُخْرَى ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾ أى ؛ مِنِّى ومنكم فيما أَخبرَ وبشَّر وحذَّر ﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ . وهذا كقولِه : ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ [١١٦/١و] نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ . طلبوا بزعمِهم أن يَرُدُّوا مَنِ آمَن مِنهم إلى ملَّتِهم ، فانتصَب شعيبٌ للمُحاجَّةِ عن قومِه ، فقال : ﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أى ؛ هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارًا ، وإنما يعودون إليه ، إن عادوا ، اضطرارًا مُكْرَهِين ؛ وذلك لأن الإيمانَ إذا [1]خالَطَتْ بشَاشَتُه القلوبَ[1] لا يَسْخَطُه أحدٌ ، [2]ولا يريدُ أحدٌ أن يزولَ عنه[2] ، ولا مَحِيدَ لأحدٍ منه ؛ ولهذا قال : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى فهو كافِينا وهو العاصِمُ لنا ، وإليه مَلْجأُنا فى جميعِ أمرِنا .

ثم استفتَح على قومِه واستنصَر ربَّه عليهم[3] فى تعجيلِ ما يستحقُّونه إليهم ، فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ أى ؛ الحاكِمين . فدعا عليهم ، واللهُ لا يَرُدُّ دعاءَ رسلِه إذا استَنْصَروه على الذين جحَدوه وكفَروه ، ورسولَه خالفوه ، ومع هذا صمَّموا على ما هم عليه مشتَمِلون وبه مستمسكون[4] ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ذكَر فى سورةِ « الأعراف » أنهم أخذَتْهم

(١ - ١) فى الأصل ، ا : « خالطته بشاشة الوجوه القلوب » ، وفى ح ، م : « خالطته بشاشة القلوب » .

(٢ - ٢) فى ح ، م ، ص : « ولا يرتد أحد عنه » .

(٣) فى م : « عليه » .

(٤) فى ح ، م : « متلبسون » ، وفى ص : « ملتبسون » .

رَجْفَةٌ ، أى رَجَفَتْ بهم أرضُهم ، وزُلزِلتْ زلزالًا شديدًا ، أزْهَقَت أرواحَهم من أجسادِهم ، وصيَّرتْ حيواناتِ أرضِهم كجمادِها ، وأصبَحت جُثثُهم جاثيةً لا أرواحَ فيها ولا حركاتٍ بها ولا حَوَاسَّ لها .

وقد جمَع اللهُ عليهم أنواعًا من العقوباتِ ، وصنوفًا مِن المَثُلاتِ ، وأشكالًا مِن البَلِيَّاتِ ؛ وذلك لِمَا اتَّصَفُوا به مِن قبيحِ الصِّفاتِ ، سلَّط اللهُ عليهم رَجْفةً شديدةً أَسكَنتِ الحركاتِ ، وصيحةً عظيمةً أخمَدتِ الأصواتَ ، وظُلَّةً أرسَل عليهم منها شَرَرَ النارِ من سائرِ أرجائِها والجهاتِ . ولكنه تعالَى أخبرَ عنهم فى كلِّ سورةٍ بما يناسبُ سِياقَها ويوافقُ طِباقَها ؛ فى سِياقِ قصةِ « الأعراف » أرجَفوا نبىَّ اللهِ وأصحابَه ، وتوعَّدوهم بالإخراجِ مِن قريتِهم أو لَيَعُودُنَّ فى مِلَّتِهم راجعِين ، فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ فقابَل الإرجافَ بالرَّجْفةِ ، والإخافةَ بالخِيفةِ ، وهذا مناسبٌ لهذا السياقِ ، ومتعلِّقٌ بما تقدَّمه مِن السياقِ . وأما فى سورةِ « هود » فذكَر أنهم أخذَتهم الصَّيْحةُ فأصبَحوا فى ديارِهم جاثِمين ؛ وذلك لأنهم قالوا لنبىِّ اللهِ ، على سبيلِ التهكُّمِ والاستهزاءِ والتنقُّصِ : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ فناسَب أن يَذكُرَ الصيحةَ التى هى كالزَّجْرِ عن تعاطِى هذا الكلامِ القبيحِ ، الذى جَهَّلُوا[1] به هذا الرسولَ الكريمَ الأمينَ الفصيحَ ، فجاءتهم صَيْحةٌ أسكَتَتهم مع رجفةٍ أسكَنَتهم . وأما فى سورةِ « الشعراء » فذكَر أنه أخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ ، وكان ذلك إجابةً لِما طلبوا ، وتقريبًا لِمَا إليه رَغِبُوا ؛ فإنَّهم قالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞

---

(١) فى ح ، م ، ص : « واجهوا » .

[١/١١٦ظ] قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١٨٥ - ١٨٨] . قال اللهُ تعالى ، وهو السميعُ العليمُ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ومن زعَم من المفسرين كقَتادةَ وغيرِه ، أن أصحابَ الأَيْكَةِ أُمَّةٌ أُخرَى غيرُ أهلِ مَدْيَنَ فقولُه ضعيفٌ[١] ، وإنما عمدتُهم شيئانِ ؛ أحدُهما ، أنه قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقُلْ : أخوهم . كما قال : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ . والثانى ، أنه ذكَر عذابَهم بيومِ الظُّلَّةِ ، وذكَر فى أولئك الرَّجْفةَ ، أو الصَّيحةَ . والجوابُ عن الأولِ ، أنَّه لم يَذكُرِ الأُخُوَّةَ بعدَ قولِه : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لأنَّه وصفَهم بعبادةِ الأَيْكةِ ، فلا يُناسِبُ ذِكْرُ الأُخُوَّةِ ههنا ، ولمَّا نَسَبَهم إلى القبيلةِ ساغ[٢] ذِكْرُ شُعَيْبٍ بأنه أخوهم . وهذا الفرقُ مِن النفائسِ اللطيفةِ العزيزةِ الشريفةِ . وأما احتجاجُهم بيومِ الظُّلَّةِ ، فإن كان دليلًا بمجرَّدِه على أن هؤلاء أمةٌ أُخرَى ، فلْيكُنْ تَعْدادُ الانتقامِ بالرَّجْفةِ والصَّيحةِ دليلًا على أنَّهما[٣] أمتانِ أُخرَيَانِ ، (٤وهذا لا يقولُه أحدٌ يَفهَمُ شيئًا من هذا الشَّأنِ٤) . (٥فأما الحديثُ الذى أورَدَه الحافِظُ ابنُ عساكِرَ[٦] فى ترجمةِ النَّبىِّ شُعيبٍ عليه السلامُ من طريقِ محمدِ بنِ عثمانَ بنِ أبى شَيْبَةَ ، عن أبيه ، عن معاويةَ بنِ هشامٍ ،٥)

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٤/٤٨ .

(٢) فى م ، ص : « شاع » .

(٣) فى الأصل : « أنها » .

(٤ - ٤) سقط من : ح .

(٥ - ٥) سقط من : الأصل ، ا ، ص .

(٦) لعله فى الجزء الساقط من تاريخ دمشق . انظر التاريخ ٨/٦٦ من المخطوط ، ٢٣/٧٠ من المطبوع .

(1عن هشامِ بنِ سعدٍ ، عن شقيقِ بنِ أبى هلالٍ ، عن رَبيعةَ بنِ سيفٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو مرفوعًا : « إنَّ مَدْيَنَ وأصحابَ الأَيكةِ أُمَّتان ، بَعَثَ اللهُ إليهما شُعَيبًا النَّبىَّ عليه السَّلامُ » . فإنه حديثٌ غريبٌ ، وفى رجالِه مَنْ تُكُلِّمَ فيه ، والأشبَهُ أنه من كلامِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو ، مما أصابَه يومَ اليَرْمُوكِ مِن تلك الزَّامِلَتَيْن مِن أخبارِ بنى إسرائيلَ . واللهُ أعلمُ1) . ثم قد ذكَر اللهُ عن[2] أهلِ الأَيْكةِ من المَذَمَّةِ ما ذكَره عن أهلِ مَدْيَنَ من التَّطْفيفِ فى المِكيالِ والميزانِ ، فدلَّ على أنهم أمةٌ واحدةٌ أُهلِكوا بأنواعٍ من العذابِ ، وذكَر فى كلِّ مَوْضعٍ ما يناسبُ ذلك[3] الخطابَ .

وقولُه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ذكَروا أنهم أصابَهم حَرٌّ شديدٌ ، وأسكَن اللهُ هُبوبَ الهواءِ عنهم سبعةَ أيامٍ ، فكان لا يَنفعُهم مع ذلك ماءٌ ولا ظِلٌّ ولا دخولُهم فى الأسرابِ ، فهرَبوا من مَحلَّتِهم إلى البَرِّيَّةِ ، فأَظَلَّتْهم سحابةٌ فاجتمَعوا تحتَها ليَستظلُّوا بظلِّها ، فلما تكامَلوا فيه أرسَلَها اللهُ عَلَيْهم ترميهم بِشَرَرٍ وشُهُبٍ (4من نارٍ4) ، ورجَفَت بهم الأرضُ ، وجاءتهم صَيْحةٌ مِن السماءِ فأزهَقَت الأرواحَ وخرَّبت الأشباحَ ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ونجَّى اللهُ شُعيبًا ومَن معه مِن المؤمنين ؛ كما قال تعالى وهو أصدقُ القائلين : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1 - 1) سقط من : الأصل ، ا ، ص .
(2) فى الأصل : « من » .
(3) فى م : « من » .
(4 - 4) زيادة من : الأصل .

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ . وهذا فى مقابلةِ قولِهم : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا [١١٧/١و] لَّخَٰسِرُونَ ﴾ . ثم ذكَر تعالى عن نبيِّهم أنه نعَاهم إلى أنفسِهم مُوبِّخًا ومؤنِّبًا ومقرِّعًا ، فقال تعالى :﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أى ؛ أعرَضَ عنهم موليًا عن مَحَلَّتِهم بعدَ هَلاكِهم قائلا : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أى قد أدَّيتُ ما كان واجبًا علىَّ من البلاغِ التامِّ والنُّصحِ الكاملِ ، وحرَصتُ على هدايتِكم بكلِّ ما أقدِرُ عليه وأتوصَّلُ إليه ، فلم يَنْفَعْكم ذلك ؛ لأن اللهَ لا يَهدِى مَن يُضِلُّ وما لهم مِن ناصرين ، فلستُ أتأسَّفُ بعدَ هذا عليكم ؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النَّصيحةَ ، ولا تخافون يومَ الفضيحةِ ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ ﴾ أى أحزَنُ ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ أى ؛ لا يَقْبَلون الحقَّ ولا يَرْجعون إليه ولا يلتفتون عليه ، فحَلَّ عليهم مِن بأسِ اللهِ الذى لا يُردُّ ما لا يُدافَعُ ولا يُمانَعُ ، ولا مَحِيدَ لأحدٍ أُريدَ به عنه ، ولا مَناصَ مِنه . (١وقد ذكَر الحافظُ ابنُ عساكرَ[٢] فى « تاريخِه » ، عن ابنِ عباسٍ ، أن شُعَيبًا عليه السلامُ كان بعدَ يُوسُفَ عليه السلامُ . وعن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، أن شُعَيبًا عليه السلامُ مات بمكةَ ومَن معه مِن المؤمنين ، وقبورُهم غربِىَّ الكعبةِ ، بينَ دارِ النَّدْوةِ ودارِ بنى سَهْمٍ١) .

(١ - ١) زيادة من : ح ، م .

(٢) تاريخ دمشق ٨٠/٢٣ .

بابُ ذكرِ ذريةِ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ

قد قدمنا قصتَه مع قومِه ، وما كان مِن أمرِهم ، وما آلَ إليه أمرُه عليه السلامُ والتحيةُ والإكرامُ . وذكرنا ما وقَع فى زمانِه مِن قصةِ قومِ لوطٍ ، وأَتْبَعنا ذلك بقصةِ مَدْيَنَ قومِ شُعَيبٍ عليه السلامُ ؛ لأنَّها قرينتُها فى كتابِ اللهِ عز وجل ، فى مواضعَ متعددةٍ يذكرُ[1] تعالى بعدَ قصةِ قومِ لوطٍ قصةَ مَدْيَنَ ، وهم أصحابُ الأَيْكَةِ على الصَّحيحِ كما قدمنا ، فذكرناها تبَعًا لها ؛ اقتداءً بالقرآنِ العظيمِ . ثم نَشرَعُ الآنَ فى الكلامِ على تفصيلِ ذريةِ إبراهيمَ عليه السلامُ ؛ لأن اللهَ جعَل فى ذريتِه النبوةَ والكتابَ ، فكلُّ نبىٍّ أُرْسِلَ بعدَه فمِن ولدِه .

---

(1) فى ح ، م ، ص : « فذكر » .

ذكرُ إسماعيلَ عليه السلامُ

وقد كان للخليلِ بَنُونَ كما ذكَرنا ، ولكنَّ أَشْهَرَهم الأَخَوانِ النَّبِيَّانِ العظيمانِ الرَّسُولانِ ؛ أَسَنُّهما وأَجَلُّهما الذى هو الذبيحُ ، على الصحيحِ ، إسماعيلُ بِكْرُ إبراهيمَ الخليلِ مِن[1] هاجَرَ القِبطيةِ المصريةِ عليها السلامُ مِن العظيمِ الجليلِ . ومن قال : إن الذبيحَ هو إسحاقُ . فإنما تلقَّاه مِن نَقَلَةِ بنى إسرائيلَ ، الذين بدَّلوا وحرَّفوا وأَوَّلوا التوراةَ والإنجيلَ ، وخالفوا ما بأيديهم فى هذا مِن التنزيلِ . فإن إبراهيمَ أُمِر بذَبْحِ ولدِه البِكْرِ . وفى روايةٍ : الوحيدِ . وأيًّا ما كان فهو إسماعيلُ بنصِّ الدليلِ ؛ ففى نَصِّ كتابِهم أن إسماعيلَ وُلِد ولإبراهيمَ مِن العُمُرِ ستٌّ وثمانون سنةً[2] ، وإنَّما وُلِد إسحاقُ بعدَ مُضِىِّ مائةِ سنةٍ مِن عُمُرِ الخليلِ[3] ، فإسماعيلُ هو البِكْرُ لا مَحالةَ ، وهو الوحيدُ صورةً ومعنًى على كلِّ حالةٍ ؛ [١١٧/١ظ] أمَّا فى الصورةِ ، فلأنه كان وحدَه ولَدَه أَزْيَدَ مِن ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً . وأما أنه وحيدٌ فى المعنى ، فإنه هو الذى هاجَر به أبوه ومعه أمُّه هاجَرُ ، وكان صغيرًا رضيعًا فيما قيل ، فوضَعَهما فى وِهادِ[4] جبالِ فارانَ ، وهى الجبالُ التى حولَ مكةَ ، نِعْمَ المَقِيلُ ، وتركَهما هنالك ليس معهما مِن الزَّادِ والماءِ إلا القليلُ ، وذلك ثقةً باللهِ وتوكُّلًا عليه ، فحاطَهما اللهُ تعالى بعِنايتِه وكِفايتِه ، فنِعْمَ الحسيبُ والكافى والوكيلُ والكفيلُ . فهذا هو الولدُ الوحيدُ

---

(١) فى ص : « ابن » .

(٢) سفر التكوين الأصحاح ١٦/١٦ ، ٢٤/٢٧ - ٢٦ .

(٣) سفر التكوين الأصحاح ٥/٢١ .

(٤) وهاد جمع وهْدة ، وهى الأرض المنخفضة .

فى الصورةِ والمعنى ، ولكنْ أين مَن يَتفطَّنُ لهذا السِّرِّ ؟ وأين مَن يَحُلُّ بهذا المَحَلِّ ؟ والمعنى[1] لا يُدرِكُه ويُحيطُ بعلمِه إلا كلُّ نبيهٍ نبيلٍ .

وقد أثنى اللهُ تعالى عليه ، ووصفَه بالحِلْمِ والصبرِ وصِدْقِ الوعدِ والمحافظةِ على الصلاةِ والأمرِ بها لأهلِه ؛ لِيَقيَهم العذابَ ، مع ما كان يدعُو إليه من عبادةِ ربِّ الأربابِ . قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠١ ، ١٠٢] . فطاوَع أباه على ما إليه دعاه ، ووعَده بأنْ سيَصبرُ ، فوفَّى بذلك وصبَر[2] . وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ، ٥٥] . وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ * وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [صٓ : ٤٥ - ٤٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ * وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ، ٨٦] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية . وقال تعالى : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] الآية . ونظيرتُها من

---

(١) فى الأصل : « والمغنى » ، وفى ا : « وهذا » .

(٢) بعده فى م ، ص : « على ذلك » .

السورةِ الأخرى . وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٠] الآية . فذكَر اللهُ عنه كلَّ صفةٍ جميلةٍ ، وجعَله نبيَّه ورسولَه ، وبرَّأه مِن كلِّ ما نَسَبَ إليه الجاهلون ، وأَمَرَ بأَنْ يُؤمِنَ بما أُنْزِل عليه عبادُه المؤمنون .

وذكَر علماءُ النَّسَبِ وأيامِ الناسِ أنه أولُ مَن رَكِب الخيلَ[1] ، وكانت قبلَ ذلكَ وُحُوشًا ، فأنَّسها ورَكِبها . وقد قال [١/١١٨و] سعيدُ بنُ يَحْيَى الأُمَوِيُّ [2]في « مَغَازِيه »[2] : حدثنا شيخٌ مِن قُرَيْشٍ ، حدثنا عبدُ الملكِ بنُ عبدِ العزيزِ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « اتَّخِذوا الخيلَ واغْتَبِقُوها[3] ؛ فإنها ميراثُ أبيكم إسماعيلَ » . وكانت هذه العِرَابُ وحشًا ، فدعا لها بدعوتِه التى كان أُعْطِى فأجابته . وأنه أولُ مَن تكلَّم بالعربيةِ الفصيحةِ البليغةِ ، وكان قد تعلَّمها مِن العربِ العاربةِ ، الذين نزلَوا عندهم بمكةَ مِن جُرْهُمٍ والعَماليقِ وأهلِ اليمنِ ، مِن الأممِ المتقدِّمين مِن العربِ قبلَ الخليلِ . قال الأُمَوِيُّ : حدثنى علىُّ بنُ المغيرةِ ، حدثنا أبو عبيدَةَ ، حدثنا مِسْمَعُ بنُ مالكٍ ، عن محمدِ بنِ علىِّ بنِ الحسينِ ، عن آبائه[4] ، عن النبىِّ ﷺ أنه قال : « أولُ مَن فَتَقَ[5] لسانَه بالعربيةِ البَيِّنةِ إسماعيلُ ، وهو ابنُ أربعَ عشْرةَ سنةً »[6] . فقال له يونُسُ :

---

(١) الأوائل لأبى هلال العسكرى ١٨٢/٢ . محاضرات الأوائل ٦٨ .

(٢ - ٢) فى الأصل : « حدثنا معاوية » .

(٣) فى م : « واعتبقوها » ، وفى ص : « وأعتقوها » وفى ا : « اعتنقوها » . واغْتَبِقُوها ؛ اشرَبوا لبَنَها المحلوبَ وقت المغرب . اللسان (غ ب ق) .

(٤) فى الأصل : « أمامة » .

(٥) فَتَق الكلامَ : قوَّمه . اللسان (ف ت ق) .

(٦) عزاه الحافظ ابن حجر للزبير بن بكار فى كتاب النسب من حديث على وحسن إسناده . الفتح ٤٠٣/٦ . كما عزاه العلامة المناوى فى فيض القدير إلى الطبرانى والديلمى من حديث ابن عباس وقال : وقال ابن حجر : وإسناده حسن . فيض القدير ٩٢/٣ ، ٩٣ . وقال الشيخ الألبانى : صحيح (صحيح الجامع ٢٥٧٨) .

صَدَقْتَ يا أبا يسارٍ[1] ، هكذا أبو جُرَىٍّ حدَّثنى .

وقد قدّمنا أنه تزوَّجَ لمّا شبَّ مِن العماليقِ امرأةً ، وأن أباه أمَرَه بفِراقِها ففارقَها . قال الأُمويُّ : وهى عمارةُ بنتُ سعدِ بنِ أسامةَ بنِ أُكيلَ العِمْلاقِ . ثم نكَح غيرَها ، فأمَره أن يستمرَّ بها ، فاستمر بها ، وهى السيدةُ بنتُ مُضاضِ ابنِ عمرٍو الجُرْهُمىّ[2] . وقيل : هذه ثالثةٌ . فولَدت له اثنَىْ عشَرَ ولدًا ذكرًا . وقد سمَّاهم محمدُ بنُ إسحاقَ[3] رحمه اللهُ ؛ وهم نابتٌ ، وقَيْذَرٌ[4] ، وأذبلُ[5] ، وميشى[6] ، ومِسْمَعٌ ، وماشٌ[7] ، ودُمَا[8] ، وأُدَرُ[9] ، ويَطُورُ[10] ، وبنشٌ[11] ، وطيما[12] ، وقَيْذُما[13] . وهكَذا ذكَرهم أهلُ الكتابِ فى كتابِهم[14] ، وعندَهم أنهم الاِثنا عشَرَ عظيمًا المبشَّرُ بهم المتقدِّمُ ذكرُهم ،

---

(١) فى ح ، م ، ص ، ا : « سيار » .

(٢) تاريخ الطبرى ٣١٤/١ . الكامل ١٢٥/١ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/١ ، ٥ . وانظر : تاريخ الطبرى ٣١٤/١ ، الكامل ١٢٥/١ ، طبقات ابن سعد ٥١/١ ، نهاية الأرب ٣٢٤/٢ .

(٤) فى ح ، م ، ص : « قيذر » وكذلك فى الطبقات وابن هشام . وفى الطبرى : « قيدر » ، وفى الكامل : « قيدار » ، وفى القاموس : « قيذار » .

(٥) فى الطبرى : « أربيل » ، وفى الكامل : « أذيل » ، وفى الطبقات : « أذبل » . وفى نهاية الأرب : « إديال » .

(٦) فى الطبرى والسيرة : « مبشا » ، وفى الكامل : « ميشا » ، وفى الطبقات : « منشى » ، وفى نهاية الأرب : « مبشام » .

(٧) فى السيرة والطبقات : « ماشى » ، وفى الطبرى : « ماس » ، وفى الكامل : « ماش » ، وفى نهاية الأرب : « مسا » .

(٨) فى الأصل : « درما » ، وفى م ، ص : « دوصا » ، وفى الكامل : « رما » ، والباقى : « دما » .

(٩) فى م ، ص : « أرر » ، وفى الطبرى : « أدد » وفى السيرة والكامل والطبقات : « أذر » .

(١٠) فى الطبرى : « وطور » ، وفى الكامل : « قطورا » .

(١١) فى الطبرى : « نفيس » ، وفى الكامل : « قافس » ، وفى الطبقات : « ينش » ، وفى نهاية الأرب : « نافيس » .

(١٢) فى الطبرى : « طما » ، وفى الكامل : « طميا » .

(١٣) فى الطبرى والكامل : « قيدمان » ، وفى السيرة والطبقات : « قيذما » .

(١٤) سفر التكوين الأصحاح ١٢/١٥ - ١٤ .

وكذَبوا فى تأويلِهم ذلك . وكان إسماعيلُ عليه السلامُ رسولًا إلى أهلِ تلك الناحيةِ وما والاها مِن قبائلِ جُرْهُمٍ والعماليقِ وأهلِ اليمنِ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه . ولما حضَرَتْه الوفاةُ أوصَى إلى أخيه إسحاقَ . وزوَّجَ ابنتَه نسمةَ مِن ابنِ أخيه العِيصِ بنِ إسحاقَ فولَدت له الرُّومَ ، ويُقالُ لهم : بنو الأصفرِ . لصُفْرَةٍ كانت فى العِيصِ . وولَدت له اليونانَ فى أحدِ الأقوالِ . ومِن ولدِ العِيصِ الأشبانُ . وقيل : منهما أيضًا . وتوقَّف ابنُ جَريرٍ رحمه اللهُ[1] .

ودُفِن إسماعيلُ نبيُّ اللهِ بالحِجْرِ مع أمِّه هاجَرَ ، وكان عمرُه يومَ مات مائةً وسبعًا وثلاثين سنةً . ورُوِى عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، أنَّه قال : شكَا إسماعيلُ عليه السلامُ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ حَرَّ مكةَ ، فأوحَى اللهُ إليه : إنِّى سأفتحُ لك بابًا إلى الجنةِ إلى الموضِعِ الذى تُدْفَنُ فيه ، تَجْرِى عليك رَوْحُها إلى يومِ القيامةِ[2] .

وعَرَبُ الحجازِ كلُّهم يَنتَسِبون إلى ولدَيْه نابتٍ وقَيْدارٍ . وسنتكلَّمُ على أحياءِ العربِ [١/١١٨ظ] وبطونِها وعمائرِها وقبائلِها وعشائرِها مِن لَدُنْ إسماعيلَ عليه السلامُ إلى زمانِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وذلك إذا انتهينا إلى أيامِه الشريفةِ وسِيرتِه المُنِيفَةِ ، بعدَ الفراغِ مِن أخبارِ أنبياءِ بنى إسرائيلَ [3]إلى زمانِ عيسى ابنِ مَرْيَمَ ، خاتَمِ أنبيائِهم ومحقِّقِ أنبائِهم ، ثم نذكرُ ما كان فى زمنِ بنى إسرائيلَ[3] ، ثم ما وقعَ فى أيامِ الجاهليةِ ، ثم يَنتهِى الكلامُ إلى سيرةِ نبيِّنا رسولِ اللهِ إلى العَربِ والعَجَمِ وسائرِ صنوفِ بنى آدمَ مِن الأممِ إن شاء اللهُ تعالى ، وبه الثِّقةُ وعليه التُّكلانُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العلىِّ العظيمِ العزيزِ الحكيمِ .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٣١٤ - ٣١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ١/٣١٤ ، ٣١٥ .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل .

ذكرُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، الكريمِ، ابنِ الكريمِ، عليهما الصلاةُ والتسليمُ

قد قدمنا أنه وُلِد ولأبيه مائةُ سنةٍ ، بعدَ أخيه إسماعيلَ بأربَعَ عشْرَةَ سنةً ، وكان عمُرُ أمِّه سارَّةَ حينَ بُشِّرَت به تسعين سنةً . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٢ ، ١١٣] . وقد ذكَره اللهُ تعالى بالثَّناء عليه فى غيرِ ما آيةٍ من كتابِه العزيزِ ، وقدَّمنا فى حديثِ أبى هُرَيرَةَ[١] ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أن الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ . وذكَر أهلُ الكتابِ[٢] أن إسحاقَ لمَّا تزوَّج رفقا بنتَ ثبوائيلَ[٣] فى حياةِ أبيه كان عمرُه أربعين سنةً ، وأنها كانت عاقرًا ، فدعا اللهَ لها فحمَلتْ ، فولَدتْ غلامَيْن توأَمَيْن ؛ أولُهما [٤]سمَّوْه عِيصُو ، وهو الذى[٤] تُسَمِّيه العربُ العِيصَ . وهو والدُ الرُّومِ[٥] ، والثانى خرَج وهو آخِذٌ بعَقِبِ أخيه ، فسمَّوْه يعقوبَ ، وهو إسرائيلُ الذى يَنتسِبُ إليه بنو إسرائيلَ . قالوا : وكان إسحاقُ يحبُّ العِيصَ أكثَرَ مِن يعقوبَ ؛ لأنه بِكْرُه ، وكانت أمُّهما[٦] رفقا

---

(١) المسند ٢/٣٣٢ . (إسناده صحيح) .

(٢) سفر التكوين الأصحاح ٢٥/٢٠ - ٢٤ . وانظر تاريخ الطبرى ١/٣١٧ - ٣٢١ .

(٣) فى م ، ص : « بتوائيل » ، وفى ا : « بثوائيل » ، وفى الطبرى ١/٣١٣ ، ٣١٧ : « بتويل » .

(٤ - ٤) فى الأصل : « سموه وهو » .

(٥) بعده فى الأصل : « الثانية » .

(٦) فى ح : « أمه » .

تحبُّ يعقوبَ أكثَرَ ؛ لأنّه الأصغرُ . قالوا : فلما كَبِرَ إسحاقُ وضَعُفَ بصرُه ، اشتهَى على ابنِه العِيصِ طعامًا ، وأمَره أن يَذهبَ فيَصطادَ له صيدًا ويَطبُخَه له ، ليُباركَ عليه ويَدعُوَ له ، وكان العِيصُ صاحبَ صيدٍ ، فذهَب يبتغِى ذلك ، فأمَرَت رفقا ابنَها يعقوبَ أن يَذبَحَ جَدْيَيْن مِن خِيارِ غنمِه ، ويَصنَعَ منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه ، ويأْتىَ إليه به قبلَ أخيه ؛ ليَدْعُوَ له ، وقامت[1] فألبسَتْه ثيابَ أخيه ، وجعَلَتْ على ذراعَيْه وعُنقِه مِن جلدِ الجَدْيَين ؛ لأن العِيصَ كان أشعرَ الجسدِ ، ويعقوبُ ليس كذلك ، فلما جاءه به وقرَّبه إليه ، قال : مَن أنت ؟ قال : ولَدُك . فضمَّه إليه وجَسَّه ، وجعَل يقولُ : أما الصوتُ فصوتُ يعقوبَ ، وأمّا الجَسُّ والثِّيابُ فالعِيصُ . فلما أكَلَ وفرَغ ، دعا له أن [١١٩/١و] يكونَ أكبرَ إخوتِه قدْرًا وكلمتُه عليهم وعلى الشعوبِ بعدَه ، وأن يَكثُرَ رزقُه وولدُه . فلما خرَج مِن عندِه جاء أخوه العِيصُ بما أمَره به والدُه يُقَرِّبُه إليه ، فقال له : ما هذا يا بُنىَّ ؟ قال : هذا الطعامُ الذى اشتهيتَه . فقال : أما جِئتَنى به قبلَ الساعةِ وأكَلتُ منه ودعوتُ لك ؟ فقال : لا واللهِ . وعرَف أن أخاه قد سبَقه إلى ذلك ، فوجَدَ فى نفسِه عليه وَجْدًا كثيرًا . وذكَروا أنه تواعَدَه بالقتلِ إذا مات أبوهما ، وسأل أباه فدعا له بدعوةٍ أخرى ، وأن يَجْعَلَ لذريتِه غليظَ الأرضِ ، وأنْ يُكْثِرَ أرزاقَهم وثمارَهم ، فلما سمِعَت أُمُّهما ما يَتواعَدُ به العِيصُ أخاه يعقوبَ ، أمرَتْ ابنَها يعقوبَ أن يَذهبَ إلى أخيها لابانَ ، الذى بأرضِ حَرَّانَ ، وأن يكونَ عندَه إلى حينِ يسكُنُ غضبُ أخيه عليه ، وأن يتزوَّجَ مِن بناتِه ، وقالت (٢لزوجِها إسحاقَ أن يأْمرَه بذلك ويوصِيَه ويدعوَ له ، ففعَل٢) ، فخرَج يعقوبُ عليه السلامُ مِن عندِهم آخرَ ذلك اليومِ ، فأدرَكه المساءُ فى موضعٍ فنام فيه ؛ أخذ حَجَرًا فوضَعه تحتَ رأسِه

---

(١) فى م ، ص : « فقامت » .

(٢ - ٢) فى الأصل : « لزوجة إسحاق أن تأمره بذلك وتوصيه وتدعو له » .

ونام ، فرأى فى نومِه ذلك مِعْرَاجًا منصوبًا من السماءِ إلى الأرض ، وإذا الملائكةُ يَصْعَدُون فيه وينزلون ، والربُّ تبارك وتعالى يُخاطبُه ويقولُ له : إنى سأبارِكُ عليك وأُكْثِرُ ذريتَك ، وأجعَلُ لك هذه الأرضَ ولعَقِبك مِن بعدِك . فلما هبَّ مِن نومِه فرِح بما رأى ، ونذَر للهِ لئن رجَع إلى أهلِه سالمًا ليَبْنِيَنَّ فى هذا الموضعِ مَعْبَدًا للهِ عز وجل ، وأنَّ جميعَ ما يُرزَقُه مِن شىءٍ يكونُ للهِ عُشرُه . ثم عَمَد إلى ذلك الحَجَرِ فجعَل عليه دُهْنًا ؛ يَتعرَّفُه به ، وسَمَّى ذلك المَوْضِعَ : بيتَ إيلَ . أى بيتَ اللهِ ، وهو موضعُ بيتِ المقدسِ اليومَ الذى بناه يعقوبُ بعدَ ذلك ، كما سيأتى . قالوا : فلما قَدِم يعقوبُ على خالِه أرضَ حَرَّانَ إذا له ابنتان ؛ اسمُ الكبرى ليا واسمُ الصغرى راحيلُ ، فخطَب إليه راحيلَ ، وكانت أَحسَنَهما وأَجمَلَهما ، فأجابه إلى ذلك بشرطِ أن يَرْعَى على غنمِه سَبْعَ سنين ، فلما مضَتِ المدةُ (١عَمِل خالُه لابانُ١) طعامًا وجَمعَ الناسَ عليه ، وزَفَّ إليه لَيْلًا ابنته الكبرى ليا ، وكانت ضعيفةَ العينين قبيحةَ المنظرِ ، فلما أصبَحَ يعقوبُ إذا هى ليا ، فقال لخالِه : لِمَ غدَرْتَ بى ، وأنت إنما خطَبْتُ إليك راحيلَ . فقال : إنه ليس مِن سُنَّتِنا أن نُزوِّجَ الصغرى قبلَ الكبرى ، فإن أحببتَ أختَها فاعمَلْ سبعَ سنين أخرى [١١٩/١ظ] وأُزوِّجُكَها . فعمِل سبْعَ سنين ، وأدخَلها عليه مع أختِها ، وكان ذلك سائغًا فى ملتِهم ثم نُسِخ فى شريعةِ التوراةِ . وهذا وحدَه دليلٌ كافٍ على وقوعِ النسخِ[٢] ؛ لأن فِعلَ يعقوبَ عليه السلامُ دليلٌ على جوازِ هذا وإباحتِه ؛ لأنه معصومٌ . ووهَب لابانُ لكلِّ واحدةٍ من ابنتَيْه جاريةً ؛

(١ - ١) فى م ، ص : « على خاله لابان صنع » .

(٢) كأن ابن كثير يرد دعوى أهل الكتاب فى امتناع وقوع النسخ فى الشرائع ، وبالتالى يقولون : لا يصح أن يدّعى النبى ﷺ أن القرآن نسخ التوراة والإنجيل . وانظر الفِصَل ١/١٠٠ - ١٠١ .

فوهَب لليا جاريةً اسمُها زلفا ، ووهَب لراحيلَ جاريةً اسمُها بلها ، وجبَر اللهُ تعالى ضَعْفَ ليا بأن وهَب لها أولادًا ، فكان أولَ مَن ولَدت ليعقوبَ روبيلُ ثم شمعونُ ثم لاوِى ثم يهوذا ، فغارت عندَ ذلك راحيلُ ، وكانت لا تَحْبَلُ ، فوهَبت ليعقوبَ جاريتَها بلها ، فوطِئها فحمَلتْ وولَدَتْ له غلامًا سمَّتْه دان ، وحملَت وولَدت غلامًا آخرَ سمَّتْه يفثالى[1] ، فعمَدت عندَ ذلك ليا فوهَبتْ جاريتَها زلفا مِن يعقوبَ عليه السّلامُ ، فولَدت له جادَ وأشيرَ ؛ غلامَيْن ذَكَرَيْن ، ثم حمَلت ليا أيضًا ، فولَدت غلامًا خامسًا منها وسمَّتْه أيساخرَ[2] ، ثم حمَلت وولَدت غلامًا سادسًا سمَّتْه زابلونَ ، ثم حمَلت وولَدت بنتًا سمَّتْها دينا[3] ، فصار لها سبعةٌ من يعقوبَ ، ثم دعَت اللهَ تعالى راحيلُ وسألَته أن يَهَبَ لها غلامًا من يعقوبَ ، فسمِع اللهُ نداءَها وأجاب دعاءَها ؛ فحمَلتْ مِن نبىِّ اللهِ يعقوبَ ، فولَدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا جميلًا سمَّتْه يوسفَ . كلُّ هذا وهم مقيمون بأرضِ حَرَّانَ ، وهو يَرْعَى على خالِه غَنَمَه بعدَ دخولِه على البنتين ستَّ سنين أخرى ، فصار مدةُ مُقامِه عشرين سنةً ، فطلَب يعقوبُ مِن خالِه لابانَ أن يُسرِّحَه ليمرَّ إلى أهلِه ، فقال له خالُه : إنِّى قد بُورِك لى بسببِك ، فسَلْنِى مِن مالى ما شئتَ . فقال : تُعطِينى كلَّ حَمَلٍ يُولَدُ مِن غَنَمِك هذه السنةَ أَبْقَعَ ، وكلَّ حَمَلٍ مُلْمِعٍ أبيضَ بسوادٍ ، وكلَّ أَمْلَحَ ببياضٍ ، وكلَّ أَجْلَحَ أبيضَ مِن المَعْزِ . فقال : نعمْ . فعَمَد بنوه ، فأبرَزوا مِن غنمِ أبيهم ما كان على هذه الصفاتِ مِن التُّيوسِ ؛ لِئَلَّا يُولَدَ شىءٌ مِن الحُمْلَانِ على هذه الصفاتِ ، وساروا بها مسيرةَ ثلاثةِ أيامٍ عن غنمِ أبيهم . قالوا : فعَمَدَ يعقوبُ

---

(1) فى م ، ص : « نيفتالى » ، وفى ا : « تقيالى » ، وفى الطبرى : « نفثالى » .

(2) فى تاريخ الطبرى : « يسحر » .

(3) فى تاريخ الطبرى : « دينة » .

عليه السلامُ إلى قُضْبانٍ رطْبةٍ بِيضٍ ، مِن لَوْزٍ ودُلْبٍ[1] ، فكان يُقشِّرُها بَلْقَاءَ[2] وبيضاءَ ، ويضعُها[3] فى مساقِى الغنمِ مِن المياهِ ؛ لينظُرَ الغنمُ إليها فتفزَعَ وتتحرَّكَ أولادُها فى بطونِها ، فتصيرَ ألوانُ حُمْلَانِها كذلك . وهذا يكونُ من بابِ خوارقِ العاداتِ ، ويَنتَظِمُ [١/١٢٠و] فى سِلْكِ المعجزاتِ . فصار ليعقوبَ عليه السلامُ أغنامٌ كثيرةٌ ودوابُّ وعبيدٌ ، وتغيَّر له وجهُ خالِه وبنيه ، وكأنَّهم انحصَروا منه[4] . وأوحَى اللهُ تعالى إلى يعقوبَ أن يرجِعَ إلى بلادِ أبيه وقومِه ، ووعَدَه بأن يكونَ معه ، فعرَض ذلك على أهلِه فأجابوهُ مبادِرين إلى طاعتِه ، فتحَمَّلَ بأهلِه ومالِه ، وسرقتْ راحيلُ أصنامَ أبيها ، فلمّا جاوزوا وتحيَّزوا عن بلادِهم ، لحِقَهم لابانُ وقومُه ، فلما اجتمَع[5] لابانُ بيعقوبَ عاتبه فى خروجِه بغيرِ [6]إذنِه و[6]علمِه ، وهلَّا أعْلَمه فيُخرِجَهم فى فرحٍ ومزامِرَ وطبولٍ ، وحتى يُودِّعَ بناتِه وأولادَهنَّ ، ولِمَ أخذوا أصنامَه معهم ، ولم يكنْ عندَ يعقوبَ علمٌ مِن أصنامِه ، فأنكَرَ أن يكونوا أخذوا له أصنامًا ، فدخَل بيوتَ بناتِه وإمَائِهن[7] يفتشُ ، فلم يجدْ شيئًا ، وكانت راحيلُ قد جعَلَتهن فى بَرْدَعةِ الجَمَلِ ، وهى تحتَها ، فلم تَقُمْ واعتذَرتْ بأنها طامِثٌ ، فلم يَقدِرْ عليهن ، فعندَ ذلك تواثَقُوا على رابيةٍ هناك يقالُ لها : جَلْعَادُ . على أنه لا يُهِينُ بناتِه

---

(١) فى م ، ص : « وولب » والدُّلْب : شجر يعظم ويتسع ، ولا نَوْر له ولا ثمر ، شبيه بورق الكَرْم . اللسان (د ل ب) .

(٢) البَلَق : سواد وبياض فى اللون . اللسان (ب ل ق) .

(٣) فى م ، ص : « ينصبها » .

(٤) حَصِر الرجل : لم يقدر على الكلام ، وضاق صدره . اللسان (ح ص ر) .

(٥) بعده فى الأصل : « بهم » .

(٦ - ٦) زيادة من : الأصل .

(٧) فى الأصل : « أمهاتهن » .

ولا يَتزوَّجُ عليهنَّ ، ولا يجاوزُ هذه الرابيةَ أحدُهما ذاهبًا إلى بلادِ الآخَرِ ، لا لابانُ ولا يعقوبُ ، وعمِلا طعامًا وأكَل القومُ معهم ، وتَودَّعَ كلٌّ منهما مِن الآخرِ ، وتفارَقُوا راجعين إلى بلادِهم ، فلما اقترَب يعقوبُ من أرضِ ساعِيرَ[1] تلقتْه الملائكةُ يبشِّرونه بالقُدُومِ ، وبعَث يعقوبُ البُرُدَ إلى أخيه العِيصِ يترقَّقُ له ويَتواضعُ له ، فرجَعت البُرُدُ وأخبَرت يعقوبَ بأن العِيصَ قد رَكِب إليك فى أربعِمائةِ راجلٍ ، فخَشِي يعقوبُ مِن ذلك ، ودعا اللهَ عز وجل وصَلَّى له ، وتضَرَّع إليه وتَمسكَنَ لديه ، وناشدَه عهدَه ووَعْدَه الذى وعَده به ، وسأله أن يكُفَّ عنه شرَّ أخيه العِيصِ ، وأعَدَّ لأخيه هديةً عظيمةً ؛ وهى مائتا شاةٍ وعشرون تَيْسًا ، ومائتا نَعجةٍ وعشرون كَبْشًا ، وثلاثون لِقْحةً[2] ، وأربعون بقرةً وعشَرةٌ من الثِّيرانِ ، وعشرون أَتانًا وعشرةٌ من الحُمُرِ ، وأمَر عبيدَه أن يسوقوا كُلًّا من هذه الأصنافِ وحدَه ، ولْيكُنْ بينَ كلِّ قَطِيعٍ وقَطيعٍ مسافةٌ ، فإذا لَقِيَهم العِيصُ فقال للأولِ : لِمَنْ[3] أنت ؟ ولِمَن هذه معك ؟ فليَقُلْ : لعبدِك يعقوبَ ، أهداها لسيدى العِيصِ . ولْيَقُلِ الذى بعده كذلك ، وكذا الذى بعدَه ، (4وكذا الذى بعده4) ، ويقولُ كلٌّ منهم : وهو جاءٍ بعدَنا . وتأخَّر يعقوبُ بزوجَتَيْه وأَمَتَيْه (5وبَنِيه الأحدَ عشَرَ5) ، بعدَ الكلِّ بليلتين ، وجعَل يسيرُ فيهما ليلًا ويَكْمُنُ نهارًا ، فلما كان وقتُ الفجرِ [١/١٢٠ظ] من الليلةِ الثانيةِ تبدَّى له مَلَكٌ من الملائكةِ فى صورةِ رَجُلٍ ، فظنَّه

---

(١) ساعيرُ : اسم لجبال فلسطين فى التوراة . معجم البلدان ٣/١١ .

(٢) اللقحة : الناقة من حين يسمن سَنام ولدها حتى يمضى لها سبعة أشهر . اللسان (ل ق ح) .

(٣) فى م ، ص : « من » .

(٤ - ٤) زيادة من : الأصل .

(٥ - ٥) فى الأصل : « وبنتيه » .

يعقوبُ رجلًا مِن الناسِ ، فأتاه ليُصارِعَه ويُغالبَه ، فظهَر عليه يعقوبُ فيما يُرَى ، إلا أن المَلَكَ أصاب وَرِكَه ، فعَرَجَ يعقوبُ ، فلما أضاء الفجرُ قال له المَلَكُ : ما اسمُك ؟ قال : يعقوبُ . قال : لا ينبغى أن تُدعَى بعدَ اليومِ إلا إسرائيلُ . فقال له يعقوبُ : ومَن أنت ؟ وما اسمُك ؟ فذهَب عنه ، فعَلِم أنه مَلَكٌ من الملائكةِ ، وأصبَح يعقوبُ وهو يَعْرُجُ من رِجْلِه . فلذلك لا يأكُلُ بنو إسرائيلَ عِرْقَ النَّسَا[1] . ورفَع يعقوبُ عينَيْه فإذا أخوه عِيصُ قد أَقبَلَ فى أربعِمائةِ راجلٍ ، فتقدَّم أمامَ أهلِه ، فلما رأى أخاه العِيصَ سجَد له سبعَ مرَّاتٍ ، وكانت هذه تحيتَهم فى ذلك الزمانِ ، وكان مشروعًا لهم ، كما سجَدت الملائكةُ لآدَمَ تحيةً له وكما سجَد إخوةُ يوسُفَ وأبواه له ، كما سيأتى ، فلما رآه العِيصُ تَقَدَّمَ إليه واحتَضَنه وقبَّله وبكَى ، ورفَع العِيصُ عينيه ونظَر إلى النساءِ والصبيانِ ، فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهَب اللهُ لعبدِك . فدنَتْ الأَمَتَان وبنوهما فسجَدوا له ، ودنَت ليا وبنوها فسجدوا له ، ودنَت راحيلُ وابنُها يوسفُ (2آخِرًا فسجَدا2) له ، وعرَض عليه أَنْ يَقبَلَ هديتَه وأَلَحَّ عليه ، فقَبِلَها ، ورجَع العِيصُ فتقدَّم أمامَه ، ولَحِقَه يعقوبُ بأهلِه وما معه من الأنعامِ والمواشى والعبيدِ قاصِدِين جبالَ ساعِيرَ ، فلما مر بساحورا ابتَنَى له بيتًا ولدَوَابِّه ظِلالًا ، ثم مرَّ على أورشليمَ[3] قريةِ سحيمٍ[4] ، فنزَل قِبَلَ القريةِ ، واشتَرى مزرعةَ (5بنى حمورٍ أبى سحيمٍ5) بمائةِ نَعْجةٍ ، فضرَب هنالك فُسطاطَه ، وابتَنى ثَمَّ مذبَحًا ، فسمَّاه إيلَ إلهَ إسرائيلَ ، وأمره اللهُ ببنائِه ليَستعلِنَ

---

(1) النَّسَا : عصب يمتد من الوَرِك إلى الكعب . الوسيط ٩٥٦/٢ .

(٢ - ٢) فى م ، ص : « فخرًا سجدًا » .

(٣) فى الأصل : « ساليم » ، وفى ا : « شاليم » .

(٤) فى م ، ص : « شخيم » . وكذلك فى المواضع الآتية كلها .

(٥ - ٥) فى م ، ص : « شخيم بن جمور » .

فيه[1] ، [١/١٢١و] وهو بيتُ المَقْدِسِ اليومَ ، الذى جدَّده بعدَ ذلك سليمانُ ابنُ داودَ عليهما السلامُ ، وهو مكانُ الصخرةِ التى أَعْلَمَها بوضعِ[2] الدُّهْنِ عليها قبلَ ذلك ، كما ذكَرنا أولًا[3] .

(٤)وذكَر أهلُ الكتابِ[5] هنا قصةَ دينا بنتِ يعقوبَ ، مِن ليا ، وما كان مِن أمرِها[6] مع سحيمِ بنِ حمورٍ ، (٧)الذى قهَرها(٧) على نفسِها وأدخلَها منزلَه ، ثم خطَبها من[8] أبيها وإخوتِها ، فقال إخوتُها : لا نفعلُ إلا أن تَخْتَتِنُوا كلُّكم ، فنُصاهرَكم وتُصاهرونا ، فإنّا لا نُصاهِرُ قومًا غُلْفًا . فأجابوهم إلى ذلك واختَتَنوا كلُّهم ، فلمّا كان اليومُ الثالثُ ، واشتَدَّ وجَعُهم مِن ألمِ الخِتانِ ، مال عليهم بنو يعقوبَ فقتلوهم عن آخرِهم ، وقتلوا سحيمًا وأباه حمورًا ؛ لقبيحِ ما صنعوا إليهم ، مضافًا إلى كفرِهم ، وما كانوا يعبدونه مِن أصنامِهم ، فلهذا قتَلهم بنو يعقوبَ ، وأخَذوا أموالَهم غنيمةً . واللهُ أعلمُ(٤) .

ثم حمَلت راحيلُ فولَدتْ غلامًا ، وهو بنيامينُ ، إلَّا أنها جَهَدَت فى طَلْقِها به جَهْدًا شديدًا وماتت عَقِيبَه ، فدفَنها يعقوبُ فى أفراثٍ ، وهى بيتُ لَحْمٍ ، وصنَع يعقوبُ على قبرِها حَجرًا ، وهى الحجارةُ المعروفةُ بقبرِ راحيلَ إلى اليومِ .

---

(١) يستعلن فيه : يجهر فيه بدينه . اللسان (ع ل ن) .
(٢) فى الأصل : « موضع » .
(٣) وانظر سفر التكوين الأصحاح ٢٥ - ٣٥ .
(٤ - ٤) سقط من : الأصل ، ح .
(٥) سفر التكوين الأصحاح ٣٤ .
(٦) فى الأصل : « أمره » .
(٧ - ٧) فى الأصل : « التى قررها » .
(٨) فى م ، ص : « عن » .

وكان أولادُ يعقوبَ الذُّكورُ اثْنَىْ عشَرَ رجلًا ، فمِن ليا ؛ روبيلُ ، وشمعونُ ، ولاوِى ، ويهوذا ، وأيساخرُ ، وزابلونُ . ومِن راحيلَ ؛ يوسفُ ، وبنيامينُ . ومِن أَمَةِ راحيلَ ؛ دانُ ، ونفثالى . ومن أَمَةِ ليا ؛ جادُ ، وأَشيرُ ، عليهم السلامُ . وجاء يعقوبُ إلى أبيه إسحاقَ ، فأقام عندَه بقريةِ حبرونَ التى فى أرضِ كَنْعَانَ حيث كان يسكُنُ إبراهيمُ ، ثم مَرِض إسحاقُ وماتَ عن مائةٍ وثمانين سنةً ، ودفنَه ابناه العِيصُ ويعْقوبُ مع أبيه إبراهيمَ الخليلِ ، فى المغارةِ التى اشتراها كما قدَّمنا[1] . واللهُ سبحانه أعلمُ بذلك .

---

(١) تاريخ الطبرى ١/ ٣٣٠ . وفيه أن عمر إسحاق عند وفاته مائة وستون سنة . وانظر سفر التكوين الأصحاح ١٦/٣٥ - ٢٩ .

ذكرُ ما وقع من الأمورِ العجيبةِ في حياةِ إسرائيلَ عليه السلامُ، فمِن ذلك قصةُ يوسفَ بنِ راحيلَ

وقد أنزَل اللهُ عز وجل فى شأنِه وما كان مِن أمرِه سورةً من القرآنِ العظيمِ ، ليُتَدبَّرَ ما فيها مِن الحكمِ والمواعظِ والآدابِ والأمرِ الحكيمِ . أعوذُ باللهِ مِن الشيطانِ الرجيمِ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ١ - ٣] . قد تكلَّمنا على الحروفِ المقطَّعةِ فى أولِ تفسيرِ سورةِ « البقرة » فمَن أراد تحقيقَه فلْينظُرْه ثَمَّ[1] ، وتكلمنا على هذه السورةِ مستقصًى فى موضعِها مِن « التفسيرِ »[2] ، ونحن نذكُرُ ههنا نُبَذًا مما هناك على وجهِ الإيجازِ والنَّجازِ .

وجملةُ القولِ فى هذا المَقامِ ، أنه تعالى يَمدَحُ كتابَه العظيمَ ، الذى أنزَله على عبدِه ورسولِه الكريمِ ، بلسانٍ عربىٍّ فصيحٍ بيِّنٍ واضحٍ جَلِىٍّ ، يفهمُه كلُّ عاقلٍ ذكىٍّ زكىٍّ ، فهو أشرَفُ كتابٍ نزَل من السماءِ ، أنزَله أشرفُ الملائكةِ على أشرفِ الخلقِ ، فى أشرفِ زمانٍ ومكانٍ ، بأفصحِ لغةٍ وأظهرِ بيانٍ ، فإن كان السِّياقُ فى الأخبارِ الماضيةِ أو الآتيةِ ، ذكَر أحسنَها وأبيَنَها ، وأظهَرَ الحقَّ مِمّا اختلَف الناسُ فيه ، ودمَغ [١٢١/١ظ] الباطلَ وزيَّفه وردَّه ، وإن كان فى الأوامرِ والنَّواهِى ، فأعْدَلُ الشرائعِ وأوضحُ المناهجِ ، وأبْيَنُ حُكْمًا

---

(١) التفسير ٥٦/١ - ٦٠ .

(٢) التفسير ٢٩٤/٤ .

وأعدلُ حكمًا ، فهو كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] . يعنى صِدْقًا فى الأخبارِ عدلًا فى الأوامرِ والنواهِى . ولهذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ . أى ؛ بالنسبةِ إلى ما أُوحِىَ إليك فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ [طه : ٩٩ - ١٠١] . يعنى مَن أعرَضَ عن هذا القرآنِ واتَّبَعَ غيرَه من الكتبِ ، فإنه ينالُه هذا الوعيدُ ، كما قال فى الحديثِ المروىِّ فى « المُسنَدِ » و « التِّرمذىِّ »[1] ، عن أميرِ المؤمنين علىٍّ ، مرفوعًا وموقوفًا : « مَن ابتغَى الهُدَى فى غيرِه أضلَّه اللهُ » . وقال الإمامُ أحمدُ[2] : حدثنا سُرَيْجُ ابنُ النعمانِ ، حدثنا هُشَيْمٌ[3] ، أنبأنا مُجالدٌ[4] ، عن الشَّعْبىِّ ، عن جابرٍ ، أن عمرَ بنَ الخطابِ أتى النبىَّ ﷺ بكتابٍ أصابَه من بعضِ أهلِ الكتابِ ، فقرَأه

---

(١) المسند ٩١/١ مرفوعًا (إسناده ضعيف جدًّا) ، الترمذى (٢٩٠٦) مرفوعًا ، وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفى حديث الحارث مقال (ضعيف الترمذى ٥٥٤) . وانظر الكلام عليه فى تخريج شرح العقيدة الطحاوية ١٠/١ .

(٢) المسند ٣٨٧/٣ ، قال فى المجمع ١٧٤/١ : وفيه مجالد بن سعيد ، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما .

(٣) فى الأصل : « هاشم » ، وفى م ، ص : « هشام » .

(٤) فى م ، ص : « خالد » .

(١على النبىّ١) ﷺ ، فغَضِب وقال : « أمُتَهَوِّكُون(٢) فيها يا ابنَ الخطابِ ؟ والذى نفسِى بيدِه ، لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيةً ، لا تسألوهم عن شىءٍ ، فيخبروكم بحقٍّ فتُكذِّبوا به ، أو بباطلٍ فتُصدِّقوا به ، والذى نفسى بيده ، لو أنَّ موسَى كان حيًّا ما وَسِعَه إلا أنْ يَتَّبِعَنى » . إسنادٌ صحيحٌ . ورواه(٣) مِن وجهٍ آخرَ ، عن عُمَرَ وفيه : فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « والذى نفسِى بيدِه ، لو أصبَح فيكم موسى ثم اتَّبعتُموه وتركتمونى لضَلَلتُم ، إنَّكم حظِّى مِن الأممِ وأنا حظُّكم مِن النَّبيِّين » . وقد أوردتُ طرقَ هذا الحديثِ وألفاظَه فى أولِ سورةِ « يوسف »(٤) وفى بعضِها أن رسولَ اللهِ ﷺ خطَب الناسَ ، فقال فى خُطبتِه : « أيها الناسُ ، إنِّى قد أُوتيتُ جوامِعَ الكَلِمِ وخواتِيمَه واختُصِرَ لِىَ اختصارًا ، ولقد أَتيْتُكم بها بيضاءَ نَقِيَّةً ، فلا تَتهوَّكوا ولا يَغُرَّنَّكم المُتَهَوِّكون » . ثم أَمَر بتلك الصحيفةِ ، فمُحِيَت حرفًا حرفًا .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ * قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ [١٢٢/١و] فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٤ - ٦] . (٥قد قدمنا أن يعقوبَ كان له من البَنِينَ اثنا عشَرَ ولدًا ذكَرًا وسَمَّيْناهم ، وإليهم يَنتسِبُ أسباطُ بنى إسرائيلَ كلُّهم ، وكان أشرفُهم وأَجَلُّهم٥)

(١ - ١) فى المسند : « النبى » .

(٢) المتهوِّكُ : الذى يقع فى الأمر بغير رويَّةٍ . النهاية ٥/٢٨٢ .

(٣) المسند ٣/٤٧٠ ، ٤٧١ . قال فى المجمع ١/١٧٣ : ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابرا الجعفى وهو ضعيف .

(٤) انظر التفسير ٤/٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٥ - ٥) سقط من : ح .

(١)وأعظمُهم يوسفَ عليه السلامُ . وقد ذهَب طائفةٌ مِن العلماءِ إلى أنه لم يَكُنْ فيهم نبيٌّ غيرُه وباقِي إخوتِه لم يُوحَ إليهم . وظاهِرُ ما ذُكِر من فَعالِهم ومَقالِهم فى هذه القصةِ يدلُّ على هذا القولِ . ومَن استدَلَّ على نبوتِهم بقولِه : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] . وزعَم أن هؤلاء هم الأسباطُ ، فليس استدلالُه بقويٍّ ؛ لأن المرادَ بالأسباطِ شعوبُ بنى إسرائيلَ ، وما كان يُوجَدُ فيهم مِن الأنبياءِ الذين ينزلُ عليهم الوحْىُ مِن السماءِ ، واللهُ أعلمُ . ومما يؤيدُ أن يوسُفَ عليه السلامُ هو المختَصُّ من بينِ إخوتِه بالرسالةِ والنبوةِ ، أنه نَصَّ على (٢)نبوتِه والإيحاءِ إليه فى غيرِ ما آيةٍ من كتابِه العزيزِ ، ولم يَنُصَّ على(٢) واحدٍ مِن إخوتِه سواه ، فدلَّ على ما ذكرناه . ويُستأنَسُ لهذا بما قال الإمامُ أحمدُ(٣) : حدثنا عبدُ الصمدِ ، حدثنا عبدُ الرحمنِ بنُ(٤) عبدِ اللهِ بنِ دينارٍ ، عن أبيه ، عن ابنِ عُمَرَ ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ » . انفرَد به البخاريُّ(٥) ، ورواه عن عبدِ اللهِ بنِ محمدٍ (٦)وعَبْدَةَ ، عن(٦) عبدِ الصَّمدِ بنِ عبدِ الوارثِ ، به . وقد ذكرنا طُرُقَه فى قصةِ إبراهيمَ بما أغنَى عن إعادتِه ههنا ، وللهِ الحمدُ والمِنَّةُ(١) .

(١ - ١) سقط من : ح .

(٢ - ٢) زيادة من : الأصل .

(٣) المسند ٢/٩٦ . (إسناده صحيح) .

(٤) فى م ، ص : « عن » .

(٥) البخارى (٣٣٩٠ ، ٤٦٨٨) .

(٦ - ٦) فى الأصل : « بن » .

قال المفسرون وغيرُهم[1] : رأى يوسُفُ عليه السلامُ وهو صغيرٌ قبلَ أَنْ يَحتلِمَ ، كأنَّ ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ وهم إشارةٌ إلى بقيةِ إخوتِه ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ وهما عبارةٌ عن أَبَوَيْه ، قد سجَدوا له ، فهَالَه ذلك ، فلما استيقظ قصَّها على أبيه ، فعرَف أبوه أنه سيَنالُ منزلةً عاليةً ورِفْعةً عظيمةً فى الدنيا والآخرةِ ، بحيث يَخضَعُ له أَبَوَاه وإخوتُه فيها ، فأمَره بكِتمانِها وأن لا يَقُصَّها على إخوتِه ؛ كيلا يَحسُدُوه ويَبْغُوا له الغَوائِلَ ويَكِيدُوه بأنواعِ الحِيَلِ والمكرِ . وهذا يدُلُّ على ما ذكرناه[2] ، ولهذا جاء فى بعضِ الآثارِ[3] : « استعينوا على قضاءِ حوائِجِكم بكِتْمانِها ؛ فإنَّ كلَّ ذِى نِعمةٍ محسودٌ » . وعندَ أهلِ الكتابِ ، أنه قصَّها على أبيه وإخوتِه معًا . وهو غَلَطٌ منهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أى ؛ وكما [١/١٢٢ظ] أراك هذه الرؤيا العظيمةَ فإذا كتَمْتَها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أى ؛ يَخُصُّك بأنواعِ اللُّطْفِ والرحمةِ ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أى ؛ يُفَهِّمُك مِن معانى الكلامِ وتعبيرِ المَنامِ ما لا يَفْهَمُه غيرُك ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى ؛ بالوحىِ إليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ أى ؛ بسببك ، ويَحصُلُ لهم بك خيرُ الدنيا والآخرةِ ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ أى ؛ يُنعِمُ عليكَ ويُحسِنُ إليك بالنبوةِ كما أعطاها أباك يعقوبَ وجَدَّك إسحاقَ ووالدَ جَدِّك إبراهيمَ الخليلَ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . ولهذا قال رسولُ اللهِ ﷺ لمَّا سُئِل : أىُّ الناسِ أَكْرَمُ ؟ قال : « يوسفُ نبىُّ اللهِ ابنُ

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٢/١٥١ .

(٢) يعنى أنه لم يكن فيهم نبى غيره .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير (١٨٣) ، والأوسط (٢٤٧٦) ، والصغير (٤٠٨) . من حديث معاذ . والسهمى فى تاريخ جرجان ص ١٨٢ . من حديث أبى هريرة . وانظر السلسلة الصحيحة (١٤٥٣) .

نبيٍّ اللهِ ابنِ نبيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ »[1] . وقد روَى ابنُ جَريرٍ[2] وابنُ أبى حاتمٍ فى « تفسيرَيْهما » ، وأبو يَعْلَى والبزَّارُ فى « مُسْنَدَيْهما » ، مِن حديثِ الحَكَمِ بنِ ظُهَيْرٍ - وقد ضعَّفه الأئمةُ - عن السُّدِّىِّ ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ سابِطٍ ، عن جابرٍ قال : أتى النبىَّ ﷺ رجلٌ من اليهودِ يقالُ له : بستانةُ[3] اليهودىُّ . فقال : يا محمدُ ، أَخْبِرْنى عن الكواكبِ التى رآها يوسفُ أنها ساجدةٌ له ؛ ما أسماؤُها ؟ قال : فسكَت النبىُّ ﷺ فلم يُجِبْه بشىءٍ ، ونزَل جبريلُ عليه السلامُ بأسمائِها . قال : فبعَث إليه رسولُ اللهِ ، فقال : « هل أنت مُؤْمِنٌ إنْ أخبرتُك بأسمائِها ؟ » . قال : نعم . فقال : « هى جربانُ ، والطارقُ ، والذيالُ ، وذو الكنفاتِ[4] ، وقابسُ ، ووثابُ ، وعمودانُ[5] ، والفيلقُ[6] ، والمصبحُ ، والصروحُ ، وذو الفرعِ ، والضياءُ ، والنورُ » . فقال اليهودىُّ : إِى واللهِ ، إنَّها لأسماؤُها . وعندَ أبى يَعْلَى[7] : فلمّا قصَّها على أبيه ، قال : هذا أمرٌ مشتَّتٌ يَجمَعُه اللهُ ، والشمسُ أبوه والقمرُ أمُّه .

---

(1) البخارى (٣٣٧٤) ، مسلم (٢٣٧٨) .

(2) تفسير الطبرى ١٥١/١٢ ، كشف الأستار (٢٢٢٠) ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٣٩/٧ : رواه البزار ، وفيه الحكم بن ظهير وهو متروك . ورواه العقيلى فى الضعفاء ٢٥٩/١ ، وقال : لا يصح . ورواه ابن حبان فى المجروحين ٢٥٠/١ ، ٢٥١ عن أبى يعلى ، وقال : وهذا لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ .

(3) فى كشف الأستار : « بسنان » .

(4) فى م ، ص : « الكتفان » ، وفى تفسير الطبرى : « الكتفين » .

(5) فى الأصل : « عمروان » ، وفى م ، ص : « عمردان » .

(6) فى الأصل : « الفليق » .

(7) لم نجده فى مسنده .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧ - ١٠] . ينبِّهُ تعالى على ما فى هذه القصةِ مِن الآياتِ والحِكَمِ والدِّلالاتِ والمواعظِ والبيناتِ . ثم ذكَر حسدَ إخوةِ يوسفَ له على محبَّةِ أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقَه لأمِّه بنيامينَ - أكثرَ منهم وهم عُصْبةٌ ؛ أى جماعةٌ . يقولون : فكنَّا نحن أحقَّ بالمحبةِ مِن هذَيْن ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أى بتقديمِه حبَّهما علينا . ثم اشتَوَرُوا [١٢٣/١و] فيما بينَهم فى قتلِ يوسفَ أو إبعادِه إلى أرضٍ لا يَرجِعُ منها ، ليَخلوَ لهم وجهُ أبيهم ؛ أى لتَتمحَّضَ محبتُه لهم وتَتوفَّرَ عليهم ، وأضْمَروا التوبةَ بعدَ ذلك . فلمّا تمالَأُوا على ذلك وتوافَقُوا عليه ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قال مُجاهدٌ[1] : هو شمعونُ . وقال السُّدِّىُّ[2] : هو يَهوذَا . وقال قتادةُ ومحمدُ بنُ إسحاقَ[1] : هو أكبرُهم روبيلُ . ﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أى المارَّةُ من المسافرين ﴿ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ ما تقولون لا محالةَ فلْيكُنْ هذا الذى أقولُه لكم ، فهو أقربُ حالًا مِن قَتْلِه أو نَفْيِه وتغريبِه . فأجمَعوا رأيَهم على هذا ، فعندَ ذلك ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَـٰصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ * قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ * قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ [يوسف : ١١ - ١٤] . طلبوا مِن أبيهم أنْ

---

(١) تفسير الطبرى ١٥٦/١٢ .

(٢) تفسير الطبرى ١٦٠/١٢ .

يُرسِلَ معهم أخاهم يوسفَ ، وأظهَروا له أنهم يريدون أن يَرْعَى معهم ، وأَنْ يلعبَ وينبَسِطَ ، وقد أضمَروا له ما اللهُ به عليمٌ ، فأجابهم الشيخُ عليه مِن اللهِ أفضلُ الصلاةِ والتسليمِ : يا بَنِيَّ ، يَشُقُّ علَيَّ أن أفارقَه ساعةً من النهارِ ، ومع هذا أَخْشَى أن تشتَغِلوا فى لَعِبِكم وما أنتم فيه فيأتِىَ الذئبُ فيأكُلَه ، ولا يَقدِرُ على دفعِه عنه ؛ لصِغَرِه وغفلتِكم عنه . ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ أى لئن عدَا عليه الذئبُ فأكَله مِن بيننا ، أوِ اشتغَلنا عنه حتى وقَع هذا ونحن جماعةٌ ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ أى ؛ عاجِزون هالِكون . وعندَ أهلِ الكتابِ أنه أرسَله وراءَهم يَتْبَعُهم ، فضَلَّ عن الطريقِ حتى أرشدَه رجلٌ إليهم . وهذا أيضًا مِن غَلَطِهم وخَطَئِهم فى التَّعريبِ ؛ فإن يعقوبَ عليه السلامُ كان أحرَصَ عليه مِن أنْ يَبعثَه معهم ، فكيف يبعثُه وحدَه ؟!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَآءُوٓاْ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ * وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٥ - ١٨] . لم يزالوا بأبيهم حتى بعثَه معهم ، فما كان إلا أن غابُوا عن عينِه ، فجعلوا يَشتُمونه ويُهِينونه بالفَعالِ والمَقالِ ، وأجمَعُوا [١/١٢٣ظ] على إلقائِه فى غَيَابَةِ الجُبِّ ؛ أى فى قَعْرِه ، على راعُوفَتِه - وهى الصخرةُ التى تكونُ فى وسطِه يقفُ عليها المائحُ ؛ وهو الذى يَنزِلُ ليَملأَ الدِّلاءَ إذا قلَّ الماءُ ، والذى يرفعُها بالحبلِ يُسمَّى الماتِحَ[1] - فلما ألقَوْه فيه أوحَى اللهُ إليه أنه لا بُدَّ لك مِن فَرَجٍ

---

(١) فى الأصل : « المائح » .

ومَخْلَصٍ ومَخرَجٍ مِن هذه الشِّدَّةِ التى أنت فيها ، ولَتُخبِرَنَّ إخوتَك بصَنيعِهم هذا ، فى حالٍ أنت فيها عزيزٌ وهم محتاجون إليك خائفون منك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال مُجاهدٌ وقَتادةُ[1] : وهم لا يشعرون بإيحاءِ اللهِ إليه ذلك .

وعن ابنِ عباسٍ : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى ؛ لَتُخبِرَنَّهم بأمرِهم هذا فى حالٍ لا يعرفونك فيها . رواه ابنُ جريرٍ[2] عنه ، فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه أخذوا قميصَه فلطَّخُوه بشىءٍ مِن دمٍ ، ورجعوا إلى أبيهم عِشاءً وهم يبكون ؛ أى على أخيهم . ولهذا قال بعضُ السلفِ : لا يَغُرَّنَّك بكاءُ المتظلِّمِ ، فرُبَّ ظالمٍ وهو باكٍ . وذكَر بكاءَ إخوةِ يوسفَ . وقد جاءوا أباهم عِشاءً يبكون ، أى ؛ فى ظُلمةِ الليلِ ليَكونَ أمْشَى لغَدْرِهم لا لعُذْرِهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ أى ؛ ثيابِنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ أى ؛ فى غَيْبتِنا عنه فى استباقِنا . وقولُهم : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أى ؛ وما أنت بمصدِّقٍ لنا فى الذى أخبرناك مِن[3] أكْلِ الذِّئبِ له ، ولو كنَّا غيرَ متَّهَمين عندَك ، فكيف وأنت تتَّهِمُنا فى هذا ؟ فإنك خشيتَ أنْ يأكُله الذئبُ وضَمِنَّا لك أن لا يَأكُلَه لكثرتِنا حولَه ، فصِرْنا غيرَ مُصَدَّقِين عندَك ، فمعذورٌ أنت فى عدمِ تصديقِك لنا والحالةُ هذه ﴿ وَجَآءُواْ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى مكذوبٍ مفتعَلٍ . لأنهم عَمَدوا إلى سَخْلَةٍ[4] ذبَحوها فأخذوا من دمِها فوضعوه على قميصِه ؛ ليُوهِموا أنه أكَله الذئبُ[5] . قالوا : ونَسَوْا أن يُخَرِّقوه . وآفةُ الكذبِ النِّسيانُ . ولما ظهَرت عليهم علائمُ الرِّيبةِ لم يَرُجْ

---

(١) تفسير الطبرى ١٢/١٦١ .

(٢) تاريخ الطبرى ١/٣٣٣ .

(٣) فى الأصل ، ص : « فى » .

(٤) السَّخْلَةُ : ولدُ الشاة . القاموس (س خ ل) .

(٥) تفسير الطبرى ١٢/١٦٣ .

صنيعُهم على أبيهم ؛ فإنه كان يَفهَمُ عداوتَهم له وحسَدَهم إياه على محبتِه له مِن بينِهم أكثرَ منهم ، لِما كان يَتوسَّمُ فيه مِن الجلالةِ والمهابةِ التى كانت عليه فى صِغَرِه ، لِما يريدُ اللهُ أنْ يَخُصَّه به مِن نبوتِه ، ولمَّا راودُوه عن أخذِه ، فبمجرَّدِ ما أخذوه أعدَموه وغيَّبوه عن عينِه ، وجاءُوا وهم يتباكون وعلى ما تمالأوا عليه يتواطَئُون ؛ ولهذا ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . وعندَ أهلِ الكتابِ[١] أن روبيلَ أشار بوَضْعِه فى الجُبِّ ؛ ليَأخذَه مِن حيثُ لا يشعرون ويَرُدَّه إلى أبيه ، فغافَلُوه وباعُوه لتلك القافلةِ ، [١٢٤/١و] فلما جاء روبيلُ مِن آخرِ النهَارِ ليُخرِجَ يوسفَ لم يَجِدْه ، فصاح وشقَّ ثيابَه وحَزِن[٢] ، وعَمَد أولئك إلى جَدْيٍ فذبَحوه ولطَّخُوا مِن دمِه جُبَّةَ يوسفَ ، فلما عَلِم يعقوبُ شقَّ ثيابَه ولَبِس مِئْزَرًا أسودَ وحزِن على ابنِه أيامًا كثيرةً . وهذه الرَّكاكةُ جاءت مِن خطئِهم فى التعبيرِ والتصويرِ .

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۢ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٩ - ٢٢] . يخبرُ تعالى عن قصةِ يوسفَ حينَ وُضِع فى الجُبِّ ، أنه جلَس ينتظِرُ فرَجَ اللهِ ولطفَه به ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى ؛ مسافرون . قال أهلُ الكتابِ : كانت بضاعتُهم من الفُسْتُقِ والصَّنَوْبَرِ والبُطْمِ ، قاصدين ديارَ مصرَ

---

(١) وقصة يوسف عليه السلام وردت فى سفر التكوين الأصحاح (٣٧ - ٥٠) .
(٢) زيادة من : الأصل .

من الشامِ ، فأرسلوا بعضَهم ليَستَقُوا مِن ذلك البئرِ ، فلما أَدْلَى أحدُهم دَلْوَه تعلَّق فيه يوسفُ ، فلما رآه ذلك الرجلُ ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ ﴾ أى ؛ يا بِشارتِى ﴿ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ أى ؛ أوهَموا أنَّ معهم غلامًا مِن جُملةِ مَتْجَرِهم . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ؛ هو عالِمٌ بما تمالأ عليه إخوتُه ، وبما يُسِرُّه واجدُوه مِن أنه بضاعةٌ لهم ، ومع هذا لا يُغيِّرُه تعالى ؛ لِمَا له فى ذلك من الحكمةِ العظيمةِ والقَدَرِ السابقِ والرحمةِ بأرضِ[1] مصرَ ، بما[2] يُجْرِى اللهُ على يَدَىْ هذا الغلامِ الذى يَدخُلُها فى صورةِ أسيرٍ رقيقٍ ، ثم بعدَ ذلك يُمَلِّكُه أَزِمَّةَ الأمورِ ، ويَنفعُهم اللهُ به فى دنياهم وأخراهم بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ .

ولمّا استَشعَر إخوةُ يوسفَ بأخذِ السَّيَّارةِ له لَحِقوهم وقالوا : هذا غلامُنا أَبِقَ منَّا . فاشتَرَوْه منهم بثمنٍ بخسٍ ؛ أى قليلٍ نَزْرٍ . وقيل : هو الزَّيْفُ ﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ قال ابنُ مسعودٍ ، وابنُ عباسٍ ، ونَوْفٌ البِكَالىُّ ، والسُّدِّىُّ ، وقَتادةُ ، وعطيةُ العَوْفىُّ : باعُوه بعشرين درهمًا ، اقتَسموها دِرْهَمَيْن دِرْهَمَيْن . وقال مُجاهدٌ : اثنانِ وعشرون درهمًا . وقال عِكْرمةُ ومحمدُ بنُ إسحاقَ : أربعون درهمًا[3] . فاللهُ أعلمُ . ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ أى ؛ أحسِنى إليه [4]﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ وهذا مِن لطفِ اللهِ به ورحمتِه وإحسانِه إليه[4] بما يريدُ أن يُؤهِّلَه له ويُعطِيَه من خيرِ الدنيا [١/١٢٤ظ] والآخرةِ . قالوا : وكان الذى اشتَراه من أهلِ مصرَ عزيزَها ؛ وهو الوزيرُ بها الذى الخزائنُ مسلَّمةٌ إليه . قال

---

(١) فى م ، ص : « بأهل » .

(٢) فى الأصل ، ص : « فيما » .

(٣) تفسير الطبرى ١٢/١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤ - ٤) سقط من : الأصل .

ابنُ إسحاقَ[1] : واسمُه أطفيرُ بنُ روحيبَ . قال : وكان مَلِكُ مصرَ يومئذٍ الرَّيَّانَ بنَ الوليدِ رجلٌ من العماليقِ . قال : واسمُ امرأةِ العزيزِ راعيلُ بنتُ رعائيلَ . وقال غيرُه : كان اسمُها زَلِيخا . (٢والظاهرُ أنه لقبُها٢) . وقيل : فكا بنتُ ينوس . رواه الثَّعلبىُّ[3] ، عن أبى هشامٍ الرفاعىِّ . وقال محمدُ بنُ إسحاقَ ، عن محمدِ بن السائبِ ، عن أبى صالحٍ ، عن ابنِ عباسٍ : كان اسمُ الذى باعه بمصرَ - يعنى الذى جَلَبه إليها - مالكَ بنَ دعرِ بنِ ثويبِ بنِ (٤عفقا بنِ مَدْيانَ٤) بنِ إبراهيمَ . فاللهُ أعلمُ . وقال ابنُ إسحاقَ ، عن أبى عبيدَةَ ، عن ابنِ مسعودٍ ، قال : أَفْرَسُ الناسِ ثلاثةٌ ؛ عزيزُ مصرَ حينَ قال لامرأتِه : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ . والمرأةُ التى قالت لأبيها عن موسى : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] . وأبو بكرٍ الصِّدِّيقُ حينَ استخلَف عمرَ بنَ الخطابِ رضى اللهُ عنهما[5] . ثم قِيل : اشتراه العزيزُ بعشرين دينارًا . وقيل : بوزْنِه مسكًا ووزنِه حريرًا ووزنِه وَرِقًا . فاللهُ أعلمُ . وقولُه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أى ؛ وكما قيَّضْنا هذا العزيزَ وامرأتَه يُحسِنان إليه ويَعتنيان به ، مكَّنَّا له فى أرضِ مصرَ ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أى ؛ فهمِها ، وتعبيرُ الرؤيا من ذلك ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٣٥/١ .

(٢ - ٢) سقط من : ح .

(٣) قصص الأنبياء ص ١٠٣ ، وعنده « بكا بنت فيوش » .

(٤ - ٤) فى الأصل : « غفقا بن عدنان » ، وفى تفسير الطبرى : « عنقاء بن مديان » .

(٥) تفسير الطبرى ١٧٦/١٢ . والحاكم فى مستدركه ٩٠/٣ وقال : صحيح . ورواه من وجه آخر الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود ١٨٥/٩ . والحاكم فى مستدركه ٣٤٥/٢ وقال : صحيح على شرط الشيخين . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٦٨/١٠ : رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما رجالُ الصحيح إن كان محمد بن كثير - أحد الرواة - هو العبدى ، وإن كان هو الثقفى فقد وثق على ضعف كثير فيه .

وقد تابعه وكيع فى رواية الحاكم .

أَمْرِهِ ﴾ أى ؛ إذا أراد شيئًا فإنه يُقيِّضُ له أسبابًا وأمورًا لا يَهتدِى إليها العبادُ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فدَلَّ على أن هذا كلَّه وهو قبلَ بلوغِ الأشُدِّ ؛ وهو حَدُّ الأربعين الذى يُوحِى اللهُ فيه إلى عبادِه النبيِّين عليهم الصلاةُ والسلامُ مِن ربِّ العالمين . وقد اختلفوا فى مدةِ العمرِ الذى هو بلوغُ الأَشُدِّ(١) ؛ فقال مالِكٌ ، وربيعةُ ، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ ، والشَّعْبىُّ : هو الحُلُمُ . وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ : ثمانىَ عشْرةَ سنةً . وقال الضحاكُ : عشرون سنةً . وقال عِكْرِمةُ : خمسٌ وعشرون سنةً . وقال السُّدِّىُّ : ثلاثون سنةً . وقال ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، وقَتادةُ : ثلاثٌ وثلاثون سنةً . وقال الحسنُ : أربعون سنةً . ويَشهَدُ له قولُه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ * وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ [١/١٢٥و] مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٦/٤ ، تفسير الطبرى ٨٥/٨ ، ١٧٧/١٢ .

[يوسف : ٢٣ - ٢٩] . يذكرُ تعالى ما كان من أمرِ[1] مُراودةِ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ عليه السلامُ عن نفسِه ، وطَلَبِها منه ما لا يَلِيقُ بحالِه ومَقامِه ، وهى فى غايةِ الجمالِ والمالِ والمَنْصِبِ والشبابِ ، وكيف غَلَّقت الأبوابَ عليها وعليه ، وتهيَّأت له وتصنَّعَت ولَبِسَت أحسنَ ثيابِها وأفخرَ لباسِها ، وهى مع هذا كلِّه امرأةُ الوزيرِ . قال ابنُ إسحاقَ : وبنتُ أختِ الملكِ الرَّيَّانِ بنِ الوليدِ صاحبِ مصرَ . وهذا كلُّه مع أنَّ يوسفَ عليه السلامُ ، شابٌّ بديعُ الجمالِ والبهاءِ ، إلَّا أنه نَبِىٌّ مِن سُلالةِ الأنبياءِ ، فعصَمه ربُّه عن الفحشاءِ وحَماه عن مَكرِ النِّساءِ ، فهو سيدُ السادةِ النُّجَباءِ السبعةِ الأتقياءِ المذكورين فى « الصحيحين »[2] عن خاتَمِ الأنبياءِ ، فى قولِه عليه الصلاةُ والسلامُ من ربِّ الأرضِ والسماءِ : « سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ فى ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه ؛ إمامٌ عادِلٌ ، ورجلٌ ذكَر اللهَ خاليًا ففاضَت عَيْناه ، ورجلٌ مُعلَّقٌ قلبُه بالمسجِدِ إذا خرَج منه حتى يعودَ إليه ، ورجلانِ تحابَّا فى اللهِ اجتَمعا عليه وتفرَّقا عليه ، ورجلٌ تَصَدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تَعلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينُه ، وشابٌّ نشأ فى عبادةِ اللهِ ، ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذَاتُ مَنصِبٍ وجمالٍ فقال : إنِّى أخافُ اللهَ » .

والمقصودُ أنها دعَته إليها وحرَصَت على ذلك أشَدَّ الحرصِ ، فقال : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ يعنى زوجَها صاحبَ المنزلِ سيِّدِى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ أى ، أحسَن إلىَّ وأكرمَ مُقامى عندَه ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وقد تكلَّمنا على قولِه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ فى « التَّفسيرِ »[3] . وأكثرُ أقوالِ المفسِّرين ههنا متلقًّى من كتبِ أهلِ

---

(١) زيادة من : الأصل ، ح .

(٢) البخارى (٦٦٠) ، مسلم (١٠٣١) . وسياق ابن كثير فيه تقديم وتأخير عن سياق الصحيحين .

(٣) التفسير ٣٠٨/٤ ، ٣٠٩ .

الكتابِ ، فالإعراضُ عنه أَوْلَى بنا . والذى يجبُ أنْ يُعْتَقَدَ أن الله تعالى عصَمه وبرَّأه ، ونزَّهَه عن الفاحشةِ وحمَاه عنها وصانه منها . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ أى ؛ هرَبَ منها طالبًا إلى البابِ [١/١٢٥ظ] ليخرُجَ منه فرارًا مِنها ، فاتَّبعته فى أثَرِه ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ (١أى ؛ وجَدَا١) ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أى زوجَها ﴿ لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ فبَادَرَته بالكلامِ وحرَّضَته عليه ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ اتَّهمته وهى المتَّهمةُ ، وبَرَّأت عِرضَها ونزَّهت ساحتَها ؛ فلهذا قال يوسفُ عليه السلامُ : ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ احتاج إلى أن يقولَ الحقَّ عندَ الحاجةِ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ قِيل : كان صغيرًا فى المَهْدِ . قاله ابنُ عباسٍ . ورُوِى عن أبى هُرَيرةَ ، وهلالِ بنِ يَسافٍ ، والحسنِ البصرىِّ ، وسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، والضحاكِ ، واختاره ابنُ جريرٍ(٢) ، ورَوَى فيه حديثًا مرفوعًا عن ابنِ عباسٍ ، ووقَفه غيرُه عنه(٣) . وقِيل : كان رجلًا قريبًا إلى أطفيرَ بعلِها . وقِيل : قريبًا إليها . وممَّن قال إنَّه كان رجلًا ؛ ابنُ عباسٍ ، وعِكْرِمةُ ، ومُجاهدٌ ، والحسنُ ، وقَتادةُ ، والسُّدِّىُّ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ ، وزيدُ بنُ أَسْلَمَ . فقال : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أى ؛ لأنه يكونُ قد راودها فدافعَتْه حتى قَدَّت مُقدَّمَ قميصِه ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أى ؛ لأنه يكونُ قد هرَب منها فاتَّبَعَتْه وتعلَّقتْ فيه فانشقَّ قميصُه لذلك . وكذلك كان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ

(١ - ١) سقط من : الأصل ، ح .

(٢) تفسير الطبرى ١٢/١٩٣ - ١٩٥ .

(٣) أما المرفوع فرواه ابن جرير فى التفسير ١٢/١٩٤ والحاكم فى المستدرك ٢/٤٩٥ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأما الموقوف فرواه ابن جرير فى تفسيره ١٢/١٩٣ .

إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أى ؛ هذا الذى جرَى مِن مَكرِكن ، أنتِ راودْتِه عن نفسِه ثم اتَّهَمْتِه بالباطلِ . ثم أضرَبَ بعلُها عن هذا صفحًا ، فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ أى ؛ لا تذكُرْه لأحدٍ ؛ لأن كِتْمانَ مثلِ هذه الأمورِ هو الأَلْيَقُ والأحسنُ ، وأمَرَها بالاستغفارِ لذنبِها الذى صدَر منها والتوبةِ إلى ربِّها ؛ فإن العبدَ إذا تاب إلى اللهِ تاب اللهُ عليه . وأهلُ مِصرَ ، وإن كانوا يعبدون الأصنامَ ، إلَّا أنهم يَعلَمون أن الذى يغفرُ الذنوبَ ويؤاخِذُ بها هو اللهُ وحدَه لا شريكَ له فى ذلك . ولهذا قال لها بعلُها - وعذَرَها مِن بعضِ الوجوهِ ؛ لأنها رأت ما لا صَبْرَ لها على مثلِه ، إلا أنه عفيفٌ نزيهٌ برىءُ العِرضِ سليمُ الناحيةِ - فقال : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَـٰهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ [١٢٦/١و] ٱلصَّـٰغِرِينَ * قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٠ - ٣٤] . يذكُرُ تعالى ما كان مِن قِبَلِ نساءِ المدينةِ - (١)يعنى مصرَ(١) - مِن نساءِ الأمراءِ وبناتِ الكُبَراءِ ، فى الطَّعنِ على امرأةِ العزيزِ وعَيْبِها ، والتَّشنيعِ عليها فى مراوَدتِها فتاها ، وحبِّها الشَّديدِ له ، يَعْنِينَ(٢) :

(١ - ١) زيادة من : الأصل ، ح .

(٢) فى م : « تعنين » .

وهو لا يساوى هذا ؛ لأنَّه مولًى من الموالِى ، وليس مثلُه أهلًا لهذا . ولهذا قُلْنَ : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أى ؛ فى وضعِها الشىءَ فى غيرِ مَحَلِّه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى ؛ بتشنيعِهِنَّ عليها والتَّنقُّصِ لها ، والإشارةِ إليها بالعيبِ والمَذمَّةِ بحبِّ مولاها وعِشْقِ فتاها . فأظْهَرْنَ ذَمًّا ، وهى معذورةٌ فى نفسِ الأمرِ ، فلهذا أحبَّت أن تَبسُطَ عذرَها عندَهن ، وتُبيِّنَ أن هذا الفتى ليس كما حَسِبْنَ ولا مِن قَبيلِ ما لديهن ، فأرسَلَت إليهن فجمعَتْهن فى منزلِها ، وأعتَدَت لهن ضيافةَ مِثلِهن وأحضَرت فى جملةِ ذلك شيئًا مما يُقْطَعُ بالسكاكينِ ؛ كالأُتْرُجِّ ونحوِه ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وكانت قد هيَّأَت يوسفَ عليه السلامُ وألْبَسَته أحسنَ الثيابِ ، وهو فى غايةِ طَرَاوةِ الشبابِ ، وأمَرته بالخروجِ عليهن بهذه الحالةِ ، فخرَج وهو أحسنُ من البدرِ لا محالةَ ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أى ؛ أعظَمْنَه وأَجْلَلْنَه وهَبْنَه ، وما ظَنَنَّ أن يكونَ مثلُ هذا فى بنى آدمَ ، وبَهَرَهُن حسنُه ، حتى اشتغَلْنَ عن أنفسِهن وجعَلْنَ يَحْزُزْنَ فى أيديهن بتلك السكاكينِ ولا يَشْعُرْنَ بالجراحِ ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقد جاء فى حديثِ الإسراءِ[1] : « فمرَرتُ بيوسفَ ، وإذا هو قد أُعْطِىَ شَطْرَ الحُسنِ » . قال السُّهَيْلىُّ وغيرُه مِن الأئمةِ : معناه أنه كان على النِّصفِ مِن حُسنِ آدمَ عليه السلامُ ؛ لأن اللهَ تعالى خلَق آدمَ بيدِه ونفَخ فيه مِن روحِه ، فكان فى غايةِ نهاياتِ الحُسنِ البشرىِّ ؛ ولهذا يَدخُلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ على طولِ آدمَ وحُسنِه ، ويوسفُ كان على النِّصفِ مِن حُسنِ آدمَ ، ولم يكنْ بينَهما أحسنُ منهما ، كما أنه لم تكنْ أنثى بعدَ حواءَ أَشْبَهَ بها مِن سارَّةَ امرأةِ الخليلِ عليه السلامُ . قال ابنُ مسعودٍ : وكان وجهُ يوسفَ مثلَ البرقِ ، وكان إذا أَتَتْه

---

(١) مسلم (١٦٢) .

امرأةٌ لحاجةٍ غطَّى وجهَه . وقال غيرُه : كان فى الغالبِ مُبَرْقَعًا ؛ لئلا يراه الناسُ . ولهذا لَمّا قام عُذْرُ[1] امرأةِ العزيزِ فى محبتِها لهذا المعنى المذكورِ ، وجرَى لهن وعليهن ما جرَى مِن تقطيعِ أيديهن بجراحِ السكاكينِ ، وما رَكِبَهن من المهابةِ[2] والدَّهْشِ عندَ رؤيتِه ومعاينتِه [١/١٢٦ظ] ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ثم مدَحته بالعفةِ[3] التامةِ ، فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أى ؛ امتنَع ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ وكان بقيةُ النساءِ حَرَّضْنَه على السمعِ والطاعةِ لسيدتِه ، فأبَى أشدَّ الإباءِ ، ونأَى ؛ لأنه من سلالةِ الأنبياء ، ودعا فقال فى دعائِه لربِّ العالمين : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يعنى : إنْ وَكلْتنى إلى نفسِى فليس لى مِن نفسى إلا العجزُ والضعفُ ، ولا أَملِكُ لنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء اللهُ ، فأنا ضعيفٌ إلا ما قوَّيْتنى وعصَمتَنى وحفِظتَنى وحُطتَنى بحولِك وقوتِك . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ

---

(١) فى ص : « عذرن » .

(٢) فى الأصل : « البهاء » .

(٣) فى م : « بالعصمة » .

ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٣٥ - ٤١] . يذكُرُ تعالى عن العزيزِ وامرأتِه أنهم بدا لهم ؛ أى ظهَر لهم من الرأيِ ، بعدما عَلِموا براءةَ يوسفَ أن يَسْجُنوه إلى وقتٍ ؛ ليكونَ ذلك أقلَّ لكلامِ الناسِ فى تلك القضيةِ وأَحْمَدَ لأمرِها ، وليُظْهِروا أنه راوَدها عن نفسِها فسُجِن بسببِها ، فسجَنوه ظُلمًا وعُدوانا . وكان هذا مما قدَّر اللهُ له ، ومن جملةِ ما عصَمه به ؛ فإنه أبْعَدُ له عن معاشرتِهم ومخالطتِهم . ومِن ههنا استَنْبَط[1] بعضُ الصوفيةِ ما حكاه عنهم الشَّافِعىُّ ، أن من العِصْمةِ أن لا تَجِدَ . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ قيل[2] : كان أحدُهما ساقىَ المَلِكِ واسمُه فيما قيل بنو . والآخَرُ خبَّازَه - يعنى الذى يَلِى طعامَه ، وهو الذى يقولُ [١٢٧/١و] له التُّرْكُ : الجاشَنْكِيرُ - واسمُه فيما قيل مجلثُ . كان المَلِكُ قد اتَّهمهما فى بعضِ الأمورِ فسجَنهما ، فلما رأيا يوسفَ فى السجنِ أعجبَهما سَمْتُه وهَدْيُه ، ودَلُّه وطريقتُه ، وقولُه وفعلُه ، وكثرةُ عبادتِه ربَّه ، وإحسانُه إلى خَلْقِه ، فرأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا تُناسبُه . قال أهلُ التفسيرِ : رأيا فى ليلةٍ واحدةٍ ؛ أما الساقى فرأى كأنَّ ثلاثَ قُضْبانٍ من حَبْلَةٍ قد أورقَت ، وأينَعت عناقيدُ العنبِ ، فأخذَها فاعتصَرها فى كأسِ المَلِكِ وسقاه . [3]ورأى الخبازُ[3]

---

(١) فى ح : « قال » .

(٢) تفسير الطبرى ٢١٤/١٢ .

(٣ - ٣) فى الأصل : « وأما الآخر فرأى كأن » .

على رأسِه ثلاثَ سِلالٍ مِن خبزٍ ، وضَوارِى الطيورِ تأكُلُ مِن السَّلِّ الأَعْلَى . فقَصَّاها عليه وطلَبا منه أَنْ يَعْبُرَهما[1] لهما ، وقالا : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبرَهما أنه عليمٌ بتعبيرِهما خبيرٌ بأمرِهما و ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ قيل[2] : معناه : مهما رأيتُما مِن حُلْمٍ فإنى أَعْبُرُه لكما قبلَ وقوعِه ، فيكونُ[3] كما أقولُ . وقِيل[4] : معناه أنى أُخبرُكما بما يأتيكما من الطعامِ قبلَ مجيئِه ؛ حُلْوًا أو حامضًا ، كما قال عيسى عليه السلامُ : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] . وقال لهما : إنَّ هذا مِن تعليمِ اللهِ إيایَ ؛ لأنِّى مؤمنٌ به موحدٌ له متَّبعٌ ملةَ آبائى الكرامِ ؛ إبراهيمَ الخليلِ وإسحاقَ ويعقوبَ ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أى ؛ بأن هدانا لهذا ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أى ؛ بأن أمَرَنا أن ندعوَهم إليه ونُرشِدَهم وندُلَّهم عليه ، وهو فى فِطَرِهم مركوزٌ وفى جِبِلَّتِهم مغروزٌ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم دعاهم إلى التوحيدِ ، وذَمَّ عبادةَ ما سوى اللهِ عز وجل ، وصَغَّر أَمْرَ الأصنامِ وحقَّرها وضعَّف أَمْرَها ، فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [5]أى ؛ هو المتصرفُ فى خَلْقِه الفَعَّالُ لِمَا يريدُ ، الذى يَهدى من يشاءُ ويُضِلُّ من يشاءُ[5]

---

(١) فى ص : « يعبرها » .

(٢) تفسير الطبرى ١٢/٢١٧ .

(٣) فى الأصل : « ليكون » .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/٣١٤ ، ٣١٥ .

(٥ - ٥) زيادة من : ح ، م .

﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أى ؛ وحدَه لا شريكَ له ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أى ؛ المستقيمُ والصراطُ القويمُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى ؛ فهم لا يهتدون إليه مع وضوحِه وظهورِه[1] . وكانت دعوتُه لهما فى هذه الحالِ فى غايةِ الكمالِ ؛ لأنَّ نفوسَهما معظِّمةٌ له ، مُنبَعِثةٌ على تَلَقِّى ما يقولُ بالقَبولِ ، فناسَب أن يدعوَهما[2] إلى ما هو الأنفعُ لهما مما سألا عنه وطلَبا منه . ثم لمَّا قام بما وجَب عليه وأرشَدَ إلى ما أرشَدَ إليه قال : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ قالوا : وهو الساقى . ﴿ وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ [١٢٧/١ظ] فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ قالوا : وهو الخبازُ . ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أى ؛ وقَع هذا لا محالةَ ، ووجَب كونُه على كلِّ حالةٍ . ولهذا جاء فى الحديث[3] : « الرُّؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تُعبَّرْ ، فإذا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ » . وقد رُوِىَ عن ابنِ مسعودٍ ، ومُجاهدٍ ، وعبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسْلَمَ أنهما قالا : لم نَرَ شيئًا . فقال لهما[4] : ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] . يخبرُ تعالى أن يوسفَ عليه السلامُ قال للذى ظنَّ أنه ناجٍ منهما وهو الساقى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعنى : اذكُرْ أمرى وما أنا فيه من السِّجْنِ بغيرِ جُرْمٍ عندَ المَلِكِ . وفى هذا دليلٌ على جوازِ السَّعْىِ فى الأسبابِ ، ولا ينافى ذلك التوكلَ على ربِّ الأربابِ . وقولُه : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ أى ؛ فأنْسَى الناجىَ منهما الشيطانُ

---

(١) سقط من : ح .

(٢) فى ص : « يدعوها » .

(٣) رواه أحمد فى المسند ١٠/٤ ، وأبو داود (٥٠٢٠) ، والترمذى (٢٢٧٨) ، وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (٣٩١٤) . (صحيح أبى داود ٤١٩٨) .

(٤) سقط من : ح ، ا .

أن يذكُرَ ما وصَّاه به يوسفُ عليه السلامُ . قاله مُجاهدٌ ، ومحمدُ بنُ إسحاقَ ، وغيرُ واحدٍ[1] . وهو الصوابُ وهو منصوصُ أهلِ الكتابِ ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ والبِضعُ ؛ ما بينَ الثلاثِ إلى التسعِ[2] . وقيل : إلى السبعِ . وقيل : إلى الخمسِ . وقيل : ما دونَ العشَرةِ . حكاها الثَّعْلبىُّ[3] . ويقالُ : بِضْعُ نِسوةٍ ، وبِضْعَةُ رجالٍ . ومنَع الفَرّاءُ استعمالَ البِضْعِ فيما دونَ العشْرِ ، قال : وإنما يقالُ : نَيِّفٌ . وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٤] . وهذا ردٌّ لقولِه . قال الفرَّاءُ : ويقالُ : بضعةَ عشَرَ وبضعةٌ وعشرون . إلى التسعين ، ولا يقالُ : بضعٌ ومائةٌ ، وبِضعٌ وألفٌ . وخالَفَ الجَوْهَرىُّ فيما زاد على بِضعةَ عشَرَ ، فمنَع أن يقالَ : بِضْعةٌ وعشرون . إلى تسعين[4] ، وفى « الصحيحِ »[5] : « الإيمانُ بِضْعٌ وسِتُّون » . وفى روايةٍ[6] : « وسبعون شُعْبةً ؛ أعلاها[7] قولُ : لا إلهَ إلا اللهُ . وأدناها إماطَةُ الأذَى عن الطريقِ » .

ومن قال : إن الضميرَ فى قولِه : ﴿ فَأَنسَـٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ عائدٌ على يوسفَ . فقد ضَعُفَ ما قاله ، وإن كان قد رُوى عن ابنِ عباسٍ وعِكْرِمةَ . والحديثُ الذى رواه ابنُ جَريرٍ[8] فى هذا الموضِعِ ضعيفٌ من كلِّ وجهٍ ؛

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١٧/٤ ، تفسير الطبرى ٢٢٤/١٢ عن ابن إسحاق .

(٢) الترمذى مرفوعا من حديث ابن عباس (٣١٩١) وقال : غريب . (صحيح الجامع ٢٨٨٤) .

(٣) قصص الأنبياء ص ١٠٩ .

(٤) الصحاح للجوهرى ١١٨٦/٣ .

(٥) البخارى (٩) ، مسلم (٣٥) واللفظ للبخارى .

(٦) هى رواية مسلم فى صحيحه .

(٧) فى ص : « أرفعها » .

(٨) تفسير الطبرى ٢٢٣/١٢ .

تفردَ بإسنادِهِ إبراهيمُ بنُ يزيدَ الخُوزِىُّ[1] المكىُّ ، وهو متروكٌ ، ومُرسَلُ الحسنِ وقَتادةَ لا يُقبَلُ[2] ، ولاسيَّما[3] ههنا بطريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى . واللهُ أعلمُ . فأما قولُ ابنِ حبَّانَ فى « صحيحِه »[4] : ذِكْرُ السببِ الذى مِن أجلِه لَبِثَ يوسفُ فى السجنِ ما لَبِثَ ؛ أخبرنا الفضلُ بنُ الحُبَابِ الجُمَحىُّ ، ثنا مُسَدَّدُ بنُ مُسَرْهَدٍ ، ثنا خالدُ بنُ عبدِ اللهِ ، ثنا محمدُ بنُ عمرٍو ، عن أبى سَلَمَةَ ، عن أبى هُرَيرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ [١/١٢٨و] ﷺ : « رَحِمَ اللهُ يوسفَ ، لولا الكَلِمةُ التى قالها ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما لَبِثَ فى السِّجنِ ما لَبِثَ ، ورَحِمَ اللهُ لوطًا إنْ كان لَيَأْوِى إلى رُكْنٍ شديدٍ ، إذْ قال لقومه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] » . قال : « فما بَعَثَ اللهُ نبيًّا بعدَه إلا فى ثروةٍ مِن قومِه » . فإنه حديثٌ مُنْكَرٌ مِن هذا الوجهِ . ومحمدُ بنُ عمرِو بنِ عَلْقَمَةَ له أشياءُ يَنْفَرِدُ بها وفيها نكارةٌ ، وهذه اللَّفْظةُ[5] مِن أنكرِها وأشَدِّها . والذى فى « الصحيحين »[6] يَشهَدُ بغَلَطِها . واللهُ أعلمُ .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ

---

(١) فى ح : « الخوزنى » ، وفى ا : « الجوزى » .

(٢) سقط من : الأصل .

(٣) سقط من : ح ، م ، ص .

(٤) الإحسان (٦٢٠٦) ، (إسناده حسن) .

(٥) يعنى قوله فى الحديث : « رحم الله يوسف ، لولا الكلمة التى قالها ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ ما لبث فى السجن » .

(٦) البخارى (٣٣٧٢) ، مسلم (١٥١) ولفظه : « ولو لبثتُ فى السجنِ طولَ لَبْثِ - ولفظ البخارى : ما لَبِثَ - يوسفَ ، لأجبتُ الداعىَ » .

سُنبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٣ - ٤٩] . هذا كلُّه[1] من جملةِ أسبابِ خروجِ يوسفَ عليه السلامُ من السجنِ على وجهِ الاحترامِ والإكرامِ ؛ وذلك أن مَلِكَ مصرَ - وهو الرَّيَّانُ بنُ الوليدِ بنِ ثروانَ بنِ أراشةَ[2] بنِ فارانَ بنِ عمرِو بنِ عِمْلاقِ بنِ لاوَذِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ - رأى هذه الرؤيا . قال أهلُ الكتابِ : رأى كأنَّه على حافَّةِ نهرٍ ، وكأنه قد خرَج منه سبعُ بَقَراتٍ سِمانٍ ، فجعلْنَ يَرْتَعْنَ فى روْضَةٍ هناك ، فخرَجَت سبعٌ هِزالٌ ضِعافٌ من ذلك النهرِ فرتَعْنَ معهن ، ثم مِلْنَ عليهن فأكَلْنَهن ، فاستيقَظ مذعورًا ، ثم نام فرأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ فى قَصَبةٍ واحدةٍ ، وإذا سبعٌ أُخَرُ دِقاقٌ يابساتٌ تأكُلُهنَّ ، فاستيقَظ مذعورًا ، فلما قصَّها على مَلإه وقومِه لم يكنْ فيهم مَن يُحسِنُ تعبيرَها ، بل ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أى ؛ أخلاطُ[3] أحلامٍ من الليلِ لعلَّها لا تعبيرَ لها ، ومع هذا فلا خِبْرةَ لنا بذلك . ولهذا قالوا :

---

(١) فى ح ، م ، ص : « كان » .

(٢) فى ص : « راشة » .

(٣) فى الأصل : « أضغاث » .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾ فعندَ ذلك تَذكَّرَ الناجِى منهما ، الذى وصَّاه يوسفُ بأنْ يذكُرَه عندَ ربِّه ، فنَسِىَ إلى حينِه هذا ، وذلك عن تقديرِ اللهِ عز وجل ، وله الحكمةُ فى ذلك ، فلما سمِع رؤيا الملِكِ ورأى عَجْزَ الناسِ عن تعبيرِها ، تذكَّرَ أَمْرَ [١٢٨/١ظ] يوسفَ وما كان أوصاه به من التَّذْكارِ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ ﴾ أى تذكَّرَ ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى ؛ بعدَ مُدَّةٍ مِن الزمانِ ؛ وهو بِضْعُ سنين . وقرأ بعضُهم ، كما حُكِى عن ابنِ عباسٍ ، وعِكْرِمةَ ، والضحاكِ[1] : « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ » أى ؛ بعدَ نسيانٍ . وقرأها مُجاهدٌ : « بَعْدَ أَمْهٍ » بإسكانِ الميمِ ، وهو النسيانُ أيضًا ، يقالُ : أَمِهَ الرجلُ يَأْمَهُ أَمَهًا وأَمْهًا . إذا نَسِىَ . قال الشاعرُ[2] :

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنْسَى حديثًا ... كذاك[3] الدَّهرُ يُرْدِى[4] بالعقولِ

فقال لقومِه وللملِكِ : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى ؛ فأرسلونى إلى يوسفَ . فجاءه فقال : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . وعندَ أهلِ الكتابِ أن الملِكَ لما ذكَره له الناجى[5] استدعاه إلى حضرتِه ، وقصَّ عليه ما رآه ففسَّره له . وهذا غَلَطٌ ، والصوابُ ما قصَّه اللهُ فى كتابِه القرآنِ ، لا ما عرَّبه هؤلاء الجهلةُ الثيرانُ مِن قَرائِى[6]

---

(١) تفسير الطبرى ٢٢٨/١٢ ، ٢٢٩ .
(٢) البيت فى الصحاح ، للجوهرى ٢٢٤/٦ ، واللسان (أ م هـ) غير منسوب .
(٣) فى الأصل : « كذلك » .
(٤) فى م : « يزرى » ، وفى ص : « يودى » ، وكذلك فى الصحاح واللسان .
(٥) فى ح ، م ، ص : « الساق » .
(٦) جمع قُرَّاء .

ورُبَّانٍ . فبذَل يوسفُ عليه السلامُ ما عندَه مِن العلمِ بلا تأخرٍ ولا شرطٍ ، ولا طلَبَ الخروجَ سريعًا ، بل أجابهم إلى ما سألوا وعَبَّرَ لهم ما كان مِن منامِ الملكِ ، الدَّالِّ على وقوعِ سبعِ سنينَ من الخِصْبِ ، ويَعْقُبُها سبعٌ جُدْبٌ . ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ يعنى يأتيهم الغَيْثُ والخِصْبُ والرَّفاهيةُ ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يعنى ما كانوا يَعْصِرونه مِن الأقصابِ والأعنابِ والزَّيتونِ والسِّمْسِمِ وغيرِها . فعَبَّر لهم وعلى الخيرِ دَلَّهم ، وأرشَدهم إلى ما يَعتمدونه فى حالَتَىْ خِصْبِهم وجَدْبِهم ، وما يفعلونه[1] من ادِّخارِ حبوبِ سِنِىِّ الخِصْبِ فى[2] السبعِ الأُوَلِ فى سُنْبُلِه ، إلا ما يُرْصَدُ بسببِ الأكلِ ، ومن تقليلِ البَذْرِ فى سِنِىِّ الجَدْبِ فى السبعِ الثانيةِ ؛ إذ الغالبُ على الظنِّ أنه لا يَرُدُّ البَذْرَ مِن الحقلِ ، وهذا يدُلُّ على كمالِ العلمِ ، وكمالِ الرأىِ والفَهمِ .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ [١٢٩/١و] رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠ - ٥٣] . لمَّا أحاط الملكُ علمًا بكمالِ علمِ يوسفَ عليه الصلاةُ والسلامُ ، وتمامِ عقلِه ورأْيه السديدِ وفَهمِه ، أمَر بإحضارِه إلى حضرتِه ؛ ليكونَ مِن جملةِ خاصَّتِه ، فلما جاءه الرسولُ بذلك ، أَحَبَّ أنْ لا يَخرجَ حتى يَتبيَّنَ لكلِّ أحدٍ أنه حُبِس ظلمًا وعُدوانًا ، وأنه برىءُ الساحةِ مما نسَبوه إليه

---

(١) فى الأصل : « يفعلوه » .

(٢) فى الأصل ، ح : « من » .

بُهتانًا ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعنى الملكَ ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قِيل : معناه : أن سيدى العزيزَ يَعلَمُ براءتى مما نُسِب إلىَّ . أى : فمُرِ الملكَ فلْيَسْأَلْهن كيف كان امتناعى الشديدُ عندَ مراودَتِهنَّ إيَّاى ، وحَثِّهن لى على الأمرِ الذى ليس برشيدٍ ولا سديدٍ . فلما سُئِلْنَ عن ذلك اعْتَرَفْنَ[1] بما وقَع مِن خَطَإِ[2] الأمرِ ، وما كان منه من الأمرِ الحميدِ ، و ﴿ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ فعندَ ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ وهى زَليخَا ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أى ظهَر وتبيَّنَ ووَضَح . والحقُّ أَحَقُّ أن يُتَّبَعَ ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ أى : فيما يقولُه من أنه برىءٌ وأنه لم يراوِدْنى ، وأنه حُبِس ظلمًا وعدوانًا وزورًا وبهتانًا . وقولُه : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ قيل : إنه من كلامِ يوسفَ[3] . أى : إنما طلبتُ تحقيقَ هذا ؛ ليَعلَمَ العزيزُ أنى لم أَخُنْه بظهرِ الغيبِ . وقيل : إنه من تمامِ كلامِ زَليخَا[4] . أى : إنما اعترفتُ بهذا ليَعلَمَ زوجى أنى لم أَخُنْه فى نفسِ الأمرِ ، وإنما كان مُراوَدةٌ لم يَقَعْ معها فِعلُ فاحشةٍ . وهذا القولُ هو الذى نصَره طائفةٌ كثيرةٌ من أئمةِ المتأخرين وغيرِهم ، ولم يَحْكِ ابنُ جريرٍ وابنُ أبى حاتمٍ سوى الأولِ . ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : إنه من كلامِ يوسفَ . وقيل : من كلامِ زَليخَا . وهو مفرَّعٌ على القولَيْن الأولَيْن . وكونُه مِن تمامِ كلامِ زَليخَا أظهَرُ وأنسَبُ وأقوى ، واللهُ أعلمُ .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا

(١) فى ح ، م ، ص : « أعرفن » .
(٢) زيادة من : الأصل .
(٣) تفسير الطبرى ١٢/٢٣٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/٣١٩ ، ٣٢٠ .

مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف : ٥٤ - ٥٧] . لما ظهَر للملكِ براءةُ عِرْضِه ، ونزاهةُ ساحتِه عما كانوا أظهَروا عنه مِما نسَبوه[1] إليه قال : ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أى : أجعَلْه مِن خاصَّتى ، ومِن أكابرِ دولتى ، ومِن أعيانِ حاشيَتى . فلما كلَّمه وسَمِع مقالَه ، [١٢٩/١ظ] وتبيَّنَ حالَه ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أى ؛ ذو مكانةٍ وأمانةٍ ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ طلَب أن يولِّيَه النظرَ فيما يتعلقُ بالأَهْرَاءِ[2] ؛ لِما يَتوقَّعُ مِن حصولِ الخلَلِ فيما بعدَ مُضِيِّ سبعِ سِنِيِّ[3] الخِصْبِ ؛ لينظُرَ فيها بما يُرضِى اللهَ فى خَلْقِه مِن الاحتياطِ لهم والرِّفقِ بهم ، وأخبَرَ الملِكَ أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أى ؛ قوىٌّ على حفظِ ما لديه ، أمينٌ عليه ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بضبطِ الأشياءِ ومصالحِ الأَهْرَاءِ . وفى هذا دليلٌ على جوازِ طلبِ الولايةِ لِمَنْ عَلِم مِن نفسِه الأمانةَ والكفاءةَ . وعندَ أهلِ الكتابِ أن فرعونَ عظَّم يوسفَ عليه السلامُ جِدًّا وسلَّطه[4] على جميعِ أرضِ مصرَ ، وألبَسَه خاتَمَه ، وألبَسَه الحريرَ ، وطوَّقه الذهبَ ، وحمَلَه على مَرْكَبِه الثانى ، ونُودِىَ بينَ يديه : أنت ربٌّ - (٥أى ؛ مالكٌ٥) - ومُسلَّطٌ . وقال

---

(١) فى الأصل : « كانوا ينسبوه » .

(٢) الأَهْرَاءُ واحدها هُرْىٌ ؛ وهو بيت كبير يُجمع فيه طعام البر ونحوه ليوزعه السلطان . الوسيط ١٠٢٣/٢ .

(٣) فى الأصل : « سنين » .

(٤) فى الأصل : « سلطنه » .

(٥ - ٥) زيادة من : الأصل .

له : لستُ أعظمَ منك إلا بالكرسيِّ . قالوا : وكان يوسفُ إذ ذاك ابنَ ثلاثين سنةً ، وزوجه امرأةً عظيمةَ الشأنِ . وحكَى الثعلبيُّ[1] أنه عزَل قطفيرَ عن وظيفتِه وولَّاها يوسفَ . وقِيل : إنه لما مات زوَّجه امرأتَه زَلِيخا فوجدها عذراءَ ؛ لأن زوجَها كان لا يأتى النِّساءَ ، فولَدت ليوسفَ عليه السلامُ رجلين ؛ وهما [2]أفراثيمُ ومنشا[2] . قال : واستَوْثَق ليوسفَ مُلْكُ مصرَ ، وعَمِل فيهم بالعدلِ ، فأحبَّه الرجالُ والنساءُ . وحكَى[3] أن يوسفَ كان يومَ دخَل على الملِكِ عمرُه ثلاثين سنةً ، وأن الملِكَ خاطَبه بسبعين لغةً ، وكلُّ ذلك يجاوبُه بكلِّ لغةٍ منها ، فأعجبَه ذلك مع حدَاثةِ سِنِّه . فاللهُ أعلمُ .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أى ؛ بعدَ السِّجْنِ والضيقِ والحصرِ صار مُطْلَقَ الرِّكابِ بديارِ مصرَ . ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أى ؛ أين يشاءُ حَلَّ منها مُكْرَمًا محسودًا معظَّمًا ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ؛ هذا كلُّه من جزاءِ اللهِ وثوابِه للمؤمنِ ، مع ما يَدَّخِرُ له فى آخرتِه من الخيرِ الجزيلِ والثوابِ الجميلِ ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ . ويُقالُ : إن أطفيرَ زوجَ زَلِيخا كان قد مات ، فولَّاه الملِكُ مكانَه ، وزوَّجه امرأتَه زَلِيخا ، فكان وزيرَ صِدقٍ . وذكَر محمدُ بنُ إسحاقَ[4] أن صاحبَ مصرَ ، الوليدَ بنَ الرَّيَّانِ ، أَسْلَمَ على يَدَىْ يوسفَ عليه السلامُ . فاللهُ أعلمُ . وقد قال

---

(١) قصص الأنبياء ص ١١٢ .

(٢ - ٢) فى م : « أفرايم ومنشا » ، وفى ص : « أفريطم ومنشا » ، وفى قصص الأنبياء : « أفرثيم وميشا » ، وفى تاريخ الطبرى ٣٤٧/١ كما هو مثبت .

(٣) قصص الأنبياء ص ١١١ .

(٤) تفسير الطبرى ٦/١٣ عن مجاهد .

بعضُهم[1] :

وراءَ مَضِيقِ الخوفِ يَتَّسعُ الأمنُ ... وأوَّلُ مفروحٍ به آخِرُ[2] الحُزْنِ

[١/١٣٠و] فلا تَيْأَسَنْ فاللهُ ملَّك يوسُفًا ... خزائنَه بعدَ الخلاصِ مِن السِّجنِ

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨ – ٦٢] . يخبرُ تعالى عن قُدومِ إخوةِ يوسفَ عليه السلامُ إلى الديارِ المصريةِ يَمْتَارون طعامًا ، وذلك بعدَ إتيانِ سِنِيِّ الجدْبِ وعمومِها على سائرِ البلادِ والعبادِ . وكان يوسفُ عليه السلامُ ، إذ ذاك ، الحاكمَ فى أمورِ الديارِ المصريةِ دينًا ودنيا ، فلما دخَلوا عليه عرَفهم ولم يَعْرِفوه ؛ لأنهم[3] لم يَخْطِرْ ببالِهم ما صار إليه يوسفُ عليه السلامُ من المكانةِ والعظمةِ ، فلهذا عرَفهم وهم له مُنكِرون . وعندَ أهلِ الكتابِ[4] أنهم لما قَدِموا عليه سجَدوا له فعرَفهم ، وأراد أن لا يَعرِفوه فأغْلَظَ لهم فى القولِ وقال : أنتم جواسيسُ جئتُم لتأخذوا خبرَ بلادى . فقالوا : معاذَ اللهِ ، إنما جئنا نَمتارُ لقومِنا من الجَهدِ والجوعِ الذى أصابنا ، ونحن بنو أبٍ واحدٍ مِن كَنْعانَ ، ونحن اثنا عشَرَ رجلًا ، ذهب منا واحدٌ ، وصغيرُنا عندَ أبينا . فقال : لا بدَّ أن أستعلِمَ أمْرَكم . وعندَهمْ أنه حبَسَهم ثلاثةَ أيامٍ ثم

---

(١) البيتانِ فى تفسير القرطبى ٩/٢٢٠ غير منسوبين . وقد نسبا إلى زيد بن محمد بن الحسين . انظر : الدر الفريد ، لابن أيدمر ٥/٢٨٠ .

(٢) فى ح ، م : « غاية » .

(٣) فى الأصل ، ص : « لأنه » .

(٤) تاريخ الطبرى ١/٣٤٨ عن السدى .

أخرَجهم ، واحتبَس شمعونَ عندَه ؛ ليأتوه بالأخِ الآخَرِ . وفى بعضِ هذا نَظَرٌ .
قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أى ؛ أعطاهم من المِيرَةِ ما جرَتْ به عادتُه فى إعطاءِ كلِّ إنسانٍ حِمْلَ بَعيرٍ ، لا يَزيدُه عليه ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ وكان قد سألهم عن حالِهم وكم هم ، فقالوا : كنا اثْنَىْ عشَرَ رجلًا ، فذهَب منا واحدٌ وبَقِىَ شقيقُه عندَ أبينا . فقال : إذا قَدِمتُم مِن العامِ المُقبلِ فأْتونى به معكم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ أى ؛ قد أحسنتُ نُزُلَكم وقِراكم . فرغَّبهم ليأتوه به ، ثم رهَّبهم إنْ لم يأتوه به ، قال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى ؛ فلستُ أُعطيكم مِيرةً ولا أُقْرِبُكم بالكليةِ . عكسُ ما أَسْدَى إليهم أوَّلًا ، فاجتَهد فى إحضارِه معهم ؛ ليَبُلَّ شوقَه منه بالترغيبِ والترهيبِ ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى ؛ سنَجتهدُ فى مجيئِه معنا ، وإتيانِه إليك بكلِّ ممكنٍ ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ أى ؛ وإنا لقادرون على تحصيلِه . ثم أمَر فِتْيانَه أن يَضعوا بضاعتَهم - وهى ما جاءوا [١٣٠/١ظ] به يتعوَّضون به عن المِيرَةِ - فى أمتعتِهم مِن حيثُ لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . قيل : أراد أن يَرُدُّوها إذا وجَدوها فى بلادِهم . وقيل : خَشِى أن لا يكونَ عندَهم ما يَرْجِعون به مرةً ثانيةً . وقيل : تذَمَّمَ أن يأخُذَ منهم عِوضًا عن المِيرَةِ . وقد اختلَف المفسرون فى بضاعتِهم على أقوالٍ سيأتى ذكرُها . وعندَ أهلِ الكتابِ أنها كانت صُرَرًا مِن وَرِقٍ[1] . وهو أَشْبَهُ . واللهُ أعلمُ .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ * قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ

(١) انظر تفسير الطبرى ١٣/٧ - ٩ .

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَـٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٣ - ٦٨] .

يَذكرُ تعالى ما كان من أمرِهم بعدَ رجوعِهم إلى أبيهم وقولِهم له : ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ أى ؛ بعد عامِنا هذا إن لم تُرسِلْ معنا أخانا ، فإن أرسَلته معنا لم يُمنَعْ منا ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ أىْ ؛ أىَّ شىءٍ تريدُ[1] وقد رُدَّتْ إلينا بضاعتُنا ؟ ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى ؛ نمتارُ لهم ونأتيهم بما يُصلِحُهم فى سَنَتِهم ومَحْلِهم[2] ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾ بسببه ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ قال اللهُ تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أى فى مقابلةِ ذَهابِ ولدِه الآخرِ . وكان يعقوبُ عليه السلامُ أَضَنَّ شىءٍ بولدِه بنيامينَ ؛ لأنه كان يَشُمُّ فيه رائحةَ أخيه يوسفَ ، ويَتَسلَّى به عنه ويتعوَّضُ بسببِه منه ؛ فلهذا قال : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أى إلا أن تُغلَبوا كلُّكم عن الإتيانِ به ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أكَّد المواثيقَ وقرَّر العهودَ ، واحتَاط لنفسِه فى ولدِه ، ولن يُغنىَ حذَرٌ من قدَرٍ ، ولولا حاجته

(١) فى ح ، م ، ص : « نريد » .

(٢) فى الأصل : « محلتهم » .

وحاجةُ قومِه إلى الميرةِ لَمَا بعَث الولدَ العزيزَ ، ولكنَّ الأقدارَ لها أحكامٌ ، والربُّ تعالى يُقدِّرُ ما [١٣١/١و] يشاءُ ، ويختارُ ما يريدُ ، ويحكمُ ما يشاءُ ، وهو الحكيمُ العليمُ . ثم أمَرهم أن لا يدخُلوا المدينةَ من بابٍ واحدٍ ، ولكنْ لِيدخُلوا مِن أبوابٍ متفرقةٍ . قيل : أراد أن لا يُصيبَهم أحدٌ بالعينِ ؛ وذلك لأنهم كانوا أشكالًا حَسنةً ، وصُورًا بديعةً . قاله ابنُ عباسٍ ، ومُجاهدٌ ، ومحمدُ بنُ كعبٍ ، وقَتادةُ ، والسُّدِّيُّ ، والضحاكُ[1] . وقيل : أراد أن يَتفرَّقوا لعلهم يجدون خبرًا ليوسفَ ، أو يُحدِّثون عنه بأيسرِ شيءٍ . قاله إبراهيمُ النَّخَعيُّ . والأولُ أظهرُ . ولهذا قال : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وعندَ أهلِ الكتابِ أنه بعَث معهم هديةً إلى العزيزِ ، مِن الفُسْتُقِ واللَّوْزِ والصَّنَوْبَرِ والبُطْمِ والعَسَلِ ، وأخذوا الدراهمَ الأُولَى وعَرْضًا[2] آخَرَ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ * قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا

---

(١) تفسير الطبرى ١٣/١٣ .

(٢) فى ح ، م : « عوضا » ، وفى ص : « عوضوا » والعَرْضُ : المتاعُ .

لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٩ - ٧٩] .

يَذكرُ تعالى ما كان مِن أمرِهم حينَ دخَلوا بأخِيهم بنيامينَ على شقيقِه يوسفَ ، وإيوائِه إليه وإخبارِه له سرًّا عنهم بأنه أخوه ، وأَمْرِه بكَتْمِ ذلك عنهم ، وسلَّاه عما كان منهم مِن الإساءةِ إليه ، ثم احتال على أخذِه منهم ، وتَرْكِه إياه عندَه دونَهم ، فأمَر فِتْيانَه بوضْعِ سِقايَتِه - وهى التى كان [١/١٣١ظ] يَشربُ بها ويَكيلُ بها للناسِ الطعامَ [(1)]مِن عِزَّته[(1)] - فى متاعِ بنيامينَ ، ثم أَعْلَمَهم بأنهم قد سَرَقوا صُواعَ المَلِكِ ، ووعَدهم جِعَالةً على رَدِّه حِمْلَ بعيرٍ ، وضَمِنه المُنادِى لهم ، فأقبَلوا على مَن اتَّهمَهم بذلك ، فأنَّبوه وهَجَّنوه فيما قاله لهم و﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ يقولون : أنتم تعلمون منا خلافَ ما رميتمونا به من السَّرِقةِ ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . وهذه كانت شريعتَهم ، أنَّ السارقَ يُدْفَعُ إلى المسروقِ منه ؛ ولهذا قالوا : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ليكونَ ذلك أبعدَ للتُّهمةِ وأَبلغَ فى الحِيلةِ . ثم قال اللَّهُ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أى لولا اعترافُهم بأنَّ جزاءَه مَن وُجِد

(١ - ١) فى م : « عن غرته » . ومن عزَّته : يعنى من قلة الطعام حينئذ .

فى رَحْلِه فهو جزاؤُه ، لَمَا كان يَقدِرُ يوسفُ على أخذِه منهم فى سياسةِ مَلِكِ مصرَ ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أى فى العلمِ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ وذلك لأن يوسفَ كان أَعلمَ منهم وأَتَمَّ رأيًا ، وأقوى عزمًا وحزمًا ، وإنما فعَل ذلك عن أمرِ اللهِ له فى ذلك ؛ لأنه يترتبُ على هذا الأمرِ مصلحةٌ عظيمةٌ بعدَ ذلك ؛ مِن قُدومِ أبيه وقومِه عليه ووُفودِهم إليه .

فلما عايَنوا استخراجَ الصُّواعِ مِن حِمْلِ بنيامينَ ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعْنُون يوسفَ . قيل : كان قد سرَق صنمَ جَدِّه أبى أمِّه ، فكسَره[1] . وقيل : كانت عمَّتُه قد علَّقت عليه بينَ ثيابِه وهو صغيرٌ مِنْطَقةً كانت لإسحاقَ ، ثم استخرجوها مِن بينِ ثيابِه ، وهو لا يَشعُرُ بما صنعتْ ، وإنما أرادت أن يكونَ عندَها وفى حضانتِها لمحبتِها له . وقيل : كان يأخذُ الطعامَ مِن البيتِ فيُطعِمُه الفقراءَ . وقيل غيرُ ذلك . فلهذا ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾ وهى كلمتُه بعدَها . وقولُه : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أجابهم سرًّا لا جهرًا ، حِلْمًا وكَرَمًا وصفحًا وعفوًا . فدخلوا معه فى التَّرقُّقِ والتَّعطُّفِ ، فقالوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ أى إن أطلقنا المتَّهمَ وأخذْنا البرىءَ ، [١٣٢/١و] هذا ما لا نفعله ولا نسمَحُ به ، وإنما نأخذُ مَن وجدنا متاعَنا عندَه . وعندَ أهلِ الكتابِ أن يوسفَ تعَرَّفَ إليهم[2] حينئذٍ . وهذا مما غَلِطوا فيه ولم يفهموه جيدًا[3] .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/١٣ .

(٢) تعرَّف إليهم : جعلهم يعرفونه . اللسان (ع ر ف) .

(٣) فى م ، ص : « جدًّا » .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ * ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ * وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٠ - ٨٧] . يقولُ تعالى مخبِرًا عنهم أنهم لمّا استيأسوا مِن أخذِه منه خَلَصوا يتناجَوْن فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيلُ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وقد أخلفتُم عهدَه(١) وفرَّطتُم فيه كما فرَّطتُم فى أخيه يوسفَ مِن قبلِه ، فلم يَبْقَ لى وجهٌ أقابلُه به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أى ؛ لا أزالُ مقيمًا ههنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ فى القُدومِ عليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾ بأن يُقدِّرَنى على ردِّ أخى إلى أبى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ * ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أى ؛ أخبِروه بما رأيتُم من الأمرِ فى ظاهرِ المشاهدةِ ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ * وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى ؛ فإن هذا الذى أخبرناك به ، مِن أخذِهم

---

(١) فى ص : « موعده » .

أخانا[1] لأنه سرَق ، أمرٌ اشتَهر بمصرَ ، وعِلْمُه مع العِيرِ التى كنا نحن وهم هناك ﴿ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى ؛ ليس الأمرُ كما ذكرتم ، لم يَسرِقْ فإنه ليس بسَجِيَّةٍ له ولا خُلُقه ، وإنما سوَّلَت لكم أنفسُكم أمرًا ، فصبرٌ جميلٌ . قال ابنُ إسحاقَ وغيرُه[2] : لما كان التفريطُ منهم فى بنيامينَ مترتبًا على صنيعِهم فى يوسفَ قال لهم ما قال . وهذا كما قال بعضُ [١٣٢/١ظ] السلفِ : إنَّ من جزاءِ السيئةِ السيئةَ بعدَها . ثم قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يعنى يوسفَ وبنيامينَ وروبيلَ ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أى ؛ بحالى وما أنا فيه مِن فِراقِ الأحِبَّةِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فى جميعِ ما يُقدِّرُه ويفعلُه ، وله الحكمةُ البالغةُ والحُجةُ القاطعةُ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى ؛ أعرَضَ عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ذكَّره[3] حزنُه الجديدُ بالحزنِ القديمِ ، وحرَّك ما كان كامِنًا ، كما قال بعضُهم[4] :

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئتَ مِنَ الهوَى ... ما الحبُّ إلا لِلحبيبِ الأوَّلِ

وقال آخر[5] :

لقد لامنى عندَ القبورِ على البُكا ... رفيقى لتَذْرافِ[6] الدموعِ السَّوافِكِ

فقال أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَه ... لقبرٍ ثَوَى بينَ (7اللِّوَى فالدَّكادِكِ7) ؟

---

(١) فى ص : « إحدانا » .

(٢) تفسير الطبرى ٣٨/١٣ .

(٣) فى ح : « ذكرناه » .

(٤) البيت لأبى تمام فى شرح ديوانه ٢٥٣/٤ .

(٥) هو متمم بن نويرة . شرح ديوان الحماسة ٧٩٧/٢ .

(٦) فى الأصل : « لبدران » .

(٧ - ٧) اللِّوَى : ما التوى من الرمل . والدَّكادِك واحدها دَكْدَاك ؛ وهو ما تكبَّس من الرمل واستوى . ورواية الحماسة : « فالدوانك » . وصدر البيت الأخير روايته هكذا : « فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا » .

فقلتُ له إن الأسى يَبعثُ الأسى فدَعْنى فهذا كلُّه قبرُ مالِكِ

وقولُه : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ أى ؛ من كثرةِ البكاءِ ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى ؛ مُكْمَدٌ[1] من كثرةِ حزنِه ، وأسفِه وشوقِه إلى يوسفَ . فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوَحْدةِ[2] وألمِ الفِراقِ . قَالُواْ له على وجهِ الرَّحمةِ له والرأفةِ به والحرصِ عليه : ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾ يقولون : لا تزالُ تتذكرُه حتى يَنْحَلَ جسدُك ، وتَضعُفَ قوَّتُك ، فلو رفَقْتَ بنفسِك كان أَوْلَى بك ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقولُ لبنيه : لستُ أشكو إليكم[3] ولا إلى أحدٍ من الناسِ ما[4] أنا فيه ، إنما أشكوه إلى اللهِ عز وجل ، وأَعلمُ أن اللهَ سيجعلُ لى مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا ، وأَعلمُ أن رؤيا يوسفَ لا بدَّ أن تقعَ ، ولا بدَّ أن أسجدَ له أنا وأنتم حَسَبَ ما رأى . ولهذا قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال لهم محرِّضًا على تطلُّبِ يوسفَ وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرِهما : ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ أى ؛ لا تيأسوا من الفرجِ بعدَ الشدةِ ؛ فإنه لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ وفرجِه وما يقدِّرُه من المخرجِ فى المضايقِ إلا القومُ الكافرون .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ

---

(١) فى ح : « مكضم » ، وفى م : « مكظم » .

(٢) فى م : « الوجد » .

(٣) بعده فى الأصل : « إنما أشكو أى بثى وحزنى » .

(٤) فى الأصل : « وما » .

عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ * قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ * [١٣٣/١و] قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨ - ٩٣] . يخبرُ تعالى عن رجوعِ إخوةِ يوسفَ إليه ، وقُدومِهم عليه ، ورغبتِهم فيما لديه من المِيرةِ ، والصَّدقةِ عليهم بردِّ أخيهم بنيامينَ إليهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أى ؛ من الجَدْبِ وضيقِ الحالِ وكثرةِ العيالِ ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَـٰةٍ ﴾ أى ؛ ضعيفةٍ لا يُقْبلُ مِثلُها مِنَّا إلَّا أنْ يُتَجاوزَ عنا . قيل : كانت دراهمَ رديئةً . وقيل : قليلةً . وقيل : حبُّ الصَّنَوْبَرِ وحَبُّ البُطْمِ ونحوَ ذلك . وعن ابنِ عباسٍ : كانت خَلَقَ الغَرائرِ[1] والحبالِ ونحوَ ذلك ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ قيل : بقَبولِها . قاله السُّدِّىُّ . وقِيل : بردِّ أخينا إلينا . قاله ابنُ جُرَيْجٍ . وقال سفيانُ بنُ عُيَيْنةَ : إنما حُرِّمت الصدقةُ على نبيِّنا محمدٍ ﷺ . ونزَع بهذه الآيةِ . رواه ابنُ جريرٍ[2] . فلما رأى ما هم فيه من الحالِ ، وما جاءوا به مما لم يَبْقَ عندَهم سواه من ضعيفِ المالِ ، تعرَّف إليهم وعطَف عليهم قائلًا لهم عن أمرِ ربِّه وربِّهم ، وقد حسَر لهم عن جبينِه الشريفِ ، وما يَحْويه مِن الخالِ[3] فيه الذى يعرفون منه : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ * قَالُوٓاْ ﴾ وتعجَّبوا كلَّ العجبِ ، وقد تردَّدوا إليه مِرارًا عديدةً وهم لا يعرفون أنه هو ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ﴾

---

(١) الغرائر واحدتها غِرارة ؛ وهى وعاءٌ من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه .
(٢) تفسير الطبرى ٥٤/١٣ .
(٣) الخالُ : شامة فى البدن .

يعنى : أنا يوسفُ الذى صنعتم معه ما صنعتم ، وسلَف مِن أمرِكم فيه ما فرَّطتم .
وقولُه : ﴿ وَهَٰذَآ أَخِي ﴾ تأكيدٌ لِمَا قال ، وتنبيهٌ على ما كانوا أضمَروا لهما من الحسدِ ، وأعملوا فى أمرِهما من الاحتيالِ ؛ ولهذا قال : ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ أى ؛ بإحسانِه إلينا وصدقتِه علينا ، وإيوائِه لنا وشَدِّه معاقِدَ عِزِّنا ؛ وذلك بما أسلفنا من طاعتِه ، وصبْرِنا على ما كان منكم إلينا ، وطاعتِنا وبِرِّنا لأبينا ، ومحبتِه الشديدةِ لنا وشفقتِه علينا ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى ؛ فضَّلك وأعطاك ما لم يُعطِنا ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ أى ؛ فيما أسدَيْنا إليك ، وها نحن بينَ يديك ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أى ؛ لستُ أُعاتِبُكم[1] على ما كان منكم بعدَ يومِكم هذا . ثم زادهم على ذلك فقال : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ . ومن زعَم أن الوقفَ على قولِه : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ وابتدأ بقولِه : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [١٣٣/١ظ] . فقولُه ضعيفٌ ، والصحيحُ الأولُ . ثم أمَرهم بأن يذهبوا بقميصِه ، وهو الذى يلى جسدَه ، فيضعوه على عينَىْ أبيه ، فإنه يرجعُ إليه بصرُه بعدما كان ذهَب بإذنِ اللهِ . وهذا من خوارقِ العاداتِ ودلائِلِ النُّبُوَّاتِ وأكبرِ المعجزاتِ . ثم أمَرهم أن يتحمَّلوا بأهلِهم أجمعين إلى ديارِ مصرَ ، إلى الخيرِ والدَّعَةِ ، وجمعِ الشملِ بعدَ الفرقةِ ، على أكملِ الوجوهِ وأعلى الأمورِ .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ * فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

---

(١) فى م : « أعاقبكم » .

ﵟ ٱلرَّحِيمُ ﵞ [يوسف : ٩٤ - ٩٨] . قال عبدُ الرَّزَّاقِ[١] : أنبأنا إسرائيلُ ، عن أبي سِنَانٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ أبي الهُذَيْلِ ، سمعتُ ابنَ عباسٍ يقولُ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ . قال : لما خرَجَت العِيرُ هاجت ريحٌ ، فجاءت يعقوبَ بريحِ قميصِ يوسفَ ، فقال : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ . قال : فوجد ريحَه من مسيرةِ ثمانيةِ أيامٍ . وكذا رواه الثَّوْريُّ وشعبةُ ، وغيرُهما[٢] ، عن أبي سنانٍ ، به[٣] . وقال الحسنُ البصريُّ وابنُ جُرَيْجٍ المكيُّ : كان بينَهما مسيرةُ ثمانين فَرْسَخًا[٤] ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنةً[٥] . وقولُه : ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي ؛ تقولون : إنما قلتَ هذا من الفَنَدِ . وهو الخَرَفُ[٦] وكِبَرُ السِّنِّ . قال ابنُ عباسٍ ، وعطاءٌ ، ومُجاهدٌ ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ ، وقتادةُ : ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾ تُسفِّهونِ . وقال مُجاهدٌ أيضًا والحسنُ : تُهَرِّمُونِ . ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ قال قتادةُ والسُّدِّيُّ : قالوا له كلمةً غليظةً . قال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أي ؛ بمجرَّدِ ما جاء ألقَى القميصَ على وجهِ يعقوبَ ، فرجَع مِن فَوْرِه بصيرًا بعد ما كان ضريرًا ، وقال لبنيه عندَ ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي ؛ أعلمُ أن اللهَ سيَجمعُ شمِلي بيوسفَ ، وستَقَرُّ عيني به ، وسيُريني فيه ومِنه ما يَسُرُّني . فعندَ ذلك ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾ طلبوا إليه أن يستغفرَ لهم اللهَ عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٣٢٩/٢ .

(٢) سقط من : ح ، وفي م : « وغيرهم » .

(٣) تفسير الطبري ٥٧/١٣ ، ٥٨ .

(٤) الفَرْسَخُ : مقياس قديم من مقاييس الطول ، يقدر بثلاثة أميال . الوسيط ٧٠٧/٢ .

(٥) تفسير الطبري ٥٨/١٣ . إلا أنه فيه : « وكان قد فارقه قبل ذلك سبعًا وسبعين سنة » .

(٦) في الأصل : « الخوف » .

منه ومِن ابنِه ، وما كانوا عزموا عليه . ولمَّا كان مِن نيَّتِهم التوبةُ قبلَ الفعلِ ، وفَّقهم[1] اللهُ للاستغفارِ عندَ وقوعِ ذلك منهم ، فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا ، وما عليه عوَّلوا قائلًا : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ . [١/١٣٤و] .

قال ابنُ مسعودٍ ، وإبراهيمُ التَّيميُّ ، وعمرُو بنُ قَيْسٍ ، وابنُ جُرَيْجٍ[2] ، وغيرُهم : أَرجأهم إلى وقتِ السَّحَرِ . قال ابنُ جَريرٍ[3] : حدثنى أبو السائبِ ، حدثنا ابنُ إدريسَ ، سمعتُ عبدَ الرحمنِ بنَ إسحاقَ يَذكُرُ عن مُحارِبِ بنِ دِثَارٍ[4] قال : كان (٥عمٌّ لى٥) يأتى المسجدَ ، فسمِع إنسانًا يقولُ : اللهم دعَوْتَنى فأجبتُ ، وأمرتَنى فأطعتُ ، وهذا السَّحَرُ فاغفرْ لى . قال : فاستمَع الصوتَ ، فإذا هو من دارِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ، فسأل عبدَ اللهِ عن ذلك فقال : إن يعقوبَ أخَّرَ بنيه إلى السَّحَرِ بقولِه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾ وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] . وثبَت فى « الصَّحيحين »[6] عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « يَنزِلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا ، فيقولُ : هل مِن تائبٍ فأتوبَ عليه ، هل مِن سائلٍ فأُعطيَه ، هل مِن مستغْفِرٍ فأغفِرَ له » . وقد ورَد فى حديثٍ أن يعقوبَ أرجأ

---

(١) فى الأصل : « قيضهم » . وفى ح : « قيدهم » .

(٢) فى الأصل : « جرير » .

(٣) تفسير الطبرى ٦٤/١٣ .

(٤) فى الأصل : « دينار » .

(٥ - ٥) فى النسخ : « عمر » . والمثبت من تفسير الطبرى . وأخرج هذا الأثر الطبرانى (٨٥٤٨) من طريق عبد الرحمن به . وقال فى المجمع ١٥٥/١٠ : وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفى وهو ضعيف .

(٦) البخارى (١١٤٥) ، مسلم (٧٥٨) .

بَنيه إلى ليلةِ الجُمُعَةِ ، قال ابنُ جريرٍ[1] : حدَّثنى المُثَنَّى[2] ، ثنا سليمانُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أيوبَ الدمشقيُّ ، حدثنا الوليدُ ، أنبأنا ابنُ جُرَيْجٍ ، عن عطاءٍ وعِكْرِمةَ ، عن ابنِ عباسٍ ، عن رسولِ اللهِ ﷺ ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ﴾ يقولُ : « حتى تأتىَ ليلةُ الجمعةِ ، وهو قولُ أخى يعقوبَ لبَنِيه » . وهذا غريبٌ من هذا الوجهِ ، وفى رفعِه نظرٌ . والأشبهُ أن يكونَ موقوفًا على ابنِ عباسٍ رضى اللهُ عنهما .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩ - ١٠١] . هذا إخبارٌ عن حالِ اجتماعِ المتحابِّين بعدَ الفُرقةِ الطويلةِ التى قِيل[3] : إنها ثمانون سنةً . وقِيل : ثلاثٌ وثمانون سنةً . وهما روايتان عن الحسنِ . وقيل : خمسٌ وثلاثون سنةً . قاله قتادةُ . وقال محمدُ بنُ إسحاقَ : ذكروا أنه غاب عنه ثمانىَ عشرةَ سنةً . قال : وأهلُ الكتابِ يزعُمون أنه غاب عنه أربعين سنةً . وظاهرُ سياقِ القصَّةِ يرشدُ إلى تحديدِ المدةِ تقريبًا ؛ فإن المرأةَ راوَدته وهو شابٌّ ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً فيما قاله غيرُ واحدٍ ، فامتنَع فكان فى السجنِ بضعَ [١٣٤/١ظ] سنين ، وهى

---

(١) تفسير الطبرى ٦٥/١٣ .

(٢) فى الأصل : « ابن المثنى » .

(٣) تفسير الطبرى ٦٩/١٣ - ٧١ ، الدر المنثور ٣٨/٤ .

سبعٌ عندَ عِكْرِمةَ وغيرِه ، ثم أُخرِج فكانت سنواتُ الخِصْبِ السبعُ ، ثم لما أَمْحلَ الناسُ فى السبعِ البواقى جاء إخوتُه يَمتارون فى السنةِ الأولَى وحدَهم ، وفى الثانيةِ ومعهم أخوه بنيامينُ ، وفى الثالثةِ تَعرَّف إليهم ، وأمَرَهم بإحضارِ أهلِهم أجمعين ، فجاءوا كلُّهم . ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ اجتَمع بهما خصوصًا وحدَهما دونَ إخوتِه ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ . قيل : هذا من المُقدَّمِ والمُؤَخَّرِ ، تقديرُه : قال ادخلوا مصرَ ، وآوَى إليه أبوَيْه . وضعَّفه ابنُ جريرٍ[1] ، وهو معذورٌ . وقيل : بل تلقَّاهما وآواهما فى منزِلِ الخيامِ ، ثم لمَّا اقترَبوا من بابِ مصرَ قال : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ قاله ٱلسُّدِّىُّ . ولو قِيل : إن الأمرَ لا يَحتاجُ إلى هذا أيضًا ، وأنه ضُمِّنَ قولُه : ﴿ ٱدْخُلُواْ ﴾ معنى : اسكنوا مصرَ وأقيموا بها ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ، لكان صحيحًا مَليحًا أيضًا .

وعندَ أهلِ الكتابِ أن يعقوبَ لما وصَل إلى أرضِ جاشرَ ؛ وهى أرضُ بُلْبَيْسَ[2] ، خرَج يوسفُ لِتلقِّيه[3] ، وكان يعقوبُ قد بعَث ابنَه يهوذا بينَ يديه مبشرًا بقُدومِه . وعندَهم أن المَلِكَ أطلَق لهم أرضَ جاشرَ ، يكونون فيها ويقيمون بها ، بنَعَمِهم ومواشِيهم . وقد ذكَر جماعةٌ من المفسرين[4] أنه لما أَزِفَ قُدومُ نبىِّ اللهِ يعقوبَ ، وهو إسرائيلُ ، أراد يوسفُ أن يَخرُجَ لِتلقِّيه ، فرَكِب معه المَلِكُ وجنودُه ؛ خدمةً ليوسفَ وتعظيمًا لنبىِّ اللهِ إسرائيلَ ، وأنه دعا للمَلِكِ ، وأن اللهَ رفَع عن أهلِ مصرَ بقيةَ سِنِىِّ الجَدْبِ ببركةِ قُدومِه إليهم . فاللهُ أعلمُ . وكان جملةُ مَن قَدِم مع يعقوبَ مِن بنيه وأولادِهم - فيما

(١) تفسير الطبرى ٦٥/١٣ ، ٦٦ ، وانظر هذه الأقوال فى تفسيره أيضا ٧٠/١٣ ، ٧١ ، ٢٢٤/١٢ .
(٢) فى ح : « بلقيس » .
(٣) فى الأصل : « ليلتقيه » .
(٤) تفسير الطبرى ٦٦/١٣ .

قاله أبو إسحاقَ السَّبِيعيُّ[1] ، عن أبى عبيدةَ ، عن ابنِ مسعودٍ - ثلاثةً وستين إنسانًا . وقال موسى بنُ عُبَيْدةَ ، عن محمدِ بنِ كعبٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ شَدَّادٍ : كانوا ثلاثةً وثمانين إنسانًا[2] . وقال أبو إسحاقَ ، عن مسروقٍ : دخلوا وهم ثلثُمائةٍ وتسعون إنسانًا . قالوا : وخرجوا مع موسى وهم أزيَدُ مِن ستِّمائةِ ألفِ مقاتلٍ . وفى نصِّ أهلِ الكتابِ أنهم كانوا سبعين نَفْسًا ، وسمَّوْهم[3] .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قيل : كانت أُمُّه قد ماتت ، كما هو عندَ علماءِ التوراةِ . قال بعضُ المفسرين : فأحياها اللهُ تعالى . وقال آخرون : بل كانت خالَتَه ليا ، والخالةُ بمنزلةِ الأمِّ . وقال ابنُ جريرٍ[4] وآخرون : بل ظاهرُ القرآنِ يقتضى بقاءَ حياةِ أمِّه إلى يومئذٍ ، فلا يُعوَّلُ على نقلِ أهلِ الكتابِ فيما خالفه . وهذا قوىٌّ ، واللهُ أعلمُ . ورفَعهما على العرشِ ، أى ؛ أجلَسهما معه على سريرِه ﴿ وَخَرُّواْ [١/١٣٥و] لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أى ؛ سجَد له الأبوان والإخوةُ الأحدَ عشَرَ ؛ تعظيمًا وتكريمًا . وكان هذا مشروعًا لهم ، ولم يَزَلْ ذلك معمولًا به فى سائرِ الشرائعِ حتى حُرِّم فى مِلَّتِنا . ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ أى ؛ هذا تعبيرُ[5] ما كنتُ قصَصْتُه عليك ؛ مِن رؤيتِى الأحدَ عشَرَ كوكبًا والشمسَ والقمرَ ، حينَ[6] رأيتُهم لى ساجدين ، وأمَرتَنى بكتمانِها ، ووعَدتَنى ما وعَدتَنى عندَ ذلك ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى

---

(١) فى ح : « السمعى » .

(٢) تفسير الطبرى ١٣/٧٢ . وفيه أنهم كانوا ستة وثمانين إنسانًا .

(٣) انظر الفِصَل ١/١٦٥ - ١٦٨ . ومقدمة ابن خلدون ١/١٢ .

(٤) تفسير الطبرى ١٣/٦٧ .

(٥) فى ص : « تعيين » .

(٦) سقط من : الأصل .

حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ أى ؛ بعدَ الهمِّ والضِّيقِ جعلنى حاكمًا نافذَ الكلمةِ فى الدِّيارِ المصريةِ حيث شئتُ ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ أى ؛ الباديةِ . وكانوا يسكنون أرضَ العَرَبَاتِ[1] [2]من بلادِ الخليلِ[2] ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ أى ؛ فيما كان منهم إلىَّ مِن الأمرِ الذى تقدَّم وسبَق ذكرُه . ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ أى ؛ إذا أراد شيئًا هيَّأ أسبابَه ويسَّرها وسهَّلها مِن وجوهٍ لا يَهتدِى[3] إليها العبادُ ، بل يُقدِّرُها ويُيسِّرُها بلطيفِ صُنعِه وعظيمِ قدرتِه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أى ؛ بجميعِ الأمورِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فى خلقِه وشرعِه وقَدَرِه .

وعندَ أهلِ الكتابِ أن يوسفَ باع أهلَ مصرَ وغيرَهم ، من الطعامِ الذى كان تحتَ يدِه بأموالِهم كلِّها ؛ من الذهبِ والفضةِ والعَقَارِ والأثاثِ وما يَملِكونه كلَّه ، حتى باعهم بأنفسِهم فصاروا أَرِقَّاءَ ، ثم أطلَق لهم أرضَهم وأعتَق رقابَهم ، على أن يَعمَلوا ويكونَ خُمْسُ ما يشتغلون[4] مِن زرعِهم وثمارِهم للمَلِكِ ، فصارت سُنَّةَ أهلِ مصرَ بعدَه . وحكَى الثَّعلبىُّ[5] أنه كان لا يَشبعُ فى تلك السنين حتى لا يَنسَى الجِيعانَ ، وأنه إنما كان يأكلُ أَكْلةً واحدةً نصفَ النهارِ ، قال : فمِنْ ثَمَّ اقتدَى به الملوكُ الأخيارُ فى ذلك . قلتُ : وقد كان أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطابِ رضى اللهُ عنه لا يَشْبَعُ بطنُه عامَ الرَّمَادَةِ حتى ذهَب الجَدْبُ وأتَى الخِصْبُ . قال الشافعىُّ : قال رجلٌ من الأعرابِ لعُمَرَ[6] بعدما ذهَب عامُ الرَّمَادةِ : لقد انجلَتْ عنك وإنك لَابنُ حُرَّةٍ .

---

(١) العربات جمع عربة ؛ وهى بلاد العرب . معجم البلدان ٦٣٢/٣ ، اللسان (ع ر ب) .

(٢ - ٢) فى ص : « بعد الجليل » .

(٣) فى الأصل : « تهتدى » .

(٤) فى ح : « يستغلون » .

(٥) قصص الأنبياء ص ١١٣ .

(٦) سقط من : الأصل .

ثم لمّا رأى يوسفُ عليه السلامُ نعمتَه قد تمَّت وشملَه قد اجتَمع ، عرَف أنَّ هذه الدارَ لا يَقِرُّ بها مِن قَرارٍ ، وأن كلَّ شيءٍ فيها ومَن عليها فَانٍ ، وما بعدَ التمامِ إلا النقصانُ ، فعندَ ذلك أثنَى على ربِّه بما هو أهلُه ، واعترَف له بعظيمِ إحسانِه وفضلِه ، وسأل منه ، وهو خيرُ المسئُولين ، أن يَتوفَّاه - أى[1] حينَ يتوفَّاه - على الإسلامِ ، وأن يُلحِقَه بعبادِه الصالحين . وهذا كما يقالُ فى الدعاءِ : اللهم [١٣٥/١ظ] أَحْيِنا مسلمين وتَوفَّنا مسلمين . أى[1] حينَ تَتوفَّانا . ويَحتملُ أنه سأل ذلك عندَ احتضارِه عليه السلامُ ، [2]كما سأل النبىُّ ﷺ عندَ احتضارِه[2] أن يَرْفَعَ رُوحَه إلى الملإِ الأعلَى ، والرُّفَقاءِ الصالحين من النبيين والمرسلين ، كما قال : « اللهمَّ فى الرَّفيقِ الأَعْلَى » . ثلاثًا ، ثم قَضَى[3] . ويَحتملُ أن يوسفَ عليه السلامُ سأل الوفاةَ على الإسلامِ ، مُنْجزًا فى صحةٍ منه[4] وسلامةٍ ، وأن ذلك كان سائغًا فى مِلَّتِهم وشِرْعَتِهم ، كما رُوِى عن ابنِ عباسٍ[5] أنه قال : ما تَمَنَّى نبىٌّ قَطُّ الموتَ قبلَ يوسفَ . فأما فى شريعتِنا ، فقد نُهِىَ عن الدعاءِ بالموتِ إلا عندَ الفتنِ ، كما فى حديثِ مُعَاذٍ ، فى الدعاءِ الذى رواه أحمدُ[6] : « وإذا أردتَ بقومٍ فِتْنةً ، فتوفَّنا إليكَ غيرَ مَفْتونِين » . وفى الحديثِ الآخرِ[7] : « ابنَ آدَمَ ، الموتُ خيرٌ لك مِن الفتنةِ » . وقالت مريمُ عليها السلامُ : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] . وتمنَّى الموتَ علىُّ بنُ أبى طالبٍ لمّا تفاقَمت الأمورُ

---

(١) فى الأصل ، ص : « إلى » .

(٢ - ٢) زيادة من : م .

(٣) البخارى (٥٦٧٤) ، مسلم (٢١٩١) .

(٤) فى م ، ص : « بدنه » .

(٥) تفسير الطبرى ٧٣/١٣ .

(٦) المسند ٢٤٣/٥ ، صحيح (إرواء الغليل ٦٨٤) .

(٧) المسند ٤٢٧/٥ ، (صحيح الجامع ١٣٨) .

وعظُمَت الفتنُ ، واشتدَّ القتالُ وكَثُر القِيلُ والقالُ . وتمنَّى ذلك البخارِىُّ أبو عبدِ اللهِ صاحبُ « الصحيحِ » لَمَّا اشتَدَّ عليه الحالُ ولَقِىَ مِن مُخالِفيه الأهوالَ . فأما فى حالِ الرفاهيةِ ، فقد روَى البخارىُّ ومسلمٌ فى « صحيحَيْهما »[1] ، مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لا يَتمنَّى أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزَل به ، إمَّا مُحسِنًا فيزدادُ ، وإمَّا مُسيئًا فلعلَّه يَستَعْتِبُ ، ولكنْ لِيقُلْ : اللهم أَحْيِنى ما كانت الحياةُ خيرًا لى ، وتوَفَّنى إذا كانت الوفاةُ خيرًا لى » . والمرادُ بالضُّرِّ ههنا : ما يَخُصُّ العبدَ فى بدنِه ؛ مِن مرضٍ ونحوِه ، لا فى دينِه . والظاهرُ أن نبىَّ اللهِ يوسفَ عليه السلامُ سأل ذلك ، إمّا عندَ احتضارِه ، أو[2] إذا كان ذلك أن يكونَ كذلك .

وقد ذكَر ابنُ إسحاقَ[3] عن أهلِ الكتابِ ، أن يعقوبَ أقام بديارِ مصرَ عندَ يوسفَ سبعَ عشرةَ سنةً ، ثم تُوُفِّى عليه السلامُ ، وكان قد أوصَى إلى يوسفَ عليه السلامُ أنْ يُدْفَنَ عندَ أَبَوَيْه إبراهيمَ وإسحاقَ . قال السُّدِّىُّ[4] : فصَبَره[5] وسيَّره إلى بلادِ الشامِ ، فدفَنه بالمغارةِ عندَ أبيه إسحاقَ وجَدِّه الخليلِ عليهم السلامُ . وعندَ أهلِ الكتابِ أن عُمُرَ يعقوبَ ، يومَ دخَل مصرَ ، مائةٌ وثلاثون سنةً . وعندَهم أنه أقام بأرضِ مصرَ سبعَ عشرةَ سنةً ، ومع هذا قالوا : فكان جميعُ عِمرِه مائةً وأربعين سنةً . هذا نصُّ كتابِهم ، وهو غلَطٌ ؛

---

(1) البخارى (٥٦٧١) ، مسلم (٢٦٨٠) .
ويَستَعْتِبُ : يرجع عن الإساءة ، ويطلب الرضا . النهاية ٣/١٧٥ .

(2) فى ص : « و » .

(3) تاريخ الطبرى ١/٣٦٤ .

(4) تفسير الطبرى ١٣/٧٥ .

(5) فى م : « فصبر » . وصبره : أوثقه . اللسان (ص ب ر) .

إما فى النُّسخةِ ، أو منهم ، أو قد أُسقَطوا الكَسْرَ ، وليس بعادتِهم فيما هو أكثرُ مِن هذا ، فكيف يستعملون هذه الطريقةَ ههنا ؟! .

وقد قال اللهُ تعالى فى [١/١٣٦و] كتابِه العزيزِ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] . فوصَّى بنيه بالإخلاصِ ، وهو دينُ الإسلامِ ، الذى بعَث اللهُ به الأنبياءَ عليهم السلامُ . وقد ذكَر أهلُ الكتابِ أنه أوصَى بَنِيه واحدًا واحدًا ، وأخبَرهم بما يكونُ مِن أمرِهم ، وبشَّر يهوذا بخروجِ نبىٍّ عظيمٍ مِن نَسْلِه تُطيعُه الشُّعوبُ ، وهو عيسى ابنُ مريمَ . واللهُ أعلمُ .

وذكَروا أنه لما مات يعقوبُ بكَى عليه أهلُ مصرَ سبعين يومًا ، وأمَر يوسفُ الأطباءَ فطيَّبوه بطِيبٍ ، ومكَث فيه أربعين يومًا ، ثم استأذَن يوسفُ مَلِكَ مصرَ فى الخروجِ مع أبيه ليَدفنَه عندَ أهلِه ، فأَذِن له ، وخرَج معه أكابرُ مصرَ وشيوخُها ، فلما وصلوا حبرونَ ، دفنوه فى المغارةِ التى كان اشتراها إبراهيمُ الخليلُ مِن عفرونِ بنِ صخرٍ الحِيثىِّ ، فدفنوه فيها وعمِلوا له عَزَاءً سبعةَ أيامٍ . قالوا : ثم رجعوا إلى بلادِهم ، وعزَّى إخوةُ يوسفَ ليوسفَ فى أبيهم وترقَّقوا له ، فأكرمهم وأحسنَ مُنقَلَبَهم ، فأقاموا ببلادِ مصرَ . ثم حضرَت يوسفَ عليه السلامُ الوفاةُ ، فأوصَى أن يُحملَ معهم إذا خرجوا مِن مصرَ ، فيُدفَنَ عندَ آبائِه ، فحنَّطُوه ووضَعوه فى تابوتٍ ، فكان بمصرَ حتى أخرَجه معه موسى عليه السلامُ ، فدفَنه عندَ آبائِه كما سيأتى . قالوا : فمات وهو ابنُ مائةٍ سنةٍ وعشرِ سنين . هذا نصُّهم فيما رأيتُه ، وفيما حكاه ابنُ جريرٍ[1] أيضًا . وقال مُباركُ

---

(١) تاريخ الطبرى ١/٣٦٤ .

ابنُ فَضَالةَ ، عن الحسنِ[1] : أُلْقِىَ يوسفُ فى الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً ، وغاب عن أبيه ثمانين سنةً ، وعاش بعدَ ذلك ثلاثًا وعشرين سنةً ، ومات وهو ابنُ مائةِ سنةٍ وعشرين سنةً . وقال غيرُه : أوصَى إلى أخيه يهوذا[2] . صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى الأنبياءِ أجمعين .

---

(١) تفسير الطبرى ٧١/١٣ .

(٢) قصص الأنبياء للثعالبى ص ١٢٥ .

قصةُ نبيِّ اللهِ أيُّوبَ عليه السلامُ

قال ابنُ إسحاقَ[1] : كان رجلًا من الرُّومِ ، [2]وهو أيوبُ[2] بنُ مُوصِ بنِ رَزَاحِ[3] بنِ العِيصِ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ . وقال غيرُه : هو أيوبُ بنُ مُوصِ بنِ رغويلَ بنِ العيصِ بنِ إسحاقَ بنِ يعقوبَ . وقيل غيرُ ذلك فى نَسَبِه . وحكَى ابنُ عساكِرَ[4] أنَّ أمَّه بنتُ لوطٍ عليه السلامُ . وقيل : كان أبوه ممَّن آمَن بإبراهيمَ عليه السلامُ يومَ أُلْقِىَ فى النارِ فلم تَحرِقْه . والمشهورُ الأوَّلُ ؛ لأنه مِن ذريةِ إبراهيمَ ، كما قرَّرنا عندَ قولِه تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ [١٣٦/١ظ] وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ الآيات [الأنعام : ٨٤] . مِن أن الصحيحَ أن الضميرَ عائدٌ على إبراهيمَ دونَ نوحٍ عليهما السلامُ ، وهو من الأنبياءِ المنصوصِ على الإيحاءِ إليهم فى سورةِ « النساء » فى قولِه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ [النساء : ١٦٣] الآية . فالصحيحُ أنه من سلالةِ العِيصِ بنِ إسحاقَ . وامرأتُه قيل : اسمُها ليا بنتُ يعقوبَ . وقيل : رحمةُ بنتُ أفرائيمَ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ . وهذا أشهر ، فلهذا ذكرناه هـٰهنا ، ثم نَعطِفُ بذكرِ أنبياءِ بنى إسرائيلَ بعدَ ذكرِ قصتِه إن شاء الله ، وبه الثقةُ وعليه التُّكْلانُ .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٢٢/١ .
(٢ - ٢) سقط من : الأصل .
(٣) فى الطبرى : « رازح » .
(٤) تاريخ دمشق ٥٨/١٠ .

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] . وقال تعالى فى سورةِ « صٓ »[2] : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ : ٤١ - ٤٤] . [3]وروَى ابنُ عساكِرَ[4] من طريقِ الكَلْبىِّ ، أنه قال : أولُ نبىٍّ بُعِث إدريسُ ، ثم نوحٌ ، ثم إبراهيمُ ، ثم إسماعيلُ ، ثم إسحاقُ ، ثم يعقوبُ ، ثم يوسفُ ، ثم لوطٌ ، ثم هودٌ ، ثم صالحٌ ، ثم شُعَيبٌ ، ثم موسى وهارونُ ، ثم إلياسُ ، ثم اليسَعُ ، ثم عرفى بنُ سويلخ بنِ أفرائيمَ بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ ، ثم يونسُ بنُ مَتَّى مِن بنى يعقوبَ ، ثم أيوبُ بنُ رَزاحِ بنِ آموصِ بنِ ليفرز بنِ العِيصِ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ . وفى بعضِ هذا الترتيبِ نَظَرٌ ، فإن هودًا وصالحًا المشهورُ أنَّهما بعدَ نوحٍ وقبلَ إبراهيمَ ، واللهُ أعلمُ[3] .

قال علماءُ التفسيرِ والتاريخِ وغيرُهم[5] : كان أيوبُ رجلًا كثيرَ المالِ ، من سائرِ صنوفِه وأنواعِه ؛ من الأنعامِ والعبيدِ والمواشى والأراضى المتسعةِ بأرضِ البَثْنِيَّةِ من أرضِ حُورَانَ . وحكَى ابنُ عساكِرَ أنها كلَّها كانت له ، وكان له أولادٌ وأهلون كثيرٌ ، فسُلِب مِن ذلك جميعِه ، وابْتُلِىَ فى جسدِه

(١) التفسير ٣٥٣/٥ .

(٢) التفسير ٦٥/٧ .

(٣ - ٣) سقط من : الأصل .

(٤) تاريخ دمشق ٥٨/١٠ ، ٥٩ .

(٥) تفسير الطبرى ٥٧/١٧ ، تاريخ دمشق ٥٩/١٠ .

بأنواعِ البلاءِ ، ولم يَبْقَ منه عضوٌ سليمٌ سوى قلبِه ولسانِه ، يَذكُرُ اللهَ عز وجل بهما ، وهو فى ذلك كلِّه صابرٌ محتسِبٌ ذاكرٌ للهِ عز وجل فى ليلِه ونهارِه ، وصباحِه ومَسائِه . وطال مرضُه حتى عافَه الجليسُ ، وأَوْحَش منه الأنيسُ ، وأُخْرِج من بلدِه ، وأُلْقِى على مَزْبَلَةٍ خارجَها ، وانقطَع عنه الناسُ ، ولم يَبْقَ أحدٌ يَحنُو عليه سوى زوجَتِه ، كانت تَرْعَى له حقَّه وتَعرِفُ قديمَ إحسانِه إليها وشفقتِه عليها ، فكانت تَتردَّدُ إليه ، فتُصلحُ مِن شأنِه ، وتُعينُه على قضاءِ حاجتِه ، وتقومُ بمصلحتِه ، وضَعُف حالُها ، وقلَّ مالُها ، حتى كانت تَخدُمُ الناسَ بالأجرِ ؛ لتُطعِمَه وتقومَ بأَوَدِه ، رضى اللهُ عنها وأرضاها ، وهى صابرةٌ معه على ما حَلَّ بهما من فِراقِ المالِ والولدِ ، وما يَختصُّ بها من المصيبةِ بالزوجِ ، وضِيقِ ذاتِ اليدِ ، وخِدمةِ الناسِ ، بعدَ السعادةِ والنِّعمةِ والخِدمةِ والحُرْمةِ ، فإنا للهِ وإنا إليه [١/١٣٧و] راجعون .

وقد ثبت فى « الصحيحِ »[١] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « أشدُّ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ ثم الصالحون ثم الأمثلُ فالأمثلُ ؛ يُبْتَلَى الرجلُ على حَسَبِ دِينِه ، فإنْ كان فى دينِه صلابَةٌ زِيدَ فى بلائِه » . ولم يزِدْ هذا كلُّه أيوبَ عليه السلامُ إلا صبرًا واحتِسابًا وحمدًا وشكرًا ، حتى إن المَثَلَ لَيُضربُ بصبرِه عليه السلامُ ، ويُضْرَبُ المَثَلُ أيضًا بما حصَل له من أنواعِ البَلَايَا . وقد رُوِى عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ وغيرِه مِن علماءِ بنى إسرائيلَ ، فى قصةِ أيوبَ ، خبرٌ طويلٌ فى كيفيةِ ذَهابِ مالِه وولدِه وبلائِه فى جسدِه ، واللهُ أعلمُ بصحتِه[٢] . وعن مُجاهدٍ أنه قال : كان أيوبُ عليه السلامُ أولَ مَن أصابه الجُدَرِىُّ . وقد اختلفوا فى مدةِ

---

(١) لم يعزه صاحب تحفة الأشراف ٣/٣١٨ إلى أى الصحيحين ، لكن رواه الإمام أحمد فى مسنده ١/١٧٢ ، والترمذى (٢٣٩٨) ، وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (٤٠٢٣) ، والدارمى (٢٧٨٣) ، وانظر الإحسان (٢٩٠٠ ، ٢٩٠١ ، ٢٩٢٠) ، (صحيح الترمذى ١٩٥٦) .

(٢) أورده الطبرى فى تفسيره ١٧/٥٧ - ٦٥ .

بَلْواه على أقوالٍ ؛ فزعَم وَهْبٌ أنه ابْتُلِىَ ثلاثَ سنينَ لا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ[1] .
وقال أنسٌ : ابتُلِىَ سبعَ سنين وأشهرًا ، وأُلْقِىَ على مَزْبَلَةٍ لِبنى إسرائيلَ ، تختلفُ الدَّوابُّ فى جسدِه ، حتى فرَّج اللهُ عنه ، وعظَّم له الأجرَ ، وأحسَن الثناءَ عليه .
وقال حُميدٌ : مكَث فى بَلْواه ثمانىَ عشْرةَ سنةً . وقال السُّدِّىُّ : تَساقَط لحمُه حتى لم يَبْقَ إلا العظْمُ والعَصَبُ ، فكانت امرأتُه تأتيه بالرَّمَادِ تَفْرُشُه تحتَه ، فلما طال عليها قالت : يا أيوبُ ، لو دَعْوتَ ربَّك لَفرَّجَ عنك . فقال : قد عشتُ سبعينَ سنةً صحيحًا ، فهو قليلٌ للهِ أن أَصبِرَ له سبعينَ سنةً . فجَزِعَت مِن هذا الكلامِ .

وكانت تَخدُمُ الناسَ بالأجرِ ، وتُطعِمُ أيوبَ عليه السلامُ . ثم إن الناسَ لم يكونوا يستخدمونها ؛ لِعلمِهم أنها امرأةُ أيوبَ ، خوفًا أن ينالَهم من بلائِه ، أو تُعْدِيَهم بمخالطتِه ، فلما لم تجدْ أحدًا يستخدمُها ، عَمَدَت فباعت لبعضِ بناتِ الأشرافِ إحدى ضَفيرَتَيْها بطعامٍ طيبٍ كثيرٍ ، فأتت به أيوبَ ، فقال : مِن أين لكِ هذا ؟ وأنكَره ، فقالت : خدمتُ به أناسًا . فلما كان الغدُ لم تجدْ أحدًا ، فباعت الضَّفيرةَ الأخرى بطعامٍ ، فأتَتْه به فأنكره أيضًا ، وحلَف لا يأكلُه حتى تُخبرَه مِن أين لها هذا الطعامُ ، فكشَفت عن رأسِها خِمارَها ، فلما رأى رأسَها محلوقًا قال فى دعائِه : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

وقال ابنُ أبى حاتمٍ[2] : حدثنا أبى ، حدثنا أبو[3] سَلَمَةَ ، حدثنا جَريرُ بنُ

---

(1) تفسير الطبرى ٦٦/١٧ .
(2) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٢٨/٤ وعزاه إلى ابن أبى حاتم . والمصنف فى التفسير ٣٥٦/٥ .
(3) فى الأصل : « ابن » .

حازمٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ[1] ، قال : كان لأيوبَ أخَوان ، فجاءا يومًا فلم يستطيعا أن يَدْنُوَا منه مِن رِيحِه ، فقاما من بعيدٍ ، فقال أحدُهما لصاحبِه : لو كان اللهُ عَلِم من أيوبَ خيرًا ما ابتلاه بهذا . فجَزِع أيوبُ مِن قولِهما جَزَعًا لم يَجْزَعْ مِن شيءٍ قَطُّ مثلَه ، فقال : اللهمَّ [١٣٧/١ظ] إن كنتَ تعلمُ أنى لم أَبِتْ ليلةً قَطُّ شبعانًا وأنا أَعلمُ مكانَ جائعٍ فصدِّقْنى[2] . فصُدِّقَ من السماءِ وهما يسمعان . ثم قال : اللهمَّ إن كنتَ تعلمُ أنى لم يكُنْ لى قميصانِ قَطُّ وأنا أَعلمُ مكانَ عارٍ فصدِّقْنى . فصُدِّقَ من السماءِ وهما يسمعان . ثم قال : اللهمَّ بعزَّتِك - وخرَّ ساجدًا ، فقال - : اللهمَّ بعزَّتِك ، لا أَرفعُ رأسى أبدًا حتى تكشِفَ عنِّى . فما رفَع رأسَه حتى كُشِف عنه .

وقال ابنُ أبى حاتمٍ وابنُ جريرٍ[3] جميعًا : حدثنا يونُسُ بنُ عبدِ الأَعْلَى ، أنبأنا ابنُ وهْبٍ ، أخبرنى نافعُ بنُ يَزيدَ ، عن عُقيلٍ ، عن الزُّهرىِّ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، أن النبىَّ ﷺ قال : « إن نبىَّ اللهِ أيوبَ لَبِثَ به بلاؤُه ثمانىَ عشْرةَ سنةً ، فرَفَضَه القريبُ والبعيدُ ، إلا رجلَيْن مِن إخوانِه كانا مِن أخصِّ إخوانِه له ، كانا يَغدُوَان إليه ويَرُوحان ، فقال أحدُهما لصاحبِه : (٤تعْلَمُ واللهِ٤) ، لقد أذنَب أيوبُ ذنبًا ما أذنبَه أحدٌ مِن العالمين . قال له صاحبُه : وما ذاك ؟ قال : منذُ ثمانىَ عشرةَ سنةً لم يَرْحَمْه ربُّه فيَكْشِفَ ما به . فلما راحَا إليه ، لم يَصبرِ الرجلُ حتى ذكَر ذلك له ، فقال أيوبُ : لا أدرى ما تقولُ ،

---

(١) فى الأصل : « عمر » .

(٢) صدَّقْتُه : نسبتُه إلى الصدق ، وقلتُ له : صَدَقْتَ . المصباح المنير (ص د ق) .

(٣) تفسير الطبرى ١٦٧/٢٣ ، وعزاه فى الدر المنثور ٣٣٠/٤ إلى ابن أبى حاتم . وانظر الإحسان (٢٨٩٨) .

(٤ - ٤) فى م : « يعلم الله » .

غيرَ أن اللهَ عز وجل يَعلمُ أنى كنتُ أمُرُّ على الرجلين يتنازعانِ فيَذكُرانِ اللهَ ، فأَرجِعُ إلى بيتى فأُكفِّرُ عنهما ؛ كراهيةَ أنْ يَذكُرَا اللهَ إلا فى حقٍّ » . قال : « وكان يَخرُجُ فى حاجتِه ، فإذا قضاها أمسكَت امرأتُه بيدِه حتى يَرجِعَ ، فلما كان ذاتَ يومٍ أبطأَت عليه ، فأوحَى اللهُ إلى أيوبَ فى مكانِه أنِ : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاستَبْطَأَتْه فتلقَّتْه تَنظُرُ ، وأقبَلَ عليها قد أذهَب اللهُ ما به من البلاءِ ، وهو على أحسَنِ ما كان ، فلما رأته ، قالت : أىْ بارَكَ اللهُ فيك ، هل رأيتَ نبىَّ اللهِ هذا المُبْتَلَى ؟ فواللهِ على ذلك ما رأيتُ رجلًا أشبهَ به منك إذْ كان صحيحًا . قال : فإنِّى أنا هو » . قال : « وكان له أَنْدَرَانِ[1] ؛ أَنْدَرٌ للقمحِ ، وأَنْدَرٌ للشَّعيرِ ، فبعَث اللهُ سحابَتَيْن ، فلما كانت إحداهما على أندرِ القمحِ أفرَغَتِ فيه الذهبَ حتى فاض ، وأفرَغَت الأخرى فى أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ حتى فاض » . هذا لفظُ ابنِ جَريرٍ ، وهكذا رواه بتمامِه ابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »[2] ، عن محمدِ بنِ الحسنِ بنِ قُتَيبةَ ، عن حَرْمَلَةَ ، عن ابنِ وَهْبٍ ، به . وهذا غريبٌ رَفْعُه جدًّا ، والأشبَهُ أنْ يكونَ موقوفًا . وقال ابنُ أبى حاتمٍ[3] : حدثنا أبى ، ثنا موسى بنُ إسماعيلَ ، حدثنا حمادٌ ، حدثنا علىُّ بنُ زيدٍ ، عن يوسفَ بنِ مِهْرَانَ ، عن ابنِ عباسٍ ، قال : وألبسَه اللهُ حُلَّةً مِن الجنةِ ، فتنحَّى [١٣٨/١و] أيوبُ وجلَس فى ناحيةٍ ، وجاءت امرأتُه فلم تَعرِفْه ، فقالت : يا عبدَ اللهِ ، هذا المُبْتَلَى الذى كان ههنا ، لعلَّ الكلابَ ذهَبت به أو الذئابَ ؟ وجعلَت تُكلِّمُه ساعةً . قال : وَيْحَكِ[4] أنا أيوبُ . قالت : أتَسْخَرُ منِّى يا عبدَ اللهِ ؟ فقال : وَيْحَكِ ، أنا أيوبُ قد

---

(١) الأَنْدَرُ : البَيْدَرُ . وهو الموضع الذى تُداس فيه الحبوب . القاموس المحيط (ن د ر) .
(٢) الإحسان (٢٨٩٨) .
(٣) عزاه فى الدر المنثور ٣١٥/٥ لابن أبى حاتم . وانظر تفسير ابن كثير ٣٥٦/٥ .
(٤) فى ح ، م : « ولعل » .

ردَّ اللهُ عليَّ جسَدى . قال ابنُ عباسٍ : وردَّ اللهُ عليه مالَه ، وولدَه بأعيانِهم ومثْلَهم معهم . وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ : أوحَى اللهُ إليه : قد رَدَدْتُ عليك أهلَك ومالَك ومثلَهم معهم ، فاغتسِلْ بهذا الماءِ فإن فيه شفاءَك ، وقرِّبْ عن صحابَتِك قُربانًا واستغفِرْ لهم ؛ فإنهم قد عصَوْنى فيك . رواه ابنُ أبى حاتمٍ[1] .

وقال ابنُ أبى حاتمٍ[2] : ثنا أبو زُرْعَةَ ، حدثنا عمرُو بنُ مرزوقٍ ، حدثنا همَّامٌ ، عن قَتادةَ ، عن النَّضْرِ بنِ أنسٍ ، عن بَشِيرِ بنِ نَهِيكٍ ، عن أبى هُرَيرةَ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « لما عافَى اللهُ أيوبَ عليه السلامُ ، أَمْطَر عليه جَرادًا مِن ذهَبٍ ، فجعَل يأخذُ بيدِه ويَجعَلُ فى ثوبِه » . قال : « فقيل له : يا أيوبُ ، أمَا تَشبَعُ ؟ قال : يا ربِّ ، ومَنْ يشبَعُ مِن رحمتِك ؟! » . وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ[3] ، عن أبى داودَ الطَّيَالِسِىِّ وعبدِ الصَّمدِ ، عن همامٍ ، عن قَتادةَ ، به . ورواه ابنُ حِبَّانَ فى « صحيحِه »[4] عن عبدِ اللهِ بنِ محمدٍ الأَزْدِىِّ ، عن إسحاقَ ابنِ راهَوَيْه ، عن عبدِ الصَّمدِ به . ولم يُخرِّجْه أحدٌ من أصحابِ الكتبِ ، وهو على شرطِ « الصحيحِ » . فاللهُ أعلمُ .

وقال الإمامُ أحمدُ[5] : ثنا سفيانُ ، عن أبى الزِّنادِ ، عن الأَعْرَجِ ، عن أبى هُرَيرةَ : أُرْسِلَ على أيوبَ رِجْلٌ[6] من جَرادٍ من ذهبٍ ، فجعَل يَقبِضُها فى ثوبِه ، فقِيل : يا أيوبُ ، ألم يَكفِكَ ما أعطيناك ؟ قال : أَىْ ربِّ ، ومَن يَستغنى عن فضلِك . هذا موقوفٌ . وقد رُوى عن أبى هُرَيرةَ مِن وجهٍ آخرَ مرفوعًا .

---

(١) انظر التفسير ٢٥٦/٥ .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٣١/٤ وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) المسند ٣٠٤/٢ ، ٤٩٠ من طريق الطيالسى ، وفى ٣٤٧/٢ من طريق عبد الصمد ، وإسناده صحيح .

(٤) الإحسان (٦٢٣٠) .

(٥) المسند ٢٤٣/٢ ، وأخرجه مرفوعا فى المسند ٣٠٤/٢ ، وإسنادهما صحيح .

(٦) رِجْلٌ من جَرَاد : الجرادُ الكثير . النهاية ٢٠٣/٢ .

وقال الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا عبدُ الرَّزَّاقِ ، حدثنا مَعْمَرٌ ، عن هَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ ، قال : هذا ما حدثنا أبو هُرَيرةَ ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « بينما أيوبُ يَغتَسِلُ عُرْيانًا خَرَّ عليه جَرادٌ مِن ذهبٍ ، فجعَل أيوبُ يَحْثِى فى ثوبِه ، فناداه ربُّه عز وجل : يا أيوبُ ، ألم أكُنْ أغنيتُك عما ترى ؟ قال : بلى يا ربِّ ، ولكنْ لا غِنَى لى عن بَرَكَتِك » . رواه البخاريُّ[2] مِن حديثِ عبدِ الرزاقِ ، به .

وقولُه : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أيِ اضْرِبِ الأرضَ برجلِك . فامتَثَل ما أُمِر به ، فأنْبَع اللهُ له عينًا باردةَ الماءِ ، وأُمِر أن يَغتسلَ فيها ويَشربَ منها ، فأذْهبَ اللهُ عنه ما كان يجدُه مِن الألمِ والأذى والسَّقَمِ والمرضِ الذى كان فى جسدِه ، ظاهرًا وباطنًا ، وأبْدلَه اللهُ [١٣٨/١ظ] بعدَ ذلك كلِّه صحةً ظاهرةً وباطنةً ، وجمالًا تامًّا ، ومالًا كثيرًا ، حتى صَبَّ له من المالِ صَبًّا ؛ مطرًا عظيمًا جَرادًا من ذهبٍ ، وأَخلَفَ اللهُ له أهلَه ، كما قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فقيل : أحياهم اللهُ بأعيانِهم . وقِيل : آجَرَه فيمَن سلَف ، وعوَّضَه عنهم فى الدنيا بدَلَهم ، وجمَع له شملَه بكلِّهم فى الدَّارِ الآخرةِ . وقولُه : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى ؛ رفعنا عنه شِدَّتَه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ رحمةً منا به ورأفةً وإحسانًا ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴾ أى ؛ تذكرةً لمن ابتُلِىَ فى جسدِه أو مالِه أو ولدِه ، فله أُسْوةٌ بنبىِّ اللهِ أيوبَ ، حيث ابتلاه اللهُ بما هو أعظمُ من ذلك ، فصبَر واحتسَب حتى فرَّج اللهُ عنه . ومن فَهِم مِن هذا اسمَ امرأتِه ، فقال : هى رحمةُ . من هذه الآيةِ ، فقد أَبْعَدَ النُّجْعَةَ [3]وأَغْرَقَ فى النَّزْعِ[3] .

---

(١) المسند ٣١٤/٢ ، (صحيح) .

(٢) البخارى (٣٣٩١) .

(٣ - ٣) فى م : « وأغرق النزع » .

وقال الضحاكُ ، عن ابنِ عباسٍ : ردَّ اللهُ إليها شبابَها وزادها ، حتى ولدَتْ له ستةً وعشرين ولدًا ذكرًا ، وعاش أيوبُ بعدَ ذلك سبعين سنةً بأرضِ الرومِ على دينِ الحَنيفيَّةِ ، ثم غيَّروا بعدَه دينَ إبراهيمَ .

وقولُه : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . هذه رخصةٌ من اللهِ تعالى لعبدِه ورسولِه أيوبَ عليه السلامُ فيما كان مِن حَلِفِه لَيَضْرِبَنَّ امرأَته مائةَ سَوْطٍ . فقيل : حَلِفُه ذلك لِبَيْعِها ضفائِرَها . وقيل : لأنه اعترَضها[1] الشيطانُ فى صورةِ طبيبٍ يصفُ لها دواءً لأيوبَ ، فأتَتْه فأخبَرته ، فعرَف أنه الشيطانُ ، فحلَف لَيَضْرِبَنَّها مائةَ سَوْطٍ . فلما عافاه اللهُ عز وجل أفتاه أن يأخُذَ ضِغْثًا ؛ وهو كالعِثْكالِ الذى يَجمعُ الشَّمارِيخَ[2] ، فيَجمعَها كلَّها ويَضربَها به ضربةً واحدةً ، ويكونُ هذا مُنَزَّلًا مَنزِلةَ الضربِ بمائةِ سَوْطٍ ، ويَبَرُّ ولا يَحْنَثُ . وهذا من الفرجِ والمخرجِ لمن اتقَى اللهَ وأطاعه ، ولا سيما فى حقِّ امرأتِه الصابرةِ المحتسبةِ المكابِدةِ ، الصِّدِّيقةِ البارَّةِ الراشِدةِ ، رضى اللهُ عنها . ولهذا عقَّب اللهُ هذه الرُّخصةَ وعلَّلها بقولِه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقد استعمَل كثيرٌ مِن الفقهاءِ هذه الرُّخصةَ فى بابِ الأَيْمانِ والنُّذورِ ، وتوسَّع آخرون فيها حتى وضَعوا كتابَ الحِيَلِ فى الخلاصِ مِن الأيْمانِ ، وصدَّروه بهذه الآيةِ الكريمةِ ، وأَتَوْا فيه بأشياءَ من العجائبِ والغرائبِ ، وسنَذكرُ طَرَفًا مِن ذلك فى كتابِ الأحكامِ عندَ الوصولِ إليه ، إن شاء اللهُ تعالى .

وقد ذكر ابنُ جَريرٍ[3] وغيرُه مِن علماءِ التاريخِ أن أيوبَ عليه السلامُ لما

---

(1) فى م : « عرضها » .

(2) العِثْكالُ : العِذْقُ من أعذاق النخل الذى يكون فيه الرُّطَبُ . النهاية ٣/١٨٣ ، ٢/٥٠٠ . والشماريخ واحدها شِمْرَاخ ؛ وهو الغُصْنُ .

(3) تاريخ الطبرى ١/٣٢٤ ، ٣٢٥ .

تُوُفِّى كان عمرُه ثلاثًا وتسعين سنةً . وقِيل : إنَّه عاش أكثرَ من ذلك . وقد رَوى ليثٌ ، عن مُجاهدٍ ما معناه أن اللهَ يَحْتَجُّ يومَ القيامةِ بسليمانَ عليه السلامُ على الأغنياءِ ، وبيوسفَ عليه السلامُ على الأَرِقَّاءِ ، وبأيوبَ عليه السلامُ على أهلِ البلاءِ . رواه ابنُ عساكِرَ[1] بمعناه . وأنه أوصَى إلى ولده حَوْمَلٍ ، وقام بالأمرِ بعدَه ولدُه بشرُ بنُ أيوبَ ، وهو الذى يَزعُمُ كثيرٌ من الناسِ أنه ذو الكِفْلِ ، فاللهُ أعلمُ . ومات ابنُه هذا - وكان نبيًّا فيما يَزْعُمون - وكان عمرُه من [١٣٩/١و] السِّنين خمسًا وسبعين . ولنذكُرْ ههنا قصةَ ذِى الكِفْلِ ؛ إذ قال بعضُهم : إنه ابنُ أيوبَ عليهما السلامُ .

(١) تاريخ دمشق ٨٢/١٠ .

وهذه[1] قصةُ ذى الكِفْلِ الذى زعَم قومٌ أنه ابنُ أيوبَ عليه السلامُ

قال اللهُ تعالى[2] ، بعدَ قصةِ أيوبَ ، فى سورةِ « الأنبياءِ » : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥ ، ٨٦] . وقال تعالى[3] ، بعدَ قصةِ أيوبَ أيضًا ، فى سورةِ « صٓ » : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ * وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [صٓ : ٤٥ - ٤٨] . فالظاهرُ من ذكرِه فى القرآنِ العظيمِ بالثناءِ عليه ، مقرونًا مع هؤلاء السادةِ الأنبياءِ ، أنه نبىٌّ عليه مِن ربِّه الصلاةُ والسلامُ ، وهذا هو المشهورُ . وقد زعَم آخرون أنه لم يكنْ نبيًّا ، وإنما كان رجلًا صالحًا ، وحَكَمًا مُقسِطًا عادلًا . وتوقَّف ابنُ جَريرٍ[4] فى ذلك ، فاللهُ أعلمُ . وروَى ابنُ جُرَيْجٍ وابنُ أبى نَجِيحٍ ، عن مُجاهدٍ ، أنه لم يكنْ نبيًّا ، وإنما كان رجلًا صالحًا ، وكان قد تكفَّلَ لنبىٍّ قومِه أن يَكْفيَه أمْرَهم ويَقضِىَ بينَهم بالعدلِ ، ففعَل[5] ،

---

(١) زيادة من : الأصل ، ح .

(٢) التفسير ٣٥٧/٥ .

(٣) التفسير ٦٦/٧ .

(٤) تفسير الطبرى ٧٣/١٧ .

(٥) زيادة من : ص .

فسُمِّىَ ذا الكِفْلِ . وروى ابنُ جريرٍ[1] ، وابنُ أبى حاتمٍ ، من طريقِ داودَ ابنِ أبى هندٍ ، عن مُجاهدٍ ، أنه قال : لما كَبِرَ اليَسَعُ قال : لو أنِّى استخلَفتُ رجلًا على الناسِ يَعملُ عليهم فى حياتى ، حتى أَنظُرَ كيف يَعملُ . فجمَع الناسَ ، فقال : مَن يَتقبَّلْ لى بثلاثٍ أَستخلِفْه ؛ يَصومُ النهارَ ، ويَقومُ الليلَ ، ولا يَغضبُ ؟ قال : فقام رجلٌ تَزْدَرِيه العينُ فقال : أنا . فقال : أنت تَصومُ النهارَ ، وتقومُ الليلَ ، ولا تَغضبُ ؟ قال : نعم . قال : فرَدَّهم ذلك اليومَ ، وقال مثلَها اليومَ الآخرَ ، فسكَتَ الناسُ وقام ذلك الرجلُ . فقال : أنا . فاستَخْلَفَه . قال : فجعَل إبليسُ يقولُ للشياطينِ : عليكم بفلانٍ . فأعْياهم ذلك ، فقال : دَعُونى وإيَّاه . فأتاه فى صورةِ شيخٍ كبيرٍ فقيرٍ ، وأتاه حينَ أخَذ مَضْجَعَه للقائلةِ ، وكان لا يَنامُ الليلَ والنهارَ إلا تلكَ النَّومةَ ، فدَقَّ البابَ ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ . قال : فقام ، ففتَح البابَ ، فجعَل يَقُصُّ عليه ؛ فقال : إن بينى وبينَ قومى خصومةً ، وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا . (2وجعل يُطَوِّلُ عليه2) ، حتى حضَر الرَّوَاحُ وذهبَت القائِلةُ . وقال : إذا رُحْتُ فأْتِنى آخُذْ لك بحقِّك . فانطَلَق وراح ، فكان فى مَجْلِسِه ، فجعَل يَنظرُ هل يرى الشيخَ ، فلم يَرَه ، فقام يَتْبَعُه ، فلما كان الغدُ جعَل يَقضِى بينَ الناسِ ، ويَنتظرُه فلا يراه ، فلما رجَع إلى القائلةِ فأخَذ مَضْجَعَه ، أتاه فدقَّ البابَ ، فقال : مَن هذا ؟ فقال : الشيخُ الكبيرُ المظلومُ . ففتَح له ، فقال : ألم أقُلْ لك : إذا قعَدتُ فأتِنى ؟ فقال : إنهم أخبثُ قومٍ ، إذا عرَفوا أنَّك قاعدٌ قالوا : نحن نُعطيك حقَّك . وإذا قمتَ جحَدونى . قال : [١٣٩/١ظ] فانطَلِقْ ، فإذا رحتُ فأْتِنى . قال : ففاتَتْه القائلةُ ، فراح فجعَل يَنتَظِرُ فلا يَراه ، وشقَّ

---

(١) تفسير الطبرى ٧٤/١٧ ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٣٣١/٤ . وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢ - ٢) سقط من : ح ، م .

عليه النُّعاسُ ، فقال لبعضِ أهلِه : لا تَدَعَنَّ أحدًا يَقرُبُ هذا البابَ حتى أنامَ ، فإني قد شقَّ عليَّ النومُ . فلما كان تلك الساعةَ جاء ، فقال له الرجلُ : وراءَك وراءَك . فقال : إني قد أتيتُه أمْسِ فذكرتُ له أمرى . فقال : لا ، واللهِ لقد أَمَرنا أنْ لا نَدَعَ أحدًا يَقْرُبُه . فلما أعياه ، نظَر فرأى كُوَّةً فى البيتِ ، فتسَوَّرَ منها فإذا هو فى البيتِ ، وإذا هو يدُقُّ البابَ مِن داخلٍ . قال : فاستيقظ الرجلُ ، فقال : يا فلانُ ، ألم آمُرْك ؟ قال : أمَّا مِن قِبَلِى ، واللهِ لم تُؤْتَ ، فانظُرْ مِن أين أُتِيتَ ؟ قال : فقام إلى البابِ ، فإذا هو مُغلَقٌ كما أغلَقه ، وإذا الرجلُ معه فى البيتِ ، فعرَفه ، فقال : أعدوَّ اللهِ ؟ قال : نعم ، أَعْيَيْتَنى فى كلِّ شيءٍ ، ففعلتُ ما تَرى لأُغضِبَك . فسمَّاه اللهُ ذا الكِفْلِ ؛ لأنه تكفَّلَ بأمرٍ فوفَّى به .

وقد روَى ابنُ أبى حاتمٍ[1] أيضًا عن ابنِ عباسٍ قريبًا من هذا السياقِ . وهكذا رُوِى عن عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ ، ومحمدِ بنِ قيسٍ ، وابنِ حُجَيْرةَ الأكبرِ ، وغيرِهم من السلفِ نحوُ هذا[2] . وقال ابنُ أبى حاتمٍ : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الجَماهِرِ ، أنبأنا سعيدُ بنُ بشيرٍ ، حدثنا قَتادةُ ، عن كِنَانَةَ بنِ الأَخْنَسِ ، قال : سمعتُ الأشعريَّ - يعنى أبا موسى - رضى اللهُ عنه وهو على هذا المِنبرِ يقولُ : ما كان ذو الكِفلِ نبيًّا ، ولكن كان رجلًا صالحًا يصلِّى كلَّ يومٍ مائةَ صلاةٍ ، فتكفَّلَ له ذو الكفلِ مِن بعدِه ، يُصلِّى كلَّ يومٍ مائةَ صلاةٍ ، فسُمِّىَ ذا الكِفْلِ . ورواه ابنُ جَريرٍ[3] ، مِن طريقِ عبدِ الرَّزَّاقِ ، عن مَعْمَرٍ ، عن قَتادةَ ، قال : قال أبو موسى الأشعريُّ . فذكَره منقطِعًا .

---

(١) التفسير ٣٥٨/٥ ، ٣٥٩ . وعزاه فى الدر المنثور ٣٣١/٤ إلى ابن أبى حاتم .
(٢) تفسير الطبرى ٧٣/١٧ - ٧٥ .
(٣) تفسير الطبرى ٧٥/١٧ ، ٧٦ .

فأما الحديثُ الذى رواه الإمامُ أحمدُ[1] : حدثنا أسباطُ بنُ محمدٍ ، حدثنا الأعمشُ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ ، عن سعدٍ مَوْلَى طلحةَ ، عن ابنِ عُمَرَ ، قال : سمعتُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا لو لم أَسْمَعْه إلا مرةً أو مرتين - حتى عَدَّ سبعَ مِرَارٍ - ولكنْ قد سمِعتُه أكثرَ مِن ذلك ، قال : « كان الكِفْلُ مِن بنى إسرائيلَ ، لا يَتورَّعُ من ذنبٍ عَمِله ، فأَتَتْه امرأةٌ فأعطاها ستين دينارًا على أن يَطَأَها ، فلما قعَد منها مَقْعَدَ الرجُلِ مِن امرأتِه أُرْعِدَتْ وبكَتْ ، فقال لها : ما يُبْكيكِ ؟ أَكْرَهْتُكِ ؟ قالت : لا ، ولكنْ هذا عملٌ لم أَعمَلْه قَطُّ ، وإنما حمَلَتْنى عليه الحاجةُ . قال : فتفعلين هذا و لم تفعليه قَطُّ ؟ ثم نزَل فقال : اذهبى بالدنانيرِ لك . ثم قال : واللهِ لا يَعْصِى اللهَ الكفلُ أبدًا . فمات مِن ليلتِه ، فأصبَح مكتوبًا على بابِه : قد غفَر اللهُ للكِفْلِ » . ورواه الترمذىُّ[2] مِن حديثِ [١/١٤٠و] الأعمشِ به ، وقال : حسنٌ . وذكَر أن بعضَهم رواه فوقَفه على ابنِ عُمَرَ ، فهو حديثٌ غريبٌ جدًّا ، وفى إسنادِه نَظَرٌ ، فإن سَعْدًا هذا ، قال أبو حاتمٍ : لا أَعرِفُه إلا بحديثٍ واحدٍ . ووثَّقه ابنُ حِبَّانَ . و لم يَرْوِ عنه سوى عبدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ الرازىِّ هذا . فاللهُ أعلمُ . [3]وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكِفْلِ ، وإنما لفظُ الحديثِ « الكِفلُ » من غير إضافةٍ ، فهو رجلٌ آخرُ غيرُ المذكورِ فى القرآنِ الكريمِ . واللهُ أعلمُ بالصوابِ[3] .

---

(١) المسند ٢/٢٣ ، إسناده صحيح .

(٢) الترمذى (٢٤٩٦) ، (ضعيف الترمذى ٤٤٨) .

(٣ - ٣) سقط من : م .

فهـــرس

الجزء الأول من البداية والنهاية

تم بحمد الله وتوفيقه الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى ، وأوله :

باب ذكر أمم أُهلِكوا بعامَّة

رقم الإيداع ١٩٩٧/٤٤٦٩ م
I.S.B.N : 977 – 256 – 145 – X

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر – المهندسين – جيزة
☎ ٣٤٥٢٥٧٩ – فاكس ٣٤٥١٧٥٦
المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل
أرض اللواء – ☎ ٣٤٥٢٩٦٣
ص . ب ٦٣ إمبابة